واقع الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن

الملك عبد العزيز آل سعود

أ. د. سالم بن محمد السالم

مكتبة الملك عبد العزيز العامة
الرياض ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

واقع الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز آل سعود

أ. د. سالم بن محمد السالم

دراسة أعدت بتكليف من

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

صدرت بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

الرياض ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

ⓒ مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السالم، سالم بن محمد

واقع الضبط الببليوجرافي للانتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز آل سعود .-الرياض.

٢٧٣ ص ؛ ٢٤×١٧ سم

ردمك ٤-٤٠-٦٢٤-٩٩٦٠

١ - الضبط الببليوجرافي-السعودية ٢- عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود-ببليوجرافيات ٣ ـ السعودية - ببليوجرافيات أ-العنوان

ديوي ٣٠٥٣١، ٢٥. ١٩/٢٠٢٧

رقم الإيداع : ١٩/٢٠٢٧

ردمك : ٤-٤٠-٦٢٤-٩٩٦٠

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لمكتبة الملك عبد العزيز العامة

الرياض ١٤١٩هـ

ص.ب: ٨٦٤٨٦ الرياض ١١٦٢٢ ـ هاتف: ٤٩١١٣٠٠

ناسوخ: ٤٩١١٩٤٩ ـ برقياً: ٤٠٦٤٤٤


بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

الحمد الله على نعمة التوحيد والوحدة ، والشكر للمولى عز وجل على شرف حمل رسالة نبي الأمة ، وخدمة أقدس بقعتين على وجه الأرض ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كانت هذه الأمّة ـ ومازالت ـ تضرب بجذورها في أعماق التاريخ الإنساني بعد ما تشرفت بهبوط الرسالة الإسلامية على أرضها الطاهرة ، لتنير ظلام العالم وتبدد جهالته ، تنجب الرجال الأفذاذ على مدار التاريخ ، فخرج من صلب أرض الجزيرة العربية ، من قيضهم الله تعالى ، ليعيدوا لهذه البلاد الغالية مجدها وسؤددها ويدخلوها التاريخ الحديث بعد قرون من التنازع والتناحر والفرقة وانتشار الخوف على النفس والعرض والمال ؛ فكان الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ـ طيب الله ثراه ـ الذي حقق فيها ما يشبه المعجزات في فترة زمنية محدودة ، حينما زاوج بين الماضي والحاضر ، في أسلوب عزَّ أن يكون له مثيل في العالم ، وأصبحت إنجازاته ـ طيب الله ثراه ـ دينًا على عاتق أجيال هذه الأمة حاضرًا ومستقبلاً .

انطلقت مسيرة التوحيد المظفرة في الخامس من شهر شوال عام ١٣١٩هـ ؛ لتتوالى مسيرة الوحدة والبناء لهذه البلاد . والآن وبعد مسيرة المائة عام والتي نحتفي بها جميعًا ؛ تخليدًا لذكرى استرجاع الملك المؤسس عبدالعزيز آل سعود ـ طيب الله ثراه ـ لمدينة الرياض ، والإعلان عن هذه الانطلاقة المظفرة والميمونة

الجزيرة العربية في وحدة عظيمة لا مثيل لها في العصر الحديث؛ وتقديراً لما تحقق من انجازات عظيمة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد ابن عبدالعزيز ـ حفظه الله ، فإن مكتبة الملك عبدالعزيز العامة والتي تشرفت بحمل اسم الملك المؤسس والتي أنجزها ورعاها بخيره وبره صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ، ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ، رئيس الحرس الوطني والرئيس الأعلى لمجلس إدارة المكتبة ـ حفظه الله ـ تشارك في هذه المناسبة الغالية علينا جميعًا بمجموعة من المشاريع العلمية والتوثيقية لتاريخ الملك المؤسس ـ طيب الله ثراه ، حيث يأتي كتاب (**واقع الضبط الببليوجرافي للانتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز آل سعود**) ترجمة صادقة لاهتمام المكتبة بدعم ومساندة الدراسات التي تخدم تاريخ الملك عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه ـ وتاريخ المملكة العربية السعودية وتراثها الوطني .

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل .

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

شكر وتقدير

لقد كان لأشخاص عديدين الفضل في إنجاز هذا العمل العلمي وإنجاحه وإخراجه بصورته الحالية إلى عالم الوجود . وأخص بالثناء والشكر والتقدير سعادة الأستاذ الفاضل فيصل بن عبدالرحمن المعمر وكيل الحرس الوطني للشؤون الثقافية والتعليمية والمشرف العام على مكتبة الملك عبدالعزيز العامة الذي رحب بمشروع الدراسة منذ أن كان فكرة ، وكان سعيداً بأن تقوم المكتبة بدعم المشروع والإشراف عليه . والشكر موصول لسعادة الدكتور عبدالكريم بن عبدالرحمن الزيد نائب المشرف على مكتبة الملك عبدالعزيز العامة الذي تابع بنفسه خطوات المشروع ومراحله إلى أن خرج بشكله النهائي ، وكان له فضل الدفع بالمشروع إلى الأمام والمساعدة في الحصول على المعلومات الضرورية ، كما كان لأفكاره ومقترحاته القيّمة خير عون في إنجاز العمل في الوقت المحدد له .

ولا يفوتني أيضاً أن أشكر جميع العاملين في مكتبة الملك عبدالعزيز العامة الذين أسهموا بشكل أو بآخر في تزويد الباحث بالبيانات الضرورية التي ساعدت على إتمام الدراسة وفي مقدمتهم الأستاذ فهد العبدالكريم المسؤول عن قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز ، والأستاذ عاطف عبيد المسؤول عن القسم العربي للقاعدة ، والأستاذ رياض شودري المسؤول عن القسم الأجنبي للقاعدة نفسها .

ولابد أيضاً من كلمة شكر تقال بحق المسؤولين عن بعض المؤسسات المهتمة بالضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز الذين ساندوا مشروع الدراسة ، وأمدوا الباحث بما يحتاجه من معلومات ، وقاموا بالإجابة على أسئلة

المقابلات الشخصية مما ساعد على إنجاز العمل في صورته الحالية . وأخص بالشكر المسؤولين عن المصادر المتعلقة بتاريخ المملكة في كل من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وجامعة الملك سعود ، ومعهد الإدارة العامة ، ودارة الملك عبدالعزيز .

وأقدم في الختام فائق الثناء والتقدير لبعض الأساتذة والخبراء في مصادر تاريخ الملك عبدالعزيز الذين لم يبخلوا عليّ بمقترحاتهم مثل الدكتور فهد السماري والدكتور محمد النويصر وغيرهم ممن لا تحضرني اسماؤهم في هذه اللحظة .

والله ولي التوفيق ، ، ،

أ . د . سالم بن محمد السالم
الرياض في : ١٤ صفر ١٤١٩هـ
الموافق ٨ يونيه ١٩٩٨م

التقديم

تمثل الشخصيات العظيمة مصدر فخر واعتزاز للأمم تحرص على حفظ تاريخها وجعله في متناول الأجيال القادمة . والملك عبدالعزيز شخصية عظيمة ، وقيادة فذة كثرت الكتابات عنها مما أوجب على الأفراد والمؤسسات المعنية بتاريخ هذه الشخصية رصد وتوثيق ما صدر عنها من أوعية معلومات على شكل ببليوجرافيات وفهارس وأدلة وقواعد محسبة، وغيرها من أدوات استرجاع المعلومات ، أو كما يسميها البعض أدوات الضبط الببليوجرافي أو الحصر الوراقي .

من هنا انطلقت فكرة هذه الدراسة التي تسعى إلى التعرف على واقع الضبط الببليوجرافي للأدبيات التي تناولت تاريخ الملك عبدالعزيز آل سعود ، أو تاريخ المملكة وما حدث بها من تطورات في عهده ، وذلك من خلال توضيح مفهوم الضبط الببليوجرافي وطبيعته وأبعاده ، وإعطاء نبذة مختصرة عن الملك عبدالعزيز بوصفه موضوع الدراسة ، وعرض وتقويم الجهود الفردية والمؤسساتية السابقة ، وتقصي أبرز المشكلات التي تواجه الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري المتعلق بالملك عبدالعزيز ، وطرح بعض المقترحات والتوصيات التي يؤمل أن تسهم في تعزيز الوضع الراهن للضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز وتحسينه والرقي به إلى المستوى المأمول .

ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة إذ تصدر هذا العمل العلمي فهي تنطلق من إحساسها بالدور الملقى على عاتقها بوصفها مكتبة عامة ، وأيضاً بوصفها مسؤولة

عن الاهتمام بالتراث الوطني ، وتتشرف بحمل اسم الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ موحد المملكة وباني نهضتها . ويأتي هذا العمل تكملة لمنظومة توثيق تاريخ المملكة وتحقيقه التي تسعى المكتبة جاهدة إلى القيام به من خلال مشروعات عديدة من بينها إيجاد قاعة خاصة بالملك عبدالعزيز ، وتصميم قاعدة معلومات متخصصة بما صدر من إنتاج فكري عن المملكة في عهد الملك عبدالعزيز ، ودعم البحوث والدراسات التي تخدم المجال ، ونحو ذلك من المشروعات التي تدعم رسالة المكتبة وهدفها المتمثل في تحقيق التاريخ الوطني وتوثيقه .

والمملكة العربية السعودية وهي تتوق نحو الاحتفال بالذكرى المئوية لتأسيس المملكة ، فإن المكتبة تتشرف بالإسهام العلمي في هذه المناسبة من خلال هذا المشروع وغيره من المشروعات العلمية الأخرى . ويؤمل أن يكون هذا العمل بداية جادة للإسهامات العلمية في الضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز وتوثيقه ، وأن يتلوه إسهامات علمية أخرى أكثر عمقاً وشمولية .

ويتكون مسار الدراسة الحالية من مجموعة من المحاور الرئيسة التي تشتمل بدورها على عدة محاور فرعية وذلك على النحو التالي :

١ – المحور الأول : المدخل إلى الدراسة

يتناول هذا المحور موضوع الدراسة ، وهدفها ، وأهميتها ، ومنهجيتها وإجراءاتها ، والتعريف بأهم مصطلحاتها .

٢ – المحور الثاني : نبذة موجزة عن الملك عبدالعزيز آل سعود ـ رحمه الله ـ

يعطي هذا المحور لمحة موجزة عن تاريخ الملك عبدالعزيز رحمه الله وسيرته وشخصيته وكفاحه المرير في توحيد أجزاء المملكة ووضع دعائم الدولة الحديثة .

٣ - المحور الثالث : الجهود الببليوجرافية السابقة

يعالج هذا المحور الخلفية العلمية لمجال الضبط الببليوجرافي ، والتنظير لمفهوم المجال وطبيعته ، والتطورات التي مر بها . ويركز على إبراز جهود الأفراد والمؤسسات في توثيق تاريخ الملك عبدالعزيز والمحاولات المبذولة لحصره وضبطه .

٤ - المحور الرابع : الممارسات الببليوجرافية الراهنة

يكشف هذا المحور النقاب عن بعض نماذج الممارسات الحالية الرامية إلى ضبط تاريخ الملك عبدالعزيز مع التركيز على قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز التي تعد مرصداً ببليوجرافياً قائماً على توظيف التقنية في الضبط الببليوجرافي ، وتمثل في الوقت نفسه أنموذجاً يمكن أن تحتذي به المؤسسات الأخرى المعنية بتحقيق تاريخ المملكة .

٥ - المحور الخامس : النتائج والتوصيات

يلخص هذا المحور الأخير أبرز ما توصلت إليه الدراسة من نتائج ، ويسرد مجموعة من المشكلات والصعوبات التي لا تزال تقف حجر عثرة في سبيل تطوير مجال الضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز ، ثم يطرح بعض التوصيات التي يرى الباحث أن تعطى أولوية في التنفيذ، ويختتم ذلك بأهم المقترحات للمشروعات العلمية المستقبلية التي يؤمل أن تجد اهتماماً من لدن الباحثين في المستقبل .

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
شكر وتقدير	٧
التقديم	٩
قائمة المحتويات	١٣
قائمة الجداول	١٧
الفصل الأول : المدخل إلى الدراسة	
مقدمة	٢١
مشكلة الدراسة	٢٣
أهداف الدراسة	٢٥
أسئلة الدراسة	٢٦
أهمية الدراسة	٢٧
المنهجية والإجراءات	٢٩
التعريف بمصطلحات الدراسة	٣١
الفصل الثاني : نبذة موجزة عن الملك عبدالعزيز	
مقدمة	٣٩
نسب الملك عبدالعزيز ومولده	٤٠
نشأة الملك عبدالعزيز وتربيته	٤٠
فتح الملك عبدالعزيز للرياض	٤٢
توحيد الملك عبدالعزيز لبقية مدن المنطقة الوسطى	٤٣
جهود الملك عبدالعزيز في تطوير المجتمع وتوطين البادية	٤٤
توحيد الملك عبدالعزيز لمدن الحجاز	٤٦
إرساء الملك عبدالعزيز لدعائم الدولة الحديثة	٤٦

الملك عبدالعزيز من منظور عالمي ٤٩
وفاة الملك عبدالعزيز ٥٤

الفصل الثالث : الجهود الببليوجرافية السابقة

مقدمة ٦١
مفهوم الضبط الببليوجرافي وماهيته ٦١
الخلفية التاريخية لظاهرة الضبط الببليوجرافي ٧١
أدوات الضبط الببليوجرافي ٧٩
الركائز الفنية للضبط الببليوجرافي ٨٤
الجهود الببليوجرافية السابقة ٨٨
نماذج للجهود الببليوجرافية السابقة ٨٩
أولاً : الجهود العربية ٨٩
. ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني ٩٠
. ببليوجرافية شكري العناني ٩١
. دراسة عبدالفتاح أبوعلية (مقالة) ٩٣
. دراسة عبدالفتاح أبوعلية (كتاب) ٩٣
. قائمة دارة الملك عبدالعزيز ٩٤
. ببليوجرافية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ٩٦
. قائمة محمد الحمدان ٩٨
. فهرس جامعة الملك سعود ١٠٠
. فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ١٠١
. ببليوجرافية فهد السماري ١٠٣
. قائمة فيحان العتيبي ١٠٥
. كشاف عبدالله الحقيل ١٠٦

ثانياً : الجهود الأجنبية ١٠٧
. قائمة مكتبة الكونجرس ١٠٨
. ببليوجرافية استيفن وكنج ١٠٩
. ببليوجرافية فاسيلف ١١٢
. ببليوجرافية فرانك كليمنتس ١١٣
. ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس ١١٤
. مناقشة الجهود السابقة ١١٥
. تقويم الجهود السابقة ١١٧
. ملحوظة ختامية ١٧٨

الفصل الرابع : الممارسات الببليوجرافية الراهنة

مقدمة ١٨٥
أولاً : مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ١٨٥
ثانياً : دارة الملك عبدالعزيز ١٨٨
ثالثاً : مكتبة الملك فهد الوطنية ١٩٠
رابعاً : جامعة الملك سعود ١٩٣
خامساً : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٩٤
سادساً : معهد الإدارة العامة ١٩٦
سابعاً : مؤسسات وهيئات أخرى ١٩٨
قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز أنموذجاً ٢٠٦

الفصل الخامس : الخاتمة

مقدمة ٢٣٧
ملخص النتائج ٢٤١
الصعوبات والمشكلات ٢٤٥

المقترحات والتوصيات ٢٥٢
مقترحات للدراسات المستقبلية ٢٥٦

قائمة المراجع

أولاً : المراجع العربية ٢٦١
ثانياً : المراجع الإنجليزية ٢٦٨

قائمة الجداول

رقم الجدول	عنوانه	الصفحة
١	بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقاً للقائم بالإعداد	١٢٠
٢	بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقاً لسنوات النشر	١٢٨
٣	بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقاً لشكل الإصدار	١٣٠
٤	بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقاً لوضوح الحاجة والهدف	١٣٤
٥	بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقاً لوضوح الرؤية المنهجية	١٣٦
٦	بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقاً لمجال التغطية الزمنية	١٤١
٧	بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقاً لمجال التغطية المكانية	١٤٦
٨	بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقاً لمجال التغطية اللغوية	١٤٨
٩	بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقاً لمجال التغطية الوعائية	١٥٢
١٠	بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقاً لمجال التغطية الموضوعية	١٥٦
١١	بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقاً لمبدأ التجميع	١٥٩
١٢	بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقاً لطبيعة المصادر المعتمدة في تجميع المادة العلمية	١٦٣
١٣	بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقاً لمستوى المعالجة الفنية	١٦٦
١٤	بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقاً لنظام الترتيب المستخدم	١٧٣
١٥	بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقاً لحجم المادة العلمية	١٧٦
١٦	بيان بحجم مجموعات قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز	٢١٥

الفصل الأول

المدخل إلى الدراسة

مقدمة :

تعد قضية تخزين المعلومات وتنظيمها وتحليلها واسترجاعها - أو ما يعرف اختصاراً بالضبط الببليوجرافي - من أكثر القضايا أهمية في الوقت الراهن الذي يشهد تضخماً في إنتاج المعلومات ونشرها بمختلف أشكال الأوعية ، وفي مختلف لغات العالم . فلم يعد الكتاب حالياً هو الوعاء الوحيد المتاح للقارىء - كما كان الحال من قبل - بل أصبحت تنافسه أوعية كثيرة من مقالات ونشرات وتقارير وأعمال الندوات والمؤتمرات والرسائل الجامعية والأفلام والأشرطة والأقراص المضغوطة ونحوها . الأمر الذي يوحي بالحاجة إلى أدوات أو وسائل للسيطرة على ظاهرة تفجر المعلومات التي أصبحت تزداد حدتها يوماً بعد آخر ، وتظهر على السطح بشكل بارز .

إضافة إلى أن كثيراً من الدول قد أخذت في تشجيع حركة البحث العلمي والنشر ، ودفعها إلى الأمام . فلم تعد لغات النشر العالمية تقتصر على الإنجليزية والفرنسية والألمانية - كما كان الحال من قبل - بل إنها حسب دراسة أعدها محمد عبدالهادي تجاوزت الثلاثين لغة ، وبعضها (مثل اللغة الروسية) قد تفوق على الفرنسية والألمانية في بعض الحقول العلمية (عبدالهادي : ١٩٨٢ ، ص : ١٢٠) .

علاوة على أن المجالات الموضوعية نفسها تضخمت وتعقدت ، وزاد ما بينها من تداخل وتشابك مما جعل الإفادة منها بحاجة إلى وسائل تعين على تجهيزها وتقديمها للمستفيدين . وصاحب ذلك تعقيداً في احتياجات الباحثين الذين لم يعد لديهم الوقت الكافي للبحث عن المعلومة بالطرق التقليدية . بل إنهم أصبحوا بأمس الحاجة إلى من يوفر عليهم الوقت والجهد والمال ، ويضع المعلومة المناسبة أمامهم في الوقت المناسب وبالشكل المناسب . وهذا يعني أن المستفيد أصبح يهمه الوقت بالدرجة الأولى ، وأصبح بحاجة إلى من يربطه بمختلف الأوعية التي تناولت موضوعه .

فإذا أضفنا إلى ما سبق أن العلم تراكمي ، وأن الباحث يبدأ من حيث انتهى الآخرون ؛ لاتضح لنا الأهمية الملقاة على عاتق الموثّقين والمكتبيين واختصاصي المعلومات وخبراء الضبط الببليوجرافي الذين يعملون على تجهيز المعلومة ، ووضعها بين يدي المستفيد أينما كان . ذلك أن المعلومات متوافرة في مصادر عديدة وتحيط بالمستفيد من كل جانب ، بيد أن المشكلة تكمن في التعرف على تلك المصادر ، وهو ما ترمي إلى تحقيقه أدوات الضبط الببليوجرافي .

إن توثيق التاريخ الوطني للأمة يأتي في مقدمة اهتماماتها ، وتولي جميع الأمم هذا الجانب أهمية مميزة . وفي عصر المعلومات الذي نعيشه الآن تزايدت الحاجة إلى توثيق التراث الوطني ، وأصبحت المسؤولية ملقاة على الهيئات المتخصصة ، ومراكز البحوث والتوثيق ، وأقسام التاريخ في الجامعات ، ومؤسسات المعلومات ذات الاهتمام بالمجال التي يفترض أن يكون لها دور فاعل في عملية الرصد والتوثيق والتحليل للإنتاج الفكري .

أما فيما يتعلق بأهمية الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري المتعلق بتاريخ الملك عبدالعزيز ـ موضوع الدراسة الحالية ـ على وجه الخصوص فهي في غنى عن التوضيح . ومن حسن الطالع أن الملك عبدالعزيز من بين الموضوعات التي حظيت بالضبط الببليوجرافي من جانب عدد من الأفراد والمؤسسات كما ستكشف عن ذلك الصفحات اللاحقة . وهو أمر ليس بمستغرب إذا أخذ في الحسبان أنه ـ يرحمه الله ـ يمثل شخصية عالمية فرضت نفسها ، وأسست دولة ، ووحدت أمة ، ولمت الشمل ، وأعادت ملك الآباء والأجداد . وشخصية بهذه المواصفات تستحق أن تتمحور حولها المشروعات العلمية الببليوجرافية والتوثيقية ، وأن تكون موضوعًا لهذه الدراسة وأمثالها من دراسات الضبط الببليوجرافي .

مشكلة الدراسة :

لقد أصبح الباحث في الوقت الراهن يواجه صعوبات جمة في التعرف على الزخم الهائل من مصادر المعلومات في مختلف فروع المعرفة البشرية ، بل إن المكتبات نفسها ومؤسسات المعلومات أصبحت عاجزة عن السيطرة على جميع المواد الصادرة حتى في مجال واحد من مجالات المعرفة . من هنا برزت الحاجة الملحة إلى الاهتمام بقضية الضبط الببليوجرافي ؛ ذلك أن هذه القضية تمثل ضرورة وطنية وإقليمية وعالمية ، وقد أخذت المنظمات والجمعيات الثقافية والمكتبية الدولية تهتم بهذا الموضوع الحيوي والمهم منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية بغرض القضاء على مشكلات الحصول على مصادر المعرفة والوصول إلى تحقيق الهدف الإنساني الأسمى وهو الضبط الببليوجرافي على نطاق العالم بأسره (جان : ١٤٠٤ ، ١) .

إن إتاحة المعلومات على المستوى العالمي UNIVERSAL AVAILABILITY OF PUBLICATIONS وضمان تدفق المعلومات وضبطها عالمياً UNIVERSAL BIBLIOGRAPHIC CONTROL قضية تعتمد أساساًعلى الجهود والأعمال المحلية التي تتناول مختلف الاهتمامات والتخصصات . إذ بدون ضبط الأوعية وحصرها من الصعب بل قد يكون من المستحيل الوصول إليها بالنظر إلى ما تلفظه المطابع يومياً من آلاف الكتب (LINE: 1984, 46) .

بيد أن نظام الضبط للإنتاج الفكري العربي قاصر لعوامل عديدة من بينها : غياب الوعي بأهمية العمل الببليوجرافي ، وغياب المكتبات الوطنية ـ في بعض الدول العربية ـ والمرافق والتجهيزات والنظم التي تدعم دور تلك المكتبات ، وعدم توظيف التقنية بالشكل المطلوب . ولاشك أن غياب الضبط والتوثيق يؤدي إلى غياب الدور الفاعل للإنتاج العربي على المستويات المحلية والإقليمية والدولية ،

وتكرار الجهود العلمية ، فضلاً عن التزوير والانتحال والسرقات العلمية ، الأمر الذي يوحي بأن غالبية الجهد العلمي العربي ضائع في خضم الفوضى الببليوجرافية (قاسم : ١٩٩٤ ، ص: ٢٣) .

وفي ضوء الحقائق السابقة فإن التاريخ يشكل أحد الموضوعات التي تهم قطاعاً كبيراً من المستفيدين . وتزداد تلك الأهمية إذا كان الأمر يتعلق بتاريخ الوطن وبرجاله الأفذاذ . وقد شهد تاريخ الملك عبدالعزيز زيادة ملحوظة في الإنتاج الفكري في الآونة الأخيرة وتشعبت مجالات البحث والدراسة المتعلقة بهذا التاريخ وتوسعت الاهتمامات والاتجاهات . ومن بين العوامل التي تقف وراء هذا التوسع زيادة عدد المهتمين بالمجال ، والتوسع في برامج الدراسات العليا ، وزيادة حجم ما ينشر من بحوث ودراسات تتناول تاريخ الملك عبدالعزيز والمملكة في عهده ، وتشجيع المؤسسات على التأليف ، واهتمام الدولة بتاريخها وبرجالها العظماء ، كما كان لإنشاء دارة الملك عبدالعزيز وغيرها من المرافق الحيوية أكبر الأثر في إثراء الإنتاجية العلمية في المجال وفي خدمة تاريخ المملكة .

وقد تمخض عن هذا كله إنتاج فكري يتزايد يوماً بعد آخر وبشكل واضح للعيان ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى حصره وضبطه والتعريف به وتقديمه للباحثين والدارسين والطلبة والأساتذة والمؤرخين وجميع المهتمين بالتاريخ داخل المملكة وخارجها . وبعبارة أخرى فقد أصبحت الحاجة ماسة إلى السيطرة الببليوجرافية أو الضبط الببليوجرافي BIBLIOGRAPHICAL CONTROL لما صدر من أدبيات في الموضوع .

لقد شهدت الساحة ـ ولا تزال تشهد ـ ظهور نماذج من النشاطات الببليوجرافية التي قام بها بعض الأفراد والمؤسسات ، وتمثل تلك النماذج محاولات رائدة لحصر ما صدر من أدبيات عن تاريخ الملك عبدالعزيز . ومن المهم أن نتعرف على

تلك النماذج ، ونقف على كل واحد منها وقفة متأنية بهدف تقويمها ، وتقصي ما تتسم به من نقاط القوة ومواطن الضعف ، والكشف عن مدى إسهامها في دفع حركة الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز في الوقت الراهن ، وهو ما ترمي الدراسة الحالية إلى تحقيقه .

أهداف الدراسة :

تسعى الدراسة الحالية إلى التعرف على واقع الضبط الببليوجرافي للأدبيات التي تناولت تاريخ الملك عبدالعزيز ، أو تاريخ المملكة ، وما حدث بها من تطورات في عهده ، والكشف عن المحاولات المبذولة على مستوى الأفراد والمؤسسات لتوثيق تاريخ المملكة ، مع التركيز على قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز التي اكتملت بنيتها الأساسية وأصبحت في حاجة إلى كشف النقاب عنها وتقديمها للآخرين بوصفها أنموذجًا للممارسات الحالية في هذا المجال .

ويمكن تحقيق هذا الهدف الرئيس من خلال مجموعة أهداف فرعية تتمثل في الآتي :

١ ـ توضيح مفهوم الضبط الببليوجرافي وطبيعته وأبعاده .

٢ ـ تقديم نبذة مختصرة عن الملك عبدالعزيز بوصفه موضوع الدراسة .

٣ ـ عرض وتقويم الجهود الفردية والمؤسساتية السابقة التي أسهمت في الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري المتعلق بالملك عبدالعزيز .

٤ ـ التعريف بالممارسات الببليوجرافية الراهنة التي تتزعمها المؤسسات والتي لا تزال تسهم في دفع حركة الضبط الببليوجرافي في المجال .

٥ ـ التعريف بقاعدة معلومات الملك عبدالعزيز باعتبارها أنموذجاً رائداً في الضبط الببليوجرافي الذي يحكمه استراتيجية تمتاز بوضوح الرؤية . ويتضمن هذا الهدف التعريف بالقاعدة من حيث خلفيتها ، وأهدافها ، وإدارتها ، وبنيتها وتجهيزاتها ، واستراتيجية تنمية موادها ، والمعالجة الفنية لتلك المواد ، وخدمات المستفيدين من القاعدة .

٦ ـ تقصي أبرز المشكلات التي تواجه الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري المتعلق بتاريخ الملك عبدالعزيز .

٧ ـ طرح بعض المقترحات والتوصيات التي يؤمّل أن تسهم في تعزيز الوضع الراهن للضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز ، والتخطيط العلمي السليم لمستقبل الضبط بحيث يبتعد عن الاجتهادات الفردية ويخضع للمعايير العلمية .

والهدف النهائي الذي ترمي إليه الدراسة هو الخروج بمؤشرات عن الوضع الراهن لتوثيق تاريخ المملكة ، وبخاصة ما له علاقة بالملك عبدالعزيز ، مما يساعد المسؤولين والباحثين والمخططين في التعرف على الواقع كما تصوره الدراسة ، وطرح مجموعة من الرؤى والأفكار التي يمكن أن ترقى بالواقع إلى مستوى أفضل مما هو عليه حالياً .

أسئلة الدراسة :

تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن مجموعة من الأسئلة من أهمها ما يلي :

١ ـ ما أبرز المحاولات التي قام بها الأفراد والمؤسسات بغرض الإسهام في الضبط الببليوجرافي لما كتب عن الملك عبدالعزيز ؟

٢ ـ ما أهم جوانب القوة والضعف في تلك المحاولات الفردية والمؤسساتية السابقة؛ من حيث القائم بالإعداد ، وتوقيت الإصدار وشكله ، وتحديد الحاجة والهدف، ووضوح الرؤية المنهجية ، ومجال التغطية الزمنية والمكانية واللغوية والوعائية والموضوعية ، ومبدأ التجميع، وطبيعة المصادر التي تم الاعتماد عليها في تجميع المادة العلمية ، ومستوى المعالجة الفنية ، ونظام التبويب المستخدم ، وحجم المادة العلمية ؟

٣ ـ ما أبرز نماذج المؤسسات التي لا تزال تتزعم الجهود الراهنة للضبط الببليوجرافي لما صدر عن الملك عبدالعزيز من أدبيات ؟

٤ ـ ما أهم الصعوبات والمشكلات التي تواجه جهود الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري المتعلق بتاريخ الملك عبدالعزيز وتعرقل حركة توثيقه .

٥ ـ ما السبل التي يمكن من خلالها التخفيف من حدة تلك المشكلات ، ودفع حركة الضبط الببليوجرافي في المجال خطوة نحو الأمام .

أهمية الدراسة :

يعد الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري على مختلف المستويات وفي مختلف فروع المعرفة البشرية من الموضوعات التي تحظى بأهمية بالغة . وتزداد تلك الأهمية في دول العالم النامي التي لم تصل بعد إلى مرحلة تحقيق الضبط لإنتاجها المتنامي من المطبوعات، وبخاصة إذا أخذ في الحسبان أن تلك الدول تفتقر إلى أدوات الضبط الببليوجرافي وركائزه الأساسية (السالم : ١٤١٧ ، ص : ١٠٠) .

وفي السنوات الأخيرة ازدادت الحاجة إلى الضبط في كافة صوره نظراً لما شهدته تلك السنوات من بروز ظاهرة انفجار المعرفة ، وتضخم أوعية المعلومات بشكل لم يكن معروفاً من قبل . وبالتالي فإن السيطرة على هذا الكم الهائل من الإنتاج الفكري من خلال الضبط الببليوجرافي هو البديل المناسب لحفظ تراث الأمة، وخدمة الباحثين ، وتعزيز نشاطات المشاركة في المصادر وتبادل الخبرات . (Rehman: 1989, 449)

ولا شك أن الضبط الببليوجرافي يشكل سنداً علمياً قوياً للعلماء والباحثين ، وأداة مرجعية مهمة لتوفير الوقت والجهد والمال في البحث عن المصادر المتعلقة بموضوع من الموضوعات . من أجل ذلك اهتمت الدول برصد إنتاجها وتوثيقه ، وجعله في متناول الأجيال القادمة . وكان للعرب والمسلمين اهتمام مميز بالأعمال الببليوجرافية يعود إلى القرن الرابع الهجري الذي شهد ظهور أضخم عمل

ببليوجرافي لجمع التراث وهو (الفهرست) لابن النديم، وتلاه أعمال أخرى لا تقل عنه أهمية وضخامة . ولأن موضوع الضبط الببليوجرافي يمثل موضوعاً خطيراً للغاية فقد عقدت حوله الكثير من الندوات والمؤتمرات التي تعالج مختلف جوانبه مما لا يتسع المقام لذكره في هذه العجالة .

إن قضية الضبط الببليوجرافي تمثل قضية وطنية وحضارية ، الأمر الذي يعني أن القضية ترتبط بالحس الوطني ، وبالمسؤولية أمام الأجيال القادمة . فمن غير المتوقع أن يقوم الآخرون بمهمة توثيق تاريخنا الوطني بينما نقف نحن موقف المتفرج . ومع أن مراصد المعلومات العربية والعالمية قد اهتمت بجميع فروع المعرفة البشرية فإنها قد تركت الموضوعات المحلية لأصحابها بحكم أنهم أدرى بشؤونها ، وأقدر على القيام بها .

ويمثل التاريخ بشكل خاص بؤرة الاهتمام في هذا المضمار ؛ إذ لا قيمة لأمة لا تهتم برجالها ، وتكرم عظمائها ، وتمنحهم ما يستحقون من إجلال وإكبار ، وتبرز كفاحهم في لمّ الشمل ، وتحقيق الوحدة . ومن المتعارف عليه أن الملك عبدالعزيز شخصية عظيمة شغلت الناس في حياتها وبعد مماتها ، وكثرت الكتابات بشأنها ، وتعددت اتجاهاتها وأبعادها ، وتمخض عنها إنتاج فكري غزير أصبح بأمس الحاجة إلى حصره وضبطه والتعريف به .

من هنا تنبع القيمة الحقيقية لهذه المحاولة العلمية التي ترمي إلى توضيح دور الجهود السابقة والحالية في خدمة تاريخ المملكة ، والخروج بمؤشرات تكشف النقاب عن مدى الاعتماد على تلك الجهود في دراسة تاريخ الملك عبدالعزيز . ولعل تلك المؤشرات تبين ما إذا كان هناك حاجة لاستكمال تلك الجهود ، أو إعداد جهود وأدوات ببليوجرافية إضافية ، أو العمل تحت مظلة هيئة وطنية لها

القيادة والريادة في المضمار ، ونحو ذلك من الرؤى والطروحات التي سيكشف عنها الفصل الأخير من فصول الدراسة . ونستطيع أن نستشف مما سبق أن الباحث يعالج موضوعاً حيوياً وجديراً بالبحث والدراسة ، فضلاً عن كونه موضوعاً مهملاً من قبل المؤرخين والمهتمين بتوثيق تاريخ المملكة ، ويشكو من فقر واضح في الأدبيات .

المنهجية والإجراءات :

يمكن تصنيف الدراسة الحالية من الناحية المنهجية على أنها دراسة استطلاعية أولية، الهدف منها استطلاع وضعية الضبط الببليوجرافي للأدبيات التي تناولت تاريخ الملك عبدالعزيز ، واستكشاف مختلف الجوانب المتعلقة بالموضوع ، وتقصي جميع الأبعاد المتعلقة به . من هذا المنطلق رأى الباحث أن المنهج الوصفي يعد أنسب مناهج البحث العلمي لدراسة مثل هذه الظاهرة بوصفها ظاهرة استطلاعية استكشافية استقصائية .

ويعنى المنهج الوصفي ـ كما هو معروف لدى علماء المنهجية ـ بدراسة الظاهرة المعاصرة بغرض وصفها وتحليلها وتفسيرها ، ومن ثم الخروج باستنتاجات تعكس الوضع الراهن للقضية محط الدراسة . كما تم استخدام منهج التحليل الوثائقي أو منهج البحث المكتبي ـ كما يسميه البعض ـ الذي يتفرع بدوره من المنهج الوصفي ؛ لأن الباحث قد اعتمد على دراسة وتحليل ما استطاع الحصول عليه من نماذج ببليوجرافية سابقة إضافة إلى بعض إسهامات الخبراء التي تخدم الموضوع . وقد عكف الباحث على استقراء تلك النماذج في ضوء معيار علمي تم تصميمه لهذا الغرض .

وتتمثل الخطوات الإجرائية التي سارت عليها الدراسة في معالجة ظاهرة الضبط الببليوجرافي لما كتب عن الملك عبدالعزيز في النقاط التالية :

١ ـ مسح الإنتاج الفكري الذي يتناول الموضوع باللغتين العربية والإنجليزية . وقد شمل هذا الجانب أدبيات الضبط الببليوجرافي بشكل عام ، وأدبيات الضبط الببليوجرافي عن تاريخ الملك عبدالعزيز بشكل خاص على الرغم من ندرتها .

٢ ـ تحليل الإنتاج الفكري ، وعرضه بالأسلوب الذي يلائم مسار الدراسة .

٣ ـ الاطلاع الفاحص على النماذج السابقة للأعمال الببليوجرافية واستقراؤها .

٤ ـ الزيارات الميدانية للمؤسسات المعنية بالضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز وتوثيقه (مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، دارة الملك عبدالعزيز ، مكتبة جامعة الملك سعود ، مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية) بهدف الاطلاع الفاحص على أساليبها في الضبط الببليوجرافي للوثائق التي تعالج تاريخ المملكة ، وطريقة تنظيمها وحفظها لتلك الوثائق .

٥ ـ المقابلات الشخصية مع المسؤولين عن تلك المؤسسات والعاملين في الأقسام المختصة بتوثيق تاريخ المملكة بهدف التعرف على بعض الجوانب المتعلقة بعملية الضبط الببليوجرافي لتاريخ المملكة ـ التي لم تكشف عنها الأدبيات ـ والوقوف على ما قد يواجه العملية من صعوبات ومشكلات .

٦ ـ معايشة الباحث لجهود الضبط الببليوجرافي لتاريخ المملكة في مكتبة الملك عبدالعزيز العامة وتعامله مع قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز ـ بحكم تعاونه مع المكتبة مستشاراً للقاعدة ـ بشكل مستمر ، واحتكاكه بالعاملين مع القاعدة عن قرب ، والملاحظة المباشرة للممارسات اليومية .

٧ ـ الاستئناس بآراء الأساتذة والخبراء والباحثين في مجال التاريخ ، وأيضاً في مجال المكتبات والمعلومات والتوثيق الذين أفادوا الباحث كثيراً في التعرف على أبعاد الموضوع وجوانبه المختلفة .

٨ـ تقويم الجهود الببليوجرافية السابقة التي تناولت الأدبيات المتعلقة بتاريخ الملك عبدالعزيز في ضوء خطة علمية شملت (١٥) متغيراً من بينها : القائم بالإعداد والإصدار ، والحاجة والهدف ، والمنهجية والإجراءات المستخدمة ، وحدود التغطية ، والمصادر التي تم الاعتماد عليها ، والوصف الببليوجرافي وأسلوب المعالجة الفنية ، وطريقة التنظيم والترتيب ، وحجم المادة العلمية التي شملها كل عمل ببليوجرافي .

التعريف بمصطلحات الدراسة :

- الضبط الببليوجرافي BIBLIOGRAPHIC CONTROL

يقصد بمصطلح الضبط الببليوجرافي في هذه الدراسة جميع أدوات أو وسائل السيطرة على الإنتاج الفكري المتعلق بتاريخ الملك عبدالعزيز ، أو تاريخ المملكة في عهده ، وتنظيم هذا الإنتاج ، وتعريف الباحثين والدارسين به من خلال وسائل النشر التقليدية أو الآلية .

وينصب المفهوم الإجرائي لمصطلح الضبط الببليوجرافي على تلك الجهود الببليوجرافية السابقة التي قام بها مجموعة من الأفراد والمؤسسات بهدف توثيق الأدبيات التي تناولت تاريخ الملك عبدالعزيز على شكل قوائم ببليوجرافية وفهارس وأدلة وكشافات . كما يشمل المفهوم الإجرائي للمصطلح نفسه ممارسات الضبط الببليوجرافي الحالية التي تقوم بها بعض المؤسسات المهتمة بتاريخ المملكة ، وبخاصة تلك المؤسسات التي استفادت من التقنية الحديثة ووظفتها في إنشاء قواعد معلومات مخصصة لهذا الغرض .

ويستعمل الباحث في هذه الدراسة مصطلح " الضبط الببليوجرافي " بوصفه مرادفاً لمصطلحات أخرى مثل " السيطرة الببليوجرافية " و " التحكم الببليوجرافي " و " الحصر الببليوجرافي " و " التوثيق " .

وعلى الرغم من أن مصطلح التوثيق يستعمل لأغراض الدراسة الحالية بوصفه بديلاً لمصطلح الضبط الببليوجرافي إلاّ أن هناك من الباحثين من يضع حداً فاصلاً بين هذين المصطلحين . وللوقوف على مزيد من التفصيلات حول هذه القضية يمكن الرجوع إلى دراسة حشمت قاسم ، الموسومة بـ : " التوثيق العلمي ودوره في خدمة البحث في الجمهورية العربية المتحدة " ، حيث تتضمن هذه الدراسة مناقشة مستفيضة لهذين المصطلحين وللمصطلحات الأخرى ذات العلاقة بموضوع هذه الدراسة (قاسم : ١٩٧١ ، ١ - ١٦) .

- الببليوجرافيا BIBLIOGRAPHY

يقصد بهذا المصطلح علم التحكم بالإنتاج الفكري الصادر في مختلف الأشكال واللغات وحول جميع الموضوعات ، كما يقصد بالمصطلح نفسه فن إعداد القوائم الببليوجرافية .

ويتركز المفهوم الإجرائي للببليوجرافيا في هذه الدراسة على النماذج الببليوجرافية السابقة والحالية التي وردت الإشارة إليها في متن الدراسة بوصفها حالات للتحكم بالإنتاج الفكري المتعلق بتاريخ الملك عبدالعزيز .

- الببليوجرافية A BIBLIOGRAPHY

يقصد بها القائمة التي تحتوي على مجموعة من مواد الإنتاج الفكري التي تم إعدادها وفق منهجية علمية ، وفي إطار خطة تخدم طبيعة العمل وطبيعة الفئات المستهدفة .

ويشمل المفهوم الإجرائي للببليوجرافية تلك الأعمال التي قام بها الأفراد العرب والأجانب ممن له علاقة بتاريخ الملك عبدالعزيز ، بما في ذلك الببليوجرافيات التي أعدها كل من : «يحيى ساعاتي» و«عبدالله القحطاني» ،

و«شكري العناني» ، و«عبدالفتاح أبوعلية» ، و«محمد الحمدان» ، و«فهد السماري» ، و«فيحان العتيبي» ، و«عبدالله الحقيل» ، و«ستيفن وكنج STEVNS AND KING» ، و«فاسيلف VASILEV» ، و«فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS» ، و«هانز جرفين فيليبس HANS JURGEN PHILIPPS» . والأعمال التي قامت بها المؤسسات العربية والأجنبية بما في ذلك الببليوجرافيات التي أعدتها وأصدرتها كل من مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ودارة الملك عبدالعزيز ، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وجامعة الملك سعود ، ومكتبة الكونجرس .

- الببليوجرافي BIBLIOGRAPHER

هو الشخص الذي يتولى إعداد القوائم الببليوجرافية سواء قام بالعمل بمفرده وبجهوده الذاتية ، أو قام به تحت إشراف إحدى المؤسسات التي تتولى دعمه مالياً وأدبياً .

وينطبق المفهوم الإجرائي للببليوجرافي في هذه الدراسة على جميع الأشخاص العرب والأجانب الذين سبقت الإشارة إليهم ، والذين كان لهم جهود لا تنكر في إعداد الببليوجرافيات ذات الصلة الوثيقة بتاريخ الملك عبدالعزيز ، أو بتاريخ المملكة والجزيرة العربية .

- الإنتاج الفكري عن تاريخ الملك عبدالعزيز

يقصد بهذا المصطلح جميع ما صدر من أدبيات تناولت شخصية الملك عبدالعزيز أو تاريخه أو تاريخ المملكة وما حدث بها من تطورات في عهده ، بغض النظر عن اللغة التي صدرت بها تلك الأدبيات أو شكلها أو موضوعها أو مكان نشرها وزمانه .

وينصب المفهوم الإجرائي لمصطلح الإنتاج الفكري عن تاريخ الملك عبدالعزيز على المواد العلمية المدرجة في نماذج الجهود الببليوجرافية السابقة والحالية التي تضمنتها الدراسة في الفصلين الثالث والرابع ، وتتفاوت تلك المواد من عمل لآخر وفقاً لحجمه ، ولإمكانات القائم به ، وما أتيح له من تجهيزات ومصادر .

استخدم الباحث في الدراسة الحالية مصطلح " الإنتاج الفكري عن تاريخ الملك عبدالعزيز " بوصفه بديلاً لمصطلحات أخرى :

- الأدبيات التي تناولت تاريخ الملك عبدالعزيز .
- ما صدر عن تاريخ الملك عبدالعزيز من كتب .
- البحوث والدراسات عن الملك عبدالعزيز .
- النتاج العلمي حول الملك عبدالعزيز .
- الكتابات عن الملك عبدالعزيز .

ونحو ذلك من المصطلحات الأخرى التي تؤدي المعنى نفسه .

- جهود الأفراد في الضبط الببليوجرافي

يشمل هذا المصطلح جميع الإسهامات التي قام بها أفراد بمجهوداتهم الذاتية بهدف إثراء حركة الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز .

يقتصر المفهوم الإجرائي للمصطلح على الإسهامات الببليوجرافية التي ورد ذكرها في ثنايا الدراسة بوصفها نماذج للجهود الفردية وبخاصة تلك التي قام بها الأساتذة : يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني ، وشكري العناني ، وعبدالفتاح أبوعلية ، ومحمد الحمدان ، وفهد السماري ، وفيحان العتيبي ، وعبدالله الحقيل ، واستيفن وكنج STEVENS AND KING ، وفاسيلف VASILEV ، وفرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS ، وهانز جرفين فيليبس HANS-JURGEN PHILIPPS .

- جهود المؤسسات في الضبط الببليوجرافي

يشمل هذا المصطلح جميع الإسهامات التي قامت بها المؤسسات (المكتبات ومراكز التوثيق والمعلومات ومراكز البحث العلمي ونحوها من مؤسسات المعلومات المعنية بتوثيق تاريخ الملك عبدالعزيز) لتعزيز مجال الضبط الببليوجرافي ، وتحقيق التراث الوطني للمملكة . ويدخل في هذا المصطلح جميع الجهود الرامية إلى تجميع الوثائق ومعالجتها وتيسير الإفادة منها باستخدام أداة أو أكثر من أدوات الضبط الببليوجرافي المتعارف عليها .

يتمحور المفهوم الإجرائي لهذا المصطلح على النشاطات الببليوجرافية الحالية الرامية إلى دعم مفهوم الضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز وبخاصة النشاطات التي قامت بها كل من : مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ودارة الملك عبدالعزيز ، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وجامعة الملك سعود ، ومكتبة الكونجرس .

- الرؤية الببليوجرافية

يقصد بمفهوم الرؤية الببليوجرافية بشكل عام توافر العناصر الأساسية للبناء السليم للمشروع الببليوجرافي ، مثل تحديد الهدف من المشروع والحاجة إليه والفئات التي يستهدفها، ومجالات التغطية الزمنية والمكانية والموضوعية واللغوية والشكلية ، ومصادر تجميع المادة العلمية ، وتحديد أسلوب المعالجة الفنية ، وطريقة التنظيم .

ويتركز المفهوم الإجرائي لمصطلح الرؤية الببليوجرافية على مدى وضوح العناصر المشار إليها في أذهان القائمين بالأعمال الببليوجرافية التي شملتها الدراسة

الحالية ، ومدى التزامهم بها في تنفيذ المشروعات التي قاموا بإعدادها وإصدارها . ويمكن قياس ذلك من خلال تطبيق المعيار الذي طوره الباحث لتقويم تلك الأعمال ، والذي ورد في القسم المتعلق بتقويم الجهود السابقة .

يجدر التنويه إلى أن الباحث استخدم في هذه الدراسة مصطلح " الرؤية الببليوجرافية " في بعض المواضع بوصفه مرادف لمصطلح " الرؤية المنهجية " .

الفصل الثاني

نبذة موجزة عن الملك عبدالعزيز

مقدمة :

تم تخصيص هذا الفصل للحديث بشكل موجز عن الملك عبدالعزيز بوصفه الموضوع الذي تتمحور حوله الدراسة الحالية ، ونقطة التمركز لمناقشة جهود الضبط الببليوجرافي . ويتناول الحديث هنا نسب الملك عبدالعزيز ، ومولده ، ونشأته وتربيته ، وفتحه للرياض ، ومن ثم توحيده لبقية مدن المنطقة الوسطى ، وجهوده في تطوير المجتمع وتوطين البادية ، وبعد ذلك توحيده لمدن الحجاز ، وقيامه بإرساء دعائم الدولة الحديثة ، وما قيل فيه من منظور عالمي ، وأخيراً وفاته – رحمه الله – .

قبل أن نعطي لمحة موجزة عن الملك عبدالعزيز مؤسس المملكة ، وباني وحدتها الوطنية ، وواضع أسس نهضتها الحضارية ، يستحسن الإشارة إلى أن التاريخ السعودي يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أدوار ، وذلك على النحو التالي :

١ ـ الدور الأول (الدولة السعودية الأولى) :

يبدأ هذا الدور بالمبايعة التي تمت بين الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، والإمام محمد بن سعود سنة ١١٥٧هـ ، وينتهي باستسلام الإمام عبدالله بن سعود لإبراهيم باشا سنة ١٢٣٣هـ .

٢ ـ الدور الثاني (الدولة السعودية الثانية) :

يبدأ هذا الدور بنجاح الإمام تركي بن عبدالله في إخراج بقية جنود الحاميات العسكرية التابعة لمحمد علي من نجد سنة ١٢٤٠هـ ، وينتهي بانتصار الأمير محمد بن رشيد على الإمام عبدالرحمن بن فيصل سنة ١٣٠٩هـ .

٣ ـ الدور الثالث (الدولة السعودية الثالثة) :

يبدأ هذا الدور باستعادة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود الرياض سنة ١٣١٩هـ (العثيمين : ١٤١٦ ، ص : ٧ ؛ أبو علية : ١٣٩٩ ، ص :

١٠ - ١١)، وكفاحه من أجل توحيد الدولة ، وإرساء دعائم المملكة العربية السعودية .

نسب الملك عبدالعزيز ومولده :

هو عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع المريدي .

وفيما يتعلق بمولده ، فقد لاحظ الباحث من اطلاعه على كتب التاريخ اختلاف المؤرخين في تحديد تاريخ ولادة الملك عبدالعزيز ؛ فبينما يشير بعضهم إلى أن مولده كان في ذي الحجة سنة ١٢٩٧هـ في قصر الإمارة بالرياض (درويش : ١٤٠٠ ، ص : ٧٢) ، فإن البعض الآخر يشير إلى أن ذلك كان سنة ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م (الزركلي : ١٩٨٤ ، ص : ١٧) .

ويشير كمال الكيلاني في كتابه الموسوم بـ : " صور من حياة عبدالعزيز - يرويها الأمير طلال بن عبدالعزيز " إلى أن ذلك الاختلاف قد يعود إلى أن من طبيعة أهل نجد إخفاء حقيقة أعمارهم ، إضافة إلى أنه لم يكن لدى الدولة حينذاك سجلات لإحصاء المواليد . ويرجح الكيلاني أن يكون تاريخ الميلاد هو عام ١٢٩٣هـ مع أن أكثر المؤرخين يرون أنه ولد عام ١٢٩٧هـ (الكيلاني : ١٤٠٣ ، ص : ٢٦) .

نشأة الملك عبدالعزيز وتربيته :

إذا كان المؤرخون يختلفون في تحديد مولد الملك عبدالعزيز فإنهم يتفقون في أنه لما بلغ السابعة من عمره عهد به والده إلى القاضي عبدالله الخرجي لتعليمه القرآن الكريم فختمه في الحادية عشرة من عمره ، ثم تلقى علوم الفقه والتوحيد

على يدي الشيخ عبدالله بن عبداللطيف . كما علمه والده ركوب الخيل وفنون الفروسية والرماية والضرب بالسيف، الأمر الذي جعله ينشأ نشأة قاسية جعلته صلب العود ، وكان لها تأثير في تغلبه على الصعوبات التي واجهته في مستقبل حياته (درويش : ١٤٠٠ ، ص : ٧٢) .

ويقال إنه قتل أول عدو له وهو لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره . وعرف عنه التفوق في النشاط والذكاء ، وبرزت فيه علامات الزعامة ومؤشرات القيادة والريادة منذ الصغر ، وكان محبًا لسماع التاريخ شغوفاً بأخبار البطولات والانتصارات (الزركلي : ١٩٨٤ ، ص : ١٧) .

وقد رباه والده منذ صغره تربية صارمة ، وعوده على خشونة الحياة ، وعلى الاستيقاظ المبكر ، وعلى السير حافي القدمين ، وترويض قواه البدنية ، وتنمية جلده وقوة احتماله من خلال تقنين غذائه اليومي . وقد أكسبه تطوافه في الصحراء " قدرة السيطرة على نفسه ورغباته وروضته على الجَلَد الشديد ، وعلى أن يكتفي من دنياه بحفنة تمر ، وجرعات من اللبن ، وبخيمة من جلد الماعز يستظلها . وأصبح الفتى القوي البنية المفتول العضل يافعاً ناشئاً مصقولاً بأعنف التجارب والمحن " (ميشان : ١٩٨٥ ، ص : ٥٣) .

ويصف أحد المؤرخين الملك عبدالعزيز بأنه شب قوي البنية ، فارع الطول ، صلب العود ، يهوى الحركة والجري . وكان سريع الغضب سريع الرضا في آن واحد ، ويبدو هادئاً بشوشاً . وعندما تجاوز العشرين من عمره بدأ " صنديداً مهيباً ، وعملاقاً فتياً ، يبلغ من الطول مترين وأربعة سنتيمترات ، وتعلو هامته على جميع البدو في الصحراء ، تنظر إلى منكبيه القويين وحركاته الطلقة وخطواته الواسعة ، فتوحي إليك بالرجولة والنبل . تنم عيناه عن حدة مزاجه . وليس فيه صفة واحدة من صفات الضعة والنقص " (ميشان : ١٩٨٥ ، ص : ٦٨) .

فتح الملك عبدالعزيز للرياض :

تنقل الملك عبدالعزيز في شبابه كثيراً في البادية ، وعرف من أخبارها الشيء الكثير ، ووجد من حب أعرابها وتقديرهم له ما جعله راضياً عن نفسه ، وتعود الصبر على الظمأ والجوع والتعب . وقد دخل في مفاوضات وقام بسفرات قبل أن ينضج شبابه . نزل ضيفاً على أمير الكويت سنة ١٣١٠هـ ، واستفاد من بقائه هناك كثيراً من دروس السياسة وفن الحرب ، واشترك في بعض مجالس الشيخ مبارك مع ممثلي بعض الحكومات ، وكسب خبرات متعددة في المناورات والمحاورات . وقد استطاع عبدالعزيز إقناع مبارك بأن ينفرد بقوة يقاتل بها في الرياض ، فتوجه نحوها، ثم دعاه أبوه للعودة مرة أخرى إلى الكويت ففعل حيث رأى في ذلك الحكمة . إلا أن عبدالعزيز لم يتحمل البقاء في الكويت ، فعرض على أبيه مرة أخرى التوجه صوب الرياض ، فعرض والده الأمر على مبارك الصباح الذي رحب بالفكرة ، وعمل على تسهيل الأمر ، وتجهيز عبدالعزيز بما يحتاجه من عدة وعتاد (الزركلي : ١٩٨٤ ، ص: ١٨ ـ ٢٤) .

ومضى عبدالعزيز في ركب يضم أربعين رجلاً من آل سعود والموالين لهم ، وحوالي عشرين رجلاً من أتباعهم . مضى في رجاله الستين في ٢٠ رمضان ١٣١٩هـ متوجها نحو الرياض . وأتجه بسبعة منهم نحو قصر المصمك (حيث يقيم أمير الرياض آنذاك عجلان محمد العجلان) . وبعد محاولات وعراك واشتباكات تم القضاء على عجلان في يوم ٥ شوال ١٣١٩هـ الموافق ١٥/ ١/ ١٩٠٢م . فاقتحم رجال عبدالعزيز القصر ، ونادى منادي إن الملك لله ثم لعبدالعزيز . وهكذا تحقق حلم عبدالعزيز على أرض الواقع ، في مغامرة ليس لها سابقة، وفي ملحمة تاريخية ، وقصة تعد من أروع قصص البطولة تم حبكها ببراعة فائقة ، وخطة محكمة تترجم ما يتسم به عبدالعزيز من صفات القيادة والريادة (الزركلي : ١٩٨٤ ، ص: ٢٤ ـ ٢٨) .

توحيد الملك عبدالعزيز لبقية مدن المنطقة الوسطى :

وبعد القضاء على عجلان وأنصاره من آل الرشيد في الرياض ، تفرغ الملك عبدالعزيز للاحتياطات الأمنية من خلال بناء سور جديد للرياض ، وكسب المزيد من الأنصار والمؤيدين من خلال الاستيلاء على الخرج والحريق والحوطة والأفلاج ووادي الدواسر وغيرها من المناطق . ومن ثم قدم الإمام عبدالرحمن الفيصل (والد عبدالعزيز) إلى الرياض وقوبل بترحاب يليق بشأنه . وعرض عبدالعزيز على والده الإمارة ، إلا أنه تنازل عنها لابنه . وبذلك تمت البيعة لعبدالعزيز في سنة ١٣٢٠هـ ، واختار قصر عجلان مقراً لسكنه (الزركلي : ١٩٨٤ ، ص : ٢٨ ـ ٣٢) .

وبعد الانتصار الذي حققه عبدالعزيز بفتح الرياض ، توافد الناس لتهنئته وتجديد الولاء له ولأسرته ، ونودي بالأمير الشاب ملكاً على نجد وإماماً بحضور الشيوخ ورجال الدين ورؤساء الأقاليم والقادة العسكريين . وتزعم عبدالعزيز السلطتين الدينية والسياسية . ومنذ تلك اللحظة تحقق حلمه حينما استعاد عاصمة بلاده بقبضة يده (ميشان : ١٩٨٥ ، ص : ٩٩) .

واستمرت المعارك بين ابن سعود وابن رشيد ، وكانت الغلبة فيها للأول حيث ضم مدن القصيم وما جاورها من مناطق . وبرغم أن عبدالعزيز وجنده كانوا هم المنتصرين في جل ما خاضوه من معارك ، فإن عبدالعزيز لم يكن من هواة الحرب ، إذ هي في نظره شر لابد منه ، ومرحلة لابد من خوضها في بعض الأحيان . وكان يردد دائماً أنه ليس من محبي الحرب ، وليس شيء أحب إليه من السلم والتفرغ للإصلاح (الزركلي : ١٩٨٤ ، ص : ٤٨) .

ولم يكد الجو يصفو لعبدالعزيز بعد ما حققه من انتصارات حتى حدث ما يعكر صفوه حيث تعاقبت الأحداث للفترة بين ١٣٢٥ ـ ١٣٣٠هـ ، إذ كلما تم مداواة

جرح سال جرح آخر ، فنشبت الفتن والضغائن . وكان من أهم ما حدث تمرد اثنان من زعماء الاخوان هما : فيصل بن سلطان الدويش ، ونايف بن هذال ، وكذلك بزوغ بعض الفتن الداخلية مثل خروج بعض أهل المدن عن الطاعة ، وتم معالجة تلك الحوادث بالقوة حينا وبالحكمة حينا آخر إلى أن عادت المياه إلى مجاريها الطبيعية .

واستمرت سلسلة الانتصارات والفتوحات فشملت الأحساء والقطيف عام ١٣٣١هـ ، ثم نشبت الحرب العالمية الأولى ، وانشق العالم الأوروبي إلى فريقين دول التحالف ودول الاتفاق ، وخشي عبدالعزيز أن يمتد اللهب إلى دول الجزيرة فكتب إلى جيرانه يدعوهم إلى التفاهم بشأن الحرب ، واستمر العراك مع آل الرشيد إلى أن استسلموا في عام ١٣٤٠هـ .

جهود الملك عبدالعزيز في تطوير المجتمع وتوطين البادية :

ثم دخل عبدالعزيز في حروب ضارية مع البدو ، وكان له منهجه الفريد في التعامل معهم بحسب خلقهم وطباعهم حيث عمد إلى السيف ، وإلى إرسال المطاوعة في القبائل (لإرشاد أهلها إلى الطاعة) والهجر حيث تهجر القبيلة بيوت الشعر وتبني بجوار الماء وتستقر . وكانت هجرة الأرطاوية عام ١٣٣٠هـ البذرة الأولى في هذا الصدد حيث نتج عنها حركة الاخوان الذين خدموا على شكل معسكرات تسير بأمر عبدالعزيز عند الحاجة . ويعد مشروع توطين البدو الرحل وتعليمهم الزراعة والعيش في بيوت مبنية وكسب العيش عن طريق رعي الإبل والأغنام من أكبر المشروعات التي تم تنفيذها في ذلك الوقت المبكر . ولم يكتف عبدالعزيز بذلك بل نظم سجلاً للنفوس ، وزود القادرين بالسلاح والعتاد ليلبوا نداءه عندما يدعوهم للجهاد . وبذلك استطاع أن يربط بينهم بالدين والولاء والانتماء للدولة (درويش : ١٤٠٠ ، ص: ١٥٧ـ١٥٨) .

ولاشك أن تطوير المجتمع البدوي من خلال برامج التوطين يحمل دلالات وطنية بقى أثرها واضحاً حتى يومنا هذا ؛ ولعل أبرز أثر لها يكمن في إلغاء الحواجز والترسبات العنصرية ، وإلغاء الحدود التي تفصل الناس عن بعضهم . يقول الكيلاني في هذا الصدد : " حتى البدو الذين عجز التاريخ أن يوحدهم ويجعل منهم أمة واعية قوية تحمل أعباء الرسالة وتستقيم على مثلها العليا أمانة وصدقاً وتضحية وإيماناً وفداء ، جعلهم (الملك عبدالعزيز) كذلك ، ولم يبق من أثر لخلاف وتنازع بين القبائل المتناحرة وبينهم وبين الحضر ، لأنه رسخ في أذهان الجميع أنهم أبناء أمة واحدة " (الكيلاني : ١٤٠٣ ، ص: ٣٤) .

وتوسع عبدالعزيز فيما بعد في حدوده الشمالية والغربية الموالية لبلاد شمر ، وضم واحتي تيماء وخيبر والجوف ووادي السرحان إلى بلاده ، وتم الاعتراف بعبدالعزيز سلطاناً على نجد وملحقاتها . وكان يحب أن يرتكز على الصداقة في كثير من علاقاته مع الآخرين . ومما أثر عنه من قول : " أنا قوي بالله تعالى ثم بشعبي ، وكلهم كتاب الله في رقابهم ، وسيوفهم بأيديهم ، يناضلون ويكافحون في سبيل الله . ولست أدعي أنهم أقوياء بعددهم أو عدتهم ، ولكنهم أقوياء إن شاء الله بإيمانهم " (الزركلي : ١٩٨٤ ، ص: ٧٨) .

ولا يوجد في تاريخ عبدالعزيز حادث واحد يدل على أنه ابتدأ إنساناً بشر أو عداء ، بل عرف عنه العفو عند المقدرة والتسامح ، وكان ذا قلب رحيم حيث إنه لما رأى جثث القتلى في وقعة تربة (٢٥ شعبان ١٣٣٧هـ) ترقرق الدمع في عينيه وبكى (الزركلي : ١٩٨٤ ، ص: ٨٢) . كما كان حريصاً على توحيد كلمة العرب، ولم شملهم ، وحفظهم من الفرقة والضياع، وكان من أكثر الملوك والرؤساء توقاً نحو تحقيق الوحدة العربية .

توحيد الملك عبدالعزيز لمدن الحجاز :

وفي عام ١٣٤٣هـ استعاد السلطان عبدالعزيز مكة بدون قتال مما ترك أثراً حسناً في نفوس المسلمين قاطبة ، ودخلها عبدالعزيز محرماً في جمادى الأولى ١٣٤٣هـ . ومن ثم استعاد الجيش النجدي القنفذة فرابغ ثم جدة فالمدينة المنورة ، وأصبح الحرمان الشريفان تحت يد الملك عبدالعزيز مما جعله عزيز الجانب . ولا شك أن للموقف المتسامح للملك عبدالعزيز الأثر الأكبر في نفوس أهل الحجاز الذين لم يجدوا خيراً منه لحكم الحجاز حيث قدموا مبايعتهم له في جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ بوصفه ملكاً على الحجاز . وبهذه المناسبة أصدر جلالته بلاغاً قال فيه : " إني مسافر إلى مكة لا للتسلط عليها ، بل لرفع المظالم والمغارم التي أرهقت كاهل عباد الله ، إني مسافر إلى مهبط الوحي لنبسط أحكام الشريعة ونؤيد أحكامها ، فبعد الآن لا يكون سلطان في مكة إلا للشرع ، وجميع الرؤوس يجب أن تطأطأ للشريعة ، وإن مكة للمسلمين كافة " (درويش : ١٤٠٠ ، ص : ١٠٨ ـ ١٠٩ ، ١٢٣ ، ١٢٩) .

إرساء الملك عبدالعزيز لدعائم الدولة الحديثة :

وبعد الفتح السلمي للحجاز ، تفرغ الملك عبدالعزيز لوضع نظام للدولة وهيكلها الإداري حيث قام الملك نفسه في ١٦ صفر ١٣٤٥هـ بإملاء مادته على الجمعية العمومية ، وبدأت تنشأ الوزارات ، وعملت تشكيلات للقصر ، ووزعت التبعات على أنجال الملك وأعوانه ، وكانت البداية مع وزارة الخارجية ، ثم المالية ، ثم تتابعت بقية الوزارات تدريجياً . ومن ثم بدأ بعد دخول الملك عبدالعزيز الحجاز تنظيم العلاقات الدولية بين بلاده والبلدان الأخرى حيث أقيمت مؤسسات سياسية وقنصلية في لندن وباريس وواشنطن والقاهرة ودمشق وبيروت وبغداد وأنقرة وطهران وكراتشي وكابل وبومباي وعمان وروما وجاكرتا (الزركلي : ١٩٨٤ ، ص : ٩٠ ـ ٩٦) .

وكانت عناية الملك عبدالعزيز بالصحة العامة واضحة للعيان ، حيث استقدم بعض الأطباء المعروفين من البلاد المجاورة لوضع التشريعات الصحية ، وأمر بإنشاء مصلحة الصحة العامة عام ١٣٤٣هـ في مكة المكرمة مع فروع لها في المدينة المنورة وجدة والرياض والأحساء وعسير ومنطقة خط الأنابيب بما يتبعها من مستشفيات ومراكز طبية ومستوصفات . كما أنشئت في بداية العهد السعودي بالحجاز مصحة سميت دائرة المرافىء لإصدار رخص للغواصين والحواتين ، واستقبال البواخر المسافرة والقادمة ، ثم أنشئت سنة ١٣٥٠هـ مديرية مصلحة خفر السواحل بجدة ، تبع ذلك إنشاء البلديات ومراكز الهاتف اللاسلكي على الرغم مما لاقاه الملك عبدالعزيز من معاناة الاخوان الذين يظنون أن الهاتف من بدع الشيطان (الزركلي : ١٩٨٤ ، ص: ٩٧ـ٩٩) .

أما الأمن فقد كان في عهد الملك عبدالعزيز ولا يزال بفضل الله ثم بفضل الحزم والعزم مضرب المثل . وحينما علم - يرحمه الله - بحركة الاخوان دعا زعمائهم إلى اجتماع عقد في الرياض بتاريخ ٢٥ رجب ١٣٤٥هـ ، ووصف نفسه بأنه خادم الشريعة والمحافظ عليها ، وأنه لم يغيره الحكم ، بل إنه أشقاه ودفعه إلى السهر على مصالح المسلمين . ولما بايع أهل الحجاز الملك عبدالعزيز في ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ أصبح لقبه يومئذ "ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها" (الزركلي : ١٩٨٤ ، ص: ١٢٥) .

وبدأت العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة في عام ١٣٥٢هـ حينما أحست بحاجتها للنفط ، وفي عام ١٣٥٨هـ وصل الملك عبدالعزيز بموكبه إلى الظهران ، وأمضى يومين في استعراض منشآت النفط . إلا أن عبدالعزيز توفي ـ رحمه الله ـ قبل أن يرى الأنابيب تنقل الزيت من قاع السفانية إلى رأس المشعاب ثم إلى الأسواق التجارية في أنحاء العالم (الزركلي : ١٩٨٤ ، ص: ١٥٢) .

في ٢١ جمادى الأولى ١٣٥١هـ صدر نظام توحيد المملكة وتسميتها المملكة العربية السعودية ، وكانت السياسة قائمة على مبدأ تطبيق مبدأ الشورى ، والاستئناس بأراء أهل العلم والفضل . وكان أول عمل انتخابي في حياة الملك عبدالعزيز بعد دخوله مكة عام ١٣٤٣هـ تشديده على العلماء والأعيان بتحري المصلحة العامة في انتخاب الأشخاص المطلوبين بحيث يكونوا من أهل الجدارة المعروفين بالصلاح والتقوى وبعد النظر (الزركلي : ١٩٨٤ ، ص : ١٥٨) .

بعد إرساء الوضع الداخلي للمملكة ، بدأ البعد السياسي للملك عبدالعزيز يمتد إقليمياً وعالمياً ؛ فعندما تأسست الجامعة العربية عام ١٩٤٥ كانت المملكة عضواً فاعلاً فيها ، وبينما كانت الدول المجاورة للمملكة تغلي في عام ١٩٥١ في جوء من الاضطرابات والثورات والقلاقل كانت المملكة واحة الاستقرار والأمان ، وكانت أحوج ما تكون إلى حكمة عبدالعزيز وتجاربه وخبراته في حل المشكلات .

وكان للملك عبدالعزيز اهتمام مميز بالعلم ؛ حيث أنشئت في مكة سنة ١٣٤٤هـ إدارة المعارف العامة ، ثم أنشىء المعهد العلمي السعودي لإعداد المعلمين ، وأرسلت أول بعثة من الطلاب السعوديين للخارج عام ١٣٤٦هـ ، إلى جانب إرسال المطاوعة والمرشدين إلى الهجر والقبائل لتعليم الناس القرآن الكريم وأركان الإسلام والعبادات ومبادىء القراءة والكتابة (الزركلي : ١٩٨٤ ، ص : ١٧١ - ١٧٢) .

وتدل الحقائق السابقة على اهتمام الملك عبدالعزيز بإرساء دعائم الدولة الحديثة ، وتحسين أساليب الإدارة ، إذ قرر توزيع العمل بين وزراء مسؤولين يعيّنون على رأس المصالح المختصة . وحيث إنه أخذ على عاتقه تحقيق ثلاثة أهداف تتمثل في : توحيد شبه الجزيرة العربية ، وبعث الإيمان الصحيح ، وتحويل شعب الجزيرة إلى مستوى أمة عصرية ، فقد ترتب على تحقيق الهدف الثالث

الاستعانة بالكفاءات من الوطن العربي الكبير مما يترجم انعكاس النزعة الإقليمية ما دام الجميع يتكلمون بلغة واحدة ويدينون بدين واحد ، الأمر الذي أتاح للملك أن يجمع حوله رجالاً متطورين أكفاء (ميشان : ١٩٨٥ ، ص: ٢١٠-٢١١) .

الملك عبدالعزيز من منظور عالمي :

لقد رسمت السطور السابقة صورة موجزة عن الأعمال السياسية والحربية والاجتماعية والعمرانية التي قام بها عاهل الجزيرة العربية داخل المملكة وخارجها . وثبت مما مر بنا أن للملك عبدالعزيز شخصية جذابة ، وقد شهد بذلك كل من قابله من العرب والأجانب الذين اتفقوا على أنه أقوى من كل تعبير وفوق كل وصف ، وهو الرجل الوحيد الذي يعلق عليه العرب والمسلمون آمالهم في تحقيق النهضة الشاملة ، وفي تحريرهم من الظلم والطغيان .

ويسرد الزركلي تلك الحقيقة في كتابه الموسوم بـ : " الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز " حيث يورد كثيراً مما قاله الآخرون عنه ، وما سجلوه من انطباعات توحي بطريقته الفذة في تطوير أمته وبلاده على المستويين الداخلي والخارجي ، وتعكس مقدرته المذهلة على تحويل الرأي العام في بلاد العرب .

من ذلك ما قاله الكاتب الإنجليزي كنث وليمز " من النادر أن تجد رجلاً تجمعت فيه المزايا التي تجمعت في ابن سعود ، فهو جندي موفق ظافر ، ومصلح مبدع مبتكر ، وتقي ورع صالح ، وجواد سخي سمح ، وراسخ وطيد متين ، وذكي حاذق لبيب ، وشجاع جرىء مقتحم ، وإنسان لطيف مهذب ، نبيل في تواضعه جليل في احتشامه " . وأيضًا ما قاله روي لبكيتشر ؛ كان من أبرز صفاته " القوة والشجاعة والحيوية البالغة والجاذبية الخلابة والشخصية المحبوبة وصواب الفكرة والاستقامة التامة مضافاً إليها المقدرة على العفو عن أعدائه والشدة عليهم إذا اقتضى الأمر ذلك " (الزركلي : ١٩٨٤ ، ص: ١٩١) .

بل إن كثيراً من المفكرين الأجانب ألفوا كتباً كاملة تعكس إعجابهم بالملك عبدالعزيز، نذكر من بينهم مكوغلن الذي ألف كتاباً بعنوان : " ابن سعود ـ مؤسس مملكة " ترجمه إلى العربية محمد شيتا يصف فيه جوانب عدة من شخصية الملك عبدالعزيز منها : وصفه لطريقته في الكلام ، وإجادته اللغة العربية حيث يقول : " يتكلم الملك بقوة وسلاسة ، ويزين حديثه بأمثال عربية قديمة ، وآيات من القرآن وأقوال مأثورة . عندما يتحدث في الشأن السياسي والدبلوماسي يسهب ويستفيض ويصف الأحداث والأفكار بطريقة تبدو لسامعه في منتهى الوضوح ، تتسلسل نقطة بعد أخرى حتى يبلغ الذروة . . . أما وضوح رأيه ونباهته فأمران ظاهران في أي موضوع يتحدث فيه ، إلا أن حديثه يصبح أكثر حرارة حين يتعلق الأمر بشأن من شؤون قلب الجزيرة العربية " (مكوغلن : ١٩٩٥ ، ص : ١٧٩) .

ومؤلف آخر سجل إعجابه بالملك عبدالعزيز هو (بنوا ميشان) الذي ألف كتاباً بعنوان : "عبدالعزيز آل سعود ـ سيرة بطل ومولد مملكة " وترجمه إلى اللغة العربية (عبدالفتاح ياسين) الذي أشار في مقدمة الترجمة إلى أن الملك عبدالعزيز إعجاز وإنجاز في الوقت نفسه ؛ فقد كان في بداية شبابه لا يملك سقفاً يأويه ، بل يملك قلباً كبيراً مفعماً بالإيمان ، وإرادة صلبة " فتصقله التجارب ، وتعلمه الأحداث ، ثم لا تكون تلك الإرادة الفولاذية إلا السيف يستله بيمينه ويضرب به ، فيسدد القدر ضرباته ويوجه الإيمان خطواته . ذلك لأن السيف في يد البطل الرائد لم يكن سيف مغامر ينشد الحكم ويطمح إلى السلطان ، وإنما كان سيف رجل مؤمن يجاهد عن عقيدة سامية ، وينزع إلى غاية رفيعة ، سيفاً عربياً إسلامياً أصيلاً لا يظلم ولا يبغي ، ولا يهتز في كف صاحبه إلا ذوداً عن رأية التوحيد ، وإعلاء لكلمة الله ، شعاره إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وغايته إزالة دولة البغي ، وتقويض أركان الظلم ، وهمه تنقية العقيدة السمحاء بإزالة كل بدعة ، وإبطال كل شبهة ، ودحض كل فرية ، حتى تعود للإسلام نقاوته الأولى ، وصفاؤه الذي لا شائبة فيه ، ذلك كان شأن آل سعود في تاريخهم الحافل ، فما عرفت دولة التوحيد منذ عهود الإسلام

الأولى مثل آل سعود ، مناضلين في سبيلها ، مجاهدين من أجلها يقاتلون ويقتلون إيماناً بها ، لا يهادنون فيها ولا يهاودون ، ولا يجنون ولا يحابون " (ميشان : ١٣٨٥ ، ص : ٦ـ٧).

والظاهرة الغريبة حقاً هي أن الكتّاب الغربيين مع أنهم لا يتفقون عادة على الإعجاب بحاكم شرقي فإن عبدالعزيز قد حملهم جميعاً على الإعجاب بشخصيته الفذة ، وسعة صدره ، ورجاحة عقله ، وقدرته على مجاراة الأمور بشكل حيادي يضمن أمن بلاده . وربما كان مصدر ذلك الإعجاب ما يتحلى به عبدالعزيز من صفات الرجولة ، والصراحة المدهشة ، وبعده عن النفاق والرياء في أحاديثه وخطبه (الزامل : د.ت ، ص : ٣٤) .

أما الكتّاب العرب فإن المقام يضيق بسرد كتاباتهم ، ويكفي أن نشير هنا إلى أحدهم وهو (أحمد عسه)الذي يشير في كتابه الموسوم بـ : "معجزة فوق الرمال" : إلى أن التاريخ " لم يع فرداً نقل بجهده وقيادته وتصوره وتخطيطه وتنفيذه مجتمعاً بأسره من طور حضاري إلى طور حضاري آخر أكثر تقدماً ورقياً ، لأن نقل المجتمعات عبر الأطوار الحضارية عادة عمل جبار تتعاقب عليه الأجيال وتتعاون على صنعه جيلاً بعد جيل ، فجاء عبدالعزيز ليكون الظاهرة الفريدة المعجزة . ولذلك كان أكثر من ملك ، وأكثر من مؤسس دولة ، وأكثر من بطل مغوار ، وأكثر من قائد موهوب سجل النصر تلو النصر ، وأكثر من سياسي داهية تغلب على المصاعب والمشاق وسجل الظفر السياسي بعد الظفر ، وأكثر من مصلح وإمام ، لأنه كان كل ذلك معا " (عسه : ١٩٦٥ ، ص : ٧) .

ثم يسرد عسه الحيثيات التي جعلت من هذا الرجل عظيماً ، والتي تتلخص في : انتصاره على إمبراطورية العثمانيين ، وإرساء دعائم السيادة والاستقلال لدولته، ووضع نواة مجتمع جديد ، ومنع أسباب الجريمة ، ومناهضة الاستعمار ، وعدم تأثره بمفهوم الإقليمية الضيقة ، والدفع ببلده نحو التطور دون أن يفقده

خصوصيته ، وإدخال المواصلات السلكية واللاسلكية ، وإحلاله السيارة محل الجمل ، ووضع نواة نظام جديد للحكم ، ومنحه التعليم والتطبيب بدون فرض رسوم ، ومحافظته على الصداقة ومراعاته للكلمة وشرفها ، كل ذلك جعله معجزة القرن العشرين (عسه : ١٩٦٥ ، ص : ٧ـ ١٠) .

وكان الملك عبدالعزيز يضع الشرع وتعاليم القرآن في كل خطوة يخطوها ، قال يوماً لأحد جلسائه " إني مسلم أولاً ، وعربي ثانياً ، غير أني دوماً خادم الله " . وكان نشاطه الديني والسياسي يتمازجان إلى حد يتعذر معه التمييز بينهما . ولا غرو في ذلك فقد نشأ ـ في مدرسة والده الإمام عبدالرحمن ـ على التقيد الصارم بتعاليم القرآن فهو " يؤمن بأن الله دائم الوجود إلى جانبه ، يقوده في كل عمل ، سواء وقف بالجماهير أم اختلى في جناحه ، جلس للقضاء أم حارب في الصحراء ، ففي القصر أو تحت الخيمة أو على المسالك الرملية كان ابن سعود وطيد الإيمان بأن الله معه حيثما كان . . . وقبل أن يتخذ أي قرار خطير ، كان يخلو إلى نفسه ويصلي . وعندما تدنو اللحظة الحرجة ، كان يفرغ ذهنه من أي شيء ، ويسأل العلي القدير أن يوجه خطواته ، وما كان بعد ذلك يعود عن قرار ، إيماناً منه بأن الله معه (ميشان : ١٩٨٥ ، ص : ١٧٩) .

وبفضل القرآن تمكن الملك عبدالعزيز ـ كما أشير سابقاً ـ من توحيد القبائل المتنافرة ، والقضاء على النزعات القبلية . وعرف عنه إكباره للعلماء ، يقدمهم على إخوانه وأبنائه وكبار جلسائه ويستمع إليهم ، وكان له أسلوب مميز في إقناع المشايخ وبخاصة الإخوان من سكان الهجر الذين لم يستسيغوا استخدام الآلات الحديثة مثل اللاسلكي والهاتف والسيارة . ومع أنه كان بإمكانه اتباع سياسة الزجر إلا أن حكمته وتأنيه وحرصه على التفاف القلوب حوله قبل الأجسام كانت تمنعه عن ذلك . وفي اجتماعاته يتوجه للجميع بالحديث ، ويهتم بمشكلاتهم ، ويصغي إليهم ، ويوانسهم الحديث ، وينصف المظلوم ، ويهوى سماع الشعر .

وكان تطوير الشعب والرقي بتعليمه وتثقيفه همه الأول وشغله الشاغل ، وكان حذراً من ترك الحبل للأجانب الذين يشكلون خطراً على ثقافة الأمة وتهديداً لاستقلال الدولة . وفي هذا الصدد فمن بين ما قاله في خطابه الذي ألقاه في المركز الزراعي بالخرج عام ١٩٣٨ بمناسبة الذكرى الخامسة لتأسيسه : " إن التطور الفني والصناعي في الجزيرة العربية يجب أن يسير جنباً إلى جنب مع الثقافة المهنية للشعب، فسنكون دائماً مرغمين على الاستعانة بالأجانب . . . وليعلم أصدقاؤنا الغربيون أن بقاء صداقتنا منوطة باحترامهم تقاليدنا وعاداتنا ومعتقداتنا . لقد فتحنا لهم أبواب بلادنا بوصفهم مدرسين لا أسياداً ، وضيوفاً لا غزاة . فالجزيرة العربية شاسعة بحمد الله ، وكافية لإرضاء أي مطمح ما خلا واحداً هو النيل من سيادتها . . . هذه السيادة التي كلفتنا غالياً جداً والتي نعتز بها ونفضل أن نموت فقراء على التفريط بشيء منها " (ميشان : ١٩٨٥ ، ص: ٢٣٣ ـ ٢٣٤) .

يحدثنا التاريخ أن الملك عبدالعزيز كان من أحرص الناس على احترام الأجانب لعادات البلد وتقاليده ، وهو يرحب بمحاسن الحضارة الغربية ، ويعمل جاهداً على صد سلبياتها . فلقد حظر على شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) استخدام أي شخص يدين باليهودية ، وأصدر قراراً يمنع الشركة والبعثات الأجنبية من استيراد المحرمات وقاية لشعبه من الأخطار (ميشان : ١٩٨٥ ، ص: ٢٧٣ ـ ٢٧٤) .

وعلى الرغم مما توافر لهذا البطل الشجاع من رغد العيش ، ومن أطنان النفط المتدفق في أرضه لم يغير طريقة حياته وأسلوب معيشته ، ولم يداخله التكبر والعجب والخيلاء ، كما يحصل عادة لأقرانه من الملوك والأمراء . " لقد ظل يمارس حياة البداوة الخشنة التي اعتادها منذ كان طفلاً ، والتي مكنته من المقاومة عندما كان في الربع الخالي . كان يأنف الأسرّة الناعمة ، ويفضل النوم على مرتبة

متواضعة ، ويهجر القصور الفخمة ليعيش تحت خيمة كلما سنحت له الظروف بذلك . وكان غذاؤه اليومي العادي يتألف من حليب النوق ، وقليل من اللحم والأرز ، "وبعض التمر ، ويقتصر شرابه على الماء والقهوة والشاي حتى إن هذا التقشف انسحب على الحاشية التي تأثرت به ووجدته قدوة لها . . . ونمت مدينة الرياض في عهده ، وأصبحت مَضَافاً للجميع ، وأصبحت مائدة الملك متاحة للجميع " (ميشان : ١٩٨٥ ، ص : ٢٧١ ـ ٢٧٢) .

وفاة الملك عبدالعزيز :

انتقل الملك عبدالعزيز إلى رحمة الله عام ١٣٧٣هـ صباحاً إثر نوبة صدرية في قصره بالطائف ، وتردد النبأ في كل أنحاء العالم الذي أصابه الذهول لهول ما سمع . وشيعت صحف العالم العاهل الراحل بعبارات تفيض إعجاباً بشخصيته ، وتقديراً لمكانته . وإذا كان أعظم شيء في هذه الحياة هو أن يشق الإنسان لنفسه طريقاً بين الرجال فلقد شق الملك عبدالعزيز لنفسه طريقاً بين الدول والإمبراطوريات بعد جهاد نصف قرن من الجولات الخيالية ، فأصبح سيد الجزيرة العربية وصقرها ، ومعجزة فوق الرمال ، وملحمة أسطورية ، وأسد الجزيرة ، وفهد الرياض ، ونابليون الجزيرة العربية ـ كما يلقبه الإنكليز ـ .

وبعد هذا الجهاد الطويل والكفاح المرير أسدل الستار على الملحمة المذهلة للملك عبدالعزيز ، وأستلم الزمام بعده أبناءه البررة الذين ساروا على دربه ، واقتفوا سيرته ، وواصلوا مشوار النضال والجهاد ، وكانوا خير خلف لخير سلف .

ويشير أحد الباحثين إلى أن التاريخ العربي لم يعرف أسرة كافحت بمرارة مثلما فعلت الأسرة السعودية التي امتازت بالدهاء والحنكة والعبقرية وشدة البأس وقوة الجلد ورسوخ الإيمان وصلابة العقيدة . " فقد تعرضت هذه الأسرة

المجاهدة لكثير من صنوف العذاب ، وذاقت ألم التشرد والحرمان ، فلم تثن الأهوال عزيمتها ، ولم تلن الأحداث الجسام قناتها ، بل جالدت ورابطت وتحملت كل مكروه حتى أدت الأمانة وبلغت الرسالة وركزت الراية . . . لقد أقام عبدالعزيز مملكته الثابتة الأركان القوية الدعائم ، منارة مشعة شامخة انبعثت منها أضواء العدل والإيمان والطمأنينة والسعادة ، وفجر من أراضيها ينابيع الثروة ، فأحسن استغلال كنوز بلاده الطبيعية ، كما أحسن قيادة أمته . . . فهو عظيم في مولده ، عظيم في نشأته ، عظيم في دينه ، عظيم في استقامته ، عظيم في جهاده ، عظيم في غزواته ، عظيم في واقعيته وبعد نظره . . . فتاريخ عبدالعزيز إذاً سفر خالد ، فيه العظات البالغة والتوجيه الصحيح والبطولات الخالدة لكل عربي ومسلم تواق إلى حياة السؤدد والمجد والعزة والقوة والكرامة " (الزامل : د.ت ، ص : ٧٣ـ ٧٤ ، ٧٧) .

وهكذا رسمت السطور السابقة صورة سريعة للملك عبدالعزيز مؤسس الدولة السعودية الثالثة (المملكة العربية السعودية) وباني وحدتها الوطنية ، وواضع أسس نهضتها الحضارية الحديثة ، البطل الذي صنع الوحدة الأنموذج . وليست تلك السطور في الواقع إلا لمحة عابرة عن سيرة الملك عبدالعزيز ، وما وصلت إليه المملكة في عهده من رقي في المجالات كافة من سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية في عصر هذه الأسرة الكريمة .

كما كشفت السطور السابقة عن أن تاريخ الملك عبدالعزيز لم يكن تاريخ توحيد وتأسيس كيان كبير فحسب ، بل كان تاريخ عطاء وبناء دولة على أسس منظمة تنطلق من الاهتمام بالإنسان والعناية بتنميته وتطويره . فقد انطلق في مسيرته لتوحيد هذه البلاد من ثقته بربه ثم بما يمتاز به من صفات قيادية ، وما يلقاه من حب شعبه ، ووقوفهم معه . وقد استطاع الحكم الذي تقلده الملك عبدالعزيز اجتذاب

غالبية الناس لكونه يقوم على أسس دينية ، ولم يقم على عصبية قبلية أو ارتباط إقليمي ضيق ، بل اتسع ليشمل العرب والمسلمين جميعاً . ومن حسن الطالع أن أبناءه البررة قد نهجوا سيرته في الحكم ، وما تشهده البلاد اليوم من تحكيم شرع الله ومن تنمية في مجالات الحياة كافة إنما هو امتداد أصيل لنهج الملك عبدالعزيز وطريقته في العدل والإنصاف وتحكيم شرع الله .

إن تاريخ الملك عبدالعزيز لم يكتب بعد ، ولم يكشف النقاب عن كل جوانبه . يؤكد هذه الحقيقة (عبدالرحمن عزام) في تقديمه لكتاب (عباس العقاد) بعنوان : "مع عاهل الجزيرة العربية" حيث يقول : " . . . كان عبدالعزيز عدة رجال في رجل واحد ، ولقد صدرت عشرات الكتب بمختلف اللغات تتحدث عن جوانب شخصيته ، ولا شك أن المكتبات ستستقبل عدة كتب أخرى تتحدث عن تلك الشخصية النادرة . . . فإن التاريخ الكامل لها لم يكتب بعد " (العقاد : د . ت ، ص : ١٢) . بينما العقاد نفسه يسجل " إن التاريخ في مجراه سيظل يسجل للعظماء سيراً وتراجم ، ولكن ستظل صفحة العاهل الكبير جلالة الملك عبدالعزيز بن سعود منفردة بين تلك الصفحات بأنه قد نسى نفسه ليذكر قومه . إنه الرجل الفرد الذي عمل لهم ما يكونوا قادرين على عمله لأنفسهم ، ولا يكاد يساويه ميراث عظيم من عظماء التاريخ الحديث في العالم العربي . وسيظل إمام المؤرخين عملاقًا من عمالقة التاريخ الحقيقيين الذين أسسوا الممالك وأقاموا البنيان على خير ما يقام وشيدوا الدول على أحسن ما يكون التشييد (العقاد : د . ت ، ٣٤) .

إن شخصية بالحجم الذي سبق بيانه توافر فيها كل مواصفات العظمة ، بدأ حياته وهو لا يملك سقفاً يأوي إليه ، وأصبح في غضون فترة يحكم مملكة شاسعة الأطراف وتتحقق أحلامه على أرض الواقع لهي شخصية جديرة بالبحث والدرس ،

وجديرة بتناول الباحثين والدارسين لأبعادها المختلفة من خلال المشروعات العلمية التي تخدمها ومن بينها مشروع الضبط الببليوجرافي لما كتب عن هذه الشخصية الفذة، وهو ما تطمح الدراسة الحالية إلى تحقيقه .

وإذا كان الأجانب قد اهتموا بتاريخ الملك عبدالعزيز ، وأسهبوا في توثيق جهوده وإنجازاته ، وحصر ما كتب عنه فنحن أولى منهم بدراسة تاريخ هذا البطل وإلا كنا مقصرين بحقه . ذلك أن الأمة التي لا تهتم بعظمائها ليست أمة جديرة بالبقاء ، بل إن دراسة الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز هو أقل تكريم يمكن أن يسدى لخدمة تاريخ هذه المملكة .

الفصل الثالث

الجهود الببليوجرافية السابقة

مقدمة :

يتمحور هذا الفصل الثالث من فصول الدراسة الحالية حول مجموعة من العناصر تتمثل في مفهوم الضبط الببليوجرافي وطبيعته وأبعاده ، وخلفية تاريخية عن نشأة الجهود الببليوجرافية وتطورها عبر الأزمنة والعصور ، واستعراض لأهم نماذج جهود الضبط الببليوجرافي التي قام بها بعض الأفراد والمؤسسات محلياً وعربياً وعالمياً ، وفيما يلي مناقشة لكل عنصر من تلك العناصر ، مع دعم المناقشة برؤى الآخرين ومقترحاتهم ، وبخاصة الباحثين والاختصاصيين في مجال الببليوجرافيا والضبط الببليوجرافي ، والاستشهاد - صراحة أو ضمناً - بمرئياتهم ومقولاتهم .

مفهوم الضبط الببليوجرافي وماهيته :

يتكون مصطلح الضبط الببليوجرافي من كلمتين هما : " ضبط " ، و " ببليوجرافيا " . وينبغي أن نتعرف منذ البداية على المقصود بكلمة ببليوجرافيا - قبل أن نناقش مفهوم الضبط الببليوجرافي - لكونها كلمة أساسية في هذه الدراسة .

لقد مر مصطلح ببليوجرافيا BIBLIOGRAPHY بمراحل عدة ليكتسب معناه المتعارف عليه بين جمهور الاختصاصيين في الوقت الراهن . ولو عدنا إلى تاريخ الكتب والمكتبات لوجدنا أن أصول الكلمة ظهرت في البداية في كتابات شعراء الإغريق الكوميديين في القرن الخامس قبل الميلاد ، وفي أعمال الكتّاب الإغريق في الفترة ما بعد الكلاسيكية .

وكانت كلمة ببليوجرافيا تعني نسخ الكتب ، وذلك منذ ظهورها خلال العصر الإغريقي وحتى القرن السابع عشر الميلادي . وانتقلت الكلمة بالمعنى نفسه إلى اللغة اللاتينية واللغات الأوروبية الحديثة ، وفي القرن السابع عشر تحول معنى الكلمة إلى الكتابة عن الكتب .

ويمكن القول إن هناك معان عدة لاستخدام الكلمة نفسها ، ومن بينها على سبيل المثال الاستخدامات التالية :

- نسخ الكتب أو كتابتها .
- وصف الكتب .
- بيان تطور الكتب من حيث التأليف والطباعة والنشر .
- إعداد قائمة بالكتب حول موضوع معين أو شخصية محددة .

وفي الوقت الراهن انتشر استخدام كلمة ببليوجرافيا وبالذات من قبل الاختصاصيين في مجال المكتبات والمعلومات (الحلوجي : ١٣٩٤ ، ص: ٨١ ؛ الحزيمي: ١٤١١ ، ص: ٢٨٩ـ٢٩٠) .

ويعطي سعد الهجرسي في كتابه الموسوم بـ : " الببليوجرافيا ودراستها في علوم المكتبات " تحليلاً مستفيضاً لكلمة ببليوجرافيا حيث يشير إلى أنها جاءت أصلا من اللغة اليونانية القديمة ، وتتكون من :

- صدر BIBLION وهي صيغة التصغير المأخوذة من BIBLOSأي بمعنى : كتاب

- عجز GRAPHIA وهي اسم الفعل المأخوذ من GRAPHEIN أي بمعنى : نسخ الكتب .

وعند تركيب هذين المقطعين معاً تصبح الكلمة BIBLIOGRAPHIA . ومن ثم حدث لها بعض التغيير حينما تبنتها اللغات الأوروبية فأصبحت في اللغة الإنجليزية BIBLIOGRAPHY . وتمخض عن مصطلح ببليوجرافيا مصطلحات أخرى من بينها :

- اسم الفاعل (ببليوجرافي) BIBLIOGRAPHER
- صفة الاسم (ببليوجرافي) BIBLIOGRA?HIC/ BIBLIOGRAPHICAL
- صفة الفعل (ببليوجرافياً) BIBLIOGRAPHICALLY
- الفعل (إعداد أو تجهيز الببليوجرافية) BIBLIOGRAPHIZE (الهجرسي : ١٩٧٤ ، ٥٩ـ٦٨) .

وترى فوزية عثمان أن مصطلح ببليوجرافيا يغطي مجالين عريضين هما :

١ـ تاريخ الكتاب بدءاً من مرحلة الخطاطة إلى مرحلة الطباعة ، ويعرف هذا المجال بالببليوجرافية التحليلية أو النقدية .

٢ـ وصف الكتب وتسجيلها في قوائم ببليوجرافية في ضوء خطة محددة ونظام واضح ، ويعرف هذا المجال بالببليوجرافية الحصرية أو النسقية أو الوصفية .

والمجال الثاني للمصطلح ـ الذي أشارت إليه فوزية عثمان ـ هو الذي يهمنا في هذه الدراسة ؛ إذ تتمخض الببليوجرافيات عن عملية الحصر أو الضبط الببليوجرافي BIBLIOGRAPHIC CONTROL الذي يعني رصد وتسجيل ووصف الإنتاج الفكري في أشكاله المختلفة بغرض السيطرة عليه ، وجعله في متناول الباحثين .

ولتحقيق الحصر فينبغي توافر مجموعة من الركائز الفنية التي تساعد على الإعداد والوصف والتنظيم والتحليل الموضوعي ، ومن أبرزها ما يلي :

١ـ قواعد مقننة STANDARD RULES يعتمد عليها المفهرسون والببليوجرافيون في عملية الوصف .

٢ـ قوائم استناد الأسماء AUTHORITY FILES التي تساعد على الدقة والثبات في استخدام أشكال المداخل .

٣ـ قوائم رؤوس الموضوعات SUBJECT HEADING LISTS التي تساعد على التحليل الموضوعي .

٤ ـ المكانز THESAURI التي تساعد على بناء الواصفات وبخاصة في حالة استخدام الحاسوب ، مما يضمن التوحيد والتقنين في المصطلحات .

٥ ـ نظم التصنيف CLASSIFICATION SCHEMES التي تساعد في ترتيب محتوى الببليوجرافية .

٦ ـ قواعد ترتيب المداخل FILING CODES التي تساعد على سلامة ترتيب المداخل ، وسهولة البحث عنها .

٧ ـ المواصفات القياسية أو المعايير الموحدة STANDARD SPECIFICATIONS بما في ذلك معايير الوصف الببليوجرافي ، وتنظيم الببليوجرافيات ، والتحليل الموضوعي (عثمان : ١٤١٠ ، ص : ٩٧ ـ ٩٨) .

وقد بدأ الاهتمام بالتوحيد في الإعداد الببليوجرافي يتزايد مع منتصف القرن التاسع عشر ، فقبل ذلك الوقت لم توجد قواعد يعتمد عليها في إعداد الأدوات الببليوجرافية بل كل ما هنالك مجموعة من الإرشادات تشرح للمستفيد طريقة استخدام تلك الأدوات . وقد فطن الأوائل إلى أن توحيد المداخل والوصف للقوائم الببليوجرافية لا يمكن أن يتحقق إلا بالاعتماد على قواعد مقننة ، وكان لهذا الأمر أهمية حيث إنه شكّل الأساس لما صدر بعد ذلك من تقنينات . وتوالت الجهود في هذا المضمار إلى أن صدرت قواعد الفهرسة (الأنجلو أمريكية) عام ١٩٦٧ ، ثم صدر التقنين الدولي للوصف الببليوجرافي عام ١٩٧١ ، تلاه صدور الطبعة الثانية المنقحة من التقنين (الأنجلو) أمريكي عام ١٩٧٨ . وكان لتلك التطورات أثر واضح في تبادل المعلومات الببليوجرافية من خلال توحيد العناصر المستخدمة في الوصف الببليوجرافي ، واتباع ترتيب معين لتلك العناصر . كما أصبح من السهل تبادل التسجيلات الببليوجرافية من بلد لآخر ، وتحويل التسجيلات من الشكل التقليدي إلى الشكل الآلي (عثمان : ١٩٩٠ ، ص : ١١١ - ١١٥) .

ومن الصعب إعطاء تعريف جامع لمصطلح الببليوجرافيا لاعتبارات عديدة من بينها غموض مدلول الكلمة ، وسعة مجالها . ويؤيد هذه الحقيقة روي استوكس ROY STOKES الذي أفرد فصلاً كاملاً لمناقشة مدلول المصطلح في الطبعة الثانية من كتابه الموسوم بـ : " THE FUNCTION OF BIBLIOGRAPHY" حيث توصل إلى نتيجة مفادها : أن مما يزيد من صعوبة التعريف الدقيق لمصطلح الببليوجرافيا العوامل التالية :

- البعد التاريخي للمصطلح .
- كثرة أنماطه .
- تعدد مجالات استخدامه .
- عدم اتفاق الاختصاصيين على مفهوم واضح ومحدد لمصطلح الببليوجرافيا . (STOKES: 1982, 1-15)

والخلاصة ؛ أن مصطلح الببليوجرافيا والضبط الببليوجرافي يعد مصطلحاً قديماً ، وبرغم أنه مستورد من اللغات الأجنبية ، فإن جذوره تعود إلى العصور الإسلامية حيث كان يمارس تحت مصطلح الوراقة . والحقيقة أن كلمة ببليوجرافيا لا تعد الكلمة الوحيدة التي خضعت للتعريب ، بل إن هناك مصطلحات كثيرة مرت بالتجربة نفسها مثل : جغرافيا وفلسفة وتلفزيون وديموقراطية وتكنولوجيا وغيرها . وقد حاول الاختصاصيون العرب استبدال لفظة ببليوجرافيا الأجنبية بمصطلح عربي، فاقترحوا كلمة وراقة ، إلا أن محاولتهم جاءت متأخرة، وذلك بعد رواج الكلمة الأولى وانتشارها . ومع ذلك فقد تم استخدام كلمة وراقة إلى جانب كلمة ببليوجرافيا في أكثر من عمل مثل :

- الحلقة الدراسية للخدمات المكتبية والوراقة (الببليوجرافيا) التي عقدت بدمشق للفترة بين ٢ - ١١ أكتوبر عام ١٩٧١ .

- بعض رسائل الماجستير والدكتوراه التي استعملت كلمة وراقة مقابل كلمة ببليوجرافيا الأجنبية (بودوشه : ١٤١١ ، ص: ٢١١) .
- كتابات بعض الاختصاصيين (مثل : حشمت قاسم ، وعلي النملة ، وفوزية عثمان ، وانستاس الكرملي وغيرهم) الذين فضلوا التمسك بالأصل العربي للمصطلح ، وتبنوه في بحوثهم ودراساتهم .

ويشير سعود الحزيمي إلى أن مصطلح وراقة لم يكتب له الشيوع والانتشار لأسباب عديدة من أبرزها ما يلي :

١ ـ محدودية مدلول مصطلح وراقة .

٢ ـ كون المصطلح يقتصر على أحد المعاني التي تدل عليها كلمة ببليوجرافيا ولا يشملها جميعها .

٣ ـ كون كلمة ببليوجرافيا المعربة أصبحت راسخة الاستخدام من قبل الاختصاصيين في مجال المكتبات والمعلومات في العالم العربي ، ومن قبل المؤتمرات والمنظمات المتخصصة (الحزيمي : ١٤١١ ، ص: ٢٨٥ـ٢٨٦ ، ٢٩٠) .

وإذا كان مصطلح الببليوجرافيا قد دخل اللغة العربية حديثًا ، فإن الممارسات الببليوجرافية (الوراقية) تعد جزءاً طبيعياً من التراث العربي الإسلامي خلال عصوره المبكرة (الهجرسي : ١٣٩٣ ، ص: ٣٣٧) .

ولاحظ شعبان خليفة أن العرب قد قبلوا المصطلح الأجنبي (ببليوجرافيا) ، ولم يرضوا بالمصطلح العربي (وراقة) بدليل أن جل البحوث والدراسات التي قدمت في الندوات استخدمت مصطلح ببليوجرافيا ومشتقاته بما في ذلك البحوث التي قدمتها منظمات عربية تتزعم التأصيل ، وتدعو إلى تخليص اللغة العربية من الكلمات الأجنبية . الأمر الذي يوحي بأن العرب قد ارتضوا كلمة ببليوجرافيا وإن لم يتفقوا على مضمونها (خليفة : ١٤١٦ ، ص: ٧٦) .

والباحث نفسه قد ارتضى أيضاً المصطلح الأجنبي ، ورأى أن يستعمل في هذه الدراسة مصطلح الببليوجرافيا بدلاً من مصطلح الوراقة ، وأن يستعمل مصطلح «الضبط الببليوجرافي» بدلا من مصطلح " الضبط الوراقي " لاعتبارات عديدة من بينها :

- أن مصطلح الضبط الببليوجرافي يعد مصطلحاً شائعاً فرض نفسه على الساحة .
- أن هذا المصطلح هو السائد في الأدبيات ، وبالتالي فإن التمشي مع ما هو سائد يساعد في وضع نتائج الدراسة الحالية في إطار ما توصلت إليه الدراسات السابقة، وتسهل بالتالي عملية المقارنة والاستقراء والتحليل .
- أن القارىء العربي قد أعتاد على سماع مصطلح الضبط الببليوجرافي ، ولا يجد صعوبة في فهم المقصود بالمصطلح ذاته نظراً لتكراره .

جدير بالذكر في هذا المقام ما أشار إليه أحد الخبراء من أن الوقت قد حان للتحول عن مصطلح ببليوجرافيا إلى مصطلح آخر أكثر دلالة على العمل الببليوجرافي وهو " علم تنظيم المعلومات " لأن الببليوجرافيا تبحث عن طريقة للاستفادة المثلى من المعلومات ، وأفضل طريقة لذلك هي التنظيم حيث إن له دلالة مباشرة على هذا القطاع ، وله مدلول شامل يغطي جميع النشاطات المتعلقة بوظيفة إعداد القوائم (بودوشة : ١٤١١ ، ص: ٢١٣) .

هذا فيما يتعلق بتحديد مفهوم الببليوجرافيا ، أما فيما يتعلق بتحديد مفهوم الضبط الببليوجرافي فقد تفاوتت وجهات النظر حيال هذا الأمر ، وتعددت التعريفات الموضوعة للمصطلح . وفي هذا السياق يذهب محمد طاهر MOHAMMAD TAHER إلى أن مصطلح الضبط الببليوجرافي يشمل سلسلة من العمليات التي تهدف إلى إيجاد قوائم لمختلف مصادر المعلومات . وبعبارة بسيطة يمكن القول إن المقصود بالمصطلح السيطرة التامة على سجلات المعرفة المنشورة وغير المنشورة وتيسير الوصول إليها (TAHER : 1988, 59) .

ويعتقد الباحث أن التعريف الذي اقترحه (نسيم الصمادي) للضبط الببليوجرافي في مقالته الموسومة بـ : " الضبط الببليوجرافي للدوريات في الخليج العربي ـ الاسترجاع الكلي " يعد أوسع تعريف وأشمله حيث يتعامل مع المصطلح بمفهومه الشامل الذي يعني إعداد الأدوات الببليوجرافية من فهارس وأدلة وكشافات ومستخلصات يدوية أو آلية بغرض حصر المعلومات وتنظيمها واختزانها واسترجاعها في موضوع واحد أو عدة موضوعات ، وفي نطاق جغرافي محلي أو قومي أو عالمي ، بلغة واحدة أو بعدة لغات ، ولجميع أشكال الأوعية المخطوطة والمطبوعة والمصغرة (الصمادي : ١٤٠٣ ، ص: ٥٦٦) .

ومن بين المحاولات الأخرى المقترحة لتعريف الضبط الببليوجرافي أنه نظام للحفظ الدقيق لجميع أشكال الوثائق المنشورة وغير المنشورة والمطبوعة والمواد السمعية والبصرية وغيرها التي تضيف إلى الرصيد المعرفي والمعلوماتي (IFLA INTERNATIONAL OFFIC FOR UBC : 1983, 1) .

وعلى أية حال ، فإن مصطلح الضبط الببليوجرافي يمكن أن يستوعب أكثر من تعريف ، وأكثر من معنى ، وفي هذا السياق يصف دونالد دافينسون DONALD DAVINSON في كتابه الموسوم بـ : BIBLIOGRAPHIC CONTROL " مصطلح الضبط الببليوجرافي بأنه من المصطلحات المحيرة التي تمثل تحديًا للمهتمين بالمجال ، وقد أورد دافينسون في كتابه بعض المحاولات والاجتهادات الموضوعة لتعريف المصطلح وانتهى إلى نتيجة عامة مفادها أنه برغم تفاوت تلك التعريفات في تفصيلاتها فإنها تتفق في مضمونها . ويقترح دافينسون أن يعرّف المصطلح بأنه أداة لتنظيم سجلات المعرفة في مختلف أشكالها المطبوعة والمرئية والمسموعة ، المنشورة وغير المنشورة ، بالشكل الذي يتيح تلك الأداة للأجيال القادمة (DAVINSON : 1981, 7-14) .

من الممكن تقسيم الببليوجرافيا من الناحية الشكلية إلى قسمين :

- الببليوجرافيا التحليلية ANALYTICAL BIBLIOGRAPHY التي تركز على الوصف المادي للوثيقة من حيث : ورقها وطباعتها ، ونوع حروفها ، وعدد ملازمها وعلامات الطابعين وغير ذلك من الملامح المادية .
- الببليوجرافيا النسقية (المنهجية) SYSTEMATIC BIBLIOGRAPHY التي تركز على حصر الإنتاج الفكري حول موضوع معين أو مكان محدد أو شخصية أو فترة زمنية محددة .

ومن المتعارف عليه أن الببليوجرافيا عبارة عن دليل أو مفتاح يرشد الباحث في الوصول إلى مصادر المعلومات المتعلقة بمجال موضوعي محدد . وتعد الببليوجرافيات من المصادر الأولية والثانوية . وهناك أدوات عديدة للضبط الببليوجرافي نذكر من بينها : الفهارس والأدلة والكشافات والقوائم الببليوجرافية وقواعد المعلومات وشبكاتها . ويمكن إجمال أهمية تلك الأدوات في النقاط الآتية :

١ ـ إضفاء قيمة حقيقية على مصادر المعلومات ؛ حيث لا فائدة من تلك المصادر مهما بلغ حجمها ومهما ارتفع ثمنها ما لم تكن هناك أدوات تعرّف بها وتدل عليها .
٢ ـ إطلاع الباحث على مختلف أنواع المصادر التي تتناول موضوع بحثه ، مما يرسم للباحث صورة شمولية عن المحاولات السابقة في مجال الاهتمام .
٣ ـ مساعدة الباحث على اختيار وانتقاء المصادر التي تلبي اهتماماته بشكل أكثر .
٤ ـ إرشاد الباحث إلى مصادر لم تخطر في باله ولم تكن في حسبانه .
٥ ـ معاونة الباحث في التحقق مما يتوافر لديه من بيانات وصفية عن المصادر ، الأمر الذي يساعده على تصحيحها أو استكمالها (عبدالهادي : ١٩٨٢ ، ص : ١٢٠ـ١٢١) .

٦ ـ المساهمة في حفظ التراث الفكري من الضياع والاندثار .
٧ ـ تيسير سبل التعاون ، والتنسيق الثقافي على مختلف المستويات .
٨ ـ تعزيز البحث والتنمية في هذا العصر الذي تضخم فيه حجم الإنتاج الفكري ، وتزايدت فيه أهمية المعلومات (فرسوني : ١٤٠٤ ، ص : ٥١٤) .
٩ ـ تحقيق التكامل بين الدراسات المهتمة بالمجال ، والحد من التكرار .
١٠ ـ مساعدة المكتبي في تنمية المجموعات .

ويمكن القول بعبارة أخرى إن أدوات الضبط الببليوجرافي بمثابة مفاتيح للوصول إلى مصادر المعلومات وكنوز المعرفة ، وهي توفر على الباحث الوقت والجهد والمال . والببليوجرافية بمثابة سجل للنشاط الفكري ، والإسهام العلمي في المعرفة الإنسانية . وهناك مستويات عديدة للضبط الببليوجرافي ؛ فهي تتدرج على النحو التالي :

- المستوى المحلي (حصر المواد المتوافرة في مدينة معينة أو مكتبة محددة) .
- المستوى الوطني (حصر التراث الفكري في وطن معين) .
- المستوى الإقليمي (حصر التراث المنشور بلغة قوم معينة) .
- المستوى العالمي (حصر تراث العالم بأسره) (فرسوني : ١٤٠٤ ، ص : ٥١٤) .

وهكذا يمكن القول إن مصطلح ببليوجرافيا يحمل معان عدة ، ويشمل نشاطات متنوعة لها علاقة بالإنتاج الفكري المسجل ، الأمر الذي أدى إلى كثرة التعريفات الموضوعة للمصطلح ، وتشعب معانيه بحيث تشمل الدراسات المتعلقة بتاريخ الكتاب ، والوصف المادي للإنتاج الفكري ، وإعداد القوائم والفهارس التي تحصر مصادر المعلومات وتسهل عملية الوصول إليها . وعلى أية حال فإن

العمل الببليوجرافي لم يظهر بوصفه عملاً علمياً مستقلاً ومتميزاً إلا في العصر الحديث ، وبخاصة عندما بدأت المؤسسات - بما تمتاز به من الاستمرارية والإمكانات الواسعة - تهتم بتلك الأعمال ، وبدأ الدور الببليوجرافي للمؤسسات يظهر على السطح .

الخلفية التاريخية لظاهرة الضبط الببليوجرافي :

بعد أن تعرفنا على ماهية الضبط الببليوجرافي ، وعرفنا المقصود بهذا المصطلح ، يحسن بنا أن نقف في السطور اللاحقة على نشأة المصطلح نفسه ، وتطوره عبر الأزمنة والعصور .

يحدثنا التاريخ أن الجهود الببليوجرافية كانت موجودة في العصور القديمة على شكل جزء من الأعمال الأدبية ، وكتب التاريخ والتراجم . وتطورت تلك الجهود في العصر الإسلامي حيث أسهم المسلمون بنصيب وافر في هذا الميدان ، وشهدنا ظهور أول عمل ببليوجرافي (وراقي) مستقل خلال القرن الرابع الهجري ، وتبعه فيما بعد أعمال ببليوجرافية أخرى . " وقد أتت البداية الحقيقية للأعمال الببليوجرافية الحديثة ، بعد اكتشاف الطباعة خلال القرن الخامس عشر . حيث بدأ الإنتاج الفكري يزداد بشكل كبير يوماً بعد يوم ، وبدأ تزايد الأعمال الببليوجرافية التي صدرت عن المؤسسات والأفراد ، واستمر التطور في طريقه خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، حتى جاء القرن العشرون الذي شهد العديد من القفزات الهائلة في ميدان الأعمال الببليوجرافية ، سواء من ناحية الكم أو الكيف ، أو من ناحية استخدام معطيات التقنية الحديثة في مجال الحاسبات الآلية ووسائل الاتصال" (الحزيمي : ١٤١١ ، ص: ٢٨٣) .

واستخدم العرب كلمة وراقة بمعنى نسخ الكتب منذ القرن الأول للهجرة ، كما استخدموا كلمة وراق بمعنى ناسخ الكتب . وتطور مصطلح الوراقة ليعني النشر في عصر التدوين ، كما تطور مصطلح الوراق ليعني الناشر . أما مصطلح

الفهرست فكان يقصد به القائمة التي تحصر الإنتاج الفكري وتصفه (خليفة : ١٤١٦ ، ص : ١٥) .

والحقيقة أن للمسلمين باع طويل في الفن الببليوجرافي (الوراقي) حيث برع ذلك الفن بوجه خاص في القرن الرابع الهجري الذي شهد ظهور الفهرست لابن النديم على شكل قائمة تحصر جميع ما ألف باللغة العربية في مختلف الفنون منذ بداية التأليف حتى عام ٣٧٧هـ . وتبع ابن النديم جهود ببليوجرافية أخرى لا تقل عنه أهمية ، يمكن تلخيص أبرز أمثلتها في النماذج التالية :

- كتاب " مفتاح السعادة ومصباح السيادة " ؛ الذي ألفه طاش كبري زاده ، والذي يعد موسوعة وراقية تحتوي على تراجم مختصرة للمؤلفين ، ويعطي أسماء الكتب المؤلفة في أنواع العلوم المعروفة في ذلك العصر .
- " كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون " لحاجي خليفة ؛ الذي يقدم رصداً صادقاً للإنتاج الفكري العربي وبخاصة في مجال المخطوطات .
- " معجم المطبوعات العربية والمعربة " ؛ الذي جمعه ورتبه إلياس سركيس ، ويحتوي على أسماء الكتب المطبوعة في الأقطار الشرقية والغربية منذ ظهور الطباعة حتى نهاية عام ١٣٣٩هـ .
- كتاب " الذريعة إلى تصانيف الشيعة " ؛ الذي ألفه الشيخ آغا بزرك الطهراني ، حيث جمع فيه كتب أعلام الشيعة على مر العصور ، ورتبها وفقاً لعناوينها .
- " تاريخ الأدب العربي " لكارل بروكلمان ؛ الذي يحتوي على ما ألفه العرب منذ العصور القديمة إلى أوائل القرن العشرين ، مرتباً وفقاً للعصور الإسلامية .

وشهد أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تقدماً في الببليوجرافيا الحديثة وذلك لأسباب عديدة يرى سعود الحزيمي أن من أهمها ما يلي :

١ـ اكتشاف بلدان جديدة .

٢ـ ازدياد الحركة العلمية .

٣ـ تفجر الثورة الصناعية .

٤ـ تقدم المعارف العامة .

٥ـ إصلاح نظم التعليم .

٦ـ تأسيس الجمعيات العلمية .

٧ـ ازدياد إصدار الصحف .

٨ـ تأسيس عدد كبير من المكتبات ومراكز التوثيق (الحزيمي : ١٤١١ ، ص : ٢٩٥) .

وقد لاحظ شعبان خليفة من استقرائه للأدبيات أن كلمة ببليوجرافيا قد تطورت عبر خمسة وعشرين قرناً بشكل غير منظم ؛ حيث يضيق في بعض الأحيان مدلول الكلمة اللغوي بينما يتسع في أحيان أخرى بحيث يشمل مجالات الكتاب والكتابة والمكتبات والمعلومات . ويتنازع الكلمة نفسها علماء اللغة والمؤرخون والمكتبيون وخبراء المعلومات والحاسوب وحتى رجال السياسة ؛ فكل فريق من هؤلاء ينظر إلى لفظ ببليوجرافيا من وجهة نظره الخاصة . وخرج خليفة من البحث والممارسة بنتيجة مفادها أن علم الببليوجرافيا يتمركز حول نظريتين هما :

- النظرية العامة ؛ التي تذهب إلى أن الببليوجرافيا علم يهتم بدراسة ما صدر من قوائم الإنتاج الفكري ، ودراسة طريقة إعدادها وإنتاجها .
- النظرية الخاصة ؛ التي تذهب إلى أن الببليوجرافيا هي علم الكتاب ، أي دراسته من حيث الرمز والوسيط والفكر (خليفة : ١٤١٦ ، ص : ٧ـ٨) .

ولعل استقراء خليفة التاريخي للأدبيات يوحي بأن مصطلح الببليوجرافيا لم يستقر خلال المرحلة التي قطعها على مفهوم محدد ومتفق عليه بين جميع الأطراف .

ويؤيد هذه الحقيقة ما ذهبت إليه (حورية مشالي) من أن الببليوجرافيا لم تحظ حتى الوقت الراهن بتعريف محدد ومتفق عليه ؛ وذلك بسبب اختلاف وجهات نظر الباحثين ، وسرعة التطور الذي صاحب النشاط الببليوجرافي (مشالي : ١٤٠٩ ، ص : ٤٩٩) .

جدير بالذكر أن مصطلح " التوثيق " DOCUMENTATION استطاع أن ينافس مصطلح "ببليوجرافيا " بعد الحرب العالمية الأولى ، ففي عام ١٩٣٦ غيّر المعهد الدولي للببليوجرافيا (الذي أنشىء عام ١٨٩٢) اسمه ليصبح الإتحاد الدولي للتوثيق . بيد أن كلمة ببليوجرافيا فرضت ـ ولا زالت تفرض ـ نفسها على الساحة ، وتستخدم على المستوى الأكاديمي حيث تدرّس مادة الببليوجرافيا في أقسام المكتبات في العالم العربي ، وتركز المادة على إعداد القوائم الببليوجرافية . والواقع أن مفهوم التوثيق أوسع وأرحب من مفهوم الببليوجرافيا ؛ ذلك أن نشاطات أو خدمات التوثيق تشمل عمليات فنية كثيرة من بينها خدمات الببليوجرافيا (شرف الدين : د . ت . ، ص : ٣٢٥) .

وتبذل الأمم المتقدمة جهوداً طائلة في ضبط ما أنتجه العقل البشري في مختلف فروع المعرفة بهدف خدمة الباحثين والدارسين ، وإعفائهم من مشقة البحث عن المصادر . ويبرهن التاريخ على أن العصر الراهن شهد تطوراً في إخراج المعلومة لم يسبق له مثيل . فمنذ اختراع الطباعة في حوالي منتصف القرن الخامس عشر وحتى الآن نجد أن الإنتاج قد تضاعف بشكل يصعب معه على الباحث متابعته بنفسه وبجهوده الذاتية .

وأصبحت بالتالي قضية حصر المعلومات وتنظيمها واسترجاعها من أهم القضايا التي تشغل مؤسسات المعلومات على إطلاقها . الأمر الذي يوحي بضرورة الضبط الببليوجرافي من خلال إعداد القوائم الببليوجرافية وغيرها التي تختصر على المستفيدين المسافة ، وتعطيهم فرصة أكبر لتركيز جهودهم على القضايا العلمية تاركين ما عداها من القضايا التوثيقية على المكتبات ومراكز المعلومات والتوثيق ونحوها من المؤسسات التي يقع على عاتقها مهمة جمع المعلومات ومعالجتها وبثها للفئات المستهدفة .

وفي هذا السياق يشير حامد دياب إلى أن " إصدار الأدوات الببليوجرافية في عصرنا هذا أصبح من ضروريات الحياة العلمية ، ولاسيما في عصر تنفجر فيه المعلومات بصورة مذهلة حتى لكأن المطابع بطاقاتها الفائقة تكاد تعجز عن ملاحقة المؤلفين في نشر ما يكتبون . ولقد أصبح من المؤكد الثابت أن إصدار مثل هذه الأدوات الببليوجرافية علامة مميزة للأمة التي تريد أن تسلك المنهج العلمي في البحث عن المعرفة ، والوصول إليه في أقرب طريق ، هادفة بذلك إلى التقدم والرقي في مناشط الحياة المختلفة " (دياب : ١٤٠١ ، ص: ٧) .

وهناك عدة عوامل ساعدت على نجاح الأعمال الببليوجرافية في الدول المتقدمة نذكر من أبرزها العوامل التالية :

١ـ توافر القواعد والركائز الفنية .

٢ ـ توظيف تلك الركائز في خدمة المشروعات الببليوجرافية .

٣ـ تسخير التقنية الحديثة في هذا الصدد .

٤ ـ الاستعانة بالكفاءات البشرية المدربة .

٥ ـ التعاون بين المؤسسات المهتمة بعملية الضبط الببليوجرافي .

وخلال السنوات الماضية تركز الاهتمام على الضبط الببليوجرافي العالمي بفضل الجهود التي يبذلها كل من برنامج المعلومات العام لليونسكو UNESCO

GENERAL INFORMATION PROGRAMME وبرنامج إيفلا للضبط الببليوجرافي العالمي IFLA'S PROGRAMME OF UNIVERSAL BIBLIOGRAPHIC CONTROL (UBC) ، الأمر الذي يسهم في إيجاد نظام عالمي للمعلومات ، ويساعد في السيطرة عليها وتبادلها .

وقد كان للبرنامجين السابقين (اليونسكو ، وإيفلا) ، وللمنظمات الدولية الأخرى المعنية بتدفق المعلومات دور في إثراء وتطوير الأدوات الضرورية ، والمعايير الببليوجرافية العالمية المطلوبة . كما دعمت تلك البرامج مفهوم الضبط الببليوجرافي من خلال تخصيص الدعم المالي لحلقات المناقشة وورش العمل والاجتماعات ، ونشر بعض الأدلة والكتيبات والمعايير التي تخدم هذا المفهوم .

إن تحقيق حلم الضبط الببليوجرافي العالمي أمر مرهون بقيام كل دولة على حدة بالإسهام في هذا النظام الدولي (IFLA INTERNATIONAL OFFICE FOR UBC : 1983 ، V) من خلال إعداد الأدوات التي تضبط جميع فروع المعرفة البشرية ، أو تضبط كل فرع على حدة .

وهناك بعض الجهود العربية التي بذلت من أجل تعزيز حركة الضبط الببليوجرافي في العالم العربي ، وتتزعمها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التي خطت الخطوة الأولى في المجال عندما عقدت المؤتمر الأول للإعداد الببليوجرافي في الرياض للفترة بين ٢٤ نوفمبر ـ ١ ديسمبر ١٩٧٣م . وقد أوصى المؤتمر بأن تقوم المنظمة بتنفيذ مجموعة من التوصيات من بينها ما يلي :

١ـ تعريب التقنين الدولي للوصف الببليوجرافي .
٢ـ دراسة التعديلات العربية لتصنيف ديوي العشري .
٣ـ دراسة قائمة رؤوس الموضوعات العربية ، وقائمة رؤوس موضوعات الدين الإسلامي .

وتواصل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم جهودها المتمثلة في تنفيذ مجموعة من المشروعات التي تدعم الحركة الببليوجرافية ، وتعرّف الببليوجرافيين العرب بالأدوات المستخدمة في مجال عملهم ، وتحيطهم بالمستجدات التي تعمل على زيادة وعيهم ، وتنمية ثقافتهم (المسقطي : ١٤٠٦ ، ص : ٥) .

إن عملية الضبط الببليوجرافي ليست وليدة الساعة ؛ فلقد مرت العملية بمراحل وتطورات عديدة مما يوحي بأن مفهوم الضبط ليس جديداً ، حيث ارتبط بزيادة ما يصدر من بحوث ودراسات في مختلف الموضوعات ، وصعوبة السيطرة عليها بدون أدوات تساعد على حصرها وتوثيقها ومعالجتها . وكانت المحاولات الأولى للضبط الببليوجرافي على أيدي أفراد من العلماء ، وهواة الكتب والناشرين الذين حاولوا جمع قوائم بالكتب التي قرأوها أو ألفوها أو نشروها ، وأيضاً من خلال بعض المكتبات التي أسهمت بإعداد قوائم حصرية بما يتوافر بها من مقتنيات . وفي مرحلة تالية ـ مع زيادة الأوعية وتنوعها وتعقد موضوعاتها ـ أصبح هناك حاجة إلى مؤسسات تتولى حصر الإنتاج الفكري ، ومن ثم بدأت الفكرة تتجه نحو العالمية وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية بهدف إنشاء نظام عالمي للضبط الببليوجرافي ، وإيجاد تنسيق دولي في هذا الصدد .

وتقوم الفكرة على إنشاء شبكة تتكون مجموعاتها من كل دولة ، وتكّون في مجموعها النظام الدولي للضبط الببليوجرافي INTERNATIONAL SYSTEM FOR BIBLIOGRAPHIC CONTROL ، وبدأت بعض الخطوات الرامية إلى تنفيذ المشروع في الأعوام الماضية إلا أن المشوار طويل ، ولم يتحقق بعد بالصورة المطلوبة (جمعة : ١٤٠٢ ، ص : ٩٧ـ٩٨) .

لقد كثر الجدل بين الاختصاصيين حول ما إذا كانت الببليوجرافيا علم أم فن أم الاثنين معاً . ولعل الصحيح هو أن الببليوجرافيا بوصفها علم له قواعده وفلسفته تعود إلى بداية القرن التاسع عشر ، وبصفتها فن وممارسة وتطبيق فهي تعود إلى

الوراء سنوات طويلة (الهوش : ١٩٩٢ ، ص:١٨) . وتمثل الببليوجرافيا في الوقت الراهن تخصصاً مستقلاً يندرج تحت مظلة المكتبات والمعلومات الواسعة ، ويدرس هذا التخصص على المستوى الأكاديمي ، وأصبحت دراسة الضبط الببليوجرافي للموضوعات أو للشخصيات مجالاً مغرياً بالبحث والدراسة العلمية .

نستطيع أن نخرج مما سبق بمجموعة من الأسباب التي تقف خلف أهمية الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري بشكل عام وذلك على النحو التالي :

١- بروز ظاهرة انفجار المعلومات منذ منتصف هذا القرن تقريباً ، مما نتج عنه ظهور أشكال عديدة وأنماط متباينة لأوعية المعلومات من كتب ومقالات ورسائل جامعية ووثائق وتقارير فنية وأعمال المؤتمرات والندوات ومواد سمعية وبصرية وغيرها .

٢- الاتجاه العالمي نحو تشجيع البحث العلمي باللغات الوطنية ، مما ساعد على زيادة عدد لغات النشر .

٣- ظهور مجالات علمية جديدة بما تتسم به من ارتباطات موضوعية معقدة ومن تداخل وتشابك بينها ، مما ساهم بدوره في تضخم حجم المؤلفات التي تغطي تلك الموضوعات .

٤- تنوع احتياجات المستفيدين وتعقدها ، وزيادة الطلب على المعلومات المعدة من مصادر مختلفة .

أما فيما يتعلق بالأسباب التي تقف خلف أهمية الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري المتعلق بتاريخ الملك عبدالعزيز - موضوع الدراسة الحالية - على وجه الخصوص فقد سبق توضيح هذا الجانب . ومن حسن الطالع أن الملك عبدالعزيز من بين الموضوعات التي حظيت بالضبط الببليوجرافي من جانب عدد من الأفراد والمؤسسات كما ستكشف عن ذلك الصفحات اللاحقة . وهو أمر ليس بمستغرب إذا أخذ في الحسبان أنه - يرحمه الله - يمثل شخصية عالمية فرضت نفسها ،

وأسست دولة، ووحدت أمة ، ولمت الشمل ، وأعادت ملك الآباء والأجداد . وشخصية بهذه المواصفات تستحق أن تتمحور حولها الدراسات الببليوجرافية والتوثيقية .

قبل أن نختم هذا القسم من الدراسة المتعلق بالخلفية التاريخية لظاهرة الضبط الببليوجرافي ينبغي أن نشير إلى أن المعالجة لهذا الموضوع تمت بشكل مقتضب ، وللحصول على مزيد من التفصيلات حول هذا الجانب يمكن الرجوع إلى كتاب (شعبان خليفة) بعنوان : "الببليوجرافيا أو علم الكتاب ـ دراسة في أصول النظرية الببليوجرافية وتطبيقاتها النظرية العامة " ، أو مقالة (حورية مشالي) بعنوان : " علم الببليوجرافيا ـ النشأة والتطور " (خليفة : ١٤١٦ ؛ مشالي : ١٤٠٩) .

أدوات الضبط الببليوجرافي :

لكي نفهم الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن تاريخ الملك عبدالعزيز ينبغي أن نلم بصورة شمولية بالأدوات التي تسهل عملية الضبط ، وتساعد على إخراجه بصور متعددة . وقد تم في العرض السابق الإشارة بشكل سريع وموجز للأشكال المتنوعة لأدوات الضبط الببليوجرافي التي تساعد على البحث واسترجاع المعلومات يدوياً أوآلياً . ونظراً لأهمية تلك الأدوات فقد رأى الباحث تخصيص قسم مستقل لها يوضح المقصود بها ، ويعطي نماذج لأبرزها ، وذلك على النحو التالي :

١ـ الفهارس :

ويقصد بها فهارس المكتبات التي تعكس مقتنياتها ، وتحصر موادها . وقد ينصب الفهرس على مكتبة معينة ، أو على عدة مكتبات يجمعها قاسم مشترك (مثلاً الفهرس الموحد بالنسبة للمكتبات الجامعية) . وقد يكون الفهرس في شكل تقليدي (فهرس بطاقي ، فهرس مطبوع ، فهرس في شكل كتاب) ، أو في شكل

آلي (فهرس محسب) . وبغض النظر عن الشكل الذي يصدر فيه الفهرس فهو يعد من الناحية التاريخية من أقدم أدوات الضبط الببليوجرافي ، ومن أوائل وسائل استرجاع المعلومات .

وتكمن فائدة الفهارس في أنها ترشد إلى مصادر المعلومات الموجودة بالفعل في المكتبات مما يعطي الباحث صورة واقعية لما هو موجود داخل جدران المكتبة بحيث يستطيع الإطلاع عليه داخلياً أو استعارته خارجياً أو تصويره . ويطلق على هذا النوع من الفهارس أحياناً أدلة المقتنيات المطبوعة .

٢ - الكشافات :

ويقصد بها تحليل محتويات الدوريات ـ وغيرها من الأوعية ـ من خلال إعطاء البيانات الوصفية الضرورية . وتمتاز الكشافات بالحداثة ، والانتظام في متابعة الإنتاج الفكري .

وتكمن قيمتها في أنها توفر على الباحث الوقت والجهد في البحث عن مصادر المعلومات، وتغطي البحوث والدراسات الجارية التي تهم الباحثين وبخاصة في مجالات العلوم والتقنية . وقد يغطي الكشاف محتويات دورية واحدة أو عدة دوريات تعالج موضوعاً واحداً .

٣ـ المستخلصات :

تمتاز نشرات الاستخلاص عن الكشافات بأنها تضيف إلى البيانات الأساسية عن الموضوع فكرة موجزة له تساعد في التعرف على مضمونه ، إلا أن إعدادها عملية مكلفة وتحتاج إلى فريق من الاختصاصيين .

والمستخلص ـ بوصفه أداة ببليوجرافية ـ أكثر فائدة للباحث من الكشاف لأنه يعطي معلومات قد تغني في بعض الأحيان عن الرجوع إلى أصل الوثيقة .

٤ـ القوائم الببليوجرافية :

تعطي القوائم الببليوجرافية بيانات وصفية عن أوعية المعلومات المدرجة فيها، ونادراً ما تشير إلى أماكن وجود تلك الأوعية . وتتفاوت في مجالات التغطية الزمانية والمكانية والشكلية والموضوعية ؛ فقد تقتصر مثلاً على الكتب وحدها التي صدرت في موضوع معين، وقد تضيف إليها الدوريات والرسائل الجامعية وغيرها من أوعية المعلومات .

وتكمن القيمة الحقيقية للقوائم الببليوجرافية في أنها تضع بين يدي الباحث في وعاء واحد جل أو غالبية ما صدر من أدبيات في مجال اهتمامه مما يعطيه صورة شمولية لخارطة المعرفة في المجال ، ويوفر عليه عناء البحث عن مراده في عدة مصادر متفرقة .

٥ ـ المرشد إلى أدب الموضوع :

يكون المرشد إلى أدب الموضوع GUIDE TO THE LITERATURE في العادة على شكل كتاب مرجعي استشاري يوجه الباحث إلى مصادر المعلومات الرئيسة في مجال اهتمامه بما في ذلك الببليوجرافيات والكشافات والأدلة والموسوعات وغيرها . ويحتوي المرشد في مقدمته على نبذة موجزة تتناول حدود الموضوع ، ومناهج البحث فيه ، وأشهر المؤلفين وأبرز مؤلفاتهم ، وأهم مدارس التفكير في المجال .

ولهذا النوع من الأدوات الببليوجرافية أهمية لا تنكر حيث إنه لا يكتفي بمجرد سرد أهم المراجع ذات الصلة الوثيقة بالموضوع بل إنها تعطي نبذة موجزة عن تلك المراجع ، وأيضاً تعطي نبذة موجزة عن المجال نفسه من حيث مفهومه ونشأته وتطوراته وأهم النظريات التي تؤثر على اتجاهات البحث والتأليف في المجال ونحو ذلك من القضايا التي تهم الباحث .

٦ ـ قواعد البيانات الببليوجرافية :

تمثل قواعد البيانات الببليوجرافية BIBLIOGRAPHIC DATA BASES أحدث أنماط الضبط الببليوجرافي في الوقت الراهن حيث انتشر استخدامها نتيجة للتطورات في تقنية الحاسوب ، ووجدت قبولاً لدى كثير من الأفراد والمؤسسات المهتمة بالتوثيق والضبط الببليوجرافي . وتخزن سجلات تلك القواعد على وسائط قابلة للقراءة بواسطة الحاسوب . وتعطي بعض القواعد الآلية مستخلصات لمحتوياتها ، كما أنها تتيح للمستفيد الحصول على نسخ مطبوعة لموادها - PRINT . OUT

ولاشك أن لقواعد المعلومات ميزات تتفوق بها على الأساليب التقليدية للضبط الببليوجرافي مثل :

- السرعة .
- الاستيعاب لحجم كبير من المعلومات .
- الاستجابة لاحتياجات المستفيدين المعقدة .

إلا أن تلك القواعد مكلفة على أية حال ، وتحتاج إلى صيانة مستمرة ، وإلى خبراء مدربين (عبدالهادي : ١٩٨٧ ، ص : ١٣ ـ ١٦) .

وبالإضافة إلى ما سبق الإشارة إليه من أدوات ببليوجرافية ، فهناك أدوات أخرى لا تقل عنها أهمية من بينها على سبيل المثال ما يلي :

٧ ـ الأدلة :

من الممكن تقسيم الأدلة إلى أربعة أقسام أو أنماط ببليوجرافية وذلك على النحو التالي :

أ ـ أدلة الدوريات : التي تعطي عادة بيانات عن كل دورية تشمل : عنوانها ، واسم الناشر ، وطريقة الصدور ، وتاريخ انطلاق الدورية ، وعدد مقالاتها ، والموضوعات التي تغطيها . ويدخل في هذا النطاق القوائم الموحدة للدوريات ؛ التي تعطي حصراً بما تقتنيه المكتبات من دوريات .

ب ـ أدلة الرسائل الجامعية : التي تعطي حصراً بما صدر من رسائل في موضوع معين ، أو في مكان محدد . ومن أمثلتها على المستوى العالمي مستخلصات الرسائل الجامعية DISSERTATION ABSTRACTS INTERNATIONAL التي تصدر بالولايات المتحدة الأمريكية ، وعلى المستوى العربي الدليل الببليوجرافي للرسائل الجامعية في مصر الذي صدر عن مركز الأهرام للتنظيم والميكروفيلم .

ج ـ أدلة المراجع : التي ترشد إلى ما صدر من كتب مرجعية GUIDE TO REFERENCE BOOKS ، وترصد العام والمتخصص منها بمختلف أشكالها . وتتفاوت تلك الأدلة في تغطيتها الزمنية واللغوية والموضوعية . وتقدم أدلة المراجع بيانات ببليوجرافية عن كل مرجع ، ونبذة موجزة عن طريقة تنظيمه واستخدامه . وينظر إلى تلك الأدلة على أنها أدوات مهمة للضبط الببليوجرافي لأنها ترصد المصادر الأساسية في موضوع البحث .

د ـ فهارس الناشرين : التي تخدم بوصفها أدوات تجارية لإحاطة السوق بما صدر من أعمال في مجال الاهتمام .

ولاشك أن للأدوات السابقة أهمية لا تنكر في تحريك المعرفة ، وتفعيل البحث العلمي ، وتوفير وقت الباحثين ، وتلافي تكرار البحوث ، ورسم الخريطة العلمية ، والتعرف على اتجاهات البحث المختلفة واهتمامات الكتّاب . وهذه الأدلة لا غنى عنها لمن يرغب في التعرف على مصادر المعلومات الأساسية في

مجال تاريخ المملكة بشكل عام وتاريخ الملك عبدالعزيز بشكل خاص . إذ بدون الاستعانة بتلك الأدوات التي تعد بمثابة مفاتيح للوصول إلى مصادر المعلومات يصعب على الباحث العثور على ضالته في خضم ما تقذف به المطابع ودور النشر من كميات هائلة من أوعية المعرفة . ولذا فإن القيمة الحقيقية لأدوات الضبط الببليوجرافي تكمن في ما يلي :

١ـ إرشاد الباحث إلى المصادر الخاصة بموضوع بحثه زمنياً وجغرافياً ولغوياً .

٢ـ مساعدة الباحث على اختيار المصادر التي تلبي اهتماماته بشكل أكثر .

٣ـ الكشف عن مصادر جديدة لم تخطر على بال الباحث من قبل .

٤ـ التحقق من البيانات عن مصادر المعلومات والعمل على تعديلها أو استكمالها (عبدالهادي : ١٩٨٧ ، ص : ١٢) .

والواقع أن جميع أدوات الضبط المشار إليها تهمنا في هذه الدراسة التي تحاول التعرف على جميع الجهود المبذولة للسيطرة على الإنتاج الفكري المتعلق بالملك عبدالعزيز ، وإن كان النمط السادس (قواعد البيانات الببليوجرافية) يحتل أهمية أكثر ، ولذا تم تخصيص مساحة كافية للحديث عن قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز بوصفها أنموذجاً في هذا الصدد .

وسيتضح لنا فيما بعد أن الواقع يختلف عن الصورة المثالية التي سبق رسمها ، وأن تاريخ الملك عبدالعزيز يفتقر إلى الأدوات المشار إليها ، بل إنه في الحقيقة يعيش في حالة من الفوضى الببليوجرافية - إن صح التعبير - ، الأمر الذي دعا الباحث إلى مناقشة هذه القضية مناقشة مستفيضة في القسم المتعلق بتقويم الجهود السابقة ، وإلى تضمين مقترحات الدراسة فقرة توصي بتعزيز تلك الأدوات في المجال نظراً لأهميتها ولضرورتها في التحكم بالأدبيات المتناثرة هنا وهناك .

الركائز الفنية للضبط الببليوجرافي :

إن الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري المتعلق بتاريخ المملكة في عهد الملك عبدالعزيز ـ كما الحال في المجالات الأخرى ـ يتطلب مجموعة من الركائز الفنية التي تسانده ، وتعمل على إنجاحه ، وإظهاره إلى عالم الوجود . ويعرض محمد عبدالهادي في كتابه الموسوم بـ : "دراسات في الضبط الببليوجرافي " أهم تلك الركائز التي تنطبق على المواد العربية على وجه الخصوص ، وذلك على النحو التالي :

١ ـ قواعد الوصف الببليوجرافي :

من المفترض أن يعتمد المفهرسون والببليوجرافيون على قواعد مقننة لوصف الملامح المادية لأوعية المعلومات ، إلا أن الواقع يوحي بتفاوت المؤسسات في هذا الجانب وفقاً لاجتهادات الأفراد . ولذا فإن المفهرس العربي يقف على مفترق الطرق، ويواجه تحديات كثيرة . فأمامه بعض المحاولات العربية ، والتقنين الدولي للوصف الببليوجرافي ، وقواعد الفهرسة الأنجلو - أمريكية .

ولكن لم يصدر بعد تقنين عربي للوصف الببليوجرافي يراعي طبيعة أوعية المعلومات العربية ، وطبيعة احتياجات المكتبات ومراكز التوثيق ، برغم ما صدر من دعوات كثيرة وصادقة في هذا السياق .

٢ـ قوائم استناد الأسماء :

من المفترض أن يوجد ملف استناد موحد لأسماء المؤلفين لضمان الدقة والثبات في استخدام أشكال المداخل . ذلك أن المفهرس العربي يواجه صعوبات

كثيرة في تعامله مع الأسماء العربية سواء القديمة منها أو الحديثة لأسباب عديدة من أهمها :

- تعدد أشكال تلك الأسماء .
- اختلاف الأسماء من بلد لآخر .
- عدم الاتفاق على طريقة كتابة الأسماء في المداخل .

الأمر الذي يترتب عليه ظهور الاسم الواحد بأكثر من شكل ، وتشتت أعمال المؤلف الواحد في أكثر من مكان في الفهرس والقائمة الببليوجرافية وغير ذلك من أدوات الضبط الببليوجرافي الأخرى .

ومن حسن الطالع أنه وجدت محاولات للحد من تلك المشكلة إلا أنها لم تؤتي الثمرة المرجوة لأسباب عديدة من بينها قلة ما طبع منها ، أو اقتصارها على الأسماء القديمة ، أو لكونها لا تزال في طور التجربة . ويكمن الحل في بناء ملف موحد يعتمد على التقنية الحديثة، ويساعد المؤسسات على تبادل السجلات بينها ، والاستفادة المشتركة .

٣ـ قوائم رؤوس الموضوعات :

وهذه عقبة أخرى تقف حجر عثرة أمام حركة الضبط الببليوجرافي في العالم العربي حيث لا توجد قوائم مقننة يمكن الاعتماد عليها في التحليل الموضوعي ، واختيار الواصفات المناسبة . وبرغم صدور بعض المحاولات العربية إلا أنها لا تكفي احتياجات المكتبات العربية ، والبعض الآخر لم يخضع للتطبيق بشكل كاف ، ولم يستخدم بشكل واسع .

وعلى الرغم مما صدر من توصيات بضرورة إعداد قوائم موحدة لرؤوس الموضوعات العربية ، إلا أنها لم تخرج إلى حيز التنفيذ مما يوحي بأن الحاجة لا

زالت قائمة ، وأن تقدم الضبط الببليوجرافي في المنطقة مرهون بدعم الركائز الفنية وفي مقدمتها قوائم رؤوس الموضوعات .

٤ـ المكانز :

ويقصد بها قوائم المصطلحات THESAURI التي تستخدم في بناء الكشافات الموضوعية وبالذات ما يعتمد منها على الحاسوب . ومع ندرة ما صدر من مكانز عربية فهي في الواقع مترجمة عن مكانز أجنبية . الأمر الذي يعني أننا لا نزال بحاجة إلى مكانز عربية النشأة تحتوي على مصطلحات متوافقة مع خصائص اللغة العربية .

فيما يتعلق بمجال الضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز على وجه الخصوص فهناك محاولات أولية لإصدار مكنز عن الملك عبدالعزيز ، وهو مشروع تعمل عليه في الوقت الراهن مكتبة الملك عبدالعزيز العامة .

٥ ـ نظم التصنيف :

يعد نظام التصنيف أداة للتحليل الموضوعي باستخدام الرموز . وتعود إسهامات العلماء العرب في هذا المجال إلى سنوات طويلة ، إلا أنه في السنوات الأخيرة بدأ الاعتماد على الترجمة من النظم الغربية مضافاً إليها بعض التعديلات التي تخص العلوم العربية والإسلامية. ومع وجود نموذج واحد فقط للجهود العربية للتصنيف ، إلا أنه لم يجد الدعم الكافي والمتابعة المستمرة شأنه شأن الجهود الفردية التي سرعان ما تتوقف .

ولهذه المشكلة تأثير على عرقلة مسيرة الضبط الببليوجرافي ، واختلاف الممارسات والتطبيقات الببليوجرافية من مكتبة لأخرى . ذلك أنه بدون نظام مقنن لتنظيم المواد المدرجة في الأعمال الببليوجرافية يسيطر على المجال الاجتهادات الشخصية التي قلما تتفق على أسلوب موحد .

٦ـ قواعد ترتيب المداخل :

يحدث تفاوت ملحوظ في مداخل الفهارس والببليوجرافيات العربية نتيجة عدم وجود قواعد مقننة تحكم العملية وتنظم طريقة ترتيب المداخل . وقد حدثت محاولات لإيجاد حلول لهذه المشكلة بيد أنه لم يكتب لها النجاح بسبب فرديتها ، وعدم تطبيقها بصورة موحدة على مستوى واسع .

٧ـ المواصفات :

هناك بعض الأعمال في المكتبات التي تحتاج إلى مواصفات قياسية ومعايير موحدة تضمن النمطية في التطبيق . ولا توجد مواصفات عربية ، ولكن توجد ترجمات قامت بها المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس ركزت على المواصفات الصادرة عن المنظمة الدولية للتوحيد القياسي (عبدالهادي : ١٩٨٧ ، ص : ١٣٧ـ١٤٩) . لذا فإننا لا نزال بحاجة إلى مواصفات قياسية عربية لأعمال الفهارس والببليوجرافيات والكشافات ونحوها من أدوات الضبط الببليوجرافي .

وهكذا يتضح من العرض السابق أن المكتبة العربية لا زالت متعثرة في نشاطاتها الببليوجرافية بسبب نقص الركائز الفنية المشار إليها . وما ظهر من محاولات في الميدان لا تعدو أن تكون ترجمة لجهود غربية قد لا تلبي احتياجاتنا بالشكل المطلوب . ولذا فلا غرو أن تأتي الممارسات بعيدة عن التوحيد والتقنين الذي تنعم به المكتبة الغربية وتتسم به جهود الضبط الببليوجرافي في العالم المتقدم .

ويعتقد الباحث أن الصورة السابقة تنطبق إلى حد بعيد على الوضع فيما يتعلق بالضبط الببليوجرافي عن الإنتاج الفكري لتاريخ الملك عبدالعزيز ـ موضوع الدراسة الحالية ـ . فالمجال بكر ، والجهود الببليوجرافية في بداياتها ، وما صدر منها ينقصه النضوج المنهجي ، ولا يرقى إلى المستوى المطلوب بسبب غياب الركائز

الفنية التي يتطلبها العمل الببليوجرافي . وسيتم في الصفحات اللاحقة توضيح هذه القضية بشيء من التفصيل .

الجهود الببليوجرافية السابقة :

لا ننكر أن هناك محاولات وجهود مشكورة أثرت الرصيد المعرفي في مجال الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز . ذلك أن الجزيرة العربية خلال الفترة بين ١٣١٩ ـ ١٣٥٣هـ قد شهدت " ملحمة تاريخية نتج عنها تأسيس المملكة العربية السعودية بقيادة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود ، وأفرزت تطورات مختلفة في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لهذه الدولة السعودية الجديدة . وانطلاقاً من أهمية هذا الحدث التاريخي الكبير في الجزيرة العربية فقد اهتم الباحثون بدراسة معظم جوانبه ، وخرجت ـ نتيجة لذلك ـ العديد من الدراسات الجادة من بحوث ومؤلفات ورسائل جامعية . ولا يزال الاهتمام بتاريخ المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبدالعزيز مستمراً حيث تظل الحاجة إلى الكشف عن المزيد من صفحاته التاريخية قائمة بسبب أهميته وسعته الزمانية والمكانية والموضوعية . . . ولأهمية هذا الموضوع ظهرت العديد من الدراسات الحصرية التي تناولت بعض جوانب تاريخ المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبدالعزيز من أجل إرشاد وتوجيه الباحثين والمهتمين إلى أهم المصادر والمراجع " (السماري : ١٤١٤ ، ط) .

وفيما يلي عرض وتعريف بأبرز نماذج تلك الدراسات الحصرية العربية والأجنبية .

نماذج للجهود الببليوجرافية السابقة :

من اطلاع الباحث على الأدبيات ، واستقراء ما صدر من جهود ببليوجرافية استطاع تصنيفها لأغراض الدراسة الحالية إلى قسمين عريضين هما :

- الجهود العربية
- الجهود الأجنبية

وفي السطور اللاحقة وصف وتحليل لأبرز تلك الجهود ـ التي استطاع الباحث الوقوف عليها ـ مرتبة حسب تاريخ صدورها تحت القسمين المشار إليهما .

أولا : الجهود العربية

يندرج تحت هذا الإطار جميع المحاولات الببليوجرافية السابقة التي قام بها الباحثون والمهتمون العرب بمفردهم وبجهودهم الذاتية ، أو قامت بها بعض المؤسسات المعنية بقضية توثيق تاريخ المملكة . ومن النماذج التي يمكن أن تنضوي تحت لواء هذا القسم الأعمال التالية :

. ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني
- ببليوجرافية شكري العناني
- دراسة عبدالفتاح أبوعلية (مقالة)
- دراسة عبدالفتاح أبوعلية (كتاب)
- قائمة دارة الملك عبدالعزيز
- ببليوجرافية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
- قائمة محمد الحمدان
- فهرس جامعة الملك سعود
- فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة
- ببليوجرافية فهد السماري
- قائمة فيحان العتيبي
- كشاف عبدالله الحقيل

١- ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني :

قام كل من يحيى محمود ساعاتي ، وعبدالله سالم القحطاني بإعداد ببليوجرافية صدرت بعنوان : " مؤلفات ومراجع عن المملكة العربية السعودية " ، وقامت شركة مطابع الجزيرة بنشر الدراسة عام ١٣٩١هـ .

وتم تجميع مواد هذه الببليوجرافية اعتماداً على مبدأ الاختيار SELECTION لا الشمول COMPREHENSIVE للمطبوعات المتعلقة بالمملكة ، وأوردت الببليوجرافية بيانات وصفية موجزة لما تضمنته من مواد . والعمل في مجمله عبارة عن قائمة حصرية بالكتب التي تناولت مختلف الجوانب المتعلقة بالمملكة بما في ذلك تلك الكتب التي تناولت فترة حكم الملك عبدالعزيز .

وفيما يتعلق بترتيب مواد الببليوجرافية ، فقد أدرجت المواد تحت رؤوس موضوعات مختارة ، وألحق في نهاية العمل كشافين أحدهما بأسماء المؤلفين ، وآخر بعناوين الكتب . وبلغ مجموع ما تضمه الببليوجرافية من عناوين حوالي (٤٥٠) عنواناً (ساعاتي والقحطاني : ١٣١٩) .

ومع أن ببليوجرافية ساعاتي والقحطاني تمثل جهداً متواضعاً ، فإن أهميتها الحقيقية تكمن في أقدميتها ، وفي قيمتها التاريخية . ذلك أنها تمثل - على حد علم الباحث - أقدم عمل ببليوجرافي موجه لحصر ما كتب عن تاريخ المملكة على مستوى الأفراد العرب . ومع ما قد يثار على هذا المشروع من ملحوظات ستكشف عنها الصفحات اللاحقة ، فهو يظل علامة بارزة في حركة الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن تاريخ الملك عبدالعزيز نظراً لأسبقيته ، ولكون القائمين به من الاختصاصيين في مجال المكتبات والتوثيق .

٢ـ ببليوجرافية شكري العناني :

قام شكري العناني ـ وهو أيضاً من الاختصاصيين في المكتبات والتوثيق ـ بإعداد ببليوجرافية صدرت بعنوان : " المملكة العربية السعودية ـ دراسة ببليوجرافية " ، ونشرتها دار العلوم بالرياض عام ١٣٩٨هـ .

وتمثل ببليوجرافية العناني قائمة حصرية مبنية على مبدأ الاختيار ـ على شاكلة نظيرتها السابقة ـ ، واقتصرت على ما صدر من إنتاج فكري عن المملكة العربية السعودية باللغة العربية ، أو ترجم إليها من اللغات الأخرى . ولم تركز هذه الببليوجرافية على التاريخ الحديث والمعاصر للمملكة فحسب ، بل جاءت شاملة في تغطيتها الزمنية لتاريخ الدولة السعودية بأدوارها الثلاثة المتعارف عليها بين المؤرخين .

وقد اطلع الباحث على هذا العمل فوجده يتكون من (١٢٥٣) مادة ، يعطي لمحة موجزة عن محتويات كل مادة ، ورتبت المواد تحت رؤوس موضوعات عامة مستقاة من تصنيف ديوي العشري ، ثم رتبت هجائياً بأسماء المؤلفين . والحق بالعمل في نهايته كشافين أحدهما بالمؤلفين ، والآخر بالعناوين ، مع الإشارة إلى الرقم الذي وردت به المادة في جسم العمل .

ومن الأشياء التي تحمد للقائم بهذا المشروع الببليوجرافي أنه قد أعطى كل عمل تضمنته الببليوجرافية ملخص موجز لمحتواه الموضوعي ABSTRACT ، وهو توجه يندر أن نجده في الدراسات الببليوجرافية على الرغم من أهميته للباحثين . إلا أنه قد يؤخذ على تلك الملخصات عدم خضوعها لتقنين معين ولمنهجية واضحة في الطرح ، ولذا أتت متفاوتة في حجمها ، وفي أسلوب عرضها . ففي بعض الأحيان قد لا يتجاوز المستخلص أسطر معدودة ، بينما في أحيان أخرى قد يتعدى نصف الصفحة .

وعلى أية حال ، فلعل العناني قد اجتهد في إعداد المستخلصات بنفسه مع أن مثل هذه المهام تحتاج عادة إلى الاستعانة بفريق عمل ، وتتطلب استشارة أكثر من اختصاصي في أكثر من مجال من مجالات المعرفة . ذلك أن إعداد المستخلصات ليس بالعملية الهينة ؛ فهي تحتاج إلى الاطلاع الفاحص على المحتوى الموضوعي للمادة ، وقراءتها أكثر من مرة بغرض تلخيصها في كلمات معدودة .

ومهما يثار من ملحوظات على جهد العناني فإن هذا لا يقلل من أهمية ببليوجرافيته ، ومن الجهد الواضح الذي بذله في إعدادها وفي تجميع مادتها ، ولأن صاحب هذا العمل من الاختصاصيين فقد اتسم عمله بوضوح الرؤية الببليوجرافية كما يظهر ذلك من تصفح العمل نفسه ، ومن قراءة المقدمة التي احتوت على توضيح للمنهجية ، والإجراءات التي مرت بها عملية إعداد الببليوجرافية .

٣ـ دراسة عبدالفتاح أبوعلية (مقالة) :

أعد عبدالفتاح أبو علية ـ متخصص في التاريخ ـ دراسة ببليوجراية صدرت بعنوان : " وثائق عن تاريخ الدولة السعودية في عهد الملك عبدالعزيز : ١٩٠٢ ـ ١٩٥٣م " ، ونشرتها مجلة الدارة ، في العدد الأول من السنة الرابعة لشهر ربيع الآخر لعام ١٣٩٨هـ .

وأصل هذه الدراسة عبارة عن بحث ألقاه أبوعلية في مؤتمر عقده قسم المكتبات بجامعة عين شمس في مارس عام ١٩٧٧م تحت عنوان : " وثائق تاريخ العرب الحديث والمعاصر " ، ومن ثم تم تطوير الفكرة لتظهر فيما بعد على شكل كتاب أكثر شمولية في الطرح والاستقصاء .

تعطي الدراسة أمثلة للوثائق التي تحتوي على معلومات عن تاريخ الملك عبدالعزيز ، والعلاقة بينه وبين آل رشيد في حائل والأشراف في الحجاز . ويسرد

معد الدراسة نماذج للوثائق المحفوظة في أرشيف الولايات المتحدة الأمريكية بواشنطن ، وأرشيف استانبول ، والوثائق المتبادلة بين المملكة وألمانيا قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وغير ذلك من المعاهدات والاتفاقيات والتقارير المتنوعة التي تعكس تاريخ الملك عبدالعزيز وحكمه ودولته (أبو علية : ١٣٩٨ ، ص: ١٤٤ ـ ١٧٣) .

٤ ـ دراسة عبدالفتاح أبوعلية (كتاب) :

كما أعد عبدالفتاح أبوعلية كتاباً ببليوجرافيا صدر بعنوان : " دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر ـ مصادر تاريخ البلاد السعودية " ، ونشرته دار المريخ بالرياض عام ١٣٩٩هـ في كتاب يقع في ٤٦١ صفحة .

وتمخض هذا الكتاب عن فكرة البحث الذي سبق الإشارة إليه ، ويزعم المؤلف أن هذا العمل نتج عن مسح المصادر في التاريخ الحديث والمعاصر أثناء الإعداد لدرجتي الماجستير والدكتوراه ، وما تم الحصول عليه من خبرات في التدريس الأكاديمي ، والرحلات العلمية لدور المحفوظات والمكتبات العالمية .

والعمل بمثابة حصر شامل لمختلف أشكال مصادر تاريخ البلاد السعودية بأدوارها الثلاثة من وثائق وتقارير رسمية ومجلات وجرائد ومؤلفات عربية وأجنبية . ويهمنا من هذه المحاولة الببليوجرافية ما له علاقة بعهد الملك عبدالعزيز (الدولة السعودية الثالثة) حيث تم إفراد قسم مستقل لهذا الغرض .

ومن اطلاع الباحث على هذا الكتاب ، وجد أنه يمتاز بشمولية التغطية ، وتنوع المصادر ، وتعدد النماذج المعطاة لمراكز الضبط الببليوجرافي والتوثيق في مختلف دول العالم . ولذا فهو مرجع مهم لمن يرغب في الحصول على صورة تكاملية للضبط الببليوجرافي للوثائق التي تناولت تاريخ المملكة في عهد الملك عبدالعزيز . ويعد عمل أبوعلية على أية حال محاولة جادة للإسهام في مجال توثيق الوثائق المتعلقة بتاريخ الملك عبدالعزيز في عالمه الرحب .

ويرى الباحث أنه من الممكن تصنيف كتاب أبوعلية المذكور لأغراض هذه الدراسة على أنه " مرشد إلى أدب الموضوع " GUIDE TO THE LITERATURE الذي يعد نمطاً من أنماط الأدوات الببليوجرافية - نظراً لكونه يبدأ بخلفية عامة عن تاريخ المملكة ، ثم يأخذ في سرد جميع ما صدر من وثائق عن الموضوع مرتبة بحسب أنماطها أو بحسب الفئات العريضة التي تنتمي إليها .

٥ـ قائمة دارة الملك عبدالعزيز :

قامت دارة الملك عبدالعزيز بإعداد عمل ببليوجرافي صدر بعنوان : " قائمة ببليوجرافية مختارة من مكتبة دارة الملك عبدالعزيز عن الجزيرة العربية " ، ونشرت الدارة هذا العمل عام ١٤٠١هـ .

وتشير مقدمة القائمة إلى أن الهدف من إعدادها هو التعريف بما تحتويه مكتبة دارة الملك عبدالعزيز من الكتب والمراجع التي تهم الباحث المهتم بدول المنطقة . كما تضمنت المقدمة بعض المختصرات والرموز المستخدمة ، واشتمل العمل على (٨٦٧) عنواناً ، رتبت موضوعياً وفق أرقام خطة تصنيف ديوي العشري . ومن بين رؤوس الموضوعات الواردة في القائمة : المعارف العامة ، الفلسفة ، الدين الإسلامي ، العلوم الاجتماعية ، اللغات ، العلوم البحتة والتطبيقية ، الفنون، الأدب ، التاريخ (عام) ، الجغرافيا والرحلات ، التراجم ، تاريخ العرب العام ، تاريخ العرب في الجاهلية والإسلام ، تاريخ دول الخليج العربي ، تاريخ اليمن، وتاريخ المملكة .

ورتبت المواد داخل كل موضوع وفق اسماء المؤلفين ترتيباً هجائياً مع اسقاط كلمة "ابن" و " أبو " وأداة التعريف " ال " والألقاب العلمية والاجتماعية من الترتيب . وذيلت القائمة بكشافين أحدهما للمؤلفين (ويشمل المؤلفين المشاركين والمحققين والمترجمين) والآخر للعناوين مع إعطاء أرقام للاسترجاع (أعطيت

كل مادة من المواد العلمية المدرجة في القائمة رقماً مسلسلاً لتسهيل الرجوع إليها) .

ونستطيع أن نستشف من عنوان هذا الجهد الببليوجرافي أنه قد اقتصر على بعض الوثائق المختارة المتوافرة في مكتبة دارة الملك عبدالعزيز ، كما نستشف من العنوان أيضاً أن العمل كان شاملاً لما يتعلق بالمملكة واليمن ودول الخليج العربي . الأمر الذي يوحي بأن جزءاً منه هو الذي يخص تاريخ الملك عبدالعزيز ، ويدخل بشكل مباشر في نطاق اهتمام هذه الدراسة .

وأثبت الاطلاع الفاحص على قائمة دارة الملك عبدالعزيز أنها تقف عند حد إعطاء البيانات الوصفية الأساسية المتمثلة في المؤلف والعنوان ومكان النشر واسم الناشر وتاريخ النشر وعدد الصفحات فقط ، وأحياناً تعطي رقم الطبعة (إذا كانت غير الأولى) . والحقيقة أن العمل بشكل عام جيد في إعداده وإخراجه ، ويمتاز بالوضوح والبساطة ، وحبذا لو تم إعطاء فكرة موجزة عن كل مادة مدرجة لتساعد الباحث في تقرير ما إذا كانت تهمه ، وأيضاً للتخفيف من حدة مشكلة تضليل العناوين MISLEADING TITLES التي يعاني منها كثير من الباحثين .

٦ - ببليوجرافية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية :

أعدت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية قائمة بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز عام ١٤٠٦هـ ، وصدرت القائمة في العام نفسه تحت عنوان : "كتاب ببليوجرافي عن تاريخ الملك عبدالعزيز " لتتزامن مع المناسبة .

وتوضح المقدمة خلفية المشروع والخطوات التي مر بها لحين إنجازه على شكل عمل ببليوجرافي ؛ حيث إن فكرة العمل كانت إحدى الأعمال التي أقرتها

اللجنة التحضيرية للمؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز ، ووكلت مهمة القيام به إلى اللجنة العلمية . وتنفيذاً لذلك القرار فقد تولى فريق من الباحثين في الجامعة ، وجلهم من الاختصاصيين في التاريخ جمع المادة العلمية من مصادر شتىء (وبعضهم سافر إلى خارج المملكة للحصول على بعض المواد التي لا يتيسر الحصول عليها من المصادر المحلية) .

وبعد أن تمت مرحلة جمع المادة العلمية أحيلت إلى لجنة من قسم المكتبات للقيام بتبويبها ومراجعتها وحذف المكرر منها وإخراجها وفقا للأسس الفنية . واستخدم الحاسوب لإنجاز العمل حيث تم تصميم عدة برامج لهذا الغرض بلغة البيسك BASIC .

كما تشير المقدمة إلى أن الطبعة الحالية للعمل تعد طبعة أولية للجزء العربي من المشروع وسوف تصدر طبعة لاحقة تضم عناوين أخرى معظمها باللغات الأجنبية وتطبع بصورة أفضل من الطبعة الحالية المبدئية . ولم يتمكن الباحث من الحصول على الطبعة اللاحقة للكتاب الببليوجرافي وعلى حد علمه فلم يصدر شيء بعد الطبعة المبدئية .

رتب هذا العمل على قسمين على النحو التالي :

- القسم الأول : حيث سردت فيه المداخل التي تتعلق بموضوع معين هجائياً تحت اسم المؤلف ، وقسم إلى (١٨) فصلاً (قسماً فرعياً) أشير إليها في قائمة المحتويات وتتمثل في : سيرة الملك عبدالعزيز ، سيرته الخاصة ، آثاره وتصريحاته ، الأسرة السعودية المالكة ، توحيد البلاد ، تنظيم البلاد ، تنمية البلاد وتطويرها ، الشؤون الدينية ، الشؤون الثقافية ، الحياة الاجتماعية ، الشؤون الاقتصادية والمالية ، العلاقات العربية ، العلاقات الإسلامية ، العلاقات الدولية ، في رياض الشعر والأدب ، اليوم الوطني للمملكة ، تاريخ المملكة ، بحوث ومواد عامة .

- القسم الثاني : ويحتوي على كشاف المؤلفين حيث سرت فيه جميع المداخل هجائيا تحت اسم المؤلف ، وربما تكرر العمل الواحد غير مرة إذا تعدد مؤلفوه .

يقتصر الكتاب الببليوجرافي عن تاريخ الملك عبدالعزيز الذي أصدرته جامعة الإمام على إعطاء الحد الأدنى من البيانات الببليوجرافية الأساسية المتمثلة في المؤلف والعنوان ومكان النشر واسم الناشر وتاريخ النشر فقط بالنسبة للكتب ، أما بالنسبة للمقالات فتتمثل البيانات في المؤلف والعنوان واسم المجلة التي نشرت بها المقالة ورقم المجلد (أو سنة إصدار المجلة) ورقم العدد وتاريخ النشر بالهجري والميلادي وأرقام الصفحات .

والواقع أن هذا العمل يمتاز بوضوح الرؤية الببليوجرافية واتباع الأسس الفنية المتعارف عليها في مثل تلك المشروعات الحصرية . ولعل مما ساعد على ذلك أن المشروع قد تم تحت إشراف فريق عمل من الاختصاصيين في مجال التاريخ ومجال المكتبات والمعلومات ممن يمتازون بالحس العلمي والحس الفني الأمر الذي أنعكس إيجاباً على العمل . بيد أن مقدمة العمل قد أغفلت ذكر بعض العناصر المهمة للحكم على مصداقيته ؛ من ذلك على سبيل المثال : أن المقدمة لم توضح بالتفصيل الاستراتيجية التي تم اتباعها في جمع المادة العلمية وطبيعة المصادر التي تم الاعتماد عليها ونحو ذلك من القضايا التي تهم القارىء وتهم من يتصدى لتقويم مثل تلك الجهود الحصرية .

٧- قائمة محمد الحمدان :

أعد محمد الحمدان قائمة حصرية صدرت بعنوان : " أضواء على أسماء بعض الكتب التي تناولت سيرة الملك عبدالعزيز آل سعود " ، ونشرتها مجلة الدارة (السنة الحادية عشرة ، العدد الثالث) الصادرة في شهر ربيع الآخر لعام ١٤٠٦هـ ،

أيضاً بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز الذي سبق الإشارة إليه .

ويصف الحمدان المنهج الذي سار عليه في إعداد القائمة بقوله : " وقد استعرضت أعداد مجلة دارة الملك عبدالعزيز وغيرها من المجلات الثقافية والمتخصصة وعلى أكثر من مقال أو بحث لمن هو أقدر مني يضم شتات المؤلفات التي كتبت عن الملك عبدالعزيز فلم أجد شيئاً لهذا . . . ولاعتزام جامعة الإمام إقامة مؤتمر عن هذا الملك الشجاع قمت بمحاولة متواضعة لإحصاء ما وقع عليه نظري أو قرأت عنه من تلك المقالات والبحوث سواء التي كتبت عن الملك نفسه أو جاء ذكره فيها . . . وأعترف أن الموضوع واسع ومن الصعب جداً حصر ما كتب في ذلك وألف بمجهود فردي ، ولكنها محاولة وكفى ، راجياً العفو عن التقصير واعتبار ذلك بداية لبحوث أوسع وأشمل وأرقى . . . وقد رتبت الأسماء على حروف المعجم وضمنت ذلك ما كتب عن الجزيرة العربية قبل الملك عبدالعزيز وبعده ، وعن المملكة وبعض ما كتب عن بعض أنجاله ، وعن الدعوة السلفية التي يحلو للبعض تسميتها الوهابية " (الحمدان : ١٤٠٦ ، ص : ١٨٦ـ١٨٧) .

جدير بالذكر أن الحمدان بعد أن أنتهى من سرد مادته العلمية في ضوء الترتيب الهجائي الذي سار عليه ، وضع عنواناً جانبياً مستقلاً سماه " كتب أخرى ومقالات عن الملك عبدالعزيز " ، وأشار إلى أنه لم يذكر تلك الكتب والمقالات في ثنايا القائمة خشية الإطالة ، ولأن عناوينها موجودة في كتب أخرى مثل كتاب عبدالفتاح أبو علية بعنوان " دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر " بالنسبة للكتب العربية ، وكتاب خيرالدين الزركلي بعنوان " الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز " بالنسبة للكتب الأجنبية .

وقد اطلع الباحث على ببليوجرافية الحمدان المذكورة فوجدها تشتمل على (٣٦٦) مادة جميعها كتب عربية ، مرتبة هجائياً بعناوين الكتب حيث يعطي بيانات وصفية مختصرة عن كل مادة تشمل : العنوان ، المؤلف ، مكان الصدور ، تاريخ النشر ، عدد الصفحات . إلا أنه لم يذكر اسم الناشر مع أهميته لاستكمال عناصر الوصف الببليوجرافي المتعارف عليها .

ويحمد لمعد هذه القائمة أنه كان صريحاً وواضحاً في ذكر المنهجية والإجراءات التي سار بموجبها العمل على خلاف كثير من القائمين بالأعمال الذين لم يشيروا إلى منهجهم في الإعداد صراحة أو ضمناً . بيد أنه يثار على منهجية هذا العمل بعض الملحوظات الفنية والعلمية من أهمها ما يلي :

أ - عدم الالتزام بالجانب العلمي في إعداد القائمة ، ومن القراءة الفاحصة للمنهج الذي أشار إليه الحمدان في مقدمة عمله نستطيع أن ندرك هذا الأمر بسهولة . وقد يكون السبب في ذلك أن القائم بالعمل ليس من أهل الاختصاص ، وقد اعترف صراحة بذلك ، وأكد على أن عمله لا يعدو كونه محاولة متواضعة .

ب - لم تستخدم في القائمة علامات الترقيم المقننة التي تمثل جزءاً رئيساً من عناصر الوصف الببليوجرافي السليم .

ج - لم يلزم القائم بالعمل بما وعد به في المقدمة من أنه سيذكر عن كل عمل البيانات الضرورية ؛ فقد أهمل على سبيل المثال أرقام الصفحات ، ومكان النشر في بعض المواضع .

ولا يجد الباحث ما يقوله حول هذا الجهد الببليوجرافي أكثر مما قاله صاحب العمل نفسه حيث عرف قدره ، وبين أن ما قام به مجرد اجتهاد شخصي يمثل بداية أو انطلاقة للعمل العلمي المنظم وإن كان لا يرقى في حد ذاته إلى هذا المستوى . وربما يكون سبب ذلك هو أنه قد أعد لمناسبة معينة (المؤتمر العالمي عن تاريخ

الملك عبدالعزيز) ، ومثل تلك الأعمال يعدها أصحابها عادة على عجل وربما ضحوا ببعض الجوانب العلمية في سبيل إنجاز العمل في المناسبة التي أعد لها أصلا .

٨ـ فهرس جامعة الملك سعود :

قامت عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك سعود بإعداد فهرس بعنوان : " فهرس المؤلفات المختارة عن الملك عبدالعزيز آل سعود " ، ونشرته العمادة عام ١٤٠٦هـ أيضاً بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز .

وركز هذا الفهرس ـ كما يظهر من عنوانه ـ على بعض الوثائق المختارة التي تناولت تاريخ الملك عبدالعزيز ، والتي تتوافر في مكتبة الجامعة فقط . ولذا يمكن اعتبار هذا المشروع الببليوجرافي من الناحية العلمية " ببليوجرافية اقتنائية " لكونه يقتصر فقط على ما تقتنيه هذه المؤسسة من أوعية في المجال .

وثبت من اطلاع الباحث على هذا العمل أنه يجنح نحو الاختصار الشديد للبيانات التي يعطيها عن المواد المدرجة ؛ فهي لا تعدو مجرد بيانات وصفية تشمل الاسم الأخير للمؤلف ، ثم الاسم الأول ، فالعنوان ، فمكان النشر ، واسم الناشر ، وتاريخ النشر ، وعدد الصفحات .

وعلى هذا الأساس فإن هذا الفهرس أشبه ما يكون بكشاف يقتصر على الحد الأدنى للبيانات الضرورية . ويتكون القسم العربي من (١٠٤) صفحة ، تحتوي على (١٠٢) مادة ، يليها كشاف عناوين ، ثم قائمة بالمجلات العربية . أما القسم الإنجليزي للفهرس فيتكون من (٦٦) صفحة ، تحتوي على (١٢٤) مادة ، يليها كشاف بعناوين الكتب ثم الرسائل والمقالات فعناوين الدوريات نفسها .

تشير مقدمة هذا الفهرس إلى أن ما يحتويه من مواد لا يمثل إلا نسبة ضئيلة مما كتب عن الملك عبدالعزيز . وهذه دون شك حقيقة بدهية إذا أخذ في الحسبان تعدد مجالات التأليف عن تاريخ هذه الشخصية العظيمة ، وكون الفهرس يقتصر في نطاقه المكاني على ما يتوافر في مكتبة الجامعة وحدها .

يبدو أن جامعة الملك سعود قد أصدرت أداة ببليوجرافية أخرى تدخل في نطاق الدراسة الحالية ، ونشرتها عام ١٤١٢هـ تحت عنوان : " دليل مقتنيات قاعة الملك عبدالعزيز " إلا أن الباحث لم يستطع الحصول على هذا الدليل أو على معلومات بشأنه .

٩ ـ فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة :

قامت مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض بإعداد فهرس صدر العدد الأول منه بعنوان : " فهرس قاعة الملك عبدالعزيز بمكتبة الملك عبدالعزيز العامة " ، ونشرته المكتبة عام ١٤١٢هـ .

ومن عنوان الفهرس نستطيع أن ندرك بسهولة أنه يقتصر على ما تضمه قاعة الملك عبدالعزيز في مكتبة الملك عبدالعزيز العامة من مواد ، ومن هذا المنطلق فينطبق عليه ما ينطبق على فهرس جامعة الملك سعود من أنه ببليوجرافية اقتنائية .

والفهرس عبارة عن حصر ببليوجرافي بمقتنيات القاعة المذكورة باللغات العربية والأجنبية ، ويحتوي على (٣٦٥) مادة ، تشتمل على البيانات الوصفية التالية : اسم المؤلف ، العنوان وبيان مسؤولية التأليف ، الطبعة ، مكان النشر ، اسم الناشر ، سنة النشر ، والوصف المادي للوثيقة (عدد الصفحات و الأجزاء والمجلدات) ورقم التسجيل في المكتبة ، ورقم الاستدعاء (رقم التصنيف وحروف المؤلف والعنوان) .

وتم استخدام تصنيف ديوي العشري لتنظيم مواد فهرس قاعة الملك عبدالعزيز، وهو النظام الذي تستخدمه المكتبة في ترتيب موادها بشكل عام. وألحق بالفهرس كشافين أحدهما بأسماء المؤلفين والآخر بالعناوين، وأمام كل مؤلف وعنوان رقم الصفحة التي ورد بها. كما أدرجت قائمة بالموضوعات المستخدمة في الفهرس مما يسهل على الباحث الوصول إلى المواد التي تندرج تحت تلك الموضوعات.

وللحصول على الوثائق نفسها - التي تضمنها الفهرس - يمكن تسجيل رقم الاستدعاء الذي يظهر أمام كل مادة وتسليمه للمسؤول عن القاعة من أجل إحضار المادة المطلوبة.

ومن الاطلاع الفاحص على الفهرس المذكور ثبت أنه جيد في إعداده وتنظيمه، وحبذا لو عملت المكتبة على تحديثه بصفة مستمرة بحيث يتضمن ما أضيف إلى قاعة الملك عبدالعزيز بعد عام ١٤١٢هـ لكي يعكس الرصيد الحقيقي لتلك القاعة. جدير بالذكر أن الفهرس أشار في مقدمته إلى أن مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ستصدر ملاحق له تحتوي على ما يضاف إلى المجموعة حتى يظل أداة حديثة وممثلة لمقتنيات المكتبة في هذا الفرع من فروع المعرفة البشرية (مكتبة الملك عبدالعزيز العامة : ١٤١٢ ، ب).

وهو وعد يدل على إحساس المسؤولين بالمشكلة، ويتعشم الباحث أن يكون هذا الوعد قد تم بالفعل، ذلك أن أدوات الحصر الببليوجرافي لا قيمة لها إذا لم تمثل الواقع بشكل حقيقي وتتابع التطورات أولا بأول. والآن أصبحت عملية التحديث سهلة مع وجود السجلات المخزنة في الحاسوب.

وثمة ملحوظة أخرى يمكن أن تثار حول فهرس قاعة الملك عبدالعزيز تتمثل في أن الفهرس يكتفي بإعطاء الحد الأدنى من البيانات الوصفية الأساسية دون

التعريف بفكرة تلك الأعمال من خلال إعطاء مستخلصات لها . ذلك أن المستخلص يساعد القارىء بشكل أكثر على تحديد مدى علاقة الوثيقة بموضوع اهتمامه . ويؤمل أن تركز الخطوة التالية لإعادة إصدار الفهرس ليس على تحديثه فحسب بل أيضاً على إعداد مستخلص لمواده .

١٠- ببليوجرافية فهد السماري :

أعد فهد السماري عملاً ببليوجرافيا صدر على شكل كتاب كبير الحجم بعنوان : "ببليوجرافيا المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبدالعزيز " ، ونشرته دار أراكان للنشر والتوزيع بالرياض ، عام ١٤١٤هـ .

وتشير مقدمة هذه الببليوجرافية إلى أنها تحصر معظم المواد المكتوبة (المنشورة وغير المنشورة) التي تناولت الجوانب التاريخية والسياسية والاجتماعيةوالاقتصادية والثقافية والتعليمية والفكرية والصحية والتنموية للمملكة في عهد الملك عبدالعزيز ، والتي ظهرت خلال الفترة من بداية الدور السعودي الثالث وحتى تاريخ إصدار الببليوجرافية . على أن بعض المواد المدرجة في الببليوجرافية صدرت قبل الفترة المشار إليها لكونها من المصادر الرئيسة والمرتبطة بالموضوع بشكل مباشر - على حد تعبير القائم بالعمل - .

ويضم العمل مختلف أشكال أوعية المعلومات بما في ذلك الكتب والأطروحات الجامعية والمقالات والوثائق والمطبوعات الرسمية وغيرها . كما يضم - إلى جانب اللغة العربية - مختلف اللغات التي صدر بها إنتاج فكري يخدم الموضوع بما في ذلك اللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والهولندية والأردية . وقام السماري بترجمة عناوين المواد الأجنبية إلى اللغة العربية بهدف التيسير على الباحثين ، إلا أنه يؤكد على أن تلك الترجمة ليست دقيقة لكونه لم يطلع على محتويات المواد نفسها .

ويشير السماري إلى أن العمل لم ينجز بسهولة ؛ حيث تطلبت العملية البحث في المصادر المختلفة المتعلقة بتاريخ الجزيرة العربية بشكل عام والمملكة بشكل خاص، ومسح قواعد المعلومات المحلية والدولية ، والاطلاع على الأعمال العامة لاستخراج ما له علاقة بموضوع الببليوجرافية .

ويعترف القائم بالعمل صراحة بأن الطريقة التي سار عليها في إعداد ببليوجرافيته ليست ضمن الطرق المتعارف عليها لدى الاختصاصيين في علم المكتبات والمعلومات، كما يعترف أيضاً بأنه برغم إدراكه لما يتسم به عمله من تقصير فقد رأى نشره ليفيد منه الباحثون والمهتمون بتاريخ الملك عبدالعزيز .

وقد تم اختيار أسلوب مبسط لعرض المواد بغرض التسهيل على الباحثين . ويتلخص هذا الأسلوب في تقسيم الببليوجرافية إلى موضوعات رئيسة تغطي معظم المجالات المتعلقة بالمملكة ، مرتبة هجائياً ، وتحت كل موضوع تم سرد ما يتعلق به من مواد بمختلف أشكالها . وأمام كل مادة رقم مسلسل (رقم الهوية أو الاسترجاع) .

ويعطي العمل بيانات وصفية تتمثل في المؤلف ، والعنوان ، وبيانات النشر بالنسبة للكتب ، ويزيد عليها عنوان المجلة ورقم المجلد والعدد بالنسبة للمقالات . وألحق بالعمل في نهايته كشافين أحدهما بالمؤلفين ، والآخر بالعناوين .

ويزمع معد الببليوجرافية إصدار عمل ببليوجرافي مكمل لهذا العمل يتلافى ما به من تقصير ، ويشتمل على وصف موجز للمواد المدرجة ، ويتوسع في نطاقه بحيث يغطي تاريخ المملكة منذ تأسيس الدولة السعودية الأولى حتى نهاية عهد الملك عبدالعزيز .

وبرغم ما يمكن أن يطرح حول ببليوجرافية السماري من ملحوظات وما يمكن أن يثار حولها من ماخذ ، فهي تعد من وجهة نظر الباحث من أفضل أدوات الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن تاريخ الملك عبدالعزيز التي ظهرت حتى الوقت الراهن . وقد اكتسبت هذه الميزة بما توافر لها من عوامل عديدة من بينها وضوح منهجها ، وتعدد أبعادها ، وغزارة مادتها العلمية، وتغطيتها لجوانب عديدة تتعلق بشخصية الملك عبدالعزيز وتاريخه. ولعل مما ساعد على ذلك كونها أتت في فترة متأخرة مما أعطى صاحبها فرصة للإفادة ممن سبقه في هذا العمل ، وأيضاً لكون صاحبها متخصص في مجال التاريخ ، وله اهتمام مميز بتاريخ الملك عبدالعزيز وإن لم يكن متخصصاً في مجال التوثيق والضبط الببليوجرافي .

بيد أن تلك الميزات يقابلها على الطرف الآخر بعض الجوانب التي ربما تحتاج إلى إعادة النظر ، ويبدو أن السماري نفسه مدرك تماماً لتلك الجوانب حيث أشار إليها في مقدمة عمله ونص صراحة على وجودها ، ويؤمل أن يتم تلافيها في الإصدارات اللاحقة .

١١ـ قائمة فيحان العتيبي :

قام فيحان العتيبي بإعداد قائمة موجزة أطلق عليها : " بيان بالمؤلفات التي تناولت شخصية الملك عبدالعزيز " ، ونشرتها مجلة الدارة تحت هذا العنوان في عددها الثالث (السنة التاسعة عشر) الصادر في شهر ربيع الآخر لعام ١٤١٤هـ .

وتحتوي هذه القائمة على (٥٢) مادة ، مرتبة هجائياً بالعنوان ، وأعطت البيانات الأساسية المتمثلة في المؤلف والعنوان وبيانات النشر .

وهي على أية حال قائمة مختصرة للغاية لم تتجاوز الخمس صفحات ، تمثل اجتهاداً متواضعا لصاحبها . وينقصها الكثير من الأسس العلمية المتعارف عليها

لإعداد القوائم الببليوجرافية من بينها أن العتيبي لم يمهد لعمله بمقدمة توضح الحاجة من إعداد العمل ، والهدف الذي يرمي إلى تحقيقه ، ولم يوضح المنهجية التي سلكها في إعداد القائمة ، والإجراءات التي مرت بها ، وحدود تغطيتها ، والمصادر التي تم الاعتماد عليها ، ونحو ذلك من العناصر الأساسية التي يلزم توافرها في مثل تلك المشروعات . بل دخل في الموضوع بشكل مباشر ، وسرد المادة العلمية دون مقدمات ، ودون بيان الإطار الذي يحكم مسار الدراسة .

الأمر الذي يوحي بأن هذا العمل تنقصه الجوانب الفنية المتفق عليها بين الاختصاصيين ، وتعوزه أساسيات التقنين الببليوجرافي . ويؤمل أن يوظف القائم بالعمل تلك الملحوظات في جهوده القادمة إذا رغب في إعادة إصدار القائمة أو تحديث بياناتها .

١٢ـ كشاف عبدالله الحقيل :

أعد عبدالله الحقيل كشافاً مختصراً للغاية ، صدر بعنوان : " كشاف بما نشر عن الملك عبدالعزيز في مجلة الدارة " ، ونشرته مجلة الدارة في عددها الثالث (السنة التاسعة عشر) الصادرة للفترة بين ربيع الآخر ـ جمادى الآخرة ١٤١٤هـ .

جاء هذا العمل بشكل أكثر اختصاراً من العمل السابق حيث لم يتجاوز الثلاث صفحات ، وشمل (٢٩) مادة فقط . وقد رتبت المواد بعناوينها بشكل عشوائي دون مراعاة لنمط معين للترتيب (الترتيب الهجائي مثلا) ، وأعطي كل عمل بيانات وصفية مختصرة تتمثل في المؤلف ، والعنوان ، والسنة ، والعدد ، دون ذكر الصفحات التي تشغلها المادة في مجلة الدارة .

وثبت من الاطلاع الفاحص على هذا الكشاف أنه ينطبق عليه ما ينطبق على قائمة العتيبي التي سبق ذكرها من حيث إن الحقيل قد سرد المواد بشكل مباشر دون

أن يمهد لها بإطار منهجي يوضح الاستراتيجية التي تقود مسار العمل . الأمر الذي يؤثر على مصداقية الدراسة ، ويقلل من درجة الوثوق بها والاعتماد عليها بوصفها أداة ببليوجرافية لحصر ما كتب عن تاريخ الملك عبدالعزيز .

وتثار أيضاً حول كشاف الحقيل بعض النقاط الأساسية من أبرزها : أنه لم يلتزم بقواعد الوصف الببليوجرافي في ذكر البيانات الواردة حيث ذكر أسماء المؤلفين في نهاية البيانات المعطاة عن كل مادة ، وكان المتوقع ذكرها بعد العناوين مباشرة ـ طالما أن معد الكشاف ارتضى أن يكون العنوان هو المدخل الرئيس ـ . وبالإضافة إلى عدم وضوح الحاجة والهدف ، وغموض الرؤية الببليوجرافية والمنهجية في العمل ، فإنه لم يحدد مجالات التغطية الزمنية والمكانية والموضوعية واللغوية مما يوحي مرة أخرى بأن مثل هذا الجهد بحاجة إلى إعادة النظر وإلى تلافي تلك الملحوظات في الإصدارات المستقبلية .

ثانيا : الجهود الأجنبية :

تتمثل تلك الجهود الدراسات الببليوجرافية التي قام بها المهتمون من الأفراد الأجانب أو المؤسسات ونشرت بلغات أجنبية ـ غالباً باللغة الإنجليزية ـ . ومن أهم تلك الأعمال التي تندرج تحت هذا الإطار والتي استطاع الباحث الحصول عليها مرتبة حسب تاريخ صدورها ما يلي :

- قائمة مكتبة الكونجرس LIBRARY OF CONGRESS BIBLIOGRAPHY
- ببليوجرافية استيفن وكنج STEVENS AND KING BIBLIOGRAPHY
- ببليوجرافية فاسيلف VASILEV BIBLIOGRAPHY
- ببليوجرافية فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS BIBLIOGRAPHY
- ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS BIBLIOGRAPHY

١ـ قائمة مكتبة الكونجرس :

قامت مكتبة الكونجرس THE LIBRARY OF CONGRESS بإعداد قائمة صدرت بعنوان : "الجزيرة العربية ـ قائمة اختيارية مشروحة للدوريات والكتب والمقالات باللغة الإنجليزية . THE ARABIAN PENINSULA - A SELECTED ANNOTATED LIST OF PERIODICALS , BOOKS , AND ARTICLES IN ENGLISH ، ونشرتها المكتبة عام ١٩٥١ .

ومن عنوان هذه القائمة نستطيع أن ندرك مجال تغطيتها المكانية والموضوعية والشكلية واللغوية ؛ فهي تغطي تاريخ الجزيرة العربية إلا أنها ليست شاملة لكل ما صدر عنها من إنتاج فكري بل تقتصر على مختارات منها ، أما التغطية الشكلية فقد اقتصرت على الكتب والمقالات وحدها ، وبالنسبة للتغطية اللغوية فقد اقتصرت على ما صدر باللغة الإنجليزية دون غيرها من اللغات الأخرى . وعلى هذا الأساس يمكن تصنيف هذا العمل من الزاوية المنهجية على أنه ببليوجرافية مختارة SELECTIVE BIBLIOGRAPHY .

ولا تكتفي هذه القائمة بمجرد ذكر البيانات الوصفية بل تضيف إليها بعض المعلومات التي تعطي نبذة موجزة عن فكرة كل مادة مدرجة ، إذ تم إعطاء شروحات وصفية للكتب والمقالات الأكثر أهمية التي لا يتضح مجالها من عنوانها . كما تم إعطاء رموز تدل على أماكن وجود بعض المواد في مكتبة الكونجرس .

وقد رتبت مواد هذا العمل الببليوجرافي تحت موضوعات عريضة ، فعند كل مادة يذكر عنوانها ومؤلفها ومكان نشرها واسم ناشرها وتاريخ نشرها وعدد الصفحات التي تشغلها إذا كانت على شكل مقالات ، كما يبين ما إذا كانت المادة تحتوي على إيضاحات أو خرائط ونحوها . ثم يعطي مستخلص عن كل عمل في حدود ستة أسطر تقريباً ANNOTATED BIBLIOGRAPHY .

ويوجد في نهاية القائمة كشاف هجائي موحد بالمؤلف والعنوان والموضوع، مع إعطاء أرقام متسلسلة أمام كل مادة لتسهيل الرجوع إليها عند الحاجة . وتجدر الإشارة إلى أن القائمة تضم كذلك المواد غير المنشورة المتوافرة على الميكروفيلم (المصغرات الفيلمية) .

٢- ببليوجرافية استيفن وكنج :

قام كل من استيفن وكنج STEVENS AND KING بإعداد قائمة صدرت بعنوان : "ببليوجرافية المملكة العربية السعودية " A BIBLIOGRAPHY OF SAUDI ARABIA ، ونشرها مركز الدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط والإسلام بجامعة درهام بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٣ UNIVERSITY OF DURHAM - CENTRE FOR MIDDLE EASTERN AND ISLAMIC STUDIES .

وتغطي هذه الببليوجرافية الأعمال التي صدرت باللغات الأوروبية المنشورة للفترة بين ١٩٠٠ - ١٩٧٠ ، وغالبيتها باللغة الإنجليزية . وتشير مقدمة العمل إلى أنه تم إعداده كجزء من مشروع يتعلق بمنطقة الجزيرة العربية برمتها ARABIAN PENINSULA PROJECT 1970 - 1971 ، واستغرق عامين لإنجازه .

وتحتوي ببليوجرافية استيفن وكنج على قرابة (١١٠٠) مادة مرجعية بما فيها الكتب والمقالات ، وهي مقسمة (١٥) قسماً رئيساً ، بعضها مقسم إلى أقسام فرعية، وأمام كل مادة أرقام الصفحات التي تسهل الرجوع إلى الأعمال التي تعالج الموضوع .

وقد تم استثناء (إسقاط) الوثائق القديمة من تلك الببليوجرافية لكونها تتفاوت بشكل كبير في شكلها، ويزمع معدا الببليوجرافية شمول ذلك في مشروع لاحق . كما تم استثناء التقارير المتخصصة الصادرة في المملكة لأن كثيراً من تلك التقارير غير متاحة للتداول العام أو أنها غير متاحة بحرية . لذا كان التخطيط لإصدار

ببليوجرافية لاحقة تحتوي على مختارات لتلك الأعمال المحدودة التداول . وهناك أيضاً تخطيط لإصدار إضافات لهذا العمل ليمكن تغطية بعض الموضوعات ذات الاهتمام المتزايد التي تحظى بنمو الدراسات في مجالها بشكل أكثر شمولية .

يذكر هنا أن مقدمة ببليوجرافية استيفن وكنج تستعرض مجموعة من الببليوجرافيات التي تناولت تاريخ المملكة بشكل غير مباشر ، والتي تم الاستفادة منها في إعداد هذا العمل ، ومن أمثلتها ما يلي :

أ- الببليوجرافية التي أعدتها مكتبة الكونجرس عام ١٩٦٩ بعنوان : " THE ARABIAN PENINSULA : A SELECTED , ANNOTATED LIST OF PERIODICALS , BOOKS AND ARTICALS IN ENGLISH " .

ب- الببليوجرافية التي أعدها ماكرو MACRO عام ١٩٥٨ بعنوان : BIBLIOGRAPHY OF THE ARABIAN PENINSULA ، ونشرتها جامعة ميامي بالولايات المتحدة الأمريكية .

ج- الببليوجرافية التي أعدها دي قاوري DE GAURY عام ١٩٤٤ بعنوان : AN ARABIAN BIBLIOGRAPHY .

د - الببليوجرافية التي أعدها هازارد HAZARD عام ١٩٥٦ ، ونشرتها الجمعية الجغرافية الأمريكية بعنوان : BIBLIOGRAPHY OF THE ARABIAN PENINSULA .

هـ - الببليوجرافية التي نشرها هيوورث دن HEYWORTH - DUNNE عام ١٩٥٢ بعنوان : BIBLIOGRAPHY AND READING GUIDE TO ARABIA .

ويشير معدا الببليوجرافية (استيفن وكنج) إلى أنهما قد استفادا من الأعمال المشار إليها في تجميع المادة العلمية ، كما استفادا من عمل آخر أعده كل من هوبوود وقريموود جونز HOPWOOD AND GRIMWOOD - JONES ، ونشراه عام

١٩٧٢ بعنوان : " الشرق الأوسط والإسلام - مقدمة ببليوجرافية " MIDDLE EAST AND ISLAM - A BIBLIOGRAPHICAL INTRODUCTION حيث يتضمن إشارات كثيرة إلى المملكة . كما تمت الاستعانة بجهود السفارة السعودية بلندن ، والمكتبة البريطانية، وعدد آخر من المكتبات والمؤسسات التي أسهمت في التزويد بالمواد اللازمة .

وقد اكتشف الباحث من استقرائه لببليوجرافية المملكة العربية السعودية التي أعدها استيفن وكنج أنها تكتفي بإعطاء البيانات الوصفية الأساسية المتمثلة في المؤلف والعنوان ومكان النشر واسم الناشر وتاريخ النشر . وتم تصنيف مواد الببليوجرافية تحت رؤوس موضوعات، وردت تحتها الكتب ثم المقالات مرتبة هجائياً بالمؤلف . ولا يحتوي العمل على كشافات تسهل عملية الرجوع إلى ما يحتويه من المواد التي بلغ مجموعها (١٠٧٩) مادة .

ويبدو أن القائمين بالببليوجرافية السابقة على إلمام جيد بتفاصيل الموضوع وأبعاده ، فحينما قررا استثناء (استبعاد) بعض المواد - وهو ما يعرف لدى الاختصاصيين بالإسقاط - نصا صراحة على ذلك ، وأبديا الدوافع لهذه العملية التي قاما بها عن وعي ومعرفة . ويختلف هذا السلوك عمن يقوم بالإسقاط نتيجة جهله بحدود موضوعه مما قد يترتب عليه إسقاط مواد مهمة وقيمة لمجرد أن القائم بالعمل يجهلها ولا يعتقد أنها تدخل في الإطار النظري لمشروعه .

٣- ببليوجرافية فاسيلف :

قام فاسيلف VASILEV - مؤلف روسي - بإعداد قائمة صدرت بعنوان : " ببليوجرافيا المملكة العربية السعودية " BIBLIOGRAPHY ON SAUDI ARABIA ، ونشرت في موسكو عام ١٩٨٣ ، وجاءت في (٢٦١) صفحة .

ونشر أصل هذا العمل التجميعي باللغة الروسية ، ويغطي جميع الموضوعات والأشكال (الكتب ، المقالات ، التقارير ، المعاهدات والاتفاقيات ، . . . الخ) المتعلقة بالمملكة والجزيرة العربية خلال القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٨٠ . ومرفق في نهاية العمل قائمة إضافية مستقلة بالأعمال المنشورة للفترة بين ١٩٨٠ - ١٩٨٢ .

وتحتوي ببليوجرافية فاسيلف على (٤١٧٦) وثيقة في مختلف اللغات وبخاصة الروسية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والعربية ، من بينها حوالي (١٠٠) مادة موجهة بشكل مباشر للملك عبدالعزيز ، وغالبيتها منشورة في روسيا وأوروبا الشرقية ، وليست متاحة في اللغة العربية .

تم إعداد مدخل لكل وثيقة تضمنتها الببليوجرافية تشمل كافة البيانات الوصفية (المؤلف ، العنوان ، مكان النشر ، اسم الناشر ، تاريخ النشر ، وعدد الصفحات) . وبالنسبة للمقالات فقد تضمنت البيانات الوصفية العنوان بشكل مختصر ، رقم المجلد ، العدد ، سنة النشر ، عدد الصفحات . ورتبت المداخل هجائيا تحت موضوعات رئيسة مع إعطاء رقم مستقل متسلسل لكل تسجيلة . ووضعت المداخل باللغتين العربية والروسية بشكل مستقل ، بينما وضعت المداخل الأخرى باللغات الأوروبية مدمجة مع بعضها . وألحق في نهاية الببليوجرافية قائمة مختصرة بالعناوين الكاملة للدوريات .

٤ - ببليوجرافية فرانك كليمنتس :

أعد فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS ببليوجرافية صدرت بعنوان : " المملكة العربية السعودية - طبعة مزيدة ومنقحة SAUDI ARABIA - REVISD AND EXPANDED EDITION ، ونشرتها شركة كليو للطباعة بولاية كولورادو الأمريكية عام ١٩٨٨ .

وهذه الببليوجرافية موجهة للناطقين باللغة الإنجليزية كما تشير المقدمة ، وقد قصد بها أن تكون عملاً حصرياً يخدم القارئ العادي والباحث والمكتبي . وتحتوي على مداخل شارحة حول الأعمال المتعلقة بتاريخ المملكة وجغرافيتها واقتصادها وسياستها وشعبها وعاداتها وتقاليدها ودينها ومؤسساتها الاجتماعية . كما أعطى معد الببليوجرافية بعض الاهتمام للحياة المعيشية الراهنة من حيث السكن والتعليم والصحف والملابس وغير ذلك من العناصر التي تهملها عادة الببليوجرافيات التقليدية .

يحتوي هذا العمل على (١٣٦١) مادة ، من بينها حوالي (١٠٠) مادة تنصب على الملك عبدالعزيز بشكل مباشر . يبدأ العمل بسرد رسائل الماجستير والدكتوراه التي تناولت تاريخ المملكة ، يلي ذلك سرد محتويات الببليوجرافية تحت رؤوس موضوعات عريضة مثل :

- المملكة وشعبها ؛ حيث يسرد بعض الأعمال العامة عن المملكة .
- الاستطلاع والسياحة ؛ حيث يعطي مجموعة أعمال تحت قسمين : قبل عام ١٩٠٠ ، والقرن العشرين .
- الجغرافيا ؛ يعطي الجغرافيا الطبيعية والإقليمية والجو والمناخ ومصادر المياه .
- التاريخ ؛ تم تقسيمه إلى مراحل منذ دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب .
- الدين ؛ يركز على الإسلام والحج .

وتحت كل موضوع رتبت المواد هجائياً بالمؤلف أو العنوان ، مع إعطاء معلومات مختصرة عن كل مادة (بعض المواد لم تذكر عنها معلومات لكونها غير أساسية في نظر المؤلف) . يعطي عن كل مدخل بيانات وصفية تتمثل في العنوان ، مكان النشر ، اسم الناشر ، تاريخ النشر ، عدد الصفحات ، وبيان ما إذا كان العمل يحتوي على ببليوجرافية . ثم يعطي نبذة موجزة عن فكرة العمل في أسطر معدودة

(حوالي ٣ـ٩ أسطر) . وتوجد في نهاية الببليوجرافية ثلاثة كشافات : بالمؤلفين ، والعناوين ، والموضوعات .

٥ـ ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس :

أعد هانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS ـ مؤلف ألماني ـ قائمة صدرت بعنوان : " المملكة العربية السعودية ـ ببليوجرافية حول المجتمع والسياسة والاقتصاد " SAUDI ARABIA : BIBLIOGRAPHY ON SOCIETY , POLITICS , AND ECONOMICS ، ونشرت عام ١٩٨٩ في مجلدين .

يغطي هذا العمل ـ كما يتضح من عنوانه ـ الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتعلقة بالمملكة . ويمثل رصداً للإنتاج الفكري المنشور في اللغات الأوروبية ، وقد صدر تحت سلسلة تعرف بـ : " ببليوجرافية الدراسات الإقليمية والجغرافية والمساحية " BIBLIOGRAPHY ON REGIONAL , GEOGRAPHY AND AREA STUDIES .

تحتوي الببليوجرافية على الكتب ومقالات الدوريات والرسائل الجامعية وتقارير البحوث والمطبوعات الصادرة عن الجهات الحكومية والمنظمات الدولية . وبرغم أن العنوان يوحي بأن التغطية تقتصر على الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المتعلقة بالعلوم الاجتماعية ، فالواقع أن الببليوجرافية تتعدى ذلك إلى تغطية الدراسات المتعلقة بالمجالات الطبية والعلمية .

يشمل عمل فيليبس (٩٢٦٥) مدخلاً لمختلف الوثائق المطبوعة ، كل مدخل يعطي معلومات ببليوجرافية كاملة لكل مادة تشمل المؤلف والعنوان ومكان النشر واسم الناشر وتاريخ النشر ، إضافة إلى بعض المواصفات المادية للوثيقة . وفي بعض الأحيان يعطي مداخل تحليلية للمقالات . وقد رتبت المداخل هجائياً تحت المداخل الرئيسة ، ولكل منها رقم مستقل متسلسل .

طبع أصل هذا العمل باللغة الألمانية مع مقدمة بالألمانية والإنجليزية ، ويوجد في نهايته ثلاثة كشافات : بالمؤلفين ، والمؤلفين المشاركين ، والموضوعات .

مناقشة الجهود السابقة :

إن الجهود التي سبق ذكرها من محاولات الأفراد والمؤسسات في الدول العربية والغربية لا تمثل في الواقع إلا نماذج مما استطاع الباحث الحصول عليه ، على أن هناك نماذج أخرى لا نعرف عنها الشيء الكثير ، ولم يرد الإشارة إليها في الأدبيات . الأمر الذي يوحي بأن المجال لا يزال بكراً ، وبحاجة ماسة إلى مزيد من البحث والدرس والتنقيب . وربما تكشف الدراسات المستقبلية النقاب عن النماذج الأخرى المغمورة .

وعلى أية حال ، فإن جهود الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز ، والمحاولات التي تمت لجمعه وتنظيمه وتيسير استخدامه ، والأدوات الببليوجرافية التي أعدها بعض الأفراد والمؤسسات قد أسدت خدمة لا تنكر للمهتمين بالتاريخ . إذ بدون تلك الجهود كيف يمكن للدارس معرفة الوثائق التي تهمه والوقوف على الأماكن التي توجد بها .

بيد أن الحقيقة التي خرج بها الباحث من ملاحظاته ومعايشته للواقع هي أن المجال لا يشتكي من ندرة المعلومات والمصادر المتعلقة بتاريخ الملك عبدالعزيز بقدر ما يشتكي من تبعثرها في مظان عديدة ، وصعوبة السيطرة عليها ، وإتاحتها للتداول ، وتيسير سبل الوصول إليها . ولسنا في حاجة إلى التأكيد بأننا نعيش عصر المعلومات بكل ما توحي به هذه العبارة من معنى ، وأن المعلومات تحيط بنا من كل جانب . بيد أن المشكلة تكمن في تنظيم تلك المعومات ، وتحليلها ، ووضعها في نسق مرتب ، ومن ثم تقديمها للمستفيدين ، وهذا هو محور الضبط الببليوجرافي موضوع هذه الدراسة .

إن رصد تاريخ الملك عبدالعزيز وضبطه ببليوجرافيا يمثل الخطوة الأولى نحو كشف النقاب عنه ؛ لأن الأدوات الببليوجرافية تمثل مصادر مرجعية لا غنى عنها للباحثين بل إنها تمثل المنطلق الأول للباحث الجاد الذي يريد أن يقف على ما سبقه من محاولات ، ويضيف إليها . وتتأكد في الوقت الراهن الحاجة الماسة إلى الضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز حيث إن الساحة تشهد ظهور أعمال متعاقبة لا يعلم عنها كثير من الناس بسبب غياب الحصر والتوثيق . إلا أن الأكثر فائدة هو الاتجاه نحو التكامل وتقليص حجم الأعمال الفردية والمحلية التي تعجز عن مواجهة التحديات التي تفرضها ظروف العصر ، وما يتسم به من غزارة البحوث ، وضخامة الإنتاجية العلمية .

والخلاصة : أنه إذا كانت الصفحات السابقة قد كشفت النقاب عن الجهود الببليوجرافية المعنية بتوثيق تاريخ الملك عبدالعزيز بشكل مباشر ، فإن هناك محاولات ببليوجرافية أخرى لا تقل عنها أهمية إلا أنها تناولت الموضوع بشكل غير مباشر ، أي بمعنى : أن مادتها العلمية المتعلقة بتاريخ الملك عبدالعزيز قد شكلت نسبة بسيطة ووردت ضمن محتويات أعمال أخرى . من بين تلك الجهود غير المباشرة على سبيل المثال لا الحصر ما يلي :

- كتاب " شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز " ـ الجزء الثالث ـ لمؤلفه خير الدين الزركلي الذي أورد (٢٤) كتاباً أجنبياً تناولت تاريخ الملك عبدالعزيز ، واحتلت الصفحات بين : ٩٠١ - ٩٠٨ .

- كتاب " عبدالعزيز آل سعود وعبقرية الشخصية الإسلامية " لمؤلفيه عبدالعزيز شرف ، وإبراهيم شعبان اللذين ذكرا فيه (٥٥) كتاباً باللغة العربية ، و (٢٤) كتاباً بمختلف اللغات الأجنبية مع بيانات وصفية تشمل المؤلف والعنوان وبيانات النشر .

- الكشاف الوطني الراجع للدوريات السعودية (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م - ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) الذي أعدته إدارة التكشيف والببليوجرافية الوطنية بمكتبة الملك فهد الوطنية ، وأصدرت العدد الأول منه عام ١٤١٦هـ . وثبت من تصفح هذا الكشاف أن مجموع ما يحتويه من مواد تتعلق بالملك عبدالعزيز تبلغ (٢٥) مادة تتمحور حول الشعر والمؤتمرات ونشر الكتب والببليوجرافيات والأعمال العامة التي تناولت الملك عبدالعزيز ، والتي صدرت في الدوريات السعودية للفترة بين ١٣٨٦ ـ ١٤١٢هـ ، وتشمل عناصر الوصف الببليوجرافي التي يعطيها هذا الكشاف عن كل مادة اسم المؤلف ، وعنوان المقالة ، وعنوان الدورية التي نشرت بها المقالة ، والمجلد ، والعدد ، والتاريخ ، وأرقام الصفحات ، وبعض الواصفات ، كما يعطي لكل مادة رقم مسلسل مستقل (مكتبة الملك فهد الوطنية : ١٤١٦) .

تقويم الجهود السابقة :

لقد كشفت الصفحات السابقة عن نماذج للضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز ، وهي تمثل في مجملها محاولات قام بها بعض الأفراد والمؤسسات بهدف توثيق تاريخ الملك عبدالعزيز ، ووضعه بين يدي الباحثين والمهتمين . ويهمنا هنا أن نتعرف بأسلوب علمي محايد على مستوى تلك الجهود ، ومدى التزامها بالنهج العلمي في إعداد الأعمال الببليوجرافية ، وما تتسم به من نقاط القوة ومواطن الضعف لكي نستفيد من تجاربها ، ونتلافى ما وقعت فيه من بعض المزالق في الدراسات والجهود المستقبلية .

ولكي يكون التقويم موضوعياً وبعيداً عن التحيزات الشخصية فقد اختط الباحث لنفسه منهجية لتقويم الأعمال السابقة وتحليلها . وتتمثل تلك المنهجية في معيار علمي طوره الباحث بناء على استقرائه للأدبيات ، واطلاعه على مجموعة من

النماذج الببليوجرافية السابقة . وتتلخص أهم المتغيرات التي تناولها المعيار في النقاط التالية :

١ ـ القائم بإعداد العمل الببليوجرافي .
٢ ـ سنة نشر العمل الببليوجرافي .
٣ـ شكل إصدار العمل الببليوجرافي .
٤ـ وضوح الحاجة والهدف في العمل الببليوجرافي .
٥ـ وضوح الرؤية المنهجية في العمل الببليوجرافي .
٦ـ مجال التغطية الزمنية للعمل الببليوجرافي .
٧ـ مجال التغطية المكانية للعمل الببليوجرافي .
٨ ـ مجال التغطية اللغوية للعمل الببليوجرافي .
٩ـ مجال التغطية الوعائية للعمل الببليوجرافي .
١٠ـ مجال التغطية الموضوعية للعمل الببليوجرافي .
١١ـ مبدأ التجميع في العمل الببليوجرافي .
١٢ـ طبيعة المصادر التي اعتمد عليها العمل الببليوجرافي .
١٣ـ مستوى المعالجة الفنية في العمل الببليوجرافي .
١٤ـ نظام الترتيب المستخدم في العمل الببليوجرافي .
١٥ـ حجم المادة العلمية في العمل الببليوجرافي .

وفيما يلي توضيح للعناصر (المتغيرات) السابقة ، وتحديد مدى التزام الجهود السابقة بكل عنصر من تلك العناصر :

أولا : القائم بالإعداد

للتعرف على القائمين بإعداد مشروعات الضبط الببليوجرافي من أفراد ومؤسسات أهمية لا تنكر لما يكشفه لنا هذا العنصر من معلومات تفيدنا في معرفة

اهتمامات القائم بالعمل ، وتخصصه ، والجهة التي ينتمي إليها ، وحدوده وإمكاناته، وغير ذلك من الجوانب التي تخدم كمؤشرات للحكم على مصداقية العمل ، والثقة بما تضمنه من مادة علمية .

من هذا المنطلق كان القائم بالإعداد أول متغير خضع للتقويم العلمي في هذه الدراسة ، وعلى وجه التحديد ما إذا كان العمل أنجزه فرد (بصفته الشخصية) أو مؤسسة (ربحية أو غير ربحية) باعتبار أن هذا العنصر أول سؤال يتبادر عادة إلى ذهن القارىء أو المستخدم للعمل الببليوجرافي ، كما أنه أيضاً أول سؤال يطرحه في الغالب من يقوم بتحكيم مثل هذه الأعمال الحصرية . وقد أتت الحقائق حول هذا المتغير متفاوتة ـ كما يظهر من الجدول رقم (١) ـ لتعكس بذلك تفاوت الاهتمام الفردي والمؤسساتي بضبط تاريخ الملك عبدالعزيز وحصره وتوثيقه .

الجدول رقم (١)

بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقا للقائم بالإعداد

الجهود الببليوجرافية السابقة	القائم بالإعداد	
	فرد	مؤسسة
ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني	X	-
ببليوجرافية شكري العناني	X	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (مقالة)	X	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (كتاب)	X	-
قائمة دارة الملك عبدالعزيز	-	X
ببليوجرافية جامعة الإمام	-	X
قائمة محمد الحمدان	X	-
فهرس جامعة الملك سعود	-	X
فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة	-	X
ببليوجرافية فهد السماري	X	-
قائمة فيحان العتيبي	X	-
كشاف عبدالله الحقيل	X	-
قائمة مكتبة الكونجرس LIBRARY OF CONGRESS LIST	-	X
ببليوجرافية استيفن وكنج STEVENS AND KING BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية فاسيلف VASELEV BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS	X	-
المجموع	١٢	٥
٪	٧٠,٦	٢٩,٤

ويتضح من إلقاء نظرة على الجدول السابق (الجدول رقم ١) أن من بين إجمالي عدد الأعمال الببليوجرافية السابقة البالغة (١٧) عملاً ، فإن غالبيتها (١٢ عملاً بنسبة ٦ , ٧٠ ٪) من إنتاج الأفراد ، بينما خمسة أعمال فقط بنسبة ٤ , ٢٩ ٪ من إنتاج المؤسسات . وتتمثل الجهود الفردية في مشروعات الضبط الببليوجرافي التي أنتجها أفراد عرب مثل : يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني ، وشكري العناني ، وعبدالفتاح أبوعلية ، ومحمد الحمدان ، وفهد السماري ، وفيحان العتيبي ، وعبدالله الحقيل . إضافة إلى الأفراد الأجانب مثل : استيفن وكنج STEVENS AND KING ، وفاسيلف VASILEV ، وفرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS ، وهانز ـ جرقين فيليبس HANS - JERGEN PHILIPPS .

بينما تتمثل الجهود المؤسساتية في مشروعات الضبط الببليوجرافي التي أنتجتها مؤسسات عربية مثل : دارة الملك عبدالعزيز ، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وجامعة الملك سعود ، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة . إضافة إلى المؤسسات الأجنبية مثل مكتبة الكونجرس الأمريكية LIBRARY OF CONGRESS .

الأمر الذي يوحي بأن الاهتمام بالضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري المتعلق بتاريخ الملك عبدالعزيز يشكل ظاهرة فردية أكثر منها ظاهرة مؤسساتية . وإذا كان دور المؤسسات لم يفرض نفسه بشكل قوي في الجهود السابقة للضبط الببليوجرافي عن تاريخ الملك عبدالعزيز فإن هذا الدور قد بدأ يتغير في الوقت الراهن – كما سيتضح ذلك عند مناقشة الممارسات الببليوجرافية الراهنة – حيث أخذت المؤسسات تثبت وجودها في الساحة بشكل أفضل لاعتبارات عديدة من بينها زيادة الوعي بأهمية التوثيق وأهمية الضبط الببليوجرافي لما كتب عن الشخصيات المهمة .

وتأتي المعطيات السابقة مخالفة للصورة المثالية للنشاط الببليوجرافي ؛ ذلك أن معظم هذا النشاط قد اعتمد في إخراجه إلى حيز الوجود على الجهود الفردية برغم ما يعتور الأفراد من مظاهر الضعف والتقصير وبرغم محدودية وقتهم وجهدهم ومالهم. علاوة على أن مثل تلك الجهود من الصعب أن نضمن لها الفاعلية والاستمرار لكونها مرتبطة بظروف الأفراد وقدراتهم أكثر من ارتباطها بمؤسسات تضمن لها الرعاية والديمومة .

كما أن معظم الذين أنجزوا المشروعات الببليوجرافية الفردية التي سبق الحديث عنها من غير الاختصاصيين في مجال المكتبات والمعلومات والتوثيق (وإن كان بعضهم من المؤرخين) . فمن بين مجموع القائمين بالأعمال الببليوجرافية العربية وعددهم ثمانية ببليوجرافيين ، فإن خمسة منهم بنسبة ٦٢,٥٪ لا ينتمون إلى التخصص المشار إليه ، أما الثلاثة المتبقين بنسبة ٣٧,٥٪ فهم محسوبون على التخصص نفسه . وبالنسبة للقائمين بالأعمال الببليوجرافية الأجنبية فلم ينمكن الباحث من الحصول على معلومات بشأن تخصصاتهم تساعد على إعطاء حكم دقيق .

وبالنسبة للمؤسسات التي قامت بإعداد وإصدار أعمال الضبط الببليوجرافي في المجال وعددها خمس مؤسسات فلا نجد من بينها إلا جهة واحدة فقط بنسبة ٢٠٪ متخصصة في المجال وهي دارة الملك عبدالعزيز ، بينما بقية الجهات بما يمثل نسبة ٨٠٪ فهي خارجة عن نطاق التخصص . وتمثل تلك الجهات مؤسسات أكاديمية (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، جامعة الملك سعود) ، ومكتبات عامة (مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ومكتبة الكونجرس) .

وعن جنسية القائمين بإعداد أعمال الضبط الببليوجرافي لما صدر عن الملك عبدالعزيز من أدبيات فقد تراوحت بين عرب وبريطانيين وأمريكان وألمان وروس ، مما يوحي بأن الاهتمام بتوثيق تاريخ الملك عبدالعزيز يشكل ظاهرة عالمية ، وقد

نبعت هذه الظاهرة من الأهمية التي تحتلها هذه الشخصية ، وأيضاً من أهمية موضوع التوثيق بشكل عام وتوثيق عظماء الرجال والقادة بشكل خاص .

ولابد من وقفة متأنية في هذا السياق حول قضيتين ؛ تتعلق أولاهما بالتخصص ، وتتعلق الأخرى بسيطرة الجهد الفردي على الجهد المؤسساتي وذلك على النحو التالي :

١ ـ فيما يتعلق بالقضية الأولى ؛ فمن الملاحظ على الإسهامات السابقة وجود ظاهرة الدخلاء على المهنة أو على علم أو فن الضبط الببليوجرافي ، وإقحام غير أهل الاختصاص في هذا الفن . وقد أقر أحدهم ـ كما مر بنا من قبل ـ صراحة في مقدمة عمله بأنه من غير المنتمين لتخصص المكتبات والمعلومات والتوثيق ، وأن الطريقة التي سار عليها في إعداد ببليوجرافيته ليست ضمن الطرق المتعارف عليها لدى الاختصاصيين في المجال ، وأنه برغم إدراكه لما يتسم به عمله من تقصير وعدم التزامه الدقيق بأصول العمل الببليوجرافي فقد رأى نشره ليفيد منه الباحثون والمهتمون بتاريخ الملك عبدالعزيز (السماري : ١٤١٤) .

صحيح أن بعض الببليوجرافيين مثل : عبدالفتاح أبوعلية وفهد السماري من المتخصصين في مجال التاريخ مما يوحي بإلمامهم بكافة جوانب الموضوع وأبعاده ، إلا أنه قد ينقصهم الحس الفني الذي يعينهم على تحديد مصادر الحصر ، وأسلوب الوصف ، وطريقة تنظيم المداخل الرئيسة والمداخل الإضافية ، وتحديد منهجية واضحة ومتعارف عليها بين الاختصاصيين لإعداد المشروع الببليوجرافي .

٢ ـ فيما يتعلق بالقضية الثانية ؛ وهي ظاهرة سيطرة النزعة الفردية على ما تم من جهود ، وإقبال الأفراد على القيام بأعمال ينبغي أن تكون في الواقع من صلب مهام المؤسسات ، فهي لا تقتصر على مجال الضبط الببليوجرافي وحده بل إننا نلحظها في مجالات عديدة وبخاصة في العالم العربي الذي يشكو من ضعف اهتمام

المؤسسات بالمشروعات العلمية . ولهذه الظاهرة تأثيرها السلبي على جودة الإنتاج وديناميكيته ؛ إذ عادة ما تعاني جهود الأفراد في الضبط الببليوجرافي من معوقات عديدة مثل عدم الشمول في الأعمال ، ونقص البيانات المقدمة عنها ، علاوة على صدورها في الغالب لمرة واحدة ، الأمر الذي يؤثر على حداثة معلوماتها وربما التقليل من قيمتها العلمية .

إلا أنه ليس من المستغرب أن تبدأ الأعمال الببليوجرافية كخطوة أولى بجهود فردية ريثما تتولى العملية المؤسسات القادرة على رعاية تلك الأعمال وتنميتها وتشجيع استمرارها . بل إن الببليوجرافيات الوطنية مرت بظروف مشابهة حيث بدأت في معظم دول العالم بجهود فردية ثم بدأت الجهود المؤسساتية وبالذات المكتبات الوطنية تفرض نفسها في هذا الصدد .

ومن حسن الطالع أن هذا التوجه الفردي في إنتاج الأدوات الببليوجرافية بدأ يتقلص في الآونة الأخيرة وأخذ يحل محله التوجه المؤسساتي . وهو تطور حدث نتيجة اهتمام المؤسسات بالتوثيق وبتحقيق التاريخ الوطني بشكل عام ، وتاريخ موحد هذه المملكة بشكل خاص . ويؤيد هذه الحقيقة ما لاحظه سعود الحزيمي من أن العصر الراهن قد شهد تحولات جوهرية في جهود الضبط الببليوجرافي والتوثيق وتنظيم المعلومات من أبرزها : انتهاء الصيغة التقليدية لإنتاج تلك الأعمال بواسطة الأفراد حيث حل محلها النظام المؤسسي الذي يقوم على التعاون بين المؤسسات المعنية مثل : المكتبات الوطنية ، والمنظمات المتخصصة ، والمراكز الببليوجرافية ، وأجهزة التوثيق ، ودور النشر التجارية الكبرى وغيرها (الحزيمي : ١٤١١ ، ص: ٢٩٦).

وقد عزز من هذا الاهتمام المؤسساتي بالضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز عزم المملكة على الاحتفال بالذكرى المئوية لتأسيس المملكة ، وعقد

مؤتمر عالمي عن " المملكة العربية السعودية في مائة عام " حيث إن هذه المناسبة العظيمة تحمل في طياتها مشروعات علمية وتوثيقية كثيرة كما لاحظ الباحث من إطلاعه على النشرة التعريفية التي أصدرتها الأمانة العامة للاحتفال . فقد تضمنت النشرة محاور عديدة تتعلق بالمنجزات التعليمية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تمت في عهد الملك عبدالعزيز . وإن ما يتمخض من الكتابة حول تلك المحاور يشكل في النهاية رصيداً ببليوجرافياً مهماً للباحثين مستقبلاً .

وإذا تجاوزنا المشروعات الببليوجرافية التي أعدها الأفراد بأنفسهم إلى تلك التي أعدتها وأصدرتها المؤسسات لوجدناها هي الأخرى لا تخلو من بعض مظاهر الضعف والتقصير برغم ما يتوافر للمؤسسات عادة من دعم مالي وأدبي قد لا يحلم به الأفراد . وتتجلى أبرز عناصر الضعف في النقاط التالية :

١ - ندرة المؤسسات التي لها إسهام واضح بقضية الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز . فعلى المستوى المحلي ، نجد أنه فيما عدا مؤسستين هما : مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض ، ودارة الملك عبدالعزيز فإن إسهامات بقية المؤسسات في المملكة قد لا ترقى إلى المستوى المنشود . وعلى المستوى الخارجي ، فإن دعم المؤسسات لمبدأ الضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز لا يعدو مشاركة بعض المكتبات في إخراج القوائم الببليوجرافية التي ربما تصدر بمناسبة معينة ، ولا تعطي صورة شمولية لما صدر من أدبيات في المجال .

٢ - استعانة المؤسسات وبخاصة العربية بغير أهل الاختصاص للقيام بإعداد الأعمال الببليوجرافية .

٣- صدور الأعمال الببليوجرافية المتعلقة بالملك عبدالعزيز لمرة واحدة (وقد تتزامن مع إحدى المناسبات العلمية أو الاجتماعية) ، تغطي فترة زمنية محددة مما لا يعطيها الفرصة لتحديث بياناتها .

٤ ـ افتقار الببليوجرافيات التي أصدرتها المؤسسات إلى وضوح الرؤية الببليوجرافية، وعدم التزامها بالمنهج العلمي في الإعداد فيما عدا قائمة مكتبة الكونجرس فهي أقرب ما تكون نحو العمل العلمي حيث تضمنت مقدمة توضح النهج الذي سارت عليه في إنجاز مشروع القائمة .

ثانيا : سنة النشر

وثمة متغير آخر يشكل أهمية للمتخصصين في المجال وهو توقيت الإصدار لجهود الضبط الببليوجرافي التي تناولت الإنتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز أو سنة النشر لتلك الجهود . ومن الملاحظ وجود تفاوت جلي في هذا الصدد ، كما يبرز ذلك بوضوح الجدول رقم (٢) الذي صنف تلك الجهود وفقاً للسنوات الهجرية والميلادية .

ومن إلقاء نظرة على الجدول المذكور (الجدول رقم ٢) يتضح مدى التباين في توقيت إصدار الأعمال الببليوجرافية السابقة أو السنوات التي نشرت فيها تلك الأعمال . ففيما يتعلق بسنوات النشر للجهود العربية فقد تراوحت بين عام ١٣١٩هـ وعام ١٤١٤هـ أي لمدة (٢٤) عاماً ، بينما تراوحت سنوات النشر للجهود الأجنبية بين عام ١٩٥١ وعام ١٩٨٩ أي لمدة ٣٨ عاما .

وقد تمثل أقدم عمل عربي في الببليوجرافية التي أصدرها كل من : يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني عام ١٣٩١هـ ، بينما تمثل أحدث عمل عربي (حتى تاريخ إعداد هذه الدراسة) في ببليوجرافية فهد السماري ، وقائمة فيحان العتيبي ، وكشاف عبدالله الحقيل التي صدرت جميعها في عام ١٤١٤هـ . وتمثل أقدم عمل أجنبي في قائمة مكتبة الكونجرس LIBRARY OF CONGRESS LIST التي صدرت عام ١٩٥١م ، بينما تمثل أحدث عمل أجنبي (لحين توقيت إعداد الدراسة الحالية) في ببليوجرافية هانز ـ جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS BIBLIOGRAPHY التي صدرت عام ١٩٨٩م .

يلاحظ على الحقائق المتمخضة عن الجدول رقم (٢) أن ثلاثة أعمال صدرت جميعها في العام نفسه (١٤٠٦هـ) حيث تزامن توقيت إصدارها مع توقيت المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز الذي استضافته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وسيرد لاحقا معلومات أكثر تفصيلاً عن هذا المؤتمر ودوره في تعزيز مجال الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري المتعلق بالملك عبدالعزيز . وهذه الأعمال الثلاثة هي :

- الكتاب الببليوجرافي عن تاريخ الملك عبدالعزيز الذي أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- الفهرس الذى أصدرته جامعة الملك سعود .
- القائمة التي أصدرها محمد الحمدان .

والصورة الإجمالية التي نخرج بها من استقراء ما سبق عرضه من نتائج هي أن : اهتمام الأجانب بالضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز سابق لاهتمام العرب الذين لم ينتبهوا إلى القضية إلا في فترة متأخرة ، مع أن المسؤولية تقع عليهم بشكل أكثر . ولعل مرد هذه الظاهرة إلى اهتمام الغربيين بقضية التوثيق بشكل عام وتوثيق القياديين والعظماء الذين دخلوا التاريخ بشكل خاص ـ كما سبق الإشارة إلى ذلك .

الجدول رقم (٢)
بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقا لسنوات النشر

الجهود الببليوجرافية السابقة	سنة النشر	
	بالتاريخ الهجري	بالتاريخ الميلادي
ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني	١٣٩١	-
ببليوجرافية شكري العناني	١٣٩٨	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (مقالة)	١٣٩٨	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (كتاب)	١٣٩٩	-
قائمة دارة الملك عبدالعزيز	١٤٠١	-
ببليوجرافية جامعة الإمام	١٤٠٦	-
قائمة محمد الحمدان	١٤٠٦	-
فهرس جامعة الملك سعود	١٤٠٦	-
فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة	١٤١٢	-
ببليوجرافية فهد السماري	١٤١٤	-
قائمة فيحان العتيبي	١٤١٤	-
كشاف عبدالله الحقيل	١٤١٤	-
قائمة مكتبة الكونجرس LIBRARY OF CONGRESS LIST	-	١٩٥١
ببليوجرافية استيفن وكنج STEVENS AND KING BIBLIOGRAPHY	-	١٩٧٣
ببليوجرافية فاسيلف VASELEV BIBLIOGRAPHY	-	١٩٨٣
ببليوجرافية فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS BIBLIOGRAPHY	-	١٩٨٨
ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS	-	١٩٨٩

ثالثا : شكل الإصدار

لقد تباينت نشاطات الضبط الببليوجرافي التي تناولت الأدبيات المتعلقة بتاريخ الملك عبدالعزيز في الشكل الذي صدرت به ، وإن كانت في مجملها لم تخرج عن النمطين التقليديين المتعارف عليهما في عالم النشر ، وهما : الكتاب والمقالة ، كما يكشف عن هذه الحقيقة الجدول رقم (٣) .

فقد أظهر هذا الجدول أن من بين إجمالي عدد الأعمال الببليوجرافية السابقة البالغ (١٧) عملاً فإن (١٣) عملاً بنسبة ٥ , ٧٦٪ صدرت على شكل كتب ، بينما أربعة أعمال فقط بنسبة ٥ , ٢٣٪ صدرت على شكل مقالات منشورة في مجلات علمية .

وتتمثل الأعمال التي صدرت على شكل كتب في ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني ، وببليوجرافية شكري العناني ، ودراسة عبدالفتاح أبوعلية بعنوان : " دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر " ، وقائمة دارة الملك عبدالعزيز ، وببليوجرافية جامعة الإمام ، وفهرس جامعة الملك سعود ، وفهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، وببليوجرافية فهد السماري ، وقائمة مكتبة الكونجرس ، وببليوجرافية استيفن وكنج STEVENS AND KING BIBLIOGRAPHY وببليوجرافية فاسيلف VASILEVS BIBLIOGRAPHY ، وببليوجرافية فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS BIBLIOGRAPHY ، وببليوجرافية هانز ـ جرقين فيليبس HANS-JURGEN PHILIPPS BIBLIOGRAPHY .

بينما تتمثل الأعمال التي صدرت في شكل مقالات في دراسة عبدالفتاح أبوعلية بعنوان : " وثائق عن تاريخ الدولة السعودية في عهد الملك عبدالعزيز " ، وقائمة محمد الحمدان ، وقائمة فيحان العتيبي ، وكشاف عبدالله الحقيل .

الجدول رقم (٣)

بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقا لشكل الإصدار

الجهود الببليوجرافية السابقة	شكل الإصدار	
	كتاب	مقالة
ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني	X	-
ببليوجرافية شكري العناني	X	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (مقالة)	-	X
دراسة عبدالفتاح أبو علية (كتاب)	X	-
قائمة دارة الملك عبدالعزيز	X	-
ببليوجرافية جامعة الإمام	X	-
قائمة محمد الحمدان	-	X
فهرس جامعة الملك سعود	X	-
فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة	X	-
ببليوجرافية فهد السماري	X	-
قائمة فيحان العتيبي	-	X
كشاف عبدالله الحقيل	-	X
قائمة مكتبة الكونجرس LIBRARY OF CONGRESS LIST	X	-
ببليوجرافية استيفن وكنج STEVENS AND KING BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية فاسيلف VASELEV BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS	X	-
المجموع	١٣	٤
٪	٧٦,٥	٢٣,٥

وهذا يعني أن الكتاب يحتل مكان الصدارة في عالم الإخراج للأدوات الببليوجرافية المتعلقة بتاريخ الملك عبدالعزيز ، ويعد الوسيلة المفضلة من قبل الغالبية . جدير بالذكر أن الأعمال المشار إليها حملت عناوين مختلفة تمثلت في قائمة، وفهرس ، وكشاف ، ودليل . إلا أن هذه التسميات بدون مسمى وبدون ممارسات ملموسة ، إذ من الملاحظ أنها لم تصدر بأشكال أخرى الأمر الذي لا ينسجم مع النظرة الشاملة لمفهوم الضبط الببليوجرافي التي ذهب إليها كثير من الخبراء في المجال نذكر من بينهم (نسيم الصمادي) الذي وضع تعريفاً شمولياً يستوعب جميع الأنماط الببليوجرافية التي تهدف في مجملها إلى السيطرة على مصادر المعرفة في شتى أشكالها (الصمادي : ١٤٠٣ ، ص: ٥٦٦) .

كما أشار (أحمد تمراز) في هذا الصدد إلى أن المشروع الببليوجرافي يمكن أن يخرج في أشكال مختلفة من أبرزها ما يلي :

- إخراج الببليوجرافية على شكل كتاب ؛ وهو أكثر أدوات الضبط الببليوجرافي شيوعاً وانتشاراً . إلا أن الكتاب يصعب تحديثه ، أو إضافة مواد جديدة إليه .
- إخراج الببليوجرافية على شكل دورية ؛ وهي أنسب أشكال الضبط الببليوجرافي التي تتابع ما يستجد في عالم النشر من أدبيات (ببليوجرافية جارية) .
- إخراج الببليوجرافية على شكل جزء من دورية ؛ حيث تخصص بعض الدوريات العلمية بعض صفحاتها لملاحقة الإنتاج الفكري الحديث على المستوى المحلي أو الإقليمي أو العالمي .
- إخراج الببليوجرافية على شكل أفلام مصغرة (ميكروفيلم أو ميكروفيش) ، وهو أسلوب تطبقه بعض المكتبات في الولايات المتحدة الأمريكية لإصدار فهارسها على مصغرات فيلمية عن طريق الحاسب الآلي .

- إخراج الببليوجرافية على شكل وسائط مقروءة آليا (الأقراص المضغوطة) - CD ROM BIBLIOGRAPHIES ، حيث يتوافر حالياً ما يزيد على (٨٠٠٠) قاعدة معلومات ببليوجرافية مخزنة على هذا النوع من الأقراص (تمراز : د . ت ، ٤٨).

رابعا : وضوح الحاجة والهدف

تتمثل الخطوة الأولى للضبط الببليوجرافي في توضيح الدافع إلى إعداد العمل الببليوجرافي ، والفلسفة التي انطلق منها ، ومدى حاجة المجتمع إليه ، إضافة إلى تحديد الهدف الذي يسعى المشروع الببليوجرافي إلى تحقيقه . وهذا يعني أن العمل ينبغي أن ينطلق من هدف محدد سلفاً في ذهن معد الببليوجرافية ، وأن يخدم أهداف المؤسسة التي تبنت المشروع الببليوجرافي .

وقد ثبت من استقراء النماذج السابقة تفاوتها في توضيح الحاجة والهدف من إعداد العمل الببليوجرافي كما يوضح ذلك الجدول رقم (٤) .

ومن إلقاء نظرة فاحصة على هذا الجدول نجد أن من بين مجموع ما ظهر على السطح من أعمال حتى تاريخ إعداد هذه الدراسة والبالغة (١٧) عملاً ببليوجرافياً فإن تسعة منها بنسبة ٥٢,٩٪ تتسم بوضوح الحاجة والهدف ، بينما ثمانية أعمال بنسبة ٤٧,١٪ ينقصها وضوح الحاجة والهدف .

وتتمثل المجموعة الأولى في جهود كل من يحى ساعاتي وعبدالله القحطاني ، وشكري العناني ، وعبدالفتاح أبوعلية (في كتابه ومقالته) ، وفهد السماري ، واستيفن وكنج STEVENS AND KING ، وفرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS ، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض ، ومكتبة الكونجرس بالولايات المتحدة الأمريكية . فجميع هذه النماذج قد أشارت في مقدمتها صراحة أو ضمناً إلى الحاجة التي تدعو إلى القيام بأعمال الضبط الببليوجرافي عن الإنتاج

الفكري المتعلق بتاريخ الملك عبدالعزيز ، والهدف الذي ترمي تلك الأعمال إلى تحقيقه .

بينما تتمثل المجموعة الثانية في جهود كل من محمد الحمدان ، وفيحان العتيبي ، وعبدالله الحقيل ، وفاسيلف VASILEV ، وهانز جرقين فيليبس - HANS JURGEN PHILIPPS ، ودارة الملك عبدالعزيز ، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وجامعة الملك سعود . فهذه النماذج لم تشر صراحة أو ضمناً إلى الدافع إلى القيام بها أو الهدف الذي ترمي إلى تحقيقه .

ونستطيع أن نستشف من المعطيات الواردة في الجدول رقم (٤) أن حوالي نصف ما صدر حتى الآن من إسهامات الضبط الببليوجرافي في المجال (ثمانية أعمال بنسبة ١ , ٤٧٪) يعوزها عنصر مهم جدا من عناصر الإعداد السليم للعمل الببليوجرافي ، وتتسم بعدم الدقة في الإشارة إلى طبيعة الحاجة التي تدعو إلى إعداد مثل تلك الأعمال الحصرية ، وطبيعة الفئات المستهدفة ، وتحديد الهدف المنشود من القيام بالعمل الببليوجرافي .

وهذه في الواقع ليست بالنسبة البسيطة التي لا تستدعي التوقف عندها ، بل إنها تستحق وقفة متأنية . إنها ظاهرة غير طبيعية ، وربما تعكس نظرة البعض للجهود الحصرية بأنها مجرد قوائم تسرد الأدبيات الصادرة في الموضوع بشكل مباشر دونما الحاجة إلى التمهيد لذلك بتحديد الحاجة لتلك القوائم والهدف منها ودونما الحاجة إلى وضعها في إطار منهجي . وتزداد خطورة هذه الظاهرة إذا كان السبب في إهمال الحاجة والهدف يكمن في عدم وضوح الرؤية لدى القائم بإعداد العمل الحصري . إذ ربما يكون هو نفسه يجهل هذا العنصر المهم من عناصر البناء السليم للببليوجرافية نتيجة لكونه من غير الاختصاصيين ، أو لمجرد التهاون في الأمر ، أو لاعتبارات أخرى .

الجدول رقم (٤)

بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقا لوضوح الحاجة والهدف

الجهود الببليوجرافية السابقة	وضوح الحاجة	
	يوجد وضوح	لايوجد وضوح
ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني	X	-
ببليوجرافية شكري العناني	X	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (مقالة)	X	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (كتاب)	X	-
قائمة دارة الملك عبدالعزيز	-	X
ببليوجرافية جامعة الإمام	-	X
قائمة محمد الحمدان	-	X
فهرس جامعة الملك سعود	-	X
فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة	X	-
ببليوجرافية فهد السماري	X	-
قائمة فيحان العتيبي	-	X
كشاف عبدالله الحقيل	-	X
قائمة مكتبة الكونجرس LIBRARY OF CONGRESS LIST	X	-
ببليوجرافية استيفن وكنج STEVENS AND KING BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية فاسيلف VASELEV BIBLIOGRAPHY	-	X
ببليوجرافية فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS	-	X
المجموع	٩	٨
٪	٥٢,٩	٤٧,١

وقد سبق الإشارة في الإطار النظري إلى أن علماء الضبط الببليوجرافي قد أكدوا على العناصر التي تمثل مرتكزات للمشروع الببليوجرافي المنهجي من بينها تحديد الهدف بدقة ووضوح لما لذلك من أهمية في تحديد الإطار الفكري للببليوجرافية ، وتحديد مجالات التغطية المختلفة ، وتحديد المصادر التي يعتمد عليها العمل الببليوجرافي ، وأيضا تحديد أسلوب الوصف وطريقة التنظيم والترتيب .

وعلى أية حال ، فإن هذه الظاهرة بحاجة إلى مزيد من البحث والدرس لسبر غورها ، ويبدو أن لها علاقة وثيقة بالعنصر التالي من عناصر تقويم الجهود السابقة وهو وضوح الرؤية المنهجية .

خامساً : وضوح الرؤية المنهجية

من المتعارف عليه أن العمل الببليوجرافي يعد عملاً علمياً له أسسه وقواعده التي ينبغي أن تنبثق من أصول علمية راسخة ومقننة بين أهل الاختصاص . وهذا يعني أن البناء العلمي السليم لأعمال الضبط الببليوجرافي يقوم على منهجية واضحة يجب أن تظهر بوضوح في المشروع الببليوجرافي . إلا أن النظرة الفاحصة إلى الجهود السابقة أثبتت تفاوتها في هذا المضمار وغياب المنهجية العلمية في بعضها كما يكشف عن ذلك الجدول رقم (٥) .

الجدول رقم (٥)

بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقا لوضوح الرؤية المنهجية

الجهود الببليوجرافية السابقة	وضوح الرؤية المنهجية	
	يوجد وضوح	لايوجد وضوح
ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني	X	-
ببليوجرافية شكري العناني	X	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (مقالة)	X	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (كتاب)	X	-
قائمة دارة الملك عبدالعزيز	-	X
ببليوجرافية جامعة الإمام	-	X
قائمة محمد الحمدان	X	-
فهرس جامعة الملك سعود	-	X
فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة	X	-
ببليوجرافية فهد السماري	X	-
قائمة فيحان العتيبي	-	X
كشاف عبدالله الحقيل	-	X
قائمة مكتبة الكونجرس LIBRARY OF CONGRESS LIST	X	-
ببليوجرافية استيفن وكنج STEVENS AND KING BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية فاسيلف VASELEV BIBLIOGRAPHY	-	X
ببليوجرافية فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS	-	X
المجموع	١٠	٧
٪	٥٨,٨	٤١,٢

من الجدول رقم (٥) يظهر أن من بين مجموع النماذج الببليوجرافية البالغة (١٧) نموذجاً فإن عشرة منها (بنسبة ٥٨,٨٪) تتسم بوضوح المنهج المتبع في إعدادها ، بينما السبعة المتبقية (بنسبة ٤١,٢٪) على عكس ذلك .

وتتمثل النماذج العشرة الواضحة في منهجها في أعمال كل من : يحى ساعاتي وعبدالله القحطاني ، وشكري العناني ، وعبدالفتاح أبوعلية (التي صدرت على شكل كتاب ومقالة) ، ومحمد الحمدان ، وفهد السماري ، واستيفن وكنج STEVEN AND KING ، وفرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS ، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ومكتبة الكونجرس الأمريكية .

بينما تتمثل النماذج السبعة التي ينقصها وضوح الرؤية المنهجية في أعمال كل من فيحان العتيبى ، وعبدالله الحقيل ، وفاسيلف VASILEV ، وهانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS ، ودارة الملك عبدالعزيز ، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وجامعة الملك سعود .

ولعل مما يلفت النظر أن جميع الأعمال التي ثبت أنها تتسم بعدم وضوع الرؤية المنهجية هي الأعمال نفسها التي ثبت من الجدول رقم (٤) أنها تتسم بعدم وضوح الحاجة والهدف ، فيما عدا عمل الحمدان ، فهو وإن كان لم يوضح الحاجة والهدف فإنه قد رسم المنهج الذي سار عليه عمله بشكل واضح كما سبق تبيان ذلك عند الحديث عن عمله .

من مظاهر غياب المنهجية العلمية ـ التي لاحظها الباحث من اطلاعه على الجهود السابقة ـ عدم ذكر الخطوات التي استخدمها بعض القائمون بالأعمال والإجراءات التي سيطرت على مسارها ، وأيضاً عدم تضمين بعض تلك الأعمال مقدمة مفصلة توضح المصادر التي تم الاعتماد عليها في الحصر وإعداد البيانات

الببليوجرافية ، وحدود التغطية ، والترتيب ، والوصف ، وإعداد الكشافات وعناصر الوصف الببليوجرافي ، وغير ذلك من العناصر التي تهم القارىء وتزوده بمعلومات وافية حول النهج الذي سار بموجبه المشروع الببليوجرافي .

وأيضاً من مظاهر ضعف المنهجية العلمية في بعض نماذج الجهود السابقة أنها تدخل في الموضوع مباشرة دون أن تمهد لذلك بخلفية علمية توضح الإطار المنهجي للعمل ، علاوة على أنها لا تعطي تقويماً لما سبقها من أعمال ، وتكشف عمّا تتسم به من نقاط القوة والضعف، وتوضح كيف أن العمل الحالي استفاد من الأعمال السابقة وعمل على تلافي تقصيرها المنهجي .

وقد يكون مرد غياب التخطيط العلمي أو ضعفه في بعض تلك الأعمال إلى إعدادها على عجل لتقديمها في مناسبات معينة . وينطبق ذلك بشكل واضح على جهود المؤسسات في الضبط الببليوجرافي التي قدمت بمناسبة إقامة المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٠٦هـ ، والمؤتمر الذي أقامته جامعة الزقازيق بالاسكندرية على هامش المؤتمر السابق . ذلك أن التسرع في إعداد مثل تلك الأعمال وإسنادها إلى من تنقصهم الخبرات الفنية قد ينتج عنه تجميع مواد دون وضعها في إطار منهجي وبدون وعي وإدراك للأسس العلمية التي تحكم مثل تلك المشروعات الببليوجرافية .

ولاشك أن نقص الكوادر البشرية المؤهلة في مجال الضبط الببليوجرافي ، وإسناد إعداد مثل تلك الأعمال لغير الاختصاصيين قد يترتب عليه التجميع العشوائي دون الالتزام بالضوابط الفنية والعلمية المتعارف عليها في المهنة . إذ إن العمل الببليوجرافي عمل علمي يخضع لأسس مقننة وضحها علماء الضبط

الببليوجرافي الذين اتفقوا على أن الببليوجرافية تعد عملاً علمياً ، وينبغي ألا يترك إعدادها للاجتهادات الفردية ، بل ينبغي أن تخضع لأساليب علمية وقواعد منهجية يجب اتباعها في ممارسة الحصر والضبط والتوثيق وتنظيم المواد ووصفها (مشالي : ١٤١٠ ، ص : ٢٤) .

وفي هذا الإطار لاحظ سعد الهجرسي أن ظاهرة التهاون في اتباع النهج العلمي في الضبط الببليوجرافي قد أخذت في الذيوع والانتشار ، وبخاصة في الجهود العربية سواء في ذلك الفردية والمؤسساتية ، وأنه قد كثر الإنتاج الببليوجرافي في العالم العربي " وتوهم كثيرون ممن تطفلوا على هذا الميدان حديثاً أن إعداد الببليوجرافية أمر في غاية السهولة ، حيث يستطيع أحدهم أن يجمع ما يصادفه من الكتب والمؤلفات في مجال ما ، ثم يضمها في قائمة مرتبة بطريقة أو بأخرى ، ولا بد للقضاء على هذه الظاهرة غير الصحية أن نعد جيلاً صالحاً من الببليوجرافيين العرب ، وأن نمدهم بالخبرات والمهارات لإعداد الببليوجرافيات على أسس علمية سليمة " (الهجرسي : ١٣٩٤ ، ص : ٣٥٠) .

وربما كان لغموض مفهوم الببليوجرافيا أثر على غموض الرؤية الببليوجرافية ، ويؤكد هذا الأمر تحرج كثير من الباحثين إعطاء تعريف جامع مانع لمصطلح الببليوجرافيا بسبب غموض المصطلح وسعة مجاله . وقد تم مناقشة هذه القضية بالتفصيل في الفصل الثالث الذي استشهد فيه الباحث بمقولات عديدة تؤيد الفكرة من بينها مقولة روي استوكس ROY STOKES الذي أورد مجموعة من العوامل التي تضيف إلى صعوبة تحديد المصطلح من بينها بعده التاريخي ، وكثرة أنماطه ، وتعدد مجالات استخدامه ، كل هذا أدى بالتالي إلى عدم اتفاق الاختصاصيين على مفهوم واضح ومحدد لمصطلح الببليوجرافيا . (STOKES : 1982 , 1 - 15)

سادسا : مجال التغطية الزمنية

من بين العناصر الأخرى التي اقترحها الباحث لتقويم جهود الضبط الببليوجرافي السابقة في ضوء المعيار الذي طوره لهذا الغرض نطاق التغطية وحدوده؛ أي بمعنى تحديد مجال المشروع من الناحية المكانية والزمنية ، والموضوعية واللغوية والشكلية كخطوة نحو السيطرة على المجال ، واختيار ما يناسب الحاجة والهدف الذي ترمي الببليوجرافية إلى تحقيقه .

ويعد مجال التغطية من أهم معايير تقويم جهود الضبط الببليوجرافي والحكم على مدى نجاحها في تلبية احتياجات المستفيدين . ذلك أن العمل الببليوجرافي يغطي عادة فترة معينة وحيزاً جغرافياً محدداً وموضوعاً محدداً .

وأما بالنسبة للغة فقد تقتصر الببليوجرافية على ما صدر من أدبيات في لغة واحدة ، وقد تشمل لغتين فأكثر . أما بالنسبة للحدود الشكلية فيقصد بها نوع المادة المدرجة في الببليوجرافية (كتب ، مقالات ، مخطوطات ، مواد سمعبصرية . . . الخ) . ويدخل في هذا النطاق أيضاً تحديد ما إذا كانت الببليوجرافية تجنح نحو الشمول COMPREHENSIVE أو الاختيار SELECTED .

ولو القينا نظرة فاحصة على النماذج السابقة لوجدناها تتفاوت بشكل واضح في مجال تغطيتها نتيجة لنظرة القائمين بها ، ولمدى إدراكهم لطبيعة العمل الببليوجرافي، وتمكنهم من طبيعة الموضوع الذي تدور حوله الببليوجرافية .

وفيما يتعلق بالحد الزمني للتغطية أو التجميع على أساس الزمان الذي يغطيه العمل (فترة زمنية محددة) فإن من الملاحظ وجود اختلاف واضح في فترات التغطية الزمنية لجهود الضبط الببليوجرافي الفردية والمؤسساتية التي سبق عرضها على النحو الذي يبرزه الجدول رقم (٦) .

الجدول رقم (٦)

بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقا لمجال التغطية الزمنية

الجهود الببليوجرافية السابقة	مجال التغطية الزمنية		
	شامل	محدود	غير واضح
ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني	X	-	-
ببليوجرافية شكري العناني	X	-	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (مقالة)	-	X	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (كتاب)	X	-	-
قائمة دارة الملك عبدالعزيز	X	-	-
ببليوجرافية جامعة الإمام	-	X	-
قائمة محمد الحمدان	X	-	-
فهرس جامعة الملك سعود	-	X	-
فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة	X	-	-
ببليوجرافية فهد السماري	X	-	-
قائمة فيحان العتيبي	-	-	X
كشاف عبدالله الحقيل	-	-	X
قائمة مكتبة الكونجرس LIBRARY OF CONGRESS LIST	X	-	-
ببليوجرافية استيفن وكنج STEVENS AND KING BIBLIOGRAPHY	X	-	-
ببليوجرافية فاسيلف VASELEV BIBLIOGRAPHY	X	-	-
ببليوجرافية فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS BIBLIOGRAPHY	X	-	-
ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS	X	-	-
المجموع	١٢	٣	٢
٪	٧٠,٦	١٧,٦	١١,٨

من الحقائق التي أثبتها الجدول السابق (الجدول رقم ٦) يتضح أنه يمكن تصنيفها إلى ثلاث فئات على النحو التالي :

أ- أعمال شاملة في تغطيتها الزمنية ؛ حيث استوعبت جميع ما له علاقة بتاريخ الجزيرة العربية ، وتاريخ الدولة السعودية بأدوارها الثلاثة بما فيها فترة حكم الملك عبدالعزيز . وقد بلغ مجموع الأعمال الداخلة في نطاق هذه الفئة (١٢) عملاً بما يمثل نسبة ٦ , ٧٠٪ من إجمالي العدد البالغ (١٧) عملاً .

وتشمل هذه الفئة إسهامات الضبط الببليوجرافي لكل من : يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني ، وشكري العناني ، وعبدالفتاح أبوعلية (في دراسته التي ظهرت على شكل كتاب ، وعبدالله الحمدان ، وفهد السماري ، واستيفن وكنج STEVENS AND KING ، وفاسيلف VASILEV ، وفرانك كليمنس FRANK CLEMENS ، وهانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS ، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ودارة الملك عبدالعزيز ، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ومكتبة الكونجرس .

ولتوضيح الصورة السابقة بشكل أكثر نورد النماذج التالية على سبيل المثال :

- تضمنت ببليوجرافية الحمدان كل ما كتب عن الجزيرة العربية قبل الملك عبدالعزيز وبعده ، وما كتب عن المملكة ، وبعض ما كتب عن أنجال الملك عبدالعزيز ، إضافة إلى ما كتب عن الدعوة السلفية .
- تضمنت ببليوجرافية السماري جميع المواد التي ظهرت خلال الفترة من بداية الدولة السعودية الثالثة ، وحتى تاريخ إصدار الببليوجرافية (عام ١٤١٤هـ) ، علاوة على بعض المواد التي صدرت قبل الفترة المشار إليها لكونها من المواد الرئيسة والمرتبطة بالموضوع بشكل مباشر - على حد تعبير السماري - ، والمصادر المتعلقة بمنطقة الجزيرة العربية بشكل عام .

- تضمنت ببليوجرافية فاسيلف VASILEV جميع الأدبيات المتعلقة بالمملكة والجزيرة العربية خلال القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٨٠ ، ومرفق في نهايتها قائمة إضافية مستقلة بالأعمال المنشورة للفترة بين ١٩٨٠ ـ ١٩٨٢ .
- نصت ببليوجرافية دارة الملك عبدالعزيز على أنها شاملة لمنطقة الجزيرة العربية ، وأن جزءاً منها هو الذي يخص تاريخ الملك عبدالعزيز بشكل مباشر .

ب- أعمال أقتصرت في تغطيتها على فترة زمنية محددة ؛ غالباً الدولة السعودية الثالثة ، أو التاريخ الحديث والمعاصر للمملكة . وقد بلغ مجموعها ثلاثة أعمال بنسبة ١٧,٦٪ ، وتشمل إسهامات كل من عبدالفتاح أبوعلية (التي صدرت على شكل مقالة غطت الفترة بين ١٩٠٢ - ١٩٥٣) ، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وجامعة الملك سعود .

ج- أعمال لم تذكر المجال الزمني لتغطيتها ؛ وتشمل العملين اللذين قام بهما كل من فيحان العتيبي وعبدالله الحقيل بما يمثل نسبة ١١,٨٪ من مجموع ما صدر في المجال من أعمال بلغت (١٧) عملاً .

وهذا التفاوت الشديد في البعد الزمني لتلك الأعمال ، وبخاصة في الفئة الأولى التي توسعت في تغطيتها الزمنية يعكس بشكل أو بآخر عدم وجود معيارية تقنن لمثل تلك المشروعات التي يسيطر عليها في الغالب الاجتهاد الشخصي في تحديد تاريخ إغلاق تلك الأعمال حيث إن كل واحد يجتهد في وضع التاريخ الذي يعتقد أنه يتناسب مع عمله ويخدم هدفه . لذا ينبغي على المستفيد أن يتعامل بحذر مع هذا النمط من الببليوجرافيات الراجعة التي لا تقف عند فترة زمنية محددة بل تجنح إلى التغطية الشاملة ما وسعها المجال إلى ذلك سبيلاً .

وفي ظل هذه المرونة الزائدة في التغطية الزمنية قد يصعب على المستفيد الخروج بمواد كثيرة تنصب بشكل مباشر على فترة حكم الملك عبدالعزيز . وأكبر

دليل على ذلك ببليوجرافية فاسيلف VASILEV التي صدرت بعنوان " ببليوجرافية المملكة العربية السعودية " BIBLIOGRAPHY ON SAUDI ARABIA . فبرغم أنها احتوت على مادة علمية غزيرة بلغت (٤١٧٦) مادة ، فإن ما تناول منها الملك عبدالعزيز لم يتجاوز (١٠٠) مادة فقط . وقد حدث هذا نتيجة للتسامح في الفترة الزمنية التي شملت كل ما له علاقة بالجزيرة العربية منذ القرن التاسع عشر وحتى نهاية عام ١٩٨٠ ، وأيضاً نتيجة لإدراج كل المواد التي رأها معد الببليوجرافية مناسبة لتضمينها في العمل .

ومع أن فاسيلف يشكر على اجتهاده الشخصي وعلى حرصه بتجميع أكبر قدر ممكن من الأدبيات في عمله ، إلا أن هذا الاجتهاد قد يفسر على أنه نوع من الفوضى الببليوجرافية .

سابعاً : مجال التغطية المكانية

ويقصد بذلك حصر ما صدر من أوعية تتعلق بتاريخ الملك عبدالعزيز في دولة معينة أو في مجموعة دول ، وأحياناً يكون الحصر مقتصراً على ما هو موجود في مكتبة معينة فيصبح البعد المكاني محدداً أو مقيداً ويصبح العمل في هذه الحالة اقتنائياً لكونه يتركز على ما تقتنيه مكتبة أو مؤسسة واحدة .

ولابد للببليوجرافي من الاطلاع الواسع على أدب الموضوع الذي تتمحور حوله الببليوجرافية ومعايشته لفترة طويلة ريثما تنضج الفكرة في ذهنه وبالتالي يكون باستطاعته أن يحدد مجالها المكاني أو نطاقها الجغرافي بوضوح ، إلا إذا كان الببليوجرافي أصلاً من الاختصاصيين في الموضوع فيسهل عليه تحديد المكان دونما حاجة لاستقراء الأدبيات .

وقد تفاوت مجال التغطية المكانية للإسهامات السابقة في المجال على نحو ما هو موضح في الجدول رقم (٧) .

ومن إلقاء نظرة على هذا الجدول يتبين أن تسعة أعمال بنسبة ٩ , ٥٢٪ من مجموع الأعمال السابقة البالغة (١٧) عملاً لم تتقيد بمنطقة جغرافية محددة في عملية الحصر للمواد المدرجة فيها ، بينما تقيدت ثمانية أعمال بنسبة ١ , ٤٧٪ بمجال مكاني محدد التزمت به ولم تحيد عنه .

ومن نماذج الفئة الأولى الببليوجرافيات التي قام بإعدادها : يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني ، وشكري العناني ، وعبدالفتاح أبوعلية (في دراسته المنشورة في مجلة الدارة ، وفي كتابه الذي نشرته دار المريخ عام ١٣٩٩هـ) ، وجامعة الإمام، وفهد السماري ، واستيفن وكنج STEVENS AND KING ، وفرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS ، وهانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS .

ومن نماذج الفئة الثانية جهود الضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز التي قام بها كل من دارة الملك عبدالعزيز ، وجامعة الملك سعود ، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة (التي اقتصر البعد المكاني لأعمالها على ما هو موجود في مكتبتها) ، ومحمد الحمدان ، وفيحان العتيبي (اقتصر عمله على ما هو منشور في مجلة الدارة) ، وعبدالله الحقيل (أيضاً اقتصر عمله على ما هو منشور في مجلة الدارة) ، ومكتبة الكونجرس (التي اقتصر عملها على ما هو موجود فيها)، وفاسيلف VASILEV (الذي اقتصر أغلب عمله على ما هو منشور في روسيا وأوروبا الشرقية) .

ونستشف من الجدول رقم (٧) أنه بالرغم من أن المؤلفات التي تناولت تاريخ الملك عبدالعزيز قد صدرت في مختلف دول العالم وشملت مختلف بقاع المعمورة، فإن تركيز المجال المكاني لأكثرية أعمال الضبط الببليوجرافي على ما صدر في العالم العربي والإسلامي على حساب ما صدر في بلدان أخرى شهدت مؤلفات متعددة بلغات متباينة .

الجدول رقم (٧)

بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقا لمجال التغطية المكانية

الجهود الببليوجرافية السابقة	مجال التغطية	
	واسع	ضيق
ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني	X	-
ببليوجرافية شكري العناني	X	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (مقالة)	X	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (كتاب)	X	-
قائمة دارة الملك عبدالعزيز	-	X
ببليوجرافية جامعة الإمام	X	-
قائمة محمد الحمدان	-	X
فهرس جامعة الملك سعود	-	X
فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة	-	X
ببليوجرافية فهد السماري	X	-
قائمة فيحان العتيبي	-	X
كشاف عبدالله الحقيل	-	X
قائمة مكتبة الكونجرس LIBRARY OF CONGRESS LIST	-	X
ببليوجرافية استيفن وكنج STEVENS AND KING BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية فاسيلف VASELEV BIBLIOGRAPHY	-	X
ببليوجرافية فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS	X	-
المجموع	٩	٨
٪	٥٢,٩	٤٧,١

والجدير بالذكر في هذا السياق أن بعض الإسهامات الببليوجرافية التي أجريت في المجال عبرت صراحة في المقدمة عن النطاق المكاني أو الجغرافي لمحتوياتها ، بينما البعض الآخر لم تذكر هذا الأمر ، ولعلها تركته لحدس القارىء الذي يمكن أن يستشف ذلك من قنوات عديدة من بينها تفحص صفحة العنوان ، واستقراء المادة العلمية المدرجة .

ثامناً : مجال التغطية اللغوية

يمثل الحصر على أساس اللغة معياراً مهماً من معايير الحكم على جهود الضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز . وفي هذا الإطار خرج الباحث من فحص الجهود السابقة وتحليلها بنتيجة عامة ، مضمونها أنه يوجد تفاوت في البعد اللغوي حيث إن بعضها حصر الأدبيات في مختلف اللغات ، والبعض الآخر حصر ما صدر في اللغات الأجنبية ، ومنها ما قصر الحصر على ما صدر بلغة واحدة فقط (اللغة العربية) كما يعكس ذلك بوضوح الجدول رقم (٨) .

وتوحي نظرة على الأعمال السابقة (الجدول رقم ٨) بأنه يمكن تقسيمها فيما يتعلق بمجالها اللغوي إلى ثلاث فئات على النحو التالي :

أ- فئة تناولت الأدبيات المتعلقة بتاريخ الملك عبدالعزيز الصادرة في مختلف اللغات ، وقد بلغ مجموعها ثمانية أعمال بنسبة ١ , ٤٧٪ من إجمالي العدد البالغ (١٧) عملاً . وتشمل إسهامات عبدالفتاح أبوعلية (التي صدرت على شكل مقالة منشورة في مجلة الدارة وعلى شكل كتاب نشرته دار المريخ) ، وفهد السماري ، وفاسيلف (مع أنها ركزت أكثرعلى ما نشر باللغة الروسية) ودارة الملك عبدالعزيز ، وجامعة الإمام ، وجامعة الملك سعود (مع أنها ركزت على اللغتين العربية والإنجليزية) ، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة .

الجدول رقم (٨)

بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقا لمجال التغطية اللغوية

الجهود الببليوجرافية السابقة	مجال التغطية اللغوية		
	مختلف اللغات	اللغات الاجنبية	العربية فقط
ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني	-	-	X
ببليوجرافية شكري العناني	-	-	X
دراسة عبدالفتاح أبو علية (مقالة)	X	-	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (كتاب)	X	-	-
قائمة دارة الملك عبدالعزيز	X	-	-
ببليوجرافية جامعة الإمام	X	-	-
قائمة محمد الحمدان	-	-	X
فهرس جامعة الملك سعود	X	-	-
فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة	X	-	-
ببليوجرافية فهد السماري	X	-	-
قائمة فيحان العتيبي	-	-	X
كشاف عبدالله الحقيل	-	-	X
قائمة مكتبة الكونجرس LIBRARY OF CONGRESS LIST	-	X	-
ببليوجرافية استيفن وكنج STEVENS AND KING BIBLIOGRAPHY	-	X	-
ببليوجرافية فاسيلف VASELEV BIBLIOGRAPHY	X	-	-
ببليوجرافية فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS BIBLIOGRAPHY	-	X	-
ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS	-	X	-
المجموع	٨	٤	٥
٪	٤٧,١	٢٣,٥	٢٩,٤

ب- فئة تناولت الأدبيات الصادرة باللغات الأجنبية ، وقد بلغ مجموعها أربعة أعمال بنسبة ٢٣,٥٪ . ويمكن بالتالي تقسيم الأعمال التي تندرج تحت هذه الفئة إلى ثلاث مجموعات صغيرة حسب تركيزها اللغوي وذلك على النحو التالي :

- مجموعة ركزت على اللغات الأوروبية ، وبخاصة الإنجليزية مثل : الببليوجرافية التي قام بإعدادها كل من استيفن وكنج STEVENS AND KING .
- مجموعة ركزت على اللغتين الألمانية والإنجليزية مثل : الببليوجرافية التي قام بإعدادها هانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS .
- مجموعة ركزت على اللغة الإنجليزية وحدها مثل : الببليوجرافية التي قام بإعدادها فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS ، وأيضاً الببليوجرافية التي قامت بإعدادها مكتبة الكونجرس .

ج- فئة تناولت الأدبيات الصادرة باللغة العربية وحدها ، وقد بلغ مجموعها خمسة أعمال بنسبة ٢٩,٤٪ من إجمالي العدد البالغ (١٧) عملاً . وتشمل هذه الفئة تلك الجهود التي قام بها يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني ، وشكري العناني (شمل عمله ما صدر باللغة العربية أو ترجم إليها من اللغات الأخرى) ، ومحمد الحمدان ، وفيحان العتيبي ، وعبدالله الحقيل .

هذا وإن التفاوت في البعد اللغوي لإسهامات الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري الصادر عن الملك عبدالعزيز لدليل على أن الشخصيات العظيمة تثير اهتمام الباحثين والدارسين في مختلف دول العالم وبمختلف اللغات ، وأن كل واحد يريد أن يكتب عن الشخصية التي يعجب بها بلغته الأصلية التي تساعده على التعبير الدقيق عن شعوره تجاه ما يكتب .

ومما يلفت النظر بشكل عام أنه برغم أن الجهود الببليوجرافية المشار إليها قد تناولت مختلف اللغات فإن التركيز قد انصب على اللغتين العربية والإنجليزية .

ولم يعنى القائمون على الأعمال بترجمة عناوين المواد الأجنبية إلى اللغة العربية فيما عدا فهد السماري فقد اجتهد في هذه القضية ، وأكد في مقدمة عمله على أن ترجمته مجرد اجتهاد شخصي ، فهي ليست ترجمة دقيقة لكونه ـ على حد زعمه ـ لم يطلع على محتويات المواد الأجنبية نفسها .

تاسعاً : مجال التغطية الوعائية

قد يتسع الشكل الوعائي لمشروع الضبط الببليوجرافي بحيث يشمل نماذج مختلفة من الأوعية بما في ذلك الكتب ومقالات الدوريات والتقارير والرسائل الجامعية والمصغرات الفيلمية ، وقد يضيق بحيث يقتصر على نوع واحد أو نوعين من المواد .

وقد ثبت من الاطلاع الفاحص على الأعمال السابقة أنها تتفاوت في البعد الوعائي وتختلف بشكل واضح في تغطية أشكال المواد على النحو الذي يعرضه الجدول رقم (٩) .

يمكن القول بناء على المعطيات الواردة في هذا الجدول أنه من الممكن تبويب جهود الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري الصادر عن الملك عبدالعزيز بمختلف أشكال الأوعية إلى أربع فئات على النحو التالي :

أ ـ أعمال شاملة لجميع أوعية المعلومات ؛ وقد بلغ مجموعها (١٢) عملاً بنسبة ٦ , ٧٠٪ من إجمالي العدد البالغ (١٧) عملاً . ومن أمثلتها ببليوجرافيات شكري العناني ، وعبدالفتاح أبوعلية (المنشورة في مجلة الدارة ، والصادرة على شكل كتاب) ، وفهد السماري ، واستيفن وكنج STEVENS AND KING ، وفاسيلف VASILEV ، وفرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS ، وهانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS ، ودارة الملك عبدالعزيز ، وجامعة الإمام ، وجامعة الملك سعود ، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة .

على أنه ينبغي التحفظ بعض الشيء على شمولية التغطية في العمل الذي أعده كل من استيفن وكنج حيث إن الشمولية هنا نسبية لأنهما استثنيا من عملهما الوثائق القديمة والتقارير المتخصصة الصادرة في المملكة بحجة أنهما يزمعان إصدار ببليوجرافية لاحقة تتضمن ما تم استثناؤه في عملهما السابق .

ب- أعمال اقتصرت في تغطيتها الوعائية على كل من الكتب والمقالات وحدها دون سائر أنواع الأوعية الأخرى ؛ ويوجد لها مثال واحد فقط بنسبة ٩ , ٥٪ من مجموع ما ظهر من أعمال على الساحة ، وهو ببليوجرافية مكتبة الكونجرس .

ج- أعمال اقتصرت في تغطيتها الوعائية على الكتب وحدها ؛ وقد بلغ مجموعها عملين فقط بنسبة ٨ , ١١٪ . ومن أمثلتها الببليوجرافية التي أعدها كل من يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني ، إضافة إلى ببليوجرافية محمد الحمدان .

د- أعمال اقتصرت في تغطيتها الوعائية على المقالات وحدها ؛ وذلك بمعدل عملين فقط وبنسبة ٨ , ١١٪ من إجمالي العدد البالغ (١٧) عملاً . ومن أمثلتها ببليوجرافية فيحان العتيبي ، وكشاف عبدالله الحقيل حيث غطى هذان العملان المقالات التي نشرت في مجلة الدارة .

الجدول رقم (٩)

بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقا لمجال التغطية الوعائية

الجهود الببليوجرافية السابقة	مجال التغطية الوعائية			
	شاملة لمختلف الأوعية	اقتصرت على الكتب والمقالات	اقتصرت على الكتب وحدها	اقتصرت على المقالات وحدها
ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني	-	-	X	-
ببليوجرافية شكري العناني	X	-	-	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (مقالة)	X	-	-	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (كتاب)	X	-	-	-
قائمة دارة الملك عبدالعزيز	X	-	-	-
ببليوجرافية جامعة الإمام	X	-	-	-
قائمة محمد الحمدان	-	-	X	-
فهرس جامعة الملك سعود	X	-	-	-
فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة	X	-	-	-
ببليوجرافية فهد السماري	X	-	-	-
قائمة فيحان العتيبي	-	-	-	X
كشاف عبدالله الحقيل	-	-	-	X
قائمة مكتبة الكونجرس	-	X	-	-
ببليوجرافية استيفن وكنج	X	-		
ببليوجرافية فاسيلف	X	-	-	-
ببليوجرافية فرانك كليمنتس	X	-	-	-
ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس	X	-	-	-
المجموع	١٢	١	٢	٢
٪	٧٠,٦	٥,٠	١١,٨	١١,٨

وترسم الحقائق المشار إليها صورة واضحة لأحد مظاهر الفوضى الببليوجرافي الذي يتسم به المجال ؛ وهو أمر لا يثير استغراب الباحث إذا وضع في إطار غموض الرؤية الببليوجرافية التي تم مناقشتها من قبل . فبينما تغطي ببليوجرافية السماري ـ على سبيل المثال ـ جميع أشكال المواد التي لها علاقة بتاريخ المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبدالعزيز ، فإن ببليوجرافية الحمدان تقتصر على الكتب وحدها ولا علاقة لها بما صدر من أشكال الوثائق الأخرى . الأمر الذي لا ينسجم مع مبدأ الضبط الببليوجرافي الشامل لكل ما جادت به قرائح الكتاب والمبدعين في شتى الجوانب المتصلة بتاريخ الملك عبدالعزيز وشخصيته ، ولا ينسجم أيضاً مع احتياجات الباحثين الذين يهمهم الحصول على المعلومات المناسبة في شتى مصادر المعرفة البشرية .

ويمكن القول بعبارة أخرى إن هذا التفاوت في الحصر الوعائي أو الشكلي مؤشر على عدم وجود استراتيجية واضحة يسير عليها القائمون بتلك الأعمال ؛ حيث تطغى الاجتهادات الشخصية على المعايير العلمية . وينعكس هذا بالتالي على القارىء أو المستفيد الذي يتوق دوما إلى أن توضع المعلومة بين يديه في مختلف أوعيتها ، وأن يجدها في الأداة الببليوجرافية التي أمامه .

والملاحظ على نسبة كبيرة من الببليوجرافيات التي سبق عرضها التركيز على الأوعية التقليدية وبخاصة الكتب التي نالت نصيب الأسد في تلك الأعمال ، وإهمالها لأوعية أخرى لا تقل أهمية عن الكتب بل ربما تفوقها في الأهمية مثل المقالات وأعمال المؤتمرات والندوات والدراسات غير المنشورة والرسائل الجامعية المقدمة للجامعات العربية والأجنبية . وهذا التوجه لا ينسجم مع النظرة إلى مصطلح الضبط الببليوجرافي من منظور شمولي ، كما ذهب إلى ذلك غالبية الخبراء في المجال ومن بينهم دونالد دافينسون DONALD DAVINSON الذي يقترح أن يعرّف المصطلح بأنه أداة لتنظيم سجلات المعرفة في مختلف أشكالها المطبوعة والمرئية والمسموعة سواء كانت منشورة أوغير منشورة : DAVINSON (14 - 7 ، 1981 .

والواقع أنه فيما عدا نماذج قليلة (ببليوجرافة السماري ، ودراسة أبوعلية التي صدرت على شكل كتاب) فلا توجد أدلة شاملة تغطي جميع أشكال مصادر المعلومات المتعلقة بتاريخ المملكة في عصر الملك عبدالعزيز . الأمر الذي يؤكد على أننا لا نزال بحاجة إلى أدلة الضبط الببليوجرافي الشاملة ـ على غرار كتاب أبو علية ـ ترصد جميع أنماط الأوعية التي تخدم توثيق تاريخ الملك عبدالعزيز ، وتلبي بالتالي احتياجات المؤرخين والدارسين والمكتبيين والموثقين والمهتمين بالضبط الببليوجرافي .

وقد لاحظ الباحث من الزيارات الميدانية التي قام بها لبعض المؤسسات المعنية بتوثيق تاريخ الملك عبدالعزيز أن تلك المؤسسات تمتلك مواداً أخرى غير الكتب إلا أنها تبقيها مهمشة ، ومبعثرة على الأرفف بطريقة عشوائية ، ولا تعطيها ما تستحقه من المعالجة الفنية والتنظيم . من ذلك على سبيل المثال ظاهرة عدم الاهتمام بتوثيق مقالات الصحف اليومية والمجلات برغم أهميتها ، وكونها تضم معلومات قد لا نجدها في الأوعية الأخرى . وهي بحق قضية يجب عدم السكوت عليها لأنها تهم المستفيد الذي من أجله وجدت مؤسسات الضبط الببليوجرافي ، ومن أجله قامت المشروعات الببليوجرافية .

ويرى الباحث أن التفاوت بين الجهود الببليوجرافية السابقة في تغطيتها الوعائية يمكن إرجاعه إلى عوامل عديدة لعل من أبرزها ما يلي :

- تفاوت الخلفية الموضوعية للقائمين على إعداد تلك الأعمال .
- تفاوت مستوى الاطلاع على أدب الموضوع في أشكاله الوعائية المختلفة .
- تفاوت الأهداف المرسومة سلفاً لمثل تلك الأعمال الحصرية .
- تفاوت القدرات العلمية للقائمين بالأعمال تجاه تقرير الأشكال الوعائية التي ينبغي أن يتضمنها المشروع الببليوجرافي .

عاشراً : مجال التغطية الموضوعية

يمثل الحصر على أساس الموضوع معياراً آخر من معايير الحكم على الجهود السابقة ، التي تتفاوت عادة في مجال التغطية الموضوعية حيث إن بعضها يجنح نحو توسيع نطاقه ليستوعب جميع الجوانب المتعلقة بالتطورات التي شهدتها المملكة بشكل عام ، في حين أن البعض الآخر يجنح نحو تضييق نطاقه الموضوعي لينصب على تاريخ الملك عبدالعزيز وحده بشكل مباشر ، وقلما يتعرض للجوانب الأخرى الخارجة عن هذا النطاق . ويعكس الجدول رقم (١٠) تفاوت الجهود الببليوجرافية السابقة في البعد الموضوعي بشكل واضح .

ومن إلقاء نظرة على الجدول رقم (١٠) نستطيع أن نقول : إنه من الممكن تقسيم المحاولات السابقة للضبط الببليوجرافي للأدبيات التي نشرت عن الملك عبدالعزيز إلى قسمين رئيسين على النحو التالي :

أ- قسم توسع في نطاقه الموضوعي ؛ بحيث شمل جميع ما صدر من إنتاج فكري يتعلق بتاريخ الجزيرة العربية ، والجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمملكة ، وما حدث بها من تطورات بما في ذلك فترة حكم الملك عبدالعزيز . وقد بلغ مجموع المحاولات السابقة التي تدخل في إطار هذا القسم (١٢) عملاً بنسبة ٦ , ٧٠٪ من مجموع المحاولات البالغة (١٧) محاولة .

ويمثل هذا الاتجاه دراسات يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني ، وشكري العناني ، وعبدالفتاح أبوعلية (في دراسته التي نشرت على شكل كتاب) ، ومحمد الحمدان ، وفهد السماري ، واستيفن وكنج STEVENS AND KING ، وفاسيلف VASILEV ، وفرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS ، وهانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS ، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ومكتبة الكونجرس .

الجدول رقم (١٠)

بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقا لمجال التغطية الموضوعية

الجهود الببليوجرافية السابقة	مجال التغطية الموضوعية	
	واسع	ضيق
ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني	X	-
ببليوجرافية شكري العناني	X	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (مقالة)	-	X
دراسة عبدالفتاح أبو علية (كتاب)	X	-
قائمة دارة الملك عبدالعزيز	X	-
ببليوجرافية جامعة الإمام	-	X
قائمة محمد الحمدان	X	-
فهرس جامعة الملك سعود	-	X
فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة	X	-
ببليوجرافية فهد السماري	X	-
قائمة فيحان العتيبي	-	X
كشاف عبدالله الحقيل	-	X
قائمة مكتبة الكونجرس LIBRARY OF CONGRESS LIST	X	-
ببليوجرافية استيفن وكنج STEVENS AND KING BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية فاسيلف VASELEV BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS	X	-
المجموع	١٢	٥
٪	٧٠,٦	٢٩,٤

ب- قسم ضيق نطاقه الموضوعي ؛ بحيث حصره فيما صدر من إنتاج فكري ينصب بشكل مباشر على تاريخ الملك عبدالعزيز (بما في ذلك حكمه وحياته وشخصيته ودوره في توحيد المملكة) ولم يتعرض للأوعية التي تتحدث عن تاريخ المملكة أو الجزيرة العربية بمعزل عن حكم الملك عبدالعزيز . وقد بلغ مجموع المحاولات الداخلة في هذا الإطار خمس محاولات بنسبة ٢٩,٤٪ من مجموع المحاولات البالغة (١٧) محاولة ببليوجرافية .

ويمثل هذا الاتجاه تلك الدراسات التي قام بها كل من عبدالفتاح أبوعلية (التي صدرت على شكل مقالة)، وجامعة الإمام ، وجامعة الملك سعود ، وفيحان العتيبي ، وعبدالله الحقيل .

ولعل هذا التفاوت بين الببليوجرافيين في رسم الحدود الموضوعية لأعمالهم يعود إلى تفاوتهم في مدى الإلمام بجوانب وأبعاد الموضوع الذي تدور حوله الببليوجرافيات ، وإدراك ما يتعلق به من مفردات وتفصيلات . أو ربما يكمن السبب في تهاون بعضهم في وضع تعريف إجرائي دقيق للموضوع نفسه ، الأمر الذي حدا بأحد الخبراء في المجال إلى التأكيد على هذه القضية لكون التعريف يساعد الببليوجرافي في أمور كثيرة من بينها رسم الإطار أو التصور النظري للببليوجرافية ، والقضاء على مشكلة الاختلافات بين التعريفات حيث إن التعريف قد يختلف من شخص لآخر ومن مجتمع لآخر (خليفة : ١٤١٦ ، ص : ٤٦٢) .

إضافة إلى الأبعاد السابقة الرئيسة ، فهناك أبعاد أخرى وأسس للتجميع والحصر والضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري المتعلق بالملك عبدالعزيز لا تقل عنها أهمية ، ويمكن أيضاً الاستئناس بها بوصفها معايير للحكم على الجهود السابقة وتقويم مدى نجاحها في تحقيق أهدافها . وتتمثل أهم تلك الأسس في النقاط التالية :

الحادي عشر : مبدأ التجميع

يقصد بمبدأ التجميع الأساس الذي بناءً عليه تم تجميع المادة العلمية لأداة الضبط الببليوجرافي ، إذ قد يكون الحصر على أساس الشمول أو الاختيار . وقد ثبت من فحص النماذج التي عملت في مجال الضبط الببليوجرافي لما صدر عن الملك عبدالعزيز من إنتاج فكري أنه من الممكن تقسيمها إلى ببليوجرافيات شاملة COMPREHENSIVE BIBLIOGRAPHIES وببليوجرافيات مختارة SELECTIVE BIBLIOGRAPHIES .

ويقصد بالشاملة تلك التي تطمح نحو حصر وضبط وتوثيق كل ما تقع عليه يد القائم بالعمل دونما التقيد بضوابط معينة تحد من عملية الحصر ، في حين أن المختارة تلتزم بضوابط محددة . ومن السهل التعرف على مبدأ التجميع من خلال الاطلاع على مقدمة تلك الأعمال ، أو استقراء الأعمال نفسها ، أو استقراء عناوينها . فبعض الدراسات أشارت في مقدمتها إلى أنها تجنح نحو الشمول في الحصر ولا تقنع بمبدأ الاختيار ، بينما البعض الآخر لم يشر إلى ذلك صراحة ولكن القارىء الفطن يستطيع أن يستشف ذلك من الاطلاع الفاحص على محتوياتها . ويكشف الجدول رقم (١١) عن تفاوت الأعمال السابقة حول هذا المتغير .

ويوضح الجدول رقم (١١) أن غالبية المحاولات السابقة في المجال قد سارت على مبدأ الاختيار في حصرها للمواد وذلك بواقع (١٢) عملاً ونسبة ٧٠,٦٪ ، بينما خمسة أعمال فقط بنسبة ٢٩,٤٪ سارت على مبدأ الشمول في عملية الحصر .

ومن أبرز نماذج المبدأ الأول (الاختيار) تلك التي قام بها كل من : يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني ، وشكري العناني ، ومحمد الحمدان ، وفيحان العتيبي ، وعبدالله الحقيل ، واستيفن وكنج STEVENS AND KING ، ودارة الملك عبدالعزيز ، وجامعة الإمام ، وجامعة الملك سعود ، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ومكتبة الكونجرس .

الجدول رقم (١١)

بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقا لمبدأ التجميع

الجهود الببليوجرافية السابقة	مبدأ التجميع	
	مبدأ الشمول	مبدأ الاختيار
ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني	-	X
ببليوجرافية شكري العناني	-	X
دراسة عبدالفتاح أبو علية (مقالة)	-	X
دراسة عبدالفتاح أبو علية (كتاب)	X	-
قائمة دارة الملك عبدالعزيز	-	X
ببليوجرافية جامعة الإمام	-	X
قائمة محمد الحمدان	-	X
فهرس جامعة الملك سعود	-	X
فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة	-	X
ببليوجرافية فهد السماري	X	-
قائمة فيحان العتيبي	-	X
كشاف عبدالله الحقيل	-	X
قائمة مكتبة الكونجرس LIBRARY OF CONGRESS LIST	-	X
ببليوجرافية استيفن وكنج STEVENS AND KING BIBLIOGRAPHY	-	X
ببليوجرافية فاسيلف VASELEV BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS	X	-
المجموع	٥	١٢
٪	٢٩,٤	٧٠,٦

ومن أبرز نماذج المبدأ الثاني (الشمول) تلك التي أعدها كل من عبدالفتاح أبوعلية (على شكل مقالة وكتاب) ، وفهد السماري ، وفاسيلف VASILEV ، وفرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS ، وهانز جرقين فيليبس HANS - JUREN PHILIPPS .

ولعل مما ساعد على ذلك التفاوت في مبدأ التجميع عدم وجود استراتيجية واضحة للقيام بمثل تلك الأعمال العلمية حيث يكتفي بعضهم بما وقعت عليه يده من مواد دون أن يكلف نفسه عناء البحث والتقصي واستكمال الموضوع من جميع جوانبه ، علاوة على ضعف الاهتمام المؤسساتي بهذا الأمر . ولذا فبينما لم تتجاوز مواد بعض تلك الأعمال العشرات (مثل ببليوجرافية الحقيل) ، فإن بعضها الآخر قد تجاوزت موادها المئات (مثل ببليوجرافية السماري) .

ويحسن التنويه في هذا المقام إلى أن التغطية الشاملة للموضوع بمعناها الواسع أمر يصعب بل قد يستحيل تطبيقه . ذلك أن إعداد الأعمال الببليوجرافية ليس مهمة سهلة كما قد يتصور البعض ؛ بل إنها مهمة شاقة تتطلب من القائم بها الرجوع إلى جميع المصادر التي تخدم الموضوع ، والاستئناس بآراء الاختصاصيين في المجال . وقد يفوت القائم بالإعداد إدراج بعض المواد بسبب نسيانها أو الجهل بها أو الشك في علاقتها بالموضوع أو لاعتبارات أخرى .

بل إن المؤسسات بجهودها الضخمة وإمكاناتها الكبيرة تعجز في كثير من الأحيان عن تغطية كل ما كتب عن المجال مكانياً وزمانياً وموضوعياً وشكلياً ولغوياً . لذا فإن كل ما يطمح إليه الببليوجرافي في الواقع هو التغطية النسبية التي تحصر أكبر قدر ممكن من المواد ، وتزود الباحث بأهم ما صدر من أدبيات في مجال اهتمامه .

الثاني عشر : المصادر المعتمد عليها في تجميع المادة العلمية

إن تحديد المصادر التي تم الاعتماد عليها في إنجاز العمل الببليوجرافي يشكل معياراً مهماً لتقويم الجهود السابقة . فقد تكون المصادر مباشرة (مصادر أولية PRIMARY SOURCES) تستقى منها المعلومات بشكل مباشر مثل الكتب والدوريات والرسائل الجامعية وغيرها ، وقد تكون غير مباشرة (مصادر ثانوية SECONDARY SOURCES) تستقى منها المعلومات بشكل غير مباشر ؛ بمعنى : أنها ترشد إلى المصادر المباشرة مثل الفهارس والأدلة والقوائم وببليوجرافيات الببليوجرافيات وغيرها .

والواقع أن طبيعة العمل هي التي تحدد نوع المصدر المناسب حيث لا توجد ضوابط صارمة في هذا الصدد . وقد ثبت من خلال استقراء المحاولات السابقة وجود تفاوت في هذا الصدد على النحو الذي يوضحه الجدول رقم (١٢) .

لقد ظهر من هذا الجدول أنه من الممكن تبويب جهود الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري المتعلق بتاريخ الملك عبدالعزيز التي ظهرت على الساحة حتى وقت إعداد هذه الدراسة إلى ثلاث فئات على النحو التالي :

أ- أعمال اعتمدت على المصادر الأولية المباشرة ، وقد بلغ مجموعها ستة أعمال بنسبة ٣٥,٣٪ من إجمالي العدد البالغ (١٧) عملاً . وتتمثل في إسهامات كل من : عبدالفتاح أبوعلية (التي ظهرت على شكل كتاب) ، ودارة الملك عبدالعزيز ، وجامعة الإمام ، وجامعة الملك سعود ، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ومكتبة الكونجرس .

ب- أعمال اعتمدت على المصادر الثانوية غير المباشرة ، وذلك بمعدل خمسة أعمال ونسبة ٢٩,٤٪ . وتتمثل في جهود كل من : محمد الحمدان ، وفهد

السماري ، وفيحان العتيبي ، وعبدالله الحقيل ، واستيفن وكنج STEVENS AND KING .

ج- أعمال لم تحدد طبيعة المصادر التي اعتمدت عليها ، وذلك بمعدل ستة أعمال ونسبة ٣,٣٥٪ من مجموع المحاولات الببليوجرافية البالغة (١٧) محاولة . وتتمثل في دراسات كل من : يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني ، وشكري العناني ، وعبدالفتاح أبوعلية (التي صدرت على شكل مقالة) ، وفاسيلف VASILEV ، وفرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS ، وهانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS .

والحقيقة أن أعمال الفئة الأولى - في الجدول رقم (١٢) - (التي اطلعت على المصادر الأولية نفسها وفحصتها وعاشت معها دون اللجوء إلى وسيط) تنسجم مع الممارسات السائدة في العصور الأولى للإسلام حيث كان الاعتماد في الوصف الببليوجرافي للمواد على الاطلاع على المصادر المباشرة ووصفها من واقع الرؤية والمشاهدة . وهذا الأسلوب المباشر نجد له سندا علميا في كتب التراث التي توضح حرص الأوائل على عدم وصف كتب لم يروها بأنفسهم أو سمعوا عنها من الثقات .

ومع أن المصادر غير المباشرة (كافة أنواع الأدوات الببليوجرافية) توفر الوقت والجهد للقائم بالعمل الببليوجرافي وتزوده بكم كبير من المواد مع ما تتضمنه من الوصف الببليوجرافي ، فإن تلك المصادر لا تخلو من بعض السلبيات التي من أبرزها : أنها قد لا تحتوي على كل المعلومات التي تحقق الهدف المنشود ، وبعضها قد لا يلتزم الدقة في البيانات التي توردها عن ما تتضمنه من مواد ، وبالتالي تصبح عملية الرجوع إلى المصادر المباشرة في بعض الأحيان أمراً ضرورياً لسلامة العمل وضمان مصداقيته ودقته .

الجدول رقم (١٢)

بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقا لطبيعة المصادر المعتمد عليها في تجميع المادة العلمية

الجهود الببليوجرافية السابقة	طبيعة المصادر المعتمد عليها في تجميع المادة العلمية		
	مصادر أولية	مصادر ثانوية	لم تحددالمصادر
ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني	-	-	X
ببليوجرافية شكري العناني	-	-	X
دراسة عبدالفتاح أبو علية (مقالة)	-	-	X
دراسة عبدالفتاح أبو علية (كتاب)	X	-	-
قائمة دارة الملك عبدالعزيز	X	-	-
ببليوجرافية جامعة الإمام	X	-	-
قائمة محمد الحمدان	-	X	-
فهرس جامعة الملك سعود	X	-	-
فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة	X	-	-
ببليوجرافية فهد السماري	-	X	-
قائمة فيحان العتيبي	-	X	-
كشاف عبدالله الحقيل	-	X	-
قائمة مكتبة الكونجرس	X	-	-
ببليوجرافية استيفن وكنج	-	X	
ببليوجرافية فاسيلف	-	-	X
ببليوجرافية فرانك كليمنتس	-	-	X
ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس	-	-	X
المجموع	٦	٥	٦
٪	٣٥,٣	٢٩,٤	٣٥,٣

إن عدم الاستناد على أوعية المعلومات نفسها كمصادر مباشرة للحصول على المعلومات المطلوبة قد يؤثر بشكل أو بآخر على شمولية البيانات الوصفية المعطاة ودقتها . وما حصل في بعض الإنجازات الببليوجرافية من ضعف الاستنادية قد أسهم ولا يزال يسهم في عرقلة حركة الضبط الببليوجرافي . لذا ينبغي على القائمين بمثل تلك الأعمال مراعا الدقة في البيانات المقدمة ، ويفضل أن يعود القائم بالعمل إلى المواد نفسها للحصول على بيانات موثقة ودقيقة ، وللتأكد من صحة ومصداقية البيانات المعطاة في المصادر الثانوية .

ولاشك أن المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في إعداد أدوات الضبط الببليوجرافي للأدبيات في مجال تاريخ الملك عبدالعزيز كثيرة ومتنوعة ، ولا توجد في مكان واحد ، مما يفرض على القائم بالعمل بذل الجهد للتجميع ، واستخدام الأساليب الرسمية والشخصية في هذا المضمار . ومن بين تلك المصادر على سبيل المثال ما يلي :

- القوائم الببليوجرافية بمختلف أنواعها .
- قوائم المؤلفات والمطبوعات الحكومية والرسائل الجامعية .
- فهارس المكتبات .
- أدلة الدوريات والمعارض .

الثالث عشر : مستوى المعالجة الفنية

الوصف الببليوجرافي أو المعالجة الفنية للمواد المدرجة في أدوات الضبط الببليوجرافي ينبغي أن تتم في ضوء القواعد المتعارف عليها . وتكمن المشكلة هنا في أن اللغة العربية تفتقر إلى قواعد مقننة ، ولذا فإن البديل المناسب يكمن في تطبيق النظم المترجمة مثل : قواعد الفهرسة الأنجلو أمريكية التي تتوافق مع التقنين الدولي للوصف الببليوجرافي (ISBD) الذي أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة

والعلوم . وبرغم إسهام تلك النظم في تقنين الفهرسة الوصفية على المستوى العربي فإن عدم شيوعها يجعل المشكلة بدون حل نهائي .

وعادة يقوم معد الببليوجرافية بتحديد شكل المدخل وعناصر الوصف ومستواها وفقاً للهدف من المشروع الببليوجرافي ، ولمناسبته للفئة المستهدفة . وقد ثبت من النظرة الفاحصة للجهود الببليوجرافية السابقة وجود تباين واضح فيما يتعلق بالبيانات المعطاة عن المواد المدرجة ، ودرجة التفصيل أو الاختصار ، ومدى الاكتفاء بالبيانات الأساسية أو إضافة بعض العناصر إليها (مثل عدد الصفحات والمجلدات والحجم والشروح والحواشي والكشافات والمستخلصات) كما يعكس ذلك بوضوح الجدول رقم (١٣) .

ويبدو جليا من النظر إلى الجدول المذكور أنه يمكن تقسيم جهود الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري المتعلق بالملك عبدالعزيز ـ التي استطاع الباحث الحصول عليها ـ إلى قسمين على النحو التالي :

أ- أعمال تكتفي بذكر الحد الأدنى للبيانات الوصفية المتعارف عليها ، المتمثلة في المؤلف والعنوان وبيانات النشر ، وأحياناً تضاف إليها بعض البيانات الوصفية الأخرى . وقد بلغ مجموع النماذج التي تدخل تحت إطار هذه المجموعة (١٢) نموذجا بنسبة ٦ , ٧٠٪ من إجمالي مجموع النماذج البالغ (١٧) نموذجاً .

وتتمثل تلك النماذج في المحاولات الببليوجرافية التي قام بها كل من : يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني ، ومحمد الحمدان ، وفهد السماري ، وفيحان العتيبي ، وعبدالله الحقيل ، واستيفن وكنج STEVENS AND KING ، وفاسيلف VASILEV ، وفرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS ، ودارة الملك عبدالعزيز ، وجامعة الإمام ، وجامعة الملك سعود ، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة .

الجدول رقم (١٣)

بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقالمستوى المعالجة الفنية

الجهود الببليوجرافية السابقة	مستوى البيانات الوصفية	
	أعمال تكتفي بالحد الأدنى للبيانات الوصفية	أعمال لا تكتفي بالحد الأدنى للبيانات الوصفية
ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني	X	-
ببليوجرافية شكري العناني	-	X
دراسة عبدالفتاح أبو علية (مقالة)	-	X
دراسة عبدالفتاح أبو علية (كتاب)	-	X
قائمة دارة الملك عبدالعزيز	X	-
ببليوجرافية جامعة الإمام	X	-
قائمة محمد الحمدان	X	-
فهرس جامعة الملك سعود	X	-
فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة	X	-
ببليوجرافية فهد السماري	X	-
قائمة فيحان العتيبي	X	-
كشاف عبدالله الحقيل	X	-
قائمة مكتبة الكونجرس LIBRARY OF CONGRESS LIST	-	X
ببليوجرافية استيفن وكنج STEVENS AND KING BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية فاسيلف VASELEV BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS BIBLIOGRAPHY	X	-
ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS	-	X
المجموع	١٢	٥
٪	٧٠,٦	٢٩,٤

ب ـ أعمال لا تكتفي بذكر الحد الأدنى للبيانات الوصفية ـ على غرار سابقاتها ـ بل تعطي بيانات تفصيلية لموادها تتجاوز الحد الأدنى المتعارف عليه للوصف الببليوجرافي . وقد بلغ مجموع النماذج تحت هذه الفئة خمسة نماذج بنسبة ٢٩,٤٪ . ومن أمثلتها تلك الجهود التي قام بها كل من : شكري العناني ، وعبدالفتاح أبوعلية (في مقالته وكتابه) ، وهانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS، ومكتبة الكونجرس .

إن القاسم المشترك بين أعمال الفئة الثانية (الفئة التي وردت تحت البند ب) هو أنها قد أعطت لمحة موجزة (مستخلصات) عن فكرة كل مادة علمية مدرجة فيها تساعد القاريء على تحديد مدى حاجته إلى المادة من خلال قراءته للمستخلص . ويمكن تصنيف هذه المجموعة من الناحية العلمية على أنها ببليوجرافيات شارحة ANNOTATED BIBLIOGRAPHIES . ولاشك أن لهذا النمط من الأدوات الببليوجرافية أهمية لا تنكر للباحثين ، وبخاصة الباحث العربي الذي يفتقر حقاً إلى أداة مرجعية تعينه في تقرير الرجوع إلى المادة الأصلية نفسها .

والحقيقة أن التفاوت بين النماذج السابقة فيما يتعلق بالوصف الببليوجرافي لم يتوقف عند حد أسلوب المعالجة الفنية بل تجاوز ذلك إلى قضايا أخرى مثل طريقة ذكر البيانات المتعلقة بالمواد المدرجة ، وأحياناً عدم اكتمال ودقة المعلومات الواصفة ، وعدم الاعتماد على تقنين ثابت في الوصف الببليوجرافي . وربما كان مرد ذلك الضعف والتقصير الببليوجرافي إلى عوامل عديدة من أبرزها في نظر الباحث العوامل التالية :

- عدم الالتزام بقواعد الوصف الببليوجرافي المتعارف عليها .
- عدم الوقوف على المؤلفات نفسها لاستقاء البيانات اللازمة منها .
- عدم دقة المصادر غير المباشرة التي اعتمد عليها بعض القائمين بالأعمال في الحصول على بيانات عن المؤلفات .
- كون بعض القائمين بالأعمال الببليوجرافية من غير الاختصاصيين .

وقد ترتب على تلك المثالب وجود تفاوت في أساليب المعالجة الفنية في المحاولات السابقة وبخاصة فيما يتعلق بتحديد الملامح المادية للوثائق باللغة العربية . وتظهر علامات هذا الاختلاف في جوانب عديدة من بينها : اختلاف مداخل المؤلفين وبخاصة العرب ، واختلاف أشكال البيانات المعطاة من فرد لآخر ومن مؤسسة لأخرى .

لم تقتصر المشكلة السابقة على الفهرسة الوصفية وحدها بل تعدتها إلى الفهرسة التحليلية أو الموضوعية (التصنيف ورؤوس الموضوعات) أيضاً . ذلك أنه لا توجد رؤوس موضوعات عربية مقننة يمكن الاعتماد عليها في تحديد المداخل الموضوعية أو الواصفات نتيجة لنقص الأدوات التي يمكن الاعتماد عليها في هذا الصدد . ولا يمكن هنا الاستناد إلى القوائم الأجنبية لكونها لا تلبي احتياجات المكتبة العربية والباحث العربي . ومع ما صدر من بعض قوائم رؤوس الموضوعات العربية إلا أنه يؤخذ عليها بعض الملحوظات التي قد لا تجعلها صالحة للموضوع الذي نحن بصدده ، من ذلك على سبيل المثال ما يلي :

- أن تلك القوائم موجهة لموضوعات عامة وكبيرة (جميع فروع المعرفة البشرية) وبالتالي فلا تخدم موضوع متخصص (مثل تاريخ الملك عبدالعزيز) .
- أن تلك القوائم لم تخضع للتطبيق بالشكل المطلوب .
- أن غالبية تلك القوائم تمثل جهداً فردياً للقائمين بها ، ولم تصدر عن مؤسسات علمية أو جمعيات مهنية تضفي عليها الطابع العلمي وتجعلها تحظى بقبول جماعي .

وبرغم المحاولات المبذولة من قبل بعض الأفراد والمؤسسات لبناء قوائم استنادية تساعد على توحيد أسماء المؤلفين العرب ، فإن قضية المداخل لا زالت

تمثل مشكلة قائمة . وقد يكون مرد ذلك إلى أن القوائم المتاحة غير محكمة ، علاوة على تعدد الاجتهادات في تطبيقها . ولا ينكر الباحث الجهود التي بذلتها بعض المؤسسات للتخفيف من حدة المشكلة وعلى وجه الخصوص جامعة الملك سعود ، ومكتبة الملك فهد الوطنية حيث عملتا على إصدار قوائم تساعد على توحيد صيغة اسم المؤلف الواحد في جميع المؤسسات التي تقتني بحوثه ودراساته ، إلا أن تطبيق تلك القوائم لم ينتشر بالشكل المطلوب بل ظل قاصراً على جهات محدودة ، الأمر الذي يؤثر سلباً على فكرة التقنين المنشودة ، ويعرقل حركة الضبط الببليوجرافي التي تنهض على دعائم وركائز عديدة من بينها وجود الأدوات الاستنادية المقننة .

وهكذا ترتب على خلو الساحة من القوائم المعيارية لجو القائمين بالأعمال الببليوجرافية من أفراد ومؤسسات بالترجمة عن القوائم الأجنبية ، أو تطبيق ما يتوافر من القوائم العربية بغض النظر عن ما تمتاز به من مظاهر التقصير ، وبعضهم يجتهد في صياغة رؤوس الموضوعات . الأمر الذي أوجد شيئا من الفوضى والتفاوت الشديد بين الأشخاص والجهات في التعبير عن الموضوع الواحد .

وتنسحب المشكلة السابقة على المكانز حيث تعاني المؤسسات المعنية بتوثيق تاريخ الملك عبدالعزيز من نقص شديد في تلك الأدوات برغم أهميتها الملحة . ذلك أن الموضوعات المتخصصة ومن بينها موضوع الدراسة الحالية تفتقر حقاً إلى قوائم واصفات مقننة تساعد في عملية التخزين والاسترجاع وتبعد العملية عن العشوائية والارتجالية .

ولا ننكر أن هناك بعض الجهود الأولية التي بذلت بهدف إيجاد مكنز عربي لضبط الواصفات المتعلقة بتاريخ الملك عبدالعزيز . إذ عمل المسؤول عن القسم العربي بقاعدة معلومات الملك عبدالعزيز في مكتبة الملك عبدالعزيز العامة على

بناء نواة في هذا المضمار . ويعتقد الباحث أن هذه محاولة جيدة تمثل الخطوة الأولى نحو تقنين الواصفات ، ويؤمل أن تتلوها خطوات وجهود أخرى تتناول قواعد الوصف الببليوجرافي ، وقائمة الاستناد الموحدة للأسماء العربية ، وقوائم رؤوس الموضوعات ، وخطة تصنيف المواد التي تعالج تاريخ الملك عبدالعزيز ، ومواصفات قياسية لأعمال الكشافات التي ترصد المواد المتعلقة بالملك عبدالعزيز وهكذا . ولا شك أن تلك مشروعات ضخمة ومكلفة وبالتالي فهي بحاجة إلى تظافر جهود المؤسسات المهتمة بتوثيق تاريخ المملكة ، مما يضمن لها الدعم والرعاية المستمرة . ويقترح أن تتشكل لجنة من الخبراء والاختصاصيين تعمل تحت مظلة هيئة وطنية تتوافر بها خبرات فنية وتجهيزات مناسبة للنهوض بمثل هذه المشروعات المثمرة .

نعود مرة أخرى إلى ما سيق الإشارة إليه من وجود بعض عوامل الضعف والتقصير في المشروعات الببليوجرافية التي تم إنجازها وبخاصة مشكلة عدم الالتزام بالتقنينات المعيارية للضبط الببليوجرافي . والحق أننا ينبغي أن نقف وقفة متأنية عند هذه الظاهرة التي أصبحت شائعة في كثير من الممارسات الحالية بشكل ملفت للنظر . وربما يكون السبب في ذلك ـ كما مر بنا ـ الجهل بتلك التقنينات حيث إن غالبية من تصدوا للمشروعات في المجال من غير الاختصاصيين الذين تنقصهم أساسيات العمل الفني ، وتنقصهم الخبرات اللازمة للقيام بمثل تلك المشروعات الفنية . أو ربما يعود السبب إلى التسرع في إنجاز هذا النوع من الأعمال ، وعدم إنضاجها قبل اكتمالها وبخاصة أن بعضها قد أعد لمناسبات معينة مما جعل الوقت عامل مهم في إنجازها ولو على حساب الجوانب الأخرى . ومما وسع أيضاً من رقعة المشكلة نظرة البعض للدراسات الببليوجرافية على أنها من قبيل الأعمال الحصرية السهلة التي لا تحتاج إلى متخصصين للقيام بها أو إلى قواعد تسير

بموجبها . لذا أصبح الميدان متاحاً لكل من هب ودب ، وشهدت الساحة ظهور دراسات محسوبة على مجال الضبط الببليوجرافي وإن كانت لا ترقى في مستواها إلى المعايير العلمية في المجال .

وقد تناول هذه القضية كثير من الباحثين في المجال من بينهم أحمد عمر الذي أكد على أن التقنين يمثل أساس الإعداد الببليوجرافي لأنه يقوم على مبدأ توحيد التطبيق من خلال اتباع عمليات مقننة تم صياغتها في قواعد تمنع الاجتهاد الفردي غير الكفء الذي تنتج عنه مفارقات في مستويات الدقة . وتتطلب وحدة التطبيق إيجاد أدوات موحدة ومقننة تتمثل في قواعد اختيار المداخل وصياغتها ، وقواعد الوصف الببليوجرافي للمواد ، ونظام للتصنيف ، وقوائم لرؤوس الموضوعات (عمر : ١٣٩٣ ، ص : ٣١٠-٣١٢) .

إن الصورة السابقة تفرض إعادة النظر في الممارسات الببليوجرافية الحالية ، ومراعاة سرد جميع العناصر الضرورية التي تساعد على التعريف بالوثائق ، والاعتماد على تقنين معروف للوصف الببليوجرافي مثل قواعد الفهرسة الأنجلو - أمريكية في طبعتها الثانية الصادرة عام ١٩٧٨ التي تتوافق مع التقنين الدولي للوصف الببليوجرافي . وهي مترجمة إلى اللغة العربية ، وتعطي قواعد صياغة المدخل وعناصر الوصف للمواد . وبالإمكان الاعتماد على تلك القواعد فيما يخص المواد العربية مع إدخال بعض التعديلات التي تلائم طبيعة الوعاء العربي . أما فيما يتعلق بالمواد باللغة الإنجليزية فهي لا تواجه المشكلة التي تواجهها المواد العربية حيث إن القضية محسومة منذ فترة طويلة .

ينبغي الإشارة في هذا المقام إلى أنه ليس من الضروري التفصيل في البيانات الوصفية في كل الحالات حيث إن هذا الأمر تحكمه عوامل عديدة من بينها طبيعة الموضوع وطبيعة الفئة أو الفئات المستهدفة من الببليوجرافية ؛ ذلك أن عملاً موجه

لطلاب المرحلة الثانوية يختلف تماماً عن عمل موجه لطلبة الدراسات العليا أو لأساتذة الجامعات . فالمقام هو الذي يحكم درجة التفصيل في البيانات ، والمهم هو أن يوضح القائم بالعمل في المقدمة الهدف من إعداده والفئة التي تحتاجه والقواعد التي سار بموجبها في عملية الوصف .

الرابع عشر : نظام الترتيب المستخدم

يقصد بهذا المعيار وضع المواد المدرجة في أدوات الضبط الببليوجرافي في ترتيب يلائم طبيعتها ، ويحقق احتياجات الفئات المستهدفة . وقد ينطلق تجميع مواد الأعمال الببليوجرافية من مبدأ الترتيب الهجائي بالمؤلف أو العنوان أو الموضوع ، أو بكل تلك العناصر ، وقد ينطلق التجميع من مبدأ الترتيب الموضوعي المصنف .

ويلاحظ أن الجهود الببليوجرافية السابقة في المجال قد تفاوتت في الترتيب الذي اتخذته أساساً لتنظيم موادها . ومن استقراء الباحث للنماذج التي وقعت بين يديه استطاع الخروج بالمعطيات التي يكشف عنها الجدول رقم (١٤) .

تعكس الحقائق المدرجة في الجدول رقم (١٤) مدى التباين الواضح في أنماط الترتيب المستخدمة في جهود الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز . ويمكن تقسيم تلك الأنماط إلى أربعة أقسام على النحو التالي :

أ- أعمال رتبت موادها تحت رؤوس موضوعات مختارة ، وتحت تلك الرؤوس رتبت المواد هجائياً بالمؤلف . وقد بلغ مجموع النماذج التي تدخل ضمن إطار هذه المجموعة (١١) نموذجاً بنسبة ٦٤,٧٪ من إجمالي العدد البالغ (١٧) نموذجاً .

الجدول رقم (١٤)

بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقا لنظام الترتيب المستخدم

الجهود الببليوجرافية السابقة	نظام الترتيب المستخدم			
	ترتيب المواد تحت رؤوس موضوعات ثم بالمؤلف	ترتيب المواد بالمؤلف	ترتيب المواد بالعنوان	لا يوجد نمط معين للترتيب
ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني	X	-	-	-
ببليوجرافية شكري العناني	X	-	-	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (مقالة)	X	-	-	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (كتاب)	X	-	-	-
قائمة دارة الملك عبدالعزيز	-	X	-	-
ببليوجرافية جامعة الإمام	-	X	-	-
قائمة محمد الحمدان	-	-	X	-
فهرس جامعة الملك سعود	-	X	-	-
فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة	X	-	-	-
ببليوجرافية فهد السماري	X	-	-	-
قائمة فيحان العتيبي	-	-	X	-
كشاف عبدالله الحقيل	-	-	-	X
قائمة مكتبة الكونجرس	X	-	-	-
ببليوجرافية استيفن وكنج	X	-		
ببليوجرافية فاسيلف	X	-	-	-
ببليوجرافية فرانك كليمنتس	X	-	-	-
ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس	X	-	-	-
المجموع	١١	٣	٢	١
٪	٦٤,٧	١٧,٦	١١,٨	٥,٩

وتشمل هذه الفئة تلك الدراسات التي أعدها كل من : يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني ، وشكري العناني ، وعبدالفتاح أبوعلية (في دراستيه اللتان نشرتا على شكل مقالة وكتاب) ، وفهد السماري ، واستيفن وكنج STEVENS AND KING، وفاسيلف VASILEV ، وفرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS، وهانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS ، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ومكتبة الكونجرس .

ب ـ أعمال رتبت موادها هجائياً بالمؤلفين ، بواقع ثلاثة أعمال ونسبة ١٧,٦٪ . وتشمل هذه المجموعة دراسات دارة الملك عبدالعزيز ، وجامعة الإمام، وجامعة الملك سعود .

ج ـ أعمال رتبت موادها هجائياً بالعناوين ، بواقع عملين ونسبة ١١,٨٪ . وتشمل هذه المجموعة دراستي محمد الحمدان ، وفيحان العتيبي .

د ـ أعمال لم تلتزم بنمط معين في ترتيب موادها ، وتشمل هذه المجموعة دراسة عبدالله الحقيل التي رتبت المواد بعناوينها عشوائياً دون التزام بأسلوب محدد .

تعكس الحقائق السابقة مرة أخرى مشكلة عدم الالتزام بالتقنينات ، وهي مشكلة لم تتوقف عند حد الوصف الببليوجرافي بل تعدت ذلك إلى طريقة تنظيم أعمال الضبط الببليوجرافي وترتيب محتوياتها . إذ إن بعض القائمين بالأعمال لم يلتزموا باستخدام نظام للتصنيف كما هو المتوقع ، والمفترض أن القائم بالعمل إذا كان لا يجد خطة تصنيف صالحة لتنظيم محتويات عمله أن يلجأ إلى إعداد خطة متخصصة ، أو يستعين بما هو موجود من خطط بعد إجراء التعديلات عليها . ويؤكد علماء الضبط الببليوجرافي على أنه لا توجد في عالم الواقع طريقة واحدة تحكم طريقة التنظيم والترتيب حيث إن الأمر متروك لحس القائم بالإعداد الذي ينبغي عليه أن يتحرى الأسلوب الأمثل للتنظيم بالشكل الذي يتفق مع طبيعة العمل وبما يلائم تحقيق الهدف من استخدامه .

وينطبق على طريقة التنظيم ما سبق أن قلناه عن طريقة الوصف حيث لا توجد طريقة واحدة مثالية لتنظيم العمل الببليوجرافي بل توجد عدة طرق على القائم بالعمل أن يختار من بينها ما يناسب طبيعة عمله والفئات التي ستستفيد منه ، وطبيعة المادة العلمية التي يشتمل عليها ، والهدف الذي يرمي العمل في النهاية إلى تحقيقه ، ومن ثم يصنع الببليوجرافي القرار المناسب بناء على دراسة تلك الاعتبارات ، ويضع في اعتباره أن الببليوجرافية أداة مرجعية يفترض فيها دوماً سهولة الاستخدام .

الخامس عشر : حجم المادة العلمية

تركز المعيار الأخير من معايير تقويم الإنجازات السابقة في مجال الضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز على حجم المادة العلمية المدرجة في كل عمل . وقد أتت المعطيات في هذا الصدد متفاوتة كما يعكس ذلك الجدول رقم (١٥) .

ومن إلقاء نظرة على هذا الجدول يظهر مدى التفاوت الواضح بين المحاولات السابقة في المجال فيما ضمته كل محاولة من مادة علمية . ويبدو جلياً أن ببليوجرافية هانز جرفين فيليبس HANS - JURVEN PHILIPPS تتصدر القائمة من حيث كثرة ما شملته من مادة علمية بلغت (٩٢٦٥) مادة ، بينما يأتي كشاف عبدالله الحقيل في نهاية القائمة حيث لم يتجاوز مجموع ما ضمه من مادة علمية (٢٩) مادة .

أما بقية الأعمال فقد توسطت الرقمين المشار إليهما ؛ إذ أتى في المرتبة الثانية ببليوجرافية فاسيلف VASILEV بما مجموعه (٤١٧٦) مادة ، وفي المرتبة

الجدول رقم (١٥)

بيان بالجهود الببليوجرافية السابقة وفقا لحجم المادة العلمية

الجهود الببليوجرافية السابقة	حجم المادة العلمية
ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني	٤٥٠
ببليوجرافية شكري العناني	١٢٥٣
دراسة عبدالفتاح أبو علية (مقالة)	-
دراسة عبدالفتاح أبو علية (كتاب)	-
قائمة دارة الملك عبدالعزيز	٨٦٧
ببليوجرافية جامعة الإمام	-
قائمة محمد الحمدان	٣٦٦
فهرس جامعة الملك سعود	٢٢٦
فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة	٣٦٥
ببليوجرافية فهد السماري	-
قائمة فيحان العتيبي	٥٢
كشاف عبدالله الحقيل	٢٩
قائمة مكتبة الكونجرس LIBRARY OF CONGRESS LIST	-
ببليوجرافية استيفن وكنج STEVENS AND KING BIBLIOGRAPHY	١١٠٠
ببليوجرافية فاسيلف VASELEV BIBLIOGRAPHY	٤١٧٦
ببليوجرافية فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS BIBLIOGRAPHY	١٣٦١
ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS	٩٢٦٥

الثالثة ببليوجرافية فرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS بما مجموعه (١٣٦١) مادة ، وفي المرتبة الرابعة ببليوجرافية شكري العناني بما مجموعه (١٢٥٣) مادة ، وفي المرتبة الخامسة ببليوجرافية استيفن وكنج STEVENS AND KING بما مجموعه (١١٠٠) مادة ، يلي ذلك قائمة دارة الملك عبدالعزيز بما مجموعه (٨٦٧) مادة ، ثم ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني بما مجموعه (٤٥٠) مادة وبعد ذلك قائمة محمد الحمدان بما مجموعه (٣٦٦) مادة ، ففهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بما مجموعه (٣٦٥) مادة ، وفهرس جامعة الملك سعود بما مجموعه (٢٢٦) مادة ، وقائمة فيحان العتيبي التي لم يتجاوز حجم ما تضمنته من مادة علمية (٥٢) مادة .

إلا أنه يجب التنويه إلى أن الأرقام السابقة (الواردة في الجدول رقم ١٥) قد لا تكون دقيقة في التعبير عن حجم ما كتب عن الملك عبدالعزيز ، ولذا فينبغي الحكم عليها بشيء من التحفظ ؛ ذلك أن بعض تلك الأعمال قد توسعت في نطاقها الموضوعي بحيث شملت جميع ما صدر من إنتاج فكري يتعلق بتاريخ الجزيرة العربية ، والجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمملكة ، وما حدث بها من تطورات بما في ذلك فترة حكم الملك عبدالعزيز كما سبق توضيح ذلك عند عرض النتائج في الجدول رقم (١٠) .

وتعد ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس ـ التي تصدرت الأرقام من حيث حجم المادة العلمية ـ نموذجاً لهذا النمط من المحاولات الواسعة . في حين أن هناك أعمال أخرى ضيقت نطاقها الموضوعي وجعلته قاصراً على ما صدر من إنتاج فكري عن الملك عبدالعزيز بشكل مباشر . ويعد كشاف عبدالله الحقيل ـ الذي أتى في ذيل القائمة ـ مثالاً لهذا التوجه في إعداد الأعمال الحصرية . والشيء نفسه ينطبق على بقية الجهود السابقة التي سار كل واحد منها على نهج مميز في السيطرة على المادة العلمية وتحديد المجال الموضوعي للعمل . الأمر الذي يوحي مرة

أخرى بأننا يجب ألا ننخدع بتلك الأرقام الكبيرة ، وأن نضعها في سياق مجال العمل ونطاقه الموضوعي .

وثمة مثال آخر يكمن في ببليوجرافية فاسيلف VASILEV التي صدرت بعنوان "ببليوجرافية المملكة العربية السعودية " BIBLIOGRAPHY ON SAUDI ARABIA . فبرغم أنها احتوت على مادة علمية غزيرة بلغ حجمها (٤١٧٦) مادة ، فإن ما تناول منها الملك عبدالعزيز بشكل مباشر لم يتجاوز (١٠٠) مادة فقط . وقد حدث هذا نتيجة للتسامح في الفترة الزمنية التي شملت كل ما له علاقة بالجزيرة العربية منذ القرن التاسع عشر وحتى نهاية عام ١٩٨٠ ، وأيضاً نتيجة لإدراج كل المواد التي رأها معد الببليوجرافية مناسبة لتضمينها في العمل .

ويلاحظ على الجدول رقم (١٥) أن حجم المادة العلمية لبعض الأعمال - مثل دراستي عبدالفتاح أبوعلية ، وببليوجرافية جامعة الإمام وببليوجرافية السماري وقائمة مكتبة الكونجرس - لم يذكر نظراً لصعوبة تحديد الرقم في تلك الأمثلة لأن المادة قد تتكرر في أكثر من موضع حسب ارتباطها الموضوعي وبالتالي فإن الرقم في تلك الحالة لا يعبر بدقة عن الحجم الحقيقي للمادة المدرجة .

ملحوظة ختامية :

توحي القضايا التي تضمنها تقويم الجهود السابقة بأن ما صدر حتى الوقت الراهن من أعمال الضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز لا تمثل ضبطاً ببليوجرافياً بالمعنى الدقيق للمصطلح ؛ فهي جهود مبعثرة منطلقة في غالبيتها من اجتهادات شخصية ، ولا تشكل منظومة عن تاريخ الملك عبدالعزيز ، ويصعب الاعتماد عليها وحدها كأدوات للضبط الببليوجرافي حيث إن مفهوم الضبط يمكن أن يتسع ليشمل أدوات عديدة لا تمثل الببليوجرافيات إلا جزءاً منها . كما يصعب الاعتماد على تلك النماذج كمصدر لتعريف الباحثين والدارسين داخل المملكة

وخارجها بالإنتاج الفكري المتعلق بالملك عبدالعزيز ، وبالتالي فمن غير الممكن الاعتماد عليها كلية كأدوات لتنمية المجموعات في المكتبات حيث إنها قاصرة في تغطيتها وشموليتها ، ولا يزال المجال مفتوحاً لمزيد من الإسهامات التي تتسم بالنضوج العلمي والمنهجي .

بيد أنه برغم كل ما أثير حول جهود الضبط الببليوجرافي لتاريخ المملكة وما يمكن أن يثار حولها مستقبلاً فهي تبقى محاولات رائدة تضيف لبنة إلى منظومة الدراسات الببليوجرافية والتوثيقية ، وتسد فراغاً في الأدلة المرجعية في المكتبة العربية التي تعاني من نقص واضح في هذا الميدان .

إن عهد الملك عبدالعزيز يمثل فترة مهمة في تاريخ المملكة ، وهو بحاجة دوماً إلى المزيد من البحوث والدراسات . ذلك أن الملك عبدالعزيز من نوادر الرجال الأفذاذ ، وما أكثر من كتب عنه ومن سيكتب ، وإذا كان كثيراً من المبدعين ألفوا عنه الكتب وحرروا المقالات وسجلوا الأشعار وسطروا الخطب وكتبوا الأسفار التي تشيد بمجده وفتوحاته ، فإن كل واحد من هؤلاء اختص بجانب واحد من سجاياه وأخلاقه . ولا غرو في ذلك فنحن أمام شخصية ثرة جديرة بالبحث والدراسة من أبعاد وزوايا مختلفة .

وقد انتبه لهذه الحقيقة كتاب كثيرون نذكر من بينهم فهد المارك الذي أشاد في كتابه بعنوان : " من شيم الملك عبدالعزيز " بتعدد جوانب هذه الشخصية العظيمة ، وصعوبة حصر الدراسة عنها في مجلدات نظراً لما تمتاز به من جوانب النبوغ والعبقرية المتعددة الأطراف "جوانب في أخلاقه ، وجوانب في سيرته ، لم يكتب عنهما بعد . والسبب في ذلك يعود إلى كون تلك الجوانب لا يعرفها معرفة عَلَم راسخ الجذور إلا الجيل الذي عاصره ، سواء الرجال الذين حاربوا معه أو الرجال المنصفون الذين حاربوه ، ومن ثم انتصر على قلوبهم . . . فإن هذه

الجوانب المهملة ينبغي أن تكون هي المادة الرئيسة . . . سيجد الكتاب والمؤرخون في حياة الملك عبدالعزيز ، وفي سيرته وفي أخلاقه ، وفي سجاياه ، وفي نضاله ، وفي فتوحاته وانتصاراته العسكرية مورداً لاينضب معينه ، وأهم من هذا وذاك ، سيجد الباحثون والمحققون في انتصارات الملك عبدالعزيز الأخلاقية منهلاً عذباً لا ينفد وكم يجد هؤلاء وأولئك من هذه المعاني التي درست في الشيوخ الذين عاصروه أكثر مما كتب وما سيكتب . . . ولا عجب فعبدالعزيز معجزة من معجزات الدهر ، وفلتة من فلتات التاريخ ، وعبقري من العباقرة الأفذاذ ، وعظيم من عظماء الرجال الذين لا يأخذهم الغرور ولا تسكرهم النشوة إذا قهروا أعداءهم وانتصروا عليهم ، ولا يستسلمون لليأس ولا تخور عزائمهم إذا فشلوا في معركة ما" (المارك : ١٤٠٠ ، ٥ـ٧) .

ويتفق الباحث مع المارك فيما ذهب إليه من أن الشخصيات البارزة في صنع التاريخ يمكن دراستها من زوايا عدة وتناولها من أبعاد متفاوتة ، وستظل شخصيته ـ رحمه الله ـ مصدر إلهام لكثير من الكتاب والمؤرخين الذين يتناولونها بالبحث والتحليل . وانطلاقاً من هذه الحقيقة فإن المجال لا يزال متعطشاً إلى المزيد من الأعمال الببليوجرافية لاعتبارات عديدة يلخصها فهد السماري على النحو الآتي :

- ظهور المزيد من البحوث والدراسات الجديدة المتعلقة بتاريخ الملك عبدالعزيز أو المملكة في عهده التي تحتاج إلى ضبط ببليوجرافي مستمر .
- ازدياد اهتمام الباحثين بالكتابة عن تاريخ المملكة في عهد الملك عبدالعزيز ، الأمر الذي يدعو إلى توفير أدوات البحث العلمي وعلى رأسها الببليوجرافيات التي تساعد في اختيار الموضوعات التي لم تطرق من قبل ، وفي تلافي تكرار جهود سابقة .
- إبراز أهم المؤلفات المتعلقة بتاريخ الملك عبدالعزيز المنشورة باللغات الأجنبية المختلفة بهدف الخروج بصورة تكاملية حول الإنتاج الفكري في المجال مما يفيد الباحثين في الدراسات المقارنة (السماري : ١٤١٤ ، ل) .

وأخيراً ؛ يحسن أن نشير إلى أنه قد تم تقويم الجهود الببليوجرافية السابقة من منظور معيار علمي طوره الباحث بهدف حيادية التقويم وموضوعية الحكم ، واشتمل المعيار على (١٥) عنصراً تناول كل واحد منها جانباً من جوانب التقويم في صورته الشمولية . وهناك في الواقع جوانب أخرى لم يتعرض لها الباحث حيث إنه اعتبرها هامشية وربما لا ترقى في أهميتها إلى تلك العناصر ، وهي في مجملها جوانب تتعلق بالشكل الطباعي لإخراج المشروعات الببليوجرافية السابقة بما في ذلك صفحة العنوان ، وقائمة المحتويات ، وقائمة المراجع ، والشكل الطباعي (شكل المداخل ، تحديد الأبعاد ، ترقيم المواد ، الإحالات . . . إلخ) وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالشكل النهائي وما يرتبط به من الملحوظات التحريرية والأسلوبية والطباعية . فقد لاحظ الباحث من اطلاعه على النماذج السابقة أن القليل منها يهتم بمراعاة تلك القضايا ؛ فبعضها على سبيل المثال لا يضع قائمة للمحتويات ، أو لا يوضح المراجع التي استعان بها في إعداد العمل ، أو لا يلتزم بالأبعاد المتعارف عليها في إخراج مثل تلك المشروعات الحصرية .

الفصل الرابع

الممارسات الببليوجرافية الراهنة

مقدمة :

بعد أن تعرضنا بشيء من التفصيل لجهود الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز التي خرجت إلى حيز الوجود وأصبحت من عداد الماضي ، نناقش في هذا الفصل الجهود الراهنة التي تتزعمها بعض المؤسسات العربية والأجنبية التي لها اهتمام مميز بقضية الضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز وتوثيقه وحفظه للأجيال القادمة . ولعل من أبرز نماذج تلك المؤسسات ما يلي :

- مكتبة الملك عبدالعزيز العامة
- دارة الملك عبدالعزيز
- مكتبة الملك فهد الوطنية
- جامعة الملك سعود
- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
- معهد الإدارة العامة
- مؤسسات وجهات أخرى

وفيما يلي توضيح للدور الذي تنهض به كل مؤسسة من المؤسسات السابقة في دفع حركة الضبط الببليوجرافي في المجال ، مع التركيز على قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز بوصفها أنموذجاً للاهتمام المؤسساتي في هذا المضمار .

أولاً : مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

من بين الأهداف التي ترمي مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض إلى تحقيقها الاهتمام بالتراث الإسلامي والعربي وإحياؤه ، وبخاصة تاريخ المملكة وتاريخ الملك عبدالعزيز الذي تتشرف المكتبة بحمل اسمه . وتنص لائحة المكتبة صراحة على أن هذا الهدف يحتل أولوية في اهتمامات المسؤولين (مكتبة الملك عبدالعزيز العامة : ١٤٠٩ ، ص: ٥ـ٦) .

ولتحقيق هذا الهدف فقد بذلت المكتبة ولا تزال تبذل محاولات وجهوداً طائلة لتوثيق تاريخ الملك عبدالعزيز من خلال عدة قنوات وأساليب من بينها ما يلي :

- إنشاء قاعة الملك عبدالعزيز ؛ التي تم تخصيصها لجمع كل ما كتب عن الملك عبدالعزيز في مختلف اللغات وبمختلف الأوعية .
- تصميم قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز (سيتم الحديث عنها بالتفصيل لاحقا بوصفها أنموذجاً للممارسات الببليوجرافية الراهنة) .
- الأرشيف الصحفي (العربي والأجنبي) الذي صممته المكتبة على شكل ملفات تضم المقالات والمنشورات عن الملك عبدالعزيز ، وأعطيت تلك الملفات أرقام استرجاع لتسهيل الوصول إليها .
- إصدار الأدوات الببليوجرافية التي تعرّف بما تقتنيه المكتبة من مواد لها علاقة بتاريخ الملك عبدالعزيز (مثل فهرس قاعة الملك عبدالعزيز الذي سبق الحديث عنه في الجهود الببليوجرافية السابقة) .
- دعم برامج البحوث والدراسات التي تخدم فكرة الضبط الببليوجرافي لتاريخ المملكة ، ومن بينها على سبيل المثال ما يلي :

أ - مشروع الدراسة الحالية .

ب- مشروع دراسة أخرى يزمع الباحث القيام بها بعنوان : " الملك عبدالعزيز - قائمة ببليوجرافية اقتنائية " .

ج - مشروع إصدار أعمال تجميعية COMPILATION WORKS مستلة من الإنتاج الفكري ، وتجمعها محاور مشتركة مثل ما قيل في الملك عبدالعزيز من أشعار ، أو ما ألقي من خطب ، أو ما أبرم من معاهدات ، أو ما تم من مناسبات رسمية ، أو ما قام به من زيارات ، ونحو ذلك من الموضوعات التي يجمعها قاسم مشترك وتجد قبولاً لدى عامة الناس .

د - مشروع إعداد سيرة ذاتية بالأعلام والشخصيات والرموز القيادية التي وردت في الكتب التي تحدثت عن الملك عبدالعزيز أو عن المملكة في عهده مثل الرجال الذين رافقوا الملك عبدالعزيز في فتحه للرياض، والمستشارين الذين كان يستأنس بآرائهم في إدارة شؤون الدولة، والذين كان ينتدبهم لحل القضايا والمشكلات ، والذين تولوا المناصب الرسمية في عهده ، ونحو ذلك من الأسماء التي تهم الجميع ويجدون توقاً في التعرف عليها والكشف عن سيرتها .

هـ - مشروع إصدار مستخلصات بمقالات الدوريات التي تناولت الملك عبدالعزيز ، والأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في عهده ، بحيث تصدر تلك المستخلصات على شكل نشرات منتظمة الصدور .

و - مشروع إصدار كتاب على شكل سيرة ذاتية بأبرز الكتّاب والباحثين الذين كتبوا عن الملك عبدالعزيز ، وتحت كل كاتب تسرد قائمة بأهم مؤلفاته BIOGRAPHY ومستخلص عن كل كتاب .

ز - ترجمة وإعادة نشر بعض الكتب العربية والأجنبية ؛ حيث قامت المكتبة باختيار مجموعة من الكتب التي صدرت باللغات الأجنبية وعملت على ترجمتها إلى اللغة العربية ، كما عملت على إعادة نشر بعض الكتب التي صدرت باللغة العربية عن الملك عبدالعزيز وتاريخ المملكة .

إضافة إلى مشروعات أخرى في هذا المضمار تزمع المكتبة القيام بها مستقبلاً ضمن مشاركتها في الاحتفال بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة . وقد جندت المكتبة بالفعل فرق عمل تشمل كافة التخصصات ، ووضعت التصورات التي ترسم منهجية تنفيذ تلك المشروعات . وكل هذه الجهود تدعم مفهوم الضبط الببليوجرافي وتدفع حركته خطوة نحو الأمام ، وتسهم في استكمال منظومة الدراسات الببليوجرافية .

ثانياً : دارة الملك عبدالعزيز

أنشئت دارة الملك عبدالعزيز عام ١٣٩٢هـ بغرض خدمة تاريخ المملكة وجغرافيتها وآدابها وآثارها ، وخدمة تاريخ الجزيرة العربية بشكل عام ، وتوفير المصادر والمراجع والوثائق والمصورات الجغرافية والرسوم التي تخدم الباحثين .

ومنذ إنشاء الدارة في العام المشار إليه وهي تهتم بتوثيق التراث الوطني من خلال قنوات عديدة من بينها ما يلي :

- إنشاء قاعة تذكارية تضم كل ما يصور حياة الملك عبدالعزيز بما في ذلك مكتبته الخاصة .
- حفظ مجموعة من الصور التذكارية النادرة للملك عبدالعزيز مع حكام وزعماء العالم ، وبعض الشخصيات .
- إنشاء مكتبة تضم المصادر الأساسية عن تاريخ المملكة .
- إنشاء المركز الوطني للوثائق والمخطوطات الذي يحتوي على كثير من الوثائق الإنجليزية والتركية المتعلقة بتاريخ المملكة ، إضافة إلى مجموعة من الرسائل الجامعية .

وفي عام ١٣٩٥هـ قامت دارة الملك عبدالعزيز بإصدار مجلة الدارة ؛ وهي مجلة فصلية محكمة تعنى بنشر التراث التاريخي والفكري والثقافي للمملكة والجزيرة العربية بصفة عامة ، وتحتوي على مجموعة من المقالات التي تتناول فترة حكم الملك عبدالعزيز ، الأمر الذي يعني أنها قد أسهمت ولا تزال تسهم في إثراء الرصيد المعرفي في المجال . وتمثل المجلة مصدراً مرجعياً مهماً يحتوي على البحوث والدراسات والإسهامات العلمية التي تهم الباحثين والمهتمين بتاريخ المملكة .

وقد انصبت بعض مقالات مجلة الدارة على الملك عبدالعزيز بشكل مباشر ؛ ومن حسن الطالع أنه وجد من تصدى لضبط تلك المقالات وتوثيقها وتعريف الباحثين بها ، وذلك من خلال الجهد الذي قام به كل من فيحان العتيبي وعبدالله الحقيل كما سبق توضيح ذلك في الفصل الثالث .

ومن خلال اطلاع الباحث على الكشاف التحليلي للمجلة المذكورة للفترة بين ١٣٩٥ ـ ١٤١٥هـ الذي أصدرته مكتبة الملك فهد الوطنية عام ١٤١٦هـ وجده يحتوي على (٢٤) مادة تتعلق بالملك عبدالعزيز مع إعطاء بيانات ببليوجرافية تشمل اسم المؤلف وعنوان المقالة والمجلة التي نشرت بها ورقم المجلد والعدد والسنة والصفحات ورؤوس الموضوعات التي يدور حولها مضمون المادة المكشفة والرقم المتسلسل لتلك المادة (مكتبة الملك فهد الوطنية : ١٤١٦) .

وفي السنوات الأخيرة زادت الجهود التي تقوم بها دارة الملك عبدالعزيز لتعزيز الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري المتعلق بتاريخ المملكة وتوثيق تاريخ الملك عبدالعزيز ، وذلك من خلال تكوين فرق عمل متخصصة للعمل في مشروعات مختلفة تخدم في مجملها تحقيق تاريخ المملكة بمفهومه الشامل . وعلى وجه الخصوص فإن أبرز مظاهر تلك الجهود تتجلى في المشروعات التالية :

- جمع الوثائق التاريخية الموجودة لدى المراكز العلمية والإرشيفات خارج المملكة وتصنيفها وتنظيمها وحفظها بوصفها مصادر تاريخية مهمة ، ولها دور كبير في حفظ التراث وكتابة التاريخ الوطني .
- جمع وتصوير المخطوطات ذات العلاقة بتاريخ المملكة والجزيرة العربية .
- إنشاء إرشيف الملك عبدالعزيز في الصحافة العربية والأجنبية بهدف رصد ما كتب عن الملك عبدالعزيز في الصحافة التي صدرت في عهده ، وقد بلغ مجموع ما تم جمعه حتى الآن (٣٠٠٠) مادة صحفية تقريباً . والدارة بصدد تصميم برنامج محسب يساعد في تخزين واسترجاع تلك المواد .

- العمل على تدوين المصادر الشفوية لتاريخ المملكة والملك عبدالعزيز ، وذلك من خلال أخذ آراء ومعلومات من كبار السن والمعاصرين للملك عبدالعزيز . وتم لهذا الغرض إنشاء مركز التاريخ الشفوي الذي يقوم بحفظ التسجيلات التي تم الحصول عليها وتصنيفها وفق الأساليب الحديثة وتحليلها . ويعد المركز لنشر عدد من الإصدارات المتعلقة بالتاريخ الشفوي . وقد تم مقابلة حوالي (٣٥٠) شخصاً حتى الآن في مختلف مناطق المملكة . ومن أجل تنظيم هذا العمل فقد استعانت الدارة بخبرات جمعيتي التاريخ الشفوي البريطانية والأمريكية .
- إنشاء قسم الأوراق الخاصة ـ أحد الأقسام الرئيسة لمركز الملك عبدالعزيز للمعلومات والوثائق ـ لتودع فيه الأوراق الخاصة الشخصية من مراسلات ومذكرات للملك عبدالعزيز أو للشخصيات التي أسهمت في تاريخ المملكة .
- مشروع رصد المواقع الجغرافية والطريق الذي سلكه الملك عبدالعزيز في اتجاهه نحو الرياض لاستردادها ، إضافة إلى رصد الروايات والكتابات التي دارت حول استرداد الرياض ، وحول مسيرة الملك عبدالعزيز نحو الرياض في تلك الفترة . وتزمع الدارة نشر إصدار خاص بهذا الموضوع .

جدير بالذكر أن مشروع مبنى دارة الملك عبدالعزيز الجديد سيكون ضمن مركز الملك عبدالعزيز التاريخي الذي خصص له مقر وسط المدينة ، ويتكون مبنى الدارة من عدة وحدات من بينها قاعة الملك عبدالعزيز التذكارية . ويجري العمل في الوقت الراهن لإنجاز مشروع المبنى تمهيداً للاحتفال بالذكرى المئوية لتأسيس المملكة في شهر شوال من عام ١٤١٩هـ .

ثالثاً : مكتبة الملك فهد الوطنية

تقوم مكتبة الملك فهد الوطنية من منطلق كونها مكتبة الدولة المناط بها جمع الإنتاج الفكري الذي كتبه أبناء الوطن أو كتب عنه باقتناء كل ما صدر عن تاريخ

المملكة في مختلف الأشكال واللغات ، وقامت بتصميم نظام آلي " قاعدة معلومات المملكة " تغطي كل ما له علاقة بتاريخ المملكة ، كما أنشات للغرض نفسه " مركز معلومات المملكة " . ويضم المركز الكتب والشرائح المصغرة والنشرات والخرائط والوثائق والأطالس والصور والعملات واللوحات . إضافة إلى " قاعة المخطوطات والنوادر " التي تضم نوادر المطبوعات والوثائق ومصوراتها والطوابع والمسكوكات وغيرها من أوعية المعلومات التي تهم المؤرخين والمعنيين بتاريخ المملكة بعامة وتاريخ الملك عبدالعزيز بخاصة . علاوة على ما قامت به المكتبة من إنشاء "قسم الوثائق " التي خصص لها في الدور الأول قاعة لحفظها وتخزينها ، وذلك في بيئة ملائمة من حيث النظافة ودرجة الحرارة ، وروعي فيها مناسبتها لمثل هذه الوثائق وخصوصيتها ، وجهزت القاعة بأجهزة المصغرات الفيلمية .

ولقد حرصت مكتبة الملك فهد الوطنية على جمع أكبر قدر ممكن من الوثائق عن المملكة والملك عبدالعزيز (قد يتجاوز عددها مليون وثيقة تاريخية) من خلال الشراء والإهداء ـ بدعم من صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز المشرف العام على المكتبة ـ منها وثائق قصر ثليم ، إضافة إلى الحصول على الوثائق السعودية من الأرشيفات العالمية مثل مجموعة وثائق الملك عبدالعزيز الكاملة من الأرشيف البريطاني .

وتشير النشرة التي أصدرتها المكتبة المذكورة تحت سلسلة (الثقافة المكتبية ـ ٧) إلى أنه قد " تم تخصيص قاعة لحفظ وتخزين هذه الوثائق السعودية في الدور الأول وفي بيئة حفظ ملائمة من حيث النظافة ودرجة الحرارة ، روعي فيها مناسبتها لمثل هذه الوثائق وخصوصيتها واستقلاليتها وسهولة السيطرة عليها وحمايتها ، وقد زودت القاعدة بمقاعد ونضد للبحث . كما جهزت بأجهزة المصغرات الفلمية

والجذاذات (الميكروفش) . كما حفظت الوثائق الحيوية في خزانات حديدية محكمة ، وقد تم ترتيب هذه الوثائق وفهرست مجموعة طيبة منها وحفظت في ملفات خاصة أعدت لها . وتتنوع هذه الوثائق بين الأصل والصورة " (مكتبة الملك فهد الوطنية : ١٤١٧) . ومن بين تلك الوثائق ما يلي :

- وثائق الملك عبدالعزيز : وتعد من أهم المجموعات المحلية التي تحتفظ بها المكتبة نظرا لما تتضمنه من معلومات مهمة ، وقليل منها ما هو منشور ، وإن كان يغلب عليها أنها صور . يقدر عدد تلك الوثائق بحوالي (٣٢٨) وثيقة ، منها (١٩) وثيقة أصلية ، وتغطي الفترة من الأربعينيات الهجرية حتى منتصف السبعينيات الهجرية . وتحوي بعض النماذج المرسلة للملك عبدالعزيز ، منها رسائل مرسلة من نقيب أشراف البصرة السيد رجب فريد .
- وثائق قصر ثليم : حصلت المكتبة على قدر كبير من وثائق قصر ثليم التي يعود تاريخ بعضها إلى منتصف العقد من عام ١٣٥٠هـ ، ولبعض تلك الوثائق صلة بتاريخ المملكة في عهد الملك عبدالعزيز ، ومعظمها أوراق إدارية ومالية مخطوطة أو مطبوعة أو على هيئة نماذج رسمية وسجلات . ولذا فهي مهمة في دراسة بداية التطور الإداري والاقتصادي لمدينة الرياض على وجه الخصوص .
- وثائق أبي صابر : وهي مجموعة تغطي حوالي خمسين عاما (١٣٢٢ - ١٣٦٨هـ) وتضم أنواعا مختلفة من الوثائق والخطابات (الصادرة والواردة) وايصالات تسلم النقود وكشوف ودفاتر حسابات وبعض المراسلات الرسمية والبرقيات . ومنها وثائق تتعلق بمبرة الملك عبدالعزيز ، وهي مبرة كان رحمه الله يمولها ويدعمها لتوفير الغذاء للفقراء والمحتاجين .
- وثائق الشيخ المانع : وهي مجموعة وثائق أصلية تخص الشيخ محمد بن عبدالعزيز المانع وتحتوي على مراسلات وبرقيات من الملك عبدالعزيز .
- مجموعة قصر إبراهيم بالأحساء : وتغطي هذه الوثائق الفترة من سنة ١٣٣٦هـ حتى سنة ١٣٧٤هـ ، وتتعلق بشؤون الدولة العسكرية والإدارية والتنظيمية داخل

المملكة وخارجها مثل إصدار حفائض النفوس وجوازات السفر ، إضافة إلى شؤون الحياة اليومية بين المواطنين مثل المبايعات والشكاوي وغير ذلك .

كما قامت المكتبة نفسها بجمع وثائق أخرى تتعلق بتاريخ الملك عبدالعزيز من كل من الأرشيف العثماني في استانبول ، ودار الوثائق القومية في مصر ، والأرشيف البريطاني ، والأرشيف الألماني ، وغيرها من المصادر الأخرى (مكتبة الملك فهد الوطنية : ١٤١٧) .

رابعاً : جامعة الملك سعود

لقد برهنت جامعة الملك سعود على اهتمامها بالحصر الببليوجرافي لما يتعلق بتاريخ الملك عبدالعزيز من خلال تخصيصها لقاعة في مكتبتها المركزية لهذا الأمر أطلقت عليها " قاعة الجزيرة العربية " تضم مصادر قيمة للمهتمين بشخصية الملك عبدالعزيز وتاريخه . وقد تمخضت فكرة هذه القاعة من مشاركة الجامعة أثناء انعقاد المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز في مدينة الرياض في شهر ربيع الأول لعام ١٤٠٦هـ حيث رأت الجامعة أن إعداد وتنظيم معرض للمؤلفات التي تناولت شخصية الملك عبدالعزيز وتاريخه يشكل طريقة مثلى لتلك المشاركة . وبعد انتهاء المؤتمر تم الاحتفاظ بمحتويات المعرض في جناح مخصص لها في المكتبة حيث كونت تلك المحتويات نواة لقاعة الجزيرة العربية .

ثبت من الزيارة الميدانية التي قام بها الباحث للقاعة المذكورة أنها تحتوي على أكثر من (٥٠٠) مادة على النحو التالي :

- (١٣١) كتابا باللغة العربية .
- (١٦٤) كتابا بلغات أخرى .
- (٢١٠) رسالة جامعية .
- (٥) مخطوطات .

- (١٣) عدداً تذكارياً من المجلات العربية .
- أكثر من (١٠٠) مقال باللغة العربية .
- إضافة إلى (٤٠) مقالاً بلغات أخرى .

وقد تم تجميع أوعية المعلومات الأصلية والمستنسخة لقاعة الجزيرة العربية من مصادر ومؤسسات عديدة من أبرزها ما يلي :

- مكتبات جامعة الملك سعود .
- بعض المكتبات الأخرى بجامعات المملكة .
- دارة الملك عبدالعزيز .
- مكتبة معهد الإدارة العامة .
- مكتبات وزارة المعارف .

كما تم استنساخ بعض المقالات الأجنبية التي تخدم تاريخ الملك عبدالعزيز وإتاحتها للبحث والاطلاع من خلال التصوير من المكتبة البريطانية ، وغيرها من المكتبات المحلية والعربية والدولية .

جدير بالذكر أن جامعة الملك سعود لا تسمح بإعارة مقتنيات قاعة الملك عبدالعزيز ، وقد أصدرت دليلاً بمقتنيات القاعة عام ١٤١٢هـ يشتمل على بيانات كاملة عن مقتنياتها بغرض التعريف بها وتسويق فكرتها (جامعة الملك سعود : ١٤١٢) .

خامساً : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية جهود لا تنكر في توثيق تاريخ الملك عبدالعزيز وضبطه ببليوجرافيًا ، وقد تجلت تلك الجهود في مظاهر عدة نذكر من بينها إقامة المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز الذي عقد للفترة

بين ١٩-٢٣/ ٣/ ١٤٠٦هـ بقاعة الملك فيصل للمؤتمرات بالتعاون مع بعض الجهات الحكومية، وناقش المؤتمر محاور عديدة تمخض عنها أدبيات تثري فكرة الضبط الببليوجرافي وبخاصة في المجالات التالية :

- الأصول والأسس التي انبنى عليها تاريخ الملك عبدالعزيز .
- منجزات الملك عبدالعزيز وأعماله وإصلاحاته في المجالات العقائدية والفكرية والقضائية والتعليمية والسياسية والأمنية والعسكرية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية .
- شخصية الملك عبدالعزيز ؛ مواهبه ، مكوناته التاريخية ، خلقه وفضائله .
- واقع المملكة وحاضرها بوصفها امتداداً موسعاً ومعمقاً لتاريخ الملك عبدالعزيز .
- أثر نهضة الملك عبدالعزيز في النهضة العربية والإسلامية الحديثة والمعاصرة .
- التأصيل المنهجي ، والبرمجة الفكرية للعبر والدروس والحقائق المستفادة من تاريخ الملك عبدالعزيز .

ومما يحمد لهذا التجمع العلمي الذي تناول سيرة الملك عبدالعزيز وتاريخه أنه قد نتج عنه مجموعة من البحوث والدراسات التي تمثل رصيداً معرفياً ينهل منه الباحثون والمفكرون والمهتمون بتاريخ المملكة ، ويجدون فيه ثبتاً بالمصادر التي تعينهم على إنجاز بحوثهم . كما يمثل المؤتمر إسهاماً طيباً يثري الجهود السابقة واللاحقة فيما كتب أو سيكتب عن الملك عبدالعزيز . إذ بفضل المؤتمر قامت كل من دارة الملك عبدالعزيز وجامعة الملك سعود بإنشاء مراكز معلومات خاصة بما كتب عن الملك عبدالعزيز ، وبجمع الأدبيات المتعلقة بهذه الشخصية .

كما صدر على هامش المؤتمر قدر كبير من المقالات والتحقيقات الصحفية والأحاديث والندوات والبرامج الإذاعية والتلفازية التي سجلت بتلك المناسبة ، وهي تحوي مادة علمية غزيرة تخدم فكرة الضبط الببليوجرافي بمفهومه الواسع .

وأهم من هذا كله هو ما خرج به المؤتمر من توصيات ، والتي من أبرزها قيام جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بإنشاء مركز يضم كل ما هو مكتوب عن الملك عبدالعزيز والمملكة في عهده .

وفي اعتقاد الباحث أن هذه توصية جيدة إلا أنها على حد علمه لم تنفذ على أرض الواقع ، وقد يصعب إن لم يكن من المستحيل تنفيذها بصورتها الحالية لأن حصر كل ما كتب عن الملك عبدالعزيز والمملكة في عهده لا تستطيع مؤسسة واحدة القيام به حتى لو توافرت لها الإمكانات والتجهيزات الجيدة والميزانية الكافية ؛ لأن مثل تلك المشروعات الطموحة تتقاسمها عادة مجموعة من المؤسسات بحيث تنهض كل مؤسسة بمهمة محددة من مهام الضبط الببليوجرافي ، وتشارك بقية المؤسسات في إنجاز المهام الأخرى من خلال برنامج التعاون والتنسيق . وهذا هو الأسلوب الذي سارت عليه مراكز التوثيق والضبط الببليوجرافي في العالم المتقدم حيث استطاعت من خلاله السيطرة على جل أو غالبية ما صدر من إنتاج فكري في موضوع الاهتمام .

جدير بالذكر أن كل من جامعة الزقازيق وجامعة قناة السويس بجمهورية مصر العربية قد عقدت بالتعاون مع جامعة الإمام وعلى هامش مؤتمرها " ندوة العلاقات المصرية السعودية " للفترة بين ١٣-١٦ شعبان ١٤٠٧هـ بمدينة الزقازيق بمحافظة الشرقية بغرض استمرار فكرة المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز ، ومواصلة أعماله تحقيقاً لتوصيات المؤتمر بعدم التوقف عن أعماله ، واستمرار عقد الندوات والمؤتمرات .

وقد تناولت الندوة المشار إليها موضوعات عديدة من بينها جهود الملك عبدالعزيز في توحيد المملكة ، وشارك فيها أساتذة متخصصون في التاريخ والجغرافيا والعلوم السياسية والاقتصادية واللغوية والشرعية (جاهين : ١٤٠٧ ،

ص: ٢١٩-٢٢١) . ونتج عن ندوة العلاقات المصرية السعودية مادة علمية تثري مجال الضبط الببليوجرافي للأدبيات المتعلقة بتاريخ الملك عبدالعزيز ، وتضيف للمجال بعداً آخر .

سادساً : معهد الإدارة العامة

لمعهد الإدارة العامة بالرياض اهتمام بارز في مجال التوثيق الوطني بشكل عام وتوثيق تاريخ المملكة بشكل خاص . وقد أشاد بهذا الدور عبدالفتاح أبو علية في كتابه الموسوم بـ : "دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر - مصادر تاريخ البلاد السعودية " حيث أفرد لمعهد الإدارة العامة قسماً مستقلاً يوضح جهوده التوثيقية في ضبط التاريخ والاعتناء بحفظه وتنظيمه .

وقد أنشأ معهد الإدارة العامة لغرض الضبط الببليوجرافي " مركز الوثائق " الذي يحتوي على مجموعة من السجلات المتعلقة بالتنظيم الإداري في الدولة ، وتم حفظها في ملفات ، وترتيبها وفقا لقائمة رؤوس موضوعات مصممة لتصنيف الوثائق في المركز .

ومن بين نماذج الموضوعات المتعلقة بتاريخ المملكة في عصر الملك عبدالعزيز التي تناولتها الملفات التي طورها المعهد ما يلي :

- القرارات والخطابات والتعميمات الخاصة بموضوع الإجازات الصادرة عن الجهات الحكومية الرسمية .
- الأحوال الشخصية والصحية والتفويض والتقسيم الإداري المحلي في البلاد للفترة بين ١٢٤٤-١٣٩٥هـ .
- نظام الأسلحة والذخيرة من عام ١٣٤٤هـ حتى عام ١٣٩٨هـ .

- القرارات والتعليمات المتعلقة بالدعاة والتوعية الإسلامية للفترة بين ١٣٤٧-١٣٩٩هـ.
- ملفات تتعلق بالشؤون التجارية في عهد الملك عبدالعزيز .
- القرارات الصادرة عن مجلس الشورى منذ عام ١٣٤٨هـ .
- القرارات المتعلقة بالجنسية منذ عام ١٣٥٥هـ .
- قرارات الحج منذ عام ١٣٤٥هـ .
- قرارات الخدمة العسكرية منذ عام ١٣٤٤هـ .

وغير ذلك من الموضوعات الأخرى التي تخدم موضوع الضبط الببليوجرافي في المجال . والواقع أن لتلك الوثائق التي قام معهد الإدارة العامة بحصرها وجمعها وتنظيمها أهمية لا تنكر في دراسة نشأة التنظيم الإداري في المملكة ، والتعرف على التطورات التي مر بها ، وتحليل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والثقافية والقضائية في عهد الملك عبدالعزيز (أبو علية : ١٣٩٩ ، ص : ٩١-١٧٩) .

سابعاً : مؤسسات وهيئات أخرى

إضافة إلى إسهامات بعض المؤسسات المحلية التي سبق الإشارة إليها - والمتمثلة في دارة الملك عبدالعزيز ، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، وجامعة الملك سعود ، وجامعة الإمام ، ومعهد الإدارة العامة في تعزيز منظومة الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز ، فإن هناك جهات أخرى (مؤسسات ، هيئات، مكتبات ، مراكز توثيق . . . إلخ) لها محاولات وجهود مشكورة في الإضافة إلى الرصيد الببليوجرافي في المجال ، وهي تمارس نشاطاتها على المستويات الإقليمية والعالمية . وتعرض السطور اللاحقة نماذج لتلك الجهات ، وقد قام الباحث بتقسيمها إلى مجموعتين وذلك على النحو التالي :

المجموعة الأولى :

وتشمل تلك الجهات التي استطاع الباحث الحصول على معلومات ـ ولو مختصرة ـ تعرّف بنشاطاتها ، ويندرج تحت هذه المجموعة النماذج التالية :

- مكتب الهند
- أرشيف السجلات البريطانية العامة
- القنصليات البريطانية
- المكتبات البريطانية
- الأرشيف الوطني للولايات المتحدة الأمريكية
- شركة الزيت العربية الأمريكية
- الأرشيف العثماني
- الأرشيف الاتحادي الألماني
- المؤسسات الصحفية

وفيما يلي نبذة موجزة عن نماذج الضبط الببليوجرافي السابقة .

١ـ مكتب الهند : INDIA OFFICE RECORDS

يعود اهتمام وزارة الخارجية البريطانية بشؤون الجزيرة العربية والخليج العربي إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي . وكان مكتب الهند آنذاك يشرف على مصالح بريطانيا في الشرق ، ويحتوي ذلك المكتب على مجموعة من السجلات والمخطوطات والكتب القديمة النادرة ذات القيمة التاريخية ، وتتوزع السجلات المتعلقة بالبلاد السعودية على سجلات عديدة . ولكون تلك السجلات تحتوي على معلومات رسمية فهي مفيدة في دراسة تاريخ المنطقة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً . ومعظم هذه الوثائق تعبر عن وجهة النظر البريطانية .

ومن بين تلك السجلات المهمة التي يحتفظ بها المكتب ملف الموضوعات السياسية والسرية POLITICAL AND SECRET SUBJECTS FILE الذي يفيد في دراسة عهد الملك عبدالعزيز في الفترة بين ١٩٠٢-١٩٣١ . وتتمحور موضوعات ذلك الملف حول القضايا التالية :

- اتصالات الملك عبدالعزيز بالسلطة البريطانية في الخليج .
- علاقة الملك عبدالعزيز بالدولة العثمانية والكويت .
- اعتزام الملك عبدالعزيز القيام بزيارة لشيوخ الساحل عام ١٩٠٥ .
- اتصالات الملك عبدالعزيز بشيوخ الخليج العربي قبل دخوله الأحساء عام ١٩١٣ .
- اتصالات الملك عبدالعزيز ببريطانيا بعد استرداده الأحساء من الأتراك .
- ظهور حركة الإخوان في عهد الملك عبدالعزيز .

ويحتفظ مكتب الهند - بالإضافة إلى الوثائق التي سبق ذكر نماذج منها - بخرائط كثيرة تتعلق بديار القبائل ومناطق تجوالها في جزيرة العرب ، والمسائل الحدودية بين الوحدات السياسية في المنطقة (أبو علية : ١٣٩٩ ، ص : ٢٢٥-٢٥٦) .

وقد قامت شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) بالظهران بجمع كثير من تلك الوثائق والسجلات المتوافرة في مكتب الهند وترجمتها ، كما فعلت الشيء نفسه دارة الملك عبدالعزيز .

٢ - أرشيف السجلات البريطانية العامة : PUBLIC RECORDS OFFICE

تتوزع وثائق الدولة السعودية في هذا الأرشيف في وثائق القاعة الشرقية EAST ROOM، ووثائق القاعة الطويلة LONG ROOM ويحتوي الأرشيف على

مراسلات وتقارير ونشرات وزارة الخارجية البريطانية التي تفيد في دراسة تاريخ الدولة السعودية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً ، ومن بين محتوياته :

- وثائق متنوعة عن الملك عبدالعزيز وحكمه ودولته في الفترة بين ١٩١٥-١٩٢٥ .
- وثائق تتعلق بحركة الإخوان في عهد الملك عبدالعزيز .
- تقارير بريطانية بشأن اللقب الرسمي لابن سعود عام ١٩٢٠ .
- وثائق تبين علاقة الملك عبدالعزيز بالأشراف في الحجاز عام ١٩٢٠ .
- وثائق تبين طبيعة حركة القبائل البدوية وتمردها ضد الملك عبدالعزيز عام ١٩٢٩ .

وينطبق على تلك الوثائق من حيث الإجراءات الرسمية ما ينطبق على سابقتها (وثائق السجلات البريطانية في مكتب الهند) ، وعملية البحث فيها عملية صعبة ومعقدة ؛ نظراً لتبعثر الوثائق في أماكن ومجلدات متفرقة . كما يعوز تلك الوثائق تسويقها بالشكل المطلوب من خلال إعداد الأدوات الببليوجرافية التي تعرف بها وتربطها بالمؤرخين والمهتمين بالتاريخ .

٣- القنصليات والسفارات البريطانية :

تحتفظ القنصليات والسفارات البريطانية BRITISH EMBASSY AND CONSULAR ببعض الوثائق التي تخدم تاريخ المملكة في عهد الملك عبدالعزيز إلا أنها أقل من تلك المتوافرة في كل من مكتب الهند أو وزارة الخارجية البريطانية . كما تحتفظ القنصليات بالمراسلات والمكاتبات التي كان يرسلها الموظفون البريطانيون الرسميون في الخليج إلى وزارة الخارجية البريطانية ، وتوجد بعض التقارير والمذكرات الرسمية في أوراق مجلس الوزراء البريطاني CABINET OFFICE ، وبعض الوثائق المحفوظة في أوراق المراسلات الخاصة (مراسلات

ومكاتبات لشخصيات بارزة نهضت بدور كبير في منطقة الخليج) ، ووثائق سجلات المكتب العربي في القاهرة المحفوظة في أرشيف السجلات البريطانية العامة .

٤ـ المكتبات البريطانية :

إضافة إلى المصادر البريطانية السابقة التي تحتفظ بوثائق تخدم تاريخ المملكة وتعزز فكرة الضبط الببليوجرافي للوثائق التاريخية ، توجد مجموعة أخرى من الوثائق في المكتبة البريطانية بلندن وبخاصة في قسم المراجع BRITISH LIBRARY - REFERENCE DIVISION ، ومكتبة الجمعية الجغرافية الملكية بلندن ROYAL GEOGRAPHICAL SOCITY التي تحتوي على كثير من كتب الرحالة الأجانب (أبو علية : ١٣٩٩ ، ص : ٢٨٤) . كما أن مكتبة المتحف البريطاني بلندن تحتوي على قدر من الوثائق المتعلقة بتاريخ المملكة .

٥ـ الأرشيف الوطني للولايات المتحدة الأمريكية :

ظهر تركيز الولايات المتحدة الأمريكية على الوثائق التي تتناول العلاقات السعودية الأمريكية بشكل أكثر وضوحاً منذ أخذت أمريكا تهتم بمناطق الشرق الأوسط والمملكة على وجه الخصوص بعد توقيع اتفاقية النفط عام ١٩٣٣ . ويحتوي الأرشيف الوطني للولايات المتحدة الأمريكية THE NATIONAL ARCHIVES OF THE USA على مجموعة من الوثائق التي تخص الدولة السعودية الحديثة في عهد الملك عبدالعزيز . وهذه الوثائق مرتبة بحسب الفترة الزمنية التي تعالجها ، ومعظمها مصورة على أشكال مصغرة MICROFILMS .

وتدور غالبية موضوعات وثائق الأرشيف الوطني الأمريكي حول شركات النفط ، ودخول أمريكا إلى المنطقة ، وفتحها لقنصلية ثم سفارة في المملكة ،

والنفوذ الأمريكي في المنطقة ، ومحادثات الملك عبدالعزيز مع روزفلت في فترة الحرب العالمية الثانية ، والمعاهدات الاقتصادية والفنية والعسكرية بين أمريكا والمملكة (أبو علية : ١٣٩٩ ، ص: ٢٨٧-٢٨٩) .

٦- شركة الزيت العربية الأمريكية :

تحتفظ مكتبة شعبة البحث بشركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) بالظهران بكثير من الوثائق التي قامت بتجميعها من مختلف الأراشيف في دول العالم ، وبعض تلك الوثائق تتعلق بتاريخ الملك عبدالعزيز والتطورات التي حدثت في المملكة في عهده . وقد سبق الإشارة إلى أن شركة الزيت العربية الأمريكية قامت بجمع كثير من الوثائق والسجلات المتوافرة في مكتب الهند وترجمتها وإضافتها إلى مجموعاتها .

٧- الأرشيف العثماني : OTTOMAN ARCHIVES

يحوي أرشيف استانبول ISTANBUL ARCHIVES الكثير من الوثائق المهمة في دراسة تاريخ الجزيرة العربية في العصر الحديث ، وبخاصة في دار المحفوظات التابعة لرئاسة الوزراء . ويتكون هذا الأرشيف من قسمين هما :

- أرشيف رئاسة الوزراء في استانبول
- أرشيف وزارة الخارجية في استانبول

وبرغم كثرة محتويات الأرشيف العثماني وتعدد موضوعاته وتشتتها في ملفات عدة ، فإن الاستفادة منه بقسميه المذكورين يحتاج إلى بعض الجهد والوقت والمرور بسلسلة من الإجراءات الرسمية ، كما تنقصه أجهزة التصوير الحديثة ، والمباني المناسبة ، والعمالة الفنية المتخصصة بأعمال التوثيق والضبط الببليوجرافي والتصوير الفني (أبو علية : ١٣٩٩ ، ص: ١٨٥-٢١٩) .

٨ـ الأرشيف الإتحادي الألماني :

للأرشيف الإتحادي الألماني في بوتسدام (أرشيف بوتسدام) اهتمام واضح بتوثيق تاريخ المملكة الحديث وبخاصة العلاقات الألمانية السعودية خلال فترة الملك عبدالعزيز . وينصب تركيز الوثائق على الجوانب السياسية والاقتصادية ، وتشمل خطابات ومذكرات دبلوماسية ومراسلات وقصاصات صحف وتقارير في مختلف الموضوعات .

ومن أهم المجموعات الرئيسة للأرشيف الاتحادي الألماني ما يلي :

أ ـ مجموعة وزارة الخارجية :

وتحتوي على مجموعة كبيرة من القصاصات الصحفية البريطانية والأمريكية والفرنسية والألمانية والإيطالية والهولندية المتعلقة بالمملكة في عهد الملك عبدالعزيز ، وتتناول أخبار التطورات السياسية والاقتصادية للمملكة للفترة بين ١٣١٦ـ١٣٥٨هـ. ومن بين موضوعات تلك القصاصات ما يلي :

- تطور إنتاج وصناعة النفط في المملكة .
- موقف المملكة من ميثاق سعد آباد .
- شخصية الملك عبدالعزيز .
- علاقات المملكة بألمانيا والعراق وبريطانيا .
- الحج عام ١٣٥٩هـ .

ب ـ مجموعة وزارة الاقتصاد :

تشتمل هذه المجموعة على رسالة من القنصل التجاري الألماني في جدة إلى وزارة الخارجية الألمانية عام ١٣٥٠هـ يشرح فيها الأوضاع الاقتصادية في الحجاز ،

ومرفق بها ترجمة للخطاب الذي وجهه الملك عبدالعزيز إلى الشعب السعودي في جمادى الآخرة عام ١٣٥٠هـ بشأن الأوضاع الاقتصادية في البلاد ، والإجراءات المزمع اتخاذها لتلافي الأزمة الاقتصادية .

ج- مجموعة شركة صناعة الأصباغ- قسم الشرق :

تتضمن هذه المجموعة أوراق شركة فاربن للأصباغ الألمانية ، وتكشف أوراق هذه الشركة عن وجود نشاط تجاري متميز في الجزيرة العربية عموماً وفي المملكة على وجه الخصوص خلال المدة التي سبقت الحرب العالمية الثانية . كما تحتوي هذه المجموعة على تقارير ومراسلات متنوعة حول مبيعات الشركة في منطقة الجزيرة العربية للفترة بين ١٣٥٤-١٣٦٩هـ ، ومراسلات الشركة مع بعض التجار المحليين في الجزيرة العربية .

وقد أسهمت تلك الوثائق الألمانية في توثيق تاريخ المملكة ، ورصد التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وفي توفير مادة علمية تخدم الباحثين والمهتمين بتاريخ المنطقة خلال عهد الملك عبدالعزيز (السماري : ١٤١٤ ، ص: ٦٠٢-٦٠٨) .

٩- المؤسسات الصحفية :

تحتفظ غالبية المؤسسات الصحفية داخل المملكة وخارجها بقصاصات صحفية (مكاتبات ، مخاطبات ، أرشيف ، مراسلات ، خطب ، كلمات ، أحاديث ، أقوال) تخدم موضوع الدراسة الحالية . وتجدر الإشارة إلى أن كثيراً من تلك القصاصات توجد في مؤسسة الأهرام بجمهورية مصر العربية حيث إن لها اهتمام قديم ومميز بحفظ تاريخ الشخصيات السياسية .

المجموعة الثانية :

وتشمل تلك الجهات التي لم يستطع الباحث الحصول على معلومات تعرّف بنشاطاتها وتوضح دورها في خدمة الضبط الببليوجرافي ، ويندرج تحت هذه المجموعة النماذج التالية :

١ـ دار الوثائق القومية بالقاهرة (وثائق عابدين) .
٢ـ دار الكتب الوطنية بالقاهرة .
٣ـ مكتبة الكونجرس (في واشنطن) .
٤ـ مكتبة الشرق الأوسط بمعهد جون هوبكنز (في واشنطن) .
٥ـ مكتبة جامعة هارفرد بكامبرج (في الولايات المتحدة الأمريكية) .
٦ـ مكتبة جامعة ييل (في الولايات المتحد الأمريكية) .
٧ـ مكتبة جامعة برنستون (في الولايات المتحد الأمريكية) .
٨ـ مكتبة مركز الشرق الأوسط (في جامعة اكسفورد بانجلترا) .
٩ـ السفارات الأجنبية ، وبخاصة السفارة الروسية .

ويضاف إلى ما سبق مجموعة أخرى من المصادر التي نشرتها الحكومات والمؤسسات الرسمية ودور النشر العالمية المهتمة بموضوع الوثائق ، والتي تحتوي على معاهدات واتفاقيات أبرمت في عهد الملك عبدالعزيز ، علاوة على ما صدر من مؤلفات تناولت تاريخ الملك عبدالعزيز باللغات العربية والأجنبية . ولمزيد من التفاصيل حول تلك الوثائق المنشورة والمؤلفات يمكن الرجوع إلى كتاب عبدالفتاح أبو علية بعنوان : " دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر " الذي نشرته دار المريخ عام ١٣٩٩هـ حيث يورد نماذج لتلك الوثائق والمؤسسات التي تحتفظ بها (أبو علية : ١٣٩٩ ، ص: ٢٩٣ـ٣٠٧ ، ٣٤١ـ٤٥٨) .

ويرى الباحث أن للمؤسسات والجهات الآنفة الذكر دور فاعل في دفع حركة الممارسات الببليوجرافية الراهنة التي تسهم في حفظ السجلات والوثائق التي تهم المهتمين بتاريخ الملك عبدالعزيز ، كما أن تلك المؤسسات تساعد في تعزيز مسيرة الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري في المجال . إلا أن الحفظ في حد ذاته قد لا يخدم فكرة التوثيق والضبط الببليوجرافي بالشكل المطلوب ، حيث إن مجرد الحصر مهمة تقتصر فائدها على فئة محدودة من المستفيدين وهي تلك الفئة القادرة على القيام بالزيارات الشخصية لمواقع تلك المؤسسات . مع أن كثيراً من المستفيدين قد لا يستطيعون ذلك ويرغبون في المقابل بأن تصلهم المعلومة وهم في مواقع عملهم . ولذا فإن المتوقع ألاّ يقتصر الاهتمام على الحفظ وحده بل يتعداه إلى إعداد وإصدار الأدوات الببليوجرافية التي تعرّف بما هو موجود لدى تلك الجهات ، وتسهم في تسويق خدماتها ومصادرها بالشكل الذي يلبي احتياجات المهتمين بتاريخ الملك عبدالعزيز ويعمم فائدتها على أكبر قطاع ممكن من المستفيدين .

قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز أنموذجاً :

توجد في الوقت الراهن بعض الممارسات للضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز التي تتزعمها بعض المؤسسات ، وتأتي في مقدمتها مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ودارة الملك عبدالعزيز . ولكون المؤسسة الأولى كانت سباقة إلى فكرة الضبط ووضعت أول قاعدة محسبة لتوثيق تاريخ الملك عبدالعزيز فقد كان التركيز عليها في هذه الدراسة بوصفها أنموذجاً للاهتمام المؤسساتي ، وحالة لتوظيف التطبيقات الحاسوبية في خدمة الضبط الببليوجرافي للمصادر المتعلقة بتاريخ المملكة .

ولو عدنا إلى الوراء لوجدنا أن النصف الثاني من القرن العشرين قد شهد تطوراً سريعاً في توظيف تقنية الحاسوب في الضبط الببليوجرافي وإعداد القوائم الببليوجرافية ، وساعد على ذلك عوامل عديدة من بينها ما يلي :

- الزيادة المستمرة في ما ينشر من إنتاج فكري .
- الرغبة في خفض التكلفة وتوفير وقت العاملين مع ضمان الدقة والسرعة .
- الرغبة في تقديم خدمات جديدة (مثل توفير قوائم الدوريات الموحدة ، وخدمات الإحاطة الجارية) .
- الإسهام في التعاون بين المؤسسات من خلال تحقيق مبدأ الفهرسة المركزية التعاونية .
- مرونة إجراءات الاسترجاع ، والسرعة في إعداد الببليوجرافيات المطلوبة ، والتخلص من العمليات الكتابية والروتينية التي يتطلبها العمل الببليوجرافي .

الأمر الذي يوحي بأن المستقبل للضبط الببليوجرافي المحسب وللببليوجرافيات المعدة آليا (عثمان : ١٩٩٠ ، ص: ١٢٧ ، ١٣٤) .

وقد طبقت مكتبة الملك عبدالعزيز العامة فكرة هذا الضبط الببليوجرافي المحسب من خلال إنشاء قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز ، وذلك حرصاً على مساعدة الباحثين في التعرف على المصادر في مجالات اهتماماتهم ، والإسهام في التقدم العلمي للمجتمع من خلال رصد الأدبيات ، وتعزيز مبدأ تحسيب المعلومات ، وإيجاد نواة لإقامة شبكة معلومات بين الجهات المعنية بالملك عبدالعزيز مما يزيد من فرص التعاون بينها .

ويتناول التعريف بقاعدة معلومات الملك عبدالعزيز مجموعة محاور من بينها خلفية القاعدة ، وهدفها ، ووضعها الإداري ، وبنيتها وتجهيزاتها ، وخطة تنمية مجموعاتها ، وأسلوبها في المعالجة الفنية ، والخدمات التي تقدمها للمستفيدين

الحاليين والمتوقعين . كما يتناول التعريف بالقاعدة إعطاء لمحة موجزة عن " قاعة الملك عبدالعزيز " التي تعد رافداً وسنداً قوياً للقاعدة نفسها . وقد استمد الباحث المعلومات المتعلقة بالتعريف من واقع خبراته وممارساته حيث كان له شرف التعاون مع مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بصفته مشرفاً على قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز . وقد هيأت له هذه الفرصة أسباب التعامل مع القاعدة عن قرب ، ومعايشتها بشكل مستمر ، والاحتكاك بالمسؤولين عنها والعاملين فيها .

أولاً : نشأة القاعدة وتطورها

منذ أن أنشئت مكتبة الملك عبدالعزيز العامة كمؤسسة ثقافية لدعم المعرفة لمختلف فئات المجتمع في المملكة وهي تضع نصب عينها تلبية احتياجات المعلومات بما يتناسب مع أهدافها المرسومة . ومن بين الغايات الرئيسة التي تسعى المكتبة إلى تحقيقها الإسهام في تجميع وحفظ التراث العربي والإسلامي وبخاصة ما له علاقة بتاريخ المملكة والجزيرة العربية والملك عبدالعزيز على وجه الخصوص باعتباره موحد هذه المملكة وباني نهضتها ، وأيضاً باعتبار المكتبة تتشرف بحمل اسمه .

لذا عمدت المكتبة إلى تشييد قاعة خاصة أطلقت عليها " قاعة الملك عبدالعزيز " KING ABDULAZIZ HALL ، وبعد مرور عقد من الزمن على تأسيس تلك القاعة لوحظ تضخم موادها ، وصعوبة استرجاعها بدون الاستعانة بالتقنية الحديثة ، فكان التفكير في تصميم قاعدة تنطلق في تجميع موادها من تلك القاعة ، ومن المصادر الببليوجرافية الأخرى عن تاريخ المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبدالعزيز ، وأطلق على هذه القاعدة مسمى " قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز " KING ABDULAZIZ DATA BASE أو كما يطلق عليها اختصاراً " القاعدة " DLKING .

وتعد هذه القاعدة من الناحية العلمية قاعدة متخصصة تغطي جميع أشكال المواد التي تخدم موضوعاً متخصصاً (تاريخ الملك عبدالعزيز) ، وكل ما له صلة بالتطورات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية خلال فترة حكم الملك عبدالعزيز . كما تغطي القاعدة أيضاً كفاحه المرير - رحمه الله - في توحيد شبه الجزيرة العربية وتجديد البناء الشامخ لأسرة آل سعود .

وتحتوي القاعدة على مقالات الدوريات ، ومقالات الأعمال التجميعية ، وفصول من بعض الكتب المعاد طبعها ، وأعمال المؤتمرات ، والتقارير ، والمواد الأرشيفية ، والوثائق القديمة ، وغير ذلك من الكتب والرسائل الجامعية التي تحتوي على معلومات لها صلة بموضوع القاعدة .

ثانياً : الغرض من إنشاء القاعدة

تسعى قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز إلى تحقيق مجموعة أهداف من أهمها ما يلي :

١- توفير بيانات وصفية عن جميع ما صدر من وثائق عن تاريخ المملكة العربية السعودية وبخاصة في عهد الملك عبدالعزيز .

٢- توظيف التقنية الحديثة في تخزين أوعية المعلومات وتنظيمها واسترجاعها .

٣- الإسهام في توثيق تاريخ المملكة وفق استراتيجية شاملة وخطة مرسومة وفي ضوء منهجية تطبق معايير واضحة .

٤- مساعدة الباحثين في التعرف على المصادر التي تبين اتجاهات البحث في تخصصاتهم .

٥- تحسين الخدمات التي تقدمها مكتبة الملك عبدالعزيز العامة للمستفيدين .

٦- إرساء نواة للربط الشبكي مع الجهات المعنية بتوثيق تاريخ المملكة محلياً وخارجياً .

وتتمثل الفئات المستهدفة من خدمات القاعدة في جميع المهتمين بتاريخ المملكة والجزيرة العربية من طلاب وأساتذة وباحثين ومسؤولين وموظفين ومكتبيين وموثقين واختصاصي المعلومات وغيرهم .

ثالثا : الوضع الإداري للقاعدة

يتكون الهيكل التنظيمي لقاعدة معلومات الملك عبدالعزيز من :

- مدير القاعدة .
- المشرف الفني .
- المشرف التاريخي .
- المسؤول عن القسم العربي .
- المسؤول عن القسم الأجنبي .

إضافة إلى بعض الأفراد المتعاونين الذين تستعين بهم القاعدة من فترة لأخرى في حالات الضغوط على العمل .

ويقوم مدير القاعدة بتأدية وظائف عديدة من أهمها ما يلي :

١ . المشاركة في وضع السياسات .
٢ . التخطيط للعمل .
٣ . التنسيق بين المشرفين على القاعدة والعاملين فيها .
٤ . العمل كحلقة وصل بين العاملين في القاعدة وإدارة المكتبة .
٥ . الإسهام في تذليل ما قد يواجه العمل من صعوبات أو يعتوره من عقبات .

أما العاملون في القاعدة بقسميها العربي والأجنبي فتتمثل مهامهم في : تنفيذ خطط القاعدة وبرامجها وأهدافها المرسومة ، وتجميع المواد المتعلقة بالملك

عبدالعزيز - بوصفه موضوع القاعدة - وإجراء المعالجة الفنية على تلك المواد ، وتحميلها في القاعدة ، ومن ثم وضع الأوعية نفسها في قاعة الملك عبدالعزيز إذا كانت على شكل كتب ، أو في ملفات خاصة إذا كانت على شكل مقالات ونحوها .

والذين يعملون في القاعدة في الوقت الراهن من الاختصاصيين في المكتبات والمعلومات ، ولهم خلفية طيبة في معالجة الموضوعات التي تمس تاريخ المملكة اكتسبوها من الاطلاع والخبرة .

أما بالنسبة لمهام المشرف على القاعدة فتتمثل في قضايا عديدة من أبرزها النقاط الآتية :

١- دراسة الوضع الراهن للقاعدة ، والتعرف على المراحل التي تم إنجازها .
٢ - متابعة القاعدة ، والإشراف المستمر على نموها وتطورها .
٣- وضع استراتيجية للتعامل مع مواد القاعدة (مواد عادية ، مواد محدودة الإطلاع) .
٤ - التحقق من المعالجة الفنية لمحتويات القاعدة ، والاطلاع على التسجيلات الببليوجرافية قبل إدخالها في القاعدة .
٥ - إعداد تقارير دورية بشأن الخطوات التي تم إنجازها ، ودعمها بما يلزم من مقترحات لتعزيز القاعدة وتحسين واقعها .
٦ - إعداد نشرات إعلامية عن القاعدة بهدف توزيعها على المسؤولين والمستفيدين .
٧ - متابعة مشروع " مكنز الملك عبدالعزيز " ، الذي بدأ المسؤول عن القسم العربي في القاعدة بإعداده .

٨- ترتيب تجهيز مخرجات القاعدة في قوائم مطبوعة عند الحاجة ، ووضعها في خدمة المناسبات العلمية والثقافية والاجتماعية .

٩- إعداد الدراسات العلمية حول الضبط الببليوجرافي وتوثيق تاريخ الملك عبدالعزيز .

١٠- تنفيذ ما تقترحه مكتبة الملك عبدالعزيز العامة من مشروعات أخرى تخدم القاعدة .

رابعاً : بنية القاعدة وتجهيزاتها

تتوافر في كل من القسم العربي والقسم الأجنبي لقاعدة معلومات الملك عبدالعزيز بنية جيدة بها المواصفات المطلوبة من إضاءة وتهوية وتكييف وأثاث وأدوات وتجهيزات تساعد على إنجاز العمل .

وتعمل إدارة مكتبة المكتبة عبدالعزيز العامة - في ظل التوسعة الحالية للمبنى - على زيادة مساحة المكان المخصص للقاعدة بقسميها العربي والأجنبي ، مما يجعل القاعدة على استعداد للتعامل مع الأعداد الكبيرة من الوثائق ، وعلى استعداد لتلبية طلبات المستفيدين الذين يتوقع أن يزداد عددهم مستقبلا .

خامساً : تنمية المجموعات

من حسن الطالع أنه توجد سياسة مكتوبة لتنمية المجموعات المتعلقة بقاعدة معلومات الملك عبدالعزيز بقسميها العربي والأجنبي . ففيما يتعلق بالقسم العربي ، فتتمثل أهم بنود السياسة التي تحكم مسار تنمية مجموعاته في النقاط التالية :

١- **التجميع الراجع** ؛ ويتخذ هذا النوع من التزويد مسارين هما :

أ- التجميع الداخلي الذي ينقسم بدوره إلى :

- تجميع الكتب والمقالات الموجودة في مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، وفي ببليوجرافية فهد السماري الموسومة بـ : " ببليوجرافيا المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبدالعزيز " .
- تجميع الكتب والمقالات الموجودة في المكتبة نفسها ، لكنها غير موجودة في ببليوجرافية السماري .

ب- التجميع الخارجي الذي ينقسم بدوره إلى :

- تجميع الكتب والمقالات الموجودة في ببليوجرافية السماري ، ولا تتوافر في مكتبة الملك عبدالعزيز العامة .
- تجميع الكتب والمقالات غير الموجودة في ببليوجرافية السماري ، وذلك من خلال فرز الكشافات والببليوجرافيات الراجعة ، والزيارات الميدانية للمكتبات، والاطلاع الفاحص على بعض المجلات والصحف .

٢- **التجميع الجاري** ؛ ويتمثل هذا النمط من التزويد في حصر ما يصدر عن موضوع القاعدة بشكل دوري وذلك من خلال القنوات التالية :

- الاشتراك في الكشافات والببليوجرافيات الجارية .
- الاطلاع على قوائم الإضافات الحديثة للمكتبات .
- الزيارات المستمرة للمكتبات .
- الاتصال الدوري بدور النشر ذات العلاقة .
- تكشيف الدوريات ذات العلاقة بشكل مستمر .

كما وضع القسم الأجنبي لقاعدة معلومات الملك عبدالعزيز سياسة للاختيار وتنظيم المجموعات لتكون بمثابة أسس ترشد العاملين ، وترسم لهم الإجراءات المتبعة . وتتمثل أهم بنود تلك السياسة في المحاور التالية :

١- يحفظ الكتاب الذي يتناول تاريخ الملك عبدالعزيز بشكل مباشر أو يتناول التطورات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي حدثت في عهده في قاعة الملك عبدالعزيز بوصفها المصدر المساند للقاعدة أو المخزن الذي تحفظ به موادها وبخاصة الكتب .

٢- إذا كان الكتاب يحتوي على معلومات ذات صلة بالملك عبدالعزيز ، وكانت تلك المعلومات موزعة في أماكن متفرقة من الكتاب ، فيحفظ الكتاب في قاعة الملك عبدالعزيز .

٣- إذا كان جزء من الكتاب (أكثر من مقالتين أو فصلين) يحتوي على معلومات ذات صلة بموضوع القاعدة ، فيحفظ الكتاب في قاعة الملك عبدالعزيز ، وتصور المقالات أو الفصول أو الأجزاء ذات العلاقة ، وتحفظ بشكل مستقل في الملفات المخصصة لهذا الغرض ، مع تجهيز مداخل موضوعية (تحليلية) في القاعدة .

٤- إذا كان الكتاب يحتوي على مقالة واحدة (أو فصل واحد) فقط لها علاقة بموضوع القاعدة، فيتم استبعاده من قاعة الملك عبدالعزيز ، ويوضع مع المجموعات العامة للمكتبة ، أو مع أي مجموعات أخرى . وفي هذه الحالة تصور المقالة ذات العلاقة ، وتوضع في الملف الأرشيفي ، كما يوضع للمقالة مدخل في القاعدة .

٥- جميع كتب الرحلات المتعلقة بالجزيرة العربية خلال فترة الملك عبدالعزيز يتم حفظها في القاعة ، وما عدا ذلك من الكتب الاستطلاعية والاستكشافية وكتب الرحلات للفترة قبل أو بعد عهد الملك عبدالعزيز يتم استبعادها من القاعة .

٦- جميع الكتب التي تحتوي على وثائق قديمة (الوثائق البريطانية والأمريكية المتعلقة بالجزيرة العربية) التي نشرتها مؤسسة المطبوعات الأرشيفية بلندن ARCHIVES EDITIONS , LONDON يتم حفظها في قاعة الملك عبدالعزيز ، وتنظم بشكل مستقل .

٧- التقارير البريطانية والأمريكية المستقلة التي تظهر في مختلف مجموعات مؤسسة المطبوعات الأرشيفية ، وتغطي فترة حكم الملك عبدالعزيز ، وتحتوي على معلومات ذات علاقة بالموضوع يتم تصويرها وحفظها في الملفات الأرشيفية ، مع وضع مداخل لها في القاعدة .

٨- مقالات الصحف والمجلات التي تناولت الملك عبدالعزيز أو التطورات في الجزيرة العربية خلال فترة حكمه وموجودة في منشورات مؤسسة المطبوعات الأرشيفية ، يتم أيضاً تصويرها وتنظيمها مستقلة في الملفات ، مع وضع مداخل مستقلة لتلك المقالات .

٩- المعاهدات التي تمت في عهد الملك عبدالعزيز مع مختلف الدول والولايات في مختلف الموضوعات يتم تصويرها وحفظها في الملفات ، مع وضع مداخل موضوعية لكل معاهدة في القاعدة .

ومما سبق يتضح أن عملية تنمية مجموعات قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز تسير في مجملها بموجب خطة مرسومة من قبل إدارة المكتبة وفقاً لتوجهاتها العامة ، وبما يخدم الفئات المستهدفة من إنشاء القاعدة . وتتمحور تلك الخطة حول العناصر التالية :

- مسح ينطلق من قاعة الملك عبدالعزيز .

- التوسع في عملية المسح بحيث تشمل القوائم ، والمصادر الببليوجرافية الأخرى .
- الزيارات الميدانية لبعض الجهات في مدينة الرياض التي تمتلك مواد لها علاقة بموضوع القاعدة .
- محاولة الخروج عن نطاق الرياض إلى المدن الأخرى داخل المملكة وخارجها .
- استغلال القنوات الشخصية في بعض الأحيان (مثل زيارة بعض المهتمين بتاريخ المملكة لمكتبة الملك عبدالعزيز العامة) لتجميع مواد القاعدة .

وفيما يلي جدول يوضح حجم المجموعات العربية والأجنبية المتوافرة في قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز حتى منتصف شهر صفر لعام ١٤١٩هـ .

الجدول رقم (١٦)

بيان بحجم مجموعات قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز

أشكال المجموعات	باللغة العربية	باللغات الأجنبية
الكتب	٤٠٠	٦٥١
المقالات	١٣٥٠	١١٧٠
فصول الكتب والرسائل	١٢٠٠	١٦٣٠
أعمال المؤتمرات	٤٢	٢٧
الرسائل الجامعية	٤٠	٦٧
المجموع	٣٠٣٢	٣٥٤٥
المجموع الكلي	٦٥٧٧	

ويتضح من إلقاء نظرة على الجدول رقم (١٦) أنه يتوافر في القاعدة حالياً (٦٥٧٧) مادة، وهو رقم جيد في نظر الباحث ، ويدل على أن القاعدة قد نضجت، وأصبحت مهيأة للتعريف بخدماتها وتسويق فكرتها ، ووضعها تحت مجهر البحث والدرس من خلال مجموعة قنوات من بينها إصدار القوائم الببليوجرافية ، وإعداد الكشافات والمستخلصات والأدلة ونحوذلك من الأدوات التي تعرّف الفئات المستهدفة بمحتويات القاعدة .

كما أن الرقم المشار إليه (٦٥٧٧ وثيقة) مؤشر على أن القاعدة قد تجاوزت مرحلة التوثيق، وأصبحت مرشحة للدخول في مرحلة بث الخدمات ، فهو رقم مشجع ، وحافز على الانطلاق نحو عالم أرحب من عالم التوثيق بشكله التقليدي ، والرقم ذاته يعطي تبريراً كافياً للقيام بمشروع ببليوجرافية الملك عبدالعزيز التي يعمل الباحث حالياً - بالتعاون مع فريق عمل - على إعدادها بدعم من مكتبة الملك عبدالعزيز العامة وتحت إشرافها .

ينبغي الإشارة في هذا المقام إلى مجموعة من القضايا ذات العلاقة بتنمية مجموعات قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز وذلك على النحو الآتي :

- هناك مجموعات أخرى من الوثائق المتعلقة بتاريخ الملك عبدالعزيز ، والتي لا تزال قيد التجهيز .
- مجموعات القاعدة في نمو مستمر ؛ إذ إن سياسة المكتبة تقوم على محاولة جمع أكبر قدر ممكن من الوثائق التي تخدم موضوع القاعدة ، وتم تجنيد فريق عمل يتولى البحث عن تلك الوثائق في مظانها المختلفة .
- تم استبعاد بعض الكتب العربية والأجنبية من قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز .
- يبدو أن أعمال المؤتمرات المتعلقة بالملك عبدالعزيز تشكل الرقم الأدنى في القاعدة، إلا أن المكتبة جادة في تعزيز هذا الرقم حيث قامت بجهود كثيرة في

هذا المضمار من بينها ندب العاملين إلى بعض الدول لجلب أكبر عدد ممكن من تلك الأعمال التي تمثل أهمية كبيرة للباحثين والمهتمين بتاريخ المملكة .

جدير بالذكر أنه في بداية تكوين القاعدة كانت تستوعب كل الكتب ذات العلاقة بتاريخ المملكة والجزيرة العربية من قريب أو بعيد حتى لو كانت تحتوي على معلومات ضئيلة ، بينما في الآونة الأخيرة تغير اتجاه القاعدة بحيث أصبح محصوراً في ما له علاقة بفترة حكم الملك عبدالعزيز .

سادساً : المعالجة الفنية للقاعدة

تشمل المعالجة الفنية لقاعدة معلومات الملك عبدالعزيز الوصف المادي للأوعية وتحليلها موضوعياً . وتنقسم عملية الوصف المادي إلى فهرسة الكتب (التي صدرت في كيان مادي مستقل) ، والفهرسة التحليلية (لمقالات الدوريات وأجزاء الكتب وبحوث الندوات والمؤتمرات وغيرها مما صدر ضمن أعمال أخرى) . ويقوم قسم الفهرسة في مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بفهرسة الكتب ، بينما يقوم المسؤول عن القاعدة بفهرسة المقالات حيث صممت استمارة لهذا الغرض . ويتبع في تصنيف كتب القاعدة النظام نفسه المتبع في مجموعات المكتبة بشكل عام ، بينما تعطى المقالات رؤوس موضوعات عريضة وفق نظام الفئات الموضوعية المتبع في قسم الفهرسة .

وتتفاوت أساليب المعالجة الفنية لمحتويات القاعدة وفقاً للغة ، وذلك على النحو التالي :

١ـ يستخدم القسم العربي قواعد الفهرسة الأنجلو - أمريكية في الفهرسة الوصفية . أما فيما يتعلق بالفهرسة الموضوعية فحيث إن قوائم رؤوس الموضوعات العربية المتوافرة تتصف بالعمومية التي لا تتفق مع خصوصية

مجموعات القاعدة ، فقد قام القسم العربي بعمل نواة لمكنز خاص يضم ما يقرب من (٤٠٠٠) واصفة لما صدر عن الملك عبدالعزيز من بحوث ودراسات ، وبما يتناسب مع عمق وتخصص الكتابات الصادرة في المجال ، ومع الاتجاه الذي تسير عليه القاعدة في تحليل موادها . وتم بالفعل استخدام هذا المكنز في تحليل الكتب والمقالات التي تضمها القاعدة .

٢ ـ يعامل القسم الأجنبي الكتب والأعمال المستقلة تصنيفاً وفهرسة معاملة الكتب العادية ، مع إضافة واصفات موضوعية لمحتويات الكتب ، ومن ثم حفظها في قاعة الملك عبدالعزيز . ويتم تحميلها في القاعدة الرئيسة للمكتبة ، مع إعطائها الحرف "K" كرمز للموقع يعبر عن المجموعات المتخصصة عن الملك عبدالعزيز . وبالنسبة لبقية الوثائق (المقالات ، الفصول ، أعمال المؤتمرات ، النشرات ، والكتب المعاد طبعها) يتم تصويرها وحفظها في ملفات مرتبة وفقا لنظام محلي تم تطويره في المكتبة . ومن ثم يتم تحميلها في قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز . ويتم إعطاء بيانات ببليوجرافية كاملة لكل مادة يتم إدراجها في القاعدة .

وقد تم تطوير نظام محلي للتصنيف بغرض معالجة المواد موضوعياً ، ويحتوي هذا النظام على رقم يعبر عن فئة الوثيقة الأساسية متبوعاً بشفرة CODE موضوعة بعد شرطة لتلك الوثيقة ، مقسماً برقم السلسلة للجزء (المقالات وغيرها) . وكل مصدر رئيس يحتوي على الجزء يعطى رقم مسلسل تحت الفئات الرئيسة التالية :

- مقالات الدوريات .
- نشرات الأخبار في الصحف اليومية .
- المقالات المستقلة والفصول وأجزاء الكتب .

- أعمال المؤتمرات والاجتماعات .
- البحوث غير المنشورة .
- مواد أخرى .

ولا يتوافر في القسم الأجنبي لقاعدة الملك عبدالعزيز حالياً مكنز يمكن الاستئناس به في تحديد الواصفات ـ كما الحال في القسم العربي ـ ليكون رافداً لتحديد الواصفات ، وسنداً لتقنين المعالجة الموضوعية . إذ إن المكنز يعزز من استخدام القاعدة ، ويرفع من كفاءة استرجاع المعلومات . ويرى الباحث أن تسعى المكتبة إلى طباعة المكنز العربي ونشره لتعم فائدته الجميع ، بعد أن يخضع لتحكيم مفرداته من قبل لجنة من الاختصاصيين ، وتوافق اللجنة على صلاحيته للنشر .

وتستخدم قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز حزمة برامج مينايسز MINISIS في تخزين السجلات الببليوجرافية واسترجاعها ، ويتوافق هذا البرنامج مع حزمة البرامج المستخدمة في القاعدة الأم في المكتبة . ولذا فإن البحث في القاعدة متشابه إلى حد كبير مع البحث في بقية قواعد المكتبة ، أو أي قواعد أخرى تستخدم نفس الحزمة المشار إليها . ويمكن استخدام روابط المنطق البوليني لربط أكثر من موضوع معاً ، ويمكن البحث في قاعدة الملك عبدالعزيز من خلال نقاط عديدة من بينها : المؤلف ، والعنوان ، والفئة الموضوعية ، وتاريخ النشر ، واسم الدورية أو المؤتمر ، والواصفات .

يحسن التنويه هنا إلى أن قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز تستخدم نظام الفئات الموضوعية المستخدم في القاعدة العامة لمكتبة الملك عبدالعزيز العامة

وذلك بهدف تجميع المواد ذات الصلة بموضوع واسع (التعليم مثلاً) معاً .
وتتلخص استراتيجية البحث في القاعدة في خطوات واضحة على النحو التالي :

- الدخول على الشاشة الرئيسة لقواعد المعلومات في المكتبة .
- اختيار الرقم (٤) للدخول على قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز .
- تسجيل رمز الاستدعاء .
- التوجه إلى مخزن الأوعية المرتب بحسب الرمز .
- الاطلاع على الوثيقة أو تصويرها .

ورمز الاستدعاء عبارة عن رقم يربط التسجيلة الببليوجرافية بالمادة الممثلة لها في مخزن الأوعية ، وقد روعي فيه البساطة وسهولة التذكر . ورموز الاستدعاء على نوعين :

١- رمز استدعاء خاص بالكتب ؛ ويتكون من البيانات نفسها التي تعطى لبقية كتب المكتبة المتمثلة في رقم تصنيف الكتاب وحروف المؤلف والعنوان .
٢- رمز استدعاء للأوعية غير الكتب ؛ حيث يخصص لكل فئة من الأوعية رقم معين على النحو التالي :
   - الدوريات تأخذ الرقم (١) .
   - المستلات تأخذ الرقم (٢) .
   - أعمال المؤتمرات تأخذ الرقم (٣) .
   - أجزاء الكتب تأخذ الرقم (٤) .

ومن ثم تعطى كل مادة رقم مسلسل تحت فئتها ، ويأخذ كل مقال في الدورية - رقماً مسلسلاً حسب وروده تحت دوريته .

وفيما يلي نموذج - مستل من القاعدة - لبعض المواد العربية المخزنة .

060-1
35 العوشن ، عبدالرحمن
أضواء على قصر المربع : الصرح المعماري الشامخ الذي شيده الملك عبدالعزيز بالرياض / إعداد عبدالرحمن العوشن . ـ " الحرس الوطني " . ـ س ٩، ع ٧٢ (صفر ١٤٠٩ ـ سبتمبر ١٩٨٨) ـ ص ص ٣٤ـ ٣٥ .

060-1
67 في متحف الملك عبدالعزيز الحربي : [حوار صحفي] / عبدالعزيز عبدالله الدغيم ؛ تحقيق عبدالرحمن عبدالله السعيد ، بركات بلة الأمين ؛ تصوير محيي المغربي . ـ" الحرس الوطني " . ـ س ٥ ، ع ١٨ (شعبان ١٤٠٤ـ مايو ١٩٨٤) ـ ص ص ٤٢ ـ ٤٧ .

٠٧١,٩٥٣١
ح ع ت حافظ ، عثمان
تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية / عثمان حافظ . ـ جدة : شركة المدينة للطباعة ، [- ١٩٨]
٤٩٩ ص ، ٢٤ سم

٠٧١,٩٥٣١
ش م ن الشامخ ، محمد عبدالرحمن
نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية / تأليف محمد عبدالرحمن الشامخ . ط١ . ـ الرياض : دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢ .
٢٤٠ ص ، ٤٢ سم

ونموذج آخر ـ مستل من القاعدة ـ لبعض المواد الأجنبية المخزنة .

350-1
2 SHAMEKH, MUHAMMAD ABDUL-RAHMAN
JOURNALISM IN SAUDI ARABIA: A HISTORICAL ANALYSIS/ BY MUHAMMAD ABDUL-RAHMAN SHAMEKH.
P. 301 .
IN : JOURNAL OF THE GULF AND ARABIAN PENINSULA STUDIES.
VOL. 1 NO. 3 (1975) .

1-620
7 FARSI, FUAD A.
FLOW OF INFORMATION IN THIRLD WORLD COUNTRIES/ BY DR. FUAD A. FARSI .
P. 37 - 38 .
COURTESY : SAUDIGAZETTE
IN : INDO- ARAB STAR VOL. 1 NO. 3 (1979) .

K016.387109536
D. H. P. DODGEON, H.
PORTS OF THE ARABIAN PENINSULA : A GUIDE TO THE LITERATURE/ COMPILED BY H. DODGEON AND A. M. FINDLAY.- DURHAM : UNIVERSITY OF DURHAM, 1979.
II, 49 P. ; 24 CM.- (UNIVERSITY OF DURHAM. CENTRE FOR MIDDLE EASTERN AND ISLAMIC STUDIES. OCCASIONAL PAPERS SERIES; NO.7).
INCLUDES INDEX

9952

K016.953
A. P. E. THE ARABIAN PENINSULA : A SELECTED ANNOTATED LIST OF PERIODICALS, BOOKS AND ARTICLES IN ENGLISH/ PREPARED UNDER THE DIRECTION OF THE NEAR EAST SECTION, DIVISION OF ORIENTATION .- WASHINGTON, D. C.: LIBRARY OF CONGRESS, 1951
XI, 111P. : MIMEOGRAPHED

7385

كما يرتبط بقاعدة معلومات الملك عبدالعزيز مخزن للأوعية (أرشيف) لحفظ صور المقالات حيث إن ما يميز القاعدة هو أن كل موادها تحظى بالسند الأدبي ، وهي ميزة قلما نجدها في القواعد الأخرى التي تكتفي في الغالب بالوصف المادي للأوعية دون أن تكلف نفسها مهمة توفير الوعاء نفسه بل إنها تترك هذه المهمة على عاتق المستفيد . ويقوم المسؤول عن القاعدة بترتيب صور المقالات في المخزن المعد لذلك (الأرشيف) حسب رمز الاستدعاء الخاص بكل فئة (مكتبة الملك عبدالعزيز العامة : ١٤١٧ ، ص : ٨ـ ٩) .

سابعاً : خدمات المستفيدين من القاعدة

تعد قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز مصدراً مهماً وأساسياً لدراسة تاريخ المملكة العربية السعودية والجزيرة العربية بشكل عام ، وتاريخ الملك عبدالعزيز والتطورات التي حدثت في عهده بشكل خاص . فالقاعدة تمثل دعامة للبحث العلمي ، ورافداً للباحثين ، وسنداً للمؤرخين والموثقين الذين يهمهم أن يجدوا في مصدر واحد أهم ما كتب عن هذه الشخصية العظيمة . ومن الاطلاع الفاحص على محتويات القاعدة ثبت أنها تحتوي على أوعية تعالج جوانب ونشاطات عديدة لحياة هذا البطل وجهاده وللتطورات التي حدثت في المملكة في عهده .

وأعتقد أن كثيراً من الباحثين بحاجة ماسة إلى هذه المادة العلمية الغزيرة . وإذا أخذ في الحسبان أن أي مركز معلومات يقوم بثلاث مهام أو وظائف رئيسة تتمثل في الآتي :

١ ـ الاقتناء أو الحصول على مصادر المعلومات .

٢ ـ تنظيم تلك المصادر ، وإجراء المعالجة الفنية اللازمة .

٣ ـ بث المعلومات ، وتقديم الخدمات للفئات المستهدفة .

لوجدنا أن مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ـ المؤسسة الأم التي تحتضن القاعدة ـ قد قطعت شوطاً طيباً في تنفيذ الوظيفتين الأوليتين ، وآن الآوان لتنفيذ الوظيفة الثالثة ، لاسيما أن خدمات المعلومات هي واجهة المكتبة ، وهي المحك الحقيقي للحكم على نجاحها ، ولتقديرها في عيون مستفيديها وكسب رضاهم .

ويرى الباحث أن مفهوم خدمات المستفيدين USERS SERVICES المرتبط بالقاعدة ينبغي أن يتسع بحيث يتخذ مسارات متنوعة من بينها :

١ـ الخدمات المرجعية :

وتتمثل في الرد على الأسئلة والاستفسارات التي يطرحها المستفيدون من الأفراد والمؤسسات على المسؤولين عن القاعدة بقسميها العربي والأجنبي حيث يجاب عنها في ضوء ما يتوافر من مصادر مرجعية في القاعدة .

٢ـ خدمات الإتاحة :

ويقصد بها جعل محتويات القاعدة متاحة للاستخدام ، وتحقيق الفائدة المرجوة منها من خلال الاطلاع الداخلي .

٣ـ الإعارة الخارجية :

التي ينبغي أن توضع لها لوائح تنظمها من حيث الكمية ، والمدة ، والفئات التي يسمح لها بالإعارة ، وغرامات التأخير ، ونحو ذلك من التشريعات التي تضبط العملية .

٤ـ خدمات التصوير :

وذلك من خلال تلبية طلبات الباحثين بخصوص الحصول على صور للوثائق الموجودة في القاعدة مقابل رسوم رمزية لتغطية تكاليف الأجهزة والورق والمعدات .

٥ـ إعداد القوائم الببليوجرافية :

ويمكن تحقيق هذا النوع من الخدمات عن طريق طباعة نسخ ورقية من مستخرجات القاعدة PRINT OUT وتقديمها لطالبيها من المستفيدين .

٦ـ خدمات الإحاطة الجارية :

بحيث يتم إصدار نشرات CURRENT AWARENESS BULLETINS بما يضاف للقاعدة من مواد جديدة، وتوزيعها على المهتمين بتاريخ المملكة والملك عبدالعزيز من أفراد ومؤسسات ، مما يوسع نطاق الإفادة المرجوة ، ويعزز مبدأ " المعلومات للجميع " .

والهدف النهائي الذي ينبغي أن تسعى القاعدة إلى تحقيقه هو هدف المؤسسة الأم نفسها المتمثل في تقديم المعلومات المناسبة بالشكل المناسب للشخص المناسب وفي الوقت المناسب . وهو أيضاً الهدف الذي ينطبق على مؤسسات المعلومات ومرافقها على إطلاقها .

والواقع أن قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز لم تتح بعد (حتى تاريخ إعداد هذه الدراسة) للاستخدام العام ، وهذا أمر طبيعي حيث إن التجربة لا زالت في بدايتها ، ولعل هذا يعكس حرص المسؤولين في مكتبة الملك عبدالعزيز العامة على ألا تعمم الخدمات إلا بعد الاطمئنان على اكتمال القاعدة .

ويؤيد الباحث مبدأ عدم التسرع في وضع القاعدة في خدمة المستفيدين ، وجعلها متاحة للبحث العام إلا بعد المرور بالخطوات التالية :

١ـ اكتمال التجهيزات الضرورية من طرفيات وغيرها .

٢ـ فرز المجموعات ، وتحديد مدى عموميتها ، وسبل الاستفادة منها .

٣ـ وضع لائحة تحدد فئات المستفيدين .

٤ ـ إرسال نشرات للفئات المستفيدة بهدف تعريفها بالقاعدة ، وتوضيح استراتيجية البحث فيها .

٥ ـ وضع لائحة تحدد أنواع الخدمات المتاحة ، والضوابط التي تحكم الحصول عليها .

٦ ـ وضع اللوحات الإرشادية التي تشرح للمستفيدين كيفية التعامل مع القاعدة .

٧ـ وضع سياسة مكتوبة لتقديم الخدمات بناء على معايير علمية تبعد العاملين في القاعدة عن الحرج وتعفيهم من الاجتهاد الشخصي .

٨ـ وضع استراتيجية واضحة للتعاون والتنسيق مع الجهات الأخرى المعنية بموضوع القاعدة وذلك بهدف تبادل المعلومات والخبرات والاستشارات ، والحد من التكرار والازدواجية في الجهود المبذولة ، وتبادل إعارة المواد ، وتدريب العاملين في القاعدة ونحو ذلك من المجالات التعاونية المثمرة .

ويقترح أن يتم التدرج في تقديم خدمات قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز للمستفيدين على مراحل ومستويات ، وذلك على النحو الآتي :

١ـ المرحلة الأولى (المرحلة المحلية) :

في هذه المرحلة تكون الخدمات مقصورة على الفئات الجادة من أساتذة الجامعات وطلبة الدراسات العليا وكبار الباحثين ، وعلى من يستطيعون الحضور لمقر المكتبة للتعامل مع القاعدة وجهاً لوجه (أو من خلال الوسيط) تمهيداً لدراسة التجربة ، وتقويم ما قد يعتورها من عقبات .

٢ ـ المرحلة الثانية (المرحلة الوطنية) :

في هذه المرحلة لا تكون الخدمات مقصورة على من يستطيعون الحضور لمقر المكتبة بل تمتد لتشمل المستفيدين في أماكن عملهم بحيث تصبح القاعدة

نواة لشبكة معلومات عن الملك عبدالعزيز ترتبط بها الجهات المعنية بتاريخ المملكة (دارة الملك عبدالعزيز ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، الجامعات السعودية . . . إلخ) من خلال النهايات الطرفية .

٣ـ المرحلة الثالثة (المرحلة الإقليمية) :

في هذه المرحلة يتم التوسع في الربط الشبكي بحيث يكون متاحاً للمؤسسات المعنية في دول الخليج والعالم العربي والإسلامي .

٤ـ المرحلة الرابعة (مرحلة العالمية) :

في هذه المرحلة تخرج القاعدة من النطاق الإقليمي إلى النطاق العالمي بالمفهوم الرحب للعالمية بحيث يتم تحميل القاعدة في الشبكات العالمية مثل الإنترنت وغيرها ، وتكون محتوياتها ملكاً للجميع أينما كانوا .

ويؤمل بعد تجاوز مرحلة تعميم الخدمات ، المرور بمرحلة إجراء الدراسات التقويمية EVALUATION STUDIES بهدف التعرف على مدى تلبية القاعدة لاحتياجات المستفيدين ، والكشف عمّا تتسم به من نقاط القوة ومواطن الضعف ، ومحاولة تحسينها وتطويرها بالأسلوب الذي يساعد على كسب رضا المستفيدين .

ثامناً : قاعة الملك عبدالعزيز

من الصعب التعريف بالوضع الراهن لقاعدة معلومات الملك عبدالعزيز بمعزل عن قاعة الملك عبدالعزيز ؛ نظراً لوجود ترابط وثيق بين هذين المصدرين . ذلك أن الهدف من إنشاء هذه القاعة هو أن تكون مركزاً لتجميع الكتب المتعلقة بتاريخ المملكة والجزيرة العربية بشكل عام والملك عبدالعزيز بشكل خاص ، وتقديم الاستشارات العلمية ، وتوفير المصادر والمراجع للأفراد والجهات . وهي أيضاً أداة مساندة لخدمات المكتبة ورمزاً تذكارياً بارزاً .

وقد انبنت فكرة إنشاء قاعة الملك عبدالعزيز من الأهمية العظيمة للملك عبدالعزيز في تاريخ الجزيرة العربية بشكل عام، وتاريخ المملكة بشكل خاص ، حيث قررت المكتبة إنشاء وتطوير جناح مستقل مخصص تماماً لتقديم الأوعية الوثائقية عن الملك عبدالعزيز ، وأطلقت عليه المجموعة المتخصصة بالملك عبدالعزيز KING ABDULAZIZ SPECIAL COLLECTION أو قاعة الملك عبدالعزيز KING ABDULAZIZ HALL .

وينظر إلى تلك القاعة على أنها مصدر حيوي للمهتمين بالتاريخ المحلي ، ومركز رئيس للمعلومات التي تتناول الملك عبدالعزيز . وفي الوقت الراهن فإن الاطلاع على محتويات قاعة الملك عبدالعزيز مقصور على فئة الباحثين . ويمكن لهؤلاء الباحثين الحصول على محتويات القاعة من خلال الوسيط (المسؤول عن القسم العربي أو الأجنبي في قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز) .

لقد أتيحت لمعد هذه الدراسة فرصة الاطلاع الفاحص على محتويات القاعة، وقام بإجراء مسح ميداني لمجموعاتها وتجهيزاتها ومصادرها ، فكانت نتيجة الدراسة المسحية على النحو التالي :

- تمتاز قاعة الملك عبدالعزيز بالتجهيزات المناسبة التي تساعد على حفظ المواد في حالة جيدة ، وهي منظمة بشكل ييسر استرجاع محتوياتها ، وبخاصة المواد الأجنبية .

- كمية الكتب الأجنبية المتوافرة في القاعة تفوق كمية الكتب العربية . وهذا أمر طبيعي إذا أخذ في الحسبان أن اهتمام الكتّاب والرحالة الأجانب بتاريخ المملكة والجزيرة العربية والملك عبدالعزيز سابق لاهتمام العرب ومتفوق عليه . ويؤيد هذه الحقيقة المعطيات التي كشف عنها الجدول رقم (٢) في الفصل الثالث حيث أعطى عرضاً لجهود الضبط الببليوجرافي السابقة وفقاً لتاريخ نشرها وثبت أن الإنتاج الفكري الأجنبي أقدم من نظيره العربي .

- يتوافر في القاعة كميات ضخمة من الوثائق التي تتناول الرحلات والتطور الاجتماعي والسياسي للمملكة ، وبخاصة ما له علاقة بالملك عبدالعزيز وحياته وكفاحه وجهوده الاجتماعية والسياسية في توحيد جزيرة العرب وإعادة المجد التليد إلى أسرة آل سعود .

وقد وجد الباحث من بين محتويات قاعة الملك عبدالعزيز مجموعة طيبة من الأفلام المصغرة من بينها (٢٠١٠) بطاقة مصغرة MICROFICHES ، و (٣٦٠) فيلماً MICROFILMS . تمثل المجموعة الأولى أطروحات الطلبة السعوديين المجازة من الجامعات الأمريكية ، بينما تمثل المجموعة الثانية مصادر وثائقية من الأرشيفات البريطانية والأمريكية (التي تحتفظ بها دار الوثائق بالحكومة المركزية الأمريكية) المتعلقة بالشؤون الداخلية والخارجية للمملكة للفترة بين ١٩٤٥ ـ ١٩٥٩ . ولتلك الملفات علاقة أيضاً بالأمن القومي لمنطقة الشرق الأوسط إبان حكم الرئيس ليندون جونسون للفترة بين ١٩٦٣ـ١٩٦٩ ، ودراسات خاصة عن الشرق الأوسط للفترة بين ١٩٨٥ ـ١٩٨٨ . كما تشتمل الوثائق نفسها على برقيات وتعليمات واستكشافات ومذكرات وتقارير وترجمات ومراسلات رسمية وغير رسمية .

ويحسب لمكتبة الملك عبدالعزيز العامة أنها قد أصدرت دليلاً مطبوعاً بعنوان : " الدليل الببليوجرافي للمصغرات الفيلمية " BIBLIOGRAPHICAL GUIDE TO MICROFILM RESOURCES يحصر المواد المصغرة الموجودة في قاعة الملك عبدالعزيز ، ويسهل الرجوع إليها ، وقد رتبت مداخل الدليل حسب ورودها في الأفلام المصغرة ، وخصص لكل مدخل رقم مسلسل . كما ألحق بالدليل في نهايته كشاف بجميع الكلمات الدالة الواردة في الملفات ، وأمام كل مدخل رقم يحيل إلى مدخل الوثيقة بالدليل ، وأعطي في نهاية كل مادة في الدليل رقم بكرة الفيلم ليسهل استرجاعه .

وقد اطلع الباحث على الدليل المذكور فوجده غزيراً في مادته العلمية ، جيداً في إخراجه ، وحبذا لو تم تسويقه مستقبلاً من خلال وضعه في متناول المستفيدين لتعم فائدته الآخرين بدلاً من كونه متاحاً في الوقت الراهن لأشخاص محدودين من العاملين في المكتبة . وحبذا أيضاً لو تم تصوير تلك الأفلام المصغرة على شكل ورقي يريح المستفيدين في استخدامها ، خاصة إذا أخذ في الحسبان أن تلك الأفلام تحتوي على مصادر تاريخية مهمة تتعلق بالجزيرة العربية والمملكة بشكل خاص . ولاشك أن القارىء العربي يفتقر إلى هذا الدليل وأمثاله ، كما أن المكتبة العربية تشتكي من ندرة الأدوات الاسترجاعية الموجهة نحو الأشكال المصغرة .

بقي أن نشير إلى أن قاعة الملك عبدالعزيز تمثل الرافد الأساس لتغذية قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز - وبخاصة في بداياتها - ومادتها الأولى التي تستقي منها محتوياتها . إلا أن قنوات التزويد للقاعدة قد تشعبت في الآونة الأخيرة مع طموحات القائمين عليها بحيث أصبحت تضم أكبر عدد يمكن جمعه عن المؤلفات المتعلقة بالملك عبدالعزيز بغض النظر عن أماكن تواجد تلك المؤلفات .

ثمة حقيقة أخرى ينبغي الإشارة إليها وهي أن هذه القاعة تحظى بعناية فائقة من قبل المسؤولين بما يتناسب مع أهميتها ، ومع القيمة العلمية والتاريخية لمقتنياتها . وقد لمس الباحث أثر تلك العناية في مظاهر عديدة من بينها تخصيص قاعة كبيرة في المكتبة لحفظ الوثائق المتعلقة بتاريخ الملك عبدالعزيز ، وتجهيز هذه القاعة بكل ما يلزمها من أثاث ومستلزمات ، والتعاون مع صفوة الخبراء الاختصاصيين للإسهام في تطوير القاعة وزيادة نموها وتحسين وضعها الراهن .

تاسعاً : الخلاصة

وعلى أية حال ، فإن قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز قد انطلقت من فلسفة مضمونها أن توثيق تاريخ المملكة وحصر الإنتاج الفكري في المجال ينبغي ألا يترك

للاجتهادات الفردية بل ينبغي أن يخضع لقواعد علمية منظمة قائمة على تسخير التطورات التقنية التي نشهدها اليوم ، واستثمار إمكانات الحاسوب في مشروعات الحصر الببليوجرافي . من هذا المنطلق فإن القاعدة تمثل مشروعاً علمياً له خصوصيته، وهو يدعم دور مكتبة الملك عبدالعزيز العامة في تحقيق التراث الوطني، ويؤكد اهتمامها بهذا الجانب الحيوي المهم . كما أنه مشروع قد انطلق أصلاً من منهجية واضحة تراعي جوانب عديدة في استقاء المادة العلمية وفحصها مما يضفي على القاعدة خصوصية وتميزاً قد لا يتوافر في مثيلاتها من القواعد الأخرى . بل إن طموحات القائمين على مشروع القاعدة لم تقف عند حدود توثيق المواد المتعلقة بتاريخ الملك عبدالعزيز بل تجاوزت ذلك إلى بناء منظومة تسهم في السيطرة الببليوجرافية على تلك المواد ، وإخضاعها لاستراتيجية شمولية تمتاز بوضوح الرؤية في عمليات التجميع والمعالجة الفنية والإدخال والاسترجاع ، فضلاً عن الاطلاع المباشر على الوثائق نفسها قبل اعتمادها وتحميلها في النظام بهدف التأكد من مجالها الموضوعي .

إن توظيف تقنية الحاسوب في الضبط الببليوجرافي لما صدر من أدبيات يمثل ثمرة من ثمرات الإفادة من تقنية العصر التي أوجدت فرصاً عظيمة فيما يتعلق بالوصول إلى المعلومات وتبادلها . ولم تكن تلك الفرص متاحة من قبل عندما كانت عملية الضبط تتم يدويا ، وكانت السجلات الببليوجرافية BIBLIOGRAPHIC RECORDS تتم تقليدياً . ويشهد الوقت الراهن العديد من التقنيات الجديدة الواعدة التي يؤمل أن تفتح مجالات جديدة في تنظيم المجموعات وإدارتها . وقد تم في الدول المتقدمة تسخير التطورات الحديثة لصالح الضبط والحصر في مختلف مجالات المعرفة ومن بينها - على سبيل المثال - مجال الزراعة . وفي هذا السياق تشير ساره توماس SARAH THOMAS في مقالتها بعنوان : " الضبط الببليوجرافي والزراعة " BIBLIOGRAPHIC CONTROL AND AGRICULTURE

إلى أن من بين الوسائل التقنية العصرية التي تم استخدامها في توثيق المجال الزراعي تقنيات المسح SCANNING ، والتعرف على الحروف ضوئياً OPTICAL CHARACTER RECOGNITION ، والنظم الخبيرة EXPERT SYSTEMS التي تستخدم للسيطرة على المعلومات ومعالجتها بشكل أكثر فاعلية . ومما يعزز من مستقبل الضبط نظم الاسترجاع RETRIEVAL SOFTWARE ومخرجات الأقراص المليزرة CD - ROM PRODUCTS . وتجرى حالياً مجموعة من الدراسات التي تهدف إلى تقويم تطبيقات التقنية الحديثة المشار إليها (THOMAS : 1990 ، 559) .

وقد لاحظ الباحث من واقع خبراته ومعايشته للواقع أن هناك بعض القضايا التي قد تثار على القاعدة ، ومن أبرز تلك القضايا على سبيل المثال أنه يتم حالياً تخصيص عشر واصفات على الأقل تعبر عن محتويات كل كتاب يتم تحميله في القاعدة . وتكمن المشكلة هنا في أن كثيراً من الكتب تشتمل على مصطلحات مختلفة للتعبير عن أحداث ووقائع متشابهة . وبدون الاعتماد على المصادر المناسبة التي تحتوي على مصطلحات تتعلق بنشاطات متعددة حول الملك عبدالعزيز فيظل عدم توحيد الواصفات في القاعدة مشكلة قائمة . ومن الممكن حل هذه المشكلة ـ وبخاصة في القسم الأجنبي ـ من خلال إعداد مكنز يحتوي على كل المصطلحات المتعلقة بالملك عبدالعزيز المستخدمة في مشروع القاعدة وذلك بهدف توحيد الواصفات .

كما أن من بين القضايا التي يمكن إثارتها في هذا الصدد أنه يتوافر في القسم الأجنبي للقاعدة حوالي (٣٢٠٠) رسالة جامعية على ميكروفيش حصلت عليها المكتبة من الملحقية السعودية بواشنطن ، وهي تمثل الأطروحات التي قدمها الطلبة السعوديون للجامعات الأمريكية . وتحتوي تلك المواد على بحوث تتعلق بالمملكة ، وهي في الغالب مطلوبة ومرغوبة من قبل الباحثين . ومن الملاحظ أن

بعض تلك الأطروحات تحتوي على معلومات مهمة عن الملك عبدالعزيز ، بيد أنها موجودة في أشكال مصغرة (ميكروفيلمية) قد لا تكون مريحة للقارىء العادي الذي اعتاد على استخدام المواد في أشكال تقليدية . الأمر الذي يوحي بأهمية تصوير تلك الرسائل وجعلها متاحة في الشكل العادي الذي يرتاح له القارىء ، وتجليدها على شكل كتاب ، ومن ثم معالجتها فنياً ، وتحميلها في القاعدة .

وإدراكا من المسؤولين بأن تغذية القاعدة وتنمية مجموعاتها من خلال القنوات الرسمية التقليدية قد لا تكون كافية لبناء المجموعات بالشكل المطلوب وبالتالي فلابد من تعزيزها ومساندتها بقنوات أخرى مثل الزيارات الميدانية للجهات المعنية بتاريخ المملكة التي تمتلك مواد تتعلق بالحياة والتطورات في عهد الملك عبدالعزيز فقد نشطت في الآونة الأخيرة حركة ندب العاملين في القاعدة إلى الجهات ذات العلاقة، وبخاصة مكتبات الجامعات التي تضم أقساما للتاريخ ، وبعض السفارات مثل السفارة الروسية التي تحتفظ بإرشيف يخدم اهتمام القاعدة ، وأيضاً بعض مكتبات الدول العربية وبخاصة جمهورية مصر العربية التي يوجد بها الكثير من الوثائق التي تهم القاعدة مثل الصحافة التي صدرت في عهد الملك عبدالعزيز .

علاوة على أن مكتبة الملك عبدالعزيز العامة قد قامت مشكورة بتطوير نظام محلي لحفظ ملفات المقالات وفصول الكتب، وحبذا لو تم تطوير نظام آخر لحفظ القصاصات الصحفية التي لا ترقى في حجمها إلى حجم المقالات مثل المكاتبات والمخاطبات والمراسلات والخطب والكلمات ونحوها . ويمكن الاستئناس في هذا الصدد بتجربة المؤسسات الصحفية ، ومكتبة جامعة الملك سعود ، ووزارة الإعلام وغيرها من المؤسسات التي لديها سابق تجربة مع النظام الأرشيفي للقصاصات الصحفية .

لعلنا نخرج من العرض السابق بأن قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز التي تبنتها ورعتها مكتبة الملك عبدالعزيز العامة قد اتخذت مسارين :

- أحدهما : المسار الفني الذي يتولاه المسؤولان عن القسمين العربي والأجنبي ، وقد ترعرع هذا المسار ونضج ، ويؤمل أن يزداد نضجاً ونمواً مع الأيام طالما استمرت عملية تنمية المجموعات ، وطالما وجد إنتاج عن الملك عبدالعزيز .

- والآخر : المسار الأكاديمي الذي يتعلق بمنتجات القاعدة العلمية أو الأكاديمية الموجهة للمستفيدين ، وهو قد لا يكون بالصورة المطلوبة . إلا أنه على أية حال تتوافر في الوقت الراهن نقطة جيدة لانطلاق هذا المسار بعد أن نمت القاعدة فنياً ، واستطاعت أن تقف على أرض صلبة .

وينبغي ألا ننسى أن التجربة لا زالت في بداية الطريق ، بيد أنها تظل مشروعاً رائداً وجهداً ببليوجرافياً طموحاً يشهد للمكتبة بالسبق ، وهي - على حد علم الباحث - أول تجربة من نوعها تنفذ تحت مظلة منهجية ، وتحت رعاية مؤسسة لها اهتمام بارز بتحقيق التراث الوطني وبناء منظومة تسهم في توثيق هذا التراث ، ومشهود لهذه المؤسسة بحرصها على عدم التسرع في إنتاج وإخراج الأعمال العلمية إلا بعد نضوجها والتزامها بالمنهجية . ولاشك أن مما يدعم مشروع القاعدة كونه يتحرك تحت مظلة هذه المؤسسة التي تعزز من تطوره على مرور الأيام . ذلك أن المشروعات المؤسساتية - على خلاف المشروعات الفردية - تتصف عادة بالديمومة والفاعلية والاستمرار .

ويحسب أيضاً لمشروع القاعدة الذي تبنته مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ما يمتاز به من خصوصية قلما نجدها في المحاولات السابقة التي كانت تكتفي بمجرد الحصر وتترك مهمة الحصول على الوثيقة نفسها على عاتق المستفيد الذي يجب أن يتجشم مشقة البحث والتنقيب بنفسه ، في حين أن المكتبة المذكورة قد وضعت الوثيقة نفسها بين يدي المستفيد وجعلتها في متناوله . الأمر الذي ينسجم مع المفهوم الجديد لخدمات المستفيدين ، ويسهم في تعزيز النظام الوطني للمعلومات في المملكة ، ويضيف لبنة إلى لبنات البنية والتجهيزات الأساسية للضبط الببليوجرافي في هذا البلد .

الفصل الخامس

الخاتمة

مقدمة :

يحظى تاريخ الرجال العظماء بأهمية مميزة ، ويأتي على قمة الأولويات في الاهتمام بالتاريخ إعداد وإصدار البحوث والدراسات التوثيقية والقيام بمشروعات الضبط الببليوجرافي لما صدر من إنتاج فكري حول هؤلاء الرجال . ولقد أدى التزايد في النشر المتعلق بتاريخ الملك عبدالعزيز وسيرته وشخصيته بمختلف الأشكال واللغات وبتاريخ المملكة في مختلف المجالات إلى صعوبة ملاحقة هذا الإنتاج بدون الاستعانة بأدوات الضبط الببليوجرافي من فهارس وأدلة وكشافات وببليوجرافيات وقواعد محسبة ونحوها من الأدوات التي تسيطر على المعرفة ، وتسهل طرق البحث العلمي ، وتيسر الوصول إلى مصادر المعرفة .

من هنا كان اهتمام هذه الدراسة بواقع الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز مع التركيز على المحاولات الفردية والمؤسساتية التي بذلت في هذا المضمار ، وتقويمها ونقدها بشكل علمي ، وبيان مدى إسهامها في تعزيز منظومة توثيق تاريخ المملكة . إضافة إلى معالجة أبرز المشكلات التي كانت ولا زالت تقف حجر عثرة في مسيرة الضبط الببليوجرافي ، وتعوقها عن تحقيق أهدافها . وتناولت الدراسة مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بوصفها حالة رائدة للاهتمام المؤسساتي في هذا الصدد ، كما تناولت قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز بوصفها أنموذجاً رائداً للاستراتيجية الشاملة في الضبط الببليوجرافي .

وكان الدافع إلى القيام بهذا المشروع العلمي التعرف على الإسهامات العربية والأجنبية التي هدفت إلى حصر ما كتب عن تاريخ الملك عبدالعزيز وتسجيله ووصفه وتنظيمه وإتاحته للاستخدام ، وتوفير الأدوات الببليوجرافية التي تساعد الباحثين والدارسين والمهتمين بشخصية الملك عبدالعزيز في الحصول على البحوث والدراسات المتوافرة بسهولة ، فضلاً عما تسهم به تلك الأدوات من

إعطاء فرصة أكبر لإجراء الدراسات التحليلية لما صدر من بحوث ودراسات ، واكتشاف الفجوات التي ينبغي تغطيتها في المجال ، والحد من تكرار البحوث التي سبق أن أجريت ، ورسم خارطة علمية تكشف عن تاريخ الملك عبدالعزيز وشخصيته وجهاده الطويل في مسيرة البناء وكفاحه من أجل توحيد الوطن .

لقد مرت بنا بعض النماذج لجهود الضبط الببليوجرافي السابقة في المجال مثل :

- ببليوجرافية يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني
- ببليوجرافية شكري العناني
- دراسة عبدالفتاح أبوعلية (مقالة)
- دراسة عبدالفتاح أبوعلية (كتاب)
- قائمة دارة الملك عبدالعزيز
- ببليوجرافية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
- قائمة محمد الحمدان
- فهرس جامعة الملك سعود
- فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز العامة
- ببليوجرافية فهد السماري
- قائمة فيحان العتيبي
- كشاف عبدالله الحقيل
- قائمة مكتبة الكونجرس
- ببليوجرافية استيفن وكنج
- ببليوجرافية فاسيلف

- ببليوجرافية فرانك كليمنتس
- ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس

إضافة إلى بعض النماذج للممارسات الببليوجرافية الراهنة التي قامت بها مجموعة من المؤسسات مثل :

- مكتبة الملك عبدالعزيز العامة
- دارة الملك عبدالعزيز
- مكتبة الملك فهد الوطنية
- جامعة الملك سعود
- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
- معهد الإدارة العامة
- مؤسسات وهيئات أخرى

وقد اجتهد الباحث في تقويم الإسهامات التي عززت من مفهوم الضبط الببليوجرافي لموضوع الدراسة وفقا لمعيار يتكون من عناصر عديدة من أبرزها ما يلي :

- القائم بإعداد العمل
- سنة النشر
- شكل الإصدار
- وضوح الحاجة والهدف
- وضوح الرؤية المنهجية
- مجال التغطية الزمنية
- مجال التغطية المكانية
- مجال التغطية اللغوية
- مجال التغطية الوعائية

- مجال التغطية الموضوعية
- مبدأ التجميع
- طبيعة المصادر المعتمد عليها
- مستوى المعالجة الفنية
- نظام الترتيب المستخدم
- حجم المادة العلمية

وبناء على ذلك المعيار أمكن إعطاء حكم موضوعي بشأن ما خرج إلى حيز الوجود من محاولات الضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز . وهي دون شك محاولات طيبة رفدت حركة التوثيق ، وساندت المسيرة الببليوجرافية . وعلى الرغم مما قد يثار حولها من ملحوظات سبق مناقشتها في مواضعها المناسبة من الدراسة ، فإن هذه النماذج وأمثالها تمثل البذور الأولى لنظام الضبط الببليوجرافي الوطني حيث عملت على جمع الأدبيات ، أو جمع بيانات وصفية عنها وتنظيمها ومعالجتها وجعلها في خدمة المهتمين بالتاريخ الوطني . إذ لا سبيل إلى التعرف على مصادر المعلومات إلا عن طريق تلك الأدوات الببليوجرافية . وفقدان مثل تلك الأدوات يؤدي إلى حدوث فجوة ببليوجرافية تشكل خطراً على حركة البحث العلمي لما ينتج عنها من تكرار الجهود العلمية ، وعدم استفادة الباحثين والمؤرخين بعضهم من بعض ، وإضاعة وقتهم في التعرف على ما نشر من أدبيات في مجالات اهتمامهم .

ولا ننكر أن الحصر الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز يعد في الوقت الراهن أسعد حظاً من الفترات الماضية لاعتبارات عديدة من أهمها : زيادة البحوث والدراسات العلمية في مجال الضبط الببليوجرافي وبخاصة الرسائل الجامعية ، وصدور العديد من أدوات الحصر الببليوجرافي ، وانتشار مؤسسات المعلومات

ومراكز التوثيق المهتمة بالمجال ، والاهتمام الملحوظ بخدمات المعلومات بشكل عام وبما له علاقة بتاريخ المملكة بشكل خاص وبتاريخ الملك عبدالعزيز بشكل أخص ، ونضوج التفكير العلمي والأسلوب المنهجي لدى كثير من الباحثين ، إضافة إلى تعقد احتياجات المستفيدين وتنوعها .

صحيح أن الجهود الببليوجرافية في هذا المضمار لا تزال في بداياتها ، ولم تصل بعد إلى الهدف المنشود . فالمشوار طويل ، وتاريخ الملك عبدالعزيز موضوع واسع ، متشعب الجوانب، متعدد الفصول . وأمام تعدد اللغات التي نشر بها تاريخه، وتنوع أشكال المؤلفات ، وأمام هذا السيل الجارف من المطبوعات التي تظهر يوماً بعد آخر تبرز المشكلة الحقيقية ، ويثار سؤال بشأن مدى السيطرة الببليوجرافية للمحاولات السابقة والحالية لما صدر عن الملك عبدالعزيز من إنتاج فكري . وهنا يتضح لنا أن المجال لا يزال بحاجة إلى المزيد من الجهود الببليوجرافية والتوثيقية التي تحصر بشكل دقيق وشامل ما كتب عن هذه الشخصية الفذة وعن تاريخها العريق ، وترصده وفقاً لمنهج علمي يسهل على الباحثين الإفادة منه .

ملخص النتائج :

يمكن تلخيص أبرز ما توصلت إليه الدراسة التحليلية من نتائج تعكس واقع الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن تاريخ الملك عبدالعزيز في النقاط التالية :

١- الاهتمام بالضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري المتعلق بتاريخ الملك عبدالعزيز يشكل ظاهرة عالمية قام بها علماء وباحثين عرب من أمثال : يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني، وشكري العناني ، وعبدالفتاح أبوعلية ، ومحمد الحمدان ، وفهد السماري ، وفيحان العتيبي ، وعبدالله الحقيل . إضافة إلى الباحثين والمفكرين الأجانب من أمثال : استيفن وكنج STEVENS AND

KING، وفاسيلف VASILEV ، وفرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS ، وهانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS . كما كان موضوع الضبط الببليوجرافي نفسه محط اهتمام المؤسسات العربية مثل دارة الملك عبدالعزيز ، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض ومكتبة الملك فهد الوطنية ، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وجامعة الملك سعود ، إضافة إلى المؤسسات الأجنبية مثل مكتبة الكونجرس .

٢- تتزعم مكتبة الملك عبدالعزيز العامة الممارسات الحالية لجهود الضبط الببليوجرافي من خلال إنشاء قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز منذ ما يزيد على خمس سنوات ، وتمثل هذه القاعدة أنموذجاً في توظيف التقنية الحديثة في توثيق تاريخ الملك عبدالعزيز في ضوء استراتيجية تمتاز بوضوح الرؤية الببليوجرافية والبعد عن الاجتهادات الشخصية .

٣- اعتمدت غالبية جهود الضبط الببليوجرافي السابقة في إعدادها على الأفراد الذين يمثلون مختلف الجنسيات (عرب ، أمريكان ، بريطانيين ، ألمان ، روس) غالبيتهم من غير الاختصاصيين .

٤- كان للأجانب فضل السبق على العرب في الاهتمام بالضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز حيث لم تظهر الجهود الببليوجرافية العربية إلا في وقت متأخر نسبياً . وللإسهامات العربية والأجنبية في المجال - برغم ما امتازت به من بعض الجوانب السلبية - الفضل في إرساء قاعدة يمكن الانطلاق منها حالياً ومستقبلاً في دراسة الضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز ، وإعداد الأدوات الببليوجرافية المستقبلية .

٥- صدرت غالبية أدوات الضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز في شكل قوائم ببليوجرافية حيث لم يكن للأدوات الأخرى مثل الكشافات والأدلة نصيب وافر من الاهتمام .

٦- تتسم بعض الأعمال الببليوجرافية السابقة بعدم الدقة في ذكر طبيعة الحاجة لإعدادها ، وطبيعة الفئات المستهدفة ، وتحديد الهدف المنشود من القيام بمثل تلك الأعمال .

٧- يلاحظ غياب المنهجية العلمية في بعض الإسهامات السابقة ، وضعفها في البعض الآخر . وتتجلى هذه المشكلة في مظاهر عديدة من بينها عدم ذكر الخطوات الإجرائية التي تحكم مسار المشروعات الببليوجرافية ، وعدم إعطاء تقويم لما سبقها من مشروعات علمية وبيان جوانب قوتها وضعفها ومدى الاستفادة منها .

٨- تتفاوت الجهود السابقة فيما بينها بشكل واضح في مجال تغطيتها الزمنية والمكانية والموضوعية والشكلية واللغوية . وقد حدث هذا نتيجة لتفاوت قدرات القائمين بها وتفاوت خبراتهم في المجال وذلك على النحو التالي :

- أتت بعض الأعمال شاملة في تغطيتها الزمنية للدولة السعودية بأدوارها الثلاثة ، بينما أتت أعمال أخرى مقتصرة على فترة حكم الملك عبدالعزيز .
- تبين أن تسعة أعمال بنسبة ٥٢,٩٪ من مجموع الأعمال السابقة البالغة (١٧) عملاً لم تتقيد بمنطقة جغرافية محددة في عملية الحصر للمواد المدرجة فيها ، بينما تقيدت ثمانية أعمال بنسبة ٤٧,١٪ بمجال مكاني محدد التزمت به ولم تحيد عنه . ومن نماذج الفئة الأولى الببليوجرافيات التي قام بإعدادها يحيى ساعاتي وعبدالله القحطاني ، وشكري العناني ، وعبدالفتاح أبوعلية (في دراسته المنشورة في مجلة الدارة ، وفي كتابه الذي نشرته دار المريخ عام ١٣٩٩هـ) ، وجامعة الإمام ، وفهد السماري ، واستيفن وكنج STEVENS AND KING ، وفرانك كليمنتس FRANK CLEMENTS ، وهانز جرقين فيليبس HANS - JURGEN PHILIPPS . ومن نماذج الفئة الثانية جهود الضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز التي

قام بها كل من دارة الملك عبدالعزيز، وجامعة الملك سعود، ومكتبة الملك عبدالعزيز العامة (التي اقتصر البعد المكاني لأعمالها على ما هو موجود في مكتبتها)، ومحمد الحمدان، وفيحان العتيبي (اقتصر عمله على ما هو منشور في مجلة الدارة)، وعبدالله الحقيل (أيضاً اقتصر عمله على ما هو منشور في مجلة الدارة) ، ومكتبة الكونجرس (التي اقتصر عملها على ما هو موجود فيها) ، وفاسيلف VASILEV (الذي اقتصر عمله في الغالب على ما هو منشور في روسيا وأوروبا الشرقية) .

- برغم تفاوت الجهود الببليوجرافية السابقة في حصرها للأدبيات الصادرة عن تاريخ الملك عبدالعزيز في مختلف اللغات ، فقد كان التركيز على ما صدر باللغتين العربية والإنجليزية .
- كان تركيز غالبية الإسهامات السابقة على حصر الأشكال التقليدية للأوعية وبخاصة الكتب وإهمالها لما صدر من أدبيات في أوعية أخرى قد لا تقل أهمية عن الكتب وبخاصة الرسائل الجامعية وإصدارات المؤتمرات والندوات التي تشكل مادة دسمة للباحثين .

٩- ما يزيد على ثلث الأعمال السابقة البالغة (١٧) عملاً لم توضح طبيعة المصادر التي اعتمدت عليها في تجميع مادتها العلمية ، ولم تبين ما إذا كانت تلك المصادر من قبيل المصادر المباشرة (الأولية) أو غير المباشرة (الثانوية) . الأمر الذي يؤثر على الاستنادية وعلى مصداقية البيانات الواردة في تلك الأدوات الببليوجرافية .

١٠- يوجد تباين واضح في الأعمال السابقة في أسلوب المعالجة الفنية والوصف الببليوجرافي لما تحتويه من مواد ، ويلاحظ على الجهود العربية بصفة خاصة عدم التزامها بالقواعد المتعارف عليها . الأمر الذي أثر على اختلاف مداخل المؤلفين واختلاف أشكال البيانات المعطاة وصياغة رؤوس الموضوعات .

١١- كما يوجد تباين أيضاً في طريقة التنظيم والترتيب للمواد المدرجة في الجهود السابقة حيث إن بعضها رتب موادها تحت رؤوس موضوعات مختارة ، والبعض الآخر رتبها هجائياً ، وهناك فئة ثالثة رتبت المواد بشكل عشوائي لا يخضع لنمط معين . مما يوحي مرة أخرى بعدم الالتزام بالتقنينات المعيارية التي وجدت أصلاً من أجل توحيد الممارسات والتخلص من الاجتهادات الشخصية .

١٢- أثبتت النتائج مدى التفاوت الواضح بين المحاولات السابقة للضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري المتعلق بالملك عبدالعزيز في حجم المادة العلمية التي تضمنها كل عمل من تلك الأعمال . فقد تصدرت ببليوجرافية هانز جرقين فيليبس HANS - JURVEN PHILIPPS القائمة من حيث كثرة ما شملته من مادة علمية بلغت (٩٢٦٥) مادة ، بينما أتى كشاف عبدالله الحقيل في نهاية القائمة حيث لم يتجاوز مجموع ما ضمه من مادة علمية (٢٩) مادة . أما بقية المحاولات فقد توسطت بين هذين الرقمين .

الصعوبات والمشكلات :

تواجه مشروعات الضبط الببليوجرافي بشكل عام مجموعة من المشكلات الفنية والإدارية والبشرية والمالية التي تعوق سيرها وتحد من نموها وتطورها ، وتؤثر بالتالي على تحقيقها للأهداف المنشودة لها . وتنطبق تلك الصعوبات على الجهود الببليوجرافية السابقة وعلى الممارسات الحالية ، ويمكن تلخيص أبرز تلك العقبات في النقاط التالية :

١- نقص الكفاءات البشرية المتخصصة :

ويقصد بذلك ندرة العنصر البشري المتخصص في مجال التوثيق والمدرب على مهام الضبط الببليوجرافي . ويمثل هذا العامل في نظر الباحث واحداً من أبرز

المعوقات التي تحد دون طموحات المشروعات الببليوجرافية على وجه العموم والضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز على وجه الخصوص . ذلك أن غالبية من يمارسون العمل في الوقت الراهن ينقصهم التدريب الكافي ومقومات العمل التوثيقي العلمي ، وهذا ما لمسه الباحث من احتكاكه بواقع الجهات المعنية بتوثيق تاريخ الملك عبدالعزيز .

وتلجأ بعض المؤسسات ـ حلاً لمشكلة النقص في العنصر البشري المؤهل والمتفرغ لإنجاز الأعمال الببليوجرافية ـ إلى الاستعانة بالمتعاونين لتنفيذ المشروعات الببليوجرافية . بيد أن هذا الحل المؤقت يسهم في تخفيف حدة المشكلة في الوقت الراهن وإن كان لا يقضي عليها نهائياً . ذلك أنها مشكلة متأصلة وضاربة الجذور ، ولا بد من التعامل معها في ضوء سياسة طويلة الأجل تأخذ في الحسبان تأهيل العاملين وإلحاقهم بالبرامج التعليمية والدورات التدريبية التي تزودهم بالأسس الفنية للمهنة .

٢ـ ضعف التعاون والتنسيق :

من الملاحظ عدم وجود تنسيق وتكامل في الجهود المبذولة للسيطرة على الأدبيات التي تتناول تاريخ الملك عبدالعزيز أو تاريخ المملكة في عهده سواء من قبل الأفراد أو الجهات مما جعلها جهوداً مبعثرة ومشتتة ، وبحاجة إلى لم شملها تحت مظلة تتوافر لها إمكانات القيادة والريادة ، وتحظى بخبرات وتجهيزات تساعدها على النهوض بالمهمة .

ذلك أنه على الرغم من وجود بعض المحاولات الجادة للضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز إلا أنها محاولات متفرقة لا تعمل في ظل قيادة واحدة . الأمر الذي يوحي بضعف التعاون والتنسيق مع الجهات المعنية بالضبط

الببليوجرافي محلياً وإقليمياً وعالمياً مما يؤثر بشكل أو بآخر على مسيرة العمل الشامل ، ويسهم في تكرار الجهود وازدواجيتها ، وفي إهدار الأموال وضياع الوقت .

٣ـ ضعف الميزانية :

تتمثل هذه المشكلة في ضعف البنود المالية المخصصة لمشروعات الضبط الببليوجرافي في غالبية المؤسسات المعنية بالأمر . ومعلوم أن إنتاج أدوات الضبط الببليوجرافي يدوية كانت أو محسبة ليست بالأمر السهل كما قد يتصور البعض ، فهي بحاجة إلى رصد ميزانية كافية تساعد على تكليف فريق عمل متخصص للقيام بالعمل ودفع ما يترتب على إخراجه بالصورة المطلوبة من نفقات .

وفي ظل ضعف التمويل اللازم لإنتاج المشروعات الببليوجرافية ونشرها تصبح الساحة متاحة لأعمال سطحية ، ولإسهامات عابرة ومحاولات سريعة ، ونفاجأ بظهور نماذج ضعيفة في الإعداد والإخراج .

٤ ـ عدم وضوح الرؤية الببليوجرافية :

إن عدم وضوح الرؤية الببليوجرافية لدى القائمين بالأعمال الببليوجرافية ، وضعف الاستراتيجية التي ترسم سياستها وتضبطها ، وغموض النهج العلمي الذي يحكم الإطار العملي والممارسات اليومية يشكل عقبة أخرى تقف حجر عثرة أمام تقدم مشروعات الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز .

وقد انعكس ذلك سلباً على معظم الإصدارات الببليوجرافية التي اطلع عليها الباحث حيث وجدها تفتقر إلى النضج المنهجي ، وتخلو من الحس العلمي ، وتتلافى ذكر النهج الذي سارت عليه في تجميع مادتها العلمية وتنظيمها وتوثيقها ،

وتفتقد لإطار واضح تتبناه وتعمل من خلاله بحيث يحدد مسارها . كما كان لعدم وضوح الرؤية أثر في تفاوت مجالات التغطية الموضوعية والشكلية والمكانية والزمنية واللغوية لكثير من الأعمال السابقة .

٥ـ ضعف الاهتمام بالمستفيد :

تنهض الممارسات الببليوجرافية الحالية بمهامها وتؤدي نشاطاتها بمعزل عن المستفيد الذي وجدت أصلاً من أجله ، فهي ليست موجهة للمستفيد بالشكل المطلوب حيث إن جل اهتمامها منصب على العمليات الفنية المتمثلة في حصر الأوعية وتخزينها وإهمال الجانب المتعلق بالبث والتسويق وإتاحة الخدمات للمستفيدين ودراسة احتياجاتهم ومدى رضاهم عن مستوى الخدمات المقدمة .

ومن المتعارف عليه أن مهمة مراكز التوثيق والمعلومات ومؤسسات الضبط الببليوجرافي تنحصر في اختيار أوعية المعلومات واقتنائها ، ومن ثم تنظيمها وتحليلها ، وأخيراً تقديمها للمستفيدين وتيسير استرجاعها وتصميم الخدمات التي توسع دائرة الإفادة منها . إلا أن تلك الصورة المثالية لا تنطبق على أرض الواقع ؛ فقد أثبتت الزيارات الميدانية التي قام بها الباحث للمؤسسات المهتمة بتوثيق التراث الوطني للمملكة أن اهتمامها ينصب بالدرجة الأولى على تنمية المجموعات التي تتناول تاريخ المملكة دون تحليلها وتوظيفها للاستخدام العام . الأمر الذي يوحي بأن التركيز على الأوعية نفسها وليس على المعلومات التي تحتويها أو على الفئات المستهدفة .

وهي قضية تحتاج إلى التعامل معها بجدية أكثر ؛ فما قيمة تلك المواد إذا كان لا يستفاد منها بالصورة المطلوبة . ولماذا تبذل أموال وجهود طائلة في الحصول عليها بينما يبخل عليها في التنظيم والتحليل والبث وتجهيز الأدوات الفنية التي

تساعد على ضبطها ببليوجرافياً وجعلها في متناول من يحتاجونها من الأفراد والمؤسسات .

ومما له علاقة بضعف الخدمات المقدمة للمستفيدين أن كل أو جل الجهات المعنية بتوثيق تاريخ الملك عبدالعزيز تقوم بعملية الوصف (الفهرسة والتصنيف) دون التحليل الموضوعي (التكشيف والاستخلاص) . ذلك أن تلك الجهات قد بذلت جهوداً طيبة في وصف الملامح المادية لما تمتلكه من وثائق عن الملك عبدالعزيز ، وإدراج تلك الأوصاف الببليوجرافية في فهارسها البطاقية والآلية مما يسهل التعرف على الشكل المادي للوثائق المطلوبة . بيد أن الطموحات ينبغي ألا تتوقف عند هذا الحد ، إذ إن المؤمل أن تتجاوزه إلى التحليل الموضوعي للمعلومات نفسها ، وإعداد الكشافات والمستخلصات التي تكشف النقاب عن المحتويات . فمثل هذا التحليل هو الذي يهم المستفيد فعلاً ويختصر وقته وجهده في البحث عن المعلومات المطلوبة .

ومما يلفت النظر أن الوقوف عند حد الحصر دون تجاوز ذلك إلى التحليل والوصف يمثل قضية تشمل الجهود السابقة الفردية والمؤسساتية ، إضافة إلى الممارسات الحالية للضبط الببليوجرافي التي لم تعر بعد أهمية للقضية ، ولو أنها فعلت ذلك لاكتسبت قيمة إضافية تميزها عما سبقها من ممارسات .

٦ـ ضعف مفهوم الضبط الببليوجرافي :

إن تركيز غالبية ما صدر من نشاطات ببليوجرافية على نمط واحد من أنماط الضبط الببليوجرافي وهو القوائم الببليوجرافية وإهمالها للنشاطات الأخرى التي لا تقل عنها أهمية مثل الفهارس والكشافات والمستخلصات والأدلة وببليوجرافيات الببليوجرافيات وغيرها من أدوات الضبط الببليوجرافي مؤشر على غموض المفهوم

لدى القائمين بالأعمال ، والتزامهم بشكل واحد تقليدي لا يحيدون عنه .

ومن خلال استقراء الباحث للممارسات السابقة والحالية خرج ببعض الحقائق التي لها مساس بضعف مفهوم الضبط الببليوجرافي ومن أهمها ما يلي :

أ- لا توجد أدلة تحصر الرسائل الجامعية التي تناولت تاريخ المملكة في عهد الملك عبدالعزيز مع ما لتلك الرسائل من قيمة علمية ، وبرغم مكانتها التي لا تنكر في مفهوم الضبط الببليوجرافي .

ب- لا توجد على حد علم الباحث أدلة تحصر الدوريات التي تحتوي على مقالات تناولت تاريخ الملك عبدالعزيز أو التطورات التي حدثت في المملكة عهده ، على الرغم من أهمية تلك الأدلة في عملية الحصر الببليوجرافي .

ج- وأيضاً لا توجد أدلة ترصد المواد السمعية والبصرية والمصغرات الفيلمية التي تحتوي على مادة علمية عن الملك عبدالعزيز فيما عدا الدليل الذي أصدرته مكتبة الملك عبدالعزيز العامة عمّا يتوفر بها من مصغرات فيلمية . وحتى هذا الدليل لا يزال بحاجة إلى تحديثه ليستوعب ما أضيف مؤخراً إلى مقتنيات القاعة .

د- يفتقد المجال أيضاً إلى الأدلة التي تحصر البحوث والدراسات وأوراق العمل التي القيت في المؤتمرات والندوات واللقاءات العلمية . وقد لمس الباحث هذه المشكلة بنفسه عندما كان يبحث عن قائمة تحصر جميع ما قدم في المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز - الذي أقامته جامعة الإمام عام ١٤٠٦هـ- من أوراق فلم يستطع الحصول على أداة ببليوجرافية تضبط جميع ما قدم من أوراق علمية في هذا الحدث المهم .

هـ- كما يفتقد المجال إلى أدوات حصر الأدبيات غير المنشورة والمواد محدودة التداول مما يوحي مرة أخرى بضعف مفهوم الضبط الببليوجرافي في أذهان غالبية من تصدوا لمشروعات توثيق تاريخ الملك عبدالعزيز .

لدى القائمين بالأعمال ، والتزامهم بشكل واحد تقليدي لا يحيدون عنه .

ومن خلال استقراء الباحث للممارسات السابقة والحالية خرج ببعض الحقائق التي لها مساس بضعف مفهوم الضبط الببليوجرافي ومن أهمها ما يلي :

أ- لا توجد أدلة تحصر الرسائل الجامعية التي تناولت تاريخ المملكة في عهد الملك عبدالعزيز مع ما لتلك الرسائل من قيمة علمية ، وبرغم مكانتها التي لا تنكر في مفهوم الضبط الببليوجرافي .

ب- لا توجد على حد علم الباحث أدلة تحصر الدوريات التي تحتوي على مقالات تناولت تاريخ الملك عبدالعزيز أو التطورات التي حدثت في المملكة في عهده ، على الرغم من أهمية تلك الأدلة في عملية الحصر الببليوجرافي .

ج- وأيضاً لا توجد أدلة ترصد المواد السمعية والبصرية والمصغرات الفيلمية التي تحتوي على مادة علمية عن الملك عبدالعزيز فيما عدا الدليل الذي أصدرته مكتبة الملك عبدالعزيز العامة عمّا يتوفر بها من مصغرات فيلمية . وحتى هذا الدليل لا يزال بحاجة إلى تحديثه ليستوعب ما أضيف مؤخراً إلى مقتنيات القاعة .

د- يفتقد المجال أيضاً إلى الأدلة التي تحصر البحوث والدراسات وأوراق العمل التي القيت في المؤتمرات والندوات واللقاءات العلمية . وقد لمس الباحث هذه المشكلة بنفسه عندما كان يبحث عن قائمة تحصر جميع ما قدم في المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبدالعزيز - الذي أقامته جامعة الإمام عام ١٤٠٦هـ- من أوراق فلم يستطع الحصول على أداة ببليوجرافية تضبط جميع ما قدم من أوراق علمية في هذا الحدث المهم .

هـ- كما يفتقد المجال إلى أدوات حصر الأدبيات غير المنشورة والمواد محدودة التداول مما يوحي مرة أخرى بضعف مفهوم الضبط الببليوجرافي في أذهان غالبية من تصدوا لمشروعات توثيق تاريخ الملك عبدالعزيز .

تمتد الجهود لتشمل الضبط الببليوجرافي للوثائق التي يحتفظ بها الأفراد . وفي هذا السياق يشير عبدالفتاح أبو علية إلى أن " هناك الكثير من الوثائق التاريخية التي تخدم تاريخ البلاد السعودية في عهد الملك عبدالعزيز آل سعود وموجودة ومحفوظة عند الكثير من أمراء البيت السعودي وبخاصة الذين عاصروا الأحداث التاريخية منهم . وهناك وثائق مهمة موجودة عند الأهالي وبخاصة الوثائق الموجودة عند أسرة آل الشيخ وعند بعض الرجال المسنين الذين عاصروا الأحداث التاريخية في عهد الملك عبدالعزيز ولهم عناية بحفظ الوثائق والمستندات الرسمية» (أبو علية : ٣٩٨، ص : ١٧٣) .

المقترحات والتوصيات :

اعتماداً على ما توصلت إليه الدراسة من نتائج . وفي ضوء المشكلات التي تواجه مشروعات الضبط الببليوجرافي في الوقت الراهن والمعوقات التي تعترض مسيرة المحاولات المبذولة فإن الباحث يقترح مجموعة من التوصيات التي يؤمل أن تسهم في تذليل تلك الصعوبات والحد من فاعليتها . ولعل من أبرز تلك التوصيات ما يلي :

- التركيز على تعميم خدمات الضبط الببليوجرافي وتحسينها بحيث لا تبقى عديمة النفع ولا يعلم عنها الآخرون ، إذ ما قيمة تلك الجهود إذا لم تسخر لصالح المستفيدين وبخاصة أنها تستهلك أموالاً طائلة وتستغرق وقتاً طويلاً لإنجازها . ويمكن أن تعمم الخدمات من خلال الربط الشبكي ، أو من خلال النشر وبخاصة النشر الإلكتروني ، والنشر في الأشكال الحديثة مثل الأقراص المضغوطة ليتسنى توزيعها على الجهات المعنية داخل المملكة وخارجها . ويدعم هذه التوصية مالاحظه الباحث من خلال إشرافه على قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز من كثرة الطلبات الواردة من العديد من الأفراد والمؤسسات التي تستفسر عن الخدمات التي يمكن الحصول عليها .

- زيادة توظيف التقنية في عملية الضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز بحيث لا تقتصر الطموحات على مجرد التوثيق والتخزين ـ كما الوضع عليه حالياً ـ بل تمتد لتشمل بث المعلومات وتوسيع دائرة الإفادة منها . ذلك أن التطبيقات الحاسوبية في المجال لا حدود لها ، وينبغي أن تستغل على الوجه الأكمل حيث إن احتياجات المستفيدين لا حدود لها أيضاً .
- ضرورة المشاركة العلمية للجهات المعنية بالضبط الببليوجرافي لتاريخ المملكة في المؤتمرات والندوات المتخصصة في المجال ، إذ إن مثل تلك المشاركات تتيح للمشرفين على المشروعات التوثيقية فرصاً جيدة لتوظيف التوصيات الناتجة عن المؤتمرات والندوات في مشروعاتها ، وتحسين وضعها الراهن ، والتخطيط لمستقبلها . كما أنها تتيح الفرصة لكل جهة لعرض تجربتها ، ومناقشتها مع المهتمين والاختصاصيين ، ومقارنتها بتجارب الآخرين .
- إتاحة الفرصة للعاملين في مجالات الضبط الببليوجرافي لتاريخ المملكة للالتحاق ببرامج التطوير المهني والتعليم المستمر وذلك من خلال المشاركة في الدورات التدريبية المتخصصة في مجال التوثيق لتنمية المهارات والوقوف على التطورات في عالم الضبط الببليوجرافي . وأيضاً متابعة ما يستجد من تقنيات حديثة والإفادة منها ، وتطويعها في إنجاز المشروعات التوثيقية . علاوة على حفز العاملين في المجال بالقيام بالزيارات الميدانية لأهم مراكز التوثيق في الدول المتطورة وبخاصة تلك التي تخدم مجالات مشابهة .
- تعزيز الكفاءات البشرية المتخصصة في مجال الضبط الببليوجرافي والعمل التوثيقي حيث إن غالبية الجهود الحالية تمارس من قبل متعاونين ينقصهم التخصص العلمي والحس الفني . والعمل الببليوجرافي ـ كما مر بنا ـ عمل علمي يستند إلى قوانين وأسس علمية متعارف عليها بين أهل الاختصاص ، ويحتاج إلى طاقم من الفنيين الذين يتولون أعمال التوثيق والتدقيق والمراجعة وإدخال البيانات ونحو ذلك من القضايا الفنية .

- زيادة التركيز على الاتصالات الودية بين المسؤولين عن المؤسسات المعنية بالضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري المتعلق بالملك عبدالعزيز بغرض تنمية المجموعات . إذ ثبت من معطيات الدراسة أنه برغم ما تبذله المؤسسات من جهود في عملية الحصول على المقتنيات فإن معظم تلك الجهود تركز على الاتصالات الرسمية التي قد لا تكون مجدية لتحقيق الهدف ، ولعل الأفضل هو توظيف العلاقات العامة في هذا الصدد .
- تكثيف قنوات التعاون مع المؤسسات ذات الاهتمام بمجال الضبط الببليوجرافي لتاريخ المملكة ، وذلك من خلال وضع خطة للتنسيق وتبادل الخبرات بدلاً من تكرار الجهود وتشتتها . وحبذا لو تم تصميم قاعدة وطنية تسعى لتحقيق أهداف مشتركة ، وتعزز مبدأ تبادل المعلومات والإعارة بين المكتبات ، الأمر الذي يسهم في تسخير الإمكانات نحو تحقيق الأهداف الوطنية ، ودعم الاتجاه نحو توحيد الجهود .
- عدم التسرع في إخراج الأعمال (الأدوات) الببليوجرافية قبل التأكد من نضوجها وخلوها من المشكلات الفنية والإجرائية ، وذلك من خلال إخضاعها للتحكيم العلمي والتقويم المنهجي شأنها في ذلك شأن الأعمال العلمية الأخرى التي تخضع لقنوات متعارف عليها تمهيداً لإخراجها إلى عالم الوجود . ومن خلال الأخذ بهذا الاقتراح يمكن تغيير المفهوم الموجود لدى البعض ، وهو أن إعداد مثل تلك الأعمال الحصرية عملية سهلة تقوم على الخبرة والممارسة أكثر من قيامها على الأسس العلمية . والحقيقة التي لا تقبل الجدل هي أن الببليوجرافيا قد أصبحت علماً يدرّس على المستوى الأكاديمي ، وأصبح العمل الببليوجرافي فن يخضع لأسس علمية يجب أن يلتزم بها في التجميع والتنظيم والمعالجة الفنية والإخراج ونحو ذلك من عناصر المشروع الببليوجرافي .

- العمل على ترجمة بعض نماذج القوائم الببليوجرافية التي تناولت تاريخ المملكة في عهد الملك عبدالعزيز المنشورة باللغات الأجنبية . ذلك أن مثل هذه الأعمال لا يستطيع القارىء العربي الاستفادة منها دون ترجمتها إلى اللغة العربية .
- عدم التركيز في المشروعات المستقبلية المتعلقة بالضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز على القوائم الببليوجرافية وحدها ـ كما هو الوضع حالياً ـ بل ينبغي توسيع قاعدة الممارسات بحيث تشمل الأدوات الأخرى من كشافات وفهارس ومستخلصات وأدلة وغيرها من وسائل السيطرة الببليوجرافية . فلماذا لا يتم على سبيل المثال إصدار دليل متخصص بالرسائل الجامعية التي تناولت الملك عبدالعزيز أو المملكة خلال فترة حكمه .
- ضرورة إصدار ببليوجرافية بالببليوجرافيات BIBLIOGRAPHY OF BIBLIOGRAPHIES أي قائمة تحصر جميع ما صدر من أعمال في مجال الضبط الببليوجرافي عن الملك عبدالعزيز بمختلف اللغات والبلدان والأشكال وذلك بهدف حصر جميع الجهود السابقة في مرجع واحد، وأيضاً إبراز الدور الذي نهض به السابقون بغرض السيطرة الببليوجرافية على الأدبيات التي عالجت تاريخ المملكة في عهد الملك عبدالعزيز . ومما يؤكد الحاجة إلى هذا النوع من الببليوجرافيات ما شهدته الفترة الأخيرة من ظهور العديد من الأنماط الببليوجرافية المبعثرة هنا وهناك ، والتي يصعب على المستفيد معرفتها بدون أداة مرجعية تجمعها في وعاء واحد وتضعها بين يديه .
- ملاحقة الإنتاج الفكري الصادر عن تاريخ الملك عبدالعزيز أو عن تاريخ المملكة والتطورات التي شهدتها أثناء حكمه والتعريف به من خلال أدوات الضبط الببليوجرافي الجارية . إذ من الملاحظ أنه برغم ما بذل من جهود في المجال فإن التغطية لم تكتمل بعد ، ولا توجد أدوات تلاحق الإنتاج بشكل مستمر .

وقد كان تركيز جميع المحاولات السابقة على الببليوجرافيات الراجعة RETROSPECTIVE BIBLIOGRAPHIES دون إعارة أي اهتمام للببليوجرافيات الجارية CURRENT BIBLIOGRAPHIES التي تلاحق المستجدات وترصد التطورات .

- الإسراع في وضع خطة وطنية للضبط الببليوجرافي لتاريخ الملك عبدالعزيز بحيث تنضوي الجهود تحت جهة تكون بمثابة مركز توثيق وطني يتولى وضع سياسة وطنية في هذا السياق ، ويخطط لها ويتابع تنفيذها وفقاً لمعايير محددة ، ويقوم أيضاً بدور القيادة والريادة على مستوى المملكة . وفي الوقت نفسه تعمل الجهات الأخرى المهتمة بالموضوع تحت مظلة تلك الجهة بغرض توحيد الجهود والحد من التكرار الذي لا مبرر له . ويقترح الباحث أن تكون تلك الجهة مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بوصفها كانت سباقة إلى تطبيق فكرة الضبط الببليوجرافي من خلال إنشاء قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز .
- إنشاء جمعية للمهتمين بتاريخ الملك عبدالعزيز يكون من بين مهامها تعزيز النشاطات الببليوجرافية في المملكة ، وتوحيدها تحت مظلة واحدة ، وتوحيد الجهود والمبادرات الفردية والمؤسساتية ، وتسويق خدماتها ، وأيضاً إحاطة أعضائها بالتطورات الحديثة في عالم الضبط الببليوجرافي في المجال .

مقترحات للدراسات المستقبلية :

الملك عبدالعزيز شخصية متعددة الجوانب وتمثل مادة مغرية بالبحث والدرس ، والمجال كما يبدو ضخم متعدد الأبعاد والاتجاهات ، وهناك مشروعات كثيرة يمكن تناولها في هذا الصدد ، وقد تعرض لها الباحث في الدراسة الحالية بشكل عاجل ومختصر ولم يتعمق في معالجتها خوفاً من خروج الدراسة عن

النطاق المرسوم لها سلفاً . بيد أنها تمثل قضايا جيدة لمن يرغب من الباحثين طرقها في المستقبل . ومن أبرز تلك القضايا التي تخدم مجال الضبط الببليوجرافي ويؤمل أن تجد من يتصدى لها مستقبلاً بالبحث والدرس ما يلي :

١- تطبيق الاتجاهات المعاصرة في علم الببليوجرافيا وبخاصة القياس الببليوجرافي أو الببليومتري BIBLIOMETRICS على الدراسات الببليوجرافية الصادرة في المجال . ويمكن أن يتم ذلك من خلال إجراء دراسة ببليومترية تتناول الاتجاهات العددية والنوعية للإنتاج الفكري عن الملك عبدالعزيز ، وتحلل أبعاده الزمنية والمكانية والموضوعية واللغوية وأسماء المؤلفين الأكثر إنتاجية ونحو ذلك من المتغيرات الأساسية .

٢- إجراء دراسة تعالج واقع توثيق التراث التاريخي على مستوى المملكة ، وترسم خطة وطنية للمعلومات المتعلقة بالملك عبدالعزيز ، وتعالج مشكلة الازدواج الببليوجرافي بين المؤسسات تمهيداً للتخطيط لشبكة معلومات وطنية موجهة لهذا الغرض .

٣- إجراء دراسة مسحية عن مصادر المعلومات المتعلقة بالملك عبدالعزيز بهدف التعرف على واقعها وأنماطها واتجاهاتها الكمية والنوعية وأساليب معالجتها وطرق تنظيمها وأنواع الخدمات التي تقدمها .

٤- إجراء دراسة ميدانية تهدف إلى الحصر الشامل للفئات المستهدفة من خدمات الضبط الببليوجرافي في مجال تاريخ الملك عبدالعزيز بما في ذلك الباحثين والأساتذة والطلبة والمهتمين بالمجال والمسؤولين وغيرهم ، وذلك بغرض التعرف على الاحتياجات الحقيقية لتلك الفئات ووضع خطة تسهم في السعي نحو تلبيتها .

٥ ـ القيام بدراسات متعمقة حول الدور الذي تنهض به كل مؤسسة من المؤسسات المعنية بتوثيق تاريخ الملك عبدالعزيز على حدة ، وبيان مدى إسهامها في ضبط الأدبيات في المجال، وتوضيح ما تقوم به من خدمات . ذلك أن الدراسة الحالية تعرضت بشكل مختصر لبعض نماذج الممارسات الببليوجرافية الراهنة ولم تشبع كل نموذج منها مناقشة وتفصيلاً بل تركت هذا الأمر للبحوث المستقبلية .

٦ ـ التوسع في الجهود المستقبلية بحيث تشمل الضبط الببليوجرافي لتاريخ المملكة بأدواره الثلاثة المتعارف عليها بين المؤرخين . ذلك أن تركيز الدراسة الحالية انصب على الفترة الثالثة من تاريخ المملكة ولم يلتفت إلى ما عداها . وحبذا لو شهدنا في المستقبل عملاً آخر أوسع في نطاقه الموضوعي والزمني من نطاق الدراسة الحالية بحيث يغطي تاريخ المملكة منذ تأسيس الدولة السعودية الأولى حتى نهاية عهد الملك عبدالعزيز .

قائمة المراجع

أولا : المراجع العربية

إبراهيم ، سيد محمد . تاريخ المملكة العربية السعودية . الرياض : مكتبة الرياض الحديثة ، ١٣٩٣هـ .

أبو علية ، عبدالفتاح حسن . وثائق عن تاريخ الدولة السعودية في عهد الملك عبدالعزيز ١٩٠٢ ـ ١٩٥٣هـ . الدارة . س ٤ ، ع ١ (ربيع الآخر ١٣٩٨هـ) . ص ص ١٤٤ـ ١٧٣ .

أبو علية ، عبدالفتاح حسن . دراسة في مصادر تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر ـ مصادر تاريخ البلاد السعودية . الرياض : دار المريخ ، ١٣٩٩هـ .

بودوشه ، أحمد . المفهوم الجديد للببليوجرافيا ـ نظرة جديدة من نافذة عربية . الإدارة العامة . س ٣٠ ، ع ٦٩ (رجب ١٤١١هـ) . ص ص ٢٠٣ ـ ٢١٩ .

التركي ، عبدالله بن عبدالمحسن . الملك عبدالعزيز والمملكة العربية السعودية ـ المنهج القويم في الفكر والعمل . ط٢ . القاهرة : الزهراء للإعلام العربي ، ١٤٠٩هـ .

تمراز ، أحمد بن علي . الببليوجرافيا . (مشروع كتاب لم ينشر بعد) .

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . كتاب ببليوجرافي عن تاريخ الملك عبدالعزيز . الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٦هـ .

جامعة الملك سعود . دليل مقتنيات قاعة الملك عبدالعزيز . الرياض : جامعة الملك سعود ، ١٤١٢هـ .

جامعة الملك سعود . فهرس المؤلفات المختارة عن الملك عبدالعزيز آل سعود . الرياض : جامعة الملك سعود ، ١٤٠٦هـ .

جان ، محمود قاري محمد يعقوب . التخطيط لإجراء الببليوجرافية الوطنية الجارية للمملكة العربية السعودية . رسالة ماجستير . قسم المكتبات والمعلومات بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٤هـ .

جاهين ، مصطفى أمين . ندوة العلاقات المصرية السعودية في عهد الملك عبدالعزيز آل سعود . ٥ شوال ١٣١٩ ـ ٢ ربيع الأول ١٣٧٣هـ (١٥ يناير ١٩٠٢ـ٩ ذو القعدة ١٩٥٣م) . الدارة . س ١٢ ، ع ٤ (رجب ١٤٠٧هـ) . ص ص ٢١٩ - ٢٢١ .

جمعة ، نبيلة خليفة . الضبط الببليوجرافي العالمي (ضبع) . مجلة المكتبات والمعلومات العربية . س ٢ ، ع ١ (ربيع الأول ١٤٠٢هـ) . ص ص ٩٧ ـ ١٠٧ .

الحقيل ، عبدالله ابراهيم . كشاف بما نشر عن الملك عبدالعزيز في مجلة الدارة . الدارة . س ١٩ ، ع ٣ (ربيع الآخر ـ جمادى الآخرة ١٤١٤هـ) . ص ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤ .

الحلوجي ، عبدالستار . مدخل لدراسة المراجع . القاهرة : د . ن ، ١٣٩٤هـ .

الحمدان ، محمد بن عبدالله . أضواء على أسماء بعض الكتب التي تناولت سيرة الملك عبدالعزيز آل سعود . الدارة . س١١ ، ع٣ (ربيع الآخر ١٤٠٦هـ) . ص ص ١٨٦ ـ ٢١٢ .

الحزيمي ، سعود بن عبدالله . المراجع العربية ـ دراسة شاملة لأنواعها العامة والمتخصصة . الرياض : معهد الإدارة العامة ، ١٤١١ هـ .

حسين ، محمد طالب . تحديات خدمات الببليوجرافيا . التعاون الصناعي في الخليج العربي . مج ٢ ، ع ٤ (١٩٨١) . ص ص ٤٥ ـ ٥٠ .

خليفة ، شعبان عبدالعزيز . الببليوجرافيا أو علم الكتاب ـ دراسة في أصول النظرية الببليوجرافية وتطبيقاتها النظرية العامة . القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ١٤١٦هـ .

خليفة ، شعبان عبدالعزيز . المحاورات في مناهج البحث في علم المكتبات والمعلومات . القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ١٤١٧هـ .

دارة الملك عبدالعزيز . قائمة ببليوجرافية مختارة من مكتبة دارة الملك عبدالعزيز عن الجزيرة العربية . الرياض : دارة الملك عبدالعزيز ، ١٤٠١هـ .

درويش ، مديحة أحمد . تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين . جده : دار الشروق ، ١٤٠٠هـ .

دياب ، حامد الشافعي . الضبط الببليوجرافي للدوريات المصرية في عام ١٩٧٩ . مجلة المكتبات والمعلومات العربية . س ١ ، ع ٤ (ذي الحجة ١٤٠١هـ). ص ص ٦ ـ ٣٢ .

الزامل ، عبدالله العلي المنصور . أصدق البنود في تاريخ عبدالعزيز آل سعود . (بدون بيانات النشر) .

الزركلي ، خير الدين . الوجيز في سيرة الملك عبدالعزيز . ط ٤ . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٤م .

ساعاتي ، يحيى محمود ؛ والقحطاني ، عبدالله سالم . مؤلفات ومراجع عن المملكة العربية السعودية . الرياض : شركة مطابع الجزيرة ، ١٣٩١هـ .

السالم ، سالم محمد . مكتبة الملك فهد الوطنية ـ دراسة لوظائفها ضمن بنية البناء الوطني للمعلومات في المملكة العربية السعودية . الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤١٧هـ . (مطبوعات المكتبة ـ السلسلة الأولى ٢١) .

السالم ، سالم محمد . الملك عبدالعزيز ـ قائمة ببليوجرافية اقتنائية . (مشروع ببليوجرافية تحت الإعداد بدعم من مكتبة الملك عبدالعزيز العامة) .

السماري ، فهد بن عبدالله . ببليوجرافيا المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبدالعزيز . الرياض : دار أراكان ، ١٤١٤هـ .

السماري ، فهد بن عبدالله . نظرة على وثائق أرشيف بوتسدام المتعلقة بتاريخ المملكة العربية السعودية في عهد الملك عبدالعزيز . عالم الكتب . مج ١٤ ، ع ٦ (الجماديان ١٤١٤هـ) . ص ص ٦٩٢ ـ ٦٠٨ .

سمرقندي ، عبداللطيف عبدالحكيم . أدوات الضبط الببليوجرافي الراجعة في المملكة العربية السعودية ـ دراسة تحليلية . رسالة ماجستير . جامعة الملك عبدالعزيز ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ١٤٠٤هـ .

سيدو ، أمين سليمان . ببليوجرافية الببليوجرافيات في المملكة العربية السعودية . الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤١٨هـ . (مطبوعات المكتبة السلسلة الثالثة ـ ٣١) .

الشبل ، عبدالله بن يوسف . أهم المصادر النجدية لتاريخ الدولة السعودية : دراسة تحليلية . رسالة دكتوراه غير منشورة . قسم التاريخ بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية . ١٤٠٠هـ .

شرف ، عبدالعزيز ؛ وشعبان ، ابراهيم . عبدالعزيز آل سعود وعبقرية الشخصية الإسلامية . القاهرة : دار المعارف ، ١٤٠٣هـ .

شرف الدين ، عبدالتواب . الموسوعة العربية في الوثائق والمكتبات . قطر : دار الثقافة ، د . ت .

الصمادي ، نسيم . الضبط الببليوجرافي للدوريات في الخليج العربي ـ الاسترجاع الكلي . عالم الكتب . مج ٣ ، ع ٤ (ربيع الآخر ١٤٠٣هـ) . ص ص ٥٦٦ ـ ٥٧٤ .

عبدالهادي ، محمد فتحي . أدوات البحث والاسترجاع الببليوغرافي في العلوم الاجتماعية وبعض قضايا الضبط الببليوجرافي المرتبط بها في الوطن العربي . المجلة العربية للمعلومات . مج ٣ ، ع ١ (١٩٨٢) . ص ص ١١٩ ـ ١٤٢ .

عبدالهادي ، محمد فتحي . دراسات في الضبط الببليوجرافي . القاهرة : العربي للنشر والتوزيع ، ١٩٨٧ . (دراسات في الكتب والمعلومات) .

عبدالهادي ، محمد فتحي . ركائز الضبط الببليوجرافي العربي : نظرة عامة ودعوة للتقنين والتوحيد . مجلة المكتبات والمعلومات العربية . س ٦ ، ع ٢ (ابريل ١٩٨٦) . ص ص ٢٥ـ٣٩ .

العتيبي ، فيحان . بيان بالمؤلفات التي تناولت شخصية الملك عبدالعزيز . الدارة . س ١٩ ، ع ٣ (ربيع الآخر ١٤١٤هـ) . ص ص ٢٤٥ـ٢٤٩ .

عثمان ، فوزية مصطفى محمد . البيليوجرافيا : مفهومها ، أهميتها ، تقنياتها . مجلة المكتبات والمعلومات العربية . س ١٠ ، ع ٢ (ابريل ١٩٩٠) : ص ص ٩٤ـ ١٣٧ .

العثيمين ، عبدالله الصالح . تاريخ المملكة العربية السعودية . الجزء الأول . ط ٦ . الرياض العبيكان ، ١٤١٦هـ .

عسه ، أحمد . معجزة فوق الرمال . د.م : المطابع الأهلية اللبنانية ، ١٩٦٥م .

العقاد ، عباس محمود . مع عاهل الجزيرة العربية . بيروت : المكتبة العصرية ، د.ت .

عمر ، أحمد أنور الإعداد الببليوجرافي : أساسياته ، ونظمه ، وأجهزته ، وحصيلته . مؤتمر الإعداد الببليوجرافي للكتاب العربي . الرياض ٢٩ شوال ـ ٧ ذي القعدة ١٣٩٣هـ . الموافق ٢٤ نوفمبر ـ ١ ديسمبر ١٩٧٣م . تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٣٩٣هـ . ص ص ٣٠٥ـ ٣٣٥ .

العناني ، شكري . المملكة العربية السعودية : دراسة ببليوجرافية . الرياض : دار العلوم ، ١٣٩٨هـ .

فرسوني ، فؤاد . حول الضبط الببليوجرافي لأدب المهجر ومصادره . عالم الكتب . مج ٤ ، ع ٤ (ربيع الثاني ١٤٠٤هـ) . ص ص ٥١٤ـ٥٣٥ .

قاسم ، حشمت . بعض مرتكزات النظام العربي للمعلومات ـ أفكار أولية . الاتجاهات الحديثة في المكتبات والمعلومات . مج ١ ، ع ٢ (يوليه ١٩٩٤) . ص ص ١٣ـ ٣٥ .

قاسم ، حشمت محمد علي . التوثيق العلمي ودوره في خدمة البحث في الجمهورية العربية المتحدة . رسالة ماجستير . قسم المكتبات والوثائق بكلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧١ .

قاسم ، حشمت . المكتبة والبحث . القاهرة : مكتبة غريب ، د . ت .

المارك ، فهد . من شيم الملك عبدالعزيز . الجزء الأول . ط ٢ . د.م : د.ن ، ١٤٠٠هـ .

المسقطي ، أنيسة . بحث عن الجهود العربية للضبط الببليوجرافي . في : البحوث المقدمة لندوة استراتيجية المكتبات ومراكز المعلومات بدول المجلس . الرياض ٢٩ / ١ ـ ٢ / ٢ / ١٤٠٦هـ الموافق ١٣ ـ ١٦ أكتوبر ١٩٨٥م . الرياض : الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية ، ١٤٠٦هـ .

مشالي ، حورية إبراهيم . علم الببليوجرافيا ـ النشأة والتطور . عالم الكتب . مج ٩ ، ع ٤ (ربيع الآخر ١٤٠٩هـ) . ٤٨٩ - ٤٩٩ .

مشالي ، حورية إبراهيم . نحو تأصيل مفهوم الببليوجرافيا الحصرية . حولية المكتبات والمعلومات . مج ٢ (١٤١٠هـ) . ص ص ١٧ ـ ٤١ .

المصري ، محمد . تخطيط مستقبل الضبط الببليوجرافي للإنتاج الفكري للأطباء العرب في العصر الحديث . مجلة المكتبات والمعلومات العربية . س ٣ ، ع ٣ (رمضان ١٤٠٣هـ) . ص ص ٤ ـ ٣١ .

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة . دليل مكتبة الملك عبدالعزيز العامة . الرياض : المكتبة، ١٤٠٩هـ .

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة . فهرس قاعة الملك عبدالعزيز . الرياض : مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ١٤١٢هـ . العدد الأول .

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة . قاعدة معلومات الملك عبدالعزيز . الرياض : المكتبة، ١٤١٧هـ.

مكتبة الملك فهد الوطنية - إدارة التكشيف والاستخلاص . الكشاف التحليلي لمجلة الدارة ١٣٩٥ - ١٤١٥هـ (العدد الأول - السنة الأولى ، العدد الرابع - السنة العشرون) . إشراف دارة الملك عبدالعزيز . الرياض : المكتبة ، ١٤١٦هـ.

مكتبة الملك فهد الوطنية - إدارة التكشيف والببليوجرافية الوطنية . الكشاف الوطني الراجع للدوريات السعودية (١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م - ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) . المجلد الأول . الرياض : المكتبة ، ١٤١٦هـ .

مكتبة الملك فهد الوطنية . الوثائق . الرياض : المكتبة ، ١٤١٧هـ . (الثقافة المكتبية - ٧) .

مكوغلن ، لزلي . ابن سعود - مؤسس مملكة . ترجمة محمد شيتا . بيروت : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ١٩٩٥ .

ميشان ، بنوا . عبدالعزيز آل سعود - سيرة بطل ومولد مملكة . نقله إلى العربية عبدالفتاح ياسين . بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٣٨٥هـ .

الكيلاني ، كمال . صور من حياة عبدالعزيز يرويها الأمير طلال بن عبد العزيز . ط ٢ . الرياض : تميم للنشر والتوزيع ، ١٤٠٣هـ .

الهجرسي ، سعد محمد . الببليوجرافيا والببليوجرافيات في العالم العربي ـ بين التراث الماضي والتطورات الحديثة . في : جامعة الدول العربية ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . قرارات وتوصيات وبحوث مؤتمر الإعداد الببليوجرافي للكتاب العربي . ٢٩ شوال ـ ٧ ذو القعدة ١٣٩٣هـ . الرياض : وزارة المعارف ، ١٣٩٤هـ . ص ص ٣٣٧ ـ ٤٢٧ .

الهجرسي ، سعد محمد . الببليوجرافيا ودراستها في علوم المكتبات . القاهرة : جمعية المكتبات المدرسية ، ١٩٧٤ .

الهوش ، أبو بكر . المدخل إلى علم الببليوجرافيا . ط ٢ . تونس : العهد الأعلى للتوثيق (العدد ١٩) ، ١٩٩٢ .

وزارة الشؤون البلدية والقروية . الرياض سفيرة المدن ـ وثائق صحفية ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م . الرياض : الرياض ، ١٤٠٧هـ .

ثانيا : المراجع الإنجليزية

AINA , L . O . BIBLIOGRAPHIC CONTROL OF THE LITERATURE OF SCIENCE AND TECHNOLOGY . INTERNATIONAL LIBRARY REVIEW . VOL . 21 (1989) . PP . 223 - 229 .

AMAN , MOHAMMED M . BIBLIOGRAPHICAL SERVICES IN THE ARAB COUNTRIES . COLLEGE AND RESEARCH LIBRARIES . VOL . 31 (JULY 1970) . PP .

AVICENNE , PAUL . BIBLIOGRAPHICAL SERVICES THROUGHOUT THE WORLD . PARIS : UNESCO , 1972 .

CHEFFINS , RICHARD H. A. BIBLIOGRAPHIC CONTROL : UBC IN A BIBLIOGRAPHICAL CONTEXT . THE FIRST MIDDLE EAST BOOK FAIR . BAHRAIN . 5 - 10 DECEMBER , 1982 .

CLEMENTS , FRANK A . SAUDI ARABIA . REVISED AND EXPANDED EDITION . COLORADO : CLIO PRESS , 1988 . (WORLD BIBLIOGRAPHICAL SERIES ; V. 5) .

DAVINSON , DONALD . BIBLIOGRAPHIC CONTROL . 2ND. ED. LONDON : CLIVE BINGLEY , 1981 .

DOWNS , ROBERT (ED.) . BIBLIOGRAPHY : CURRENT STATE AND FUTURE TRENDS. URBANA : UNIVERSITY OF ILLINOIS PRESS , 1967 .

ELLIS , ARTHUR . BIBLIOGRAPHIC CONTROL - TODAY AND TOMORROW . IN : RICKARDS , J . M . & CAYLESS , C . F . INTERLENDING IN THE 80' S - PROCEEDINGS OF A NATIONAL CONFERENCE HELD AT THE UNIVERSITY OF QUEENSLAND , BRISBANE . 27TH TO 29TH AUGUST , 1980 . LIBRARY ASSOCIATION OF AUSTRALIA , 1980 . PP . 105 - 112 .

GASKELL , PHILIP . A NEW INTRODUCTION TO BIBLIOGRAPHY . OXFORD : CLARENDON PRESS , 1974 .

HARMON , ROBERT . ELEMENTS OF BIBLIOGRAPHY : A SIMPLIFIED APPROACH . METUCHEN : SCARECROW PRESS , 1981 .

HICKEY , DORALYN J . BIBLIOGRAPHIC CONTROL IN THEORY . IFLA JOURNAL . VOL . 6 , NO . 3 (1980) . PP . 234 - 241 .

IFLA INTERNATIONAL OFFICE FOR UBC . MANUAL ON BIBLIOGRAPHIC CONTROL . PARIS : UNISCO , 1983 .

ITA , NDUNTUEI . PROBLEMS OF BIBLIOGRAPHIC CONTROL IN NIGERIA . LIBRI . VOL 36 . NO . 4 (DECEMBER 1986) . PP . 320 - 335 .

KRUMMEL , D . W . BIBLIOGRAPHIES : THEIR AIMS AND METHODS . LONDON : MANSELL , 1984 .

KWEI , C . BIBLIOGRAPHIC CONTROL : THE INTERNATIONAL CONCEPT AND THE NATIONAL EFFORT . GHANA LIBRARY JOURNAL . VOL . 6 , NO . 1 (NOVEMBER 1988) . PP . 31 - 39 .

THE LIBRARY OF CONGRESS . THE ARABIAN PENINSULA - A SELECTED , ANNOTATED LIST OF PERIODICALS , BOOKS , AND ARTICLES IN ENGLISH . WASHINGTON : LIBRARY OF CONGRESS , 1951 .

LINE , MAURICE . NATIONAL LIBRARY AND INFORMATION PLANNING . IN : KATZ BILL (ED.) . LIBRARY LIT . 14 - THE BEST OF 1983 . LONDON : THE SCARECROW PRESS , INC . , 1984 . PP . 43 - 60 .

PHILIPPS , HANS - JURGEN . SAUDI ARABIA : BIBLIOGRAPHY ON SOCIETY , POLITICS , AND ECONOMICS . 2 VOLUMES . MUNCHEN : K . G . SAUR , 1989 .

REHMAN , SAJJADUR . NATIONAL INFRASTRUCTURE OF LIBRARY AND INFORMATION SERVICES IN ARAB COUNTRIES . INTERNATIONAL LIBRARY REVIEW . VOL . 21 (1989) . PP . 445 - 461 .

STEVENS , J . & KING , R . A BIBLIOGRAPHY OF SAUDI ARABIA . USA : UNIVERSITY OF DURHAM - CENTRE FOR MIDDLE EASTERN AND ISLAMIC STUDIES , 1973 . (OCCASIONAL PAPERS SERIES - NO. 3) .

STOKES , ROY . BIBLIOGRAPHICAL CONTROL AND SERVICE . LONDON : ANDRE DEUTSCH , 1968 .

STOKES , ROY . THE FUNCTION OF BIBLIOGRAPHY . 2ND . ED . LONDON : GOWER PUBLISHING COMPANY LIMITED , 1982 .

TAHER , MOHAMAD . BIBLIOGRAPHIC CONTROL OF INFORMATION SOURCES IN HUMANITIES . LUCKNOW LIBRARIAN . VOL . 20 . NO . 2 (1988) . PP . 59 - 71 .

TASHKANDY , ABDUL JALIL . BIBLIOGRAPHICAL CONTROL IN SAUDI ARABIA : AN INQUIRY INTO THE PRINTING AND DISTRIBUTION OF GOVERNMENT PUBLICATIONS , WITH RECOMMENDATIONS FOR IMPROVEMENT . PH . D . DISSERTATIONS . FACULTY OF GRADUATE SCHOOL OF LIBRARY AND INFORMATION SCIENCES , UNIVERSITY OF PITTSBURGH , 1977 .

THOMAS, SARAH. BIBLIOGRAPHIC CONTROL AND AGRICULTURE . LIBRARY TRENDS . VOL . 38 . NO . 3 (WINTER 1990) . PP . 542 - 561 .

VASILEV , A . M . BIBLIOGRAPHY ON SAUDI ARABIA . MOSCOW : N . P . , 1983 .

WYNER , BOHDAN S . INTRODUCTION TO LIBRARY AND REFERENCE WORK . ROCHESTER : LIBRARIES UNLIMITED , 1967.

ونظرًا لذلك فقد وقع اختياري بفضل الله ـ ولله الحمد والمنة ـ على موضوع: «**الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف**».

وبالإضافة إلى ما سبق أن بينته عن أهمية علم التفسير، هناك العديد من الحوافز التي جعلتني أختار هذا الموضوع:

أولاً: شغفي الشديد منذ بداية دراستي الجامعية بالقرآن الكريم وما يتصل به، ولا شك أن التفسير هو أشرف العلوم ـ كما أسلفت ـ لأنه يجلّي معاني كتاب الله ـ عز وجل ـ الذي شغفت به منذ الصغر.

ثانيًا: إن بحثي في مرحلة الماجستير كان موضوعه: «خصائص السور والآيات المدنية ومقاصدها» وهذا البحث من صميم علوم القرآن الكريم، فأردت ـ بفضل الله وعونه ـ أن يكون بحثي في رسالة الدكتوراه موضوعه متصلٌ بتفسير الكتاب العزيز؛ ولأتمكن بهذه الدراسة من الإحاطة بهذين الأصلين العظيمين اللذين لا يستغنى أحدهما عن الآخر.

ثالثًا: لقد تأملت في سورة الأعراف وما ذكرته عن آدم ـ عليه السلام ـ وتكريم الله له بأن أسجد له ملائكته، وامتناع الشيطان عن السجود لآدم كما أمره الله ـ عز وجل ـ وتبجحه بقوله لربه: ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾[1] وتوعده بني آدم بما حكاه الله ـ عز وجل ـ عنه بقوله: ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾[2] ووسوسته لآدم وحواء ـ عليهما السلام ـ بأكلهما من الشجرة، وقد فعلا ذلك لحكمة أرادها الله ـ عز وجل ـ فكان

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦، ١٧).

إغواء الشيطان لآدم وبينه من بعده، وأكل آدم وحواء من الشجرة هما مبدأ الصراع بين الحق والباطل الذي هو موضوع الدراسة، فاندفعت بهمة عالية، وعزم أكيد، مستعينًا بعون الله وتوفيقه إلى دراسة سورة الأعراف التي ذكرت ذلك الصراع في أوائل آياتها. ثم كررت ذكره متمثلاً بدعوة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أقوامهم إلى الحق، وتشبث أقوامهم ـ إلا من رحم الله ـ بالباطل، فكان صراعًا مريرًا سطرته سورة الأعراف وانفردت به بشكل مميز. ولقد تعرضت سور أخرى مكية ومدنية لهذا الصراع، إلا أن بعضها طويل له خصائص أخرى كسورة البقرة التي يقتضي تفسيرها ودراستها جهدًا أكبر، ووقتًا أطول، واتجاهًا آخر يخالف الاتجاه الذي من أجله جعلت سورة الأعراف موضع بحثي، كما أن السور المكية التي ذكرت هذا الصراع وفصلت فيه لم تستوعب من القصص القرآني ما استوعبت سورة الأعراف، ولذا اخترتها موضوعًا للدراسة.

رابعًا: ومن الحوافز التي جعلتني أختار سورة الأعراف؛ أنها اشتملت على قصص الأنبياء المصطفين والتي بلغت ثماني قصص، وهي بالترتيب كما يلي:

قصة آدم عليه السلام، وقصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، وخاتمهم نبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ آملاً من خلال دراستي لهم الوقوف على أساليبهم الحكيمة في دعوتهم لأقوامهم، وتصديهم للباطل، وصبرهم على ما يلاقونه من استهزاء وقذف وتعدٍ وتهكم. والقصص القرآني أعظم بيان لذلك، وسورة الأعراف باعتبارها قد اشتملت على أغلب القصص الذي تكرر ذكره في القرآن الكريم خير بيان لذلك.

خامسًا: لقد اشتمل قصص النبيين في القرآن الكريم على دروس وعبر مهمة لكل داعٍ ومصلح من المسلمين؛ ليخرج الرحيق الذي يشفي النفوس من عللها،

وتكون له منهجًا سويًا يقتفي أثره لدعوة أهل زمانه للحق، وينشلهم مما وقعوا فيه من الباطل، ويوصلهم إلى معرفة خالقهم ـ جل وعلا ـ بإخلاص العبادة له ـ عز وجل. وسورة الأعراف خير مثال لذلك.

سادسًا: ومن الحوافز التي جعلتني أختار هذا الموضوع أنني تطلعت في واقع عالمنا الإسلامي فوجدت أن المسلمين مغلوبون على أمرهم، تُغتصب حقوقهم، وتُهدر كرامتهم، يُقتَّلون ويُشرّدون، ولا يُسمَع لاستغاثتهم، وقد تسلطت عليهم قوى البغي والعدوان، وقد تداعت عليهم الأمم كتداعي الأكلة إلى قصعتها كما أخبر الصادق الأمين[1] ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وليس أمام الأمة الإسلامية من حَلٍ للتخلص من ورطتها إلا برجوعها إلى كتاب ربها وسنة رسوله ﷺ، وإمعانٍ النظر في قصص القرآن الكريم الذي يقص طبائع الكافرين وأخلاقهم المبنية على الشر والعدوان، وتدبير المكائد للمؤمنين؛ ليحملوهم على الكفر إن استطاعوا، أو ليصرفوهم عن دينهم بعض الصرف إذا عجزوا عن تكفيرهم. والله أسأل أن يحفظ على الأمة الإسلامية دينها ويحفظها من أعدائها.

كل تلك الأسباب جعلتني أختار هذا البحث، وعلى الرغم من قلة زادي، وقصر باعي؛ فقد استعنت بالله تعالى في كتابة هذا البحث وأرجو من الله عونه وتوفيقه وأن يتقبل جهدي هذا، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يغفر لي ما كان فيه من تقصير، ولستُ أدَّعي تَميُّزًا في البحث ولا كمالاً فيه فالكمال لله وحده، وكيف يصدر الكمال في الإنسان وهو يخطيء ويصيب؟ فما كان في

---

(١) أخرج أبو داود في سننه عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**» الحديث... سنن أبي داود، باب تداعي الأمم على الإسلام (٢/ ٤٢٦) ورواه الإمام أحمد في مسنده بنحوه (٥/ ٢٧٨).

بحثي هذا من خير وصواب فهو من الله وحده لا شريك له، وما كان فيه من قصور فهو مني أعتذر إلى الله منه والله حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊

منهجي في هذا البحث

أولاً: استعنت بكتب التفاسير المشهورة، لا سيما الأمهات منها: كتفسير الطبري، والتفسير الكبير للإمام الرازي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وروح المعاني للألوسي، والكشاف للزمخشري. وما من كتاب من كتب التفسير أخذت منه إلا نسبت إليه موضع مأخذي بالجزء والصحيفة.

ثانيًا: استعنت بكتب السنة فيما ذكرته في البحث من الأحاديث النبوية الشريفة، وقد اعتنيت بنسبة هذه الأحاديث الشريفة إلى الكتب التي أخذتها منها، فما أخذته من الصحيحين رددته إليهما بالجزء والصحيفة، وكذلك ما أخذته من بقية الكتب الستة نسبته إلى جزئه وصحيفته، وما أخذته من المسانيد بَيَّنتُ مكانه في المسند الذي أخذته منه، وقد راجعت الحكم على الأحاديث والآثار في الكتب المعتمدة عند أهل الحديث.

ثالثًا: اقتضى بحثي هذا الرجوع إلى كتب اللغة: ككتاب لسان العرب لابن منظور، وتهذيب اللغة للأزهري، وكتاب تاج العروس للزبيدي، وكتاب المفردات في غريب القرآن للأصفهاني.

رابعًا: رجعت إلى كتب السيرة النبوية والتاريخ فأخذت منها ما احتجت إلى ذكره في هذا البحث.

خامسًا: ترجمت لبعض الأعلام الذين ذكرتهم في هذا البحث، وقد رجعت في ذلك إلى المراجع الأصلية التي اعتنت بتراجم العلماء، كما رجعت

إلى مراجع حديثة ترجمت لبعض من ذكرتهم من الفلاسفة في الفصول الأخيرة.

سادساً: ما نقلته نصًا من المراجع وضعته بين قوسين، وذكرت مرجعه في هامش الرسالة، وما نقلته بتصرف أو عبرت عنه أشرت إلى ذلك في الهامش بقولي: «انظر ص كذا».

سابعاً: اقتضى البحث مني في معظم الفصول أن أقدم له تمهيدًا رأيت من وجهة نظري حاجة تلك الفصول إلى ذلك التمهيد. هذا وقد أسست بحثي على مقدمة، وتمهيد، واثني عشر فصلاً، وخاتمة، وقسَّمتُ الفصل إلى مباحث، وقسمت المبحث - في بعض الفصول - إلى مسائل؛ ليسهل على القاريء التعرف على هذه المسائل والوقوف على مكانها في البحث، وجعلت في آخر الرسالة ثلاثة فهارس، وهي فهرس الأعلام، وفهرس المراجع، وفهرس الموضوعات.

وقد كانت خطتي في هذا البحث على النحو التالي:

أما المقدمة: فبينت فيها سبب اختياري للموضوع، ثم تتوالى الفصول على النحو التالي:

الفصل الأول

صراع إبليس مع آدم ـ عليه السلام ـ

المبحث الأول : مسائل مهمة لابد من توضيحها .

المبحث الثاني : الآيات التي يدور عليها الصراع في قصة آدم ـ عليه السلام .

الفصل الثاني

الصراع بين نوح ـ عليه السلام ـ وقومه

مقدمة :

المبحث الأول : دعوة نوح ـ عليه السلام ـ لقومه .

المبحث الثاني : أسباب الصراع بين نوح ـ عليه السلام ـ وقومه .

المبحث الثالث : موقف نوح ـ عليه السلام ـ من الكافرين المعاندين .

الفصل الثالث

الصراع بين هود ـ عليه السلام ـ وقومه

مقدمة :

المبحث الأول : دعوة هود ـ عليه السلام ـ لقومه .

المبحث الثاني : أ ـ موقف الكافرين المعاندين من دعوة ـ هود عليه السلام ـ .

ب ـ دفاع هود ـ عليه السلام ـ عن نفسه .

المبحث الثالث : موقف هود ـ عليه السلام ـ من الكافرين والمعاندين :

أولاً : مجاهدة هود ـ عليه السلام ـ لقومه ورده لشبهاتهم .

ثانياً : مصير الكافرين المعاندين من قوم عاد .

الفصل الرابع

الصراع بين صالح ـ عليه السلام ـ وقومه

مقدمة :

المبحث الأول : دعوة صالح ـ عليه السلام ـ لقومه .

المبحث الثاني : موقف الكافرين المعاندين من دعوة صالح ـ عليه السلام ـ .

المبحث الثالث : مصير الكافرين المعاندين من قوم صالح ـ عليه السلام ـ .

الفصل الخامس

الصراع بين لوط ـ عليه السلام ـ وزوجته خاصة وقومه عامة

مقدمة :

المبحث الأول : دعوة لوط ـ عليه السلام ـ لقومه .

المبحث الثاني : موقف قوم لوط من دعوته .

المبحث الثالث : نجاة لوط وأهله ومصير الكافرين المعاندين .

الأبحاث الطبية التي كشفت عن ضرر فاحشة اللواط .

الفصل السادس

الصراع بين شعيب ـ عليه السلام ـ وقومه

مقدمة :

المبحث الأول : دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه .

المبحث الثاني : موقف الكافرين من دعوة شعيب ـ عليه السلام .

موقف شعيب ـ عليه السلام ـ من قومه .

موقف شعيب من اتهامه بالضعف .

المبحث الثالث : عاقبة قوم شعيب .

الفصل السابع

القسم الأول : الصراع بين موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون .

وفيه خمسة عشر مبحثًا .

القسم الثاني : الصراع بين موسى ـ عليه السلام ـ وبني إسرائيل .

وفيه ثمانية عشر مبحثًا .

الفصل الثامن

الصراع بين نبينا محمد ﷺ وقومه

مقدمة :

المبحث الأول : دعوة النبي ﷺ لقومه .

المبحث الثاني : أسباب موقف الكافرين المعاندين وإنكارهم لدعوة النبي ﷺ .

المبحث الثالث : موقف الرسول ﷺ من الكافرين المعاندين .

الفصل التاسع

وجه الشبه بين مواقف الكافرين والمعاندين وردهم وإنكارهم لدعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ

المبحث الأول : دعوة الرسل عليهم السلام لأقوامهم .

وجه الشبه بين دعوة الرسل .

المبحث الثاني : مواقف الكافرين المعاندين من دعوة الرسل عليهم السلام .

وجه الشبه بين مواقف الكافرين المعاندين .

المبحث الثالث : كفر كل أمة ومعصيتها ونوع العقاب الذي عوقبت به .

الفصل العاشر

الصراع كما تراه وتصوره النظريات الحديثة

مقدمة : نشأة النظريات القديمة والحديثة .

نظرة الفلاسفة في العصر الحديث إلى الصراع :

هيجل ، كارل ماركس ، داروين ، لامارك . . . .

الفصل الحادي عشر

موقف الإسلام من الصراع

ويتضمن الرد على النظريات الحديثة

المبحث الأول : النصر محتم من عند الله للمؤمنين .

المبحث الثاني : تعدد وجوه النصر الإلهي للمؤمنين .

الخاتمة

وفيها ذكرت النتائج التي توصلت إليها من البحث

* * *

التمهيد

التمهيد

ويشتمل على:

أ ـ مفهوم الحق والباطل والصراع بينهما.

ب ـ بيان أن سورة الأعراف من السبع الطوال وهي مكية.

ثم بيان المقاصد العامة لسورة الأعراف، وهي:

أولاً: الآيات الخاصة بالحض على الإيمان بالله ـ عز وجل ـ.

ثانياً: الآيات الزاجرة عن الشرك

ثالثاً: الآيات الخاصة باليوم الآخر وأن وقوعه لا ريب فيه.

رابعاً: الآيات الخاصة بصدق الرسول ـ ﷺ ـ.

(أ) مفهوم الحق والباطل والصراع بينهما

الصَرْع: بفتح الصاد وسكون الراء من الثلاثي في الأصل هو: الطرح على الأرض للإنسان[١] تقول: صارعه فصرعه يصرعه صَرعًا وصِرعًا فهو مصروع وصريع . . . والمصارعة والصراع معالجة الرجل لصاحبه أيهما يصرع صاحبه[٢].

ومن معاني الصراع: معالجة القرنين[٣] أيهما يصرع صاحبه[٤].

ومن خلال ما سبق يتضح أن المادة من الثلاثي والرباعي تدور على معنيين:

المعنى الأول: الغلبة، سواء أكانت الغلبة بالحجة مثل الحجة بالقرآن الكريم والكتب السماوية والمعجزات النبوية، أم كانت الغلبة بالانتصار بالقوة الذاتية والحروب.

وهذا ما تحقق للأنبياء ـ عليهم السلام ـ وأتباعهم على أعداء الله فقد انتصروا عليهم؛ غلبوهم بالحجة أولاً، ثم بالسيف والقوة ثانيًا.

المعنى الثاني: الفنون المبتكرة، التي بها ينتصر أحد المتصارعين على صاحبه.

---

(١) الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد. تهذيب اللغة. (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت)، ٢/ ٢٤.

(٢) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم. لسان العرب. (بيروت: دار صادر، د.ت)، ٢/ ٢٤.

(٣) الند المناوىء.

(٤) تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضي الزبيدي (٥/ ٤١١ ـ ٤١٣).

فمفهوم الصراع بين الحق والباطل إذن هو **غلبة الحق على الباطل بالبراهين والحجج التي لا تدع مجالاً لذي لب في ظهور الحق على الباطل، ومدافعته له بالشرائع الإلهية[١] التي أنزلها الحق ـ عز وجل ـ في كتبه على أنبيائه ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أو ألهمهم إياها فيما يروي عنهم.**

وسيمر بك أيها القاريء الكريم ـ بمشيئة الله ـ لذلك نماذج كثيرة فيما يعرضه القرآن الكريم في هذه السورة الكريمة من الحجج البالغة التي دمغ بها الأنبياء الباطل وأصبحت قرآنًا يتلى.

الحق: لقد ورد الحق بمعان كثيرة، والذي يتلاءم مع البحث ويتناسب معه معان أربعة:

أ ـ الحق: هو الشيء الثابت المتحقق.

ب ـ الحق: ضد الباطل.

جـ ـ الحق: بمعنى الصواب[٢].

د ـ الحق: القرآن وما جاءت به السنة المطهرة[٣].

إن كلمة الحق إنما تولد من ميزان العقل السليم، المتحرر عن أنواع التبعات والأهواء والعصبيات كافة.

الباطل: هو نقيض الحق، وهو الذي لا يقره الشرع. وقد جاءت مادة الباطل في لغة العرب على معان مختلفة يدور أغلبها على ما يلي:

---

(١) التي من جملتها مجاهدة أهل الباطل بالمال والنفس والنفيس لإعلاء كلمة الله.

(٢) لسان العرب، (١٠/ ٥٠).

(٣) تاج العروس (٦/ ٣١٥).

أ ـ بطل الشيء يبطل بطلاً وبطولاً وبطلانًا: ذهب ضياعًا وخسرًا[١] فكل ما لا يقره الشرع مما هو فاسد شرعًا وعقلاً وعادة ضائع ذاهب، لا يعول عليه، ولا ينبني عليه حكم شرعي.

ب ـ الباطل نقيض الحق، أي: الذي جاء على خلافه. وجمع الباطل: أباطيل وبواطل.

جـ ـ أبطل، أي: جاء بالباطل واجتهد فيه.

د ـ والشيء باطل، أي: بيّن البطول والبطلان، أي: لا حق فيه البتة.

هـ ـ وتبطلوا بينهم، أي: تداولوا الباطل، واجتهدوا في نشره.

و ـ التبطل فعل الباطلة ـ بفتح الباء ـ وهو اللهو والجهالة.

ز ـ وأبطلتُ الشيء جعلته باطلاً، أي: ذاهبًا.

ح ـ وأبطل فلان، أي: جاء بكذب، وادَّعي باطلاً[٢].

إن كلمة الباطل إنما تولد في غمار ما يمكن أن يعلق بالإنسان من شوائب الشهوات والأهواء والعصبيات والأغراض الشخصية المتنوعة، والجامع لهذه المعاني كلها هو أن الباطل عارٍ عن الخير، وأن أهل الحق يجتهدون في إذهاب الباطل بما يظهورنه من أحقية الحق وإبطال الباطل.

وهذا هو ما يهدف إليه عنوان الدراسة هذه: «**الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف**» فكما أن للحق أهله المجتهدين في نصرته، القاذفين فيه على الباطل بُغيةَ دمغه وطمسه، كذلك للباطل أعوانه الذين يحاولون

(١) انظر: لسان العرب، (١١/ ٥٦).

(٢) لسان العرب، (١١/ ٥٦) بتصرف.

إعلاءه على الحق، وإغراء الناس به بشتى الوسائل المتاحة لهم، قال تعالى: ﴿ **ما لهُم به من علْمٍ ولا لآبائهِمْ كبُرتْ كلمةً تخْرُجُ منْ أفْواهِهِمْ إن يقُولُونَ إلاَّ كذبا** ﴾[1].

ولولا أن الله يدفع بأهل الحق أهل الباطل، وينصر أهل الحق على معاديه لفسدت الأرض بانتشار الشرور فيها والمفاسد التي هي من طبائع أهل الباطل.

قال تعالى: ﴿ **ولوْلا دفْعُ اللَّه النَّاس بعْضهُم ببعْضٍ لَّفسدتِ الأرْضُ ولَكنَّ اللَّه ذُو فضْلٍ على الْعالمين** ﴾[2].

ولذا يجب أن يبقى جند الحق على قوة قوية، لا تضعف ولا تهون في مدافعة أهل الباطل، يبذلون نَفَسهم ونفيسهم في سبيل إعلاء كلمة الحق، ويتمثل ذلك بالإقناع بالحجة البليغة، وبامتشاق الحسام إذا لم يكن سبيل لنصر الحق إلا بذلك، مع العلم بأن أهل الباطل كانوا وما يزالون متربصين بأهل الحق، مُهتبلين كل فرصة تتاح لهم، لا سيما عندما يشعرون بضعف أهل الحق وإعراضهم عن التمسك به، وعندما يحاكون - أهلُ الحق - أهلَ الباطل فيما عندهم من الشرور. فالصراع الذي أمر المؤمنون بخوضه لنصرة الحق يتمثل فيما يلي:

أولاً: مجاهدتهم أنفسهم على الثبات على الحق، وأن يظل الانتصار له قويًا في نفوسهم لا يضعف.

ثانيا: مجاهدة أعدائهم بالحجة والبرهان، فإن عجزت الوسائل الإقناعية وظل طغاة الباطل يمنعون المسلمين من دعوة الحق أمكن حينئذ اللجوء إلى القوة - السيف - لإزاحة الطغاة هؤلاء، وتأمين تبليغ دعوة الناس، وإقامة العدل والأمن

(١) سورة الكهف: الآية (٥).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٥١).

والسلام. وذلك لا يكون إلا بالجهاد في سبيل الله بالمال والنفس. وقد قصر الله ـ عز وجل ـ الإيمان والصدق على الملتزمين بهذا الجهاد، قال تعالى: ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾[١].

وهو المعبر عنه في القرآن بالتجارة الرابحة المنجية من العذاب الأليم، والمحققة لمغفرة الله ورضوانه، ودخول المؤمن جنات تجري من تحتها الأنهار مقيمًا فيها أبدًا، وذلك الدخول هو الفوز العظيم، قال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١١) يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم** ﴾[٢].

وهو الجهاد الذي أخبر رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أمته أن عزهم فيه، وأنهم إن تركوه ضرب الله عليهم بالذل فلا يرفعه عنهم إلا بعودتهم إليه، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**إذا تبايعتم بالعينة[٣] وأخذتم أذناب البقر[٤] ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذلاً[٥] لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**»[٦].

---

(١) سورة الحجرات: الآية (١٥).

(٢) سورة الصف: الآيات من (١٠) إلى (١٢).

(٣) أي: إذا وجهتم هممكم للبيع والشراء: والمراد بالعينة: المال الحاضر من النقد.

(٤) أي: اتخذتم الماشية للحرث والري وتربية نتاجها، وعكفتم على الأعمال التجارية.

(٥) أي: ضعفًا وامتهانًا.

(٦) السجستاني، الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي. السنن، الطبعة الأولى، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧١هـ)، ٢/ ٢٦٤.

ويقابل هذا الصراع صراع أهل الكفر لأهل الحق من أجل باطلهم وانتصارهم له بكل وسيلة متاحة لهم: بأموالهم، وأنفسهم، واستعباد الشعوب وتسخيرها في أغراضهم وأهوائهم، وبذل كل طاقاتهم لشيوع الفواحش والمحرمات فيها، مستخدمين في ذلك وسائل ابتكروها لنشر ضلالهم، استهوت أغلب البشر، وصرفتهم عن الحق.

ومن أجل هذا الصراع بين الحق والباطل قامت حروب وحروب، وأُبيدت دول وظهرت أخرى، والتاريخ يستبطن ذلك كله، ويحتفظ به لمن أراد الرجوع إليه.

* * *

غاية الصراع في الإسلام

إن غاية الصراع في الإسلام هي هداية البشرية، ودلالتها على سعادتها في الدنيا والآخرة، وترغيبها في الخضوع لربها، وأن تعبده بما شرعه لها، وأن تنبذ العداوات، ويسيطر الحب والإخاء على قلوب الناس، وغاية الصراع عند أعداء الحق هو تحطيم البشرية، وإضلالها عن الحق، وتجهيلها بربها ـ عز وجل ـ وتجهيلها بآخرتها؛ دار القرار التي هي إليها صائرة، وإفشاء العداوات والأحقاد والفتن.

ولقد كان الكفار قديمًا يتبجحون بهذه الغاية، ويعلنون عنها بلا حياء، وكان هذا التبجح يلهب حماس أهل الحق دائمًا، وكانت الحروب هي أهم وسيلة لتأكيد هذه الغاية.

ولكن أعداء الحق وجدوا أنفسهم أمام دين عظيم هو دين الإسلام؛ الدين الخالد إلى آخر الدهر، وقد جربوا في إضعافه وإضعاف أهله وسائلهم التقليدية فأخفقت مرارًا، لكنهم لم يعتبروا بهذا الإخفاق، فسلكوا وسائل جدية يقدمونها على ما هو قديم عندهم لتكون تمهيدًا لذلك، على رأسها تزيين المحرمات، وإغراء أنفسهم والمسلمين بها ما أمكن، وصنعوا لذلك وسائل كثيرة لنشرها وبثها كأجهزة الإعلام من التلفاز والفيديو والسينما والمسرح والمجلات، وغير ذلك مما انطلى علينا نحن المسلمين كثيرٌ منه، وخفي علينا المقصود به وغاية أهل الباطل من ورائه.

وكما أسلفت أن كلمة الحق إنما تولد من ميزان العقل السليم، المتحرر عن أنواع التبعات، والأهواء، والعصبيات كافة، ومن ثم فإن للحق وأهله سلاحًا

واحداً يعتمد عليه في مجال صراعه للباطل وهو اللجوء إلى حكم الله ـ عز وجل ـ وسنة نبيه ﷺ، ولا شك أنهما لا يتنافيان مع حكم العقل المجرد من التبعات، والأهواء والعصبيات.

وإن كلمة الباطل ـ وكما أسلفت ـ إنما تولد في غمار ما يمكن أن يعلق بالإنسان من شوائب الشهوات، والأهواء، والعصبيات، والأغراض الشخصية المتنوعة، ومن ثَمَّ فإن سلاح أهل الباطل هو ستر هذه الشوائب بقناع الحقيقة العقلية، ومن ثَمَّ فإنك تلاحظ ذلك عند تعرضي لمواقف الكافرين المعاندين من دعوة أنبيائهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لهم، وكذلك عند تعرضي للنظريات الحديثة حيث إنها تنطوي على مفاهيم غامضة، وأساليب غير واضحة، لا تصلح لأن تكون منهجًا للبشرية أو دستورًا يكفل لها الأمن والسعادة والاستقرار.

❊ ❊ ❊

(ب) بيان أن سورة الأعراف من السبع الطوال وهي مكية

تعد سورة الأعراف أطول سورة مكية في القرآن، وهي السورة السابعة في الترتيب المصحفي، وعدد آياتها مائتان وست آيات، واستُثني منها الآيات التالية فهي مدنيات من قوله تعالى[١]: ﴿ **واسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ** ﴾[٢].

وسورة الأعراف كغيرها من السور المكية التي قررت أصول الدعوة الإسلامية من توحيد الله ـ عز وجل ـ وإقامة الأدلة على وحدانيته، وإثبات النبوة والرسالة لمن اصطفاهم الله من الناس للنبوة والرسالة، والتي اشتملت السورة على ذكر بعضهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وعلى تأكيد البعث والجزاء[٣].

ويمكن أن نُقسِّم مقاصد السورة إلى أربعة أقسام:

أولاً: الآيات الخاصة بالحض على الإيمان بالله ـ عز وجل ـ.

---

(١) الزركشي: الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله. البرهان. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٣٩١هـ)؛ وانظر أبو العلا، عادل محمد صالح. خصائص السور والآيات المدنية ومقاصدها. رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى بمكة المكرمة عام ١٤٠٣هـ.

(٢) سورة الأعراف: الآيات من (١٦٣) إلى (١٧١).

(٣) الزرقاني، الشيخ محمد عبد العظيم. مناهل العرفان، الطبعة الثالثة؛ (القاهرة: البابي الحلبي، د.ت) ١/ ١٨٩ـ١٩٦).

ثانياً : الآيات الزاجرة عن الشرك.

ثالثاً : الآيات الخاصة باليوم الآخر، وأن وقوعه لا ريب فيه، وأنه ممكن عقلاً غير مستحيل.

رابعاً : الآيات الخاصة بصدق الرسول ﷺ.

أولاً: الآيات الخاصة بالحض على الإيمان بالله - جلا وعلا -.

إن الدارس لهذه السورة الكريمة المكية، يجد أنها كغيرها من السور المكية دعت إلى تثبيت الإيمان في النفوس، وحضت على التمسك به لأنه طريق السعادة، لذلك أمرنا تعالى في الآية الثالثة من هذه السورة، أن نتبع ما أنزل من ربنا، مجانبين أن نتبع من دونه أولياء هُم وسيلة الشيطان إلى الإغواء، ويبين تعالى في هذه الآية أن تلك الحقيقة بشقيها تغيب عن كثير من الناس، وأن أغلب البشر في ذهول عنها، وأنهم لا يتذكرونها إلا تذكراً لا يوصلهم إلى المطلوب.

قال تعالى: ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾[1] ولا شك أنه باتباع ما أنزل الله، واجتناب ما نهى عنه، تتحقق السعادة والطمأنينة مع ملاحظة أن تلك السعادة الدنيوية والأخروية تدرك بأعمال ميسورة ليس فيها مشقة ولا عنت، وباستطاعة النفس تقبلها، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**[2] **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٣).

(٢) الوسع: ما يقدر الإنسان عليه في حالة السعة والسهولة لا في حال الضيق والشدة. انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ٧٩).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٤٢).

فجزاء الإيمان الخلود في الجنة؛ دار أهل الإيمان، لا يدخلها غيرهم بحال من الأحوال ـ وهذا حسب مشيئته ـ وإن سلوك سبيل الشيطان لا يدخل أصحابه إلا النار.

ومن وسائل هذه السورة في الترغيب في الإيمان والحض عليه، وأنه سبب اليسر والسعادة في هذه الدنيا، وإنزال البركات على المؤمنين المتقين، قوله تعالى: ﴿ **ولَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا واتَّقَوْا لفتحْنا عليْهم بركاتٍ مِّنَ السَّماءِ والأَرْضِ ولَكِن كَذَّبُوا فأَخَذْناهُم بِما كانُوا يكْسِبُون** ﴾[1].

فلو أنهم آمنوا بالله وبما أنزله على أنبيائه ﴿ **واتَّقَوْا** ﴾ أي: ما حرم الله ـ تعالى ـ عليهم: ﴿ **لَفَتَحْنا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ** ﴾ ﴿ **لفتحْنا** ﴾: النون نون العظمة، والآية الكريمة ربطت حصول ذلك بالإيمان والتقوى، والمراد من الآية: أي ليسَّرنا عليهم الخيرات من كل جانب: بركات السماء بالمطر، وبركات الأرض بالمال والأولاد والنبات والثمار وكثرة المواشي والأنعام وخصوبة الأرض وحصول الأمن والسلامة.

ولا يغيب عن بالنا أنّ الإنسان حريص بطبعه على الاستكثار من عرض الدنيا، غير مبالٍ بما يضره منه وبما ينفعه، وقد بيّن الله في هذه الآية أن ما يفتحه على الإنسان من بركات السماوات والأرض هو خير خالص لا تكدير فيه ولا مضرة، فصدق الإيمان ولزوم التقوى يحققان للإنسان ما يبتغيه من كثرة الأشياء لديه، ويجعلان تلك الأشياء مباركة نافعة.

أما اتساع الأرزاق لبعض الناس الذين لم يخالط الإيمان قلوبهم فإنه فتنة في

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٩٦).

الدنيا، واستدراج لهم عن الطاعة إلى المعصية، بل الكفر في بعض الأحيان، والمباغتة بالعذاب في الدنيا قبل الآخرة.

قال الله ـ تعالى ـ في بيان حال من نسوا ما ذُكِّروا به في كتاب الله وعلى ألسنة رسله: ﴿ **فلمَّا نسُوا ما ذُكِّرُوا به فتحنا عليهمْ أبْوابَ كُلِّ شيْءٍ حتَّىٰ إذا فرِحُوا بما أُوتُوا أخذْناهُم بغْتةً فإذا هُم مُبْلِسُون (٤٤) فقُطِع دابرُ الْقوْمِ الَّذين ظلَمُوا والْحمْدُ للَّه ربِّ الْعالمين** ﴾[1] أي: فلما غفلوا، ولم يتعظوا، ولم ينزجروا بما حل بهم من النقم وبما جاءتهم من البينات ﴿ **فتحنا عليهمْ أبْوابَ كُلِّ شيْءٍ** ﴾ وذلك استدراجًا لهم، فغمروا بالنعم، وتضاعفت عليهم الخيرات بمختلف أشكالها ﴿ **حتَّىٰ إذا فرِحُوا بما أُوتُوا** ﴾ من الخير والنعمة ﴿ **أخذْناهُم بغْتةً فإذا هُم مُبْلِسُونَ** ﴾ أي: آيسون متحسرون[2].

ويتضح مما تقدّم أن الإنسان في ظل الإيمان الصحيح مكفولة حاجته الجسمية والنفسية بوفرة وكثرة، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سمى ما يؤتيه المؤمنين بركات، فلا حدود لهذا الجمع، وغير خاف أن البركة هي النماء والزيادة، وأن الشيء المبارك هو النامي الزائد، فما بالنا إذا كانت بركات ووفرة خيرات فتحها الله على أهل القرى لو آمنوا واتقوا؟ ولكن أهل القرى لم يصغوا لدعوة ربهم، بل أمعنوا في الكفر والتكذيب، وكان متوقعًا منهم بعد هذا الإغراء المادي الذي تهواه نفوسهم أن يدخلوا في الإيمان لكن الله نفى عنهم ذلك، فقال: ﴿ **ولَكِن كذَّبُوا فأخذْناهُم بما كانُوا يكْسِبُون** ﴾[3] وعقوبة التكذيب والكفر بالله الجدب والقحط

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان (٤٤، ٤٥).

(٢) النسفي، الإمام أبو البركات عبد الله بن أحمد. تفسير النفسي. (بيروت: دار الكتاب العربي).

(٣) سورة الأعراف، الآية (٩٦).

﴿ ولكن كذَّبوا ﴾ يعني: الرسل ﴿ فأخذناهم ﴾ بالجدوبة والقحط، وقوله: ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ من الكفر والمعصية[١].

ولقد اهتمت السورة الكريمة بدعوة أهل الأديان السماوية من اليهود والنصارى إلى اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، فإن هم آمنوا حق الإيمان بهذين الكتابين فسيؤمنون جزمًا بهذا النبي العظيم ـ صلوات الله وسلامة عليه ـ وبالكتاب الذي جاء به.

قال تعالى: ﴿ **الَّذين يتَّبعُون الرَّسُولَ النَّبيَّ الأُمّيَّ الَّذي يجدُونهُ مكْتُوبا عندهُمْ في التَّوْراة والإنجيل يأْمرُهُم بالْمعْرُوف وينْهاهُمْ عن الْمُنكر ويُحلُّ لهُمُ الطَّيّبات ويُحرّمُ عليْهمُ الْخبائث ويضعُ عنْهُمْ إصْرهُمْ والأغْلال الَّتي كانتْ عليْهمْ فالَّذين آمنُوا به وعزَّروهُ ونصرُوهُ واتَّبعُوا النُّور الَّذي أُنزل معهُ أُولئك هُمُ الْمُفْلحُون** ﴾[٢].

وقد رغبهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الآية السابقة بما يحملهم على الإيمان بسيدنا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه؛ لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يأمرهم بالمعروف ولم يكن أحد غيره ﷺ وقت بعثته يأمر بذلك، ويجاهد عليه باسم النبوة والرسالة، وأنه هو الذي ينهاهم عن المنكر ويحضهم على تركه. بينما اصطلح البشر وهمَّ بعضه ـ اليهود والنصاري ـ على إلف المنكر الذي حرمته سائر الأديان وعلى السعي فيه، وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحل لهم الطيبات التي لا يُعرض عنها إلا مطموس الفطرة، ويحرم عليهم الخبائث التي لا يُقبل عليها إلا من تمكن منه الشيطان فسلب عقله، وحقّر له آدميته، فرغبت نفسه في الخبائث،

---

(١) الرازي، الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين فخر الدين. التفسير الكبير. الطبعة الثانية (طهران: دار الكتب العلمية، د.ت)، ١٤/ ١٨٥).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الذي سيحط عنهم إصرهم[١] والأغلال التي كانت عليهم والتي عاقبهم الله ـ تعالى ـ بها لما اكتسبوه من الإثم، مثل قوله تعالى: ﴿ **فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا (١٦٠) وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما** ﴾[٢].

وقوله تعالى في شأن النصارى: ﴿ **ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون** ﴾[٣].

ولذلك بين الله ـ سبحانه ـ في آية الأعراف أن من آمن بهذا النبي الخاتم ﷺ وعزّره، ونصره، واتبع القرآن الذي أنزل معه هم بأعيانهم لا غيرهم المصيبون للفلاح المحكوم لهم به، الحقيقون بأن يسموا مفلحين: ﴿ **فالذين آمنوا به وعزروه**[٤] **ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون** ﴾[٥].

وأختم هذا المبحث عن الآيات التي حضت على الإيمان بالله ـ تعالى ـ بالآية الكريمة التي حضت على ذلك صراحة، وهي قوله تعالى: ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت**

---

(١) ﴿ ويضع عنهم إصرهم ﴾ أي الأمور التي تثبطهم وتقيدهم عن الخيرات وعن الوصول إلى الثواب. الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغبات ٥٠٢ هـ. المفردات في غريب القرآن. (مكة المكرمة: دار الباز للنشر والتوزيع)، ص١٩.

(٢) سورة النساء: الآيتان (١٦٠، ١٦١).

(٣) سورة المائدة: الآية (١٤).

(٤) عزّروه: أي وقّروه وعظّموه.

(٥) سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

فَـآمنُوا باللَّه ورَسُـوله النَّبيِّ الأُمِّيِّ الَّذي يُؤْمنُ باللَّه وكلمـاته واتَّبـعُـوهُ لعلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[١].

ثانيًا: الآيات الزاجرة عن الشرك:

إن القاريء لهذه السورة الكريمة سيجد فيها آيات كثيرة تذم الشرك، وتنفر منه، وتتوعد معتقديه، شأنها في ذلك شأن السور المكية.

وتجنبًا للإطالة اخترت من هذه السورة نصين[٢] رأيت أنهما وافيان بالغرض الذي لأجله سقتهما، ويغنيان عن نصوصها الكثيرة في هذا الغرض:

النص الأول:

قوله تعالى: ﴿ أيُشْركُونَ ما لا يخْلقُ شيْئًا وهُمْ يُخْلقُون (١٩١) ولا يستطيعُون لهُمْ نصْرًا ولا أنفُسهُمْ ينصُرُون (١٩٢) وإن تدْعُوهُمْ إلى الْهُدى لا يتَّبعُوكُمْ سواءٌ عليْكُمْ أدعوتُموهُمْ أمْ أنتُمْ صامتُون (١٩٣) إنَّ الَّذين تدْعُون من دُون اللَّه عبادٌ أمْثالُكُمْ فادْعُوهُمْ فليستجيبُوا لكُمْ إن كُنتُمْ صادقين (١٩٤) ألهُمْ أرْجُلٌ يمشُون بها أمْ لهُمْ أيدٍ يبْطشُون بها أمْ لهُمْ أعْينٌ يبْصرُون بها أمْ لهُمْ آذانٌ يسْمعُون بها قُلِ ادْعُوا شُركاءكُمْ ثُمَّ كيدُون فلا تُنظرُون ﴾[٣].

في هذا النص الكريم ينكر - سبحانه وتعالى - على عبدة الأصنام إشراكهم أصنامهم في ألوهيته - سبحانه وتعالى - مبينًا أن الإله الحقيقي الجدير بأن تخلص له العبادة لابد أن يكون متصفًا بصفات عليا، استحق بها أن يكون إلهًا، وهي:

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٨).

(٢) النص يشمل أكثر من آية.

(٣) سورة الأعراف: الآيات من (١٩١) إلى (١٩٥).

أولاً: أن لا يكون هذا الإله مخلوقًا.

ثانيًا: أن يكون قادرًا على خلق الأشياء وإيجادها من العدم دون سبق مثال.

ثالثًا: أن يستطيع الإله نصرة من ينتصر به، بجلب الخير له، وبدفع الضر عنه.

فكيف تخلع صفات الألوهية على تلك الأصنام المخلوقة، العارية من تلك الصفات، العاجزة عن دفع الضر عن نفسها عندما يقصدها قاصد بكسرها أو بإهانتها؟! فمعنى الآيتين الأوليين من هذا النص: إنكم أيها المشركون للأصنام في الألوهية تسلكون سبيلاً فاسدًا غير صحيح، لأنكم أشركتم مع الله عجزة عن خلق شيء ما مهما تناهي في الصغر والبساطة، وأن معبوداتكم مخلوقة مربوبة، لا وجود لها في ذاتها، وأنها لا تستطيع لكم نصرًا إذا انتصرتم بها، لأنها عاجزة عن نصرة نفسها فضلاً عن غيرها، وفاقد الشيء لا يعطيه.

قال تعالى: ﴿**أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ**﴾[1].

ثم بَيَّن تعالى في الآية الثالثة من هذا النص الأول أن تلك الأصنام إن دُعيت إلى خير وهدى لا تجيب ولا تستجيب؛ لأنها فاقدة الإحساس بغيرها، ولو كان فيها شعور لاتَّبَعَتْ من يدعوها إلى الهدى؛ لأن الهدى مرغوب محبوب لأهل العقول، فكونها لا تَتّبع، دليل على إنعدام الإحساس فيها بمن يدعوها إلى خيرها فكيف تُتَّبع؟! وإن الأمر سواء بالنسبة لدعوتها من عدمها، والمعنى: وإن تدعوا أيها المشركون أصنامكم إلى هدى ما أو خير ما لا يتبعوكم، لأنهم لا يسمعون دعاءكم، فدعاؤكم لهم وصمتكم عن ذلك سواء.

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٩١، ١٩٢).

قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾[1].

وفي الآية الرابعة من هذا النص يبين ـ جل وعلا ـ أن هذه الأصنام غاية ما يقال فيها: إنها عباد أمثال عابديها، وإن كان هذا الوصف أكبر منها؛ لأنها جمادات، ولكن القرآن يتنزل مع عابديها في الحوار، ويفترض فيها العقل والإدراك، فهَبْهَا أنها عاقلة مدركة، فأي شيء فضَّلها عليهم فجعلها معبودة وهم لها عَبَدة؟! ثم عاد القرآن إلى بيان حقيقتها وأنها مع مخلوقيتها، فالبَوْنُ بينها وبين عابديها بعيد؛ فهي إن دُعيت لا تجيب، وإن خوطبت لا تدرك، ولذا أمرهم الله بأن يدعوها ويطلبوا منها نفعهم وخيرهم فلتستجب لهم إن كان لها صفة النفع والإفادة؛ ليدعوها إن كانوا صادقين في دعوى ألوهيتها، ولتجبهم إن كانت مستطيعة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[2] أي: في الإدراك والعقل على حد زعمهم ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ أي: ادعوا هذه الأصنام إن كانت كما زعمتم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أي: فلتستجب لكم أصنامكم أيها الداعون ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما وصفتموها به، وما خلعتموه عليها كذبًا من صفات الألوهية.

وفي الآية الخامسة ينبه الله عابدي الأصنام إلى أمور بديهية لا تحتاج إلى تنبيه، لكن عابديها لما ألغوا عقولهم احتاجوا إلى هذا التنبيه. هذه الأمور هي خلو أصنامهم من الأعضاء ذات القوى المؤثرة التي تعين المعبودين على المشي

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٩٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٩٤).

والبطش والسمع والبصر، أي: على التوصل إلى جلب الخير ودفع الشر، ولم يلجأ القرآن إلى الأسلوب الخبري في بيان تجريد الأصنام عن هذه الأوصاف بل لجأ إلى أسلوب الاستفهام الإنكاري الذي هو بمعنى النفي لغرضين:

أولهما: تنبيه المخاطبين وإيقاظهم.

ثانيهما: نفي تلك الأوصاف عنهم بأبلغ وجوه النفي.

فحال الأصنام هذه هو الواقع المشاهد الذي لا خلاف عليه:

قال تعالى: ﴿ **أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا** ﴾؟ أي: ليس لهم ذلك وأنتم به موقنون. وتأمل قوله تعالى: ﴿ **يَمْشُونَ بِهَا** ﴾ فكم من أرجل لا تمشي؛ لأن الله لم يجعل فيها قوة المشي، وقوله: ﴿ **أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا** ﴾؟ بمعنى: ألهم أيد يبطشون بها؟ فهو تدرج من العضو الحامل لسائر الجسد إلى بقية الأعضاء الأخرى المركبة فيه، والمعنى: ليس لهم ذلك.

وقوله: ﴿ **أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا** ﴾؟ ليس لهم ذلك يقينا فكيف تتخذ آلهة؟ وكيف يعبدها من فيه هذه الأعضاء بقواها المؤثرة؟! إن صح أن تخلع صفة الألوهية على مخلوق فالعابدون أولى بها، لكنهم لم ينسبوها لأنفسهم لشعورهم بالعجز عن إدراك أرواحهم، وعجزهم عن السيطرة عما حولهم، فإذا استشعروا في أنفسهم أنهم لا يصلحون آلهة، فأولى بذلك تلك الأصنام المعبودة زورًا وإفكًا. وكان المشركون يُخوّفون رسول الله ﷺ من سطوة أصنامهم، وانتصارهم لأنفسها ولهم منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأمر الله نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يقول للمشركين ادعوا شركاءكم ولا تتوانوا في دعوتهم لتدفع عنها وعنكم ما تكرهون؛ إمعانًا في تعجيزهم وتوبيخهم.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أي: لتفعل ما زعمتم أنها قادرة على فعله ﴿ ثُمَّ كِيدُونِ ﴾ أنتم وهي بشتى أنواع المكائد، ﴿ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أي: ولا تمهلوني إن كان لأصنامكم قدرة ما كما تزعمون، ثم بين بعدها صفات الإله الحق الذي يجب أن يعبد وحده بقوله: ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾[1].

النص الثاني:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[2].

في الآية الأولى من النص الثاني يُذكِّر الله نبيه ﷺ بما هو معلوم عنده من الميثاق الأول، الذي أخذه الله على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه على هيئة الذر، وجعل فيهم من العلم والإدراك ما مكنهم من الإقرار لله بالربوبية والوحدانية.

والمعنى: واذكر يا محمد ﷺ الوقت الذي أخرج فيه ربك من صلب آدم بنيه، وأخرج من كل ابن منهم ذريته إلى يوم القيامة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ فسَلِّ نفسك به، وهوّن عليها ما تلقاه من جحود المشركين وإنكارهم للوحدانية، فإنك تخاطبهم بأمر معروف لكن بعدهم عن الله أنساهم ذلك. لتعلم أن العلة فيهم، وأنك لم تقصر في

(١) سورة الأعراف: الآية (١٩٦).

(٢) سورة الأعراف: الآيات من (١٧٢) إلى (١٧٤).

البلاغ، وقد أشهد الله ذرية آدم على أنفسهم حيث خاطبهم بقوله: ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ** ﴾؟ فأجابوا بما هو صريح في نفي النفي، فقالوا: ﴿ **بَلَى** ﴾ أي: أنت ربنا خالقنا وموجدنا، وكل نعمة فينا من فيض رحمتك، شهدنا على أنفسنا بذلك، وأقررنا لك بالربوبية والوحدانية. وأقوى الشهادات ما يُقرّ به المرء على نفسه، ثم ذَكَّرهم ربُهم - تبارك وتعالى - بأنهم سيغفلون عن هذا الميثاق، وأن ذلك ليس عذرًا لهم يوم القيامة، إذ هم المتسبِّبون فيه، فأقروا على أنفسهم مرة أخرى أن تلك الغفلة إذا حصلت لا يعذرون بها لما حصل لهم من يقين بربوبية الله - تعالى - عند أخذ هذا الميثاق.

وفي الآية الثانية من هذا النص ذَكَّرهم - جل وعلا - بعذر آخر سيتذرعون به وهو قولهم: ﴿ **إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ** ﴾ فالتبعية عليهم لا علينا.

ثم ذكَّرهم بقول ثالث وهو: أتؤاخذنا فتهلكنا بما فعل المبطلون والمعطلون لآيات الله - تعالى - التي أوصلتنا إلى الشرك؟ فأقروا بأن ذلك كله لا يصلح عذرًا لهم لتمام اليقين الحاصل لهم عند أخذ الميثاق.

وفي الآية الثالثة يبين الله - تعالى - وضوح هذا الميثاق وظهوره بحيث صار أصلاً يشبه به غيره ليتضح ﴿ **وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ** ﴾ أي كذلك نفصِّل آياتنا كلها تفصيلاً واضحًا بليغًا كوضوح هذا الميثاق، فاصبر عليهم فلعلهم يرجعون بهذا التفصيل الواضح في آياتنا.

ولقد حاول بعض العلماء أن يحملوا هذه الآية على التمثيل لاستغرابهم وقوع هذا الأمر ومنهم المعتزلة. لكن لم ألتفت إلى هذا المسلك ولم أشتغل بالرد عليه؛ ذلك لأنه ليس من صميم بحثي، ولأن الله لا يعجزه شيء.

ومن هذا النص يتضح لنا أن الإيمان بالله وحده هو فطرة الإنسان التي فطره الله عليها، وأن الشرك هو خروج عن هذه الفطرة وليس لمنتحليه أي عذر يوم القيامة حين يقولون: ﴿ **إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** ﴾[١].

ثالثًا: الآيات الخاصة باليوم الآخر وأن وقوعه لا ريب فيه:

إن الناظر في سورة الأعراف يجدها قد تعرضت لليوم الآخر، ووجوب الإيمان به وما فيه من أحداث، وتقريب وقوعه للأذهان بصور مختلفة وأساليب شتى، الغرض منها كلها حصول اليقين للمؤمنين باليوم الآخر وما فيه، وإقامة الحُجة على الكافرين والمُكذِّبين؛ حتى لا يبقى لهم عذر يوم يقوم الناس لرب العالمين.

فمن هذه الآيات قَسمُه[٢] تعالى على أنه سيسأل الذين أرسل إليهم سؤال إهانة وتوبيخ. كما سيسأل المرسلين سؤال إعزاز وتكريم، قال تعالى: ﴿ **فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ** ﴾[٣] كما بين تعالى أنه لا يغيب عنه شيء من أحوال خلقه مع كثرتها وتعددها كثرة يستحيل على الآدميين بل والعقلاء قاطبة مهما أوتوا من أسباب العلم أن يقدروا على حصرها والإحاطة بشيء منها.

قال تعالى مقسمًا على إخبار خلقه يوم القيامة بكل ما كان منهم: ﴿ **فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ** ﴾[٤].

---

(١) انظر: تفسير النسفي (٢/ ٨٤، ٨٥)، انظر: تفسير الآلوسي (٩/ ٩٩ـ١٠٩).

(٢) القسم في الآية محذوف، ودليله لام القسم ونون التوكيد ﴿ **لنسألنّ** ﴾ وقد صرح بالقسم في سورة الحجر: ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين* عما كانوا يعملون** ﴾ سورة الحجر الآيتان (٩١، ٩٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٧).

ومما ذكرته هذه السورة تجسيد الأعمال ووزنها يوم القيامة، وأنها إن كانت صالحة فستثقل موازين أصحابها، وأنهم بحسن أعمالهم مدركو الفلاح بفضله ورحمته لا محالة، وأنها إن كانت سيئة فستخف بها موازين أصحابها، وأنهم لا محالة خاسرون الخسران المبين، في جهنم خالدون؛ لأنهم ظلموا وأمعنوا في الكفر بعد ما جاءتهم آيات الله التي تهديهم إلى سلامتهم لكنهم جعلوها سببًا للتكذيب، قال تعالى: ﴿ **وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ** ﴾[١].

ومنها إخبار الله ـ تعالى ـ لآدم وحواء وذريتهما وإبليس بما قضاه الله في الأزل بأنهم في الأرض يحيون، وفيها يموتون، ومنها يخرجون ﴿ **قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ** ﴾[٢] أي: للثواب والعقاب.

ومن هذه الآيات التي جاءت في السورة الكريمة مؤكدة لوقوع اليوم الآخر الحديث عن الظلمة عندما تأتيهم رسل الله يتوفونهم، وهم يسألونهم في هذه اللحظة الحرجة لحظة الموت: ﴿ **أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾[٣] فلا يملكون جوابا إلاّ إلقاء التبعة على كبرائهم الذين أضلوهم، ثم تبرأوا منهم وندمهم في يوم لا ينفع الندم بقولهم: ﴿ **قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ** ﴾[٤] أي: وشهدوا على أنفسهم بالكفر بعد ما يسر الله لهم أسباب زواله من بعث الرسل وإنزال الكتب، قال تعالى: ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ**

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٥).

(٣، ٤) سورة الأعراف: الآية (٣٧).

﴿كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾[١] أي: ما قدر الله لهم من أعمار وأرزاق فإنهم يستوفونها لتقوم بها حجة الله عليهم مع أنهم أظلم الخلق، ولئلا يقولوا يوم القيامة لم نعطَ الفرصة لنفكر فيما هديتنا به. وهذا هو الراجح في معنى هذه الجملة[٢].

قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي: ملك الموت وأعوانه، الموكلون لقبض أرواحهم ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا﴾ أي: الرسل[٣].

﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؟! ﴿قَالُوا﴾ «أي: الكفار» ﴿ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾[٤].

وعندئذ قال الله لهم: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ وأدخلت النار قبل أن تدخلوها، فأنتم مندرجون فيها لا محالة، ونائلكم ما نالهم من العذاب، لا من بني جنسكم فقط بل من الجن والإنس.

وهذا يشعر بأنه تعالى لا يدخل الكفار بأجمعهم في النار دفعة واحدة بل يدخل الفوج بعد الفوج، فيكون فيهم السابق والمسبوق، ليصح هذا القول، ويشاهد الداخل من الأمة في النار من سبقها». ا. هـ.[٥].

قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[٦] أي: قرينتها في ملتها، فيلعن أهل كل دين باطل

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٣٧).
(٢، ٣) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٥٢).
(٤) سورة الأعراف: الآية (٣٧).
(٥) تفسير الرازي: (١٤/ ٧٧).
(٦) سورة الأعراف: الآية (٣٨).

بعضهم بعضًا؛ فيلعن المشركون أقرانهم، وكذلك اليهود تلعن اليهود، والنصارى تلعن النصارى، وكذا القول في المجوس والصابئة وسائر أديان الضلالة، ويتبرأ بعضهم من بعض[١].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: توالى دخولهم النار فوجًا بعد فوج، ولاحقوا حتى لم يبق منهم أحد، ويئس الأولون والآخرون من الرحمة.

﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ وفي تفسير: ﴿أُخْرَاهُمْ﴾ ﴿لِأُولَاهُمْ﴾ قولان:

الأول: أخُراهم يعني آخرهم دخولاً في النار لأولاهم دخولاً فيها.

والثاني: أخُراهم منزلة وهي الأتباع والسفلة لأولاهم منزلة وهم القادة والرؤساء.

والإضلال يقع من المتقدمين للمتأخرين على وجهين:

أحدهما: بالدعوة إلى الباطل وتزيينه في أعينهم، والسعي في إخفاء الدلائل المبطلة لتلك الأباطيل.

ثانيهما: بأن يكون المتأخرون مُعظِّمين لأولئك المتقدمين، فيقلدونهم في تلك الأباطيل والأضاليل التي لفقوها، ويتأسَّون بهم، فيصير ذلك تشبيهًا بإقدام أولئك المتقدمين على الإضلال[٢] أي أنهم كانوا من أسباب صيرورة الآخرين إلى هذا المصير السيء.

قوله: ﴿فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ أي: ضاعف العذاب عليهم مرات

---

(١) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ٧٣).

(٢) المرجع السابق.

كثيرة، إذ الضعف كما يقول الأزهري: «أقله مثل الشيء، وآخره لا حد له»[١].

ولا شك أن الطالبين يقصدون الثاني: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي: لكم ولهم العذاب المضاعف لما كان من إضلالهم لكم واتباعكم لهم من بعد ما جاءكم الهدى ﴿وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾[٢]؛ لأن كلاً منهم مشغول بسوء ما هو فيه عما يحدث لغيره ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ﴾ فلما سمعت أولاهم ما نسبته إليها أخراهم تبرأت من قولهم، وقالت للآخرين: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ في ترك الكفر والرغبة عنه، بل كنا وأنتم في الإقبال عليه سواء. وهكذا أخذت كل فرقة تحيل عن نفسها وتتهم غيرها، يلفُّهم جميعًا الندم والأسف الذي لا يغنيهم عما هم فيه شيئًا والذي يزيدهم في حسرتهم؛ ولذا بَيَّن الله للجميع أنهم ماكثون في هذا الهوان وأنهم ذائقو هذا العذاب الأليم، الذي لا ينفك عنهم بتحسر ولا باتهام فريق لفريق[٣] قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ والخطاب يعود إلى أخراهم: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[٤].

ومن المناظرات العجيبة الشأن التي تناولتها هذه السورة ما يكون من تذكير المؤمنين للكافرين أن المؤمنين قد وجدوا ما وعدهم ربهم من الثواب العظيم والنعيم المقيم حقًا لا ريب فيه، فهل وجد الكفار ما وعدوه من الجحيم والعذاب المقيم حقًا؟ فأجاب الكفار عن هذا التساؤل بنعم، وليس المقصود من هذا السؤال اكتشاف ما خفي عن المؤمنين، وإنما هو سؤال تحزين وتبكيت؛ فما أسوأ اعتراف

---

(١) انظر: تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري (١/ ٤٨١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٣٨).

(٣) كما قال تعالى في سورة ص: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ سورة ص: الآية (٦٤).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٣٩).

المنهزم على نفسه بهزيمته، وإقراره لما يعتبره عدوه بخيبة أمله!

فلما أقرَّ الكفارُ على أنفسهم بسوء مآلهم نادى مناد من الملائكة[١] بين الفريقين بلعنة الله الدائمة للظالمين. قال ابن عباس: «وذلك المؤذن من الملائكة هو صاحب الصور»[٢].

قال تعالى: ﴿ونادىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٣].

وتأمل معي قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ و﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾ فسترى أن هذا النداء حصل بعد استقرار كل فريق فيما أعد الله لهم من الجنة أو النار. وتأمل قول المؤمنين: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ فإنهم يتحدثون عن موجود حقيقي يتنعمون فيه وبه؛ ولذا أضافوا أنفسهم إلي جناب الرب ـ تبارك وتعالى ـ تعبيراً عما هم فيه من مسرة وإكرام. والمراد بالظالمين على ما هو الراجح في هذه الآية هم الكافرون.

وقد وصف الله هؤلاء الظالمين بصفات ثلاث:

أولاً: صدهم غيرهم عن سبيل الله ودينه، وبذل غاية مجهودهم في ذلك، وقطع أوقاتهم وأعمالهم فيه، واستعمالهم كل السبل والحيل من زجر وقهر . . إلخ.

---

(١) انظر: تفسير الألوسي (٨/ ١٢٣).

(٢) النيسابوري، الحسن بن محمد. تفسير النيسابوري غرائب القرآن ورغائب الفرقان. تحقيق إبراهيم عطوة عوض، (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٣٨١هـ)، ٦/ ١١٦.

(٣) سورة الأعراف: آية (٤٤).

ثانيًا : إنهم يبغون سبيل الله عوجًا وميلاً عن الحق إلى باطلهم، فهم يتمنون قرآنًا يمجد أصنامهم ويقرهم على ما هم عليه من ضلال.

ثالثًا : إنهم بالدار الآخرة ـ التي تأكدت الأدلة على مجيئها، وأنها لا محالة تعقب الدنيا، والتي فيها الثواب والعقاب ـ كافرون ممعنون في الكفر، يصرفون أنفسهم عن الإيمان بها مهما سقت لهم من الأدلة على حصولها[١].

قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ** ﴾[٢]، وهذه الآية بيان لحالهم التي كانوا عليها في الدنيا، وأنهم المتسببون في حلول لعنة الله عليهم.

وقد بين الله ـ تعالى ـ أن بين الفريقين من أهل الجنة والنار أو بين الجنة والنار حجابًا أي: سورًا عظيمًا[٣] يستحيل معه لعظمته أن يتسرب من ريح الجنة وروحها شيء إلى أهل النار، كما أنه لا يتسرب من عذاب النار ولهيبها ودخانها شيء إلى أهل الجنة، فيطمئن أهل الجنة بما هم فيه، وييأس أهل النار أن ينالوا من هذه الرحمة شيئًا.

ثم جعل الله على أعالي هذا السور رجالاً هم، خيار الخلق على ما رجحته بعض كتب التفسير[٤] فهم إما الأشراف أو الشهداء أو الصالحون الذين أوتوا نورًا

---

(١) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ٨٦).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٤٥).

(٣) وهو ما عبر عنه في سورة الحديد بقوله تعالى: ﴿ **فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب** ﴾ سورة الحديد: الآية (١٣). انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢١١).

(٤) الأعراف في الآية يفسر بالمكان تارة، وبغيره أخرى.
أما الذين فسَّروه بالمكان ـ وهم الأكثرون ـ فقالوا: إن الأعراف أعلى أعالي السور المضروب بين =

. . . . . .

= الجنة والنار، ويروي عن ابن عباس، وعنه أيضًا أن الأعراف شرف الصراط. وعلى هذا التفسير فالذين هم على الأعراف من هم؟

فيه قولان:

أحدهما: إنهم أقوام يكونون في الدرجة العليا من الثواب.

ثانيهما: إنهم في الدرجة النازلة.

وعلى الأول فيه وجوه:

أ- قيل: هم ملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار. قاله أبو مجلز(*) ورد عليه قوله بأن قيل له: إن الله تعالى يقول: ﴿ **وعلى الأعراف رجال** ﴾ وأنت تقول: إنهم ملائكة. فقال: الملائكة ذكور لا إناث: فرد عليه: إن الرجل يطلق على من يصلح أن يكون من نوعه أنثى بل يطلق على الذكر من بني آدم.

ب- وقيل: إنهم الأنبياء - عليهم السلام - أجلسهم الله - تعالى - على ذلك المكان العالي إظهارًا لشرفهم، وليكونوا مشرفين على الفريقين، مطّلعين على أحوالهم ومقادير ثوابهم وعقابهم.

جـ- وقيل: إنهم هم الشهداء؛ لأنه تعالى وصف أصحاب الأعراف بأنهم يعرفون كل واحد من أهل الجنة وأهل النار. ورد على هذه الوجوه الثلاثة ملائكة وأنبياء وشهداء - بأن الله قال في صفة أهل الأعراف: ﴿ **إنهم لم يدخلوها** (أي: الجنة) **وهم يطمعون** ﴾.

وأجيب عن هذا الاعتراض بأنه تعالى أخر دخول أهل الأعراف إلى الجنة، والسبب في ذلك أنه ميّزهم عن أهل الجنة وأهل النار، وأجلسهم على تلك الشُّرفات العالية ليشاهدوا أحوال أهل الجنة وأهل النار، وبعد ذلك ينقلهم إلى أمكنتهم العالية في الجنة. فثبت أن كونهم غير داخلين في الجنة لا يمنع كمال شرفهم وعلو درجتهم.

وأما قوله: ﴿ **وهم يطمعون** ﴾ فالمراد بهذا الطمع: الطمع اليقيني. ألا ترى أنه - تعالى - قال حكاية عن إبراهيم - عليه السلام: ﴿ **والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين** ﴾ وذلك الطمع كان طمع يقين، فكذا هنا.

وعلى القول الثاني - إنهم في الدرجة النازلة - أيضًا فيه وجوه:

أ- إنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا جرم ما كانوا من أهل الجنة ولا من أهل النار، فأوقفهم الله - تعالى - على هذه الأعراف لكونها درجة متوسطة بين الجنة والنار، ثم يدخلهم الله - تعالى - الجنة بفضله ورحمته، وهم آخر قوم يدخلون الجنة. وهذا القول قول حذيفة وابن مسعود، واختاره الفراء.

في قلوبهم وأبصارهم، فعرفوا به في الدنيا أهل الإيمان من أهل الكفر، فلا تغيب عنهم معرفتهم في الآخرة، يجلسهم الله على الأعراف ليشهدوا ما كانوا يعرفون في الدنيا سرورًا وقرة عين بأهل الجنة، وتشفِّيًا وشماتة بأهل النار، الذين طالما اتخذوا المؤمنين الداعين إلى ربهم سخريًا، فهم يعرفون كلاً من الفريقين بسيماهم التي كانت لهم في الدنيا على ما هو الراجح، لأنها هي التي تظهر فيها فراسة

= ب- وخصصه بعضهم فقالوا: هم قوم خرجوا إلى الغزو بغير إذن أمهاتهم، فاستشهدوا، فساوت معصيتهم طاعتهم، فحبسوا بين الجنة والنار. وهذا القول داخل في القول السابق؛ لأن هؤلاء تساوت معصيتهم مع طاعتهم. فلا معنى لتخصيص هذا الوجه وقصر لفظ الآية عليه.

جـ- وقيل: إنهم مساكين الجنة.

د- وقيل: إنهم هم الفُسَّاق من أهل الصلاة، يعفو الله عنهم ويسكنهم الأعراف.

وأما الذين فسَّروه بغير المكان وهو قول الحسن والزجاج؛ فقد قالوا: إن المعني: وعلى معرفة أهل الجنة والنار رجال يميزون البعض من البعض، إما بالإلهام وإما بتعريف الملائكة. قال الحسن: والله لا أدري لعل بعضهم الآن معنا.

وعلى جميع التفاسير: فهم يعرفون أهل الجنة وأهل النار. قيل: يعرفون أهل الجنة بكون وجوههم ضاحكة مستبشرة مبيضة، وأهل النار بسواد وجوههم وزرقة عيونهم.

قال المحققون: إنهم كانوا يعرفون أهل الخير والإيمان والصلاة، وأهل الشر والكفر والفساد، وهم كانوا شهداء الله على أهل الإيمان والطاعة، وعلى أهل الكفر والمعصية؛ فهو -تعالى- يجلسهم على الأعراف ليكونوا مطَّلعين على الكل، يشهدون على كل أحد بما يليق به.

وقال الفخر الرازي: «وتحقيق الكلام أن أصحاب الأعراف هم من أشراف أهل القيامة»(**).

(*) أبو مجلز، لاحق بن حميد بن سعيد السَّدوسي البصري أبو مجْلَز بكسر الميم وسكون الجيم وفتح اللام بعدها زاي مشهور بكنيته، ثقة من كبار الثالثة، مات سنة ست وقيل تسع ومائة، وقيل قبل ذلك. انظر: تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (١١/ ١٧١) ط الأولى سنة ١٣٢٧هـ في الهند، بيروت دار صادر ١٩٦٨م وانظر: تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني. ت: عبد الوهاب عبد اللطيف؛ (بيروت: دار صادر، ١٩٦٨م).

(المدينة المنورة، المكتبة العلمية، دار المعرفة؛ ١٩٧٥م) ٢/ ٣٤٠.

(**) بتصرف واختصار من تفسير الرازي، (١٤/ ٨٧-٩٠)؛ وتفسير النيسابوري غرائب القرآن، (٨/ ١٢٠، ١٢١).

المؤمنين لا سيما الفريقين في الآخرة، لأنها معلومة للجميع يوم القيامة.

ونادى أهل الأعراف أصحاب الجنة مهنئين ومسلمين عليهم، فهم وإن دخلوا قبلهم فذلك لا يعني أن مكانتهم أرفع من أهل الأعراف؛ لأن اختصاص الله أهل الأعراف بهذه المكانة وبهذه الشهادة دليل على أنهم من أرفعهم منزلة. وما قررته في الأعراف وأهلها هو ما رجحه بعض المفسرين[1] وارتاحت إليه نفسي. والله أعلم بالصواب.

قال تعالى: ﴿ **وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا** ﴾ أي: لم يدخلها أهل الأعراف بعد ﴿ **وَهُمْ يَطْمَعُونَ** ﴾[2] أي: يوقنون[3] بدخولها، ولكن الله عبر عن يقينهم بـ ﴿ **يَطْمَعُونَ** ﴾ إشارة إلى كمال عبوديتهم وكمال أدبهم، وإن علت درجتهم لا يأمنون مكر الله ـ عز وجل ـ فهم في فضله طامعون.

وإن أهل الأعراف ليديمون النظر إلى أهل الجنة سرورًا بما تقع عليه أبصارهم، فإذا صرفت أبصارهم تلقاء وجهة أهل النار أصابهم من الفزع والذهول ما جعلهم يضرعون إلى ربهم قائلين: ﴿ **رَبَّنَا** ﴾ أي: خالقنا ومالكنا ومفيض الرحمة علينا لا

---

(١) منهم: الفخر الرازي (١٤/ ٩٠) قال ـ رحمه الله ـ: «وتحقيق الكلام أن أصحاب الأعراف هم أشراف أهل القيامة». ا. هـ وقال ـ رحمه الله ـ: «﴿ **وعلى الأعراف رجال** ﴾: من أفاضل المسلمين» ا. هـ. وقد ذكر هذا القول في مقدمة بقية الأقوال، انظر: تفسير النسفي (٢/ ٥٤) ومن أراد التوسع فليرجع إلى تفسير النيسابوري: غرائب القرآن، (٨/ ١٢٠) وتفسير القرطبي، (٧/ ٢١١)؛ وتفسير الألوسي، (٨/ ١٢٣ ـ ١٢٤)؛ وتفسير أبي مسعود، (٣/ ٢٣٠)؛ وفتح القدير للشوكاني، (٢/ ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٤٦).

(٣) انظر تفسير النيسابوري: غرائب القرآن، (٨/ ١٢٠).

تتخلَّ عنَّا في هذا الموقف الصعب، ولا تجعلنا بما بدر منَّا من تقصير مع القوم الظالمين، فإنك إن فعلت فذاك عدلك. وهذا أيضًا من كمال العبودية، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ** ﴾ أي: أبصار أهل الأعراف ﴿ **تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾[٤].

ثم ذكر تعالى توبيخ أهل الأعراف لفريق من أهل النار وهم الكبراء والسادة، الذين كانوا يستضعفون فقراء المؤمنين، ويستهينون بهم، يعرفهم أهلُ الأعراف بسيماهم؛ لأن الله يميز هؤلاء الكبراء بمزيد من القبح ليكونوا أعجوبة أهل الموقف فيصبُّون عليهم اللعنات قائلين لهم: ما أغنى عنكم اجتماعكم على محاربة الدين واحتقار المؤمنين، أو ما أغنى عنكم ما جمعتموه من الدنيا فإنكم فارقتم ذلك كله[٢] وما أغنى عنكم استكباركم وتأبيكم على الاستجابة لرسل الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ قال تعالى: ﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾[٣].

ثم ذكر أهل الأعراف هؤلاء المستكبرين ببعض أحوالهم في الدنيا، فقد كانوا يحتقرون المؤمنين وضعافهم خاصة، ويمعنون في هذا الاحتقار مُقسمين بأن هؤلاء الفقراء من المؤمنين لن تنالهم من الله رحمة، ولن يكونوا من أهل الجنة، فإذا بهؤلاء الفقراء اليوم في بحبوحة الجنة وفي رحمة الله، وإذا الكبراء في الهوان الدائم والعذاب المقيم، فيُذكِّرهم أهل الأعراف بمآلهم ومآل من كانوا يحتقرونهم، قائلين لهم بأسلوب الاستفهام الإنكاري ـ الذي يقصد به الإمعان في

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٤٧).

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٩١).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٤٨).

توبيخهم وتحسيرهم؛ فإن من أهم أسباب عذابهم بعد الكفر احتقارهم لهؤلاء الضعفاء ـ قال تعالى: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾؟ ولمَّا فرغ أهل الأعراف من المهمة التي جعلها الله لهم يوم القيامة قال لهم ربهم: ادخلوا الجنة فأنتم أحبابي وخلصائي، لا خوف عليكم من مكروه يصيبكم ولا أنتم تحزنون في هذه الدار؛ لأنها دار كرامة ورحمة. ويجوز أن يكون هذا القول[1] من أهل الأعراف للمؤمنين الذين أقسم المستكبرون أن لا تنالهم رحمة بقصد تهزئتهم بما أكرمهم الله وما جازاهم على صبرهم، وتحملهم ما تحملوا من سفاهة المستكرين، وليزيد أهل الأعراف بقولهم هذا للمستكبرين من أهل النار حسرةً وحزنًا، قائلين لهم ما قصة الله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[2].

ولما فرغ القرآن من الحديث عن أهل الأعراف ذكر استغاثة أهل النار بأهل الجنة طالبين منهم أن يفيضوا عليهم بعضًا من الماء؛ ليطفئوا به ما في أجوافهم من حرارة ولهيب، أو بعض الثمار والأرزاق الحسنة التي يخففون بها ما يلقون بها من طعام الزَّقوم. وأهل النار وهم يطلبون ذلك يعلمون أنهم لن ينالوه لكن اليائس أحيانًا يطلب ما يعلم أنه لن يُمكَّن منه كالغريق يتعلق بالزبد؛ فيجيبهم أهل الجنة أن الله حرَّم ما طلبتم؛ لأنكم كافرون، وقد أبعدتم أنفسكم بكفركم عما طلبتم فلا سبيل لكم إليه؛ وأنكم اتَّخذتم دين الله الذي أكرمكم به لهدايتكم لعبًا وهزوًا وسخريًا. وهو السبيل إلى الجنة وإلى نعيمها؛ وقد فقدتم السبيل، فكيف تصلون إلى مبتغاكم؟! كما أنكم نسيتم الآخرة بل كفرتم بها، وغرَّتكم الحياة الدنيا فاطمأننتم إليها. وحتى تنقطع آمالهم فيما يطلبون، يقول الله لهم قول إهانة

(١) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٩١، ٩٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٤٩).

وتحقير - وهو العلي العظيم : ﴿ **فاليوم ننساهم** ﴾ أي : نهملكم ونتركم، ولا نجيبكم إلى مطالبكم ﴿ **كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ بإمعانكم في الكفر، وإثارة الشكوك في وقوع هذا اليوم مع واضح الحجج التي سيقت لكم لتخرجكم من الشبه التي سولها لكم الشيطان مع كونكم كنتم مصرين على تكذيب آيات الله وجحدها، قال تعالى : ﴿ **ونادىٰ أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم** ﴾ أي : تكرّموا علينا بشيء ما فلا نشترط عليكم ولا نلزمكم ﴿ **قالوا إن الله حرمهما على الكافرين (٥٠) الذين اتخذوا دينهم لهوا**[١] **ولعبا**[٢] **وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾[٣].

وإذا كانت سورة الأعراف قد حدثتنا عن أحوال أهل النار وأحوال أهل الجنة، وعن أهل الأعراف الذين لا ذكر لهم إلا في هذه السورة، فإنها لم تغفل الحديث عن إثبات البعث، وإمكان وقوعه بقياسه على أمور مشاهدة محسوسة، توجد ثم تعدم، ثم توجد ثم تعدم ما بقيت هذه الدنيا.

قال تعالى : ﴿ **وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتىٰ إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتىٰ لعلكم تذكرون** ﴾[٤].

إن المتأمل في هذه الآية الكريمة، يجد أنها تبرهن على قدرة الله على البعث

---

(١) أي : استمتاعاً أنساهم التفكير في الاخرة فضلاً عن الإيمان بها.

(٢) أي : هزلاً وعبثًا، لذا لا يُفرّقون بين حلال وحرام.

(٣) سورة الأعراف : الآيتان (٥٠، ٥١).

(٤) سورة الأعراف : الآية (٥٧).

بدليل محسوس؛ فمن قدر على إرسال الرياح، وحمل السحاب، وإنزال الماء، وأخيراً إخراج النبات بشتى أنواعه، وعلى اختلاف أشكاله، في سهولة ويسر، قادر على أن يعيد الحياة إلى الأجساد، ويبعثهم من قبورهم. وهو أمر لا ينكره إلا من ينكر خروج الثمرات من الأرض بعد سقيها بالماء.

ولقد أشار الفخر الرازي إلى مناسبة الآية لما قبلها[١] وتتلخص في أمرين:

أولاً: أنه تعالى لما ذكر الدلائل الإلهية، وكمال العلم والقدرة من العالم العلوي وهو السموات والشمس والقمر والنجوم، أتبعه بذكر الدلائل من بعض أحوال العالم السفلى. وأعلم أن أحوال هذا العالم محصورة في أمور أربعة: الآثار العلوية، والمعادن، والنبات، والحيوان. ومن جملة الآثار العلوية الرياح، والسحاب، والأمطار، ويترتب على نزول الأمطار بعض أحوال النبات، وذلك هو المذكور في هذه الآية.

ثانيا: في تقرير النظم: أنه ـ تعالى ـ لما أقام الدلالة في الآية الأولى على وجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم أقام الدلالة في هذه الآية على صحة القول بالحشر والنشر، والبعث والقيامة؛ ليحصل بمعرفة هاتين الآيتين كل ما يحتاج إليه في معرفة المبدأ والمعاد[٢].

وتلفت الآية الكريمة أنظار منكري البعث إلى إمكانية البعث بدليل مادي محسوس مشاهد، فلما كان ـ جل وعلا ـ هو المحرك للرياح، والمتصرف في

---

(١) قوله تعالى: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

(٢) تفسير الرازي، (١٤/ ١٣٨).

أحوالها؛ فمنها ما يرسلها للعذاب، ومنها ما يرسلها تبشر بالمطر والرحمة، ولما كان في أغلب الأحوال أن الرياح تتقدم المطر أشار إلى ذلك بقوله: ﴿ **وهُو الَّذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بين يدي رحْمته** ﴾ حتى إذا حملت تلك الرياح سحابًا ثقيلاً لحمله كميات كبيرة من الماء ﴿ **حتَّىٰ إذا أقلَّتْ سحابا ثقالاً** ﴾ أي: بالماء قال تعالى: ﴿ **سُقْنَاهُ لبلَدٍ مَّيِّتٍ فأنزلْنا به الْماء فأخْرجْنا به من كُلِّ الثَّمرات كذلك نُخْرجُ الْموْتىٰ لعلَّكُمْ تذكَّرُونَ** ﴾[1] وبعد أن تحمل تلك الرياح ذلك السحاب المشبع بالمياه يسوقه ـ جلَّ وعلا ـ إلى بلد ميت، قاحل لا حياة فيه ولا نبات ولا زرع، فأنزل الله من السحاب ماءً عذبًا منهمرًا، ومن رحمته ـ جل وعلا ـ جعله كذلك، فلو كان أجاجًا شديد الملوحة لما انتفع به، وحصلت به المضرة، ووقع به الهلاك. فأخرج الله ـ جل وعلا ـ شتى أنواع الثمرات بواسطة إنزال المطر.

وكما أنه ـ تعالى ـ خلق النبات على اختلاف أشكاله من ذلك الماء الذي أنزله من السماء على تلك الأرض الميتة، فأخرج الثمر والشجر، ولم يكن لهما وجود من قبل، فأي غرابة في أن يبعث الله الموتى من قبورهم بعد وجود سابق؟

وإن العقول لتقر بأن إعادة المعدوم المسبوق بوجود أهون وأسهل لسبق صورته من المعدوم الذي لم يسبق بوجود، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ **وهُو الَّذي يبْدأُ الْخلْق ثُمَّ يُعيدُهُ وهُو أهْونُ عليْه** ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ **إنَّما أمْرُهُ إذا أرَاد شَيْئًا أن يقُول لهُ كُن فيكُونُ** ﴾[3] وإنما سمى ذلك هينًا عليه باعتبار ما هو متأمل في فطر المخاطبين لا بالنظر إلى قدرته ـ تعالى ـ فهو ـ جل وعلا ـ قادر على

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٥٧).

(٢) سورة الروم: الآية (٢٧).

(٣) سورة يس: الآية (٨٢).

إحياء الموتى، ولا شك أن من قدر على إحداث الجسم، وخلق الرطوبة، والطعم فيه؛ فهو أيضًا قادر على إحداث الحياة في بدن الميت، فمن يقدر على إنبات الثمار والأشجار ومختلف أنواع الأزهار في الربيع، ثم تصير ميتة عارية في الشتاء، ثم يعيد إليها نضارتها وأزهارها وثمارها؛ فالقادر على إحيائها بعد موتها قادر على إحياء الأجساد بعد موتها. فيجب تذكر أنه لما لم يمتنع هذا المعنى في إحدى الصورتين وجب أن لا يمتنع في الصورة الأخرى[١].

قال تعالى: ﴿ **وهُوَ الَّذي يُرْسلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَته حَتَّىٰ إذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثقَالاً سُقْنَاهُ لبلد مَيِّت فأنزلْنا به الْمَاءَ فأَخْرَجْنَا به من كُلِّ الثَّمَرَات كَذَلكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لعلَّكُمْ تذكَّرُونَ** ﴾[٢].

وكما اهتمت سورة الأعراف بإثبات البعث، وسهولة وقوعه، فإنَّا نراها وقد شارفت على آخرها تذكر إلحاف الكافرين وإلحاحهم في استدامة السؤال عن وقت وقوعها.

قال تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَة أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إنَّمَا علْمُهَا عندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لوقْتهَا إلا هُوَ ثَقُلَتْ في السَّمَوَات وَالأَرْضِ لا تَأْتيكُمْ إلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفيٌّ عَنْهَا قُلْ إنَّمَا علْمُهَا عندَ اللَّه ولَكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[٣].

والسائلون هم اليهود أو قريش أو هما معًا، والغرض من تكرار هذا السؤال التوصل بذلك إلى تكذيب النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فإنهم كانوا يستعجلون وقوع العذاب عليهم تارة، ويستعجلون مجيء وقوع الساعة تارة

---

(١) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ١٤٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٧).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٨٧).

أخري قال تعالى: ﴿ **يستعجلُ بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحقُ ألا إنَ الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد** ﴾[١].

وقد بين الله ما يسألون عنه: ﴿ **أيان مرساها** ﴾ أي: متى وقوعها ومجيئها؟ وهم يعبرون عن المجيء بالإرساء؛ لأن الشيء إذا جاء ثبت، وكما يُسأل بأين عن المكان، فإنه يُسأل بأيان عن الزمان.

وقد أمر الله حبيبه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يقول قولاً مطلقًا، يعم العلم به جميع الخلائق لا السائلين فقط: ﴿ **قُلْ إنما علمُها عند ربي** ﴾ أي: علم وقت وقوعها غيب، اختص الله به، فهو عنده وحده، لم يطلع عليه ملكًا ولا نبيًا ـ وهذان هما أكرم خلقه عليه ـ فأولى أن لا يطلع على ذلك من دونهما، وإنما قال الله: ﴿ **إنَما علمُها عند ربي** ﴾؛ لأن في إخفاء وقت وقوعها رحمة عظمى بالمكلفين، وتربية عظيمة لهم، فإنهم لو كوشفوا بوقت وقوعها، لأقعدهم همها عن كل عمل ديني أو دنيوي، وفي إخفائها تخفيف عليهم؛ لأن الأمر المطروح وإن كان صعبًا؛ فكثير ما يهون على المكلفين في زعمهم، ولذا نهانا الله عن الاغترار في الحياة الدنيا بعد تذكيرنا بأن وعده بالساعة وما وراءها حق.

قال تعالى: ﴿ **يا أيُها النَاسُ اتَقُوا ربَكُمْ واخْشوا يوما لاَ يجزي والدٌ عن ولده ولا مولُودٌ هُو جازٍ عن والده شيئًا إنَ وعد اللَه حقٌ فلا تغرَنَكُمُ الحياةُ الدُنيا ولا يغُرَنَكُم باللَه الغرُورُ** ﴾[٢]. وقال للكافرين: ﴿ **إنَهُم يرونَه** ﴾ أي: العذاب أو يوم القيامة ﴿ **بعيدا** ﴾ أي: مستحيلاً ﴿ **ونراهُ قريبا** ﴾[٣] أي: كائنًا لا محالة[٤].

---

(١) سورة الشورى: الآية (١٨).

(٢) سورة لقمان: الآية (٣٣).

(٣) سورة المعارج: الآية (٧).

(٤) تفسير النسفي (٤/ ٢٩٠).

ثم أكد ـ سبحانه ـ انفراده بعلمها، فقال: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ** ﴾[١] أي: لا يظهرها، فهي في خفاء دائم حتى يحين أوانها، فتفاجيء الناس؛ وأحدهم يحلب ناقته؛ وآخر يبيع ثوبه. إلى آخر ما صح في الحديث الصحيح، قال تعالى: ﴿ **لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً** ﴾[٢].

أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ يبلغ به النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: قال: «**تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة**[٣] **فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم، والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم، والرجل يلط**[٤] **في حوضه فما يصدر حتى تقوم**»[٥].

ثم بين ـ تعالى ـ أنها ثقلت في السموات وفي الأرض، أي: ثقل أمرها على السموات والأرض وأهليهما، فبمجيئها تنفطر السماء، وتتشقق وتمد الأرض، وتلقي بكل ما في بطنها، كما أن فيها عناء الملائكة والثقلين وكل شيء.

قال تعالى: ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** ﴾[٦] ثم زاد الأمر تأكيدًا فخاطب جميع العقلاء، فقال: ﴿ **لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً** ﴾ أي: فجأة دون تحسب منكم لوقوعها، ودون أمارات يتعرفون على قرب وقوعها.

(١، ٢) سورة الأعراف: الآية (١٨٧).

(٣) اللقحة: الناقة الحلوب الغزيرة اللبن ـ انظر لسان العرب (٢/ ٥٨١).

(٤) الرجل يلط في حوضه ـ بفتح الياء وكسر اللام وتخفيف الطاء ـ وفي بعض النسخ وردت: يليط، وفي بعضها: يلوط. ومعنى الجميع واحد وهو أن يطينه ويصلحه. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ٩١).

(٥) صحيح مسلم وبهامشه شرح النووي (١٨/ ٩١) وأخرجه كذلك البخاري صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، (١٦/ ٢٠٢).

(٦) سورة القصص: الآية (٨٨).

والأمارات التي جاءت في حديث جبريل هي للمؤمنين خاصة، أما الكفار فهم عن ذلك في عمى، بل إن الكثير من المسلمين الآن في ذهول عن أماراتها ما ظهر منها وما لم يظهر بعد، غير أنهم إذا حُدثوا عنها لا ينكرونها.

ثم ذكرت الآية سؤالهم عنها مرة أخرى، والسؤال في هذه المرة عن أهوالها، وما يقع فيها، وهو كسابقه لا يقصد به الوصول إلى الإيمان، وإنما يقصد به الإمعان في الإنكار والكفران، قال تعالى: ﴿ **يسألونك كأنك حفيٌّ عنها** ﴾ أي: مهتم بأخبارها، ومحاولة استكشاف وقوعها، أو: كأنك مُلحٌ في طلب ذلك. وحاشاه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يتجاوز في سؤاله لربه ما رسم له.

فـ ﴿ حفيٌّ ﴾ على وزن فعيل، مأخوذ من الحفاوة أو من الإحفاء بمعنى: الإلحاح، وهم يريدون أن يظفروا منه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بجواب يخالف الواقع، فيطعنون بذلك في نبوته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فرد الله الأمر إلى علمه بقوله لنبيه ـ صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ **قُلْ إنَّما علْمُها عند اللَّه** ﴾ وذكر في هذا الجواب اسم الجلالة ليبين أن أمر الساعة عظيم، ولا يصح السؤال عنها، وعما يقع إلا مع الإشفاق والوجل، فأمرها جد صعب وخطير، وإن دلائل وقوعها لأوضح من أن تكذب، وإنها لكافية في دلالة من يريد أن يعرف عنها شيئًا ما، لكن جهل الخلق بالله، وضلالهم عن هدايته، أعماهم عن وضوح هذه الحقيقة؛ ولذا قال: ﴿ **ولكنَّ أكْثرَ النَّاس لا يعْلمُون** ﴾ فالسبب في استغراب من يستغرب وقوعها، ووقوع ما فيها، هو الجهل التام، لا شيء آخر وراء ذلك[1].

والله أعلم.

---

(١) انظر: تفسير الرازي (١٥/ ٧٩ ـ ٨٢).

رابعا: الآيات الواردة في صدق الرسول ﷺ:

من المعلوم يقينًا أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان رجلاً أمِّيًا لا يقرأ ولا يكتب، لم يتعلم من أستاذ، ولم يطالع كتابًا، ولم ينقل إلينا أنه كان يجالس العلماء، ولم يغب عن مكة غيبة طويلة يمكن أن يقال: إنه في تلك المدة تعلم العلوم الكثيرة. والمتأمل في سورة الأعراف - وهي من أطول السور المكية كما هو معلوم - يخبر فيها صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه - جلَّ وعلا - بالعديد من قصص الأنبياء مع أقوامهم مع تباعد هذه الأزمان عن زمنه - صلى الله عليه وآله وسلم - يخبر عنهم وعن أحوالهم مع أقوامهم، وهلاك أقوامهم لما عاندوا وكذبوا، دون أي تعارض لما ذكر في السور الأخرى، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على صدقه - صلى الله عليه وآله وسلم - فيما يخبر به عن ربه - جل وعلا - والأمثلة على ذلك كثيرة.

قال تعالى: ﴿**لقد أرسلنا نوحا إلىٰ قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم (٥٩) قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين (٦٠) قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين (٦١) أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون (٦٢) أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم علىٰ رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون (٦٣) فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين**﴾[1].

وأشباه ذلك من الأنبياء الذين ذكرتهم سورة الأعراف، وبدء الخلق، وكيف امتنع إبليس عن السجود، وحال آدم وزوجته في الجنة، وكيف أزلهما إبليس، وهبوطهم إلى الأرض . . . إلخ.

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (٥٩) إلى (٦٤).

وما ذكرته التوارة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى مما صدقه فيه علماؤهم، ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها بل أذعنوا لذلك.

ومع هذا لم يحك عن واحد من اليهود والنصارى ـ على شدة عداوتهم له، وحرصهم على تكذيبه ـ أنهم خالفوه في أي نص جاء به وأخبر فيه عنهم من أحوالهم وانتقام الله منهم بأشد أنواع العذاب، مع ما في تلك الآيات من فضح وتشنيع عليهم.

قال تعالى: ﴿ **وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين (١٦١) فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون** ﴾[1] أي: فأرسلنا عليهم عذابًا أليمًا لما فعلوه من غير تأخير؛ بسبب ظلمهم المستمر. والإرسال مشعر بالكثرة بخلاف الإنزال.

وقال تعالى: ﴿ **واسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون** ﴾[2] إلى قوله تعالى: ﴿ **فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾[3].

والمراد من الآيات: واسأل اليهود الذين كانوا بالمدينة عن هذه الحادثة، أعني عدوان آبائهم يوم السبت الذي اختاروه بأنفسهم يومًا لعبادتهم ففرضه الله عليهم، وأنهم لما ظلموا فيه بالاصطياد، ولم يمتنعوا عما نهوا عنه أخذهم الله

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٦١ ـ ١٦٢).

(٢) سورة الأعراف: آية (١٦٣).

(٣) سورة الأعراف: آية (١٦٦).

ومسخهم قردة وخنازير. فإنهم لما سُئلوا عن تلك الحادثة لم ينكروها واعترفوا بما ذكره القرآن الكريم. وهذا من أقوى الأدلة على صدق النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إذ بين زمانه وزمان هذه الحادثة قرون متطاولة[١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢] المراد بالجبل: الطور، ونتقه: قلعه من مكانه ووضعه فوق رؤوسهم كأنه ظلة. وسلك القرآن هنا أسلوب التشبيه؛ لأن الجبل لم يكن ظلة حقيقية يُطمأن إليها، والظلة كل ما أظلك من سقيفه أو سحاب[٣].

وسبب ذلك أن بني إسرائيل في عهد نبيهم موسى - عليه السلام - لما أبوا أحكام التوراة لشدتها عليهم كما يزعمون فعل الله بهم ذلك ليحملهم على أخذها، والعمل بها حتى تتحقق لهم التقوى. وكما يروي المفسرون[٤] أنهم لما رأوا الجبل بهذه الهيئة سجدوا على حاجبهم الأيسر؛ ليبصروا الجبل بعينهم اليمنى خشية أن يسقط عليهم. وقد سمع اليهود هذه القصة مراراً من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - آيات تتلى في سور مختلفة، بين نزول كل آية منها زمن، فما استطاعوا إنكارها ولا معارضتها، وهذا دليل عظيم من أدلة صدقه - عليه الصلاة والسلام - فيما يخبر عن ربه - عز وجل - وذكر الله هذه الحادثة في البقرة مرتين، وفي النساء مرة، وفي الأعراف مرة تبكيتًا لليهود المعاصرين له -

---

(١) وسأعود إلى تفصيل هذه القصة باعتبارها جزءًا من الصراع بين الحق والباطل في مكانها المحدد لها من الرسالة. انظر ص (٦٢٠) من بحثنا هذا.

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٧١).

(٣) انظر: تفسير النسفي (٢/ ٨٤).

(٤) انظر: تفسير النسفي (٢/ ٨٤) وتفسير الرازي (١٥/ ٤٥).

صلى الله عليه وآله وسلم - وبيانًا بأنهم في الظلم والفسوق والتمرد على أحكام الله كآبائهم وأشد[١].

* * *

(١) الآيات التي تناولت هذه الحادثة غير آية الأعراف:

قال تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ سورة البقرة: الآية (٦٣).

وقال تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾ سورة البقرة: الآية (٩٣).

وقال تعالى: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾ سورة النساء: الآية (١٥٤).

فالكلام قبل كل آية من هذه الآيات وبعدها مع بني إسرائيل لا يعوز القاريء أن يجد ذلك صريحًا بلا كلفة.

خلاصة التمهيد

١ ـ للصراع معنيان: هما :

الغلبة بالحجة المادية أو المعنوية ـ والفنون المبتكرة التي ينتصر بها أحد المصارعين علي صاحبه .

٢ ـ يولد الحق من نيران العقل السليم المتحرر من الأهواء والعصبيات ، ويولد الباطل من ضوء سيطرة الشهوات والعصبيات والأهواء .

٣ ـ أهل الباطل دومًا متربصون بأهل الحق ، يهتبلون كل فرصة تتاح لهم ، فوجب على أهل الحق أن يبقوا على قوة واستعداد من غير ضعف ولا وهن ولا غفلة .

٤ ـ الصراع الذي أمر المؤمنون بخوضه نوعان :

* مجاهدة أنفسهم على الثبات على الحق .

* ومجاهدة أعدائهم بالحجة والبرهان ، أو بالسيف والقوة إذا دعى الأمر لذلك .

٥ ـ غاية صراع أهل الحق في الإسلام هي هداية البشر ، ودلالتهم على سعادة الدنيا والآخرة ، أما غايته عند أهل الباطل فهي تحطيم البشرية وإضلالها وتجهيلها بربها .

٦ ـ سورة الأعراف هي أطول سورة مكية في القرآن الكريم ، وتنقسم

الفصل الأول

صراع إبليس مع آدم ـ عليه السلام ـ

• **المبحث الأول:**

• **مقدمة:**

وفيها ذكر المواضع التي ذكرت فيها قصة آدم في القرآن الكريم والحكمة من تكرارها.

* مسائل مهمة لابد من توضيحها لبيان حقيقة الصراع بين إبليس وآدم أبي البشر ـ عليه السلام ـ.

ـ **المسألة الأولى** : أطوار خلق آدم ـ عليه السلام ـ

ـ **المسألة الثانية** : خلق حواء ـ عليها السلام ـ

ـ **المسألة الثالثة** : من الملائكة؟ حقيقتهم، عصمتهم، أصنافهم، أوصافهم، وصف قدرتهم.

ـ **المسألة الرابعة** : السجود لآدم وبيان حقيقة ذلك.

ـ **المسألة الخامسة** : حقيقة إبليس؛ هل كان من الملائكة أو من الجن؟

ـ **المسألة السادسة** : مسألة الكلام عن الجنة والاختلاف في المراد بها، وفيها الرد على المعتزلة ودحض شبههم.

ـ **المسألة السابعة** : مسألة الكلام عن الشجرة واختلاف المفسرين في المراد بها.

• **المبحث الثاني: الآيات التي يدور الصراع عليها في قصة آدم ـ عليه السلام ـ**

المبحث الأول
الصراع بين إبليس وآدم أبي البشر عليه السلام

• مقدمة:

لقد أمر الله ـ جل وعلا ـ عباده باتِّباع رسله ـ عليهم السلام ـ فيما يبلغونه عنه، وسوف يسأل الكل عن عمله إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، قال تعالى: ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾[1] ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2]، فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ سيحاسب عباده، كلٌ بعمله، وذلك بعد وزن عمله: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾[3].

ثم بعد ذلك رغّبهم في قبول دعوة الأنبياء، وذلك بتذكيره بكثرة نعمه عليهم، وكثرة النعم توجب الطاعة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أي: جعلنا لكم فيها مكانًا وقرارًا، ومكناكم فيها، وأقدرناكم على التصرف فيها ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦).

(٢) سورة الحجر: الآية (٩٢، ٩٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨، ٩).

معايش ﴾ والمراد من المعايش وجوه المنافع بمختلف أشكالها[١].

ثم أعقب ذلك بنعم أخرى، وهي خلقنا وتصويرنا في أجمل خلقه، يتمثل ذلك في آدم ـ عليه السلام ـ وسجود الملائكة له. والإنعام على الأب يجري مجرى الإنعام على الابن[٢].

ولقد ذكر الله ـ جل وعلا ـ قصة آدم ـ عليه السلام ـ وحسد إبليس له بامتناعه عن السجود لآدم، وقسمه بعزة الله بين يدي الله بأنه سيحتنك[٣] ذريته إلا قليلاً، وإغوائهم أجمعين إلا عباد الله منهم المُخلصين، ليفطن بنو آدم لعداوة إبليس لهم، واجتهاده في تلك العداوة؛ حتى لا يسمعوا له أو يطمئنوا لوعده، فإنه لا يعد إلا بما لا ينفع، ولا يأمر إلا بالفحشاء؛ لذا نجد هذه القصة قد تكررت في القرآن الكريم سبع مرات لأسباب كثيرة أهمها في نظري ما ذكرته آنفًا.

وإليك هذه المواضع التي ذكرت تلك القصة فيها:

أولاً: في سورة البقرة:

قال تعالى: ﴿ **وإذْ قال ربُّك للْملائكة إنّي جاعلٌ في الأرْض خَليفةً** ﴾[٤] إلى

---

(١) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٨).

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٩).

(٣) أشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿ **فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ سورة ص: الآيات من (٧٩) إلى (٨٣)، وقوله تعالى: ﴿ **قال أرأيتك هذا الذي كرمت على لئن أخرتن إلي يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا** ﴾ سورة الإسراء: الآية (٦٢) والمراد بقوله: ﴿ **لأحتنكن** ﴾ يجوز أن يكون من قولهم: حنكت الدابة باللجام والرسن فيكون نحو قولك: لألجمن فلانًا ولأرسننه. ويجوز أن يكون من قولهم احتنك الجراد الأرض، أي: استولى عليها بحنكه، فأكلها واستأصلها، فيكون معناه: لأستولين عليهم. انظر المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص (١٣٤).

(٤) سورة البقرة: الآية (٣٠).

قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[١].

والغرض من ذكر هذه القصة تقبيح الكفر من الكافرين.

ثانيا: في سورة الأعراف:

من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾[٢] إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[٣] والغرض من ذكرها هنا حمل الناس على اتباع النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فيما جاء به عن ربه ـ جل وعلا.

ثالثا: في سورة الحجر:

من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾[٤] إلى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[٥].

والغرض من ذكرها بيان معصية إبليس، وإصراره على إغواء بني آدم إلا المخلصين منهم.

رابعا: في سورة الإسراء:

من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣٨).
(٢) سورة الأعراف: الآية (١١).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٤).
(٤) سورة الحجر: الآية (٢٦).
(٥) سورة الحجر: الآية (٤٠).

أأسجدُ لمنْ خلقْت طيناً ﴾؟[١] إلى قوله تعالى: ﴿ إنَّ عبادي ليْس لك عليْهمْ سُلْطانٌ وكفىٰ بربك وكيلاً ﴾[٢].

والغرض من ذكرها تقبيح الكفر والتنديد بمشركي مكة.

خامساً: في سورة الكهف:

قوله تعالى: ﴿ وإذْ قُلْنا للْملائكة اسْجُدُوا لآدم فسجدُوا إلاَّ إبْليس كان من الْجنّ ففسق عنْ أمْر ربّه أفتتخذُونه وذُرّيّته أوْلياء من دُوني وهُمْ لكُمْ عدُوٌّ بئْس للظّالمين بدلاً ﴾[٣] والغرض من ذكرها التخويف من الحساب يوم القيامة، وحمل الكافرين على الإيمان بالآخرة، وتخويفهم، وتقبيح اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله.

سادساً: في سورة طه:

من قوله تعالى: ﴿ ولقدْ عهدْنا إلىٰ آدم من قبْلُ فنسي ولمْ نجدْ لهُ عزْماً ﴾[٤] إلى قوله تعالى: ﴿ قال اهْبطا منْها جميعاً بعْضُكُمْ لبعْضٍ عدُوٌّ فإمّا يأْتينّكُم منّي هُدىً فمنِ اتّبع هُداي فلا يضلُّ ولا يشْقىٰ ﴾[٥].

والغرض من ذكرها بيان ضعف الإنسان، وأنه لا يثبت على العهد في كثير من الأحيان، وأن معصية آدم ـ عليه السلام ـ لم تكن عن عمد، وإنما كانت عن نسيان.

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٦١).

(٢) سورة الإسراء: (٦٥).

(٣) سورة الكهف: الآية (٥٠).

(٤) سورة طه: الآية (١١٥).

(٥) سورة طه: الآية (١٢٣).

سابعًا: في سورة ص:

من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[١] إلى قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢].

والغرض من ذكرها بيان صفاقة إبليس، وإصراره على معصيته، واستخدامه القياس الفاسد الذي أدى به إلى الطرد، وهذا غرض مشترك لذكر هذه القصة في معظم المواضع.

ولقد أوجزت سورة النساء والأعراف والزمر والرحمن الكلام عن خلق آدم وحده تارة، وعن خلقه مع زوجته تارة أخرى، دون التعرض لشيء من التفاصيل المذكورة في المواضع السبعة التي أسلفناها لحكم وأسرار، تعرف عند التعرض لتفسير تلك السور، وسأتعرض لموضوع واحد من تلك المواضيع التي ذكرت فيه القصة بإجمال في حينه باعتبار أنه مذكور في سورة الأعراف التي تدور الدراسة حول الصراع فيها.

المسألة الأولى: أطوار خلق آدم - عليه السلام -

آدم:

آدم - عليه السلام - أبو البشر، اشتق اسمه من أدمة الأرض وأديمها، وهو وجهها، حيث قد خلق منها[٣].

ولقد مر آدم - عليه السلام - بأطوار شتى تناولها القرآن الكريم بالبيان والتوضيح:

---

(١) سورة ص: الآية (٧١).

(٢) سورة ص: الآية (٨٥).

(٣) انظر: لسان العرب، (١٢/ ١٢).

الطور الأول : خلقه من تراب :

قال تعالى : ﴿ **إن مثل عيسىٰ عند الله كمثل آدم خلقهُ من تُراب ثُمَّ قال لهُ كُن فيكُونُ** ﴾[١] قال تعالى : ﴿ **يا أيُها النَاسُ إن كُنتمْ في ريب مَن البعْث فإنَا خلقْناكُم مَن تُراب** ﴾[٢]، وقال تعالى : ﴿ **يُخرجُ الْحيَ من الميت ويُخْرجُ الْميت من الْحي ويُحيي الأرض بعد موتها وكذلك تُخرجُون** ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ **واللهُ خلقكُم مَن تُراب** ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ **هو الذي خلقكُم مَن تُراب** ﴾[٥].

فالمفسرون مجمعون على أن المقصود بهذه الآيات هو خلق أبينا آدم ـ عليه السلام ـ وجاءت السنة المطهرة موضحة لذلك.

أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال : قال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول : «**إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، والسهل والحزن، والخبيث والطيب**»[٦].

الطور الثاني : مزج التراب بالماء حتى صار طينا، ثم انتخب آدم ـ عليه السلام ـ من هذا الطين :

لقوله تعالى : ﴿ **ولقدْ خلقْنا الإنسان من سُلالةٍ مَن طينٍ** ﴾[٧] والسلالة : هي ما

---

(١) سورة آل عمران : الآية (٥٩).

(٢) سورة الحج : الآية (٥).

(٣) سورة الروم : الآية (١٩).

(٤) سورة فاطر : الآية (١١).

(٥) سورة غافر : الآية (٦٧).

(٦) سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة (٥/ ٢٠٤) باب تفسير سورة البقرة.

(٧) سورة المؤمنون : الآية (١٢).

يستخرج من الشيء ويسل منه، ولذلك قيل: إنها الخلاصة. والمراد بها القطعة التي أخذت من الطين وخلق منها آدم ـ عليه السلام ـ[١].

وقال تعالى: ﴿ **الذي أحسن كُلَّ شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين** ﴾[٢] والمراد بالإنسان آدم عليه السلام[٣].

الطور الثالث: خلقه من حمأ:

أي: من طين منتن ظاهر الرائحة، قال تعالى: ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من صلصال مِّنْ حمأ مَّسنُون** ﴾[٤].

قال النسفي: «﴿ **ولقد خلقنا الإنسان** ﴾ أي: آدم ﴿ **من صلصال** ﴾ طين يابس غير مطبوخ ﴿ **مِّنْ حمأ** ﴾ صفة لصلصال أي: خلقه من صلصال كائن من حمأ، أي: طين أسود متغير ﴿ **مَّسنُون** ﴾ مصوَّر»[٥].

الطور الرابع: تصويره من الصلصال:

وهو الطين اليابس كما ذكرت، ولا تفهم من ظاهر هذه الآية أنه كان صلصالاً قبل أن يكون طينًا من حمأ مسنون بل معناها أن الصلصال هو نتيجة الحمأ المسنون، قال النسفي: «وفي الأول كان ترابًا، فعجن بالماء فصار طينًا، فمكث فصار حمأ، فخلص فصار سلالة، فصور ويبس فصار صلصالاً. فلا تناقض» ا. هـ.[٦].

---

(١) المكلبي، العلامة محمد بن أحمد. التسهيل لعلوم التنزيل. الطبعة الثانية، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ)، ٣/ ٤٩.

(٢) سورة السجدة: الآية (٧).

(٣) المصدر السابق، ٣/ ١٣٠؛ وانظر: الشنقيطي، محمد الأمين. أضواء البيان. (بيروت: عالم الكتاب، د.ت)، ٥، ٧٧٨.

(٤) سورة الحجر: الآية (٢٦).

(٥) تفسير النسفي، (٢/ ٢٧١).

(٦) تفسير النسفي، (٢/ ٢٧٢).

الطور الخامس : خلق الحياة فيه وذلك بنفخ الروح فيه :

وبهذا الطور أصبح إنسانًا يتلقى عن ربه، ويشعر بما يشعر به من الصفات الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** ﴾[١].

فالسجود والتعليم لم يقعا له إلا بعد تمام خلقه وإدراكه.

المسألة الثانية: خلق حواء ـ عليها السلام ـ

إن القاريء لكتاب الله ـ عز وجل ـ يجد نصوصًا صريحة في أن حواء ـ عليها السلام ـ خُلقت من آدم ـ عليه السلام ـ قال تعالى: ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة** ﴾ وهي آدم ـ عليه السلام ـ ﴿ **وخلق منها زوجها** ﴾[٢] وهي حواء ـ عليها السلام ـ خلقت من ضلعه الأيسر وهو نائم، فاستيقظ فرآها بجواره، فأنس بها وأنست به[٣].

قال تعالى: ﴿ **هو الذي خلقكم من نفس واحدة** ﴾ وهو آدم ـ عليه السلام ـ ﴿ **وجعل منها زوجها ليسكن إليها** ﴾[٤] وهي حواء ـ عليها السلام.

ولقد اختلف في خلق حواء في قوله تعالى: ﴿ **وخلق منها زوجها** ﴾ ومرجع الخلاف هو اختلافهم في قوله: ﴿ **منها** ﴾ هل (من) لابتداء الغاية أو للجنس. هل خلقت حواء من جزء من أجزاء آدم أو من جنس المادة التي خلق منها؟ الأرجح والذي عليه الأكثرون أنها خلقت من جزء من أجزاء آدم ـ عليه السلام ـ.

---

(١) سورة الحجر: الآية (٢٩).

(٢) سورة النساء: الآية (١).

(٣) انظر: تفسير الرازي (٩/ ١٦٠، ١٦١).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٨٩).

ويؤيده الأثر الذي أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي قال: أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي بها وحشًا ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة، خلقها الله من ضلعه، فسألها ما أنت؟ فقالت: امرأة. قال: ولم خُلقت؟ قالت: لتسكن إليّ. قالت له الملائكة: ـ ينظرون ما بلغ من علمه ـ ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء قالوا: ولم حواء؟ قال: إنها خلقت من شيء حي[1].

فالشاهد في الأثر قوله: «وإذا عند رأسه امرأة خلقها الله ـ عز وجل ـ من ضعله».

ويؤيده الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً**»[2].

قال ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ: فقوله: «**خلقن من ضلع**» بكسر الضاد المعجمة وفتح اللام وقد تسكن ـ كان فيه إشارة إلى ما أخرجه ابن إسحاق في المبتدأ عن ابن عباس: «إن حواء خلقت من ضلع آدم الأقصر الأيسر وهو نائم . . .». فكان المعنى أن النساء خلقن من أصلٍ خُلق من شيء معوج[3].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٩٧)، (القاهرة، دار الفكر، د. ت). وإسناده حسن؛ انظر: تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق حمد بن أبي بكر (١/ ٧١).

(٢) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، (١١/ ١٦٢).

(٣) فتح الباري، (١١/ ١٦٢).

والرأي الثاني لأبي مسلم الأصفهاني من المعتزلة: «أنكر خلقها من الضلع؛ لأن الله قادر على خلقها من التراب. وقال: أيُّ فائدة في خلقها من ذلك؟ وزعم أن معنى ﴿منها﴾ أي: من جنسها».

ويرد عليه: إن فائدة ذلك ليس سوى الحكمة التي خفيت عنا لإظهار أنه ـ سبحانه ـ قادر على أن يخلق حيًا من حي لا على سبيل التوالد، كما أنه قادر على أن يخلق حيًا من جماد. ولو كانت القدرة على الخلق من التراب مانعة عن الخلق من غيره لعدم الفائدة لخلق الجميع من التراب بلا واسطة. وأعجبني كلام القاضي[1] قال: القول الأول أقوى لكي يصح قوله: ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداءً لكان الناس مخلوقين من نفسين لا من نفس واحدة. والله ـ جل وعلا ـ يقول: ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾[2].

المسألة الثالثة: من الملائكة؟

أ ـ الملائكة:

جمع مَلَكٌ، أصله مألك بتقديم الهمزة من الألوك وهي الرسالة، ثم قلبت وقدمت اللام فقيل ملأك، ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال فقيل: ملك، فلما جمعوه ردوها إليه فقالوا ملائكة وملائك[3] وهم أجسام لطيفة هوائية تقدر على

---

(١) القاضي: هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن خليل القاضي أبو الحسن الهمزاني الأسد آباذي، شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف منها (التفسير) عاش دهرًا طويلاً وسار ذكره، كان فقيهًا شافعي المذهب، ولي قضاة الري وأعمالها، ورحلت إليه الطلبة. مات في ذي القعدة سنة خمس عشرة وأربعمائة. ا.هـ. انظر: طبقات المفسرين للسيوطي، ص ٥٩، ص٦٠؛ ، طبقات المفسرين للداودي، (١/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٢) انظر: تفسير الرازي (٩/ ١٦١).

(٣) انظر: لسان العرب (١٠/ ٤٨١، ٤٨٢) وانظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية تحت إشراف مجموعة من الباحثين، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار المعارف، ١٣٩٣هـ) (٢/ ٨١٠).

التشكل بأشكال مختلفة، مسكنها السموات[١].

قال تعالى: ﴿ **وله من في السموات والأرض ومن عنده** ﴾ أي: من سكان السموات وهم الملائكة ﴿ **لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون** ﴾ أي: لا يعيون ولا يكلون ﴿ **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾[٢] أي: إن تسبيحهم متصل، دائم في جميع أوقاتهم، لا تتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر، فتسبيحهم جار مجرى التنفس منا بل أسرع[٣] وهم كلهم سامعون، مطيعون، مشتغلون بعبادته ـ سبحانه وتعالى ـ رطاب الألسن بذكره وتعظيمه، يتسابقون في ذلك منذ خلقهم، لا يستكبرون عن عبادته آناء الليل والنهار ولا يسأمون، لا يحصي أجناسهم ولا مدة أعمارهم ولا كيفية عبادته آناء الليل والنهار ولا يسأمون، لا يحصي أجناسهم ولا مدة أعمارهم ولا كيفية عبادتهم إلا الله ـ تعالى ـ[٤] وهم من الكثرة ما لا يحيط بهم إلا الله، فسبحانه من إله أحصى كل شيء عدداً.

أخرج الترمذي[٥] وابن ماجة[٦] والإمام أحمد[٧] في مسنده عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال ـ عليه الصلاة والسلام: «**أطت[٨] السماء وحق لها أن تئط**،

---

(١) تفسير الرازي (٢/ ١٦٠).

(٢) سورة الأنبياء: الآيتان (١٩، ٢٠).

(٣) تفسير النسفي بتصرف (٣/ ٧٥).

(٤) تفسير الرازي بتصرف (٢/ ١٦٢).

(٥) سنن الترمذي، كتاب الزهد (٤/ ٥٥٦).

(٦) سنن ابن ماجة، كتاب الزهد (٢/ ١٤٠٢).

(٧) مسند الإمام أحمد (٥/ ١٧٣).

(٨) أطَّت السماء: الأطيط صوت الأقتاب، وأطيط الإبل أصواتها وحنينها، أي أن كثرة الملائكة، في السماء قد أثقلها حتى أطت، وهذا كناية عن كثرة الملائكة، وأريد بذلك تقرير عظمة الله فقوله: «أطت السماء» أي: صوتت. انظر: النهاية لابن الأثير بتصرف (١/ ٥٤).

ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد» . . . الحديث .

ب ـ عصمة الملائكة :

ولقد اتفق الجمهور الأعظم من علماء الدين على عصمة كل الملائكة عن جميع الذنوب ما عدا الحشوية[١] وكلامهم مردود عليهم؛ لأنهم تمسكوا بأحاديث موضوعة وإسرائيليات واهية في قصة هاروت وماروت[٢]، كما حاولوا استنباط وقوع المعصية منهم من نصوص مثل قوله تعالى: ﴿**قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾[٣] وغير ذلك من الآيات .

والرد على متمسّكهم الأول أن استشهادهم بأحاديث موضوعة وإسرائيليات واهية لا يصلح الاستشهاد بها لا سيما في العقائد، إذ الإيمان بالملائكة وتعظيمهم وتوقيرهم أحد أركان الإيمان، أما الرد على متمسكهم الثاني فالآية لا تصلح دليلاً لما أرادوه؛ لأن الملائكة ـ عليهم السلام ـ سألوا متعجبين من حكمة اختيار آدم وبنيه لخلافة الأرض مع ما ظهر لهم مما يتنافى في ظاهر الأمر مع الخلافة، فكان السؤال عن الحكمة التي لا يهتدي إليها مهتدٍ بعقل لا اعتراضًا ولا غيبة لبني آدم كما يقولون[٤].

وللجمهور أدلتهم الواضحة فيما ذهبوا إليه من عصمة الملائكة عن الذنوب

---

(١) الحشوية: فرقة من المعتزلة تَمسّكوا بظواهر القرآن، وقعوا في التجسيم، وهم منسوبون إلى الحشو أي رذال الناس. دائرة معارف القرن العشرين، وجدي، محمد فريد. دائرة معارف القرن العشرين. (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ)، ٣/ ٤٤٦.

(٢) انظر: الفصل في الملل والنحل للإمام ابن حزم الظاهري الأندلسي (٤/ ٢٦، ٥٦) وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني.

(٣) سورة البقرة: الآية (٣٠).

(٤) من أراد التوسع فليرجع إلى التفسير الكبير للفخر الرازي، (٢/ ١٦٦).

منها قوله تعالى: ﴿ يخافُون ربَهُم مَن فوْقهمْ ويفعلُون ما يؤْمرُون ﴾[١].

وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿ يُسبّحُون اللّيْل والنّهار لا يفْترُون ﴾[٢] وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿ بلْ عبادٌ مُكْرمُون (٢٦) لا يسْبقُونهُ بالْقول وهُم بأمْره يعْملُون ﴾[٣] فمنهم سجود لا يركعون، وركوع لا ينتصبون ومسبحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول.

جـ ـ أصنافهم :

ولقد بين لنا القرآن الكريم بعض أصنافهم:

الصنف الأول : حملة العرش :

قال تعالى: ﴿ ويحْملُ عرْش ربّك فوْقهُمْ يوْمئذٍ ثمانيةٌ ﴾[٤].

الصنف الثاني : الحافُون حول العرش :

قال تعالى: ﴿ وترى الْملائكة حافّين منْ حوْل الْعرْش يُسبّحُون بحمْد ربّهمْ ﴾[٥].

الصنف الثالث : أكابر الملائكة :

أمثال جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام ـ.

قال تعالى: ﴿ من كان عدُوًا لّلّه وملائكته ورُسُله وجبْريل وميكال فإنّ اللّه

---

(١) سورة النحل: الآية (٥٠).

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٢٠).

(٣) سورة الأنبياء: الآيتان (٢٦، ٢٧).

(٤) سورة الحاقة: الآية (١٧).

(٥) سورة الزمر: الآية (٧٥).

عدوٌ للكافرين ﴾[١].

الصنف الرابع : ملائكة الجنة :

﴿ والملائكةُ يدخُلون عليهم مِن كُلِّ باب (٢٣) سلامٌ عليكُم بما صبرتُم فنعم عُقبى الدار ﴾[٢].

الصنف الخامس : ملائكة النار :

قال تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر (٣٠) وما جعلنا أصحاب النار إلاَّ ملائكة وما جعلنا عدتهم إلاَّ فتنة للذين كفروا ﴾[٣] . . . الآية .

الصنف السادس : الحفظة الموكلون ببني آدم لحفظهم والكاتبون لأعمالهم :

قال تعالى : ﴿ وإنَّ عليكُم لحافظين (١٠) كراماً كاتبين (١١) يعلمُون ما تفعلُون ﴾[٤] . وقوله عز من قائل : ﴿ إن كُلُّ نفسٍ لَّما عليها حافظٌ ﴾[٥] .

وأقتصر على هذه الأصناف الستة مع العلم بأن أصنافهم لا يحصيها إلا خالقهم ـ جل وعلا ـ واكتفيت بما ذكرته خشية الإطالة .

د ـ أوصافهم :

وهذه أيضًا بعض أوصافهم اقتصرت على ثلاثة منها :

---

(١) سورة البقرة : الآية (٩٨) .

(٢) سورة الرعد : الآيتان (٢٣ ، ٢٤) .

(٣) سورة المدثر : الآيتان (٣٠ ، ٣١) .

(٤) سورة الانفطار : الآيات من (١٠) إلى (١٢) .

(٥) سورة الطارق : الآية (٤) .

أولاً : أنَّ الملائكة رسلُ الله، قال تعالى: ﴿ **جاعلِ الْملائكة رُسُلا** ﴾[١].

ثانيًا : قُربُهم من الله، قال تعالى: ﴿ **ومنْ عندهُ لا يستكْبرُون عنْ عبادته ولا يستحْسرُون** ﴾[٢].

ثالثًا : دوام التسبيح والتقديس، قال تعالى: ﴿ **يُسبّحُون اللّيْل والنّهار لا يفْترُون** ﴾[٣].

هـ ـ وصف قدرتهم :

لقد وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ عرشه بالعظَم، ومع عظمه فحمَلته من الملائكة يوم القيامة بنص القرآن ثمانية، قال تعالَى: ﴿ **والْملكُ علىٰ أرْجائها**[٤] **ويحْملُ عرْش ربّك فوْقهُمْ يوْمئذٍ ثمانيةٌ** ﴾[٥].

ومما ورد في بيان عظيم قدرتهم وكبر هيئتهم ما أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه ﷺ رأى جبريل ليلة أسرى به له ستمائة جناح[٦] وهم مع ما هم عليه من الشدة والعظم دائمو الخوف من الله ـ عز وجل ـ مشفقون من أن يغضب الله عليهم، قال تعالى: ﴿ **يخافُون ربّهُم مّن فوْقهم ويفْعلُون ما يُؤْمرُون** ﴾[٧] وقال تعالى: ﴿ **وهُم مّنْ خشْيته مُشْفقُون** ﴾[٨].

---

(١) سورة فاطر: الآية (١).

(٢) سورة الأنبياء: الآية (١٩).

(٣) سورة الأنبياء: الآية (٢٠).

(٤) أي: نواحي السماء وجوانبها.

(٥) سورة الحاقة: الآية (١٧).

(٦) انظر: صحيح البخاري، على هامشه فتح الباري، كتاب بدء الخلق (٧/ ١٢٤) وكتاب التفسير ـ تفسير سورة النجم، (١٠/ ٢٣٣)؛ وانظر: تفسير القاسمي ـ سورة فاطر (١٤/ ٤٠).

(٧) سورة النحل: الآية (٥٠).

(٨) سورة الأنبياء: الآية (٢٨).

المسألة الرابعة: السجود لآدم وبيان حقيقة ذلك:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾[١] هنا يتبادر إلى الأذهان سؤال وهو: هل كان السجود لآدم ـ عليه السلام ـ بوضع الجبهة على الأرض كهيئة سجودنا في صلاتنا؟

الجواب: اختلف المفسرون في المقصود من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ على ثلاثة أقوال، وذلك بعد إجماعهم على أن السجود لم يكن عبادة، بل كان تحية؛ إذ السجود لغير الله بقصد التأليه كفر لا شك فيه، فأما إذا كان لغير التأليه، فهو كبيرة من كبائر المعاصي، لا يجوز فعلها بحال ويعلّم مَن فعلها إن كان جاهلاً، ويعزّر إن كان قاصدًا؛ فإن ديننا الحنيف الذي أمر بإشاعة التحية بين المسلمين، قد حددها بالسلام، ثم الابتسام ولطف الكلام، وهو يمقت المبالغة في كل شيء لأنها إفراط ولا خير في الإفراط. وإليك خلاصة الأقوال الثلاثة:

القول الأول:

إن السجود كان لله، وآدم قبلتهم كالكعبة للمصلي وقد ضعف هذا الرأي لمخالفته لظاهر النص إذ لو كان آدم قبلة لقيل: «اسجدوا إلى آدم» ولكن هذا التعليل ضعيف إذ يقال: صليت لكذا، وإلى كذا بمعنى استقبلته، ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾[٢] وعن ابن عباس قال: «دلوكها زوالها»[٣].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣٤).

(٢) سورة الإسراء: الآية (٧٨).

(٣) انظر: تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة، تأليف د. عبد العزيز الحميدي (مكة المكرمة: مركز البحث العلمي كلية الشريعة)، ٢/ ٥٥٨ ـ ٥٦١.

القول الثاني :

إن السجود كان لآدم ـ عليه السلام ـ حقيقة بوضع الجبهة على الأرض بقصد تعظيمه ـ عليه السلام .

القول الثالث :

السجود في اللغة معناه الخضوع والانقياد، ومعنى قوله تعالى : ﴿ **اسْجُدُوا لآدَمَ** ﴾ أي : استبطنوا تعظيمه، واستشعروا فضله وشرفه عليكم . وبهذا التفسير لا يكون السجود حقيقيًا .

والقول الأول، والقول الثالث ضعيفان لمخالفتهما لظاهر النص، ولإمكان حصول السجود على حقيقته دون منافاة، ما دام الله قد أمر به، فهو مفعول في الحقيقة امتثالاً لأمر الله، وتعظيم المسجود له يأتي تبعًا، ولقد كان السجود بمعنى الخرور مشروعًا تحية في شرائع من كان قبلنا بدليل قوله تعالى : ﴿ **وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا** ﴾[1] أي : خَرَّ أبناء يعقوب ليوسف سجدًا، وقيل : خروا ومعهم أبواهم، فهذا صريح في جواز السجود في شرعهم وإلا لمنعه يعقوب ويوسف بحكم نبوتهما، هذا على القول بأن الأسباط لم ينبأوا إلى هذا الحين، وعلى القول بأنهم نبؤا قبل ذلك فالسجود حصل منهم وهم أنبياء، والتعبير عنه بالخرور قاطع في أنه كان بوضع الجبهة على الأرض . وما اخترته هو ما رجحه غالب المفسرين[2] والذين ضعفوه ومنهم الألوسي[3] نسوا أنه أمر الله وأن لله أن يأمر بما يشاء لا معقب لحكمه .

---

(١) سورة يوسف : الآية (١٠) .

(٢) انظر : تفسير الطبري، (١/ ٢٢٨، ٢٢٩) .
انظر : تفسير ابن كثير، (١/ ٧٧) .

(٣) روح المعاني، (١/ ٢٢٨) .

وقول الألوسي: «ولا أراه حل في عصر من الأعصار»[١] يصادم قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾[٢].

قال الألوسي: «حكمة هذا السجود إظهار الاعتراف بفضله ـ عليه السلام ـ والاعتذار عما قالوا فيه مع الإشارة إلى أن حق الأستاذ على من علمه حق عظيم»[٣].

وهذا يرجِّح ما اخترته، إذ لا تظهر هذه الحكمة إلا بحقيقة سجود الملائكة لآدم؛ لأن الملائكة ساجدون راكعون، مسبحون الليل والنهار، لا يفترون قبل هذه القصة وبعدها لله رب العالمين.

فَجَعْلُ مالَه اختصاصًا لآدم في لحظة من اللحظات تكريمًا أبلغ في ظهور تعظيمه وتفضيله عليهم. فلم يكن السجود عبادة بل كان تحية، ولا يضر أن تؤدي التحية بما تؤدي به العبادة ما دام الله قد أمر بذلك، كما أن ترك الحقيقة إلى المجاز بلا داعٍ أقوى مما يتحاماه العلماء.

المسألة الخامسة: حقيقة إبليس ـ أعاذنا الله منه ـ:

هل كان من الملائكة أم من الجن؟

اختلف العلماء هل كان إبليس من الملائكة أم من غيرهم أم من الجن، وسبب هذا الخلاف نظرهم إلى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[٤]، فالاستثناء هنا تام

---

(١) روح المعاني، (١/ ٢٢٨).

(٢) سورة يوسف: الآية (١٠٠).

(٣) روح المعاني، (١/ ٢٢٩).

(٤) سورة البقرة: الآية (٣٤).

مثبت، وهذا يعني في الأغلب الأعم أن المستثني يكون من جنس المستثنى منه، وقد ذهب إلى هذا كثير من الفقهاء، وقالوا: إن إبليس من الملائكة جرى عليه حكم الله، فأخرج عن طبيعته الملكية وتأبلس. وقال المتكلمون: إنه لم يكن من الملائكة. فالاستثناء عندهم منقطع إذ لا مانع عندهم من أن يكون الكلام تامًا مثبتًا، والاستثناء فيه منقطع على حد قول النحاة: قام القوم إلا حمارًا.

وسأبدأ بذكر أدلة المتكلمين على ما ذهبوا إليه ثم أثنى بأدلة الفقهاء محاولاً ترجيح ما ظهر لي:

أدلة المتكلمين:

أ ـ ١ ـ قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ **وإذْ قُلْنا للملائكة اسْجُدُوا لآدم فسَجَدُوا إلاَّ إبْليس كَانَ من الْجنّ** ﴾[1] فكان هنا إخبار عن الماضي لا عن الحاضر، وهذا صريح في بيان أصله، وإذا ثبت ذلك وجب أن لا يكون من الملائكة.

٢ ـ وأيضًا قالوا: لا مانع أنه جني خالط الملائكة طويلاً فخوطب بما خوطبوا به.

٣ ـ أنه خُصَّ بالخطاب في قوله تعالى: ﴿ **قال ما منعك ألاَّ تسْجُد إذْ أمرْتُك** ﴾[2] ولم يدخل في عموم خطاب الله للملائكة.

ب ـ أن إبليس له ذرية لصريح قوله تعالى في نفس الآية: ﴿ **أفتتَّخذُونهُ وذُرِّيَّتهُ أوْلياء من دُوني وهُمْ لكُمْ عدُوٌّ بئْس للظَّالمين بدلاً** ﴾[3] فهذا نص في أن إبليس له ذرية والملائكة لا ذرية لهم. وإنما قلنا لا ذرية لهم لانتفاء وصف الأنوثة عنهم

---

(١) سورة الكهف: الآية (٥٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٣) سورة الكهف: الآية (٥٠).

بدليل قوله تعالى في بيان بعض الافتراءات التي قالها المشركون بغير علم: ﴿ **وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ** ﴾[١] فهذا صريح في نفي الأنوثة عنهم حيث وبَّخهم الله على ذلك القول، وتوعدهم بشديد السؤال.

جـ- أن الملائكة خلقوا معصومين؛ ولذا بادروا إلى الامتثال أول ما أمروا خلافًا لما حصل من إبليس.

د- أن إبليس مخلوق من النار والملائكة خلقوا من النور، يدل على خلقه كذلك صريح قوله تعالى: ﴿ **قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** ﴾[٢] والقائل هو إبليس، ولقوله تعالى: ﴿ **وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ** ﴾[٣] فهو إذن من الجن لا من الملائكة، والدليل على خلق الملائكة من النور ما روي عن السيدة عائشة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ أنه قال: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»[٤].

وقيل: خلقوا من الروح أو الريح. فعلى الرأيين تُغاير طبيعتُهم طبيعةَ إبليس - أعاذنا الله منه.

هـ- سمى الله الملائكة رسلاً في قوله تعالى: ﴿ **جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا** ﴾[٥] والرسل يستحيل منهم وقوع المعصية، لحصول العصمة فوجب أن لا يكون إبليس

---

(١) سورة الزخرف: الآية (١٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٣) سورة الحجر: الآية (٢٧).

(٤) صحيح مسلم بتحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، (٤/ ٢٢٩٤)؛ كتاب الزهد والرقائق، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار إحياء التراث الإسلامي، ١٩٧٢م).

(٥) سورة فاطر: الآية (١).

منهم لوقوعه في المعصية.

أدلة من ذهب من الفقهاء إلى أن إبليس من الملائكة:

أ ـ أن الله استثناه من الملائكة، والاستثناء يفيد إخراج ما لولاه لدخل أو لصح دخوله، وذلك يوجب كونه من الملائكة.

ب ـ قالوا: لو لم يكن إبليس من الملائكة لما كان قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ متناولاً له، ولو لم يكن متناولاً له لاستحال أن يكون تركه للسجود إباءً واستكباراً ومعصية، ولما استحق الذم والعقاب، وحيث حصلت هذه الأمور، علمنا أن ذلك الخطاب يتناوله، ولا يتناوله ذلك الخطاب إلا إذا كان من الملائكة.

ردود القائلين من الفقهاء بأن إبليس من الملائكة على المتكلمين القائلين بأن إبليس من الجن:

الرد الأول:

على قول المتكلمين: إنه كان من الجن، أي: بأصل خلقته وتكوينه:

قالوا: إن هذا الاستدلال ضعيف؛ لأن مادة الجن والاجتنان والجنة والجنون تدور على معنى الستر والخفاء[1] ولما كانت الملائكة مخفيين مستورين عن أعيننا لا نراهم، ولا نقدر على مخالطتهم إلا بقوة إلهية يمنحها الله رسله ـ عليهم السلام ـ ومَن خصّهم من خلقه، وجب أن يطلق عليهم لفظ الجن باعتبار اللغة، فثبت أن هذا الاستدلال بهذه الآية لا يوصل إلى مقصود المستدلين بها.

كما يجوز أن يكون معنى كان من الجن، أي: صار بتمرده عن السجود منهم

(١) انظر: لسان العرب، مادة جنن (١٣/ ٩٢).

بانقلابه من الخير إلى الشر، نظيره قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[١] أي: صار لأنه لم يكن كافرًا قبل امتناعه عن السجود، وإنما صار إلى الكفر بالامتناع.

ودعوى المتكلمين بوجود الاستثناء المنقطع في القرآن في أكثر من آية لا ننكره ومع ذلك فهو لا يفيد المطلوب؛ لأن المتكلمين قد عوَّلوا على عمومات يمكن تخصيصها، ومعلوم لو قلنا بأن الاستثناء منقطع للزمنا تقديم هذا القول على التخصيص، مع أن تخصيص العام مقدم على جعل الاستثناء منقطعًا؛ لأن الأصل تناول العام لجميع أفراده، ومهمة التخصيص قصره على بعض أفراده، فالخارج بالتخصيص أصله من العام، وهذه هي الحقيقة، ولا يُعدَل عنها إلا للضرورة، ولذا كان المصير إلى التخصيص أولى. وأيضًا فمعنى الاستثناء الثني والصرف، ولولا هذا الصرف لدخل الخارج بالاستثناء في جنسه. هذا هو الأصل ولا يُعدَل عنه ـ كما قلت ـ إلا للضرورة.

أما قولهم: كان جنيًا ضمن كثرة من الملائكة فخُوطب بما خوطبوا فمردود، لأن إفراد القرآن إياه بالحديث، وتكرار ذلك في مواضع كثيرة يتنافى مع قولكم بأنه جني خوطب بما خوطبت به الملائكة، لأن تكرار الحديث عنه يدل على أنه مقصود من أول الأمر بالخطاب، لا أنه تابع لغيره، وإنما يجوز إجراء حكم الكثير على القليل إذا كان ساقط العبرة، أما إذا كان مقصودًا بالخطاب فذلك ينفي كونه خارجًا عن الملائكة.

الرد الثاني:

قالوا: لو لم يكن إبليس من الملائكة لما كان قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣٤).

﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾[١] متناولاً له، ولو لم يكن متناولاً له لاستحال أن يكون تركه للسجود إباءً واستكباراً ومعصية، ولما استحق الذم والعقاب، وحيث حصلت هذه الأمور علمنا أن الخطاب لا يتناوله إلا إذا كان من الملائكة، ولا يقال: إنه ليس من الملائكة، لكنه نشأ معهم، وطالت مخالطته لهم، فلا مناص من تناول الخطاب له.

لا يقال ذلك لأن المخالطة لا توجب خطاب المخالط، بدليل أن الخطابات الخاصة بالذكور لا تتناول الإناث وبالعكس مع شدة المخالطة؛ فوجب أن يكون من الملائكة لتناول الخطاب له. ولا يقال أيضًا: إنه خُص بالخطاب في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾[٢] لا يقال ذلك لأن هذه الآية مبينة لأمره بالسجود في آية البقرة[٣] على أنه من الملائكة لا أنها خطاب مستقل له بدليل قوله: ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ وهو لم يؤمر إلا في آية البقرة وما على شاكلتها.

كما أن ترتيب الحكم على الوصف مُشعر بعلية ذلك الوصف لذلك الحكم فيكون قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[٤] دالاً على أن ذلك وقع منه بعد الأمر بالسجود للملائكة الذين استثنى منهم إبليس، فكان هذا الأمر هو العلة في حصول تلك الأوصاف لا أمراً آخر.

الرد الثالث :

أما قولهم بأن إبليس له ذرية، والملائكة لا ذرية لهم، فوجب أن لا يكون

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٣) آية البقرة هي: ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ سورة البقرة: الآية (٣٤).

(٤) سورة البقرة: الآية (٣٤).

منهم، فمردود بأنه لما كان منهم قبل الخطاب لم تكن له ذرية، فلما تأبلس وخلع عنه ثوب الملائكية تغير بأوصافه الحادثة عنهم فكان له من الذرية ما ليس لهم.

الرد الرابع :

وأما قولهم بأن الملائكة معصومون وأنهم رسل، فلا شك في ذلك ما داموا باقين على ملائكيتهم، فالعصمة والرسالة بالنسبة لهم أو لغيرهم من الأنبياء ليستا بأمور ذاتية لا تقبل التبديل، بل هما مكرمتان من الله ـ عز وجل ـ أفاضهما بفضله على من يشاء، ولا يستحيل عقلاً رفعهما عمن يشاء ويستأنس لذلك بقول الله تعالى عن نبيه يونس ـ عليه السلام ـ: ﴿**لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[1] فخروج إبليس عن ملائكيته إلى إبليسيته حجب عنه الفضل، ورفع عنه العصمة.

الرد الخامس :

وأما قولهم بأن الملائكة خلقوا من نور وإبليس مخلوق من النار فقد أجاب عنه الألوسي بقوله: «وكونه مخلوقًا من نار وهم مخلوقون من نور غير ضار أيضًا، ولا قادح في ملكيته لأن النار والنور متحدا المادة بالجنس واختلافهما بالعوارض، على أن ما في أثر السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ من خلق الملائكة من النور جارٍ مجري الغالب . . .»[2].

واستطرد الألوسي قائلاً: «وأفهم كلام البعض أنه يحتمل أنّ ضربًا من الملائكة لا يخالف الشياطين بالذات، وإنما يخالفهم بالعوارض والصفات ـ كالبررة والفسقة من الإنس ـ والجن يشملهما ـ وكان إبليس من هذا الصنف فعدَّه ما شئت

(١) سورة القلم: الآيتان (٤٩، ٥٠).

(٢) تفسير الألوسي، (١/ ٢٣٠).

من ملك وجن وشيطان. وبذلك يحصل الجمع بين الأقوال. والله أعلم بحقيقة الحال» ا.هـ[١] وبعد... فقد عرضت لك أدلة الفريقين. وجمع الألوسي بين هذه الأقوال، وقد نسب القول بأنه من الملائكة إلى جمهور العلماء من الصحابة والتابعين[٢].

المسألة السادسة: الكلام عن الجنة:

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[٣].

اختلف العلماء في الجنة التي أسكنها آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأهبط منها، هل هي جنة الخلد أو جنة أخرى في موضع عالٍ من الأرض؟ على أربعة أقوال:

القول الأول ـ وهو قول المعتزلة ـ:

قالت المعتزلة: إنها كانت في الأرض، خلقها الله لآدم امتحانًا له، وكانت بستانًا في الأرض. وأوَّلوا الإهباط بمعنى الانتقال من بقعة إلى بقعة كما في قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾[٤] واحتجوا لقولهم ذلك بأدلة:

١ ـ أن هذه الجنة لو كانت هي دار الثواب لكانت جنة الخلد، ولو كان آدم في جنة الخلد لما لحقه الغرور من إبليس بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[٥]، ولما صح قوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا

---

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر: تفسير الألوسي (١/ ٢٢٩)، وانظر: تفسير الرازي، نقل بتصرف، (٢/ ٢١٣ ـ ٢١٥).

(٣) سورة البقرة: الآية (٣٥).

(٤) سورة البقرة: الآية (٦١).

(٥) سورة طه: الآية (١٢٠).

﴿ مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾[١] فدل ذلك على أنها لم تكن جنة الخلد.

٢ ـ أن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[٢] وقد أخرج آدم منها، وقال في صفتها: ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾[٣] وقد لغا فيها إبليس وكذب، فدل ذلك على أنها لم تكن جنة الخلد.

٣ ـ أن إبليس لما امتنع عن السجود لُعن وطرد، فما كان يقدر مع غضب الله أن يصل إلى جنة الخلد.

٤ ـ أن الجنة التي هي دار الثواب لا يفني نعيمها، لقوله تعالى: ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[٥] أي: غير مقطوع. فهذه الجنة لو كانت هي التي دخلها آدم ـ عليه السلام ـ لما فنيت، وذلك بإخراجه منها، لكنه أخرج منها وانقطعت تلك الراحات.

٥ ـ أنه لا يجوز في حكمته ـ تعالى ـ أن يبتدئ الخلق في جنة يخلدهم فيها ولا تكليف؛ لأنه ـ تعالى ـ لا يعطي جزاء العاملين من ليس بعامل، ولأنه لا يهمل عباده، بل لابد من ترغيب وترهيب، ووعد ووعيد.

٦ ـ أنه لا نزاع في أن الله ـ تعالى ـ خلق آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الأرض، ولم يذكر في هذه القصة أنه نقله إلى السماء، ولو كان ذلك لكان ذلك أولى بالذكر؛ لأن نقله من الأرض إلى السماء من أعظم النعم، فدل ذلك على

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٠).
(٢) سورة الحجر: الآية (٤٨).
(٣) سورة الطور: الآية (٢٣).
(٤) سورة الرعد: الآية (٣٥).
(٥) سورة هود: الآية (١٠٨).

أنه لم يحصل، وذلك يوجب أن المراد من الجنة التي قالها الله تعالى: ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾[١] جنة أخرى غير جنة الخلد.

القول الثاني - وهو قول الجبّائي - :

أن تلك الجنة كانت في السماء السابعة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا ﴾[٢] ثم إن الإهباط الأول كان من السماء السابعة إلى السماء الأولى، والإهباط الثاني كان من السماء إلى الأرض.

القول الثالث - وهو قول جمهور المفسرين -:

أن هذه الجنة هي دار الثواب، والدليل عليه أن الألف واللام في لفظ الجنة لا يفيدان العموم؛ لأن سكنى جميع الجنان محال، فلابد من صرفها إلى المعهود السابق، والجنة المعهودة المعلومة بين المسلمين هي دار الثواب، فوجب صرف اللفظ إليها.

القول الرابع :

أن الكل ممكن، والأدلة النقلية ضعيفة ومتعارضة، فوجب التوقف وترك القطع[٣].

الرد على المعتزلة :

ذكرت المعتزلة ستة أدلة على قولهم بأن الجنة التي أسكنها الله آدم كانت في الأرض. وسأشرع في الرد عليهم سائلاً المولى التوفيق والسداد:

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣٥).

(٢) سورة البقرة: الآية (٣٨).

(٣) انظر: تفسير الفخر الرازي (٣/ ٣، ٤).

الرد على الشبهة الأولى :

قالوا : لو كانت الجنة المشار إليها في الآية هي دار الثواب ـ دار الخلد ـ لما لحق آدم الغرور من إبليس بقوله : ﴿ **هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ** ﴾ ولما صح قوله : ﴿ **مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** ﴾ .

وجوابي على هذه الشبهة : أنه لا مانع من وقوع الوسوسة لآدم في دار الخلد ليترتب عليها ما أراده الله من إسكان آدم وذريته في الأرض ، ليتخلف عن الرجوع إلى الجنة من لا يستحقها وهم الكفار الذين لم يجيبوا في عالم الذر حين خاطبهم ربهم بقوله : ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ** ﴾[1] وقد أشرت إلى ذلك سابقًا[2] ولا يترتب على قول إبليس لآدم : ﴿ **أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** ﴾ أن لا تكون الجنة دار خلد لأن آدم لم يك يعلم بخلوده فيها .

وأما قولكم يمتنع أن تكون الجنة هي دار الخلد لحصول الغرور لآدم فيها بقول إبليس فليس بممتنع ، إذ يجوز أن تكون الجنة قد جعلت كذلك ، واختصت بهذه الأحكام التي هي عدم خروج من دخلها منها وغير ذلك مما هو لها بعد حصول الوسوسة لآدم وحواء ـ عليهما السلام ـ وخروجهما منها .

والخلاصة :

أن أوصاف الجنة وما اختصت به هي من بعد هذه القصة ولا مانع في ذلك .

---

(١) سورة الأعراف : الآية (١٧٢) .

(٢) راجع ص (٨٣) من رسالتنا هذه .

الرد على الشبهة الثانية:

قالوا: إن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لصريح قوله تعالى: ﴿ **وما هم منها بمخرجين** ﴾ وقد أخرج منها آدم، وقال في صفتها: ﴿ **لاَ لغْوٌ فيها ولا تأثيمٌ** ﴾ وقد لغا فيها إبليس فدل على أنها لم تكن جنة الخلد.

والرد عليهم: أما قولكم: إن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لصريح قوله تعالى: ﴿ **وما هُم منها بمخرجين** ﴾[1] فذلك بعد العودة إليها من دار الدنيا، واجتياز المكاره التي حفت بها الجنة لصيانة الأمانة التي حملها الإنسان، أما قبل ذلك فقد يحدث الدخول والخروج، وقد دخلها النبي ﷺ يوم المعراج ثم خرج منها؛ لأن دخوله فيها لم يكن لأجل الاستمرار إنما كان للتكرمة والتشريف فهذا عموم مخصوص.

وقس على ذلك قوله تعالى: ﴿ **لاَ لغْوٌ فيها ولا تأثيمٌ** ﴾[2] كذلك أيضًا، فإن ذلك بعد العودة إليها من الدنيا. على أن الوسوسة على ما هو الراجح لم تكن فيها بل كانت في الأرض؛ لأن هبوط إبليس من الجنة أو من الملأ الأعلى كان متقدمًا على هبوط آدم وحواء، بدليل قوله تعالى: ﴿ **قال فاهبطْ منها فما يكُونُ لك أن تتكبَّر فيها فاخْرُجْ إنَّك من الصَّاغرين** ﴾[3] فكان ذلك جزاء له على امتناعه عن السجود واعتراضه على الله ـ عز وجل ـ في اختيار المفضول في زعمه، وترك الفاضل في زعم نفسه.

---

(١) سورة الحجر: الآية (٤٨).

(٢) سورة الطور: الآية (٢٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٣).

الرد على الشبه الثالثة:

قالوا: إن إبليس لما امتنع عن السجود لعن وطرد، فما كان يقدر مع غضب الله أن يصل إلى جنة الخلد.

الرد عليهم: أما قولكم: إن إبليس بلعنه وطرده لا يقدر أن يصل إلى الجنة فهو كذلك وأنا أقول به. وقد أجبت بأن الوسوسة كانت في الأرض ووصلت إلى آدم حيث هو وليس في ذلك محال عقلي؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أراد ذلك وقدره وما أراده فهو كائن. قال الحسن: «كان يوسوس من الأرض إلى السماء وإلى الجنة بالقوة الفوقية التي جعلها الله ـ تعالى ـ له»[١].

أخرج الشيخان في صحيحيهما عن طاوس قال: سمعت أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا، وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة، فقال النبي ﷺ فحج آدم موسى، فحج آدم موسى**»[٢] واللفظ لمسلم.

الرد على الشبهة الرابعة:

قالوا: إن الجنة التي هي دار الثوب لا يفنى نعيمها، لقوله تعالي: ﴿**أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا**﴾ وقال تعالى: ﴿**عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**﴾ أي: غير مقطوع. فهذه الجنة لو كانت هي التي دخلها آدم ـ عليه السلام ـ لما فنيت وذلك بإخراجه منها، لكنه

---

(١) تفسير الرازي: (١٤/ ٤٦).

(٢) صحيح البخاري ومعه فتح الباري، كتاب القدر، (١٤/ ٣٠٧ ـ ٣١١) وصحيح مسلم بشرح النووي، (١٦/ ٢٠٠).

أخرج منها وانقطعت تلك الراحات.

والرد عليهم: فجوابي على هذه الشبهة: أنكم وحدكم القائلون بفناء الجنة، أما أهل الحق فعندهم من الأدلة الصحيحة ما يمنع من القول بفناء الجنة وقد قالوا ـ أهل الحق ـ: إن قوله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾[١] عموم مخصوص بآيات وأحاديث أخرى دلت على بقاء أشياء لا يلحقها الفناء كالعرش، والكرسي، والجنة، والنار، واللوح، والقلم، والأرواح، وعجب الذنب[٢] وذكر الأدلة على ذلك يطيل البحث فليرجع إليه من أراده، ولكني أعجل لك ببعضها إراحة لقلبك: فأحد هذه الأدلة قوله تعالى: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ**﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ**﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ**﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾[٦] فإنك إذا تمعّنت في هذه الآيات وجدت الانفطار والانشقاق والفزع والصعق، كلَ ذلك وجدته مختصًا بالسموات وبمن فيها إلا من استثناهم الله ـ عز وجل ـ من الفزع والصعق. فالآيات لم تتعرض للجنة ولا النار ولا للعرش ولا للكرسي . . . إلخ، مما يؤكد تخصيص العموم في قوله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾[٧].

---

(١) سورة القصص: الآية (٨٨).

(٢) انظر: حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، (٣/ ٢٣٠).

(٣) سورة الانفطار: الآية (١).

(٤) سورة الانشقاق: الآية (١).

(٥) سورة النمل: الآية (٨٧).

(٦) سورة الزمر: الآية (٦٨).

(٧) سورة القصص: الآية (٨٨).

الرد على الشبهة الخامسة:

قالوا: لا يجوز في حكمته ـ تعالى ـ أن يبتديء الخلق في جنة يخلدهم فيها ولا تكليف . . . إلخ.

الرد عليهم : وأما قولكم: لا يجوز في حكمته أن يبتديء خلقًا في الجنة لا يكلفهم فيها لحاجة المكلف إلى وعد ووعيد وترغيب وترهيب فتحكّمٌ على الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحجرٌ عليه ـ وتعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا. وأما حاجة المكلفين إلى الوعد والوعيد فذلك بعد خروجهم منها ليحملوا بذلك على الاجتهاد فيما به يعودون إليها، أما آدم فما كان بحاجة إلى وعد ووعيد، وإن قولكم هذا ليتعارض مع صريح قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[1] فعلى مذهبنا فإنا نؤمن أن الجنة التي كان فيها آدم هي دار الخلد، وأنها باقية، وأنه وزوجه اختصا بالتكليف فيها.

الرد على الشبهة السادسة:

قالوا: إنه لا نزاع في أن الله خلق آدم في الأرض، ولم يذكر في هذه القصة أنه نقله إلى السماء . . . إلخ.

الرد عليهم : قولكم هذا فيه نزاع، فالذي في القرآن هو ذكر خلقه دون التعرض لمكان الخلق، بل لعل قوله تعالى: ﴿**مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾[2] يستأنس به على أن خلقه لم يكن في الأرض بل كان في الملأ الأعلى.

أخرج الطبري في تاريخه عن ابن عباس قال: «ثم أمر ـ يعني الرب تبارك

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٩).

(٢) سورة ص: الآية (٧٥).

وتعالى ـ بتربة فرفعت، فخلق الله آدم من طين لازب ـ واللازب اللزج الطيب من حمأ مسنون منثني، قال: وإنما كان حمأ مسنونًا بعد التراب، قال: فخلق منه آدم بيده» ا. هـ[١].

ومما ينتصر به لرأي الجمهور أن الجنة في القرآن إذا أطلقت أو ذكرت على جهة الجزاء لا تنصرف إلا إلى دار الخلد كما أن قوله تعالى في شأن إبليس: ﴿ **قال اهبط منها** ﴾ مُشعرٌ بأن الهبوط كان من الجنة، وقوله تعالى: ﴿ **وقلنا اهبطوا** ﴾ دليل على أنهم كانوا في مكان أرفع فاستنزلوا عنه إلى مكان أدنى، وقد أشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ **ولكم في الأرض مستقر** ﴾ فلو كانوا في الأرض ففي أي مكان منها؟

وعلى زعم المعتزلة ـ أئمة القول ـ بأن جنة آدم كانت في الأرض ما كان لقوله تعالى: ﴿ **ولكم في الأرض مستقر** ﴾ فائدة، إلا أن يراد أن الله سيختار لهم كوكبًا آخر غير الأرض، وهذا منفي بقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ** ﴾[٢] ولو كانت الجنة أرضية لما كان لهذا العقاب تأثيره الشديد، فانتقالك من مكان في الأرض إلى مكان آخر فيها لا يترتب عليه عقوبة كبيرة، وأما قوله: ﴿ **اهْبِطُوا مِصْرًا** ﴾[٣] فهو صريح في أمر بني إسرائيل لنزولهم مصر وهي أخفض من أرض التيه، تجري فيها الأنهار، وتصلح لزراعة ما طلبوه، فهو أيضًا صريح في النزول من مكان عالٍ إلى ما هو أخفض منه.

فاستدلال المعتزلة بهذه الآية على أن الهبوط كان من الأرض إلى الأرض لا

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٩٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٠).

(٣) سورة البقرة: الآية (٦١).

يصلح إلا أن يقال إن تلك الجنة كانت فوق قمة جبل أو ربوة. وهذا يحتاج إلى نص، وليس عندهم نص ظاهر في هذا الموضوع، وصرف الألفاظ القرآنية عن ظاهرها وحقائقها إلى شيء آخر لا يكون إلا بقطعي مساو لها، أو بخبر مشهور عن النبي ﷺ، لا بأمثال تلك الشبه التي ساقها المعتزلة.

كما أن قوله تعالى: ﴿**فلمَّا ذاقا الشَّجرة بدتْ لهُما سوْءاتُهُما وطفقا يخْصفان عليْهما من ورق الْجنَّة**﴾[١] دليل على أنهما كانا في دارالخلد، إذ ليس من المعهود ممن يعصي في الأرض أن تتبرأ منه ثيابه وتنفر منه فتنكشف عورته، وهذا هو الذي حدث لأبوينا ـ عليهما السلام ـ حيث انكشفت عورتهما ولم يكن لهما بذلك عهد، وفارقتهما ثيابهما مما اضطرا إلى أن يخصفا عليهما من ورق الجنة ما يحاولان به أن يسترا عورتهما، ولما كان للمنة في قوله تعالى: ﴿**يا بني آدمَ قدْ أنزلْنا عليْكُمْ لباسًا يُواري سوْءاتكُمْ وريشًا**﴾[٢] معنى، وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل لباس بني آدم منزلاً من السماء مع أنه مصنوع في الأرض؛ لأنه ينسج مما يتسبب عن الماء النازل من السماء؛ وقد عرف بنو آدم لصلبه حاجتهم إلى اللباس لسد حاجتهم الجسدية والدينية وأعني بها سترة العورة.

كل ذلك يدل على أن الجنة التي أسكنها آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ كانت دار الخلد لا جنة أرضية كما يقول المعتزلة. ولا جنة في السماء غير جنة الخلد كما يقول الجبائي، ومما يقوي ما ذهبت إليه أن معظم المفسرين قد قرروه في كتبهم، وإن كان بعضهم قد آثر التوقف كالألوسي[٣] والفخر[٤] إلا أن القرطبي قد أجمل

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٦).

(٣) تفسير الألوسي، (١/ ٢٣٣).

(٤) تفسير الرازي، (٣/ ٤).

شبهة المخالفين ورد عليها، وإليك ما قاله في تفسيره: الجنة: البستان . . . ولا التفات لما ذهبت إليه المعتزلة والقدرية من أنه لم يكن في جنة الخلد، وإنما كان في جنة بأرض عَدَن.

١ ـ واستدلوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنة الخلد لما وصل إليها إبليس فإن الله يقول: ﴿ **لا لغو فيها ولا تأثيم** ﴾ وقال: ﴿ **لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا** ﴾ وقال: ﴿ **لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قليلا سلاما سلاما** ﴾.

٢ ـ وأنه لا يخرج منها أهلها لقوله: ﴿ **وما هم منها بمخرجين** ﴾.

٣ ـ وأيضًا فإن جنة الخلد هي دار القدس، قدست عن الخطايا والمعاصي تطهيرًا لها، وقد لغا فيها إبليس، وكذب، وأخرج منها آدم وحواء بمعصيتهما.

٤ ـ وقالوا: كيف يجوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب شجرة الخلد وهو في دار الخلد والملك الذي لا يبلي؟

والجواب:

١ ـ إن الله تعالى عرَّف الجنة بالألف واللام، ومن قال: أسأل الله الجنة. لم يفهم منه في تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد، ولا يستحيل في العقل دخول إبليس الجنة لتغرير آدم. وقد لقي موسى آدم ـ عليهما السلام ـ فقال له موسى: «أنت أشقيت ذريتك وأخرجتهم من الجنة» فأدخل الألف واللام ليدل على أنها جنة الخلد المعروفة، فلم ينكر ذلك آدم، ولو كانت غيرها لرد على موسى، فلما سكت آدم على ما قرره موسى صح أن الدار التي أخرجهم الله ـ عز وجل ـ منها بخلاف الدار التي أخرجوا إليها وأما ما احتجوا به من الآي فذلك إنما جعله الله فيها بعد دخول أهلها فيها يوم القيامة.

٢ ـ ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها، وقد يخرج منها من قضي عليه بالفناء . . . وقد دخلها النبي ﷺ ليلة الإسراء ثم خرج منها، وأخبر بهما فيها وأنها هي جنة الخلد حقًا.

٣ ـ وأما قولهم: إن الجنة دار القدس، وقد طهرها الله ـ تعالى ـ من الخطايا فجهل منهم، وذلك أن الله ـ تعالى ـ أمر بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة وهي الشام، وأجمع أهل الشرائع على أن الله ـ تعالى ـ قدسها، وقد شوهد فيها المعاصي والكفر والكذب ولم يكن تقديسها مما يمنع فيها المعاصي، وكذلك دار القدس.

وقال أبو الحسن بن بطال[١]: وقد حكي بعض المشايخ على أن أهل السنة مجمعون على أن جنة الخلد هي التي أهبط منها آدم ـ عليه السلام ـ فلا معنى لقول مَن خالفهم.

٤ ـ وقولهم: كيف يجوز على آدم في كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد وهو في دار الخلد؟ فيُعكس عليهم ويقال: كيف يجوز على آدم في كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد في دار الفناء؟ هذا لا يجوز على من له أدنى مسكة من عقل فكيف بآدم الذي هو أرجح الخلق عقلاً؟!» ا. هـ[٢].

وقد اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية القائلين بخلاف ما قررته من المبتدعة

---

(١) أبو الحسن بن بطال: هو علي بن خلف بن بطال البكري. القرطبي ـ ويعرف بابن اللجام، كان من المالكية، وكان من أهل العلم والمعرفة، عني بالحديث عناية تامة، وشرح صحيح البخاري في عدة أسفار، توفي في صفر سنة تسع وأربعين وأربعمائة، انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/ ٤٧).

(٢) بتصرف من تفسير القرطبي، (١/ ٣٠٢/ ٣٠٣).

الملحدين في الدين[١] وقد استوفى ابن القيم الجوزية ـ رحمه الله ـ في كتابه حادي الأرواح هذا الموضوع بإسهاب وتفصيل حسن، فذكر رأي أهل السنة في باب مستقل، كما ذكر رد أهل السنة على مخالفيهم في باب مستقل، وهو وإن ذكر أقوال المخالفين بلا تعليق عليها إلا أنه كشيخه ابن تيمية يرى أن القول بأنها جنة أرضية وبأنها غير موجودة الآن من الابتداع المذموم الذي يعتمد على العقليات مع إهمال النصوص، وإذا كان للمخالفين من النصوص التي قد يُفهم منها سلامة قولهم فإفراده بابًا للرد عليهم وذكر الصواب في المقصود بهذه النصوص يؤيد ما قررته. وبالله التوفيق[٢].

المسألة السابعة: الكلام عن الشجرة:

وردت عدة أقوال عن السلف ـ رضوان الله عليهم ـ في بيان الشجرة التي نُهي آدم عن الاقتراب منها في قوله تعالى: ﴿**وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[٣].

وقد ذكر هذه الأقوال ابن كثير وغيره من المفسرين، وإليك هذه الأقوال:

١ ـ عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «الشجرة التي نهي عن الأكل من ثمرها آدم هي السنبلة».

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنها السنبلة الحنطة الحبةُ منها ككلى البقر، ألين من الزبد، وأحلى من العسل.

---

(١) انظر: تفسير القاسمي، (١/ ١١٢).

(٢) انظر: حادي الأرواح، الصفحات من (١٩) إلى (٣٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٩).

وعن ابن عباس أنه كان يقول: «الشجرة التي نهي عنها آدم البر» قلت: والسنبلة والحنطة والبر بمعنى واحد.

٢ ـ وقال السدي عمن حدثه عن ابن عباس: إنها الكرم.

٣ ـ وقيل: إنها النخلة.

٤ ـ وقال ابن جرير عن مجاهد: إنها التينة.

وقد حسم الأمر ابن جرير الطبري، وقال ـ رحمه الله ـ: «الصواب في ذلك أن يقال: إن الله ـ جل ثناؤه ـ نهي آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فخالفا إلى ما نهاهما الله عنه، فأكلا منها كما وصفهما الله ـ جل ثناؤه ـ به، ولا علم عندنا أي شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا في السنة الصحيحة فأنَّي يأتي ذلك؟ وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك علم، إذا عُلم لم ينفع العلمُ به عالمه، وإن جهله جاهلٌ لم يضره جهله فيه»[١].

وكذلك رجَّح الإمام الرازي الإبهام في تفسيره[٢] والألوسي[٣] ـ رحمهم الله جميعًا قال ابن كثير: «وهو الصواب»[٤].

* * *

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٣٣).

(٢) تفسير الفخر الرازي (٣/ ٥).

(٣) تفسير الألوسي (١/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٧٩، ٨٠).

المبحث الثاني
الآيات التي يدور الصراع عليها في قصة آدم ـ عليه السلام ـ

مقدمة:

أولاً : تكريم الله لآدم وبنيه بإسجاد الملائكة له .

ثانيًا : امتناع إبليس عن السجود لآدم ـ عليه السلام ـ .

ثالثًا : توعد إبليس لبني آدم بالإغواء .

رابعًا : عجز إبليس عن إغواء عباد الله المُخلَصين .

خامسًا : كيد الشيطان للإنسان ـ وفيه يتجلى الصَراع بينهما .

سادسًا : تكريم الله لآدم وزوجه بإسكانهما الجنة ، ونهيهما عن الأكل من الشجرة .

سابعًا : بداية كيد الشيطان لآدم وزوجته ـ عليهما السلام ـ .

ثامنًا : عتاب الله ـ جل وعلا ـ لآدم وزوجته بعد أن أكلا من الشجرة ، وقبول اعتذارهما ـ عليهما السلام ـ .

تاسعًا : استقرار آدم وزوجته في الأرض بعد أن تاب الله عليهما .

عاشرًا : دعوة القرآن بني آدم للاعتبار بما حدث بين أبيهم ـ عليه السلام ـ وبين إبليس ـ لعنه الله .

الحادي عشر : التعري ، ومفاسده ، ووسائل الشيطان إليه .

الثاني عشر : في التحذير من فتن إبليس ومكايده .

الثالث عشر : براءة آدم وزوجه ـ عليهما السلام ـ مما نسب إليهما من الشرك .

المبحث الثاني
الآيات التي يدور الصراع عليها في قصة آدم ـ عليه السلام ـ

• مقدمة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ «المعنى بالخليفة هنا ـ في قول ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل ـ آدم ـ عليه السلام ـ وهو خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره؛ لأنه أول رسول إلى الأرض كما في حديث أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله أنبيًا كان مرسلاً؟ قال: نعم . . . الحديث»[٣].

ويقال: لمن كان رسولاً ولم يكن في الأرض أحد؟

فيقال: كان رسولاً إلى ولده، وكانوا أربعين ولدًا في عشرين بطنًا، في كل بطن ذكر وأنثي، وتوالدوا حتى كثروا كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣٠).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٣٣).

(٣) انظر: الدر المنثور للسيوطي (١/ ١٢٦). وقد ورد بنحوه مع اختلاف المتن؛ انظر: الفتح الرباني (٢٢/ ٣٧٢).

ونساء﴾[١] . . . »[٢].

وصحح ابن حبان من حديث أبي أمامة: «إن رجلا قال: يا رسول الله أنبيًا كان آدم؟ قال: نعم، قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون»[٣].

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾[٤] أي: إن الله اختار من الناس لرسالته ونبوته آدم ـ عليه السلام . . . إلخ. وهو أول الأنبياء المذكورين في هذه السورة ـ سورة الأعراف ـ، وسأشرع ـ بإذن الله في دراسة الآيات الكريمة التي جاءت موضحة للصراع منذ أن كان في الجنة إلى أن استقر في الأرض. والله أسأل التوفيق والسداد.

❊ ❊ ❊

(١) سورة النساء: الآية (١).

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٢٦٤).

(٣) انظر: فتح الباري، (٧/ ١٨١)؛ انظر: الهيثمي، الحافظ نور الدين. موارد الظمآن على زوائد ابن حبان، حققه ونشره محمد عبد الرزاق حمزة (٥٠٩)، (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت)، وانظر: الدر المنثور للسيوطي، (١/ ١٢٦).

(٤) سورة آل عمران: الآية (٣٣).

تفسير الآيات التي يدور الصراع عليها في قصة آدم ـ عليه السلام ـ

أولاً: تكريم الله لآدم وبنيه بإسجاد الملائكة له:

والآن وبعد ما أسلفته من مسائل مهمة حول الصراع بين آدم وإبليس في سورة الأعراف أعود فأفسِّر هذه الآيات مركزًا على جوانب الصراع بين إبليس وآدم ـ عليه السلام ـ وبنيه من بعده، محاولاً إجمال السبل التي يتوصل بها إبليس إلى صرف بني آدم عن الحق إلى الباطل، قال تعالى: ﴿ **ولقد خلقْناكُمْ ثُمَّ صوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْملائكَة اسْجُدُوا لآدم فسجدُوا إلاَّ إبْليس لَمْ يكُن مَن السَّاجدين** ﴾[1].

اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية على أقوال أخلقها عندي بالقبول قولان[2].

القول الأول:

ولقد خلقنا أباكم آدم من تراب الأرض، ثم ألبسناه تلك الصورة الفريدة التي تميز بها عن سائر المخلوقين، والتي لا يتمنى آدمي أن يكون على غيرها، أو أن تنتقص فيه هذه الصورة بنقص ما ولو كان يسيرًا؛ والسبب في الجنوح إلى هذا التأويل أن سجود الملائكة لآدم متقدم على خلقنا في الزمان، فلا يجوز أن يرتب عليه بـ (ثم) التي هي للترتيب والتراخي، ولا غرابة أن يخاطبنا الله ـ تعالى ـ بما

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١١).

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٣/ ٢٩، ٣٠، ١٠١).

لأبينا؛ لأن صورته ـ عليه السلام ـ تتكرر في خلقنا إلى أن تقوم الساعة، فخلقنا هو إعادة لصورته ـ عليه السلام ـ ومخاطبة الأبناء بما للآباء في القرآن الكريم كثيرة وشائعة منها قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ** ﴾[١] فهو خطاب لليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ مع أن النجاة وقعت لآبائهم إذ لولا نجاة الآباء ما كان للأبناء المخاطبين وجود.

ونظيره: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ** ﴾[٢] وقوله: ﴿ **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا** ﴾[٣] وغير ذلك. والكلام في هذه الخطابات وأمثالها وزان الكلام في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ** ﴾ فربنا ـ جل وعلا ـ يمتن علينا نحن الذرية بخلق أبينا آدم ـ عليه السلام ـ الذي هو أصلنا، وتصويره في أحسن صوره، وسجود الملائكة له ـ عليه السلام ـ مع رفيع شأنهم عند ربهم، فالمنة بذلك كله منة علينا، لا سيما وأن خلقنا وتصويرنا على هيئة أبينا ماضيان فينا إلى يوم القيامة.

القول الثاني:

أن الله يربي نفس الإنسان على الطاعة والامتثال بالترهيب والرغيب، وقد سلف في أول السورة ذكر الترهيب في قوله تعالى: ﴿ **وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴾[٤] ثم جاء الترغيب في قوله: ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ**

---

(١) سورة البقرة: الآية (٤٩).

(٢) سورة البقرة: الآية (٦٣).

(٣) سورة البقرة: الآية (٧٢).

(٤) سورة الأعراف: الآيتان (٤، ٥).

فيها معايش قليلاً ما تشكرون (١٠) ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾[١].

ونلاحظ هنا أن القرآن لا يهتم بالترتيب الزمني في وقوع هذه الأحداث؛ لأن الغرض هو التذكير بها لا بأزمانها؛ ولذا ذكر التمكين، وما جعله فيها من معايش، قبل الحديث عن خلقنا وتصويرنا، ولأجل ذلك حسن عطف سجود الملائكة لأبينا آدم على هذه المنن بـ(ثم) لأن المقصود التذكير بها مجتمعة ومنفردة بغض النظر عن الترتيب الزمني، ولذا فـ(ثم) هنا لذكر الرتبة لا لذكر الترتيب.

فهو ترقٍ بنا من الفاضل إلى الأفضل، ولا شك في أن المنة بسجود الملائكة لأبينا آدم تكرمة له ولنا؛ لأن ما هو شرف للآباء هو شرف للأبناء، مع ملاحظة أنَّا كنا في صلبه حال السجود له، فنالنا من شرف هذا السجود باعتبارنا كنا في صلبه ـ عليه السلام ـ.

ولقد أقسم ـ تبارك وتعالى ـ على خلقنا وتصويرنا مصدراً جواب القسم بـ(قد) التحقيقية مع أنك لو سألت أكفر الكافرين عمن خلقه لا يسعه إلا أن يقول: الله، أي: خلقني. فإن قال بغير ذلك كالدهريين والشيوعيين ـ قاتلهم الله ـ فمكابرة ومعاندة مع انعقاد قلوبهم على خلاف ما تقول به ألسنتهم؛ لأن أكثر بني آدم ضلوا عن سبيل الله، واجتالتهم الشياطين عن الدين الحنيف، فكانوا بمنزلة من نسي أن الله هو الذي خلقه وصوره، لذا جاء التعبير بأسلوب القسم، وما في جوابه من قد ونون العظمة في ﴿ خلقناكم ﴾ و ﴿ صورناكم ﴾ و ﴿ قلنا ﴾ لهذا الملحظ الآنف الذكر.

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٠، ١١).

والمعنى على ما أسلفنا في القول الثاني: ولقد خلقناكم نطفًا في أصلاب آبائكم، ثم صوَّرناكم في أرحام أمهاتكم ذكورًا أو إناثًا أو هما معًا بقدرتنا ومشيئتنا، لا يعلم بعلمنا فيكم علمًا ذاتيًا أحد سوانا، ثم شرفناكم وكرمناكم قبل أن تخلقوا بأن جعلنا أباكم مسجودًا للملائكة، فهل يليق بكم وهذا شأننا معكم أن تعبدوا غيرنا، وأن تتخذوا إلهًا غيرنا، أو تشركوا معنا في ألوهيتنا أصنامكم ومعبوداتكم الباطلة؟ وهل يصح أن تنسوا هذه المنن، فتتبعوا الشيطان الذي ناصبكم وآباءكم العداوة التي أفضتُ لكم في ذكرها، لتتخذوا هذا الشيطان عدوًا؟ فإذا بأغلبكم على خلاف ذلك. فما أعجب ذلك منكم!

وقد امتثل الملائكة أمر ربهم لهم بالسجود لآدم إلا إبليس. وقد مرت في الفصل الأول مسائل قدمت بها لتفسير هذه الآيات في بيان أقوال العلماء في كيفية هذا السجود والراجح منها[١].

وقد امتنع إبليس من السجود لآدم حسدًا واستكبارًا، ويدل على ذلك التعبير بقوله تعالى: ﴿**لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ**﴾[٢] في أي وقت من الأوقات، محاولاً إظهار الندم على ذلك، لاختياره جانب المعاندة والمكابرة على العبودية الحقة لله ـ تعالى ـ التي يدل عليها امتثال الأمر واجتناب النهي.

والمقطوع به أن إبليس كان مأمورًا بالسجود لآدم مع الملائكة بصريح قوله تعالى: ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ**﴾[٣] إلا أن المفسرين ـ رحمهم الله ـ

---

(١) انظر: ص (٩٨) من بحثنا هذا.

(٢) سورة الأعراف: الآية (١١).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٢). وفي سورة البقرة: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى .. واستكبر وكان من الكافرين**﴾ الآية (٣٤).

اختلف نظرهم في الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيس﴾ هنا وفي البقرة، فقال بعضهم: إنه متصل وإن إبليس كان من الملائكة، والملائكة وإن كانوا معصومين عن المعصية فبعصمة الله لهم يكونون معصومين، وبدونها لا يكونون معصومين إذ عصمتهم ليست أمرًا ضروريًا لا يتخلف بدليل تخلفها في إبليس ـ أعاذنا الله منه ـ، وقال بعضهم: إنه منقطع وإن إبليس كان معهم وليس منهم، وقد أمر بما أمروا بناءً على أن العصمة ضرورية؛ لأن فطرتهم خلقت تأبى المعصية، فيستحيل وقوعها منهم لأن ذلك يستلزم التناقض في خلقهم، بمعنى أنهم خلقوا معصومين غير معصومين، وهذا محال بالنسبة ـ لله تعالى ـ. وقد أفردت لهذا الموضوع مسألة برأسها ضمن هذا البحث[١] كما أفردت في هذا البحث الكلام بإيجاز عن الملائكة[٢] كما تكلمت عن أطوار خلق آدم ـ عليه السلام ـ وأهميته[٣] وأشهر المواضع التي ذكرت قصته فيها من القرآن الكريم[٤].

ثانيًا: امتناع إبليس عن السجود لآدم ـ عليه السلام ـ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[٥] معناه: ما منعك عن ترك السجود لآدم وقت أمر الله لك به، والسؤال بها عن الترك لا عن نفس السجود، والاستفهام هنا إنكاري توبيخي؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم بواعث موانعه عن السجود قبل أن يخلقه، لكن لما كانت معصية الله في نفسها أمرًا عظيمًا، لا سيما وأن العاصي قد خوطب بالطلب وكُلّم به، استُدعى ذكر

---

(١) انظر: ص (٩٤) من بحثنا هذا.

(٢) انظر: ص (٩٢) من بحثنا هذا.

(٣) انظر: ص (٨٧) من بحثنا هذا.

(٤) انظر: ص (٨٤ ـ ٨٧) من بحثنا هذا.

(٥) سورة الأعراف: الآية (١٢).

هذا الاستفهام، وليعلم آدم وبنوه خطر إبليس عليهم فلا يستجيبوا له البتة، ويناصبوه العداوة على الدوام، وقد بين إبليس سبب امتناعه عن السجود لآدم بما حكاه الله عنه: ﴿ **قال أنا خيرٌ منه** ﴾ أي: أنا أعلى وهو أدنى، ومن كان كذلك لا يصح له في حكم العقل أن يسجد لمن هو أقل منه، ثم أقام الدليل - في زعمه - على كونه خيراً من آدم بما قصه الله في قوله: ﴿ **خلقتني من نارٍ وخلقتَه من طين** ﴾[١].

قال أبو السعود - رحمه الله - عند تفسير هذه الآية: «استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية التوبيخ، كأنه قيل: فماذا قال اللعين عند ذلك؟ فقيل: قال: ﴿ **قال أنا خيرٌ منه** ﴾ متجانفاً عن تطبيق جوابه على السؤال بأن يقول: منعني كذا، مدعياً لنفسه بطريق الاستئناف شيئاً بين الاستلزام لمنعه من السجود على زعمه، ومشعراً بأن من شأنه هذا لا يحسن أن يسجد لمن دونه، فكيف يحسن أن يؤمر به؟ كما ينبيء عنه ما في سورة الحجر من قوله: ﴿ **لم أكُن لأسْجُدَ لبَشرٍ خلقْتَه من صلْصالٍ مِنْ حمأٍ مَسنُون** ﴾[٢] فهو أول من أسس بنيان التكبر واختراع القول بالحسن والقبح العقليين.

وقوله تعالى: ﴿ **خلقْتني من نَارٍ وخلَقْتَهُ من طِينٍ** ﴾ تعليل لما ادعاه من فضله عليه، ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر، وزل عنه[٣] ما من جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿ **ما منعَكَ أن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بيدي** ﴾[٤] أي: بغير واسطة على جهة الاعتناء به، وما من جهة الصورة كما نبه

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٢) سورة الحجر: الآية (٣٣).

(٣) أي: غاب عنه.

(٤) سورة ص: الآية (٧٥).

عليه قوله: ﴿ونفخْتُ فيه من رُوحي﴾[١] وما من جهة الغاية، وهو ملاك الأمر، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له ـ عليه السلام ـ حين ظهر لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة، وأنه له خواص ليست لغيره»[٢].

وقال القرطبي في تخطئة إبليس في تفضيل النار على الطين التي هي أصله والتي بسببها زعم أنه خير من آدم ـ عليه السلام ـ ما نصه: «﴿قال أنا خيرٌ منه خَلَقْتَني من نَّارٍ وخَلَقْتَهُ من طِينٍ﴾[٣] فرأى أن النار أشرف من الطين لعلوها وصعودها وخفتها؛ ولأنها جوهر مضيء.

قال ابن عباس والحسن وابن سيرين: أول من قاس إبليس، فأخطأ القياس، فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس»[٤].

قال ابن سيرين: وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس.

وقالت الحكماء: أخطأ عدو الله من حيث فضل النار على الطين وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق، فإن الطين أفضل من النار من وجوه:

أحدها: أن من جوهر الطين الرزانة، والسكون، والوقار، والأناة، والحلم، والحياء، والصبر. وذلك هو الداعي لآدم ـ عليه السلام ـ بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية، ومن جوهر النار الخفة، والطيش، والحدة، والارتفاع، والاضطراب، وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار، فأورثه الهلاك

---

(١) سورة الحجر: الآية (٢٩)، وسورة ص: الآية (٧٢).

(٢) تفسير أبي السعود (٣/ ٢١٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٤) انظر: تفسير الألوسي (٨/ ٨٩).

والعذاب واللعنة والشقاء» قاله القفال.

ثانيها: أن النار سبب العذاب، وهي عذاب الله لأعدائه، وليس التراب سببًا للعذاب[١].

ولم يشأ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبيِّن لإبليس خطأه في ما اعتقده، بل ردَّ الله ـ تعالى ـ عليه ردًا بليغًا بأن صرف الجواب عن قضية العناصر ـ النار، والطين ـ إلى العلة الحقيقية في عدم سجوده وهي الكبر فقال: ﴿**فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا**﴾ أما قضية العناصر فبينة البطلان، وما هي إلا ستار تستر به إبليس ليبرر جريمته.

فمقالة إبليس هذه التي أجاب عنها ربه قد انطوت على عظائم أولها: الكفر، وثانيها: التكبُّر، وثالثها: احتقار الغير، ورابعها: ظن السوء بالله ـ عز وجل ـ وتخطيئه، وأنه ليس بحكيم ـ تعالى الله عن ذلك وغير ذلك من الجرائم والأخلاق السيئة، التي انتشرت في البشر الذين طاوعوا إبليس فيما بعد، فجيمع الانحرافات البشرية عن الحق من الكفر فما دونه انتظمها قول إبليس اللعين: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾[٢] وما كشف الله لنا من هذه المحاورة إلا رحمة بنا، وتنبيهًا على خطورة هذا العدو، وتحذيرًا من مطاوعته واتباع خطواته.

ثم بين ـ تعالى ـ شديد غضبه عليه، وإنزال نقمته به بقوله: ﴿**قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**﴾[٣] والمعنى: اهبط من

---

(١) نقل بتصرف من تفسير القرطبي (٧/ ١٧١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٣).

السماء مطرودًا، مسخوطًا عليك من جنابنا، لا تنالك رحمتنا أبدًا؛ فإن السماء مسكن ملائكتي؛ الذين فطروا على تسبيحي وتحميدي ودوام عبادتي، إلى الأرض التي جعلتها لك مستقرًا زمنًا ما تمارس فيها غواياتك وضلالك، ثم تعود إلى جهنم؛ دار سخطي وهواني لمن عصوني.

ويجوز أن يكون المعنى: اهبط من الجنة إلى الأرض؛ فإني جعلتها دارًا لمن أطاعني. وهذا يعني أن إبليس كان يسكن الجنة مع من شاء الله من الملائكة، وقد يقوى هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ **فاخْرُجْ إنَّك من الصَّاغرين** ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ **فما يكُونُ لك أن تتكبَّر فيها** ﴾[٢] أي: ما يصح لك وما ينبغي لمثلك أن يتكبر في السماء أو في الجنة[٣].

وقوله تعالى: ﴿ **فاخْرُجْ** ﴾ تأكيد بالأمر بالهبوط، وبيان لحكم الله الذي لا يرد، وأنه لو كان خيرًا من آدم كما زعم من حُكم عليه بذلك.

ومعنى: ﴿ **إنَّك من الصَّاغرين** ﴾[٤] أي: من المحقرين المهانين، المبعدين عن الرحمة، الذين لا تليق بهم سكنى السماء أو الجنة.

واعلم أن كلام الله ـ تعالى ـ لإبليس لا يفيده شرفًا، ولا ينيله كرامة؛ لأنه ـ تعالى ـ كلمه بما كشف عن لؤم طبيعته، وفساد عقيدته، وسوء أخلاقه، فكان كلامه لإبليس ككلامه لأهل النار على جهة التأنيب والتوبيخ، بعكس كلامه لموسى ـ عليه السلام ـ فإنه عين التكريم ونهاية الرضى؛ لأنه ـ تعالى ـ كلّمه على

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣).

(٣) انظر: تفسير الرازي (٣/ ١٦) وتفسير النسفي (٢/ ٤٦)؛ وانظر: تفسير القاسمي (٧/ ٢٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٣).

جهة الإكرام والتفضيل والاصطفاء، ككلامه ـ تعالى ـ لأحبابه في الجنة.

ولو كان في إبليس خير ما تبجح بين يدي الله ـ عز وجل ـ بما قال، ولذا فمتابعته خطر عظيم، لأن من يتبعه فكأنه متبجح معه ـ أعاذنا الله بفضله ورحمته من تسلطه علينا ومن متابعته.

ولما علم إبليس سقوطه وهوانه قال مكرًا وجهلاً بإحاطة الله بما في نفسه: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1] مراده ـ لعنه الله ـ أن يبقيه الله حيا إلى يوم البعث؛ لأنه علم أنه لا موت لحي بعث يوم القيامة، فإذا انظر إلى يوم القيامة فقد نجا من الموت، فيكتسب بذلك مزية على بني آدم، لأن الله حكم على صالحيهم وطالحيهم بالموت بل وعلى سائر الخلائق إلا ما استثناه الله[2] بدليل قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[3] فيكون بقاؤه إلى البعث مزية على سائر الخلائق.

ولعله في زعمه بعد موت بني آدم المسلط عليهم والذين بموتهم ينقطع مجال إغوائه يتوب إلى الله ـ عز وجل ـ فتدركه الرحمة، ولذلك طلب الإنظار إلى النفخة الثانية.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ دليل على أنه كان يعلم أن بني آدم يموتون ويبعثون ويسألون. والمعنى: أخِّرني وأمهلني إلى يوم تبعث الخلائق، فأجاب الله بقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ أي: ليس الإنظار مختصًا بك، ولا هو إجابة

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤).

(٢) وهي ثمانية أشياء نظمها السيوطي في قوله:

ثمانية حكم البقاء يعمها ... من الخلق والباقون في حيّز العدم

هي العرش والكرسي ونار وجنة ... وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم

انظر: تفسير الجمل ـ الفتوحات الإلهية (٣/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٣) سورة القصص: الآية (٨٨).

لطلبك بل أنت واحد من المنظرين، الذين أخرناهم في علمنا إلى الوقت المعلوم وهو وقت النفخة الأولى، فهو في هذا الإنظار تابع لغيره، فأكد له ـ تعالى ـ تأخيره إلى الوقت الذي أراده، لا إلى ما يرجوه.

وقد بين ـ تبارك وتعالى ـ في سورتي الحجر وص الوقت الذي أُنظِرَ إليه وهو وقت النفخة الأولى حيث قال: ﴿ **قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ** ﴾[١] أي: وقت النفخة الأولى التي يموت عندها كل حي من الخلائق.

ويرى بعض المفسرين أن معنى قوله تعالى: ﴿ **إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ** ﴾ أي: إلى الوقت الذي أردناه، وأن اللعين لا يعلم أجله، وأنه مهدد بالموت في كل لحظة؛ لأنه لو علم تحديد أجله، لتاب إلى الله عند قربه فتخلّص بالتوبة مما أحدث.

والرأي الأول أرجح؛ لأن إبليس علم أنه من الصاغرين، وأن عليه اللعنة إلى يوم الدين، وهو اليوم الذي تنقطع عنده التكاليف، ويكتب إلى أوانه على المسيء إساءته وعلى المحسن إحسانه، فلا ضرر من أن يؤجل إبليس إلى النفخة الأولى وأن يعلم ذلك؛ لأنه آيس من رحمة الله وأنه بمقتضى ذلك لا يلهم التوبة، ولا تقبل منه لو فعلها[٢].

ثالثا: توعد إبليس لبني آدم بالإغواء:

وقوله تعالى: ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾[٣]

---

(١) سورة الحجر: الآيتان (٣٧، ٣٨).

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٣٦)؛ وانظر: تفسير الألوسي (٨/ ١٩)؛ وتفسير أبي السعود (٣/ ٢١٧).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٦).

استئناف أجيب به عن سؤال، فُهم من سياق ما قبله، تقديره: فماذا قال إبليس بعد أن علم خيبة أمله في الإنظار إلي يوم الدين كما كان يتمنى؟ ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي** ..... ﴾ إلخ الآيات.

والفاء في قوله تعالى: ﴿ **قال فبما أغْويْتني** ﴾ فاء الترتيب، مقالته هذه على قوله تعالى: ﴿ **قال إنَك من المُنظرين** ﴾[١] و (الباء)[٢] إما حرف قسم، بتقدير: أقسم بإغوائك لي، وقدرتك عليَّ في هذا الإغواء الذي لا أملك دفعه عني ﴿ **لأقعدن لهم** ﴾ وقد أقسم صراحة بعزة الله في قوله تعالى: ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾[٣] أي: بقدرتك، وإما سببية، والتقدير: قال: فبسبب إغوائك لي لأقعدن لهم. وهذا منتهى العناد والتبجح بين يدي ملك الملوك الذي دكَّ الجبل من هيبته لما تجلى له.

وقد أذن الله لإبليس ليقول ما يقول، لبيان عظم فتنته، ولنتأكد من عداوته فلا نهادنه بحال من الأحوال، ولئلا تكون لنا حجة على الله ـ عز وجل ـ بعد بيانه ـ تعالى ـ ووضوح قرآنه.

والإغواء هنا هو الإضلال، وذلك بقذفه في قلب إبليس اللعين، لعلمه ـ تعالى ـ بأنه ليس أهلاً لطاعته، بدليل امتناعه ـ لعنه الله ـ عن تنفيذ أمره ـ تعالى ـ بالسجود لآدم ـ عليه السلام ـ.

وهذه الآية صريحة في احتجاج أهل السنة على المعتزلة بأن الأفعال كلها مخلوقة لله ـ تعالى ـ بخلاف قولهم: إن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية. ولا

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥).

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٣/ ٣٨).

(٣) سورة ص: الآية (٨٢).

حجة للجبرية في هذه الآية؛ لأن إغواء إبليس نشأ بسبب معصيته، فهو لم يقل لربه: أردت السجود فلم تطاوعني أعضائي لفعله، بل قال مستكبرًا: ﴿ **أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين** ﴾[١] فهذا صريح في أنه ترك ما أُمر به قصدًا واختيارًا لا إجبارًا، فهو لم يغو بظلم ـ تعالى الله عن الظلم: ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿ **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** ﴾[٣] جواب القسم بتقدير أن الباء للقسم، أو هو جواب قسم محذوف بتقدير: رب بسبب إغوائك لي، وحقك ﴿ **قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم** ﴾ وليس لإبليس في هذا القسم شرف؛ لأنه أقسم على فعل الشر، وشعر أنه شيء، وأنه يستطيع أن يؤثر بنفسه في آدم وبنيه، ولو استشعر قدرة الله ـ تعالى ـ عليه وعلى سائر الخلق لتضاءل لعظمته، ولعلم أنه أعجز من أن يحدث أثرًا في مخلوق لولا أن ما يحدثه في بني آدم هو مراد الله ـ تعالى ـ المبنى على الحكمة التامة.

وقوله تعالى: ﴿ **لأقعدن لهم** ﴾ مجاز، أُريد به صرف بني آدم عن الحق واجتهاده في ذلك بلا كلل، وصور هذا بقعود القاعد في الطريق يترصد من يمر به ليوقع به ما يوقع[٤].

﴿ **صراطك المستقيم** ﴾ أي: دينك القويم.

والمعنى: لأصدنهم عن دينك بتجهيلهم بشرعك، أو بصرفهم عن معرفة

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٢) سورة فصلت: الآية (٤٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٦).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود (٣/ ٢١٩).

دينك، كل بحسب تأثيره عليه.

وقد وصف الله ـ تعالى ـ الصراط بالمستقيم على لسان عدوه ليعلم بنو آدم أن سبل إبليس وطرقه في ما يغويهم به لا خير فيها، ولا استقامة لها، بدليل أنه وصف صراط الله فقط بالمستقيم، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾[١].

رابعًا: عجز إبليس عن إغواء عباد الله المخلصين:

وقد ذكرت سورة الأعراف قعوده لآدم وبنيه كلهم بلا استثناء لجهله بقدرة نفسه واستشعاره طغيانًا وكبرًا أنه يستطيع أن يفعل الإغواء بهم جميعًا، لكنّ سورتي الحجر وص قد بينتا أن عباد الله المخلصين من الأنبياء والصالحين لا سلطان له عليهم البتة، وأنه أعجز وأذل من أن ينال منهم: ﴿ **قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾[٢].

فقد بينت هذه الآية ﴿ **إِنَّ عِبَادِي** ﴾ عجزه عن التسلط على عباد الله الذين اصطفاهم لحضرته.

وفي صورة ص استثنى إبليس بنفسه عباد الله المخلصين من إغوائه بما حكاه الله عنه: ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾[٣].

ولقد فتح الله ـ تعالى ـ أبواب رحمته لكل خلقه متى رجعوا إليه، وعرفوا خديعة إبليس لهم، فقال في شأن الكافرين: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ**

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١٥٣).

(٢) سورة الحجر: الآيتان (٤١، ٤٢).

(٣) سورة ص: الآيتان (٨٢، ٨٣).

لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾[١] وقال لعامة المؤمنين: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٢].

وضاعف الحسنة لفاعلها عشر مرات، أو سبعمائة ضعف، أو أكثر من ذلك بما لا ينتهي عند حد ولا عد، قال تعالى: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾[٥].

ورغم قبح السيئة فإنه ـ تعالى ـ لم يضاعفها، ولم يكتبها على المؤمن فور عملها، بل يمهله لعله يتوب عنها، فإذا لم يتب عنها فور فعلها، وكتبت عليه، فإن التوبة متى تحقق بها بددتها بل بدلت سيئاته حسنات دون أن يفعلها؛ لأن توبة العبد من الذنب حسنة قد فعلها العبد في نفسه، فهي ماحية للسيئات، ومستدعية لأن يُعطى التائب مكانها حسنات؛ فبعد أن أثنى ربنا ـ تبارك وتعالى ـ في سورة الفرقان على المؤمنين بأنهم لا يدعون مع الله إلهًا آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يزنون؛ وبعد أن توعد من يأتي هذه الموبقات بمضاعفة العذاب يوم القيامة، وخلود الفاعلين ذلك فيه مهانين، استثنى التائبين فقال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ

(١) سورة الأنفال: الآية (٣٨).
(٢) سورة النساء: الآية (١١٠).
(٣) سورة الأنعام: الآية (١٦٠).
(٤) سورة البقرة: الآية (٢٦١).
(٥) سورة النمل: الآية (٨٩).

﴿ متابا ﴾[١] وقد دلت هذه الآية[٢] على أن إبليس ـ لعنه الله ـ إنما ضل على علم، وأنه كان يعرف الحق من الباطل، ولذا كان أمره عجيبًا، فقد يعذر من فعل الباطل إذا غلب على ظنه أنه حق، لكن كيف يعذر من عرف الحق تمام المعرفة ثم جافاه عمدًا وقصدًا إلى سلوك الباطل والاجتهاد فيه؟ ولذا كان كفره عنادًا، فإنه لم يكن يجهل الحق بدليل قوله: ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾.

خامسا: كيد الشيطان للإنسان وفيه يتجلى الصراع بينهما:

وقوله تعالى: ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾[٣]. تفصيل وبيان للإغواء المجمل في قوله: ﴿ لأغوينهم أجمعين ﴾[٤] وفي قوله تعالى: ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾[٥].

و﴿ ثم ﴾ هنا خارجة عن معنييها المعروفين لها ـ الترتيب والتراخي ـ إلى المبالغة التي تعني بذل غاية مجهوده في إغواء بني آدم وإضلالهم، وقوله تعالى: ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ﴾ جواب قسم محذوف كقوله تعالى: ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ وإتيانه الإنسان من الجهات حقيقي، يشعر المأتي من بني آدم بأثره، وإن كان الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد حجبنا عن رؤيته حين يأتينا؛ لأنك إذا رأيت عدوك ليل نهار يجاريك ويجتهد في ذلك ضعفت قواك عن مقاومته،

---

(١) سورة الفرقان: الآيتان (٧٠، ٧١).

(٢) أي التي نحن بصدد تفسيرها وهي قوله: ﴿ قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾.

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٧).

(٤) سورة ص: الآية (٨٢).

(٥) سورة الأعراف: الآية (١٦).

وحصل لك اليأس من مغالبته؛ ولذا قال الله ـ تعالى ـ ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[1] وقد نظر المفسرون في إتيانه بني آدم من هذه الجهات الأربع نظرًا فاحصًا دقيقًا، فبعضهم حمل مجيئه من هذه الجهات الأربع على حقيقته، وأنه لا يستطيع أن يأتي الإنسان إلا من هذه الجهات التي حددها[2] وبعضهم يرى أن المراد بهذه الجهات المذكورة في الآية الغلبة والتمكن وإتيانه الإنسان من أي جهة شاء، كما أنهم ـ رضي الله عنهم ـ فسروا كل جهة من هذه الجهات بتفسيرات لا يعارض بعضها بعضًا ـ في نظري ـ ولا مانع من إيرادها كلها لأن النص يحتملها وأفضل ما اطّلعتُ عليه ما كتبه الإمام الفخر الرازي في تفسيره، وسأنقله بشيء من التصرف، قال ـ رحمه الله ـ : في ذكر هذه الجهات الأربع قولان:

القول الأول:

أن كل واحد منها مختص بنوع من الآفة في الدين. والقائلون بهذا القول ذكروا وجوهًا:

أحدها : ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: أشككهم في صحة البعث والقيامة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ألقي إليهم أن الدنيا قديمة أزلية.

وثانيها : ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ والمعنى: أفترهم عن الرغبة في سعادات الآخرة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يعني: أقوى رغبتهم في لذات الدنيا وطيباتها، وأحسّنها في أعينهم.

وعلى هذين الوجهين، فالمراد من قوله: ﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآخرة، لأنهم

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٧).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٤٧)؛ وتفسير الألوسي، (٨/ ٩٥؛ وتفسير أبي السعود، (٣/ ٢١٩).

يردون عليها، ويصلون إليها، فهي بين أيديهم، وإذا كانت الآخرة بين أيديهم كانت الدنيا خلفهم لأنهم يخلفونها.

وثالثها : وهو قول الحاكم والسدي: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ يعني: الدنيا ﴿ومن خلفهم﴾ يعني: الآخرة.

وإنما فسرنا ﴿بين أيديهم﴾ بالدنيا؛ لأنها بين يدي الإنسان يسعى فيها ويشاهدها، وأما الآخرة فهي تأتي بعد ذلك.

ورابعها : ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ في تكذيب الأنبياء والرسل الذين يكونون حاضرين ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ في تكذيب من تقدم من الأنبياء والرسل.

وأما قوله تعالى: ﴿وعن أيمانهم وعن شمائلهم﴾ ففيه وجوه:

أحدها : ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ في الكفر والبدعة ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ في أنواع المعاصي.

ثانيها : ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ في الصرف عن الحق ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ في الترغيب في الباطل.

ثالثها : ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني: أفترهم عن الحسنات ﴿وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾ أقوى دواعيهم في السيئات. وهذا القول الأخير يبين حاله ـ نعوذ بالله منه ـ مع المؤمنين. ثم استطرد الإمام الفخر ـ رحمه الله ـ قائلاً: قال الأنباري: وقول من قال: الأيمان كناية عن الحسنات والشمائل عن السيئات قول حسن؛ لأن العرب تقول: اجعلني في يمينك، ولا تجعلني في شمالك. يريد: اجعلني من المقدَّمين عندك ولا تجعلني من المؤخرين[1].

---

(١) انظر: الفخر الرازي، (١٤/ ٤٠، ٤١).

القول الثاني:

أنه ـ تعالى ـ حكى عن الشيطان ذكر هذه الوجوه الأربعة، والغرض منه أنه يبالغ في إلقاء الوسوسة ولا يقصر في وجه من الوجوه الممكنة البتة.

وتقدير الآية: ثم لآتينهم من جميع الجهات الممكنة بجميع الاعتبارات الممكنة[١].

وعلى القول الذي خصص طرق الشيطان إلى الإنسان بهذه الجهات الأربعة يرد سؤال: لِم لَم تذكر الآية مع هذه الجهات الفوق والتحت؟ فأجيب عن ذلك بأن جهة الفوق هي جهة الدعاء، وأن جهة التحت هي موضع السجود، وقد علم الشيطان أنه لا يتمكن من الإنسان وهو يدعو ربه، ولا منه وهو ساجد له ـ سبحانه وتعالى ـ ولذا قال الله ـ تعالى: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**﴾[٣] وجاء في الحديث عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء**»[٤].

ومن لطائف المفسرين التي ذكرها الفخر: الفرق بين ﴿**مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ**﴾ حيث ذكرت الآية الجهتين الأوليين بمن، والثانيتين بعن، لأن ملائكة الحسنات والسيئات يجلسون عن يمين الإنسان وشماله، فعندما يأتي الشيطان للإنسان من هاتين الجهتين لا يلتصق به خوفًا من الملائكة، وإنما يأتيه منها مع نوع من التباعد.

---

(١) المصدر السابق، (١٤/ ٤٢).

(٢) سورة غافر: الآية (٦٠).

(٣) سورة الفرقان: الآية (٧٧).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي، باب ما يقال في الركوع والسجود، (٤/ ٢٠٠).

وقوله تعالى: ﴿ **ولا تجدُ أكثرهُمْ شاكرين** ﴾ يحكي حقيقة أغلب بني آدم فإنه في ذهول عن الشكر، وقد عرف إبليس ذلك؛ لأن الأمر جاء كما قال، إمّا لاطلاعه على بعض أحوال الإنسان وهو بالملأ الأعلى، فعرف ذلك فحكاه، وإما بطريق الظن[١] والتخمين، لعلمه أن من أسوأ نتائج الشهوات التي يحركها في الإنسان ترك الشكر، إذ فعل الشهوة كفران بنعمة الله ـ عز وجل ـ ولو عقل الإنسان نعم ربه عليه، واستشعر حاجته إليه على الدوام ما كفر كافر ولا عصى عاصٍ.

وهذا القول الكريم يدل بذكره هنا على أن أعلى العبادات شأنًا وأوصلها إلى الله ـ عز وجل ـ شكره ـ تعالى ـ على ما تفضل به وأنعم، واستدامة ذلك شعورًا في القلب، ونطقًا باللسان، وفعلاً بالجوارح. وفقنا الله لحسن الشكر واستدامته.

وقوله تعالى: ﴿ **قال اخْرُجْ منْها مذْءُوماً مَدْحُوراً لَمَن تبِعك منْهُمْ لأَمْلأَنَّ جهَنَّم منكُمْ أجْمعين** ﴾[٢] وإزاء توعد إبليس بترصده لآدم وبنيه على طريق الحق وسبيل النجاة، وصرفهم عن الإيمان بالله، خاطبه ـ جل وعلا ـ زاجرًا ومحقرًا بقوله: ﴿ **أُخْرُجْ منْها مذْءُوماً مَدْحُوراً** ﴾ أي: من الجنة أو من السماء ﴿ **مذْءُوماً** ﴾ أي: محقورًا ومهين الشأن، مهما بذلت في إفساد بني آدم فإني أحبط كيدك عمن عبدني، ورجع إليَّ مهما كانت إساءته، ومن معاني (الذأم) في اللغة: الاحتقار، أي: أنت محقر بما هددت به بني آدم، لا تُرفع به أبدًا أو مذءومًا أي: مذءومًا بأبلغ الذم وأشده، فإن أي كافر أو عاصٍ مع قبح ما أتى به لا يذم بمثل ما تذم به في الدنيا[٣].

---

(١) انظر: الفخر الرازي، (٤/ ٤٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٨).

(٣) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٤٣، ٤٤) وتفسير الألوسي (٨/ ٩٦) وتفسير أبي السعود (٣/ ٢١٩).

﴿ مَذْحُورًا ﴾ أي: مبعدًا محقرًا[١] والقصد من تقييد خروجه في هذه الآية بهذين الوصفين الإمعان في مذمته، ونفي أن يكون له شأن بما أبداه بين يدي الحق ـ جل وعلا ـ مما أسلفت ذكره في الآيات السابقة[٢]. ثم توعده هو ومن تبعه بأن يملأ جهنم منه ومنهم أجمعين، قادرًا على ذلك ـ سبحانه وتعالى ـ لا يحول بينه وبين ما أراد من النكال بإبليس ومن تبعه حائل ليتبين الفرق بين القدرتين؛ قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ التي لا يثبت أمامها شيء ولا يقاومها مقاوم، وبين قدرة اللعين على إغواء بني آدم التي مكَّنه الله ـ تعالى ـ منها بحكمته وإرادته، ولبيان أن هذا الإغواء منه لمن يغويهم، شر عليه وعليهم، يقودهم إلى أوخم العواقب.

وقوله تعالى: ﴿ لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ أي: انقاد لك واستسلم بلا رجعة استسلام التابع المنزوع الإرادة والعقل للمتبوع. واللام فيه لام القسم[٣] والتقدير: وحقنا لمن تبعك من بني آدم. وقوله تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ جواب هذا القسم، والمعنى: لأملأن جهنم منك ومنهم، قادرًا على ذلك، لا يمنعني منه شيء، وأنت ومن معك أعجز من أن تدفعوا ذلك الوعيد عنكم.

سادسًا: تكريم الله لآدم وزوجه بإسكانهما الجنة ونهيهما عن الأكل من الشجرة:

وقوله تعالى: ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ خطاب منه ـ تعالى ـ لآدم وزوجه بسكنى أشرف دار، خلقها الله لتكريم أحبابه، وهذه الآية في مقابل

---

(١) نفس المراجع السابقة.

(٢) من قوله: ﴿ قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ سورة الأعراف: الآيتان (١٦، ١٧).

(٣) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ٤٤).

ما حصل لإبليس من التحقير والتبعيد والطرد من رحمة الله ـ تعالى ـ أبدًا، والجنة التي أمر بسكناها هي جنة الخلد على ما رجحته في المبحث الذي أفردته لذلك[١] ثم نهاه ـ سبحانه وتعالى ـ عن الاقتراب من الشجرة، والمراد بالشجرة المنهي عنها، إما شجرة بعينها، أو أنها جنس لنوع واحد. وقد نقلت أقوال العلماء في المراد بها في مبحث خاص[٢].

وقد رتب الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وصف آدم وحواء بالظلم إذا هما أكلا من هذه الشجرة، فالنهي عن الاقتراب منها في الحقيقة نهي عن الأكل منها، وهو أبلغ مما لو قيل: لا تأكلا من هذه الشجرة إذ النهي عن الاقتراب يستلزم النهي وقد رتب الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وصف آدم وحواء بالظلم إذا هما أكلا من هذه الشجرة، فالنهي عن الاقتراب منها في الحقيقة نهي عن الأكل منها، وهو أبلغ مما لو قيل: لا تأكلا من هذه الشجرة، وإذ النهي عن الاقتراب يستلزم النهي عن الأكل، وليس العكس كذلك، والدليل على أن المقصود بالنهي عن الاقتراب النهي عن الأكل أن إخراجهما من الجنة، وظهور سوءاتهما لهما، قد ترتبا على نفس الأكل كما سيمر بنا، وقد اختلف المفسرون في المراد بهذا النهي كما اختلفوا في المراد بالأمر في هذه الآية.

قال قتادة: إن الأمر في هذه الآية أمر تكليف لا أمر إباحة، أي: إن سكنى آدم وحواء الجنة، وإباحة أكلهما رغدًا حيث شاء منها، ونهيهما عن الاقتراب من الشجرة، كان تكليفًا من الله لهما بذلك، لا تنعيمًا، ولذا لما أكلا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما، وأُهبطا من الجنة.

---

(١) انظر: الصفحات من (١٠٧) إلى (١١٩) من بحثنا هذا.

(٢) انظر: ص (١١٩، ١٢٠) من بحثنا هذا.

وقال آخرون: إن الأمر هنا للإباحة، والنهي للتنزيه لا للتحريم، ومخالفة الأمر الذي هو للإباحة بفعل ما نهيا عنه لا يعد ذنبًا، بل غاية ما يقال فيه: إنه ترك ما هو الأولى. والذين قالوا ذلك بنوا قولهم على أن المعصية لا تصدر من الأنبياء لا قبل نبوتهم ولا بعدها، وما ورد مما يفيد ظاهر ذلك فمُؤوّل.

وإن معنى قوله تعالى: ﴿ **فتكُونا من الظَّالمين** ﴾ أي: لأنفسكما باستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير. كمن طُلب للوزارة فعافها واشتغل بالحياكة كما يقول الفخر[١] وأصحاب هذا الرأي يقولون: إن معنى قوله تعالى: ﴿ **وعصىٰ آدمُ ربَّهُ فغَوىٰ** ﴾[٢] أي: فعل غير اللائق به، وأن الله سمى فعله معصية باعتبار أنه غفل عن عداوة الشيطان له، وعما توعده به وبنيه، وكان اللائق بآدم وحواء ـ عليهما السلام ـ أن لا يغفلا عن ذلك.

وجزى الله ساداتنا العلماء خيراً لما قدموه لنا من فهم طيب لمثل هذه الآيات، وإن كنت أميل إلى أن النهي وإن كان حقيقة مشتركة بين القدرين ـ التحريم والتنزيه ـ كما يقوله بعض الأصوليين بالتحريم[٣] بدليل تسميته معصية وتسميته ظلمًا في الآية، وبدليل ما ترتب عليه من الهبوط إلى الأرض، وبدليل قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ اجْتبَاهُ ربُّهُ فتَاب عليْه وهدىٰ** ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿ **فتلقَّىٰ آدمُ من ربِّه كلمات فتاب عليْه إنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحيمُ** ﴾[٥] ولقد قيل: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين فالأولى أن يسمى خلاف الأولى من المقربين؛ معصية وسقوط الإنسان في

---

(١) بتصرف من الفخر الرازي (٣/ ٦) وانظر: تفسير الألوسي (٨/ ١٠١).

(٢) سورة طه: الآية (١٢١).

(٣) انظر: شرح المحلي على جمع الجوامع بحاشية البناني (١/ ٣٩٢) ط مصطفى الحلبي.

(٤) سورة طه: الآية (١٢٢).

(٥) سورة البقرة: الآية (٣٧).

المعصية، لا ينافي الاجتباء ولا الاختيار لنبوة، بل إن من مقاصد قصة آدم ـ عليه السلام ـ في القرآن ألا توصل الزلات من بنيه إلى اليأس، وأن كثرة المعاصي لا تحول بينهم وبين رحمة الله، ما داموا مؤمنين تائبين، ومذهب أهل الحق أنهم لا يقطعون بعذاب غير التائبين من المؤمنين، بل يفوِّضون أمرهم إلى الله ـ عز وجل ـ وعندي أن آدم ـ عليه السلام ـ لم يكن نبيًا وقت الأكل من الشجرة، فلا يقدح أكله في نبوته بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢].

وأكل آدم وحواء من الشجرة كان أمرًا واقعًا لا محالة؛ لأن الله خلقه ليكون خليفة في الأرض، لا ليستقر في الجنة من أول الأمر، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٣] وحديث موسى الذي أسلفته فيما مضى وفيه «**أتلومني على أمر قدره الله عليَّ**»[٤] فحج آدم موسى فغلبه، كما قال ـ صلى الله عليه وآله وسلم.

الخلاصة:

إن دفاع القائلين بأن الأمر للإباحة، وأن النهي للتنزيه دفاع مشكور لهم، لكن تأويل النصوص وصرفها عن حقائقها أمر ليس بالسهل كما مرّ بنا آنفًا.

سابعًا: بداية كيد الشيطان لآدم وزوجته ـ عليهما السلام ـ:

وقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾[٥] الوسوسة هي الكلام الخفي

(١) سورة طه: الآية (١٢٢).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٣٣).

(٣) سورة البقرة: الآية (٣٠).

(٤) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٢٠٠).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٢٠).

المكرر، وهذا معناه أن الشيطان ـ نعوذ بالله منه ـ ظل يلح عليهما بوسوسته، ويرددها في نفوسهما حتى وصل إلى مقصده، وهذا يدل على إباء آدم وحواء عليه في أول الأمر، وأنهما لم ينصاعا لما ألقى في نفوسهما من أول الأمر؛ فَذِكْرُ إبليس بالوسوسة نوعٌ من ذمّه، وبيانٌ للسبيل الذي يسلكه لإغواء بني آدم، وهو في نظري شبه مدح لآدم وحواء، ومما يؤكد هذا الفهم قوله تعالى: ﴿ **وقاسمهما إنّي لكما لمن النّاصحين** ﴾[١].

و«الشيطان» وصف لإبليس، غلب عليه حتى صار علمًا له وكل عات متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان، ومعناه: المبعد المطرود. من قول العرب: شطنت داره إذا بعدت، والشاطن: البعيد عن الحق، أو المعذب المنكل به. من قولهم: شاط يشيط إذا هلك واحترق[٢] ولا يقال: كيف وسوس إبليس لآدم وحواء وقد أخرج إبليس من الجنة؟ لأن الله أعطاه القدرة على وصول وسوسته إلى آدم وبنيه مهما بعدوا عنه، قال الحسن ـ رضي الله عنه ـ: «كان يوسوس من الأرض إلى السماء وإلى الجنة بالقوة الفوقية التي جعلها الله له»[٣] وأما ما يذكر من قصة الحية ودخول إبليس فيها ودخولها إلى الجنة حاملة له . . . إلخ. فكلام مدحوض من الإسرائيليات التي أقحمت في كتب التفاسير والتي لا يصح أن تروى إلا لدحضها وبيان كذبها كما أشار إلى ذلك الفخر وابن كثير وغيرهما[٤].

وقوله تعالى: ﴿ **ليُبْدي لهُما ما وُوري عنهُما من سوْءاتهما** ﴾[٥] معناه: ليظهر

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢١).

(٢) انظر: لسان العرب (١٣/ ٢٣٨).

(٣) تفسير الرازي (١٤/ ٤٦).

(٤) انظر: الفخر الرازي (١٤/ ٤٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٦).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٢٠).

لهما ما أخفى عنهما من عوراتهما التي لا يصح النظر إليها، وهذا الكلام يحتمل الحقيقة ويحتمل المجاز: فعلى كونه حقيقة فالمراد به تعريف بني آدم خطورة انكشاف العورات وأن التهاون في ذلك يؤدي بهما إلى السقوط في جميع المعاصي؛ فانكشاف العورة سبيل لإبليس يقود منه بني آدم إلى ما يرغب، ويوقعه في المهالك والشرور، وعلى المجاز فالمعنى بالسوءات هنا، سوءات النفوس وانحرافها، وأن متابعة أهوائها لا يوصل إلى خير أبدًا، ولذا لما مالت نفسي آدم وحواء إلى الأكل من الشجرة سقطت حرمتهما، ووقعا فيما حذرهما الله منه.

واللام إما للعاقبة وإما للغرض[1] في قوله: ﴿لِيُبْدِيَ﴾ فعلى كونها للعاقبة فمعناها أن إبليس لم يكن قصده انكشاف عورتهما، وإنما كان قصده وقوعهما في المعصية، وعلى كونها للغرض فانكشاف عورتهما، مقصود له من أول الأمر لما علمه من أحوال بني آدم مما سطر في اللوح المحفوظ كعلم الملائكة المذكور في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[2] فقد رأى في اللوح المحفوظ أنهما إذا أكلا من الشجرة فارقهما لباسهما، ووقعا في حرج عظيم برؤية سوءاتهما، وهذا يدلك على أن انكشاف العورة أمر قبيح، مركوزٌ في الفطرة قبحُه، والمراد بالسوءة هنا الفرْج. وإذا كان الشرع بعد ذلك قد توسع في عورة الرجل والمرأة فما ذلك إلا لحمايتهما.

وأميل إلى كون اللام للغرض، وإلى أن المراد بقوله تعالى: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾[3] هو انكشاف العورة حقيقة؛ لأن الأصل حمل

---

(١) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٤٦).

(٢) سورة البقرة: الآية (٣٠).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٠).

اللفظ على حقيقته ما لم تأت قرينة قوية تحمل على صرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز.

قال الفخر عند تفسير هذه الآية: «قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كأنهما قد ألبسا ثوبًا يستر عورتهما، فلما عصيا زال عنهما ذلك الثوب»[١].

﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ﴾[٢] أي: ما منعكما من قربانها والأكل منها إلا لينفي عنكما الوصول إلى درجة الملائكة وأن تلبسا طبيعتهم، ﴿ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ أي: الماكثين وقتًا طويلاً لا يلحقكما موت، أو الباقين لا تموتمون.

وهذه المخاطبة من إبليس، تحتمل المشافهة وتحتمل الوسوسة، فكما يسمى التلفظ كلامًا كذلك يسمى ما يقذف في الفؤاد كلامًا، وللمفسرين في إغراء الشيطان لهما بأن يكونا ملكين كلام طويل تركت ذكره لطوله[٣].

والمعنى الذي استخلصته من قراءاتي أن آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ كانا متواضعين تواضعًا كبيرًا، على الرغم من سجود الملائكة لآدم، شأن المؤمن المجتهد في الطاعة؛ فإنه كلما قوي اجتهاده زادت خشيته، ونظر إلى من دونه على أنه أفضل منه؛ ولذا ظنَّ آدم أن الملائكة أفضل منه، وأنهم على حال أرضى لله من حاله، وهو يريد غاية القرب من ربه، فإذا انضم إلى ذلك نسيانه أنه سيكون من الظالمين إذا أكل من الشجرة سهل على إبليس أن يسهل عليه الأكل من الشجرة بهذا الإغراء، بالإضافة إلى علم آدم بما عليه الملائكة من قوة وعظم في

---

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٤٦).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٠).

(٣) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٤٦)؛ وانظر: تفسير الألوسي (٨/ ٩٩).

الخلق، وهو دونهما بلا شك.

وأما إغراؤه بالخلود بمعنييه السابقيين فمرده إلى أن الإنسان بجبلته يخاف الموت ويرهبه مهما استعد له، ولذا سلك الشيطان في إغرائه هذين المسلكين، ولا غرابة في ذلك لما قدمته من تعليل.

وقوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[١] معناه: أنه حلف لهما، واجتهد في ذلك غاية اجتهاده، وهذا هو المعنى الذي تحمل عليه المفاعلة، لأنه أكد دعوته لهما بالأكل وذلك بالاجتهاد في القسم، ولعلهما لم يصدقاه في أول الأمر مما حمله على القسم.

وقد استغل إبليس تقدمه عليهما في الخلق، جاعلاً ذلك ذريعة إلى العلم بما لم يعلما، اجتهاداً منه في تهوين نهيهما عن الأكل من الشجرة، وقوله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾[٢] أي: فأطمعهما في ما لا يكون لهما بحال؛ إذ يمتنع أن تتحول طبيعتهما إلى طبيعة الملائكة، وقد خلقهما الله على ما هما عليه، ولو أراد الله لهما ذلك لخلقهما ملكين من أول الأمر، كما يمتنع أن يكونا من الخالدين؛ لأنه لا خلود لحي أراد الله خلوده إلا بعد موته وبعثه.

ولقد أغرى إبليس آدم وحواء بما منعه الله منه، حين قال لربه: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٣] أي: لا تُمتني ـ كما سبق تفسيره[٤] ولعل آدم وحواء ظنا أنه ـ أعاذنا الله منه ـ لم يحصل له ذلك لمعصيته ونسيا ـ كما قلت ـ أن مخالفة النهي

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٤).

(٤) انظر: صفحة (١٣٤) من بحثنا هذا.

معصية، فإذا لم توصله معصيته إلى ما طلب فمعصيتهما كذلك لا توصلهما إلى ما أغراهما به.

أو معناه: جرّأهما على الأكل من الشجرة بحيلة وغرور سهل عليهما ذلك. ومؤدى المعنيين واحد، إذ لم يحدث لهما شيء مما أغراهما به من أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين.

وقوله تعالى: ﴿ **فلمّا ذاقا الشّجرة** ﴾[١] أي: استطعماها ودخل منها في جوفهما بدت لهما عوراتهما فور ذوقهما منها بلا مهلة، وظهر أول ما سيبتليان به لمخالفتهما ما نهاهما الله عن فعله، وهو الأكل من الشجرة.

وقد بيّن الله حقيقة ذوقهما الشجرة، في سورة طه فقال: ﴿ **فأكلا منها** ﴾[٢] وهذا يدل على أنه لم يكن مجرد ذوق باللسان، وإنما كان أكلاً حقيقيًا، و(الفاء) تدل على وقوع الأكل من الشجرة عقب إغراء اللعين لهما بذلك، ولعلهما لو تريثا لتذكّرا النهي، فتجنبا الوقوع فيه. والإنسان في أحيان كثيرة يعجل في أموره ولا يتريث في فعله، فتأتي العواقب على غير ما يحب، ويندم حيث لا ينفع الندم.

قوله تعالى: ﴿ ... **بدت لهُما سوْءاتُهُما وطفقا**[٣] **يخْصفان**[٤] **عليْهما من ورق الْجنّة** ﴾[٥] ومعنى طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة؛ أي: شرعا وأخذا

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٢).

(٢) سورة طه: الآية (١٢١).

(٣) طفقا: قال صاحب اللسان: «طفق طفقًا، لزم. وطفق يفعل كذا، يطفق طفقًا أي: جعل يفعل وأخذ ... وهو من أفعال المقاربة» لسان العرب (١٠/ ٢٢٥).

(٤) يخصفان: قال صاحب اللسان: «خصف النعل يخصفها: ظاهر بعضها على بعض وخرزها» لسان العرب (٩/ ٧١).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٢٢).

يضعان عليهما من ورق الجنة ليسترا بذلك ما انشكف من عورتهما[٤].

وإنك لتستشعر من قوله: ﴿ يَخْصِفَانِ ﴾ أن ورق الجنة ما كان يطاوعهما في تحقيق مرادهما من ستر العورة وهما يحاولان تثبيته بوضع بعضه على بعض. ومنه قيل لمن يرقّع النعال خصّافا؛ لأنه يحاول تثبيت ما يرقع به بالخيط حتى لا تنفلت.

ثامنا: عتاب الله ـ جل وعلا ـ لآدم وزوجته بعد أن أكلا من الشجرة وقبول اعتذارهما ـ عليهما السلام ـ:

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ عقب أكلهما من الشجرة، نداء عتاب وتوبيخ مع لطف دل عليه قوله[٢]: ﴿ رَبُّهُمَا ﴾ فإن من سخط الله عليه السخط كله لا يناديه ولا يعاتبه، بل يشقيه ويطرده، كما فعل بإبليس حيث قال له: ﴿ أُخْرُجْ مِنْهَا ﴾ فلم يناده كما نادى آدم وحواء، ولم يقل له: كيف تمتنع عن أمري وقد خلقتك؟ بل سأله عن سبب امتناعه ليظهر له عتوه واستكباره حتى لا ينخدع بنو آدم بإغوائه وإضلاله.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾[٣] هو تفسير قوله تعالى: ﴿ وَنَادَاهُمَا ﴾ أو هو مقول قول محذوف، والاستفهام هنا إنكاري وفيه معنى التقرير، إذ المعنى: قد نهيتكما عن تلكما الشجرة، فكيف وقعتما في حبائل الشيطان، وأكلتما من هذه الشجرة الخبيثة؟ التي أشار الله إليها بكلمة ﴿ تِلْكُ ﴾ الدالة على البعد، وعلى أن من يقربها يُصبه التعب والشقاء.

---

(١) انظر: تفسير الألوسي (٨/ ١٠١).

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (٨/ ١٠١).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٢).

وعطف على هذا العتاب قوله لهما: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ أي: ظاهر العداوة[١] لا يكف عن الإساءة إليكما وصرفكما عن سعادتكما ﴿ **وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾[٢] أي: بالغت في إخباركما بعداوته حتى لا تغفلا عنها، فقد ذكرت هذه الجملة مؤكدة بـ ﴿ **إِنَّ** ﴾، كما تكرر فيها ﴿ **لَكُمَا** ﴾ مرتين مع ذكر صفة العداوة، وكل ذلك يدل على أنهما علما عداوته لهما من ربهما علمًا لا يدع لهما عذرًا في مطاوعته، وقد نبههما إلى عداوته صراحة في سورة طه بقوله: ﴿ **إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ** ﴾[٣].

ولقد اعتذرا إلى ربهما بما علّمهما إياه من كلمات تصلح عذرًا لهما بين يديه. فسبحان الهادي إلى ما يستجلب به رضاه، قال تعالى: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾[٤] فقالاها: ﴿ **إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ أي: الواسع التوب العظيم الرحمة، المختص بذلك وحده، والذي لا يحرم عبده رحمته وتوبته متى اعتذر إليه، وقد طوى في آية البقرة توبة حواء في توبة آدم؛ لأن المرأة تابعة للرجل وهي كذلك في أغلب خطابات القرآن الكريم. ولقد اختلف المفسرون في الكلمات التي قالاها[٥] ولعل أقرب آراء المفسرين إلى الصحة ما فسرته آية الأعراف في قوله تعالى: ﴿ **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾[٦] فهذه الآية صريحة في أنهما اعتذرا إلى ربهما بهذه الكلمات

---

(١) انظر: تفسير، الألوسي (٨/ ١٠١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٢).

(٣) سورة طه: الآية (١١٧).

(٤) سورة البقرة: الآية (٣٧).

(٥) انظر الأقوال في: المراد من الكلمات، وتفسير الرازي، (٣/ ١٩).

(٦) سورة الأعراف: الآية (٢٣).

كما أنها تفسير للإبهام في سورة البقرة، وقد ذكرها الله ـ جل وعلا ـ مرة مبهمة وأخرى محددة لتعظم في نفوسنا، ولئلا نكف عن الاعتذار بها إلى ربنا ـ عز وجل ـ.

ومعنى ﴿ **ظلمنا أنفسنا** ﴾ أي: آذيناها بفعل ما نهينا عنه، وبإخراجها من الجنة لشؤم المعصية، قال البقاعي: «أعربت الآية عن أنهما فزعًا إلى الانتصاب بالاعتراف وسميا ذنبهما ـ وإن كان إنما هو خلاف الأولى؛ لأنه بطريق النسيان كما في سورة طه[1] ظلمنا، كما هي عادة الأكابر في استعظام الصغير منهم، ولم يجادلا كما فعل إبليس، وفي ذلك إشارة إلى أن المبادرة إلى الإقرار بالذنب من فعل الأشراف، لكونه من معالي الأخلاق، وأنه لا مثيل له في اقتضاء العفو وإزالة الكدر، وأن الجدال من فعال الأرذال، ومن مساويء الأخلاق، وموجبات الغضب المقتضي للطرد»[2].

ومعنى ﴿ **وإن لَّمْ تغفرْ لنا** ﴾ أي: هذه الزلة ﴿ **وترْحمْنا** ﴾ أي: تُدم رحمتك علينا بفضلك ﴿ **لنكُونَنَّ من الْخاسرين** ﴾ أي: الهالكين الذين آيستهم من رحمتك كإبليس وجنوده.

وقد علمتنا هذه الآية حسن الاعتذار لربنا، والإمعان في ندائه واستغفاره بقول الداعين: ﴿ **ربنا** ﴾ وبتقديم الداعين ذكر زلاتهم وهم مستشعرون الضعف والحاجة. وفعل ذلك لدى الكرام من الخلق كثيراً ما يؤدي إلى عفوهم، فكيف بأكرم الأكرمين ورب العالمين؟

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما** ﴾ سورة طه: الآية (١١٥).

(٢) تفسير البقاعي المسمى نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام المفسر برهان الدين أبي الحسن إبراهيم البقاعي المتوفي سنة ٨٨٥ هـ (٧/ ٣٧٥، ٣٧٦).

كما ينبغي للداعي أن يكثر من طلب المغفرة والرحمة معًا؛ فإن الإنسان مهما اجتهد في طاعة الله فلن يقوم بشكر نعمة واحدة، فلا ينال ما عند الله إلا برحمة الله، أخرج البخاري بسنده عن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «**سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يدخل أحدًا الجنة عمله**. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة**»[(١)].

تاسعًا: استقرار آدم وزوجه في الأرض بعد أن تاب الله عليه:

قال تعالى: ﴿**قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ**﴾[(٢)].

﴿**قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ أي: قال ذلك لإبليس وآدم وحواء، وهو دال على استمرار العداوة بين الشيطان وبني آدم، وهي من إبليس لا تهدأ ولا يهادن فيها البتة، أما هي من بني آدم فقد خفيت تلك العداوة على أغلبهم، فضلوا عن سبيل الله ضلالاً مبينًا، ومن تنبه إليها منهم فهم فيها على درجات: منهم من لا سلطان للشيطان عليه البتة، وهم يصرعونه ويخزونه بطاعتهم وعبادتهم وهم الأنبياء ومن يليهم في الرتبة كالصديقين وخواص المؤمنين، ومنهم من يطيعه حينًا، ويعصيه أحيانًا، ومنهم العكس.

وقوله: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ**﴾ أي: استقرار وحياة ومعايش وشئون مختلفة، تباشرونها أنتم وإبليس على ظهر هذه الأرض.

---

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، كتاب الرقاق ـ باب القصد والمداومة على العمل، (القاهرة: طبعة البابي الحلبي، (د. ت)، ١٤/ ٧٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٤).

وقوله تعالى: ﴿ومتاعٌ إلىٰ حين﴾ أي: ولكم فيها تمتع وتلذذ بما أودع الله فيها من النعم، وخبَّأ فيها من الثروات والأقوات التي أقدركم على استخراجها والتمتع بها، وتمتع إبليس في هذه الدنيا وسرور قلبه بإغواء بني آدم، وصرف بعضهم عن الحق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً وكل ذلك من الاستقرار والتمتع مُغَيّا[1] بأجل كل واحد منهم الذي ينتهي بالموت، والدنيا كلها مغيّات بأجلها الذي ينتهي بالنفخة الأولى التي يموت عندها كل حي من المخلوقين.

ولما كان الاستقرار والتمتع في الأرض قد ينسيان العاقبة، وقد يظن بعض الظانين أن لهما شأنًا في حياتهم؛ لذلك نبههم ـ تبارك وتعالى ـ إلى أنهم يحيون فيها بقدرته وإرادته، ولو شاء خلاف ذلك لكان، وأنهم يموتون فيها ليكون موت السابقين عبرة للاَّحقين، ودليلاً على انقضاء هذه الحياة، وعلى أن هناك حياة أخرى أسمى منها لمن آمن واتبع الهدى، وأشقى لمن كذب بآياته. وقد بَيَّن الله ذلك في سورة البقرة فقال تعقيبًا على أكل آدم من الشجرة: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾[2].

كما بين لهم خروجهم حتمًا إلى حسابهم وملاقاة ما قدموا، لتتحد مصائرهم تبعًا لإيمانهم أو كفرهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿**قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ**﴾[3] والضمير يعود إلى الأرض بقرينة قوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ**﴾[4] وقد تكرر حديث القرآن عن هذا الهبوط في

---

(١) غيًا: أي جعل له غاية ونهاية فهو مغيًا. انظر: المعجم الوسيط (٢/ ٦٦٩).

(٢) سورة البقر: الآيتان (٣٨، ٣٩).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٥).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٤).

سورة البقرة والأعراف وطه لأسرار كثيرة أهمها ـ والله أعلم ـ أن يعلم الإنسان خطورة الوقوع في المعصية، وأنه لا يجني من ورائها إلا التدني والضعة، وأن لا يغفل الإنسان عن عداوة الشيطان في حياته الدنيا، فلا يطيعه بحال، ولا يطمئن إليه البتة، ويجلِّي هذا المعنى عتاب الله لبني آدم يوم القيامة عن غفلتهم عن تلك العداوة مُقيمًا حجته عليهم وقاطعًا أعذارهم؛ قال تعالى: ﴿ **ألم أعهد إليكُم يا بني آدم أن لاَ تعبُدُوا الشَّيطان إنَّهُ لكُم عدُوٌّ مبينٌ (٦٠) وأن اعبُدُوني هذا صراطٌ مُستقيمٌ (٦١) ولقدْ أضلَّ منكُم جبلاً كثيرا أفلم تكُونُوا تعقلُون** ﴾[1].

عاشرا: دعوة القرآن بني آدم للاعتبار بما حدث بين أبيهم وإبليس، أعاذنا الله منه:

وبعد أن فرغ القرآن من قصة آدم وإبليس في سورة الأعراف والصراع الذي وقع بينهما عقب بذكر نصيحتين لبني آدم كافة:

النصيحة الأولى: تذكيرهم بنعمة اللباس:

منته تعالى بإنزال اللباس المادي عليهم والريش، وهو كل ما يتزينون به زائدًا عن اللباس، قال ابن كثير: «والرياش والريش: ما يتجمل به ظاهرًا»[2]، قال تعالى: ﴿ **يا بني آدم قدْ أنزلْنا عليْكُمْ لباسًا يُواري سوْءاتكُمْ وريشًا ولباسُ التَّقْوى ذلك خيْرٌ ذلك منْ آيات اللَّه لعلَّهُمْ يذَّكَّرُون** ﴾[3].

فقوله: ﴿ **يا بني آدم قدْ أنزلْنا عليْكُمْ لباسًا** ﴾ خطاب للآدميين بهذه المنة من لدن أبيهم آدم إلى أن تقوم الساعة.

---

(١) سورة يس: الآيات من (٦٠) إلى (٦٢).

(٢) انظر: ابن كثير (٢/ ٢٠٧).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٦).

وقوله: ﴿قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم﴾[١] المراد بالسوءات العورات، والمعنى: أي قد خلقنا لكم ذلك، بأن سهّلنا لكم الأسباب التي تؤدي إلى تمكينكم منه، كنزول الماء من السماء فتنبت لكم ما تصنعون به ألبستكم، أو تطعمون به أغنامكم التي تغزلون من صوفها فتلبسون. والإنزال هنا مجازي لا حقيقي.

ويرى الجبائي أن إنزال اللباس على بني آدم من الجنة حقيقي، وقد ناقشه الألوسي في قوله هذا قائلاً: «لم نقف في ذلك على خبر كسته الصحة لباسًا»[٢].

والمعنى: إن الله قد مكنكم مما تسترون به عوراتكم، وإنه جنبكم ما أصاب أبويكم من الاضطرار إلى خصف الورق على عوراتهما حين انكشفت لما أكلا من الشجرة، كما قال تعالى: ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾[٣].

أنتم يا بني آدم قد كفيتم ذلك بما خلقه الله لكم من اللباس، فاحذروا من التفريط في كشف عوراتكم، ولا تطاوعوا الشيطان فيما يغريكم به من الوقوع في ذلك، حتى وإن زيّنه لكم بالقربى والطاعة، كما فعله مع العرب في الجاهلية، كانوا يطوفون بالبيت عراة، بزعم أنهم لا يصح أن يطوفوا بالبيت في ثياب عصوا الله فيها، أو أنهم كانوا يفعلون ذلك تفاؤلاً بالتعري عن الذنوب!

وكما يفعله الكثيرات من أهل عصرنا تحت دعوى الجمال، أو التخفف أثناء

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٦).

(٢) تفسير الألوسي (٨/ ١٠٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٢).

القيام بالألعاب الرياضية وغير ذلك، مما أوقع الكثيرات من نساء المسلمين والكثيرين من شباب المسلمين في هذا الأمر تشبهًا بالكافرين، ومما سهل ذلك على نفوس الرجال نزع الحياء من القلوب، وموت الغيرة أو ضعفها في النفوس، وكما مر بنا ذلك سابقًا[1]، أن الشيطان يجتهد في ذلك؛ لأنه الباب الواسع، الذي يقود للوقوع في أخطر المعاصي.

وقوله تعالى: ﴿ **ولباسُ التَقْوىٰ ذلك خيْرٌ** ﴾ قرأ نافع وابن عامر والكسائي ﴿ **ولباسُ التَقْوىٰ** ﴾ بالنصب. والمعنى يكون على هذه القراءة: يا بني آدم قد أنزلنا عليكم اللباس الذي يواري عوراتكم في أحوالكم العادية، وألهمناكم، وعلمناكم، وأنزلنا عليكم لباس التقوى الذي تتقون به ربكم، فاللباس الثاني هو اللباس الأول كقول القائل: الصدق من أنواع البر، والصدق خير لك؛ فالصدق الثاني هو عين الصدق الأول، وقد كرّره ليبطل به تعبد الجاهلية بالتعري ـ كما أشرت إليه آنفًا ـ أو أن اللباس الثاني يراد به ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر وغيرها مما يُتقى به في الحروب، والمعنى: قد أنزلنا عليكم اللباس الذي يقيكم بأس عدوكم عند تحاربكم، فهو خصوص بعد عموم جيء به لأجل هذا المعنى.

وإنزال اللباس الذي تستر به العورات في أوقات السلم وما يلبس في أوقات الحرب من آيات الله ودلائله على رحمته بعباده ﴿ **لعلَهُمْ يذَكَرُون** ﴾ نعمته عليهم فيشكرون ولا يكفرون.

فقوله تعالى: ﴿ **ذلك منْ آيات الله** ﴾ بعد قراءة النصب جملة مستأنفة جيء بها لتأكيد هذه المنة، ولا مانع من إرادة ما ذكرت سابقًا من قراءة الرفع التي هي قراءة العامة.

---

(١) انظر: ص ٣٩، ٤٠ من بحثنا هذا.

وقد حمل بعضهم: ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ على معان مجازية متقاربة قال الفخر: «قال قتادة والسدي وابن جريج: لباس التقوى: الإيمان، وقال ابن عباس: لباس التقوى: العمل الصالح، وقيل: هو السمت الحسن، وقيل: هو العفاف والتوحيد . . . » وقال معبد: هو الحياء، وقيل: هو ما يظهر على الإنسان من السكينة والإخبات والعمل الصالح، وسمى الله هذه الأشياء ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ﴾ لأنها توارى عورات الباطن كما يواري اللباس عورات الظاهر فهي استعارة بالكناية.

فقوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ﴾ على قراءة الرفع متبدأ وخبره ﴿ خَيْرٌ ﴾ و﴿ ذَٰلِكَ ﴾ صفته، أو بدل أوعطف بيان للباس، والغرض من ذلك مدح لباس التقوى، ووصفه بالخيرية، ترغيبًا فيه وحضًا عليه، وتبيينًا لمسيس الحاجة إليه.

فكما ركز في طباعنا ستر الظاهر باللباس وتجنيبه المضار بترك العري فيجب أن نعلم أن بواطننا في أمسِّ الحاجة إلى كسوتها وتجنيبها العري، بل إن عري الباطن أفدح خطرًا من عرى الظاهر، فقد يباح كشف العورة لضرورة مرض أو غيره، كما سطره الفقهاء في كتب الفقه لكن أحدًا لم يبح كشف عورات الباطن من كفر، ونفاق، وأخلاق رديئة، وإن اضطر المؤمن إلى شيء من ذلك فهو بلسانه، ولا حقيقة له البتة في قلبه. وقد أحسن الإمام الفخر إذ قال: «إن المؤمن لا تبدو عورته وإن كان عاريًا من الثياب، والفاجر لا تزال عورته مكشوفة وإن كان كاسيًا»[1] ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فيعرفون عظيم النعمة فيه.

---

(١) نقل بتصرف من تفسير الفخر الرازي (١٤/ ٥٢).

النصيحة الثانية:

تحذيرهم من فتنة الشيطان أن يفعل بهم ما فعل بأبويهم فلا يردون الجنة بل يكون مصيرهم إلى النار، قال تعالى: ﴿ **يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾[١].

فقوله تعالى: ﴿ **يا بني آدم** ﴾ نداء من الخالق ـ جل وعلا ـ لبني آدم، وقد تكرر في هذه السورة بالذات أربع مرات، ولم يرد بهذه الصورة في غيرها من سور القرآن، وفيه تكريم للآدميين حيث خصهم بندائه دون سائر مخلوقاته وقوله تعالى: ﴿ **لا يفتننكم** ﴾ أي: لا يصرفنكم الشيطان عن الدين، كما فتن أبويكم بإخراجهما من الجنة.

قال أهل التأويل: هذا خطاب للذين يطوفون عراة من أهل الجاهلية والمعنى: لا يخدعنكم ولا يضلّنكم بغروره، فيزين لكم كشف عوراتكم، كما أخرج أبويكم من الجنة بغروره، وأُضيف الإخراج ونزع اللباس إليه لأنه السبب»[٢].

ولقد لفت ـ جل وعلا ـ أنظار عباده بتحذيرهم من فتنة الشيطان ومخادعاته التي طالما فتن بها بني آدم، لأنه إن قدر على إلقاء آدم في الزلة الموجبة لإخراجه من الجنة، فلأن يقدر عل ذلك في حق بني آدم فمن باب أولى، لذلك حذر تعالى بني آدم، بالاحتراز من وسوسته، لأنه كان سببًا في إخراج أبويهم من الجنة التي كانا يتمتعان بنعيمها.

وقوله تعالى: ﴿ **ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما** ﴾ جملة حالية من أبويكم، أي: أخرجهما من الجنة حال كونهما نازعًا لباسهما، وأسند النزع إلى

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٧).

(٢) انظر: زاد المسير لابن الجوزي، (٣/ ١٨٤).

الشيطان لأنه كان متسببًا فيه، قال الفخر: «﴿ينزِعُ عنهُما لباسهُما﴾ اختلف في اللباس الذي نزع منهما فقال بعضهم: إنه النور، وبعضهم: التقى، وبعضهم: اللباس الذي هو ثياب الجنة، وهذا القول أقرب لأن إطلاق اللباس يقتضيه. والمقصود من هذا تأكيد التحذير لبني آدم، لأنه لما بلغ تأثير وسوسة الشيطان في حق آدم مع جلالة قدره إلى هذا الحد، فكيف يكون حال آحاد الخلق؟»[(١)]؟

ثم أكد تحذيرهم من الشيطان وجنوده بجملة تعليلية فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿إنَّهُ يراكُمْ هُو وقبيلُهُ من حيثُ لا ترونهُم﴾ أي: الشيطان وجنوده يرونكم يا بني آدم وأنتم لا ترونهم، فالجملة الكريمة تعليل للنهي السابق وهو قوله: ﴿لا يفْتِنَنَّكُمُ﴾ وتأكيد للتحذير؛ لأن العدو إذا أتى من حيث لا يُرى كان أشد وأخوف، ولذا قال مالك بن دينار: «إن عدوًا يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا على مَن عصمه الله»[(٢)].

وقوله: ﴿من حيثُ لا ترونهُم﴾ أي: على صورهم الحقيقية التي خلقهم الله عليها، وهذا من رحمته ـ جل وعلا ـ بعباده، لما هو مستقر في الأذهان من قبح صورهم، وقد شبه الله ـ جل وعلا ـ ثمار شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم بُرؤوس الشياطين، لما علم من قبح صورهم وأشكالهم: ﴿إنَّها شجرةٌ تخرُجُ في أصْلِ الْجحيمِ (٦٤) طلْعُها كأنَّهُ رءُوسُ الشَّياطِينِ﴾[(٣)] وتعليل عدم رؤيتهم يرجع إلى لطافة أجسادهم أو عدم ألوانهم، قال صاحب تفسير الجمل: «فأجسادهم مثل الهواء نعلمه ونتحققه ولا نراه، وهذا وجه عدم رؤيتنا لهم، ووجه رؤيتهم لنا كثافة أجسادنا، ووجه رؤية بعضهم بعضا أن الله ـ تعالى ـ قَوَّى شعاع أبصارهم

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٥٣).

(٢) انظر كتاب: تفسير سورة الأعراف للدكتور أحمد الكومي والدكتور محمد سيد طنطاوي، ص ٤٣، ٤٤.

(٣) سورة الصافات: الآيتان (٦٤، ٦٥).

جداً حتى يرى بعضهم بعضًا، ولو جعل فينا تلك القوة لرأيناهم ولكن لم يجعلها لنا»[١].

أما أن يروا على غير صورهم الحقيقة فهذا ثابت لا خلاف فيه، منها ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: إني محتاج، وعلَّي عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخلَّيتُ عنه، فأصبحت فقال النبي ﷺ: **يا أبا هريرة؛ ما فعل أسيرك البارحة؟** قال: فقلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة، وعيالاً فرحمته، فخليت سبيله، قال: **أما إنه كذبك وسيعود**، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ أنه سيعود. فرصدته فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال: دعني فإني محتاج وعليَّ عيال لا أعود، فرحمته فخلَّيتُ سبيله، فأصبحت، فقال لي النبي ﷺ: **يا أبا هريرة؛ ما فعل أسيرك؟** قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته، فخلَّيتُ سبيله. قال: **أما إنه كذلك وسيعود** فرصدته الثالثة فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته، فخلَّيتُ سبيله. قال: **أما إنه كذبك وسيعود** فرصدته الثالثة فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات إنك تزعم لا تعود ثم تعود، قال: دعني أعلِّمْك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هن؟ قال: إذا أوَيتَ إلى فراشك فأقرأ آية الكرسي: ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنك شيطان حتى تصبح، فخلَّيتُ سبيله

(١) انظر: تفسير الجمل (٢/ ١٣٣).

فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: **ما فعل أسيرك البارحة؟** قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلِّمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله. قال: **ما هي؟** قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فأقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرص شيء على الخير - فقال النبي ﷺ: **أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاثة ليالٍ يا أبا هريرة؟** قال: لا، قال: **ذاك شيطان**»[(١)].

فهذه القصة فيها دلالة واضحة على رؤية الشيطان بغير صورته الحقيقية وأن من أعظم الأذكار التي ينتصر به عليهم ويكتفي به أذاهم تلاوة آية الكرسي.

قال السيوطي: «أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: جاء إبليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني مدلج في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان: ﴿**لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ**﴾[(٢)] وأقبل إبليس وكانت يده في يد رجل من المشركين، فلما رأى جبريل انتزع يده، وولى مدبراً هو وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة إنك جار لنا؟ فقال: ﴿**إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ**﴾ وذلك حين رأى الملائكة ﴿**إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[(٣)].

فالأثر السابق عن ابن عباس فيه دلاله على تصور إبليس على غير صورته الحقيقية، وقد قرر غالب المفسرين نزول الآية في هذا الشأن[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، كتاب الوكالة (٥/ ٣٩٢-٣٩٥).

(٢) سورة الأنفال: الآية (٤٨).

(٣) الدر المنثور (١٠/ ٧٧، ٧٨).

(٤) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى: «كما روي أنه تصور في صورة شيخ نجدي لما اجتمعوا =

«وقد يتشكل في صورة حيوان: جمل أو حمار أو بقرة، أو كلب أو قط خاصة الكلاب السود، لذا أخبر رسول الله ﷺ أن مرور الكلب الأسود يقطع الصلاة وعلل ذلك بأن الكلب الأسود شيطان، يقول ابن تيمية: «الكلب الأسود شيطان الكلاب، والجن تتصور بصورته كثيراً، وكذلك بصورة القط الأسود؛ لأن السواد أجمع للقوى الشيطانية من غيره، وفيه قوة الحرارة»[1] وقد يتشكل علي صورة حية من حيات البيوت. وحدث أن قتل أحد الصحابة حية من حيات البيوت فكان في ذلك هلاكه.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي السائب أنه دخل على أبي سعيد الخدري في بيته. قال: فوجدته يصلي، فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته، فسمعت تحريكًا في عراجين من ناحية البيت، فالتفت فإذا حية، فوثبت لأقتلها، فأشار إليّ أن أجلس. فجلست، فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار فقال: أترى هذا البيت؟ فقلت: نعم، قال: كان فيه فتى منَّا حديث عهد بعرس، قال: فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله، فاستأذنه يومًا. فقال رسول الله ﷺ: «**خذ عليك سلاحك فإني أخشى عليك قريظة**» فأخذ الرجل سلاحه، ثم رجع فإذا أمرأته بين البابين قائمة، فأهوى إليها الرمح ليطعنها به، وأصابته غيرة فقالت: اكفف عليك رمحك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني، فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به،

= بدار الندوة هل يقتلون الرسول أو يحبسونه أو يخرجونه؟ كما قال تبارك وتعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣٠] الفتاوى لابن تيمية، (١٩/ ٤٥).

(١) انظر: الفتاوى لابن تيمية، (١٩/ ٥٢).

ثم خرج فركزه في الدار، فاضطربت عليه. فما يدري أيهما كان أسرع موتًا الحية أم الفتي؟ قال: فجئنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، وقلنا: ادع الله يحييه لنا، فقال: «**استغفروا لصاحبكم**» ثم قال: «**إن بالمدينة جنًا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئًا فآذنوه ثلاثة أيام، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه، فإنما هو شيطان**»[1].

وقوله تعالى: ﴿**إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون**﴾ وفي ختام الآية الكريمة بيَّن - تبارك وتعالى - أن الشياطين لا تتسلط على المؤمنين بإفساد عقائدهم وجرهم إلى الكفر؛ لأن الله حماهم بإيمانهم، وقد تتسلط على المؤمنين بنوع من الأذى في البدن، كما أشرت إليه في حديث مسلم[2] فأما الكافرون فإن الله قد جعل الشياطين لهم أولياء، عقوبة لهم على كفرهم، فهم لم يكفروا لاستصعاب إيمانهم على الله - عز وجل - بل الله هو الذي صرفهم إلى ما اختاروه بتسليط الشياطين عليهم فهو حكم من الله لا ينقض، ولذا أكَّده بـ(إن) و(نون العظمة)، وبكلمة (الجعل) التي تفيد الصيرورة وتوحي بلزوم ذلك واستمراره على الكافرين؛ لأن ما جعله الله لا ينقض إلا بالله - عز وجل -. وقوله تعالى: ﴿**أولياء**﴾ جمع ولي، وكل من ولي أمر واحد فهو وليه، فالشياطين يلُون أمر الكافرين ويتصرفون فيهم في معصية الله - سبحانه وتعالى - ويتصرفون فيهم كما يتصرف الولي في موليه. إذا أدركنا هذا وتحققنا منه فلنحذر من موالاة الكافرين فكثير من المسلمين يفتنون بآراء الكافرين، ويحاولون أن يفرضوها على أممهم، وهذا كله لعدم تدبرهم للقرآن وجهلهم به؛ إذ لو علموا هذا الحكم الإلهي

---

(١) صحيح مسلم بترتيب وتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (٤/ ١٧٥٦).

(٢) انظر: الصفحة السابقة.

المجعول على الكافرين ما اتخذوهم قدوة بحال من الأحوال في أمر من أمور الدنيا فضلاً عن أمور الآخرة. قال تعالى: ﴿ **لا يتَّخذ الْمُؤْمنُون الْكافرين أوْلياء من دُون الْمُؤْمنين ومن يفْعلْ ذلك فليْس من اللَّه في شيْء إلاَّ أن تتَّقُوا منْهُمْ تُقاة ويُحذرُكُمُ اللَّهُ نفْسهُ وإلى اللَّه الْمصيرُ** ﴾[1].

فقوله تعالى: ﴿ **لا يتَّخذ الْمُؤْمنُون الْكافرين أوْلياء من دُون الْمُؤْمنين** ﴾ يعني أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين فلا تؤثروهم عليهم.

﴿ **ومن يفْعلْ ذلك فليْس من اللَّه في شيْء** ﴾ أي: ومن يوال الكفرة فليس من ولاية الله في شيء؛ لأن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان.

﴿ **إلاَّ أن تتَّقُوا منْهُمْ** ﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم أمرًا يجب اتقاؤه، أي: إلا أن يكون للكافر عليك سلطان فتخافه على نفسك ومالك، فحينئذ يجوز لك إظهار الموالاة وإبطان المعاداة ﴿ **ويُحذرُكُمُ اللَّهُ نفْسهُ** ﴾ أي: ذاته فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه، وهذا وعيد شديد. ﴿ **وإلى اللَّه الْمصيرُ** ﴾ أي: مصيركم إليه، والعذاب معد لديه، وهو وعيد آخر[2].

ويقول ـ جل وعلا ـ: ﴿ **يا أيُّها الَّذين آمنُوا لا تتَّخذُوا الْكافرين أوْلياء من دُون الْمُؤْمنين أتُريدُون أن تجْعلُوا للَّه عليْكُمْ سُلْطانًا مُبينًا** ﴾[3] أي: أتريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة في تعذيبكم واستمرار غضبه عليكم لاتخاذكم الكافرين أولياء من دون المؤمنين؟ إن ذلك لا يرومه مؤمن.

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٢٨).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (١/ ١٥٢، ١٥٣).

(٣) سورة النساء: الآية (١٤٤).

وفي التحذير من موالاة اليهود والنصارى خاصة يقول تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾[١] أي: لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم، وتستنصرونهم، وتؤاخونهم، وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين، ثم علل النهي بقوله: ﴿ **بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ وكلهم أعداء المؤمنين وفيه دليل على أن الكفر ملة واحدة ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ﴾ أي: من جملتهم، وحكمه حكمهم، وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ لا يرشد الذين ظلموا أنفسهم بموالاة الكفرة[٢].

وهذا واقعنا المؤسف في هذه الأيام، لا نلتفت إلى هذه الآيات البينات وكأنها لم تنزل، ونلهث وراء الكافرين، نظن أن العلاقة بهم تكسب عزًا أو تحقق مجدًا، وما كان ذلك ليكون لو وقفنا على هذه الآيات والأحاديث المطهرة الزاجرة عن ذلك، ولكن السائد في زماننا هذا هو الافتتان بأحوال الكافرين، والتأثر بكل ما عندهم، فَهُنَّا على الله وهُنَّا على أنفسنا، وذهب ريحنا، وضاعت هيبتنا، وأصبح الكافرون منصورين علينا برعبنا منهم لاستقرار الوهن في قلوبنا الذي فَسَّره النبي ﷺ بحب الدنيا وكراهية الموت؛ فقد أخبر ـ عليه الصلاة والسلام ـ بتداعيهم علينا كتداعي الأكلة على قصعتها، أخرج أبو داود في سننه عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها** فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟! قال: **بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ الله من صدور عدوكم**

---

(١) سورة المائدة: الآية (٥١).

(٢) تفسير النسفي، (١/ ٢٨٧).

المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن. قال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: **حب الدنيا وكراهية الموت**»[١].

وقد أخبر الصادق الأمين، الذي لا ينطق عن الهوى، بأن أمته في آخر الزمان ستتبع مناهج الكفار، واليهود والنصارى بخاصة، لايحيدون عن هذه المناهج قيد أنملة، أخرج الشيخان في صحيحهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لتتبعنَّ سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم** قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»[٢].

وأختم هذا الموضوع بوعد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ الذي لا يخلف الميعاد بنصر كل من يكون في حزبه ـ جل وعلا ـ، وحزب رسوله والمؤمنين: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾[٣].

الحادي عشر: التعري ومفاسده ووسائل الشيطان إليه:

من خلال تفكري وتأملي لقصة آدم ـ عليه السلام ـ في هذه السورة الكريمة ودراستي لآياتها البينة لفت انتباهي تكرار لفظ (السوءة) ثلاث مرات خلال أقل من عشرة أسطر وفي غضون ست آيات، وذلك في قوله تعالى:

---

(١) سنن أبي داود، باب تداعي الأمم على الإسلام (٢/ ٤٢٦). وفي مسند أحمد بلفظ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها . . . الحديث» (بيروت، دار صادر، د.ت)، ٥/ ٢٧٨.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب الاعتصام (١٧/ ٦٣، ٦٤) وصحيح مسلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، تحقيق وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي، (٤/ ٢٠٥٤).

(٣) سورة المائدة: الآية (٥٦).

١ ـ ﴿ فدلاَّهُما بغُرُورٍ فلمَّا ذاقا الشَّجرةَ بدتْ لَهُما سوْءاتُهُما ﴾[١].

٢ ـ ﴿ يا بني آدمَ قدْ أنزلْنا عليْكُمْ لباساً يُواري سوْءاتكُمْ وريشاً ﴾[٢].

٣ ـ ﴿ يا بني آدمَ لا يفْتنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كما أخْرجَ أبَويْكُم مِنَ الْجنَّةِ ينزِعُ عنْهُما لباسهُما ليُريهُما سوْءاتهما إنَّهُ يراكُمْ هُو وقَبيلُهُ منْ حيْثُ لا ترَوْنَهُمْ ﴾[٣].

السوأة: قال ابن كثير: « السوأة في الأصل الفرج، ثم نقل إلى كل ما يُستحيا منه إذا ظهر، من قول وفعل»[٤].

ولا داعي للخوض في شرح الآيات الكريمة فقد سبق الكلام عنها بالتفصيل والذي أريد أن أنبه إليه، وألفت نظر القارئ الكريم نحوه هو حرص شريعتنا السمحة كل الحرص على ستر العورة؛ لأنه مزلق من مزالق الشيطان، بل يعد من أخطر مزالقه، ولا يخفى ما فيه شرع اللباس من تمييز للإنسان عن بقية الحيوان، قال تعالى: ﴿ ذلكَ منْ آياتِ اللَّه ﴾[٥].

﴿ ذلكَ ﴾ أي: إنزال اللباس.

﴿ منْ آياتِ اللَّه ﴾ أي: الذي حاز صفات الكمال الدالة على فضله ورحمته لعباده.

ولذا أمر الشرع الحنيف بوجوب ستر العورة، وحرم التكشف في جميع الأحوال، إلا ما دعت إليه الضرورة، التي بينها الفقهاء في كتب الفقه،

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٧).

(٤) لسان العرب (١/ ٩٨).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٢٦).

كالاستحمام عريانًا ـ مع خلاف فيه ـ وكشف العورة عند قضاء الحاجة، وكمعالجة العلة الحاصلة في العورة، إلى آخر ما ذكروه.

وكما أمر الله ـ جل وعلا ـ بستر العورة فقد حرم رسول الله ﷺ النظر إلى العورات، أخرج مسلم في صحيحه في باب تحريم النظر إلى العورات عن أبي سعيد الخدري عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد**»[1]، قال النووي: «فيه تحريم نظر الرجل إلى عورة الرجل، والمرأة إلى عورة المرأة، وهذا لا خلاف فيه، وكذلك نظر الرجل إلى عورة المرأة، والمرأة إلى عورةالرجل حرام بالإجماع . . .

والزوجان لكل واحد منهما النظر إلى عورة صاحبه جميعها، إلا الفرج نفسه ففيه ثلاثة أوجه لأصحابنا الشافعية: **أصحها** بأنه مكروه لكل واحد منهما النظر إلى فرج صاحبه من غير حاجة، وليس حرامًا.

والثاني: أنه حرام.

والثالث: أنه حرام على الرجل، مكروه للمرأة والنظر إلى باطن فرجها أشد كراهية وتحريمًا[2].

ولأجل الاحتياط في حفظ العورة من أن تُرى كان صلوات الله وسلامه عليه إذا اغتسل استتر، وإذا قضى حاجته استتر عن أعين الناس، وفي السنة المطهرة أحاديث كثيرة تدل على ذلك أذكر منها:

---

(١) صحيح مسلم (حديث رقم ٣٣٨) ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي (١/ ٢٦٦).

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (٤/ ٣٠) باب تحريم النظر إلى العورات.

أخرج البخاري بسنده عن أم هانيء بنت أبي طالب قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة تستره فقال: «**من هذه؟**» فقلت: أنا أم هانئ[١].

وأخرج مسلم[٢] في صحيحه عن عبد الله بن جعفر قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه، فأسرّ لي حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدف أو حائش نخل[٣] قال ابن أسماء في حديثه: يعني: حائط نخل.

ولما كان ستر العورة عند قضاء الحاجة بالثياب أمرًا غير ممكن فقد أرشدنا رسول الله ﷺ إلى ما يصون عوراتنا عن أعين الجن ونحن في الخلاء؛ أخرج الترمذي[٤] وابن ماجة[٥] عن علي - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ واللفظ لابن ماجة: «**ستر ما بين الجن وعورات بني آدم إذا دخل الكنيف أن يقول: بسم الله**».

وكما أمر الشرع بالتستر عند قضاء الحاجة، أمر بستر العورة عند الجماع، لئلا يبدو الإنسان في هذه الحالة بهيئة ذكور الحيوانات عندما تنزو على إناثها، أخرج ابن ماجة عن عتبة بن عبد السلمي قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أتى أحدكم**

---

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (١/ ٤٠٠) باب من اغتسل عريانًا وحده في خلوة ومن تستر فالتستر أفضل.

(٢) صحيح مسلم، تحقيق وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي (١/ ٢٦٩) باب ما يستتر به لقضاء الحاجة.

(٣) (هدف أو حائش نخل) الهدف: ما ارتفع من الأرض، وحائش نخل: بستان نخل.

(٤) سنن الترمذي (٢/ ٥٠٣، ٥٠٤) ط المكتبة الإسلامية.

(٥) سنن ابن ماجة، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٢هـ)، ١/ ١٠٩.

أهله فليستتر ولا يتجرد تجرد العيرين[١]»[٢].

ولا شك أن المحافظة على التستر والحياء من سمات التقوى، وفي ذلك الخير كل الخير؛ وكما قال تعالى: ﴿**ولباسُ التقوىٰ ذلك خيرٌ**﴾[٣].

وإن الشياطين وأعوانهم من الإنس والجن يعملون جاهدين دعاة إلى العري والفجور، ومما لا يختلف فيه اثنان، أن كل داعٍ للفجور والسفور هو في الحقيقة جندي من جنود إبليس؛ لأنه تلبس وتخلق بما كان عليه إبليس الذي وصفه الله بقوله ﴿**ينزعُ عنهما لباسهما ليُريهما سوءاتهما**﴾[٤] ومما هو معلوم أن أهم المبادئ التي تدعو إليها الصهيونية العالمية ـ كما أشير إلى ذلك في بروتكولات صهيون ـ الدعوة إلى العري والفجور بشتى الطرق، من خلال وسائل الإعلام العالمية المعروفة في زماننا الحاضر، وهذا ليس مستغربًا فقد ورثوا هذا من أجدادهم منذ القدم، وعرف تهاونهم في عوارتهم مما فتح عليهم أبواب الشر، وسهَّل عليهم الوقوع فيه، وتركوا لنسائهم الحبل على الغارب، فكان أول فتنتهم كما جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»[٥].

ويكفي أن نعلم أن الحياء والتستر والإمعان في المحافظة على العورات

---

(١) العيرين: تثنية عير وهو حمار الوحش.

(٢) سنن ابن ماجة (١/ ٦١٨، ٦١٩).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٧).

٥) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الرقاق (١٧/ ٥٥).

وحمايتها من أن تُرى من أخلاق الأنبياء[١] والصالحين.

أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «**كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض. وكان موسى يغتسل وحده**[٢] **فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر**[٣] **فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فجمح**[٤] **موسى في أثره يقول: ثوبي يا حجر، ثوبي يا حجر حتى نظرت بنو إسرائيل إلى موسى فقالوا: والله ما بموسى من بأس، وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضرباً.** فقال أبو هريرة: والله إنه لندب[٥] بالحجر ستة أو سبعة، ضربًا بالحجر»[٦].

الثاني عشر: في التحذير من فتن إبليس ومكايده:

لقد ميَّز الله ـ جل وعلا ـ الإنسان عن سائر مخلوقاته بالعقل وهو بمثابة المؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب، وإلى جانب ذلك ركب فيه الهوى والشهوة ليجتلب بذلك ما ينفعه، ووضع فيه الغضب ليدفع به ما يؤذيه. وبعث ـ جل وعلا ـ الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ دعاة وهداة إلى الحق فمن تبعهم فاز وسعد، وخلق الشيطان محرضًا على الباطل، ومحببًا فيه، فمن سلك

---

(١) سبق أن أشرت في حديثي عن التعري ومفاسده عن تحفظه وحرصه ﷺ على ستر عورته، وذكرتُ حديث أم هانيء، وحديث عبد الله بن جعفر فلا داعي لإعادته. انظر: ص (١٧٤) من بحثنا هذا.

(٢) هذا هو الشاهد في الحديث.

(٣) آدر: قال الجوهري الأدرة نفخة في الخصية، انظر فتح الباري (١/ ٤٠١).

(٤) جمح موسى: أي جرى مسرعًا.

(٥) ندب: أي أثر.

(٦) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، باب من اغتسل عريانًا وحده ومن تستر فالتستر أفضل (١/ ٤٠٠).

سبيله ضل ضلالاً بعيداً ـ والعياذ بالله ـ لذلك حذرنا منه ـ جل وعلا ـ في أكثر من موضع في كتابه الكريم:

قال تعالى: ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين (١٦٨) إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾[٢].

ولذلك فقد اقتضى البحث أن أذكر بعض الوسائل الشيطانية التي هي من طبائعه، والتي يسعى إبليس وأعوانه جاهدين في إضلال بني آدم بها، مستنبطًا تلك الوسائل من قصة آدم في القرآن عامة وفي سورة الأعراف موضوع بحثنا خاصة.

أ ـ الكبر والاغترار والإعجاب بالنفس:

اعلم أن الكبر أول معصية عُصي الله ـ تعالى ـ بها قال تعالى: ﴿ **قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين** ﴾[٣].

وقال في سورة البقرة: ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾[٤].

والكبر والعجب داءان مهلكان، والمتكبر والمعجب سقيم مريض، وهو عند الله ممقوت بغيض؛ والمتكبر والمعجب أن يرى الشخص نفسه أكبر من غيره

(١) سورة البقرة: الآيتان (١٦٨، ١٦٩).

(٢) سورة فاطر: الآية (٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٤) سورة البقرة: الآية (٣٤).

وإن كان أكبر في الواقع، والاستكبار طلب ذلك بالتشبع[١].

وأعظم من ذلك أن يتكبر على ربه، بأن يمتنع من قبول الحق والإذعان له بالتوحيد والطاعة، قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ**﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾[٣] أي: أذلاء[٤].

أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ قالا: قال رسول الله ﷺ: «**العزُّ إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته**»[٥].

قال الإمام النووي في شرحه: «هكذا هو في جميع النسخ، فالضمير في إزاره وردائه يعود إلى الله ـ تعالى ـ للعلم به، وفيه محذوف تقديره: قال الله ـ تعالى ـ ومعنى قوله: «ومن ينازعني ذلك أعذبه» معنى ينازعني: يتخلق بذلك فيصير في معنى المشارك. وهذا وعيد كبير في الكبر مصرح بتحريمه، وأما تسميته إزاراً ورداء فمجاز واستعارة حسنة، كما تقول العرب فلان شعاره الزهد ودثاره التقوى، لايريدون الثوب الذي هو شعار أو دثار بل معناه صفته.

ومعنى الاستعارة هنا: إن الإزار والرداء يلصقان بالإنسان ويلزمانه وهما جمال له، فضرب ذلك مثلاً لكون العز والكبرياء بالله ـ تعالى ـ أحق له وألزم

---

(١) الألوسي (١/ ٢٣١).

(٢) سورة النحل: الآية (٢٣).

(٣) سورة غافر: الآية (٦٠).

(٤) المفردات للراغب الأصفهاني، ص ١٦٦.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٧٣).

واقتضاهما جلاله[١].

والكبرُ والعُجب من أسوأ الأخلاق وأرداها بدليل أن إبليس لما اغتّر بنفسه بعدم السجود لآدم؛ لأنه في زعمه خير منه، وقع في الهلاك وسخط الله عليه، وكان سبب شقاوته وإهباطه إلى الأرض، قال تعالى: ﴿**فما يكُونُ لك أن تتكبَّر فيهَا فاخْرُجْ إنَّك من الصَّاغرين**﴾[٢] والشيطان حريص على إيقاع بني آدم فيما وقع فيه، ولذلك جاءت العقوبة على التخلق بهذه الصفة الذميمة بحرمان صاحبها من دخول الجنة، أخرج مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر**»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة، قال: **إن الله جميل يحب الجمال، والكبر بطر الحق وغمط الناس**»[٣] وأخرج أيضًا عن عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل النار أحد في قلبه حبة خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء**»[٤].

والغرور: أن تغتر بسلامة فعلك وقولك.

والاغترار: إعجاب المغتر بعمله وقوله، واعتقاده بأنه لا عمل أفضل من عمله، ولا قول أعلى من قوله، ولا اعتقاد أصح من اعتقاده. وعلى المؤمن العاقل أن يتجنب الغرور والاغترار معًا فإنهما داء مهلك، ومسلك وعر من مسلك الشيطان، يقود به الإنسان إلى المهالك والشرور، عصمنا الله منه إنه سميع مجيب.

---

(١) انظر: شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٧٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣).

(٣، ٤) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر (٢/ ٨٩).

ب ـ الحسد:

الحسد: هو تمني زوال النعمة عن صاحبها سواء كانت النعمة دينًا أو دُنيا وهو يؤدي إلى محذور عظيم، وهو من الكبائر لأنه منازعة في الربوبية وعدم رضا بما قسمه الله لعبده من خزائنه بعلمه وحكمته(١).

قال بعض السلف: أول خطيئة كانت هي الحسد؛ حسد إبليسُ آدم ـ عليه السلام ـ على رتبته فأبى أن يسجد له، فحمله الحسد على المعصية، وهو الذي حمل ابن آدم على قتل أخيه حين حسده على قبول قربانه، قال تعالى: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ** ﴾(٢) وهو من أوصاف اليهود والنصاري، فالواجب على كل مسلم أن يتجنبه لئلا يكون موصوفًا بأوصاف اليهود والنصارى؛ أشار إلى ذلك ـ تبارك وتعالى ـ بقوله: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ** ﴾(٣).

وقال ـ جلا وعلا ـ: ﴿ **وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً** ﴾(٤) وإبليس حريص على إيقاع الناس في الحسد؛ لأنه كان سببًا من أسباب خروجه وطرده من الجنة، وهو أحد سبل الشيطان التي يوقع فيها العداوة بين الناس، قال

---

(١) انظر: سراج القلوب وعلاج الذنوب، للشيخ أبي علي زين الدين علي المغيري على هامش قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ١٦٦).

(٢) سورة المائدة: الآيتان (٢٧، ٢٨).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٠٩).

(٤) سورة النساء: الآية (٨٩).

تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ ﴾[١] حسداً على ما تفضل الله به على آدم من كونه جعله مسجوداً له من الملائكة.

وقد أمرنا بالاستعاذة من أهله فقال تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾[٢] ويستفاد من الآية أن الحسد ليس مقصوراً على وقوعه من اثنين فصاعداً، بل الحسد مذموم ومنهي عنه ولو وقع من جانب واحد[٣].

وقد حذر منه رسول الله ﷺ بقوله: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا[٤] ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا[٥] ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا**»[٦].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**إياكم والحسد؛ فإن الحسد يأكد الحسنات كما تأكل النار الحطب**» أو قال: «**العشب**»[٧].

وعن الزبير ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين**»[٨].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣٤).

(٢) سورة الفلق: الآية (٥).

(٣) انظر: فتح الباري، شرح صحيح البخاري (١٣/ ٩١).

(٤) أي: لا تبحثوا عن عيوب الناس ولا تتبعوها.

(٥) أي: لا تتهاجروا فيهجر أحدكم أخاه؛ مأخوذ من تولية الرجل الآخر دبره إذا أعرض عنه حين رآه.

(٦) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (١٣/ ٩٢ ـ ٩٣ ـ ٩٤).

(٧) سنن أبي داود (٢/ ٥٧٤).

(٨) مسند الإمام أحمد بن حنبل (١/ ١٦٧).

وأخرج النسائي عن أبي هريرة في حديث طويل قال فيه: إن رسول الله ﷺ قال: «**ولا يجتمعان في قلب عبد: الإيمان والحسد**»(١).

جـ ـ الكذب والخداع:

الكذب: هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه، ويأثم المخبر إذا علم بذلك، ثم إن علم الضرر فيه كان من الكبائر.

قال تعالى: ﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**﴾(٢).

الوسوسة كما أسلفت سابقا(٣): الكلام الخفي المكرر ويفهم من هذا أن إبليس ـ أعاذنا الله منه ـ ظل يلح عليهما بوسوسته حتى وصل إلى مقصده، ولجأ إلى خديعتهما بأن قال لهما: ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا ملكين أو تصبحا من المخلدين في الجنة.

﴿**وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ**﴾(٤) أي: حلف بالله كذبًا على ذلك حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله. قال ابن عباس: «غرهما باليمين، وكان آدم يظن أنه لا يحلف أحد بالله كاذبًا، فغرهما بوسوسته وقسمه لهما»(٥). قال تعالى في معرض الذم به: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ**

---

(١) سنن النسائي، كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٦/ ١٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٠).

(٣) انظر: ص (١٤٨، ١٤٩) من بحثنا هذا.

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢١).

(٥) تفسير القرطبي (٧/ ١٨٠).

إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾[١] وهو مسلك خبيث وسبيل من سبل الشيطان، يضل به عباده، وقد ترجم البخاري له بابًا: باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[٢] وما ينهى عن الكذب، واستفتح الباب بالحديث الذي رواه عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذبًا**»[٣].

والكذب خصلة من خصال المنافقين الذين كشف لنا رسول الله ﷺ حقيقتهم وبيَّن صفاتهم؛ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[٤].

ولقد استغل إبليس هذا السلاح الخطير في تكذيب الأمم لرسلها وأنبيائها؛ قال تعالى عن قوم هود وتكذيبهم لرسولهم: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[٦].

وسيمر بك خلال دراستنا للصراع بين الحق والباطن في قصص هذه السورة،

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٢١).

(٢) سورة التوبة: الآية (١١٩).

(٣) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (١٣/ ١٢١، ٢٢١).

(٤) صحيح البخاري، وعلى هامشه فتح الباري (١٣/ ٢٢١).

(٥) سورة المؤمنون: الآية (٣٨).

(٦) سورة المؤمنون: الآية (٤٤).

ما يُجلِّي لك خطورة الكذب، ويبيِّن أنه من أفتك الأسلحة التي يستعملها الشيطان في إضلال بني آدم وتجهيلهم بالله ـ عز وجل ـ وحملهم على الكفر والباطل مع ظهور بطلانهما، وصرفهم عن الحق والإيمان مع وضوح أدلتهما.

د ـ الإغراء بالشهوات:

وهو من أنجح الوسائل وأضمنها لإغواء بني آدم، وقد نجح فعلاً في إغواء آدم وزوجه في تزيين الأكل من الشجرة، قال تعالى: ﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**﴾[(١)].

فقوله: ﴿**إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ**﴾ تحبيب إبليس إلى آدم وحواء الأكل من الشجرة التي نهيا عن الأكل منها، مغويًا إياهما بأن الأكل منها ينقلهما من صفة البشرية إلى الملائكية، وكان آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ بتواضعهما يعتقدان أن الملائكة أفضل منهما، لاشتغالهم الدائم بالتسبيح والتحميد، وعدم الحاجة إلى الطعام والشراب اللذين يلهيانهما عن طاعة الله ـ عز وجل ـ ونسي آدم أنه مسجود الملائكة؛ فهو دليل على فضله على الملائكة، لكنهما أتيا من قبيل النسيان، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾[(٢)].

فقوله: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ**﴾ أي: أوحينا إليه أن لا يأكل من الشجرة . . . والمعني: أقسم قسمًا لقد أمرنا أباهم آدم ووصيناه أن لا يقرب من الشجرة، وقوله: ﴿**مِن قَبْلُ**﴾ أي: من قبل وجودهم، فخالف إلى ما نهي عنه[(٣)].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٠).

(٢) سورة طه: الآية (١١٥).

(٣) انظر: تفسير النسفي، (٣/ ٦٧).

﴿ فَنَسِيَ ﴾ العهد أي: النهي.

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فنسي»[١].

﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ أي: قصدًا إلى الخلاف، أو: لم يكن آدم من أولى العزم[٢] وقوله: ﴿ وَ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ أي: أن يصير من الخالدين، قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴾[٣] أي: هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها لا يصيبك الفناء أبدًا وتؤتى ملكًا لا يبلى ولا يفنى؟

وقد علم إبليس أن الشهوات تخرج من الجنة، وتورد فاعلها النار، وقد حرّم الله عليه الجنة بإيثاره كبره، واعتقاده أفضليته على آدم، وجعل مصيره النار خالدًا فيها أبدًا، فهو يسعى لاستنزال بني آدم عن النعمة بما استنزل به نفسه عنها، ومعروف أن طريق الجنة محفوف بما تكره النفوس عمله إلا على الخاشعين، وطريق النار محفوف بما تحب النفوس عمله من المحرمات والشهوات إلا من حماه الله من المؤمنين.

أخرج الترمذي في سننه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال: انظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها، فقال: فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، قال: فرجع إليه قال: فوعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر**

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، (٣/ ١٦٧).

(٢) تفسير النسفي، (٣/ ٦٧).

(٣) سورة طه: الآية (١٢٠).

بها فحفت بالمكاره فقال: ارجع إليها فانظر إلى ما أعددتُ لأهلها فيها، قال: فرجع إليها، فإذا هي قد حفت بالمكاره، فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد. قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضُها بعضاً، فرجع إليه فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها. فأمر بها فحفت بالشهوات فقال: ارجع إليها، فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها»[1] [حديث حسن صحيح].

ولا شك أن إبليس هدفه في هذه الحياة هو إضلال بني آدم، وقد أقسم بذلك بين يدي خالقه: ﴿**قال فبعزتك لأُغوينهم أجمعين (٨٢) إلاَّ عبادك منهم المخلصين (٨٣) قال فالحقُ والحقَ أقولُ (٨٤) لأملأنَّ جهنَّم منك وممَّن تبعك منهم أجمعين**﴾[2] وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿**قال ربِّ بما أغويتني لأُزيننَّ لهم في الأرض ولأُغوينهم أجمعين (٣٩) إلاَّ عبادك منهم المخلصين**﴾[3].

فقوله: ﴿**لأُزيننَّ لهم**﴾ أي: المحرمات، وأجعلها في عينهم من المشتهيات المرغوبات، وهذا ما أشار إليه الحديث السابق بأن النار حفت بالشهوات.

هـ ـ الغرور:

الغرور: هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان[4].

---

(١) سنن الترمذي (٤/ ٦٩٣، ٦٩٤).

(٢) سورة ص: الآيات من (٨٢) إلى (٨٥).

(٣) سورة الحجر: (٣٩، ٤٠).

(٤) إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالي (٣/ ٣٦٨).

قال تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾[١].

قال صاحب الفتوحات الإلهية: «التدلية والإدلاء إرسال الشيء من الأعلى إلى أسفل، ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ يعني خدعهما بغرور، يقال: ما زال فلان يدلي فلانًا بغرور، يعني: ما زال يخدعه ويكلمه برخرف من القول الباطل . . .

والغرور: إظهار النصح مع إبطان الغش.

ومعنى الآية: إن إبليس ـ لعنه الله ـ غر آدم باليمين الكاذبة، وكان آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يظن أن أحدًا لا يحلف بالله كاذبًا، وإبليس أول من حلف بالله كاذبًا، فلما حلف إبليس ظن آدم أنه صادق فاغتّر به[٢] ا. هـ.

وقال تعالى في بيان مآل المغترين وما حل بهم من الحرمان والشقاء: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[٣].

فإبليس وأعوانه يسلكون هذا المسلك الدنيء وهو إيقاع الناس في الغرور كما أوقع أبويهم آدم وحواء من قبل حتى يوصلهم إلى الهلاك، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٤] أعاذنا الله منه إنه سميع مجيب.

و ـ الجرأة على المعصية:

ومن مكائد الشيطان التي يكيد بها بني آدم حَثُّهم وتجريئهم على ارتكاب

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٢).
(٢) تفسير الجمل (٢/ ١٣٠).
(٣) سورة الأعراف: الآيتان (٥٠، ٥١).
(٤) سورة النساء: الآية (١٢٠).

المعاصي، وتزيينها في أعينهم، وتهوين أمر ارتكابها، قال تعالى: ﴿ ... **مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** ﴾[٤] وكان إبليس يعلم تمامًا عاقبة عصيان أمر الله ومخالفة أوامره؛ لأنه وقع في ذلك عند مخالفته أمر الله وامتناعه عن السجود لآدم، قال تعالى: ﴿ **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ﴾[٢] فكان مآله الطرد وإخراجه من الجنة، قال تعالى: ﴿ **قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾[٣] وأراد أن يوقع آدم وزوجه في مثل ما وقع فيه من المعصية، وقد أخذ على نفسه العهد بإغواء بني آدم، ولا شك أن تجريئه على المعاصي سبيله إلى إغوائهم وصرفهم عن صراط الله المستقيم.

قال تعالى: ﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾[٤].

وهذا المسلك الذي يسلكه الشيطان هو العنصر الأساسي في صراعه لبني آدم، وذلك بحثهم على ارتكاب المخالفات المنهي عنها التي جاءت على لسان الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وله في وصوله إلى مبتغاه العديد من الوسائل:

أولاً: إضعاف الخشية في القلوب.

ثانيًا: تغليب الرجاء على الخوف، والتعلق بآيات الرحمة ونسيان آيات العذاب.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٣).

(٤) سورة الأعراف: الآيتان (١٦)، (١٧).

ثالثًا : الحصول عن طريق المعصية على ما تحبه النفوس وتستريح إليه .

رابعًا : تثقيلهم عن الطاعات[١] .

والفرق بين معصية آدم ومعصية بنيه أن آدم ـ عليه السلام ـ عندما استجاب لتغرير الشيطان لم يدر بخلده أنه سيعصي الله ـ تعالى ـ لأن الشيطان قد أغواه بالأكل من الشجرة معللاً له ذلك بما ذكرته أكثر من مرة، وكان آدم يظن أنه لا أحد يقسم بالله كاذبًا، أما بنوه فقد كشف الله لهم بالشرائع السماوية وبالرسل عامة ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أنه لا خير في المعصية البتة، كما أنه تعالى جعل مصير العصاة إلى النار وذكر ذلك كثيرًا في كتبه المنزلة، فكان المتبادر إلى الذهن أن يعي بنو آدم هذا الدرس، وأن يعلموا ما جرّته المعصية على أبويهم وعليهم من هبوطهم إلى دار التكليف وتعرضهم لأسوأ المصير إن هم عصوا الله ـ عز وجل ـ، ولكن قلّ من يعي هذا الدرس من الآدميين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ز ـ طول الأمل :

طول الأمل : وهو الحرص على بلوغ ما تشتهيه النفس وتميل إليه مهما كان نعته .

قال تعالى : ﴿ **فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** ﴾[٢] .

---

(١) وهذه الوسائل تحتاج إلى البسط ؛ تركته تجنبًا للإطالة .

(٢) سورة الأعراف : الآية (٢٠) .

ولقد استطاع إبليس أن يزين لآدم ـ عليه السلام ـ الأكل من الشجرة، تحت تأثير غريزتين تشتهيهما النفس وتميل إليهما، وهما متأصلتان في فطرة الإنسان:

الغريزة الأولى:

غريزة الملك أو التملك، ولقد استطاع إبليس أن يحرك تلك الغريزة وينبهها في نفس آدم لأول مرة وهو يقول له: ﴿**هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ**﴾[١] وقد أكل آدم ـ عليه السلام ـ من الشجرة استجابة لداعي تلك القوة الغريزية.

الغريزة الثانية:

غريزة حب الخلود، وهي التي أشار إليها ـ جل وعلا ـ في قوله: ﴿**مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿**هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ**﴾[٣].

فإبليس استغل هاتين الغريزتين حتى يصل إلى إغوائه لآدم وبنيه، مستغلاً في نفس الوقت دافع طول الأمل، وهو مسلك طالما يستخدمه الشيطان ويلعب به بقلوب بني آدم حتى يوقعهم فيما لا تُحمد عقباه.

ولهذه الوسيلة مسالك يسلكها الشيطان:

١ ـ نسيان الموت.

٢ ـ تزيين الشهوات وتحبيبها إلى النفس.

---

(١) سورة طه: الآية (١٢٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٠).

(٣) سورة طه: الآية (١٢٠).

٣ ـ اتخاذ الدنيا وسيلة لا غاية[١].

والآمال ليست كلها في جانب الشر؛ فإن هناك الآمال الطيبة التي يدعو ويحض عليها الإسلام والتي لو اختمرت في قلب الإنسان لكانت سببًا لرفعته، وهذه الآمال لا توجد إلا في قلة من قلوب الخلق.

ح ـ الإيمان والكفر:

الإيمان لغةً: التصديق، وشرعًا: تصديق الرسول فيما جاء به عن ربه[٢] وهو من أجلِّ نعم الله على الإنسانية، وسلبه من أعظم المصائب بل ليس تفوقها بلية.

الكفر: وهو ضد الإيمان، قال تعالى: ﴿**وإذْ قُلْنا للملائكة اسْجُدُوا لآدم فسجدُوا إلاَّ إبْليس أبىٰ واستكْبر وكان من الكافرين**﴾[٣].

وسورة الأعراف تصور لنا مدى ما وصل إليه إبليس من الكفر، قال تعالى: ﴿**ولقدْ خلقْناكُم ثُمَّ صوَّرْناكُم ثُمَّ قُلْنا للْملائكة اسْجُدُوا لآدم فسجدُوا إلاَّ إبْليس لم يكُن مِّنَ السَّاجدين**﴾ فامتناعه عن السجود كفر بالله، واعتراضه بقوله: ﴿**أنا خيرٌ مِّنْهُ خلقْتني من نَّارٍ وخلقْتهُ من طينٍ**﴾ كفر وجحود، وتحديه أيضًا بقوله: ﴿**قال فبما أغْويْتني لأقْعُدنَّ لهُمْ صراطك الْمُسْتقيم**﴾ كفر صريح؛ لأن إغواء الناس وصدهم عن الصراط المستقيم وتزيين الفواحش في أعينهم هو عين الكفر، والكفر جحود للخالق المنعم الرازق، قال تعالى: ﴿**ومن يشْكُرْ فإنَّما يشْكُرُ لنفْسه ومن كفر فإنَّ اللَّه غنيٌّ حميدٌ**﴾[٤].

---

(١) تركت الشرح خوف الإطالة.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ٥١).

(٣) سورة البقرة: الآية (٣٤).

(٤) سورة لقمان: الآية (١٢).

ومن شأنه الغريب أنه يدعو الإنسان للكفر ويحثه عليه، ثم يتبرأ منه، قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾[١].

والكفر عقابه الخلود في النار: ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾[٣].

ولقد استغل إبليس هذا الجانب الاعتقادي كسلاح هدد به الكثير من الأمم السابقة واللاحقة في تكذيبهم لأنبيائهم وكفرهم بما جاءوا به من عند الله . . .

والإنسان ما دام في هذه الحياة فهو في صراع مع الشيطان الذي يزين له الكفر بشتى المغريات، وقد اجتهد إبليس في إيقاع أكثر بني آدم في الكفر كما هو مشاهد، وحكاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ في أكثر من آية حيث يقول: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[٤].

ويخاطب ـ جل وعلا ـ حبيبه ﷺ مسليًا ومخففًا عن قلبه شدة الهم والغم لإصرار أغلب الناس على الكفر مع ظهور بطلانه، وإعراضهم عن الإيمان مع لوائح أدلته: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[٥].

---

(١) سورة الحشر: الآية (١٦).

(٢) سورة الحشر: الآية (١٧).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٤٠).

(٤) سورة الأنعام: الآية (١١٦).

(٥) سورة يوسف: الآية (١٠٣).

وللشيطان في إيقاع الناس في الكفر وسائل تختلف باختلاف الكافرين، فوسائله مع اليهود والنصارى والمنافقين غير وسائله مع المجوس والصابئة والمشركين وما انبثق عن أولاء من نحلٍ وملل؛ بعضها يحتفظ باسمه القديم والبعض الآخر يتسمى بأسماء حديثة؛ ليعمى على الناس أمره كالشيوعية وما ينجر إليها، ولست بصدد تفصيل ذلك كله؛ لأن الكلام عنه موضوع برأسه، وإنما أردت أن أبيِّن أن أهم وسيلة للصراع بين الحق والباطل يسلكها الشيطان تطبيقًا لما توعد به بني آدم هو قوله بين يدي ربه: ﴿**قال ربِّ بما أغويتني لأُزيِّنَنَّ لهم في الأرض ولأُغوينَّهم أجمعين (٣٩) إلاَّ عبادك منهم المُخلصين**﴾[١].

بل إنه ـ لعنه الله ـ ليحاول سلوك هذا المسلك مع المؤمن في أحرج ظروفه وأحلك أوقاته، في ساعة الموت التي يرى فيها الإنسان أيًا كان مؤمنًا أو كافرًا ما لا عهد له به.

الثالث عشر: براءة آدم عليه السلام من الشرك:

﴿**هُوَ الَّذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ واحدةٍ وجعل منها زوْجها ليسْكُن إليْها فلمَّا تغشَّاها حملَتْ حمْلاً خفيفًا فمرَّتْ به فلمَّا أثْقلت دَّعوا اللَّه ربَّهُما لئنْ آتيْتنا صالحًا لَّنكُونَنَّ من الشَّاكرين (١٨٩) فلمَّا آتاهُما صالحًا جعلا لهُ شُركاء فيما آتاهُما فتعالى اللَّهُ عمَّا يُشْركُون**﴾[٢].

وفي ختام السورة الكريمة عاودت الآيات الحديث عن آدم ـ عليه السلام ـ وهو في الأمر نفسه تقريع لأهل الشرك لزجرهم عن شركهم، وتنزيه لآدم ـ عليه السلام ـ مما نسب إليه.

---

(١) سورة الحجر: الآيتان (٣٩، ٤٠).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (١٨٩، ١٩٠).

فقوله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ هي نفس آدم ـ عليه السلام ـ وقوله: ﴿ **وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾[1] أي: حواء، خلقها الله من ضلع آدم الأيسر من غير أذى ﴿ **لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ﴾ أي: ليطمئن ويميل لأن الجنس إلى الجنس أميل خصوصًا إذا كان بعضًا منه؛ كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه، وذكر ﴿ **لِيَسْكُنَ** ﴾ بعدما أنث في قوله: ﴿ **وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ ذهابًا إلى معنى النفس ليُبَيِّن أن المراد بها آدم ﴿ **فَلَمَّا تَغَشَّاهَا** ﴾ أي: جامعها ﴿ **حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا** ﴾ خفَّ عليها حمله ولم تلق منه ما يلقي الحبالى من حملهن من الكرب والأذى، ولم تستثقله كما يستثقلونه ﴿ **فَمَرَّتْ بِهِ** ﴾ أي: استمرت به فقامت وقعدت، ولم يعجزها حملها عن قضاء أغراضها.

﴿ **فَلَمَّا أَثْقَلَت** ﴾ أي: أثقلها حملها بأن كبر الجنين في بطنها، ووجدت له حركة وحياة، فحينئذ خشي آدم وحواء أن يولد غير سوى بنقص بعض أعضائه، أو أن يولد على شكل غير الآدمي من الحيوانات؛ ولذا توجها إلى ربهما داعين قائلين ما قصه القرآن: ﴿ **دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا** ﴾ دعا آدم وحواء ربهما، ومالك أمرهما الذي هو الحقيق بأن يدعى ويلتجأ إليه، فقالا: ﴿ **لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا** ﴾ أي لئن وهبت لنا ولدًا سويًا قد صلح بدنه أو ولدًا ذكرًا لأن الذكورة من الصلاح ﴿ **لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾ لك، والضمير في آتيتنا ولنكونن لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما.

﴿ **فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا** ﴾ أعطاهما ما طلباه من الولد الصالح السوي ﴿ **جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ** ﴾ أي: آدم وحواء وأولادهما من بعدهما ﴿ **فِيمَا آتَاهُمَا** ﴾ أي: فيما أتى

---

(١) قد أفردت الكلام عن حواء ـ عليها السلام ـ بمبحث خاص ضمن البحوث التي قدمتها، انظر: ص (٩٠).

أولادهما ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي: فتنزه الله وتقدس وتعالى عما أشركه أولادهما به بعدهما.

ومعنى إشراكهم فيما آتاهما الله: تسميتهم أولادهما بعبد العُزى وعبد مناف وعبد شمس، ونحو ذلك مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم[1]. إن الناظر في ظاهر قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ يظن أن ذلك من فعل آدم وحواء، وأنهما خالفا ما وُعدا به في قوله ـ تعالى ـ على لسانهما: ﴿ لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ وقد مال إلى هذا الظاهر كثير من السلف لأنه مروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وقد روي مرة مرفوعًا إلى النبي ﷺ ومرة موقوفًا عن ابن عباس وسمرة بن جندب كما سيأتي. وهذه الآية مشكلة عند المفسرين، جالت فيها عقولهم وأقلامهم، وقوي فيها دفاعهم؛ لأن نسبة الشرك لآدم وحواء أمر مستبعد؛ ولذا ضعّف بعض المفسرين كابن كثير هذا الرأي ولم يصل إليه، وقدّر مضافًا حل به هذا الإشكال.

فقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا ﴾ أي: آتى أولادهما.

وقوله تعالى: ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ ﴾ أي: جعل أولادهما لله شركاء فيما آتاهما. وإن ما ذهب إليه هو تأويل الإمام الحسن البصري ـ رحمه الله ـ وهو أحد رواة الحديث الذي وعدت بذكره.

وإذا قال الراوي بخلاف روايته فالعبرة بقوله لا بروايته[2] وتكون روايته هذه من باب العلم الذي يريد أن يلقي عن نفسه عهدته، أي: لأنه تلقاه وإن لم يقتنع به.

---

(١) باختصار وبتصرف من تفسير النسفي (٢/ ٨٩، ٩٠).

(٢) انظر: تيسير التحرير على كتاب التحرير لأمير بادشاه (٣/ ٧١ ـ ٧٤) وإرشاد الفحول للشوكاني ص (٥٦، ٥٧).

وقال ابن كثير ما ملخصه: «لعل هذه المرويات التي تجعل الكلام على ظاهره من مرويات أهل الكتاب الكاذبة التي لا يصح الأخذ بها، أو أنها من النوع المتوقف فيه الذي لا يقطع بصدقه ولا بكذبه»[١]. غير أن ابن كثير ـ رحمه الله ـ راوي هذا الحديث روى هذا الحديث عن الإمام أحمد كما سترى وذكر أن الترمذي رواه وقال: حسن غريب، كما ذكر أن الحاكم قال في هذا الحديث: هو صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ثم إن ابن كثير ـ رحمه الله ـ لم يقطع بضعف هذا الحديث بل ضُعْفُه عنده احتمالي، وبهذا الظاهر أخذ تلاميذ ابن عباس كعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ومن بعدهم ابن أبي حاتم في تفسيره.

وإليك الأحاديث كما ذكرها ابن كثير: قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال: «**لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسموه عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره**»[٢] وهكذا رواه بنحوه ابن جرير والطبري عن محمد بن بشار بندار[٣] عن عبد الصمد بن عبد الوارث به[٤] ورواه الترمذي في تفسيره هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن براهيم[٥] ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه، ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعًا، ثم قال:

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٤).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٥/ ١١).

(٣) بندار: في الأصل من في يده القانون، وهو في الأصل ديوان الخراج، وإنما قيل بندار لأنه كان بندارًا في الحديث.

(٤) تفسير الطبري (٩/ ١٤٦).

(٥) سنن الترمذي (٥/ ٢٦٧)

هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي[١] ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن أبي زرعة الرازي عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعًا[٢] . . . . . [٣].

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿ **فلمَّا آتاهُما صالحًا جعلا لهُ شُركاء فيما آتاهُما** ﴾.

قال الله: ﴿ **هُو الَّذي خلقكُم مَن نَفْس واحدة وجعل منها زوجها ليسكُن إليها فَلَمَّا تغشَّاها** ﴾ آدم، حملت، فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعنني أو لأجلعن له قرني أيِّل[٤] فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن - يخوفهما -؛ سمِّياه عبد الحارث فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتًا، ثم حملت، يعني: الثانية، فأتاهما أيضًا فقال: أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت، لتفعلن أو لأفعلن ولأفعلن - يخوفهما -؛ فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتًا، ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضًا فذكر لهما، فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله: ﴿ **جعلا لهُ شُركاء فيما آتاهُما** ﴾[٥] والذي يهمنا الآن تأويل هذه الآية على فرض أن الضمائر لآدم وحواء بما يتلاءم مع مكانتهما.

وقد تولى الفخر الرازي في تفسيره الجواب عن ذلك وإن كان لا يميل إليه بل

---

(١) المستدرك للحاكم (٢/ ٥٤٥).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم بتحقيق الشيخ د. حمد بن أبي بكر (٢/ ٧٢٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٤).

(٤) (الأيِّل)؛ بفتح الهمزة وكسر الياء مشددة - ذكر الأوعال، والوعل: تيس الجبل.

(٥) انظر: كتاب تفسير السورة التي يذكر فيها الأعراف لابن أبي حاتم، رسالة ماجستير مقدمة من الأخ الزميل/ د. حمد بن أحمد بن أبي بكر. وقد حكم على سند الحديث بالصحة، وقال: =

يميل كغالب المفسرين الذي ينظرون في المأثور فلا يأخذونه على إطلاقه بل يجيزون منه ما لا يتصادم مع معلوم من الدين بالضرورة، وما لا يؤدي إلى خدش عصمة نبي، وما يدرأ وقوع الشبهة ممن يستبعد منه وقوعها.

قال الفخر الرازي: «أن نسلم أن هذه الآية وردت في شرح قصة آدم ـ عليه السلام ـ وعلى هذا التقدير ففي دفع هذا الإشكال وجوه:

أولاً: أن المشركين كانوا يقولون: إن آدم ـ عليه السلام ـ كان يعبد الأصنام، ويرجع في طلب الخير ودفع الشر إليها؛ فذكر تعالى قصة آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ وحكى عنهما أنهما قالا: ﴿**لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ أي: ذكر أنه تعالى لو آتاهما ولدًا سويًا صالحًا لاشتغلوا بشكر تلك النعمة، ثم قال: ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ**﴾ فقوله: ﴿**جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ**﴾ ورد بمعنى الاستفهام على سبيل الإنكار والتبعيد، والتقدير: فلما آتاهما صالحًا أجعلا له شركاء فيما آتاهما؟

ثم قال: ﴿**فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ أي: تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون بالشرك وينسبونه إلى آدم ـ عليه السلام ـ ونظيره أن ينعم رجل إلى رجل بوجوه كثيرة من الإنعام، ثم يقال لذلك المنعم: إن ذلك المنعَم عليه يقصد ذمك وإيصال الشر إليك، فيقول ذلك المنعم: فعلت في حق فلان كذا، وأحسنت إليه بكذا وكذا، وأحسنت إليه بكذا وكذا، ثم إنه يقابلني بالشر والإساءة والبغي؟ على التبعيد. فكذلك هنا.

ثانيًا: في الجواب أن نقول: إن هذه القصة من أولها إلى آخرها في حق آدم وحواء ولا إشكال في شيء من ألفاظها إلى قوله: ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾ فنقول: التقدير: فلما آتاهما ولدًا صالحًا سويًا جعلا له

= صحيح الإسناد، انظر (٢/ ٧٣٥) وذلك بعد دراسته لرجال الإسناد.

شركاء أي جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. وكذا فيما آتاهما، أي: فيما آتى أولادهما، ونظيره قوله: ﴿ **واسأل القرية** ﴾ أي: واسأل أهل القرية.

فإن قيل: فعلى هذا التأويل ما الفائدة في التثنية في قوله: ﴿ **جعلا له شُرَكَاءَ** ﴾؟ قلنا: لأن أولادهم قسمان ذكر وأنثى فقوله: ﴿ **جعلا** ﴾ المراد منه الذكر والأنثى؛ مرة عبَّر عنهما بلفظ التثنية لكونهما صنفين ونوعين، ومرة عبَّر عنهما بلفظ الجمع وهو قوله تعالى: ﴿ **فتعالى اللَّهُ عمَّا يُشْرِكُون** ﴾.

ثالثًا: في الجواب سلمنا أن الضمير في قوله: ﴿ **جعلا له شُركاء فيما آتاهُما** ﴾ عائد إلى آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ إلا أنه قيل: إنه تعالى لما آتاهما الولد الصالح عزمًا على أن يجعلاه وقفًا على خدمة الله وطاعته وعبوديته على الإطلاق ثم بدا لهما في ذلك، فتارة كانوا ينتفعون به في مصالح الدنيا ومنافعهما، وتارة كانوا يأمرونه بخدمة الله وطاعته، وهذا العمل وإن كان منهما قربة وطاعة إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فلهذا قال تعالى: ﴿ **فتعالى اللَّهُ عمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ والمراد من هذه الآية ما نقل عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال فيما يرويه عن ربه ـ جل وعلا ـ: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[1] وعلى هذا التقدير فالإشكال زائل.

رابعًا: في التأويل أن نقول: سلمنا صحة تلك القصة المذكورة إلا أنَّا نقول: إنهم سموا بعبد الحارث لأجل أنهم اعتقدوا أنه إنما سلم من الآفة والمرض بسبب

---

(١) صحيح مسلم، باب من أشرك في عمله غير الله (٤/ ٢٢٨٩) تصحيح وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي.

دعاء ذلك الشخص المسمى بالحرث، وقد يسمى المنعَم عليه عبدًا للمنعم؛ يقال في المثل: أنا عبد من تعلمت منه حرفًا. ورأيت بعض الأفاضل كتب على عنوان كتابه: عبد وده فلان. فآدم وحواء ـ عليهما السلام ـ سميا ذلك الولد بعبد الحارث تنبيهًا على أنه إنما سلم من الآفات ببركة دعائه، وهذا لا يقدح في كونه عبد الله من جهة أنه مملوكه ومخلوقه»[1].

وأضيف: إن آدم وحواء على فرض صحة أو قبول الحديث الذي تحمل الآية بمقتضاه عليهما لم يعلما أن الناصح لهما هو إبليس ـ لعنه الله ـ ومما يقوي ذلك عندي استبعاد مطاوعة آدم وحواء لإبليس فيما يشير به عليهما بعدما تسبب في إخراجهما من الجنة وإيقاعهما في المعصية وإهباطهما إلى الأرض حيث التكليف الشاق، وغلبة الشهوات والأهواء على بنيهما من بعدهما. أضف إلى ذلك معاناتهما في كسب حاجاتهما المعيشية بكدٍ ومشقةٍ، ولعلهما تصورا أن الناصح لهما ملك كريم.

كما أنهما لم يدر بخلدهما أن الله سيعاتبهما على تسمية ولدهما بعبد الحارث، ولو مرَّ بقلوبهما هذا الخاطر ما أقدما على تلك التسمية بحال، وإنما أراد الله ذلك ليعلم الإنسان ضعفه باستمرار، وليشدد الحراسة على نفسه من عدوه المبين إبليس اللعين؛ فإنه كثير ما يلبس ثوب الناصح المجتهد في النصيحة ليقود الإنسان بذلك إلى مزالق خفية، ولا يفطن لضررها وخطرها إلا بعد الوقوع فيها.

وبهذا نبرِّيء السلف الصالح من رواية ما لا يصح، ونبريء أئمة التفسير الذين قالوا بهذا الرأي من الزلل أو القول بما يخدش عصمة آدم ـ عليه السلام ـ فضلاً عما يخدش عصمة سائر الأنبياء، ولا يبعد عندي أن تكون هذه الحادثة قد

(١) تفسير الرازي، (١٥/ ٨٨).

وقعت قبل نبوة آدم ـ عليه السلام ـ.

وقد قص القرآن وقوع بعض الزلات من بعض الأنبياء قبل النبوة، كقوله تعالى في قتل موسى للمصري الذي اقتتل مع أحد بني إسرائيل: ﴿ **ولَمَّا بلغ أشُدَّهُ واسْتَوىٰ آتَيْناهُ حُكْماً وعِلْماً وكَذلك نجْزي الْمُحْسنين (١٤) ودخل الْمدينة علىٰ حين غَفْلَة مِنْ أهْلها فوجد فيها رجُلَيْن يقْتتلان هذا من شيعته وهذا من عدُوِّه فاسْتغاثه الَّذي من شيعته علَى الَّذي من عدُوِّه فوكزهُ مُوسىٰ فقضىٰ عليْه قال هذا من عمل الشَّيْطَان إنَّهُ عدُوٌّ مُضلٌّ مُبينٌ (١٥) قال ربِّ إنِّي ظلَمْتُ نفْسي فاغْفرْ لي فغفر لهُ إنَّهُ هُو الْغفُورُ الرَّحيمُ** ﴾[1].

فلا يبعد أن يكون عمل آدم وحواء قد حصل قبل النبوة من قبيل ما حصل من موسى ـ عليه السلام ـ كما ذكر في هاتين الآيتين السالفتين، ولا أريد أن أخوض في موضوع عصمة الأنبياء قبل النبوة وما فيه من آراء لأن ذلك يبعدني عن موضوعي الذي أعالجه.

كما أني لا أنكر تأويل الجمهور لهاتين الآيتين وما يشكلهما، وإنما استأنست بما ذكر فيهما للدفاع عما وقع من آدم وحواء عند مَن روَوا الحديث السابق وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا آتاهُما صالحاً جعلا لهُ شُركاءَ فيما آتاهُما** ﴾.

وإن كان يعجبني تأويل الفخر لهاتين الآيتين، وصرف الضمائر فيهما عن آدم وحواء، وهو مسلك أغلب المفسرين الذين لا يعوِّلون كثيراً على المأثور كالبيضاوي والنسفي والزمخشري وأبي السعود والألوسي، والقفال والجمل وكثيرين ممن شرفهم الله ـ تعالى ـ بتفسير كتابه، ومحاولة الكشف عن أسراره، وحمل الآيات المشكلة فيه على ما هو اللائق بتفسيره، ودفع ما يوهمه ظاهرها

(١) سورة القصص: الآيات من (١٤) إلى (١٦).

بالنصوص القوية التي تحمل على العدول عن هذه الظاهر كمحاولتهم ـ رضي الله عنهم ـ في هاتين الآيتين من خبر آدم ـ عليه السلام ـ.

وإليك ما ذكره الفخر أيضًا نقلاً عن القفال تأييدًا لما يعجبني ولما أرتضيه من غير إنكار للحديث السالف لأنه قد روي مرفوعًا، ولأن الحاكم حكم بصحته، ولأن الترمذي حسَّنه، ولا يعني ما يعجبني رفض ما يقابله؛ قال القفال: «إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم وتقولهم بالشرك وتقرير هذا الكلام كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة، وجعل من جنسها زوجها إنسانًا يساويه في الإنسانية، فلما تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولدًا صالحًا سويًا لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك، فلما آتاهما الله ولدًا صالحًا سويًا جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما؛ لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع كما هو قول الطبائعيين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام»[1]. والله أعلم.

* * *

(١) انظر: الفخر الرازي (١٥/ ٨٦).

خلاصة ما جاء في الفصل الأول

١ ـ قصة نبي الله آدم، والصراع بينه وبين إبليس ذكرته سبع سور من القرآن الكريم هي: البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، وص.

٢ ـ أطوار الخلق لآدم جاءت في خمسة أطوار:

أ ـ خلقه من التراب.

ب ـ مزج التراب بالماء حتى صار طينًا.

جـ ـ ثم انتخب آدم ـ عليه السلام ـ من هذا الطين.

د ـ خلقه من حمًا مسنون.

هـ ـ تصويره من صلصال، وخلق الحياة فيه وذلك بنفخ الروح فيه.

٣ ـ الذي عليه الأكثرون أن حواء خلقت من جزء من أجزاء آدم ـ عليه السلام ـ وما قاله مسلم الأصفهاني المعتزلي، من أن حواء خلقت من تراب مردود.

٤ ـ الملائكة أجسام لطيفه هوائيه، تقدر على التشكل بأشكال مختلفة، مسكنها السموات، وتسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم، سامعون مطيعون، مشتغلون بعبادة ربهم، لا يستكبرون عن عبادته آناء الليل وأطراف النهار ولا يسأمون.

لا يحصى أجناسهم، ولا مدة أعمارهم ولا كيفية عبادتهم إلا الله سبحانه، وهم من الكثرة بحيث لا يحيط بهم إلا خالقهم جل وعلا.

٥ ـ القول الأصوب والأصح أن الملائكة معصومون من جميع الذنوب، خلافًا للحشوية من المعتزلة.

٦ ـ من أصناف الملائكة: حملة العرش، الحافون حول العرش، وأكابر الملائكة مثل جبريل وميكائيل، وملائكة الجنة، وملائكة النار، والحفظة الموكلون ببنى آدم.

٧ ـ من أوصاف الملائكة: أنهم رسل الله، قربهم من الله، دوام تسبيحهم وتقديسهم لله.

٨ ـ العلماء مجمعون على أن السجود لآدم كان سجود تحية لا سجود عبادة وهو نوع من التكريم لآدم وذريته.

٩ ـ أصح الأقوال: أن السجود لآدم كان سجودًا حقيقيًا بوضع الجبهة على الأرض، امتثالاً لأمر الله سبحانه، بقصد التحية لآدم عليه السلام.

١٠ ـ هناك صنف من الملائكة، لا يخالف الشياطين بالذات، وإنما يخالفهم بالعوارض والصفات، كالبررة والفسقة من الإنس والجن يشملهما، وكان إبليس واحدًا من هذا الصنف.

١١ ـ الجنة التي أهبط منها آدم إنما هي دار الثواب التي وعد المتقون، وليست جنة في الأرض كما تقول المعتزلة ولا جنة في السماء السابعة كما يقول الجبائي.

١٢ ـ الصواب أن الشجرة التي أكل منها آدم غير متعينة في الكتاب ولا السنة الصحيحة، فالقول بعدم تعينيها أصح، لأنه علم لا ينفع، وجهل لا يضر.

١٣ ـ المراد بأن آدم خليفة الله في أرضه، أي خليفة في إمضاء أحكام الله، وأوامره لأنه أول رسول إلى الأرض.

١٤ ـ كان إبليس مأموررًا بالسجود ولكنه امتنع حسدًا واستكبارًا وظنًا منه أنه خير من آدم وذريته.

١٥ ـ بين إبليس أنه عاجز عن التسلط على عباد الله الذين اصطفاهم ربهم لحضرته.

١٦ ـ كان كفر إبليس عن عناد وعمد لأنه يعلم الباطل ويقصده قصدًا.

١٧ ـ يظهر الصراع بين إبليس والبشر من خلال كيد إبليس لآدم وذريته وتوعده لهم أن يقعد لهم كل صراط مستقيم.

١٨ ـ من مقاصد قصة آدم ـ عليه السلام ـ في القرآن: أن زلات بني آدم لا توصلهم إلى اليأس من رحمة الله، وأن كثرة المعاصي لا تحول بينهم بين غفران الله ورضاه ماداموا مؤمنين تائبين.

١٩ ـ كانت وسوسة إبليس لآدم من الأرض إلى السماء وإلى الجنة، بالقوة الفوقية التي جعلها الله له، ولا نظر إلى ما نقل في بعض كتب التفاسير من حكايات وإسرائيليات.

٢٠ ـ استغفار آدم وزوجته يعلمنا حسن الاعتذار لربنا، والإمعان في ندائه واستغفاره بقول الداعين: ربنا، وتقديم الداعين ذكر زلاتهم وهم مستشعرون الضعف والحاجة، كما أنه ينبغي على الداعي أن يكثر من طلب المغفرة والرحمة معًا.

٢١ ـ عداوة إبليس لبني البشر مستمرة دائمة، لا تهدأ ولا تسكن أبدًا، ولكنها من جهة بني البشر خفيت على أغلبهم فضلوا عن سبيل الله ضلالاً مبينًا.

٢٢ ـ ينصح القرآن الكريم بني آدم كافة ـ بعد فراغه من قصة آدم وإبليس ـ

بنصيحتين .

* بيان نعمة الله عليهم بأن مكنهم من ستر عورتهم ، وتحذيرهم من التفريط في كشفها .

* تحذيرهم من فتنة الشيطان أن يفعل بهم ما فعل بأبويهم ، فلا يردون إلى الجنة ، بل يكون مصيرهم إلى النار وبئس القرار .

٢٣ ـ الشيطان يرانا هو وذريته من حيث لا نراهم ، ويتشكل على صورته الحقيقية .

٢٤ ـ الشياطين لا تتسلط على المؤمنين بإفساد عقائدهم وجرهم إلى الكفر ، لأن الله حماهم بإيمانهم ، وقد تتسلط عليهم بنوع من الأذى في البدن ، أما الكافرون فقد جعل الله الشياطين لهم أولياء عقوبة لهم على كفرهم .

٢٥ ـ الشياطين وأعوانهم من الجن والإنس يعملون جاهدين دعاة إلى التعري والفجور .

٢٦ ـ من أبرز وسائل إبليس في عداوته وإغوائه :

* الكبر والاغترار والإعجاب بالنفس .

* الحسد .

* الإيمان والكفر .

* الإغراء بالشهوات .

* الغرور

* الجرأة على المعصية .

* طول الأمل .

مقدمة:

مَرَّ علينا في الفصل الأول من هذا البحث صراع آدم وزوجته مع إبليس إلى أن أهبطا إلى الأرض؛ حيث نبَّه - جل وعلا - عباده محذرًا إياهم من عداوة إبليس ووقوفه حجر عثرة في كل طريق يوصِّلهم إلى خالقهم - عز وجل -.

قال تعالى: على لسان إبليس: ﴿ **قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم (١٦) ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾[١] وقال - تعالى -: ﴿ **قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو** ﴾[٢] . . . إلى آخر تلك الآيات الموضحة لعداوة إبليس لبني آدم، والتي صورتها تلك التجربة التي مَرَّ بها آدم وزوجه، وعلى ضوئها نعرف حاجة الإنسان رغم تميزه بالعقل والإدراك إلى رسالة الله التي نوهت عنها السورة نفسها في قوله تعالى: ﴿ **يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[٣].

وستتعرض السورة الكريمة لذكر قصص جملة من الرسل وهم: «نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، وختمت السورة بالحديث عن خاتم الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -».

وفي ذكر تلك القصص من الفوائد العظيمة ما أشار إليها الرازي - رحمه الله - بقوله:

أولاً: التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبيِّنات ليس من

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٦، ١٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٣٥).

خواص قوم محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة، والمصيبة إذا عمت خفت، فكان ذكر قصصهم، وحكاية إصرارهم على الجهل والعناد، يفيد تسلية الرسول ـ عليه السلام ـ وتخفيف ذلك على قلبه.

ثانيا : أنه ـ تعالى ـ يحكي في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى الكفر واللعن في الدنيا، والخسارة في الآخرة، وذلك يقوي قلوب المحقين، ويكسر قلوب المبطلين.

ثالثا : التنبيه على أنه ـ تعالى ـ وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ولكنه لا يهملهم بل ينتقم على أكمل الوجوه.

رابعا : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة ـ محمد عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأنه عليه السلام ـ كان أميًا وما طالع كتابًا ولا تلمذ لأستاذ، فإذًا ذكرُ هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله، وذلك يدل على صحة[1] نبوته[2].

والخلاصة:

أن الله أرسل الرسل إلى الأمم، فكان منهم المعارض المنكر لهم ومنهم المؤمن المطيع: «وهذا الموقف المتنوع هو قانون الحياة البشرية في صراع الإنسان مع الشيطان وفي عداوة الشيطان للإنسان، فعلى عهد كل رسول أرسل برسالة الله كان المؤمن والكافر، وكان المهتدي والضال، وكان المتقي والمصلح، والمستكبر

---

(١) قال تعالى: ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ سورة يوسف: الآية (١١١).

(٢) تفسير الرازي (١٤/ ١٤٦).

والمتبع لغواية الشيطان»[١] وكل ذلك تحت تأثير ضغط الشهوات، محاولاً أن يرضي حقده وأن ينفذ وعيده، وأن يمضي ببني آدم من حطام هذه الشهوات إلى جهنم.

ولكن دعوة الأنبياء التي مَنَّ الله بها على عباده ببعثتهم على مَرِّ الدهور، تلوح بالنور، وتحذر من لفحات الشرور، ونزعات الشيطان الغرور، في صراع عجيب تنبئنا به سورة الأعراف منذ فجر تاريخ البشرية إلى أن تختتم بذكر خاتم الأنبياء والرسل أجمعين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

❊ ❊ ❊

(١) البهي، محمد، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ـ تفسير سورة الأعراف. الطبعة الثانية، (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٠٠ هـ)، ص ٤٤.

المبحث الأول
دعوة نوح[١] ـ عليه السلام ـ لقومه
مع شرح موجز للآيات

لقد مكث الناس يعبدون الله الواحد القهار بعد موت آدم ـ عليه السلام ـ طوال عشرة قرون كما جاء بذلك الخبر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. قال: وكذلك في قراءة عبد الله: «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا» قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه، وقد أقره الذهبي على تصحيحه[٢].

وبعد تلك القرون الصالحة، وتباعد الأزمان، لجأ الناس إلى عبادة الأصنام واتخاذها آلهة تعبد من دون الله، وكان سبب ذلك ما أشار إليه حبر الأمة عبد الله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عند تفسير قوله تعالى: ﴿**قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾[٣] قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم

---

(١) نسبه: هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ ـ وهو إدريس عليه السلام ـ بن يرد بن مهلا ييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر ـ عليه السلام ـ انظر: ابن كثير، البداية والنهاية الطبعةالثانية، (بيروت: مكتبة المعارف، د.ت) ١/ ١٠٠.

(٢) المستدرك للحاكم (٢/ ٥٤٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٣).

التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد. حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت[١] وقد أوجزت سورة الأعراف قصة نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه التي تناولتها سور أخرى بنوع من التفصيل، والتي أفرد القرآن لها سورة خاصة باسم: سورة نوح ـ عليه السلام ـ.

قال تعالى: ﴿ **لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾[٢].

أقسم تعالى على أنه أرسل نوحًا رسولاً إلى قومه؛ لأن مشركي مكة لما أنكروا نبوة سيدنا محمد ﷺ كانوا بذلك منكرين لرسالة نوح وما بعده من الرسل ـ سلام الله عليهم أجمعين ـ فاقتضى الأسلوب أن يصدر الكلام عن إرسال نوح إلى قومه بأسلوب القسم لأجل ذلك، وذكر هنا جنابه تعالى بنون العظمة ليبين أن هذا الإرسال منه تعالى ليس ناشئًا عن اضطرار أو حاجة إلى الخلق ـ تعالى عن ذلك وتعاظم ـ بل سببه رحمته بخلقه وعنايته بهم، ولإخراجهم من الظلمات التي أوقعهم فيها الشيطان بغوايته ـ كما توعدهم عندما امتنع عن السجود لأبيهم آدم ـ عليه السلام ـ إلى نوره وهدايته.

ومعنى ﴿ **أرسلنا** ﴾ أي: بعثنا نوحًا إلى قومه بدين وشريعة ذات تكاليف يبلغها لقومه، كما قال تعالى على لسانه: ﴿ **أبلغكم رسالات ربي** ﴾[٣] ونص تعالى على إرساله لقومه لأنهم أعرف بأحواله وأخلاقه وتميزه بينهم بالصدق

---

(١) صحيح البخاري على هامشه فتح الباري (١٠/ ٢٩٥) جزء من حديث طويل في باب: (ودًا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق) كتاب التفسير ـ سورة نوح ـ.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٩).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٦٢).

والطهارة، مما يحملهم على إجابته إلى ما دعاهم إليه وتصديقه فيما جاءهم به، ومع ذلك عاندوا وكذبوا وفعلوا غير المرجو منهم. وإن من سنن الله ـ تعالى ـ أن يبعث كل رسول من قومه غالبًا؛ فإن لم يكن منهم فلابد أن يتكلم بلسانهم، وسيمر بك في هذه السورة قوله تعالى: ﴿ **وإلىٰ عاد أخاهُمْ هُودا** ﴾[١] وقوله عز وجل: ﴿ **وإلىٰ ثمُود أخاهُمْ صالحا** ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ **وإلىٰ مدْين أخاهُم شُعيْبا** ﴾[٣] وإنما قلت: غالبًا؛ لأن موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ ليسا من قوم فرعون، ومع ذلك فقد رُبِّيَ موسى في مصر، ولم يفارقهم إلى مدين إلا بعد علمه التام بأحوالهم فكأنه بذلك منهم، كما أن رسالته لم تكن لفرعون وقومه خاصة، بل كانت أيضًا لقوم موسى ـ بني إسرائيل ـ واحترازًا أيضًا من إرسال شعيب ـ عليه السلام ـ إلى أصحاب الأيكة، فإنه تعالى قال: ﴿ **كذَّب أصْحابُ الأيْكة الْمُرْسلين (١٧٦) إذْ قال لهُمْ شُعيْبٌ ألا تتَّقُون** ﴾[٤] بينما قال: ﴿ **وإلىٰ مدْين أخاهُمْ شُعيْبا قال يا قوْمِ اعْبُدُوا اللَّه ما لكُم مِنْ إله غيْرُهُ** ﴾[٥].

ولذا فهم كثير من المفسرين أن أصحاب الأيكة قوم آخرون غير أهل مدين مجاورون لهم[٦] ولا يطعن فيما قررته لأن إرسال نبي إلى قوم ما يصيرهم قومًا باعتبار أنهم مجال لدعوته وإن لم يكن منهم نسبًا.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٥).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

(٤) سورة الشعراء: الآيتان (١٧٦، ١٧٧).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

(٦) انظر إلى الخلاف في أصحاب الأيكة، محمد، الصادق المنا. نبي الله شعيب على ضوء الكتاب والسنة. رسالة ماجستير مقدمه لجامعة أم القرى بمكة المكرمة، بإشراف فضيلة الدكتور/ مسعد عبد المعطي الحفني النبراوي، ص ٨٧ ـ ٩٧.

وألفت نظر القاريء الكريم إلى أنني سوف أوضح أوجه دعوة نوح ـ عليه السلام ـ لقومه عند بياني لموقف نوح ـ عليه السلام ـ من قومه لحسن مناسبتها هناك في المبحث الثالث من هذا الفصل.

ومعلوم أنه كثيراً ما يستعمل القرآن الكريم كلمة (الملأ) في قصصه مع الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وما جرى لهم مع أقوامهم، فمن الملأ؟

الملأ : هم أشراف القوم ووجهاؤهم ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يُرجع إلى قولهم[1] فهم إذاً البارزون في المجتمع وأصحاب النفوذ فيه، الذين يعتبرهم الناس أشرافاً وسادة، وإليهم تسند قيادة المجتمع والزعامة والرئاسة فيه، ويلاحظ أن الوصف الغالب على الملأ من كل قوم معاداتهم للدعوة إلى الله ـ تعالى ـ، فقد تصدوا لدعوة الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وقادوا حملة الكذب والافتراء والتضليل ضد أنبياء الله ـ تعالى ـ قال تعالى: ﴿ **وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون (٣٤) وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين** ﴾[2].

فالملأ هم هؤلاء المترفون، أولو القوة والحشمة والثروة والترف والرئاسة، وقادة الناس في الشر، وقد أنكروا ما جاءت به الأنبياء من عند الله ـ عز وجل ـ وغرَّتهم كثرة أموالهم وأولادهم وأتباعهم وما وصلوا إليه من الرئاسة . . . إلخ.

وسأستعرض بإيجاز موقف الملأ من الرسل ـ عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ حسب ما جاءت به الآيات الكريمة في سورة الأعراف.

---

(١) انظر: لسان العرب (١/ ١٥٩)؛ وانظر أيضاً: القرطبي (٣/ ٢٣٤)؛ وابن كثير (٢/ ٢٢٣).

(٢) سورة سبأ: الآيتان (٣٤، ٣٥).

فيقول ملأ قوم نوح: ﴿قال الملأُ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين﴾[١].

ويقول الملأ من قوم عاد لنبيهم هود ـ عليه السلام ـ ﴿قال الملأُ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾[٢].

وقال ملأ ثمود لنبيهم صالح ـ عليه السلام ـ: ﴿قال الملأُ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أنَّ صالحا مرسلٌ من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون (٧٥) قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾[٣].

وقول ملأ شعيب له ـ عليه السلام ـ: ﴿قال الملأُ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيبُ والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودنَّ في ملتنا قال أو لو كنا كارهين﴾[٤].

وقول الملأ من قوم فرعون لفرعون في شأن موسى وقومه لما غلبهم: ﴿وقال الملأُ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾[٥].

وقول الملأ من قريش ـ في سورة ص ـ حين عجبت من إرسال النبي ﷺ بالتوحيد والهدى: ﴿وانطلق الملأُ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنَّ هذا لشيءٌ يرادُ (٦) ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاقٌ (٧) أؤنزل عليه الذكرُ من بيننا بل هم في شكٍ من ذكري بل لما يذوقوا عذاب﴾[٦].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٦٦).

(٣) سورة الأعراف: الآيتان (٧٥، ٧٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٨٨).

(٥) سورة الأعراف: الآية (١٢٧).

(٦) سورة ص: الآيات من (٦) إلى (٨).

وقد كرر القرآن ذكر الملأ في سور كثيرة ليبين بذلك أن الملأ في كل أمة هم سبب شقاوتها وحجب النور والهداية عنها، وأن عامة الناس لو خلوا وطبعهم وما فطروا عليه لآمنوا بالرسل أول ما جاءوهم، وما كان هذا التكذيب والعناد اللذين ووجه بهما الرسل جميعًا ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من أقوامهم، فلا غرابة إذن أن يقول الملأ من قوم نوح ـ عليه السلام ـ بأسلوب مؤكد بإن واللام: ﴿إنَا لنراك في ضلال مُبين﴾ أي: غارق فيه، وهذا أمر بين: وإنا لنعتقدك كذلك، فكيف يتسنى وأنت بهذا الوصف أن نقبل منك ما تدعونا إليه؟ والغرض من هذه الآية التوصل إلى نفي رسالته ـ عليه السلام ـ والتي لو اعترفوا له بها لكانوا في نظر أنفسهم معاندين مكابرين. فالأمم كلها من عهد نوح ـ عليه السلام ـ إلى عهد نبينا محمد ﷺ لا تنكر أن يأتيها من الله رسول، وإنما استبعدوا أن يكون الرسول بشرًا منهم، وأن يختص من بينهم بذلك، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ هو إجمال لأسباب الصراع بين نوح وقومه وعدم إصغائهم له وقبولهم لما جاء به.



المبحث الثاني
أسباب الصراع بين نوح وقومه

تنبيه وتمهيد:

إن الآيات الكريمة التي بين يديّ من سورة الأعراف والتي تذكر قصة نوح ـ عليه السلام ـ لم تذكر كل أسباب الصراع التي اعتمد عليها قومه في إنكار رسالته والتكذيب بنبوته، بل عرضت هذه السورة ـ الأعراف ـ لسبب واحد من هذه الأسباب وهو بشرية نوح ـ عليه السلام ـ التي لا تؤهله للرسالة في نظرهم لتساويهم وإيّاه فيها، وقد تعرضت لهذا السبب في قوله تعالى: ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم﴾[1] . . . الآية، وسأستوفي تفسيرها عند تناولها بالبحث، لأجل ذلك استوفيت أسباب الصراع بين نوح وقومه من سورتي هود، والمؤمنون لأن القرآن يفسر بعضه بعضًا، ولأن ما يجمله في مكان يبسطه في مكان آخر، وهو في الإجمال والبسط في أعلى درجات الفصاحة، بحيث يأسرك إجماله وتفصيله، وذلك سرٌ من إعجازه كما هو مبسوط في مباحث الإعجاز.

لقد بيَّنت سورتا هود والمؤمنون أسباب هذا الصراع بوضوح وجلاء، قال تعالى: ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلاّ بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٣).

(٢) سورة هود: الآية (٢٧).

وقال تعالى: ﴿ فقال الْملأُ الَّذين كفرُوا من قوْمه ما هذا إلاَّ بشرٌ مّثْلُكُمْ يُريدُ أن يتفضَّل عليْكُمْ ولوْ شاء اللَّهُ لأنزل ملائكةً مَّا سمعْنا بهذا في آبائنا الأوَّلين (٢٤) إنْ هُوَ إلاَ رجُلٌ به جنَّةٌ فتربَّصُوا به حتَّىٰ حين ﴾[١].

ففي هاتين الآيتين: بنوا صراعهم معه وتكذيبهم له على أمور خمسة:

أولاً: كونه بشرا مثلهم:

فلماذا فاتهم ما أتاه؟ وهذا جهل منهم وضلال بَيِّن لأن الواقع المحسوس يقول بالتفاوت بين البشر في القوى العقلية والقوى البدنية وفي الأخلاق؛ فالتساوي في البشرية لا يعني أن ما يصلح له إنسان يصلح له آخر؛ ولهذا جاء هذا الأساس الأول مؤكدًا بـ«ما» و«إلا» ﴿ ما نراك إلاَّ بشرًا ﴾ إمعانًا منهم في تكذيب نبيهم نوح ـ عليه السلام ـ في دعوى الرسالة.

ثانيًا: كبر الملأ واستعلاؤهم:

أ ـ قال تعالى: ﴿ وما نراك اتَّبعك إلاَّ الَّذين هُمْ أراذلُنا ﴾ فلقد علل الملأ من قوم نوح امتناعهم عن اتباع نوح ـ عليه السلام ـ بسبب متابعة ضعفائهم له الذين أسموهم الأراذل أي: الضعفاء الجهلاء الذين لا عقل لهم ولا علم ولا شرف ولا رئاسة ولا مال، وقد أكَّدوا ذلك أيضًا بـ«ما» و«إلا» إمعانًا في إظهار صوابهم وخطأ المتبعين لنوح ـ عليه السلام ـ: ﴿ وما نراك اتَّبعك إلاَّ الَّذين هُمْ أراذلُنا ﴾ أي: لأول وهلة بلا تفكير ولا روية؛ من بدا يبدو بمعنى ظهر، أو من: بدأ الشيء بمعنى أنه فعله أول ما طلب منه بلا تعقل[٢].

---

(١) سورة المؤمنون: الآيتان (٢٤، ٢٥).

(٢) انظر: لسان العرب (١/ ٢٧).

ب ـ قوله: ﴿وما نرىٰ لكُمْ علَيْنا من فضْلٍ﴾ يريدون نوحًا ومن اتبعه، وجيء بـ «من» في سياق النفي بقصد نفي أي فضل لنوح ومتبعيه على أولئك المكذبين المستكبرين، وهذا وقع منهم بسبب الغشاوة التي طمست قلوبهم وأعمت بصائرهم عن الحق، ونتيجة للكبر الذي جعلهم يقلبون الحقائق ويأنفون عن الحق بحجة أن الأراذل اتبعوه، وفاتهم أن الحق في نفسه يبقى حقًا سواء اتبعه الضعفاء والفقراء أو القادة والرؤساء، وأن أتباع الحق في الحقيقة هم الأشراف ولو كانوا فقراء، وأن الأراذل في الحقيقة هم المعاندون المخالفون للحق وإن كانوا في أعين الناس من الأشراف.

ثالثًا: تكذيب نبيهم نوح وأتباعه من المؤمنين:

ولقد توصلوا بالأساسين السابقين إلى الأساس الثالث في صراعهم وصدهم عن دعوة نبيهم نوح ـ عليه السلام ـ وهو قوله تعالى: ﴿بلْ نظُنُّكُمْ كاذبين﴾[1] أي: وهذا يكفينا في ترك متابعتكم، يعنون نوحًا وقومه.

وفي آية المؤمنون نرى الملأ يذكرون الأساس الأول في آية هود إلا أنهم لما استشعروا ضعفهم بذكر هذا السبب لأن البشر ـ كما قلت سلفًا هم في الواقع متفاوتون في القوى الحسية والمعنوية، فأضافوا أن نوحًا ـ عليه السلام ـ افتعل ذلك بقصد الرئاسة والسيطرة ﴿فقال الْملأُ الَّذين كفرُوا من قوْمه ما هذا إلاَّ بشرٌ مّثْلُكُمْ يُريدُ أن يتفضَّل عليْكُمْ﴾[2] والفرق بين «ما» هنا و «ما» في آية هود أن الملأ في آية

(١) سورة هود: الآية (٢٧).

(٢) سورة المؤمنون: الآية (٢٤).

هود كانوا يخاطبون نوحًا بذلك لعلهم يستطيعون صرفه عما جاءهم به، فيريحوا أنفسهم وقومهم، أما في آية المؤمنون فإن الملأ يتوجهون بذلك إلى قومهم مباشرة لما وجدوا أن بعضهم قد اتبعوه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فدخل الملأ إلى قومهم من أمر يثير الغضب الذي يطغى على العقل مما يحجب إدراك الحق وحجته، وهو اتهام نوح ـ عليه السلام ـ بأنه ما جاء لهدايتهم كما يزعم بل قصد بما يدعيه التفضل عليهم والتميز بينهم.

رابعا: الملائكة في نظرهم أولى بالرسالة:

ثم زادت آية المؤمنون أمرًا رابعًا من أسباب الصراع وهو قوله تعالى: ﴿ **ولو شاء الله لأنزل ملائكة** ﴾ فإن الملائكة في نظرهم هم أولى بالرسالة من البشر، وهذا جهل منهم لأن الملائكة لو جاءوهم على صورهم الحقيقية ما أطاقوا رؤيتهم فضلاً عن أن يسمعوا منهم، والأقرب أن يأتيهم رسول منهم مزود بقوى روحية وبدنية، تؤهله لتلقي الوحي من ربه مباشرة بالمكالمة من وراء حجاب، أو بالإلهام الذي يقذفه الله في قلبه، أو بتلقيه عن الملك الذي يأتيه عن ربه، وهو في نفس الوقت مطاق لقومه حين يبلغهم عن ربه ما أرسل به، فلا تتبدد قواهم عند رؤيته.

فأما إذا بعث الله إليهم الملائكة: فإما أن يكونوا بشرًا مثلهم حتى يسهل الأخذ عنهم، وحينئذ يشتبه الأمر على المرسل إليهم، فلا يصدقون أن رسولهم الذي أرسل إليهم ملك من الملائكة لأنه في صورة بشرية، وإما أن يرسلوا إليهم على حقائقهم ـ أي: الملائكة ـ وحينئذ لا يأتونهم إلا بالعذاب الأليم[1].

ولقد تذرعت الأمم قاطبة بهذه الذريعة لإبطال دعوة الرسل؛ فنرى قريشًا وبينهم وبين قوم نوح قرون وقرون يعارضون خاتم الرسل بنفس المعارضة،

(١) ﴿ ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ﴾ أي: أمر هلاكهم.

ويحتجون لإبطال دعوته بنفس الحجة، وقد تولى الله ذكرها والرد عليها في سورتي الأنعام والإسراء، قال تعالى: ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملكٌ ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون (٨) ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون** ﴾[1].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «قوله تعالى: ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملكٌ** ﴾ و (لولا) بمعنى: هلا ﴿ **ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر** ﴾ قال ابن عباس: لو رأوا الملك على صورته لماتوا إذ لا يطيقون رؤيته . . . قال الحسن وقتادة: لأهلكوا بعذاب الاستئصال؛ لأن الله أجرى سنته بأن من طلب آية فظهرت له فلم يؤمن أهلكه الله في الحال.

﴿ **ثم لا ينظرون** ﴾ أي: لا يمهلون ولا يؤخرون.

وقوله تعالى: ﴿ **ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا** ﴾ أي: لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة؛ لأن كل جنس يأنس بجنسه، وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله ـ تعالى ـ الرسول إلى البشر ملكًا لنفروا من مقاربته ولما أنسوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه والاتقاء له ما يكفهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله، فلا تعم المصلحة، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به وليسكنوا إليه لقالوا: لست ملكًا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك، وعادوا إلى مثل حالهم.

وكانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة البشر؛ فأتوا إبراهيم ولوطًا ـ عليهما السلام ـ في صورة الآدميين، وأتى جبريل ـ عليه السلام ـ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في صورة دحية الكلبي. أي: لو نزل ملك لرأوه في صورة رجل كما

(١) سورة الأنعام: الآيتان (٨، ٩).

جرت عادة الأنبياء، ولو نزل على عادته لم يروه، فإذا جعلناه رجلاً التبس عليهم فكانوا يقولون: هذا ساحر مثلك. وقوله: ﴿ **وللبسنا عليهم** ﴾ اللبس الخلط يقال: لبست عليه الأمر ألبسه لبسًا أي خلطته، أي: لو أنزل ملكًا في صورة رجل لوجدوا سبيلاً إلى اللبس كما يفعلون، وقال: ﴿ **لَبَسْنَا** ﴾ بالإضافة إلى نفسه على جهة الخلق، وقال: ﴿ **مَا يَلْبِسُونَ** ﴾ فأضاف إليهم على جهة الاكتساب»[١].

وقال تعالى: في سورة الإسراء[٢]: ﴿ **وما منع النَّاس** ﴾ أي: أكثرهم ﴿ **أن يؤمنوا** ﴾ ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿ **أكان للنَّاس عجبا أنْ أوحينا إلىٰ رجُلٍ مِّنهُمْ أنْ أنذرِ النَّاسَ وبشِّرِ الَّذين آمنُوا أنَّ لهُمْ قدم صدقٍ عند ربِّهمْ ... ؟** ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ **ذلك بأنَّهُ كانت تَّأْتيهِمْ رسُلُهُم بالبيِّنات فقالُوا أبشرٌ يهدُوننا ... ؟** ﴾[٤] الآية.

وقال فرعون وملاؤه: ﴿ **أنُؤْمنُ لبشرَيْنِ مثْلنَا وقَوْمُهُمَا لَنَا عَابدُونَ** ﴾[٥] وكذلك قالت الأمم لرسلهم: ﴿ **إنْ أنتُمْ إلاَّ بشرٌ مِّثْلُنَا تُريدُونَ أن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يعْبُدُ آباؤُنا فأْتُونا بسُلْطانٍ مُّبينٍ** ﴾[٦] والآيات في هذا كثيرة.

ثم قال تعالى منبهًا على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه؛ لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى

---

(١) انظر: تفسير القرطبي، (٦/ ٣٩٣، ٣٩٤).

(٢) سورة الإسراء: الآيتان (٩٤، ٩٥).

(٣) سورة يونس: الآية (٢).

(٤) سورة التغابن: الآية (٦).

(٥) سورة المؤمنون: الآية (٤٧).

(٦) سورة إبراهيم: الآية (١٠).

البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه . . . ولهذا قال هاهنا: ﴿ **قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين** ﴾ أي: كما أنتم فيها ﴿ **لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا** ﴾ أي: من جنسهم ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفًا ورحمة[١]:

خامسًا: دعواهم أن ما جاءهم به نوح ـ عليه السلام ـ لم يسمعوا به في آبائهم الأولين:

ولو كان ما جاءهم به معروفًا في أسلافهم لتناقلوه، قال تعالى: ﴿ **مَا سمعنا بهذا في آبائنا الأولين** ﴾[٢] وهذا القول إما أن يكون قد صدر عنهم في أول الدعوة، فالمراد بآبائهم الأولين أي: الذين مضوا قبلهم على عبادة الأصنام، أو أنهم كانوا يعلمون أن آباءهم الأولين بين آدم ونوح كان أكثرهم موحدًا، لكنهم جحدوا ذلك تكذيبًا وعنادًا، فقد روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام[٣] وإما أن يكون هذا الكلام قد قيل قرب هلاك قوم نوح، والخلف هم الذين قالوا ذلك ولا غرابة فيه فقد لبث نوح في قومه يدعوهم إلى الله ـ تعالى ـ ألف سنة إلا خمسين عامًا، بل قد يقوى هذا الرأي بما بعده من الآيات ﴿ **قال ربِّ انصرني بما كذبون (٢٦) فأوحينا إليه أن اصنع الْفُلْك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلاَّ من سبق عليه القولُ منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُغْرقون** ﴾[٤].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٦٤، ٦٥).

(٢) سورة المؤمنون: الآية (٢٤).

(٣) المستدرك للحاكم (٢/ ٥٤٦).

(٤) سورة المؤمنون: الآيتان (٢٦، ٢٧).

المبحث الثالث

موقف نوح ـ عليه السلام ـ من الكافرين

أولاً : دفاع نوح ـ عليه السلام ـ عن نفسه

ثانيًا : مصير الكافرين المعاندين

أولا : دفاع نوح ـ عليه السلام ـ عن نفسه :

دافع نوح عن نفسه بنفي ما وصفوه به من الضلال المبين، بما قصه الله ـ تعالى ـ في قوله: ﴿قال يا قوم ليس بي ضلالةٌ ولكنّي رسولٌ من ربّ العالمين﴾[1].

وللألوسي ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية كلام نفيس، أنقله لك بشيء من التصرف.

﴿قال يا قوم﴾ ناداهم بإضافتهم إليه استمالة لهم نحو الحق ﴿ليس بي ضلالةٌ﴾ نفي للضلالة عن نفسه الكريمة على أبلغ وجه. فإن التاء للمرة؛ لأن مقام المبالغة في الجواب لقولهم الأحمق يقتضي ذلك، والوحدة المستفادة منه باعتبار أقل ما ينطلق، فيرجع حاصل المعنى: ليس بي أقل قليل من الضلال فضلاً عن الضلال المبين . . .

وإنما بالغ ـ عليه السلام ـ في النفي لمبالغتهم في الإثبات حيث جعلوه ـ وحاشاه ـ مستقرًا في الضلال الواضح كونه ضلالاً.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦١).

وقوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **ولكنّي رسُولٌ مّن رّبّ العالمين** ﴾ استدراك على ما قبله رافع لما يتوهم منه، وذلك ـ على ما قيل ـ أن القوم لما أثبتوا له الضلال أرادوا به ترك دين الآباء ودعوى الرسالة، فحين نفى الضلال توهم منه أنه على دين آبائه وترك دعوى الرسالة، فوقع الإخبار بأنه رسول وثابت على الصراط المستقيم استدراكًا لذلك. وقيل: هو استدراك مما قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه في أقصى مراتب الهداية، فإن رسالته من رب العالمين مستلزمة له لا محالة، كأنه قيل: ليس بي شيء من الضلالة لكني في الغاية القصوى من الهداية[1] .ا.هـ.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة: ﴿ **ولكنّي رسُولٌ مّن رّبّ العالمين (٦١) أُبلّغُكُم رسالات ربّي وأنصحُ لكُمْ وأعْلمُ من اللّه ما لا تعْلمُون** ﴾ يجد أنها أتت بعد أن نفى سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ عن نفسه أي شكل من أشكال الضلال، وقد وصف نفسه خلالها بأربع صفات كريمة:

أولها: أنه صاحب رسالة:

قال تعالى: ﴿ **ولكنّي رسُولٌ مّن رّبّ العالمين** ﴾ أي: رسول مرسل لكم من رب العالمين لهدايتكم وإنقاذكم مما أنتم فيه من الضلال والبعد عن الحق، وتخليصكم من الشرك والكفر، لكنكم بإصراركم على اتهامي بالضلال كذبًا وزورًا تحيلون النعمة إلى نقمة، والرحمة إلى شقوة؛ إذ لو سلّمتم بكوني رسولاً من رب العالمين لزال عنكم العجب من أمري واتهامي بما ليس فيّ، وتابعتموني على ما فيه سلامتكم وسعادتكم في دنياكم وفي آخرتكم.

والتنوين في قوله تعالى: ﴿ **رسُولٌ** ﴾ مشعر بفخامته وما أوتي من عقل وحكمة، والمعنى: ولكني رسول عظيم وأي رسول، ويدل على ذلك قوة حواره

(١) تفسير الألوسي (٨/ ١٥٠، ١٥١).

مع قومه في قوله تعالى: ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون** ﴾[١] وقوله تعالى على لسان قومه لما ضاقوا بقوة حجته: ﴿ **قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾[٢] ومرادهم أن ينزل الله بهم من العذاب. وهم غير جادين في طلب العذاب، ولكنهم تصوروا أن العذاب لا يأتيهم، لا سيما وقد طال مكثه بينهم نبيًا ورسولاً كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما** ﴾[٣] فعدم مجيء العذاب مع طول هذه المدة سبّب في اعتقادهم أنهم لا ينزل بهم، ولذا تركوا الرد على الحجة بالحجة، ولجأوا بقصد التعجيز والإمعان في التكذيب، ولذا رد عليهم بما قصه الله ـ تعالى ـ: ﴿ **قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين** ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿ **من رب العالمين** ﴾ فيه تنبيه على رحمته ـ تعالى ـ بهم وإيقاظ للخوف من الله ـ تعالى ـ في قلوبهم، حتى لا يتجرأوا على رسوله نوح ـ عليه السلام ـ فإنهم إذا علموا أنه رسول من رب العالمين؛ الذي خلق العالمين، وتولى تدبيرهم وإيصال النعم إليهم كان ذلك علاجًا لقسوة قلوبهم من ناحية، وإزالة لجرأتهم على رسولهم من ناحية أخرى، وتقريبًا لانتقام الله منهم إذا أقاموا على هذا التكذيب بخلاف ما اعتقدوه من بُعد العذاب عنهم.

---

(١) سورة هود: الآية (٢٨).

(٢) سورة هود: الآية (٣٢).

(٣) سورة العنكبوت: الآية (١٤).

(٤) سورة هود: الآية (٣٣).

ثانيها : أنه مبلغ عن الله ما فيه هدايتهم :

قال تعالى : ﴿ **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي** ﴾ أي : أبلغكم ما أوحاه الله إليَّ من الأوامر والنواهي، والمواعظ والزواجر، والبشائر والنُذر، والعبادات والمعاملات. وقيل : أي أبلغكم رسالته ورسالات الأنبياء قبله من صحف جده إدريس[1] فهذه نكتة جمع ﴿ **رِسَالَاتِ** ﴾ وإلاَّ فرسالة كل نبي واحدة، وهي مصدر، والأصل أن لا يجمع، فجُمع لما ذُكر، قال الألوسي : «وجمع الرسالات مع أن رسالة كل نبي واحدة رعاية لاختلاف أوقاتها أو تنوع معاني ما أرسل ـ عليه السلام ـ به من العبادات والمعاملات، أو أنه أراد رسالته ورسالة غيره ممن قبله من الأنبياء كإدريس ـ عليه السلام[2].

ثالثها : أنه ناصح يتحرى ما فيه صلاحهم وخيرهم :

قوله تعالى : ﴿ **وَأَنصَحُ لَكُمْ** ﴾ مأخوذ من النصح أي : وأقصد صلاحكم بإخلاص، وذلك بتبليغكم جميع تكاليف الله وأتحرى ما فيه صلاحكم وخيركم ؛ فأرشدكم إليه وآخذكم نحوه، وفعل نصح يتعدى إلى مفعوله بنفسه تارة، وتارة أخرى باللام إذا كان المقصود تخصيص الناصح المنصوح بالنصيحة، وأن الناصح قصد بنصيحته شخصًا أو قومًا معينين، ولذلك تعدي ﴿ **وَأَنصَحُ لَكُمْ** ﴾ باللام لبيان أن نوحًا ـ عليه السلام ـ قصر نفسه على نصيحة قومه وعلى الاجتهاد لهم بما فيه صلاحهم، ولذا قال : وأنصح لكم، ولم يقل : وأنصحكم، وعبر عن نصيحته لهم بالفعل المضارع ليدل على عظم صبره مع قومه، وأنهم كلما جددوا

---

(١) وهذا على الرأي القائل بأن إدريس جد لنوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد خالف في ذلك ابن العربي. انظر : المسألة في تفسير القرطبي (٧/ ٢٣٢).

(٢) تفسير الألوسي (٨/ ١٥٢).

عناداً جدد لهم نصحًا، واجتهد في ذلك غاية الاجتهاد، ولذلك لم يطلب من الله هلاكهم إلا بعد أن أعلمه الله ـ تعالى ـ أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن.

قال تعالى: ﴿ **وأُوحي إلىٰ نُوحٍ أنَّهُ لن يُؤْمن من قومك إلاَّ من قَدْ آمنَ فلا تبْتئسْ بما كانُوا يفْعلُون** ﴾[1].

وقد بين القرآن الكريم أوجه نصح نوح ـ عليه السلام ـ لقومه وسألخصها فيما يلي:

أ ـ بيَّن لهم أنهم إذا آمنوا بالله وعبدوه حق عبادته، واتقوه حق تقاته، غفر لهم ذنوبهم، وأطال أعمارهم في هذه الدنيا، وكانوا يحبون ذلك حبًا جمًا، وأن أجل الله الذي قدره لهم ـ إذا لم يؤمنوا ـ إذا جاءهم لا يؤخر عنهم إلا بالإيمان بالله.

قال تعالى: ﴿ **أن اعْبُدُوا اللَّه واتَّقُوهُ وأَطيعُون (٣) يغْفرْ لَكُم مِن ذُنُوبِكُمْ ويُؤخرْكُمْ إلىٰ أجلٍ مُسمًّى إنَّ أجلَ اللَّه إذا جاءَ لا يُؤخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تعْلَمُونَ** ﴾[2].

ويلاحظ من أسلوب دعوته ـ عليه السلام ـ استعماله لأسلوب الترغيب، ثم يتبعه بالترهيب لئلا تبقى ناحية إلا أقام بها عليهم الحجة، فبعد أن رغبهم في الإيمان بالله ـ تعالى ـ وأنه سبب في غفران ذنوبهم، وسبب في أمنهم، وبذلك تطول آجالهم، نبّههم إلى ما يحلّ بهم من الندامة والأسف حيث لا ينفع الأسف لو لم يؤمنوا به ﴿ **إنَّ أجلَ اللَّه إذا جاءَ لا يُؤخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تعْلَمُونَ** ﴾.

ب ـ تنُّوع الوسائل والأحوال التي اتخذها في دعوة قومه، فكان لا يفتر عن دعوتهم آناء الليل وأطراف النهار، فلم يزدهم هذا إلا تماديًا في التكذيب والكفر

---

(١) سورة هود: الآية (٣٦).

(٢) سورة نوح: الآيتان (٣، ٤).

وبعدًا عن مواجهته، فكان كلما دعاهم ﴿ **جعلُوا أصابعهُم في آذانهم** ﴾ أي: سدوا مسامعهم لئلا يسمعوا كلامه ﴿ **واستغشوا ثيابهُم** ﴾ أي أنهم غطوا أنفسهم بثيابهم لئلا يشاهدوه، أو يشاهدهم فينصحهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴿ **وأصرُّوا واستكبرُوا استكبارا** ﴾[1] أي: تمادوا في إصرارهم على الكفر، وتعظموا عن إجابته، وذكْر المصدر دليلٌ على فرط استكبارهم.

وقد نَّوع نوح ـ عليه السلام ـ طرق دعوته فدعاهم سرًا فيما بينه وبينهم، فلما لم يقبلوا ثنّى بالمجاهرة في محافلهم وأماكن تجمعاتهم، فلما لم يستجيبوا ثلّث بالجمع بين الإسرار والإعلان و ﴿ **ثُمَّ** ﴾ تدل على تباعد الأحوال لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الأمرين أغلظ من إفرادهما[2] قال تعالى: ﴿ **قال ربِّ إنِّي دعوْتُ قومي ليْلا ونهارا (٥) فلم يزدْهُمْ دُعائي إلاَّ فرارا (٦) وإنِّي كُلَّما دعوتُهُمْ لتغفر لهُمْ جعلُوا أصابعهُمْ في آذانهمْ واستغشوْا ثيابهُمْ وأصرُّوا واستكْبرُوا استكْبارا (٧) ثُمَّ إنِّي دعوْتُهُمْ جهارا (٨) ثُمَّ إنِّي أعْلنتُ لهُمْ وأسْررْتُ لهُمْ إسْرارا** ﴾[3] ثم رجع ثانيًا إلى أسلوب ترغيبهم بما هم حريصون عليه مفرطون في حبه، وهو كثرة الأموال والأولاد فدلّهم على السبب الذي يوصلهم إلى محبوبهم، والذي لا يمكن أن يصلوا إلى مبتغاهم بغيره، فقال تعالى على لسان نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿ **فقُلْتُ استغْفرُوا ربَّكُمْ إنَّهُ كان غفَّارا** ﴾[4] أي: استغفروه من الشرك والكفر، ولا تظنوا أن ذنوبكم ومعاصيكم مهما كثرت تعظم على عفوه ﴿ **إنَّهُ كان غفَّارا** ﴾ ثم رتّب على هذا السبب نتيجة مما يحبون ويهوون

---

(١) سورة نوح: الآية (٧).

(٢) انظر: تفسير النسفي (٤/ ٢٩٥).

(٣) سورة نوح: الآيات من (٥) إلى (٩).

(٤) سورة نوح: الآية (١٠).

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾[١] أي: تدر عليكم بالخير الوفير والرزق الكثير، والمراد بالسماء المطر ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ ﴾[٢] أي: كثيرة فوق ما تحبون وتطلبون و﴿ وَبَنِينَ ﴾ أي: كثيرين ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾[٣] جارية لسُقيا مزارعكم وبساتينكم، فلا تكونوا مرهونين بنزول المطر أينزل أم لا؟ بل تجدون الماء الوفير لسقيا زروعكم وبساتينكم كلما أردتم.

جـ ـ لفت أنظارهم إلى النظر في أنفسهم، وإلى النظر في عجائب صنع الله فلقد ذكَّرهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأطوار خلقهم التي مروا بها وهم لا يعلمون عن أنفسهم في هذه الأطوار شيئًا، وأن الله الذي خلقهم في هذه الأطوار هو الحقيق بأن يعبد وأن يعظم لا إله سواه ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾[٤] ثم لم يفته ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يذكِّرهم بما حولهم من الأكوان العلوية والسفلية وأنها مخلوقة لله وحده، وأن أحدًا لم يدَّعِ خلقها، كما أنها لم تخلق بنفسها يقينًا.

فقال تعالى منكرًا عليهم تعاميهم عن ذلك، مبينًا أنه لا خالق لهذه الأكوان سواه ـ جل وعلا ـ: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾[٥] بعضها على بعض، ليست السفلى أساسًا للعليا، بل بين كل واحدة وأخرى من المسافات الشاسعة ما لا يعلمه أحد، ومع ذلك لم تسقط سماء على سماء ولا السموات على الأرض.

---

(١) سورة نوح: الآية (١١).
(٢، ٣) سورة نوح: الآية (١٢).
(٤) سورة نوح: الآيتان (١٣، ١٤).
(٥) سورة نوح: الآية (١٥).

﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾[١] أي: في بعضهن وهي السماء الأولى، ولا مانع أن يكون في كل سماء أقمار وكواكب وشموس. فسبحان من أحاط بكل شيء علمًا.

﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾[٢] أي: مضيئة عظيمة الضياء، بحيث لا يبقى مع ظهورها أي ظلام، ولا يثبت مع ضوئها ضوء يصنعه الإنسان، مما مهد لكم ولغيركم سبيل السعي في هذه الأرض نهارًا بلا كلفة وليلاً إذا أردتم عندما يظهر القمر.

ثم بين لهم أن ربهم الذي يدعوهم إلى عبادته هو الذي خلقهم من الأرض خلقًا عظيمًا؛ إذ البون بين التراب، وبين خلقه أبيهم آدم وبين الأغذية التي هي أصلهم وأساسهم بعيد غاية البعد، فالذي نقلهم من هذه الأحوال إلى هذا الجمال جدير وحقيق بأن يفرد بالعبادة، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾[٣] وذكر اسم المصدر لتتأكد هذه الحقيقة كل التأكيد، ثم لم يفته ـ عليه السلام ـ أن ينبههم إلى مفارقتهم هذه الدنيا التي أحبوها واجتهدوا في امتلاكها وأنهم سيموتون ويعودون إلى باطن الأرض ترابًا كحالهم قبل أن يخلقوا في النشأة الأولى، وأنه تعالى مُخرجهم للحساب من هذه الأرض إخراجًا مؤكدًا؛ لا يبقى أحدًا في بطنها، ولا ينسى منهم أحدًا ولا من غيرهم؛ إذ القلة والكثرة في قدرة الله سواء ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾[٤].

ثم لم يفته ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يبين لهم تذليل الله لهم هذه الأرض

(١، ٢) سورة نوح: الآيتان (١٦).

(٣) سورة نوح: الآية (١٧).

(٤) سورة نوح: الآية (١٨).

وجعلها كالبساط يتقلبون عليها، يبتغون رزق الله ـ تعالى ـ بلا مشقة، وكان بوسعه ـ تعالى ـ أن يجعلها على غير هذه الهيئة فيعجزوا عن الضرب فيها وأخذ حاجتهم منها ﴿ **والله جعل لكم الأرض بساطا (١٩) لتسلكوا منها سبلا فجاجا** ﴾ أي: طرقًا واسعة يصلون منها إلى ما يريدون. ومع هذا الاجتهاد في النصح ومع العمر الطويل الذي قضاه بينهم ـ وقد ذكرته قبل ذلك[1] ـ أمعنوا في العصيان والإصرار على الكفر والطغيان.

وهناك وسائل أخرى وحجج قيمة بسطها نوح ـ عليه السلام ـ لقومه تركتُها تجنبًا للإطالة، واكتفيتُ بما ذكرته لأبيِّن به سرَّ التعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿ **وأنصح لكم** ﴾ وإنه لصراع مرير بين الحق والباطل؛ الحق يبسطه نوح ـ عليه السلام ـ ويجتهد غاية الاجتهاد في بسطه لقومه، والباطل يتشبث به قوم نوح ـ عليه السلام ـ غاية التشبث مع ظهور بطلانه، وستظهر نتيجة هذا الصراع قريبًا بإذن الله.

رابعًا: أنه خص من بينهم بإحاطته بعلوم غيبية لا يعلمونها:

قال تعالى: ﴿ **وأعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾[2] أي: أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم عن إخلاص، وأعلم في الوقت نفسه من الأمور الغيبية التي لا تُعَلم إلا عن طريق الوحي أشياء لا علم لكم بها لأن الله قد خصني بها، فحق عليكم أن تتبعوني؛ لأن الله وكَّل إليّ إصلاحكم، وأرسلني لما فيه خيركم في دنياكم وآخرتكم.

---

(١) قال تعالى: ﴿ **فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما** ﴾ سورة العنكبوت: الآية (١٤). انظر: ص (٢٣٢) من بحثنا هذا.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٦٢).

أو المعنى: «وأعلم من قدرة الله الباهرة، وشدة بطشه على أعدائه ما لا تعلمونه. فأنا أحذّركم عن علم، وأنذركم عن بينة ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾[١].

وبعد أن وصف نفسه بتلك الصفات الأربع وبين لهم حقيقته ومهمته التي بُعث من أجلها ندد عليهم إنكارهم أن يخصه الله بالرسالة من بينهم:

قال تعالى: ﴿ **أو عجبتُم أن جاءكُم ذكرٌ من ربِّكم على رجُل منكُم لينذركم ولتتقُوا ولعلَّكم ترحمُون** ﴾[٢].

وهذه الآية الكريمة ذكرت أحد أهم أسباب الصراع بين نوح ـ عليه السلام ـ وقومه، قال تعالى: ﴿ **أو عجبتُم** ﴾ الهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: أكذبتم وعجبتم أن جاءكم؟ أي: عجبتم أن جاءكم ذكر. والعجب: إنكار ما يرد عليكم لقلة اعتياده[٣].

﴿ **أن جاءكُم ذكرٌ** ﴾ والذكر هو الوحي الذي جاءهم به لهدايتهم ولإنقاذهم من الضلال إلى الهدي ﴿ **على رجُل** ﴾ المقصود به نوح ـ عليه السلام ـ أي: على يد رجل منكم، فهو مبني على مضاف محذوف كقوله: ﴿ **ربَّنا وآتنا ما وعدتَنا على رُسُلك** ﴾[٤] أي: على ألسنتهم وما أخبروا به مما أوحيته إليهم.

﴿ **منكُم** ﴾ تعرفونه حق المعرفة، تعرفون نسبه وخلقه، وتفهمون نطقه، وتدركون طهارته وصدقه وأمانته.

---

(١) الخازن (٢/ ١٠٧) وانظر: تفسير الرازي (١٤/ ١٥).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٦٣).

(٣) لسان العرب (١/ ٥٨٠) انظر: أسباب الصراع بين نوح ـ عليه السلام ـ وقومه، وهي في الحقيقة تعتبر الوجوه التي من أجلها تعجب قوم نوح من إرسال نبيهم إليهم. انظر: من ص (٢٢٤) إلى ص (٢٢٩) من بحثنا هذا.

(٤) سورة آل عمران: الآية (١٩٤).

﴿ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ من العذاب إن لم تؤمنوا، وليحذركم من عاقبة الكفر والمعاصي ﴿ وَلِتَتَّقُوا ﴾ ولتحصل منكم التقوى وهي الخشية بسبب الإنذار ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[١] أي: ترحمون بالتقوى إن وجدت منكم . . . وهذا الترتيب في غاية الحسن فإن المقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغي، والمقصود من التقوى الفوز بالرحمة في دار الآخرة[٢] وهذا هو القصد من بعثة الرسل؛ التقوى والفوز بالرحمة. والواو في قوله: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ عطف على العلة الثانية، مترتبة عليها، أي: ولتتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم، وفائدة حرف الترجي التنبيه على عزة الطلب، وأن التقوى غير موجبة للرحمة بل هي منوطة بفضل الله، وأن المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه ولا يأمن من عذاب الله ـ عز وجل ـ[٣].

ثانيًا: مصير الكافرين المعاندين من قوم نوح:

قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾[٤].

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي: استمروا على تكذيبه وعناده مع طول مكثه بينهم، وأنهم كانوا يفتعلون التكذيب، ويجتهدون في محاولة جمع ما يكذبونه به لسقوطهم أمام حجته القوية، وأنهم ليعلمون من أنفسهم أنهم يكذبون على أنفسهم بتكذيبه وأنه صادق أمين، ولكن عنادهم حملهم على هذا التكذيب حتى إن نوحًا ـ عليه

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٣).

(٢) انظر: الفخر (١٤/ ١٥٣).

(٣) تفسير أبي السعود (٣/ ٢٣٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٦٤).

السلام ـ كان يستغيث ربه بنصرته عليهم لما يعانيه من مرارة تكذيبهم له، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾[١] أي: أبدلني بتكذيبهم إياي سلوة النصر عليهم.

وقد طوت سورة الأعراف ما عوقبوا به من العذاب ومقدمات ذلك، ونجاة نوح ـ عليه السلام ـ ومن آمن معه وكيف كانت. ونجدها مفصلة في سورة هود والمؤمنون والقمر، وسأكتفي بإلقاء الضوء على بعض آيات تلك السور التي صوّرت نجاة نوح ـ عليه السلام ـ ومن آمن معه. والله ولي التوفيق والملهم للصواب.

فقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾ هو بيان لإكرام الله ـ تعالى ـ له ولمن آمن من قومه، وكانوا قلّة كما قال تعالى: ﴿وما آمن معهُ إلاَّ قليلٌ﴾[٢] وتقديم ذكر الإنجاء على الإغراق للمسارعة إلى الإخبار به، والإيذان بسبق الرحمة التي هي مقتضى الذات الإلهية[٣] وقوله تعالى: ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ هو بيان لما عوقب به قوم نوح من العذاب مع ذكر السبب الذي استحقوا به هذا العذاب وهو التكذيب بآيات الله ـ تعالى ـ واستمرار تعاميهم عن الحق مع ظهوره.

قال تعالى: ﴿إنهم كانوا قوما عمين﴾ أي: عُمي القلوب غير مستبصرين. قال ابن عباس: «عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد»[٤] وإن المقام ليستدعي أن أتناول عاقبة هذا الصراع بين نوح وقومه، وكيف انتقم الله تعالى من

---

(١) سورة المؤمنون: الآية (٢٦).

(٢) سورة هود: الآية (٤٠).

(٣، ٤) تفسير أبي السعود (٣/ ٢٣٧).

قوم نوح ـ عليه السلام ـ، وفي الوقت نفسه أحاط المؤمنين بحفظه وعنايته، وأنجاهم في أحلك الظروف وأسوأ الأحوال.

قال تعالى: ﴿ **وأُوحي إلىٰ نوح أنَهُ لن يُؤمن من قومك إلاَ من قدْ آمن فلا تبْتئسْ بما كانُوا يفعلُون** ﴾[١] والمقصود من هذه الآية تخفيف الأمر على نوح ـ عليه السلام ـ وإراحته من دعوته قومه، وإخباره بأن ما ألح على ربه في طلبه من نصرته عليهم قد آن أوانه؛ فلا تحزن بما يفعلونه معك، فإن أمدهم قصير، وعقابهم عاجل. ثم بين له ما يعمله استعداداً لنجاته ومن آمن معه عند حلول العذاب بقومه، قال تعالى: ﴿ **واصْنع الْفُلْك بأعْيُننا** ﴾ أي: بتوفيقنا وحراستنا لما تصنع من أن يناله قومك بإتلاف، وبمرأى منا ﴿ **ووحْينا** ﴾ أي: بما نوحيه إليك من كيفية صنعها، والهيئة التي تبنى عليها[٢] ولعلمه ـ تعالى ـ بشفقة نوح على قومه مع ما لقيه منهم من صنوف الأذى والتكذيب المستمر، نهاه ـ سبحانه ـ على أن يخاطبه في قومه الظالمين بشفاعة واستعطاف لأن أمر إهلاكهم مبرم وواقع لا محالة، لا تدرؤه شفاعة نوح ـ عليه السلام ـ قال تعالى: ﴿ **ولا تُخاطبْني في الَذين ظلمُوا إنَهُم مُغْرقُون** ﴾[٣] ويصنع نوح الفلك وهي السفينة العظيمة في أوقات متطاولة؛ روي أنه صنعها من خشب الساج في سنتين، وكلما مر عليه جماعة من قومه ـ وهو يصنع فلكه ـ هزأوا به؛ لأنه كان يصنعها في برية بعيدة عن الماء مع من آمن به وهم قلة[٤].

---

(١) سورة هود: الآية (٣٦).

(٢) تفسير الجمل (٢/ ٣٩٤)؛ وانظر: تفسير النسفي (٢/ ١٨٧).

(٣) سورة هود: الآية (٣٧).

(٤) انظر: تفسير الجمل (٢/ ٣٩٦)؛ وانظر: تفسير النسفي (٢/ ١٨٧).

﴿ ويصنعُ الفُلْك وكُلَّما مرَّ عليه ملأٌ مِن قومه سخرُوا منْهُ قال إن تسخرُوا منَا فإنَّا نسْخرُ منكُمْ كما تسخرُون ﴾[١] أي: إن تسخروا منا الآن لتصوركم عجزنا عن نقلها إلى الماء فإنا نسخر منكم لا محالة عند حلول العذاب عليكم، كما تسخرون منا عند الصنع ريثما تفجّر الأرض كلها عيونًا، وينهمر ماء السماء ملتقيًا بماء الأرض.

ثم أخبرهم بقرب حلول عذاب الله عليهم ونصرة الله له ولمن آمن معه ﴿ فسوْف تعْلمُون من يأتيه عذابٌ يُخْزيه ﴾[٢] أي: يهينه ويشقيه؛ نحن أم أنتم؟ والمراد به عذابهم في الدنيا ﴿ ويحلُّ عليه عذابٌ مُقيمٌ ﴾[٣] أي: دائم لا ينفك والمراد به عذاب الآخرة[٤] أي: إن الله ـ تعالى ـ بسخطه عليكم قد انتقم منكم بإهلاككم في الدنيا ودوام عذابكم في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ حتَّىٰ إذا جاء أمْرُنا وفار التَّنُّورُ قُلْنا احْمل فيها من كُلٍّ زوْجيْن اثْنيْن وأهْلك إلاَّ من سبق عليْه الْقوْلُ ومنْ آمن وما آمن معهُ إلاَّ قليلٌ ﴾[٥] بيان لاستمرار صنع نوح للسفينة إلى وقت حلول عذابهم، وقوله ﴿ أمْرُنا ﴾ مشعر بالتفخيم تنبيهًا لهول وشدة الموقف، وقوله: ﴿ وفار التَّنُّورُ ﴾ فعن ابن عباس: «التنور وجه الأرض، أي: صارت الأرض عيونًا تفور حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماء» وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف[٦] وبهذا يجمع بين القولين الواردين في المراد بقوله: ﴿ وفار التَّنُّورُ ﴾ كما

---

(١) سورة هود: الآية (٣٨).

(٢، ٣) سورة هود: الآية (٣٩).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥).

(٥) سورة هود: الآية (٤٠).

(٦) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥).

قال تعالى: ﴿ **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (١١) وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر (١٢) وحملناه على ذات ألواح ودسر (١٣) تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر** ﴾[١].

ويفهم من الآية أيضًا ﴿ **وفار التنور** ﴾ أي: اشتد الأمر، كما يقال: حمى الوطيس، وقيل: فار تنور الخبز بالماء مع وجود النار فيه فلم ينطفيء بالماء، وكان ذلك علامة لنوح ـ عليه السلام ـ ليستعد لركوب السفينة[٢] ولما فار التنور أمر الله ـ جل وعلا ـ نبيه نوحًا ـ عليه السلام ـ أن يحمل في السفينة ثلاثة أنواع:

الأول: أشار إليه بقوله: ﴿ **قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين** ﴾ الزوج يطلق على الزوجة وحدها وعلى الزوج وحده، والمراد هنا من كل فردين متزاوجين اثنين. فالزوج ما له مشاكل من نوعه ـ أي: اثنان ـ كل منهما زوج للآخر من الحيوانات، وقدم ذلك على أهله وسائر المؤمنين لأنه يحتاج بذل الجهد لتخليصه من الهلاك، أما الإنسان العاقل فهو يدخل إلى الفلك باختياره، أو لأنها تحمل بمباشرة البشر وهم إنما يدخلونها بعد حملهم إياها[٣].

الثاني: النوع الثاني أشار إليه بقوله: ﴿ **وأهلك** ﴾ عطف على زوجين أو على اثنين، والمراد به أبناؤه ونساؤهم.

وقوله: ﴿ **إلا من سبق عليه القول** ﴾[٤] بأنهم من المغرقين بسبب كفرهم وظلمهم، كما قال تعالى: ﴿ **ولا تخاطبني في الذين ظلموا** ﴾[٥] والمراد بهم ابنه

---

(١) سورة القمر: الآيات من (١١) إلى (١٤).

(٢) انظر: تفسير الجمل (٢/ ٣٩٧)؛ وانظر: تفسير أبي السعود (٢/ ٢٠٨).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود (٢/ ٢٠٨).

(٤) سورة هود: الآية (٤٠).

(٥) سورة هود: الآية (٣٧).

وامرأته[١] وكانا كافرين.

الثالث: النوع الثالث أشار إليه بقوله: ﴿ **ومن آمن** ﴾ أي: من قومك، والإتيان بصيغة الإفراد في ﴿ **آمن** ﴾ للدلالة على قلتهم، كما قال تعالى: ﴿ **وما آمن معهُ إلاَّ قليلٌ** ﴾ وهذا على الرغم من طول المدة التي دعاهم فيها واستعمال شتى الوسائل ومختلف الطرق.

وقال تعالى: ﴿ **وقال اركبُوا فيها بسْم اللَّه مجْراها ومُرْساها** ﴾ القائل هو نوح - عليه السلام - والركوب هو العلو على ظهر الشيء، ومنه ركوب الدابة وركوب السفينة، وكل شيء علا شيئًا فقد ركبه.

وقوله: ﴿ **فيها** ﴾ أي: في باطنها، ولا تعلوا على ظهرها لئلا تروعوا بما ترونه من هول الطوفان ﴿ **بسْم اللَّه** ﴾ متعلق بـ ﴿ **اركبُوا** ﴾ حال من الواو في «اركبوا»، أي: فأمرهم بأن يركبوا مسمين الله أو قائلين بسم الله.

﴿ **مجْراها ومُرْساها** ﴾ أي: بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، فلا تستعجلوا سيرها ولا رسوها، بل كونوا مفوضين مسلمين، شاغلين أنفسكم بحمد الله - تعالى - أن هداكم للإيمان الذي به نجيتم من هذا العذاب. ولذلك أمر الله نوحًا - عليه السلام - أن يشغل نفسه بحمده - تعالى - أن نجَّاه من القوم الظالمين، ولا شك أن مَن معه فعلوا مثل فعله، ولكنه - تعالى - خَصَّ نوحًا باستمرار الحمد من بين قومه لبيان أن ذلك منه عامل من عوامل سلامه السفينة بمن فيها، قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ **فإذا استويْت أنت ومن مَعك على الْفُلْك فقُل الْحمْدُ للَّه**

---

(١) كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ سورة التحريم: الآية (١٠).

الذي نجانا من القوم الظالمين ﴾[١].

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي: غفور للذنوب والخطايا ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بعباده المؤمنين، ولذلك أنعم عليكم بإنقاذكم من الغرق والهلاك، وفيه دلالة على أن نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها بل بمحض فضل الله وغفرانه ورحمته، وقوله: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ هذه الآية تصور لنا مدى الفزع والهول والعذاب الذي حل بقوم نوح، والذي هو نهاية كل صراع باطل، والضمير في ﴿ وَهِيَ ﴾ يعود على السفينة ﴿ تَجْرِي ﴾ من الجري، وهو السير بسرعة ﴿ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ في صخامة وعلو الجبال. وجريها كذلك من المعجزات العظمى التي أكرم الله بها نوحًا ـ عليه السلام ـ لأنك إذا عرفت أن ماء السماء قد التقى بماء الأرض، وأن كل مكان من الأرض صار عينًا تتفجر بالماء، علمت أن السفينة بهذا الحال لا يمكن أن تتمكن من الجري، بل هي في علو وانخفاض في هذه الحالة: في علو بما يدفعها من أسفلها من قوة الماء النابع من الأرض، وفي انخفاض أو انكفاء بما يصب من ماء السماء، لكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمسك الماء من فوقها، وجعلها تجري في أي اتجاه يريده الله ـ تعالى ـ إكرامًا لنوح وقومه، ومؤانسة لقلوبهم وإشعارهم بعناية الله ـ تعالى ـ بهم بجعل ما ليس ممكنًا في هذه الأحوال ممكنًا حتى لا يأخذهم الروع والفزع من شدة ما يشاهدون.

ولكي تتصوّر هذه الشدة تأمّل قول الله ـ تعالى ـ ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾[٢] المنهمر: قال ابن

(١) سورة المؤمنون: الآية (٢٨).

(٢) سورة القمر: الآيات من (١١) إلى (١٤).

قتيبة: هو الكثير السريع الانصباب.

قال المفسرون: جاءهم الماء من فوقهم أربعين يومًا، وفجرت الأرض من تحتهم عيونًا أربعين يومًا[١] كما قيل. ومعنى ﴿ **على أمر قد قُدر** ﴾ أي: التقى الماءان على الكيفية التي قدّرها الله ـ سبحانه وتعالى ـ أو على أمر مقدر في اللوح المحفوظ، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان. وتأمل قوله تعالى: ﴿ **تجري بأعيننا** ﴾ أي: محفوظة بحفظنا، سائرة بقدرتنا، إذ لا يتسنى لها في العادة مع ما يحيط بها ـ كما ذكرت سابقًا ـ أن تحفظ في جريها لولا عناية الله ـ تعالى ـ.

وقوله تعالى في هود: ﴿ **وهي تجري بهم في موج كالجبال** ﴾[٢] في ضخامة وعلو الجبال. والجريان للسفينة والأمواج العالية التي اعتلت رؤوس الجبال إنما تحدث بسبب شدة الرياح العاصفة الشديدة، التي زادت الموقف هولاً وصعوبة مع كثافة الأمطار الساقطة لتصوّر لنا مدى ما صبَّ على قوم نوح من العذاب الأوجع، كما يجلّي لنا نهاية كل كافر معاند، وأن أهل الباطل وإن كثر عددهم مهما تشبثوا به واجتمعوا عليه مخذولون ذاهبون معه، وأن أهل الحق وإن قلوا منصورون مُؤَيدون بقوة الله ـ تعالى ـ فالباطل وإن طال أمده زاهق، والحق مهما عورض وحجبت أنواره فهو مزهر ثابت كما قال تعالى: ﴿ **وقُلْ جاء الْحقُّ وزهق الْباطلُ إنَّ الْباطل كان زهُوقا** ﴾[٣] فلا يجدي استمساك بباطل مع حكم الله عليه بالزهوق، وهو الاضمحلال وعدم الثبوت، ولا يضر الحق قلة أهله لأن الله جاء به وأراد ثباته ودوامه، وهكذا لم يفد قوم نوح مغالبتهم له ألف سنة إلا خمسين

---

(١) انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، (٨/ ٩٢).

(٢) سورة هود: الآية (٤٢).

(٣) سورة الإسراء: الآية (٨١).

عامًا، وكان مصيرهم إلى الهلاك والغذاب الشديد كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[1].

* * *

(١) سورة هود: الآية (١٠٢).

خلاصة ما جاء في الفصل الثاني

١ ـ من الفوائد العظيمة لذكر القصص لجملة من الرسل ما يلي :

* التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبينات ليس من خواص قوم ـ محمد ـ ﷺ ـ بل هي عادة جميع الأمم السابقة .

* أن الله تعالى يبن أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان هو اللعن في الدنيا ، والخسارة في الآخرة ، ليقوي قلوب المحقين ويكسر قلوب المبطلين .

* أن الله ـ تعالى ـ يمهل المبطلين ، ولا يهملهم ، بل ينتقم منهم على أكمل وجه .

* أن هذه القصص دالة على نبوة رسول الله محمد ـ ﷺ ـ لأن هذه القصص رواها بلا تحريف فهي بوحي من الله إليه ، ولذلك يدل على صحة نبوته .

٢ ـ مكث الناس يعبدون الله الواحد القهار بعد موت آدم ـ عليه السلام ـ طوال عشرة قرون .

٣ ـ الملأ : هم أشراف القوم ووجهاؤهم ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يرجع إلى قولهم ، وقد تكرر ذكر الملأ في سور كثيرة من القرآن ، ليبين أن الملأ في كل أمة هم سبب شقاوتها وحجب النور والهداية عنها ، وأن عامة الناس لو خلوا وطبعهم ومافطروا عليه لآمنوا بالرسل أول ما جاءوهم .

٤ ـ بنى قوم نوح صراعهم وتكذيبهم على أمور خمسة .

* كونه بشراً مثلهم .

* كبر الملأ واستعلاؤهم .

* تكذيب نبيهم نوح وأتباعه من المؤمنين .

* الملائكة في نظرهم أولى بالرسالة .

* دعواهم أن ما جاءهم به نوح ـ عليه السلام ـ لم يسمعوا به في آبائهم الأولين .

٥ ـ لما أراد نوح أن يدافع عن نفسه أمام قومه وصف نفسه بأربع صفات كريمة .

* أنه صاحب الرسالة .

* أنه مبلغ عن الله ما فيه هدايتهم .

* أنه ناصح يتحرى ما فيه صلاحهم وخيرهم .

* أنه خُصَّ من بينهم بإحاطته بعلوم غيبية لا يعلمونها .

٦ ـ أوجه نصح نوح ـ عليه السلام ـ لقومه منها ما يلي :

* أنهم إذا آمنوا واتقوا غفر الله لهم ذنوبهم ، وأطال أعمارهم في هذه الدنيا .

* تنوع الوسائل التي اتخذها في دعوة قومه ، فكان لا يفتر عن دعوتهم آناء الليل وأطراف النهار .

* لفت أنظارهم إلى النظر في أنفسهم ، وفي عجائب صنع الله .

٧ ـ لما فار التنور أمر الله ـ جل وعلا ـ نبيه نوحًا ـ عليه السلام ـ أن يحمل في السفينة ثلاثة أنواع :

* أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين .

* أن يحمل فيها أهله من أبنائه ونسائهم .

* أن يحمل فيها من آمن معه من قومه .

الفصل الثالث

الصراع بين

هود - عليه السلام - وقومه

الفصل الثالث

الصراع بين ـ هود عليه السلام ـ وقومه

المبحث الأول: دعوة هود ـ عليه السلام ـ لقومه .

وفيه شرح عام للأساليب التي اتخذها في دعوة قومه إلى الله ـ تعالى ـ .

المبحث الثاني: أولاً : موقف الكافرين المعاندين من دعوة هود ـ عليه السلام ـ

ثانياً : دفاع هود ـ عليه السلام ـ عن نفسه .

المبحث الثالث: موقف هود ـ عليه السلام ـ من الكافرين المعاندين :

أولاً : مجاهدة هود ـ عليه السلام ـ لقومه ورده لشبهاتهم

ثانياً : مصير الكافرين المعاندين

المبحث الأول
دعوة هود ـ عليه السلام ـ [١] لقومه
مع شرح موجز للآيات

مقدمة:

ينبغي قبل الشروع في دعوة هود لقومه، وعنادهم له، وإصرارهم على مجانبة الحق، واغترارهم بباطلهم وما أوتوا من قوة تفردوا بها، أن أقدم لذلك بقوله تعالى: ﴿ **قيل يا نُوحُ اهْبِطْ بسلامٍ مِنَّا وبركاتٍ عليْكَ وعلىٰ أُممٍ مِمَّن مَعَك وأُممٌ سنُمتِّعُهُمْ ثُمَّ يمسُّهُم مِنَّا عذابٌ أليمٌ** ﴾ [٢].

فإن هذه الآية الكريمة قد صورت أحوال البشرية إلى آخر الدهر، وأن طوفان نوح ـ عليه السلام ـ الذي لا ينكر وقوعه أحد من بني آدم [٣] من بعد نوح ـ عليه السلام ـ لم يمنع الشاردين عن طريق الله أن يتركوا شرودهم لأن النسيان صفة

---

(١) هود: هو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ من قبيلة يقال لهم: عاد كانوا عربًا يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل، وكانت باليمن من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها: الشحر، واسم واديهم مغيث، وكانوا كثيرًا ما يسكنون الخيام ذات الأعمدة الضخام كما قال تعالى: ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد * أرم ذات العماد** ﴾ سورة الفجر الآيتان ٥، ٦.

(٢) سورة هود: الآية (٤٨).

(٣) قد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان، وهؤلاء من زنادقة المجوس عبّاد النيران وأتباع الشيطان. انظر: البداية والنهاية (١/ ١٨١).

الإنسان، وأكثر الناس ينسون ما يصلحهم ويسعون فيما يضرهم. وكان المتوقع بعد طوفان نوح ـ عليه السلام ـ ألا يكفر كافر بالرحمن لأن هذا الحدث كما قلت معلوم للعالم والجاهل على السواء، وحتى أسفار العهد القديم الزائفة لم تغفل ذكر طوفان نوح ـ عليه السلام ـ مع أن اليهود ـ عليهم اللعنة ـ حاولوا أن يطمسوا كل حق ما استطاعوا، وأن يظهروا كل باطل ما وسعهم السبيل إلى ذلك، بل سائر أساطير الأمم القديمة لا تخلو من ذكر الطوفان، ولكن الإنسان الذي لم يتسلح بقوة الإيمان عندما تمسه العافية وتكثر لديه النعمة يتمرد على ربه ـ جل وعلا ـ وينسى نعمته، وأجلى مثل على ذلك صراع عاد مع نبيهم هود ـ عليه السلام ـ لأن عادًا هم خلفاء قوم نوح في الأرض، وهم وإن كانت مساكنهم الأحقاف فلا يمنع من انتشارهم في غيرها من الأرض التي عاش فيها قوم نوح ـ عليه السلام ـ وهم بيقين أدرى بالطوفان وعنفوانه، وأنه لم يترك شيئًا على ظهر الأرض إلا أتى عليه إلا موضع الكعبة كما روي عن بعض السلف[١].

ومع ذلك أمعنوا في كفرهم وضلالهم وغرورهم واستكبارهم كما ستراه إن شاء الله في مباحث هذا الفصل.

نعود إلى قوله تعالى: ﴿قيل يا نُوحُ اهبِطْ بسلامٍ مِنَّا﴾ أي: بسلامة وأمان كائنين من ذاتنا لك، فلا روع ولا خوف عليك بعد ذلك. أو أن الله حيّاه بالسلام عند عودته إلى الأرض بسفينته مؤانسة لقلبه[٢] وتمام رضاه عنه، كما قال تعالى:

---

(١) أشار إلى ذلك الحديث الطويل الذي أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: «وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله». صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، (٧/ ٢١١)؛ وانظر: الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله: أخبار مكة المشرفة، تحقيق رشدي الصالح ملحس، (مكة المكرمة: دار الثقافة، د.ت) ١/ ٥٠.

(٢) انظر: تفسير النسفي (٢/ ١٩٢).

﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ وبركات ﴾ أي: خيرات نامية في نسلك وما يقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الأرزاق.

وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّن مَّعَكَ ﴾ أي: ناشئة منك ومنتمية إليك فهو أبو البشرية الثاني، وهو الذي جعل الله ذريته هم الباقين، وإليهم ينتمي جميع الأمم، وفي هذه الآية بشارة عظيمة لأمة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إذ هي خير تلك الأمم، والمراد بهم الأمم المؤمنة.

وقوله تعالى: ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ المراد به الأمم الكافرة إلى أن تقوم الساعة. والمعنى: ممن معك الذين أنجيناهم في السفينة أم ستكفر بنا ولم تتعظ بما حصل لمن كذبك، سنمتعهم بنعمنا في الدنيا التي تطغيهم وتنسيهم ذكرنا؛ لأنَّا سخطنا عليهم، ثم ينالهم منا عذاب أليم موجع في الدنيا بإهلاكهم بأنواع من الهلكة كما أهلكنا قومك، وبعذابنا الشديد الدائم في الآخرة الذي ينسون به ما متعناهم به في الدنيا، ومن هؤلاء الممتَّعين في الدنيا الهالكين بالكفر والتكذيب عاد قوم هود ـ عليه السلام ـ، وسأشرع بعون الله وتوفيقه في بيان الآيات الكريمات الخاصة في إيضاح دعوته لقومه والأساليب التي اتخذها في دعوة قومه، والله أسأل التوفيق والسداد.

تنبيه[*]:

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ

---

(١) سورة الصافات: الآية (٧٩).

(*) أنبه القارىء الكريم إلى أني سأقدم أحيانًا تفسير بعض الآيات مخالفًا بذلك ترتيبها في المصحف جمعًا لأطراف المبحث الواحد. ووضع آيات كل مبحث تحته لتعم الفائدة. فإذا وجدتني قد تجاوزت آية إلى ما بعدها ثم عدت إليها فهو شيء مقصود.

﴿ أفلا تتقون ﴾[١] هذه الآية بينت أول ما دعا هود ـ عليه السلام ـ قومه إليه وهو عبادة الله ـ عز وجل ـ وهي أول ما يدعو أي نبي قومه إليه، كما قال تعالى: ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[٢].

ولقد أمعن قوم عاد في كفرهم وضلالهم وجبروتهم وظلمهم فمنّ الله ـ جل وعلا ـ عليهم بأن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم لينقذهم من أوحال الشرك والضلال، وهو بمثابة الناصح الأمين الحريص على إنقاذهم من الهلاك، الراغب في نجاتهم وفلاحهم.

قال تعالى: ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ﴾ الجملة معطوفة على سابق والتقدير: لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه، وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا. وقوله تعالى: ﴿ أخاهم ﴾ أي: من جنسهم ومن قبيلتهم يعرفون نسبه وخلقه، وهذا من سنن الله في خلقه أن يبعث في كل أمة رسولاً منهم يعرف كل منهما حال الآخر ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ﴾[٣] وحده لا شريك له فهو المستحق للعبادة دون سواه وناداهم بـ ﴿ يا قوم ﴾: يتودد إليهم ويُذكِّرهُم بالأواصر التي تجمعهم لعل ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم وثقتهم به.

﴿ ما لكم من إله غيره ﴾ استئناف بياني لتعليل العبادة المأمورين بها، والمعنى أي: خصّوه بالعبادة ولا تشركوا به، إذ ليس لكم معبود سواه ﴿ أفلا تتقون ﴾؟ استفهام إنكاري: ينكر عليهم نبيهم ـ عليهم السلام ـ عدم اعتبارهم بما حل من العذاب الأليم لأسلافهم من قوم نوح، وإصرارهم على عبادة الأصنام واتخاذها آلهة تعبد من دون الله.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٥).

(٢) سورة النحل: الآية (٣٦).

(٣) يلاحظ أنه في قصة هود قال: ﴿ يا قوم ﴾ ولم يقل: (فقال) كما في قصة نوح، والجواب أنه هو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: قال يا قوم اعبدوا الله.

وإنما لم يخوفهم بحلول العذاب العظيم عليهم من أول الأمر[١] للفرق بينهم وبين قوم نوح؛ فإن قوم نوح لم يسمعوا بأمة قبلهم كذبت فعذبت أما هؤلاء فهم بنص القرآن خلفاء من بعد قوم نوح، وأمر الطوفان لا يخفى عليهم، لكنهم لتجبرهم وفرط غفلتهم وتماديهم في الطغيان والعصيان نسوا ما حصل لأسلافهم فكان المناسب أن يوعظوا بما يرفع عنهم هذه الغفلة بتقوى الله ـ عز وجل ـ ولذا أنكر عليهم نبيهم تعاميهم وتركهم ما لو لزموه[٢] لآمنوا به، ولخافوا أن يحل عليهم عقاب أليم كما حل بقوم نوح ـ عليه السلام ـ.

وقد بين القرآن الكريم وسائل هود ـ عليه السلام ـ في دعوته قومه إلى توحيد الله وعبادته، ولقد بذل كل ما في وسعه في دعوة قومه، واستعمل شتى الأساليب لينقذهم من غفلتهم، ولكن القوم لخبثهم وتماديهم في الكفر قابلوا ذلك بالعناد، والسخرية منه والاستهزاء، والإعجاب بما أعطاهم الله من قوة في الأجسام، حتى أهلكهم الله وجعلهم آية لمن بعدهم، وإليك وسائل هود في دعوته لقومه:

أ ـ الترغيب:

وتراه واضحًا في قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ** ﴾[٣] وقد تكرر هذا النص بعينه في سورة هود: ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ**

---

(١) كما قال تعالى مخاطبًا لقوم نوح على لسان نبيهم ـ عليه السلام ـ: ﴿ **لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ سورة الأعراف: الآية (٥٩).

(٢) أي: تقوى الله والخوف منه، وأخذهم العبرة ممن سبقهم.

(٣) سورة الأعراف: الآية (٦٥).

غَيْرُهُ ﴾ [١] ويتجلى أسلوب الترغيب واضحًا في قوله: ﴿ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ وفي قوله: ﴿ قال يا قوم ﴾ فإن ذلك يعني اهتمامه بهم وحرصه عليهم لما استقر في الفطرة من حرص الإنسان على قبيلته وفئته التي ينتمي إليها.

ب ـ الترهيب:

وإنك لترى ذلك واضحًا في سورة الأعراف في قوله تعالي: ﴿ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾؟ فهو كما قلت(*) سابقًا استفهام إنكاري وتراه واضحًا أيضًا في هود ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴾ وهو أسلوب قصر يدل على غاية التعنيف والتوبيخ؛ ففي هذا الأسلوب قصر لهم على بعض صفاتهم الذميمة التي ذكّرهم القرآن بها، والمعنى: ما أنتم باتخاذكم الأصنام شركاء الله ـ عز وجل ـ، وزعمكم أن الله أمركم بعبادتها كذبًا وبهتانًا ﴿ مُفْتَرُونَ ﴾ أي: مختلقون على الله ـ تعالى ـ ما لم يأمر به، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

جـ ـ إزالة ما عسى أن يتوهموه من أن هودا ـ عليه السلام ـ قد سلك هذا المسلك وادعى تلك الدعوى ليصنع لنفسه جاها عند قومه، وليتوصل بذلك إلى نيل ما يشاء من أموالهم، فبّين ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأسلوب القصر أنه لا يسألهم على نصيحته إياهم أجرًا، وإنما يبتغي أجره من ربه الذي فطره على إمحاض النصح لهم ابتغاء وجهه ـ تعالى ـ والتقرب إليه بما يعمله من الصالحات، قال تعالى في سورة هود: ﴿ يا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [٢] وقد جاء بالموصل في قوله: ﴿ عَلَى الَّذِي ﴾ ولم يقل: (على الله) للتفخيم.

---

(١) سورة هود: الآية (٥٠).

(*) انظر: ص (٢٥٨) من بحثنا هذا.

(٢) سورة هود: الآية (٥١).

قال أبو السعود ـ رحمه الله ـ: «وإيراد الموصول للتفخيم، وجعل الصلة فعل الفطرة لكونه أقدم النعم المستوجبة للشكر الذي لا يتأتى إلا بالجريان على موجب أمره الغالب، معرضًا عن المطالب الدنيوية التي من جملتها الأجر»[١].

ولذلك عقب بقوله: ﴿ أفلا تعقلون ﴾! للتعجب من أمرهم وهم يتصورون ويظنون إنه أراد بدعوته إياهم حصوله على الثروة، ونسوا أنه رسول من عند الله ـ جلا وعلا ـ وهو ـ عزَّ وجل ـ المتكفل برزق عباده المذنبين فضلاً عن الطائعين، وناهيك بالأنبياء والمرسلين، ولو كان لهم عقول راجحة لأدركوا خطأهم فيما يظنون به.

د ـ حثهم على الاستغفار وعدم الاغترار بقوتهم:

ومن وسائل دعوته ـ عليه السلام ـ تنبيه قومه إلى قبح ذنوبهم، وقولهم عن ربهم ما لا يليق به ـ تعالى ـ وعن نبيهم ما هو بريء منه؛ فعاد إلى أسلوب الترغيب فقال: ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ﴾ أي: اطلبوا مغفرته لما سلف من قبح ذنوبكم فإنه سميع قريب ممن أناب إليه ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ بإقلاعكم عما كنتم عليه بعد تحصيلكم الإيمان بالله، وبنبيكم الذي تصح به توبتكم، ثم بيَّن لهم ما يترتب على التوبة والاستغفار ﴿ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ أي: يأتيكم بالمطر الكثير، وكانوا أهل زروع وجنات، فإذا آمنوا به واستغفروه وتابوا إليه أمن لهم الماء الذي هو الأساس في حياة زروعهم وجناتهم، وقيل: إن الله حبس عنهم المطر ثلاث سنين فوعدهم نبيهم إن هم آمنوا وتابوا من ذنوبهم أن يرسل عليهم المطر[٢]

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/ ٢١٦) بتصرف.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٤/ ٢١٧).

وقوله: ﴿ **وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ** ﴾[١] أي: قوة منضمة إلى قوتكم، وكانوا أقوياء أشداء مغترين بقوتهم حتى قالوا ما قصه الله عنهم: ﴿ **فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً** ﴾[٢].

هـ ـ تذكيرهم بنعم الله عليهم:

ومن وسائل دعوته ـ عليه السلام ـ لقومه حضه إياهم على تذكر ما خصهم الله ـ تعالى ـ به من نعم امتازوا بها على غيرهم، وقد أشارت سورة الأعراف إلى بعض تلك النعم:

قال تعالى: ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح** ﴾ أي: واذكروا وقت جعله ـ تعالى ـ إياكم خلفاء ﴿ **من بعد قوم نوح** ﴾ أي: في مساكنهم، أو في الأرض بأن جعلكم أمة قوية كثيرة العدد، لا ينال منكم نائل ولا يتمكن منكم طالب، فحقكم أن تذكروا فضل الله عليكم بهذا التمكين.

قال الألوسي ـ رحمه الله ـ: (إذ) منصوب علي المفعولية لقوله: ﴿ **اذكروا** ﴾ أي: اذكروا هذا الوقت المشتمل على النعم الجسام، وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مع أنه المقصود بالذات للمبالغة في إيجاب ذكره، ولأنه إذا استحضر الوقت كان هو حاضراً بتفاصيله، وهو معطوف على مقدر كأنه قيل: لا تعجبوا وتدبروا في أمركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح»[٣]. ثم ذكرهم بنعمة أخرى.

وقوله تعالى: ﴿ **وزادكم في الخلق بصطة** ﴾ أي: آتاكم هيئات عظيمة في

---

(١) سورة هود: الآية (٥٢).

(٢) سورة فصلت: الآية (١٥).

(٣) تفسير الألوسي، (٨/ ١٥٦) بتصرف.

أجسادكم، وقوى بنيانكم بحيث قدرتم على ما عجز عنه غيركم، والمعنى: زادكم بسطة في الجسم على غيركم، فكيف تكفرون به مع ما خصكم به من هذه النعم الظاهرة؟

ولما نبههم هو بذكر ما خصوا به أمَرَهم بذكر آلائه بعامة لينالوا بذلك الفلاح في الدنيا والآخرة، وليس المقصود الذكر فقط بل المقصود ذكرٌ يؤدي إلى الإيمان بالله ـ عز وجل ـ وأن يعملوا صالحًا يرضاه، فإن الفلاح منوط بالإيمان والعمل، قال تعالى: ﴿ **فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[1] أمرهم ـ عليه السلام ـ أن يذكروا نعم الله الكثيرة عليهم غير هاتين النعمتين، وأن فلاحهم لن يكون إلا بهذا التذكر الذي يصلهم إلى ربهم، والذي يحملهم على إجلاله وتوقيره، وتصديق نبيه هود ـ عليه السلام ـ فيما جاءهم به من عنده، لكنهم كانوا قومًا معاندين مستكبرين، مغترين بقوتهم وما أوتوا من وفرة النعم، لذا لم يجد أسلوب التذكر بالنعم سبيلاً إلى عقولهم بل وقفوا من نبيهم موقف عناد واستهزاء.

❊ ❊ ❊

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٩).

المبحث الثاني

أولا : موقف الكافرين المعاندين من دعوة هود ـ عليه السلام ـ

من المعروف ـ وكما أسفلت سابقًا ـ أن لكل رسالة سماوية أعداء يحاولون أن يقفوا في مواجهة أهل الحق، فيناصبوهم العداوة، ويحاولوا بشتى الطرق التنقيص من قدرهم ومكانتهم، يعتمدون في ذلك على نظرة من حولهم إليهم وثقتهم لما ميزوا به من الثراء والنفوذ والوجاهة التي خصوا بها بين قومهم، وهؤلاء هم الملأ الذين أشار إليهم القرآن الكريم في أكثر قصص الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ[1] ومنهم ملأ عاد الذي قص الله موقفهم من نبيهم ووصفهم له بما هو بريء منه، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾[2].

والناظر إلى الآية الكريمة يلاحظ اتهام قوم هود لنبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بتهمتين:

الأولى: أنه متمكن في خفة عقل، راسخ فيها، وهو المراد من قولهم: ﴿ **فِي سَفَاهَةٍ** ﴾.

الثانية: أنه من الكاذبين، أي: فيما ادعاه من الرسالة.

---

(١) انظر: ص (٢٢٠) من بحثنا هذا، في مبحث الملأ.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٦٦).

وهناك تهمة ثالثة: في الآيات التي تليها[١] وهي استبعاد أن يكون الرسول المرسل إليهم بشرًا مثلهم، والأولى في نظرهم أن يكون ملكًا، وأرادوا بذلك الطعن في رسالته. تلك هي خلاصة التهم التي بنوا بها صراعهم مع نبيهم وأصروا على تكذيبه بعد أن عميت أبصارهم وقلوبهم عن معرفة الحق والاهتداء إلى الصواب، والتي أشارت إليها سورة الأعراف.

قال تعالى: ﴿**قال الْملأُ الَّذين كفرُوا من قومه**﴾[٢] خص ـ تعالى ـ الملأ بـ ﴿**الَّذين كفرُوا**﴾ لأن بعضهم على ما قيل قد آمن بهود ـ عليه السلام ـ فجيء بهذا الوصف لتمييز من آمن من الملأ ممن كفر، ويجوز أن يراد بوصفهم بالكفر ذم الملأ من عاد مطلقًا لا أن أحدًا من وجهاء القوم قد آمن بهود ـ عليه السلام ـ[٣] وسوّغ الرأي الأول أن نوحًا ـ عليه السلام ـ قد سبق هودًا ـ عليه السلام ـ وعلمُ قوم هود بأمر نوح وقومه متأكد، فصح أن يوصفوا بالذين كفروا لأجل هذا العلم، لأنه كان كافيًا في إيمانهم بنبيهم هود ونوح ـ عليهما السلام ـ لكنهم لفرط عنادهم، كفروا بجميع الرسل السابقين واللاحقين، قال تعالى: ﴿**إذْ جاءتْهُم الرُّسُلُ من بيْن أيْديهمْ ومنْ خلْفهمْ ألاَّ تعْبُدُوا إلاَّ اللَّه قالُوا لوْ شاء ربُّنا لأنزل ملائكة فإنَّا بما أُرْسلْتُم به كافرُون**﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿**إنَّا لنراك في سفاهة**﴾ أي: في خفة حلم[٥] وسخافة عقل،

---

(١) قوله تعالى: ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجلٍ منكم لينذركم﴾ سورة الأعراف: الآية (٦٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٦٦).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٣٨).

(٤) سورة فصلت: الآية (١٤).

(٥) انظر: لسان العرب، (١٣/ ٤٩٧).

وقد أكدوا قولهم هذا بثلاثة مؤكدات وهي: (إن) و (اللام) ثم جعلوا السفاهة ظرفًا على طريق المجاز؛ أرادوا أنه متمكن فيه غير منفك.

وقوله تعالى: ﴿وإنَّا لنظُنُّك من الْكاذبين﴾[١] أي: في ادعاء الرسالة، وقد أكدوا ظنهم كما أكدوا اتهامهم له بالسفه مبالغة منهم في الإساءة إليه، ولقد اختلف المفسرون في تفسير هذا الظن.

فقال بعضهم: المراد منه القطع والجزم، وله شواهد كثيرة من القرآن مثل قوله تعالى: ﴿الَّذين يظُنُّون أنَّهُم مُلاقُوا ربِّهِمْ وأنَّهُمْ إليْه راجعُون﴾[٢].

وقال آخرون: المراد به الشك، قال الحسن: «كان تكذيبهم إياه على الظن لا على اليقين، فكفروا به ظانين لا متيقنين، وهذا يدل على أن حصول الشك والتجويز في أصول الدين يوجب الكفر»[٣]. قلت: وأرجح أن الظن هنا بمعنى التردد لا بمعنى اليقين، وهذا يدلنا على مبلغ تأثير حجة نبيهم فيهم ـ عليه السلام ـ مما جعلهم متحيرين مضطربين في شأنه لا قاطعين جازمين.

أما تهمتهم الثالثة: هي تعجبهم من إرسال الله لهم بشرًا مثلهم، قال تعالى: ﴿أو عجبتُمْ أن جاءكُمْ ذكْرٌ مِن ربِّكُمْ علىٰ رجُلٍ مِنكُمْ لِينذِركُمْ﴾ فهذه الآية الكريمة سبق أن تكلمنا عنها بالتفصيل عند تعجب قوم نوح من بعثته، وكأنهم يزعمون أن الأولى أن يبعث الله لهم ملكًا لأنه أشد مهابة وأكمل طهارة، ويستبعد منه الكذب والباطل والبهتان، وقصدهم في ذلك الطعن في رسالة نبيهم هود ـ عليه السلام ـ[٤].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٦).

(٢) سورة البقرة: الآية (٤٦).

(٣) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ١٥٦).

(٤) انظر: من ص (٢٢٣) إلى ص (٢٢٤) من بحثنا هذا.

ثانيًا : دفاع هود ـ عليه السلام ـ عن نفسه

دافع هود ـ عليه السلام ـ عن نفسه وأوضح لقومه ما نسبوه إليه من التهم الباطلة وما ألصقوه به من افتراءاتهم وسفاهاتهم الكاذبة وإليك بيان ذلك :

أما تهمتهم الأولى كما أسلفت وكما حكى القرآن عنها بقوله : ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ** ﴾ فتلك هي فريتهم الأولى ، ولقددافع عن نفسه بحلم وسعة بال وصبر ، وأوضح لهم موقفه بالنسبة لهم ، ومكانته التي ميّزه الله بها ، فقال لهم :

﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ** ﴾ خاطبهم مستعطفًا لهم ، ومستميلاً لقلوبهم وأفئدتهم ﴿ **لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ** ﴾ أي : شيء منها فضلاً عن تمكني فيها كما زعمتم ، وقد نفى ـ عليه السلام ـ السفاهة ـ وهي كما أسلفت ـ خفة العقل وانعدام الحلم ـ عن نفسه الكريمة على أبلغ وجه ، فإن التاء للمرة ، والمعنى : ليس بي أيَّة سفاهة فضلاً عن وصفكم لي بانغماسي فيها . ولم أطل في توضيح ذلك اكتفاء بما ذكرته في قوله تعالى : ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ** ﴾ إذ ما قيل هناك ينطبق على ما هنا[1] .

قال الكشاف : «وفي إجابة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من نسبهم إلى الضلال والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء ، وترك المقابلة بما قالوا لهم ـ مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم ـ أدبٌ حسن ، وخلق عظيم ، وحكاية الله ـ عز وجل ـ ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف

---

(١) انظر : ص (٢٣٠) من بحثنا هذا .

يغضون عنهم ويسلبون أذيالهم على ما يكون منهم»[١].

قلت: وفي إجابة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من نسبهم إلى الضلال والسفاهة بما أجابوهم درس عظيم للدعاة إلى الله كي يتحلوا بالحكمة والموعظة الحسنة وحسن الخلق، والتلطف في إسداء النصيحة وعدم مقابلة الإساءة بمثلها متذكرين قوله ـ عز من قائل ـ: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا** ﴾[٢].

أما تهمتهم الثانية فقد رموه بالكذب، قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ ويرده قوله تعالى: ﴿ **وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾.

قال الألوسي: «والرسالة من قبله تعالى تقتضي الاتصاف بغاية الرشد والصدق»[٣] وقد نفى عن نفسه تهمة السفاهة دون تهمة الكذب لأن ما في حيز الاستدراك كفيل بإزالة تلك التهمة، إذ يستحيل أن يكون رسولاً من رب العالمين وهو متصف بالكذب، فإن أول أركان النبوة الصدق التام كما قرره علماء الكلام في مبحث النبوات[٤] ويجوز أن يكون الكذب نوعًا من السفاهة فيكون نفيها نفيه.

وأمر آخر وهو أنهم كانوا مترددين في كذبه كما رجحته آنفًا فيحينئذ لا مساغ لنفيه عن نفسه، وإنك لتلمح ما قررته إذا أنعمت النظر في التهمتين؛ فالأولي قولهم: ﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ** ﴾ أي: نعتقدك كذلك ولا نشك فيه بينما الثانية:

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري، (٢/ ٨٧).

(٢) سورة الفرقان: الآية (٦٣).

(٣) تفسير الألوسي، (٨/ ١٥٦).

(٤) ابن تيمية، تقي الدين أبي العباس أحمد: النبوات، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢)؛ الصابوني، محمد علي: النبوة والأنبياء، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ، ص ٤٠.

﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

ثم بين هود ـ عليه السلام ـ مهمته فيهم والتي خصّه الله بها فقال : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ﴾ أي : أوامره ونواهيه ، وهي متعددة بحيث يصلح أن تكون كل واحدة منها رسالة ولذا جمعه بالألف والتاء ، وعبر بالفعل المضارع ليؤذن بتجدد تبليغه لهم وإيقاظهم آنًا بعد آن ، وأنهم مهما صدوا فلن يكف عن تبليغهم رسالة ربهم حتى يحكم الله بينه وبينهم ، وأضاف نفسه إلى الجناب السامي إنباءً بعلو شأنه عند ربه ، وأنه لم يأتهم بما أتاهم به من عند نفسه ، ولأنهم كانوا كافرين ممعنين في الكفر غير مدركين لآثار الربوبية .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ بيان منه ـ عليه السلام ـ أنه ناصح لهم ، وأنه أمين فيهم وذو ثقة ، وأنهم كانوا يقرون له بالأمانة ورجاحة العقل قبل الرسالة فكيف يتهمونه بالسفاهة والكذب وقد جاءهم بالحق من ربهم؟ وقد عبر بالجملة الاسمية هنا لإفادة الثبوت والاستمرار[1] ولبيان أنه ـ عليه السلام ـ مقيم على نصحه أمين عليهم ، لا تفارقه هاتان الصفتان مهما تسافهوا عليه .

وقد تلخص دفاعه عن نفسه في نفي ما وصفوه به ، وأنه رسول من رب العالمين الذي يقيم الحجة على عباده بإرسال الرسل الذين ينقذهم بهم من الظلمات إلى النور ، وأنه مبلغهم رسالة ربهم ، وأنه لهم ناصح أمين ، أما تهمتهم الثالثة له بتعجبهم من كون أن الله يبعث رسولاً من بين أيديهم وأنه الأولى في نظرهم أن يكون ملكًا ، فقد وضحت هذه المسألة في قصة نوح ـ عليه السلام ـ بما يغني عن إعادتها هنا[2] .

---

(١) انظر : تفسير أبي السعود (٣/ ٢٣٨) .

(٢) انظر : من ص (١٩٠) إلى ص (١٩٣) من بحثنا هذا .

المبحث الثالث

موقف هود ـ عليه السلام ـ من الكافرين والمعاندين

أولاً : مجاهدة هود ـ عليه السلام ـ لقومه

كان المتوقع من قوم عاد أن يستجيبوا لنبيهم هود ـ عليه السلام ـ بعد أن حاجّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكنهم لسوء تفكيرهم وانطماس بصيرتهم أخذتهم العزة بالإثم، وغرتهم تلك النعم التي حباهم الله بها، فلم يقابلوا الدعوة بالإجابة، والنعمة بالشكر والإنابة بل جحدوا واستكبروا، وأمعنوا في ضلالهم وعتوهم، بل وصل بهم الأمر إلى تحديهم لنبيهم ـ عليه السلام ـ.

ولقد مكث ـ عليه السلام ـ يدعوهم صابراً محتسبًا، متحملاً كل أذى، وهم مصرون على تكذيبه وعناده، إلى حد أنهم طلبوا أن يأتيهم بالعذاب الذي توعدهم به ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[1].

وألخص عنادهم ذلك واستكبارهم ومجاهدته لهم بما يلي :

أ ـ استكبارهم عن دعوة نبيهم في تخصيص العبادة لله ـ عزوجل ـ:

قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾[2].

لقد دعا هود ـ عليه السلام ـ قومه إلى توحيد الله بالأدلة القاطعة، وذلك بأن يبَّن لهم أن نعم الله عليهم كثيرة عظيمة، وصريح العقل يدل على أنه ليس

(١، ٢) سورة الأعراف : الآية (٧٠).

للأصنام شيء من النعم على الخلق لأنها جمادات، والجماد لا قدرة له على شيء أصلاً، ومعلوم أن العبادة نهاية التعظيم، ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام، وذلك يدل على أنه يجب عليهم أن يعبدوا الله وأن لا يشركوا معه شيئًا من الأصنام، ثم إن هودًا ـ عليه السلام ـ لما ذكر لهم هذه الحجة اليقينية لم يكن من القوم جواب عن هذه الحجة التي ذكرها إلا التمسك بطريقة التقليد[١] فقالوا: ﴿ **قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** ﴾ وقد قالوا ذلك على سبيل الإنكار والاستهزاء: أجئتنا يا هود لأجل أن نعبد الله وحده ونترك ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان والأصنام؟ إنَّ هذا لن يكون منا أبدًا.

ب ـ طلبهم العذاب:

قال تعالى: ﴿ **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾[٢] وهذا مثيله في الأمم كثير كما قال تعالى: ﴿ **فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾[٣] وقول قريش: ﴿ **وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾[٤] وإنما قال قوم عاد لنبيهم ما قالوا من استعجالهم العذاب لأنهم كانوا يعتقدون كونه كاذبًا بدليل أنهم قالوا: ﴿ **وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ فلما اعتقدوا كونه كاذبًا قالوا له: ﴿ **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا** ﴾ وقصدهم بذلك أنه إذا لم يأتهم بذلك العذاب ظهر للقوم كونه كاذبًا ـ وحاشاه عن ذلك عليه السلام ـ وقولهم هذا تحدّ سافر لنبيهم هود ودعوته، ولكن هودًا أجابهم وحسم الموقف ردًا على سفاهتهم ولاستعجالهم العذاب بما قصه الله على لسانه:

---

(١) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ١٥٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٠).

(٣) سورة الشعراء: الآية (١٨٧).

(٤) سورة الأنفال: الآية (٣٢).

﴿ قال قد وقع عليكم من ربكم ﴾ أي: حق عليكم ووجب . . . أو المراد: قد نزل عليكم فقد جعل المتوقع الذي لابد من نزوله بمنزلة الواقع[١].

﴿ رجس ﴾ ليس المراد بالرجس هنا العذاب، فلو حملنا الرجس عليه لزم التكرار، بل المراد منه الزيادة في الكفر[٢] فعندما أصر القوم على التقليد وعدم الانقياد للدليل زادهم الله كفراً وضلالاً، ثم خصهم الله بمزيد من الغضب وهو قوله: ﴿ وغضب ﴾ والمراد به هنا هو العذاب الأليم الذي هو نهاية كل كافر جاحد، والتنوين في قوله: ﴿ رجس وغضب ﴾ للتفخيم والتهويل[٣].

وقوله تعالى: ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أي: أتخاصمونني؟ والاستفهام إنكاري ﴿ في أسماء سميتموها ﴾ أي: في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات لأنكم تسمونها آلهة، ومعنى الألوهية فيها معدوم محال وجوده، إذ المستحق للعبادة والذي لا ينبغي أن تصرف لأحد سواه إنما هو الله، أما هذه الأصنام التي زعمتم أنها آلهة فهي لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضررًا. وكانت لهم أصنام يعبدونها وهي: صداء، وصمود، والهباء[٤] وقوله تعالى: ﴿ ما نزل الله بها من سلطان ﴾ أي: ما نزل الله بها من حجة أو دليل يؤيد زعمكم في ألوهيتها، وإنما هي أصنام باطلة قلدتم آباءكم في عبادتها بدون علم ولا حجة ولا بينة.

ثم هددهم بالمصير المحتم عليهم فقال: ﴿ فانتظروا إني معكم من

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٣٩).

(٢) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ١٥٩، ١٦٠).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٣٩).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٤٠)، وتفسير النسفي، (٢/ ٦٠).

﴿ الْمُنتظرين ﴾[١] أي: انتظروا العذاب الذي استعجلتموه، وطلبتموه حين قلتم: ﴿ فأتنا بما تعدُنا ﴾ وهل تستطيع آلهتكم رد هذا العذاب عنكم؟ كلا ﴿ فانتظروا إني معكم من المُنتظرين ﴾ أي: منتظر لما يحل بكم من العذاب الأليم.

وإكمالاً للفائدة استكمل مجاهدة هود ـ عليه السلام ـ لقومه من سورة هود.

جـ ـ طلبهم البينة والمعجزة الدالة على صدقه:

قال تعالى: ﴿ قالُوا يا هُودُ ما جئتنا ببيِّنة ﴾[٢] أي: ما جئتنا بحجة وبرهان قاطع على ما تدعيه، وما نحن بتاركي عبادة آلهتنا التي عبدها آباؤنا من قبل بمجرد دعوى منك لم تقم عليها بينة ولا برهان قاطع، وقد جاءهم هود ـ عليه السلام ـ بالأمر الواضح الذي لا يحتاج في التدليل عليه إلى خارق من خوارق العادات لأنه دعاهم إلى عبادة الله وحده، ونبذ الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، وهذه الدعوى لا تحتاج إلى الاستدلال عليها بمعجزة حسية لأنها الفطرة السليمة ومنطق العقل السليم، وكان يكفيهم ما حلّ بقوم نوح في بيان عاقبة أهل الكفر العاكفين على عبادة الأصنام، فغَرقُ قوم نوح بالطوفان ـ كما قررته في أول البحث كاف في بيان سوء الكفر وخسران أهله، لكنهم لفرط عنادهم قد غفلوا عن ذلك أوّ تعاموا عنه، وكانوا يطلبون المعجزة الحسية عنادًا واستكبارًا فلم يجبهم الله لما طلبوا لبيان تعاليه عن هوى أهل الأهواء واقتراحهم من الآيات ما يشاءون، فمهمة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إنذار الكافرين بنقمة الله ـ تعالى ـ إن هم أقاموا على كفرهم في الدنيا والآخرة، وتبشير المؤمنين الموحدين بالكرامة والحياة الطيبة في الأولي والآخرة. وإنك لتجد هذا المعنى الذي أقرره واضحًا في الرد

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧١).

(٢) سورة هود: الآية (٥٣).

على اقتراح قريش على النبي ﷺ أن يأتيهم بالآيات الحسية ﴿ **ويقولُ الَّذين كفَروا لولا أُنزل عليه آيةٌ مِن ربِّه إنَّما أنت مُنذرٌ ولكُلِّ قومٍ هاد** ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿ **ويقولُ الَّذين كفروا لولا أُنزل عليْه آيةٌ مِن ربِّه قُلْ إنَّ اللَّه يُضلُّ من يشاءُ ويهدي إليه من أناب** ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ **وأقْسموا باللَّه جهْد أيْمانهمْ لئن جاءتْهمْ آيةٌ لَيُؤْمنُنَّ بها قُلْ إنَّما الآياتُ عند اللَّه وما يُشعركُمْ أنَّها إذا جاءتْ لا يُؤْمنُون (١٠٩) ونُقلِّبُ أفْئدتَهمْ وأبْصارهمْ كما لم يُؤمنُوا به أوَّل مرَّةٍ ونذرُهمْ في طُغْيانهمْ يعْمهُون** ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿ **وما نُرْسلُ بالآيات إلاَّ تخْويفا** ﴾(٤) ومن سننه تعالى أنه إذا خرق لقوم عادة فأصروا على الكفر أهلكهم الله بالعذاب، ولهذه القاعدة استثناء لا أدخل فيه تجنبًا للإطالة، ولذلك لم يأت الله عادًا بما اقترحوا وإنما خص الله هودًا ـ عليه السلام ـ بمعجزة حسة بينة لم يلتفتوا إليها لأنها لم تكن من نوع ما يطلبون، وهي مذكورة في قوله تعالى: ﴿ **من دُونه فكيدُوني جميعًا ثُمَّ لا تُنظرُون** ﴾(٥) أي: اجمعوا قوتكم غير مستعينين بالله ـ عز وجل ـ ولا تمهلوني في كيدكم فإنكم لم تبلغوا مني شيئًا.

قال صاحب الكشاف: «من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشًا إلى إراقة دمه يرمونه عن قوس واحد، وذلك لثقته بربه، وأنه يعصمه

---

(١) سورة الرعد: الآية (٧).

(٢) سورة الرعد: الآية (٢٧).

(٣) سورة الأنعام: الآيتان (١٠٩، ١١٠).

(٤) سورة الإسراء: الآية (٥٩).

(٥) سورة هود: الآية (٥٥).

منهم فلا تنشب فيه مخالبهم»[١].

فبالرغم من تجبر عاد في الأرض وتميزهم بالقوة الجسمية والمادية فإن أحدًا منهم لم يستطع أن ينال من هود ـ عليه السلام ـ شيئًا ومضى الأمر كما أخبر حتى جاءهم عذاب الله وهم في غيهم سادرون.

د ـ قذفه بالجنون:

قال تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ قال صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية: «﴿اعْتَرَاكَ﴾[٢] مفعول نقول، والمعنى: ما نقول إلا قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، أي: خبلك ومسك بجنون لسبك إياها، وصدك عنها وعداوتك لها، مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين، وتهذي بهذيان المبرسمين. وصدور هذا الاتهام منهم يدل على أنهم قوم جفاة غلاظ الأكباد، لا يبالون بالبهت، ولا يلتفتون إلى النصح، ولا تلين شكيمتهم للرشد»[٣].

وهنا لم يبق لهود إلا التحدي ومجاهدتهم بالوعيد والإنذار الأخير للمكذبين، مستعينًا بالله وحده، معتمدًا عليه، قائلاً لهم: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[٤].

وللزمخشري كلام نفيس أثبته بنصه لعظيم فائدته ولبلاغته: «أكد براءته من آلهتهم وشركهم، ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧٦).

(٢) قال صاحب اللسان: عرا، وعراني الأمر يعروني عروًا، اعتراني: غشيني وأصابني.

(٣) الكشاف للزمخشري (٢/ ٢٧٦).

(٤) سورة هود: الآية (٥٤).

وشهادة العباد، فيقول الرجل: الله شهيد علي أني لا أفعل كذا، ويقول لقومه: كونوا شهداء علي أني لا أفعله، فإن قلت: هلا قيل إني أشهد الله وأشهدكم؟ قلت: لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدة معاقده، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة، كما يقول الرجل لمن يبسر الثرى بينه وبينه: أشهد على أني لا أحبك. تهكمًا به واستهانة بحاله: ﴿ **مَمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ** ﴾ من إشراككم آلهة من دونه، أو مما تشركون من آلهة من دونه، أي: أنتم تجعلونها شركاء له ولم يجعلها هو شركاء، ولم ينزل بذلك سلطانًا ﴿ **فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ** ﴾ أعجّل ما تفعلون من غير انتظار فإني لا أبالي بكم وبكيدكم، ولا أخاف معرتكم وإن تعاونتم علي وأنتم الأقوياء الشداد، فكيف تضرني آلهتكم وما هي إلا جماد لا تضر ولا تنفع؟ وكيف تنتقم مني إذا نلت منها، وصددت عن عبادتها بأن تخبلني وتذهب بعقلي[1]؟ ﴿ **إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** ﴾[2] ومهما أنكرتم وكذبتم فهذه الحقيقة قائمة؛ حقيقة ربوبية الله لي ولكم، فالله الواحد هو ربي وربكم عليه توكلي وهو ثقتي وحافظي ﴿ **مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** ﴾ صورة محسوسة للقهر والقدرة؛ تصور القدرة آخذة بناصية[3] كل دابة على هذه الأرض بما فيها الناس، الناصية: أعلى الجبهة، فهو القهر والغلبة، والهيمنة في صورة حسية تناسب الموقف، وتناسب غلظة القوم وشدتهم، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم، وتناسب غلظ حسهم

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري، (٢/ ٢٧٦).

(٢) سورة هود: الآية (٥٦).

(٣) الناصية: أعلى الجبهة.

ومشاعرهم[١].

﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ فإن قلتَ: الإبلاغ كان قبل التولي فكيف وقع جزاء للشرط؟ قلتُ: معناه: فإن تتولوا لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ، وكنتم محجوجين بأن ما أُرسلت به إليكم قد بلغكم فأبيتم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول.

﴿ وَيَسْتَخْلِفُ ﴾ كلام مستأنف، يريد: ويهلككم الله ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ ﴾ بتوليتكم ﴿ شَيْئًا ﴾ من ضرر قط؛ لأنه لا يجوز عليه المضار والمنافع، وإنما تضرون أنفسكم[٢].

﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾[٣] يحفظ دينه وأولياءه، ولا تخفى عليه أعمالكم وما تكنه صدوركم. وكان ذلك آخر مجاهدته وجداله معهم، وقد أقام عليهم الحجة، وحق عليهم الوعيد والجزاء الشديد.

* * *

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب، (١٢/ ٥٨٢).

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري، (٢/ ٢٧٧).

(٣) سورة هود: الآية (٥٧).

ثانيًا : مصير الكافرين المعاندين من قوم عاد

لقد أجملت سورة الأعراف ما وقع على عاد من العذاب، ولم تبين كيفيته بل أخبرت عن تحقيق وقوعه عليهم ونزوله بهم لا محالة كما قال تعالى على لسان نبيه هود ـ عليه السلام ـ: ﴿ **قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ** ﴾[١] وقد توعدهم هود ـ عليه السلام ـ في سورة الأعراف بما حكاه الله في قوله تعالى: ﴿ **فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ** ﴾[٢] أي: انتظروا عذابكم الواقع لا محالة، والذي لا تملكون دفعه بحال ﴿ **إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ** ﴾ لهذا العذاب الذي يخزيكم به الله، وينجيني ومن معي من المؤمنين برحمة منه، ويقطع دابر الكافرين.

وقد ذُكر عذاب عاد في القرآن بأساليب متعددة، يعنيني منها آيات سورة الحاقة التي صورت لنا كيف كان هذا العذاب، قال تعالى: ﴿ **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ** ﴾[٣].

---

(١) انظر: تفسير الآية ص (٢٧١ ، ٢٧٢) من بحثنا هذا.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧١).

(٣) سورة الحاقة: الآيات من (٦) إلى (٨).

وإليك تفسيراً موجزاً للآيات:

فقوله تعالى: ﴿وأَمَّا عادٌ فأُهْلِكُوا بريحٍ صرْصرٍ عاتيةٍ﴾ ومثلها قوله تعالى: ﴿فأرْسلْنا عليْهِمْ ريحاً صرْصراً في أيّامٍ نَحساتٍ﴾[١] أي: مشئومات عليهم، وقوله: ﴿فأُهْلِكُوا بريحٍ﴾ أي: الدبور، لقوله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في الحديث الذي أخرجه البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «نصرت بالصبا[٢] وأهلكت عاد بالدبور»[٣].

وفي معنى الصرصر لعلماء التفسير وجهان:

الوجه الأول: أن الريح[٤] الصرصر هي الريح العاصفة الشديدة الهبوب

---

(١) سورة فصلت: الآية (١٦)، وانظر: النسفي (٤/ ٩١).

(٢) قوله: «نصرت بالصبا»: بفتح المهملة بعدها موحدة مقصورة يقال لها: القبول بفتح القاف لأنها تقابل الكعبة إذ مهبها من مشرق الشمس ونصرته ﷺ يوم الأحزاب. وكان المشركون زهاء اثني عشر ألف مقاتل حاصروا المدينة، فأرسل الله إليهم ريح الصبا باردة في ليلة شاتية، فسفت التراب في وجوههم، وأطفأت نيرانهم، وقلعت خيامهم فانهزموا من غير قتال، ولكنها لم تهلك أحداً ولم تستأصلهم لما علم الله من رأفة نبيه ﷺ بقومه رجاء أن يسلموا.
وضدها الدبور وهي التي أهلكت عاداً. ومن لطيف المناسبة كون القبول نصرت أهل الإقبال، وكون الدبور أهلكت أهل الأدبار وهي الريح العقيم؛ وسميت العقيم لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم. بتصرف من فتح الباري (٣/ ١٧٤).

(٣) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (٣/ ١٧٤).

(٤) **تنبيه**: هناك فرق بين الريح والرياح: فالريح لا تكون إلا للعذاب كما قال تعالى: ﴿**وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية**﴾ وقول السيدة عائشة كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به».
وأما الرياح فهي للرحمة وخير العباد، كما قال تعالى: ﴿**وأرسلنا الرياح لواقح**﴾ سورة الحجر الآية (٢٢).

التي يُسمع لهبوبها صوت شديد، وعلى هذا فالصرصر من الصرة التي هي الصيحة المزعجة.

ومنه قوله تعالى: ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾[١] أي: في صيحة. ومن هذا المعنى صرير الباب والقلم، أي: صوتهما.

الوجه الثاني: أن الصرصر من الصرِّ الذي هو البرد الشديد المحرق، ومنه على أصح التفسيرين قوله تعالى: ﴿كمثل ريح فيها صرٌّ ...﴾[٢] الآية. أي: فيها برد شديد محرق. ومنه قول حاتم الطائي.

أوقد فإن الليل ليل قر[٣] والريح يا واقد ريح صرِّ

علَّ يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفًا فأنت حر

فقوله: (ريح صرٍ) أي: باردة شديدة البرد.

والأظهر أن كلا القولين صحيح، وأن الريح المذكورة جامعة بين الأمرين؛ فهي ريح عاصفة شديدة الهبوب، باردة شديدة البرد. ا. هـ[٤].

قلت: والذي أرجحه هو الوجه الثاني، وهي كونها ريحًا باردة، فأما شديد هبوبها وعصفها وقوتها فمصرح به في قوله تعالى: ﴿عاتية﴾ وقوله: ﴿عاتية﴾ أي: شديدة العصف فما استطاعوا ردها والخلاص منها بحيلة من استتار ببناء، أو لياذ بجبل، أو اختفاء في حفرة، فإنها كانت تنزعهم من مكانهم وتهلكهم،

---

(١) سورة الذاريات: الآية (٢٩).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١١٧).

(٣) القر: البرد عامة. لسان العرب (٥/ ٨٢).

(٤) الشنقيطي، محمد علي: أضواء البيان. الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.

وذلك لشدة عتوها. وأصل العتو تجاوز الحد، ووصفها بالعتو مناسب لحالهم، وما كانوا عليه من الفظاظة والغلظة والعتو والاستكبار.

﴿ سخَرها عليْهمْ ﴾ أي: سلطها عليهم ـ عز وجل ـ بقدرته، وأدامها عليهم ﴿ سبْع ليالٍ وثمانية أيّام حُسُوما ﴾ أي: متتابعة، الليلة تلو الليلة، ليس بينهن فاصل حتى أتت عليهم واستأصلتهم.

ومعنى ﴿ حُسُوما ﴾ قيل: حاسمًا أثرهم، وقيل: حاسمًا خبرهم، وقيل: قاطعًا لعمرهم، وكل ذلك داخل في عمومه[1].

﴿ فترى الْقوْم ﴾ أي: إن كنت حاضرًا حينئذ فالخطاب فيه فرضي ﴿ فيها ﴾ أي: في الأيام والليالي.

﴿ صرْعى ﴾ أي: هلكى. جمع صريع، وهذه هي عاقبة ونهاية الصراع، لابد في النهاية أن ينتصر الحق على الباطل.

﴿ كأنّهُمْ أعْجازُ نخْلٍ خاوية ﴾ أصولها، ولقد شبههم بأعجاز النخل إشارة إلى عظم أجسامهم، قال ابن حجر: وفي التفسير أن الريح كانت تحمل الرجل فترفعه في الهواء، ثم تلقيه فتشدخ رأسه، فيبقى جثة بلا رأس، فذلك قوله: ﴿ كأنّهُمْ أعْجازُ نخْلٍ خاوية ﴾ وأعجاز النخل التي لا رؤوس لها.

هذا وقد عقد البخاري في كتاب بدء الخلق بابًا أشار إليه بقوله: «باب قول الله تعالى: ﴿ وإلىٰ عادٍ أخاهُمْ هُودا ﴾ وقوله: ﴿ إذ أنذر قومه بالأحقاف ﴾ إلى

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن للأصبهاني، ص ١١٨، والحسم: إزالة أثر الشيء، يقال: قطعه فحسمه، أي: أزال مادته، وبه سمي السيف حسامًا. وحسم الداء: إزالة أثره بالكي؛ انظر: مفردات القرآن للأصبهاني (١١٨).

قوله: ﴿ **كذلك نجزي القوم الظالمين** ﴾».

عن عائشة عن النبي - ﷺ -: وقول الله - عز وجل -: ﴿ **وأمَّا عادٌ فأُهلكُوا بريحٍ صرصرٍ** ﴾ شديدة ﴿ **عاتية** ﴾ قال ابن عيينة: عتت على الخزان[١] . . . إلخ[٢].

وتكميلاً للفائدة أنقل للقاريء الكريم ما كتبه علماء التفسير والتاريخ في بسط قصة عاد لمكان العظة والاعتبار، وإلا فجلي أن ما أجمله التنزيل الكريم لا غاية وراءه في ذلك، وما سكت عن بيانه من تلك القصص فلا حاجة إلى السعي وراءه لفقد القطع والجزم به اللهم إلا لزيادة الاتعاظ، وتقويه العبرة ولذا صح عنه ﷺ أنه قال: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»[٣]. وقصتهم على ما ذكره السدي ومحمد بن إسحاق ونقلها الألوسي وغيره أن عاداً قوم كانوا بالأحقاف، وهي رمال بين عمان وحضرموت وكانوا قد فشوا في الأرض كلها، وقهروا أهلها، وكانت لهم أصنام يعبدونها وهي: صداء وصمود والهباء، فبعث الله تعالى إليهم هوداً - عليه السلام - نبيًا وهو من أوسطهم نسبًا وأفضلهم حسبًا، فأمرهم بالتوحيد والكف عن الظلم فكذبوه، وازدادوا عتواً وتجبراً وقالوا: من أشد منا قوة؟ فأمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك، وكان الناس إذ ذاك إذا نزل بهم بلاء طلبوا رفعه من الله - تعالى - عند بيته الحرام؛ مسلمهم

---

(١) قال ابن حجر: أما تفسير ابن عيينة فرويناه في تفسيره رواية سعيد بن عبد الرحمن المخزومي عنه عن غير واحد في قوله: ﴿ عاتية ﴾ قال: عتت على الخزان وما خرج منها إلا مقدار الخاتم. ويؤيده ما أخرجه ابن أبي حاتم من حديث ابن عمر، والطبراني من حديث ابن عباس رفعاه «**ما فتح الله على عاد من الريح إلا موضع الخاتم، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والإرض، فرآهم الحاضرة فقالوا: هذا عارض ممطرنا، فألقتهم عليهم فهلكوا جميعًا**» انظر: فتح الباري (٧/ ١٨٦).

(٢) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (٧/ ١٨٦).

(٣) صحيح البخاري مع شرح فتح الباري (٧/ ٣٠٩).

ومشركهم، وأهل مكة يومئذ العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر، وكانت أمه كهلة من عاد، فجهزت عاد إلى الحرم من أماثلهم سبعين رجلاً منهم: قيل بن عنز، ولقيم بن هزال، ولقمان بن عاد الأصغر، ومرثد بن سعد الذي كان يكتم إسلامه، وجلهمة خال معاوية بن بكر، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية وكان خارجًا من الحرم فأنزلهم وأكرمهم إذ كانوا أخواله وأصهاره، فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر وتغنيهم قينتان لمعاوية؛ اسم إحداهما وردة والأخرى جرادة، ويقال لهما: الجرادتان، على التغليب، فلما رأي طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له شق ذلك عليه وقال: هلك أصهاري وأخوالي وهؤلاء على ما هم عليه، وكان يستحي أن يكلمهم خشية أن يظنوا به ثقل مقامهم عنده فشكا ذلك لقينتيه فقالتا: قل شعرًا نغنيهم به ولا يدرون من قاله لعل ذلك أن يحركهم، فقال:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يسقينا غمامَا

فتُسقى أرض عاد إن عادًا ... قد أمسوا ما يبينون الكلامَا

من العطاش الشديد فليس نرجو ... به الشيخ الكبير ولا الغلاما

وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهم عياما

وإن الوحش تأتيهم جهارًا ... ولا تخشى لعادٍ سهاما

وأنتم ههنا فيما اشتهيتم ... نهاركم وليلكم التماما

فقبِّح وفدكم من وفد قوم ... ولا لقوا التحية والسلاما

فلما غنتا بذلك قال بعضهم لبعض: يا قوم إنما بعثكم قومكم يتغوثون بكم من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا هذا الحرم واستسقوا لقومكم،

فقال مرثد بن سعد: والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم، وأنبتم إلى ربكم سقيتم فأظهر إسلامه عند ذلك، وقال:

عصت عاد رسولهم فأمسوا عطاشا ما تبلهم السماء
لهم صنم يقال له صمود يقابله صداء والهباء
فبصرنا الرسول سبيل رشد فأبصرنا الهدى وخلا العماء
وإنّ إله هود هو إلهي على الله التوكل والرجاء

فقالوا لمعاوية: احبس عنا مرثدًا فلا يقدمن معنا مكة فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا، ثم دخلوا مكة يستسقون فخرج مرثد من منزل معاوية حتى أدركهم قبل أن يدعوا بشيء مما خرجوا له، فلما انتهى إليهم قام يدعو الله ـ تعالى ـ ويقول: اللهم سؤلي وحدي فلا تدخلني في شيء مما يدعوك به وفد عاد، وكان قيل رأس الوفد فدعا وقال: اللهم اسق عادًا ما كنتَ تسقيهم، وقال القوم: اللهم أعط قيلاً ما سألك واجعل سؤلنا مع سؤله فأنشأ الله ـ تعالى ـ سحائب ثلاثًا: بيضاء وحمراء وسوداء ثم نادى مناد من السماء: يا قيل اختر لنفسك ولقومك من هذه السحائب ما شئت. قيل: وكذلك يفعل الله ـ تعالى ـ بمن دعاه إذ ذاك، فقال قيل: اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء، فناداه مناد: اخترت رمادًا رمدًا لا تبقي من آل عاد أحدًا، وساق الله ـ تعالى ـ تلك السحابة بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد يقال له: المغيث، فلما رأوها استبشروا وقالوا: هذا عارض ممطرنا فجاءتهم منا ريح عقيم، وأول من رأى ذلك امرأة منهم يقال لها: مهدر، ولما رأته صعقت فلما أفاقت قالوا: ما رأيت؟ قالت: رأيت ريحًا فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها، فسخرها الله ـ تعالى ـ عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا فلم تدع منهم أحدًا إلا أهلكته، واعتزل هود ـ عليه السلام ـ

ومن معه في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين به الجلود وتلذّ الأنفس، ثم إنه ـ عليه السلام ـ أتى هو ومن معه مكة فعبدوا الله ـ تعالى ـ فيها إلى أن ماتوا، وقبره ـ عليه السلام ـ قيل هناك في البقعة التي بين الركن والمقام وزمزم، وفيها ـ كما أخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن بن سابط ـ قبور تسعة وسبعين نبيًا منهم أيضًا نوح، وشعيب، وصالح، وإسماعيل ـ عليهم السلام ـ وأخرج البخاري في تاريخه، وابن جرير وغيرهما عن علي ـ كرم الله تعالى وجهه ـ أن قبره ـ عليه السلام ـ بحضرموت في كثيب أحمر عند رأسه سدرة، وأخرج ابن عساكر عن ابن أبي العاتكة قال: قبلة مسجد دمشق قبر هود ـ عليه السلام ـ وعُمِّر كما أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ أربعمائة واثنتين وسبعين سنة، والله تعالى أعلم (١) (*).

❊ ❊ ❊

(١) تفسير الألوسي (٨/ ١٦٠، ١٦١).

(*) قلت: وهذه القصة التي ذكرها ابن إسحاق ونقلها الألوسي في تفسيره لم يرد فيها حديث صحيح يسلم بصحته وإنما هي قصة ذكرها المؤرخون ونقلها بعض المفسرين ولا يخفى ما فيها. والله أعلم.

خلاصة ما جاء في الفصل الثالث

١ ـ من سنن الله في خلقه أن يبعث في كل أمة رسولاً من جنسهم ومن قبيلتهم، ويعرف كل منهما حال الآخر.

٢ ـ كانت وسائل نبي الله هود ـ عليه السلام ـ في دعوته ما يلي:

* الترغيب.

* الترهيب.

* إزالة ما عسى أن يتوهموه من أن هوداً ـ عليه السلام ـ قد سلك هذا المسلك وادعى تلك الدعوى ليصنع لنفسه جاهًا عند قومه.

* حثهم على الاستغفار وعدم الاعتزاز بقوتهم.

* تذكيرهم بنعم الله عليهم.

٣ ـ اتهم قوم هود نبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بتهمتين.

* أنه من الكاذبين في دعواه بالرسالة.

* تعجبهم من إرسال الله لهم بشراً مثلهم.

٤ ـ يظهر عناد قوم هود واستكبارهم على دعوته في أمور.

* استبكارهم عن دعوة نبيهم في تخصيص العبادة لله عز وجل.

* طلبهم العذاب واستعجاله لهم إياه.

* طلبهم البينة والمعجزة الدالة على صدقه.

* قذفهم له ـ عليه السلام ـ بالجنون.

٥ ـ أهلك قوم عاد بريح صرصر، وهي الريح العاصفة الشديدة الهبوب، التي يسمع لها صوت شديد، أو الشديدة البرودة المحرقة، وقد سخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة قاطعة أثرهم وخبرهم.

* * *

الفصل الرابع
الصراع بين
صالح - عليه السلام - وقومه

الفصل الرابع

الصراع بين صالح ـ عليه السلام ـ وقومه

مقدمة: نبذة عن ثمود.

المبحث الأول: دعوة صالح ـ عليه السلام ـ لقومه.

وفيه شرح للأساليب التي اتخذها في دعوة قومه إلى الله ـ تعالى ـ.

المبحث الثاني: موقف الكافرين المعاندين من دعوة صالح ـ عليه السلام ـ.

المبحث الثالث: مصير الكافرين المعاندين والمكذبين من قوم صالح ـ عليه السلام ـ.

مقدمة:

نبذة عن ثمود[١]:

من المعروف قطعًا أن الله ـ جل وعلا ـ لم يخلق الخلق هكذا عبثًا ـ تعالى الله وتقدس عن ذلك ـ وإنما الحكمة في ذلك أنه خلقهم لعبادته ـ جل وعلا ـ وإظهار ربوبيته فيهم كما قال تعالى: ﴿ **وما خلقتُ الْجنَّ والإنس إلاَّ ليعبُدُون** ﴾[٢].

ومن رحمته ـ جل وعلا ـ بعباده أنهم كلما حادوا عن الصراط المستقيم، وكفروا به، وأشركوا معه غيره في عبادته أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم يدعوهم إلى عبادة الله ـ جل وعلا ـ وطاعته فيما أمر واجتناب كل ما نهى عنه وزجر، كما قال تعالى: ﴿ **رُسُلاً مُبشّرين ومُنذرين لئلاَّ يكُون للنَّاس على اللَّه حُجَّةٌ بعْد الرُّسُل وكَان اللَّهُ عزيزا حكيما** ﴾[٣].

وقد مَرَّ علينا في الفصل السابق قصة عاد مع نبيهم هود ـ عليه السلام ـ وكيف أنهم كذبوا نبيهم ـ عليه السلام ـ وأصروا على عبادة الأصنام والأوثان من دون الله، وأنهم لم يعتبروا بما حل بقوم نوح ـ عليه السلام ـ وقد كانوا خلفاء لهم، وكيف كان مصير المكذبين إلى الهلاك والعذاب الأليم.

ولما أهلك الله عادًا أعقبهم بثمود، وقوم ثمود: هم من نسل الصالحين من قوم عاد كما أن عادًا هم من نسل الصالحين من قوم نوح، ولكن البشر بتطاول

---

(١) ثمود قبيلة مشهورة باسم جدهم ثمود أخي جديس، وهما أبناء عابر بن أرم بن سام بن نوح، وكانوا عربًا من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك. ا. هـ. البداية والنهاية (١/ ١٣٠) وفي سبائك الذهب: ثمود: قال إنه في الأصل اسم لأبي القبيلة، ثم نقل وجعل اسمًا لها. ا. هـ. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ص ١٤.

(٢) سورة الذاريات: الآية (٥٦).

(٣) سورة النساء: الآية (١٦٥).

العهد والزمن ينسون ما حلَّ بمن قبلهم من العذاب فيستولي عليهم الشيطان، ويكذبون رسل الرحمن، ويغيرون شرع خالق الأكوان، وكان الأجدر بثمود أن يعتبروا بما حلَّ بالأمم الماضية التي سبقتهم مثل قوم نوح وعاد، ولكنهم كانوا كفرة عُتاةً جبارين إلا من رحم الله، فلم يشأ الله أن يهلكهم إلا بعد أن تقوم حجته عليهم بإظهار الحق لهم، ولذلك بعث فيهم نبيهم صالحًا[1] ـ عليه السلام ـ وسنعرف خَبرهم من خلال آيات سورة الأعراف التي هي موضع بحثنا: الصراع بين الحق والباطل، كما سيضطرني البحثُ إلى تناول القصة في سورتي هود والشعراء باعتبار أن القرآن جعل من دواعي إعجازه تفريق مشاهد القصة في أكثر من سورة من سوره ليبرهن بذلك على أنه كلام القوي القدير، وأنه يستحيل أن يكون لأحد في القرآن صنعة وعمل، فعلى سبيل المثال لقد أجملت سورة الأعراف هذه القصة بعض الإجمال، فلم تذكر من رد قوم صالح عليه إلا ما قاله الملأ المستكبرون للمستضعفين الذين آمنوا به ـ عليه السلام ـ كما سيمر بك، من أجل ذلك أجدني مضطرًا لتناول القصة في أكثر من سورة لأن ذلك أبين للصراع وأدل عليه، مُركِّزًا بالطبع على تفسير وتحليل آيات سورة الأعراف، ومستشهداً فقط ـ بتفسير وتعليق موجز ـ بما ذُكر في غيرها.

---

(١) هو صالح بن عبيد بن أسيف بن ماشخ بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام ابن نوح. ا.هـ. فتح الباري (٧/ ١٨٨).

المبحث الأول
دعوة صالح ـ عليه السلام ـ لقومه

هذه القصة الثالثة تصور مشهدًا من مشاهد الصراع بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ [١] أي: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا، فقوله: ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ منصوب بهذا الفعل المحذوف، والجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿ لقد أرسلنا نوحا ﴾ وقوله: ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ بيان لعلاقته بهم وحرصه عليهم، وأنه كان من أشرفهم نسبًا، وأنه كان معروفًا فيهم بالأخلاق والفضل، وأنه كان مرجوًا لسيادتهم لو لم يخرج عن دينهم وما ورثوه عن آبائهم، أو أنه كان مقصدًا لكل ذي حاجة منهم، مستشارًا مؤتمنًا في إظهار جليات ما خفي عليهم أو اضطرب رأيهم فيه.

يدل على ذلك قوله ـ تعالى ـ ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ﴾ [٢] أي: قبل هذا الذي جئتنا به فخالفتنا فيه ولم نعهده. من آبائنا وأسلافنا. ولذلك حسن أن تخبرنا سورة الأعراف بدعوة قومه مباشرة إلى عبادة الله وحده بعد هذا التعريف الموجز، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [٣] دعاهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مناديًا لهم بقوله: ﴿ يا قوم ﴾

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

(٢) سورة هود: الآية (٦٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

استمالة لهم، وتوددًا يذكرهم بالأواصر التي تجمعهم لعل ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم وثقتهم به.

ولقد دعاهم ـ كما دعا بذلك الرسل أجمعون ـ إلى عبادة الله وحده لا شريك له الواحد القهار، كما قال تعالى: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[1] والملاحظ في دعوة نوح وهود وصالح ـ عليهم السلام ـ أنهم قالوا جميعًا لأممهم أول ما قالوا: ﴿ **اعبدوا الله** ﴾ ولم يُتْبعوا ذلك بذكر أسمائه ـ سبحانه وتعالى ـ كلها أو بعضها دليلاً على أنهم كانوا يعرفون الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأنه وحده المستحق للألوهية، وأن ذلك هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأن كفر هذه الأمم وغيرها كان ضلالاً عن الفطرة، فالعلم به ـ سبحانه وتعالى ـ مستقر في الروح غير أن الحجب الناشئة عن سوء الأعمال جعلت هذا العلم ينزوي.

وقوله: ﴿ **ما لكم من إله غيره** ﴾ استئناف مسوق لتعليل العبادة المذكورة أو الأمر بها، أي: مالكم من إله غيره مطلقًا يستحق أن يعبد، أو: إني أمرتكم بعبادة الله لأنه الإله الحق الذي لا إله سواه، ولذا جيء بـ ﴿ **مِنْ** ﴾ هنا لبيان بطلان عبادة غير الله بالكلية؛ لأن حرف الجر الزائد في سياق النفي يفيد الاستغراق. والمعنى: ليس لكم من إله سواه ـ سبحانه وتعالى ـ فتأليهكم أصنامكم خروج بكم عن الفطرة السليمة، وتسفيه لعقولكم، ووصف ما لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر بما لا يستحق، وذا من البديهات التي لا يصح أن يختلف عليها قط.

كما أنه ـ عليه السلام ـ علم أن هذه الحجة العقلية لا تنقذهم من ضلالهم وحدها فزادهم تذكيرًا بأنعم الله عليهم التي لم يفضلها عليهم غيره، وهم لا

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

يشكون في ذلك أدنى شك، ولا يستطيعون أن ينسبوها لأحد غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأن السبب في ضلالهم هو النسيان والغفلة، ولذا قال لهم ما حكاه الله في سورة الأعراف: ﴿ **واذْكُرُوا إذْ جعلكُمْ خُلفاء منْ بعْد عاد** ﴾[١] وقد علمتم ما حل بهم من العذاب لما أصروا على تكذيب نبيهم هود ـ عليه السلام ـ وأنه ما كان لكم وجود لولا أنكم نسل الصالحين الذين آمنوا بهود ـ عليه السلام ـ.

ثم إن صالحًا ـ عليه السلام ـ لما علم أن هذه النعمة التاريخية قد لا توصلهم إلى المطلوب زادهم تذكيرًا بما مكّنهم الله من فعله وما بوّأهم به من الأرض، يتخذون من سهولها قصورًا، أي: يبنون فيها قصورًا لسكناهم في الصيف حيث يطيب الهواء في هذه السهول مما يخفف عليهم حرارة الصيف، وأنهم ينحتون في الجبال بيوتًا بما أقدرهم عليه وأعطاهم إياه من الوسائل، وكانوا ينحتون هذه البيوت في الجبال ليسكنوا بها أيام الشتاء[٢] وتأميلاً في الدنيا فقد رُزقوا فيها طول العمر مما سهل عليهم نسيان الموت والظن بالخلود في الدنيا، كما أن نحت البيوت في الجبال لا يحوجهم إلى تجديدها من حين لآخر.

قال تعالى: ﴿ **وبوّأكُمْ في الأرْض** ﴾[٣] أي: أنزلكم فيها وأسكنكم، أرضهم بين الحجاز والشام، وهي المسماة بالحجر[٤] في سورة الحجر في قوله تعالى: ﴿ **ولقدْ كذّبَ أصْحابُ الْحجْر الْمُرْسلين (٨٠) وآتيْناهُمْ آياتنا فكانُوا عنْها**

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٤.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٣/ ٢٤٣).

(٣) سورة الأعراف: آية (٧٤).

(٤) قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: وكانت منازلهم ـ قوم ثمود ـ بالحجر وهو بين تبوك والحجاز، قوله تعالى: ﴿ **هذه أنعام وحرث حجر** ﴾ سورة الأعراف، الآية (١٣٨) أي: حرام، قوله كل ممنوع فهو حجر، ومنه حجرًا محجورًا، أي: حرامًا محرمًا (٧/ ١٨٨).

مُعْرِضِينَ ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾[٢] أي: تبنون في سهولها قصورًا أو: تتخذون من هذه السهول لبنات تلك القصور ﴿ وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ أي: تجعلون منها بيوتًا صالحة لسكناكم واستقراركم ـ كما أشرت إلى ذلك آنفًا ـ ولم يُردْ صالح ـ عليه السلام ـ أن يعدد لهم كل ما أوتوا من نعمة فذلك لا يقدر عليه أحد، ولا يحيط به إلا الواحد الأحد.

ولذا قال ما حكاه الله: ﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ ﴾ والآلاء جمع إلْى، وألْو، وإلَى. قاله الواحدي[٣] وقال ابن عباس: «آلاء الله، أي: نعم الله عليكم»[٤].

والمعنى: اذكروا نعم الله الكثيرة عليكم النادة عن الحصر، فكيف تكفرون بالرحمن بعد هذه الدلائل؟ وقد أشارت سورة الشعراء إلى بعض ما حبوا به من النعم العظيمة، قال تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ[٥] ﴾[٦] كما نبههم إلى نعمة إنشائهم من الأرض، فإن أباهم آدم الذين هم من نسله، خلقه الله من التراب، وأن أجسامهم القوية تستمد قوتها مما أنبته الله لهم من الزروع والحبوب والفواكه، قال تعالى في سورة هود: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ

---

(١) سورة الحجر: الآيتان (٨٠، ٨١).

(٢) سورة الأعراف الآية (٧٤).

(٣) تفسير الرازي (١٤/ ١٥٨).

(٤) نفس المرجع السابق.

(٥) فارهين: حاذقين أو أشرين بطرين من غير حاجة لسكناها؛ انظر: تفسير النسفي، (٣/ ١٩٢) بتصرف.

(٦) سورة الشعراء: الآيات من (١٤٦) إلى (١٤٩).

﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي: أسكنكم وأنزلكم، فهو تكرار لقوله تعالى: ﴿ وبوأكم في الأرض ﴾ والتكرار لمتبلدي الأحاسيس، أو: جعلكم فيها أطول عمرًا من غيركم، وهذه نعمة عظمى فالبشر من قديم الزمن يتمنون طول العمر ويدعو بعضهم لبعض به، والدعاء من المؤمنين بطول العمر وصلاح العمل شرع ودين.

وقد ذكرت سورة هود أنه دعاهم إلى استغفار الله ـ تعالى ـ عن ما اقترفوا، والتوبة النصوح من كل ما هم عليه من سوء، فقال تعالى: ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴾[1] وما أحسن التعبير بـ (الفاء) و(ثم) وما أبدعه! وكذلك باسميه الكريمين: القريب والمجيب.

أما حسن التعبير بـ (الفاء) فهو راجع إلى حفزهم على الإسراع بالتخلص مما هم فيه عقيب قوله تعالى: ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ فإلهٌ هذا صُنعه بهم؛ حقيق بأن يذوبوا أسفًا على كل لحظة مرت عليهم وهم كافرون به، وإنه لحقيق بأن يستغفروه قبل أن تحل نقمته عليهم، فإنه الغني عن العالمين والكل في غاية الافتقار إليه.

وأما حسن التعبير بـ (ثُمَّ) فهو لبيان أن توبتهم لا تكون إلا بالمجاهدة الشديدة، المؤسسة على الإيمان، وأنهم لن يصلوا إليها إلا بذلك.

وأما حسن التعبير باسميه الجليلين: (القريب والمجيب) فهو لتعطيفهم نحو ربهم، وإشعارهم بقرب رحمته منهم ومن العالمين كافة، وأنه يجيب من لجأ إليه متى أناب إليه ورجع قبل أن يعاين العذاب، وأنه لا يجعل ماضي الكافرين وعصيانهم حاجبًا عن رحمته مع أنهم به ـ الماضي ـ حقيقون بألا يُرحموا. قال أبو

---

(١) سورة هود: الآية (٦١).

السعود ـ رحمه الله ـ: «وقد روعي في النظم الكريم نكتة؛ حيث قدَّم ذكر العلة الباعثة المتقدمة على الأمر بالاستغفار والتوبة، وأخّر عنه ذكر الغائبة المتأخرة عنهما في الوجود؛ أعني: الإجابة»[١].

وأعود إلى سورة الأعراف لاستكمال أسس دعوة صالح ـ عليه السلام ـ فإنه ـ عليه السلام ـ زجرهم عما هم عليه من فساد وعتو في الأرض، يفعلون ما يحلو لهم دون تذكر للمحاسبة والمعاقبة من الله لهم على عتوهم وفسادهم، فقال تعالى على لسانه ـ عليه السلام ـ: ﴿ **وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** ﴾[٢] والعثو[٣] هو الفساد في الأرض، لكنه جاء مؤكدًا بالحال لبيان ما كانت عليه ثمود من شدة الفساد في الأرض، ومجيء هذا النهي بعد تذكيرهم بأنعم الله عليهم له موقعه، فهو بمثابة العقاب لمن لم يثمر فيه الإحسان، وهو منهج قويم للدعاة يتعلمون منه ألا يشتدوا إلا بعد المبادأة بالدعوة والتذكير بالأمر الجميل ـ بالحكمة والموعظة الحسنة ـ وألا يفضحوا أخلاق المدعوين إلا بعد أن يتأكدوا بأن الرفق لم يثمر ولم يُجد معهم ولا يوصل إلى زوال الأخلاق السيئة منهم.

كما نهى عامتهم عن طاعة المسرفين منهم على أنفسهم، والذين يفسدون في الأرض ولا يكون منهم صلاح البتة، وذلك بعد أن دعاهم إلى تقوى الله وطاعته ـ عليه السلام ـ فيما دعاهم إليه. وقد ساق إليهم من الترغيب والترهيب ما يحملهم على تلك الطاعة، قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا**

---

(١) تفسير أبي السعود، (٤/ ٢٢١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٤).

(٣) قال ابن منظور: ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ من عثي يعثى عثوًا وهو أشد الفساد. بتصرف، انظر: لسان العرب (١٥/ ٢٨، ٢٩).

تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾[١].

قال النسفي: «﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ بالظلم والكفر ﴿ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ بالإيمان والعدل، والمعنى: أن فسادهم مصمت[٢] ليس معه شيء من الصلاح، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح»[٣].

❊ ❊ ❊

(١) سورة الشعراء: الآيات من (١٥٠) إلى (١٥٢).

(٢) أي: دائم.

(٣) تفسير النسفي، (٣/ ١٩٢).

المبحث الثاني
موقف ثمود من دعوة نبيهم صالح ـ عليه السلام ـ

مما سبق بيانه عن دعوة صالح ـ عليه السلام ـ لقومه يتضح لنا أنه ـ عليه السلام ـ دعا قومه إلى إخلاص العبادة لله ـ جل وعلا ـ واجتهد في نصحهم، وذكَّرهم بآيات الله ونعمه عليهم، وأقام لهم الأدلة القاطعة على صدقه وأمانته، ولكن قومه استحبوا العمى على الهدى، وأبدوا غاية الجحود والعناد والكفر، وأصروا على تكذيبه وعداوته. فيما يلي نتعرف على موقفهم من دعوة نبيهم ـ عليه السلام ـ.

أولاً: استنكروا دعوته إلى عبادة الله وحده وكذبوا رسالته:

لقد استحوذ عليهم الشيطان، وزين لهم الكفر بالله، وحببه إلى نفوسهم، وأعمى أبصارهم عن الاهتداء إلى الحق، وأصمَّ آذانهم فأنكروا على نبيهم نهيه لهم عن عبادة ما كان آباؤهم يعبدونه من الأصنام، وما استحلوه من الذنوب والآثام، فقالوا له على سبيل الإنكار: ﴿**قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا**﴾ وقد سبق أن تعرضت لصدر هذه الآية في أول هذا المبحث، ويهمني الكلام عن قوله تعالى: ﴿**أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ...؟**﴾[1] إنه التقليد الذميم للباطل القديم، الذي كان عليه الآباء والأجداد، دون تبصر للحق ودون تمييز!

---

(١) سورة هود: الآية (٦٢).

فالاستفهام فيها إنكاري بمعنى النفي، أي: لا يصح لك يا صالح أن تتعرض لهذه القضية المألوفة لنا الموروثة عن آبائنا، فإن التعرض لها يصرفنا عن قبول دعوتك؛ لأن قلوبنا مستقرة على ما نحن عليه، لو كان آباؤنا على باطل فيها لجاءتهم الرسل تنهاهم عن ذلك كما نهيتنا، والقوم في هذا مغالطون لأنهم خلفاء عاد، وقد بعث الله إليهم نبيهم هودًا ـ عليه السلام ـ بهذه الدعوة التي هي دعوة صالح ـ عليه السلام ـ.

وقوله تعالى: ﴿ **وإنَّنا لفي شكٍّ مِمَّا تدْعُونا إليْه مُريب** ﴾[1].

﴿ **وإنَّنا لفي شكٍّ** ﴾ قد عمّنا ولفنا، وحيرنا وأرابنا في أمرك بدعوتك إيّانا إلى التوحيد وترك عبادة الأوثان وغير ذلك من الاستغفار والتوبة. وهذا دليل على تأثير دعوة نبيهم فيهم، وهز عقائدهم الباطلة في نفوسهم، ولا يعني أنهم أكدوا شكهم فيما دعاهم إليه بـ(إن) و(اللام) وكونهم في هذا الشك جميعًا لأن عقائدهم لو لم تهتز في نفوسهم لقالوا: وإننا لفي يقين من بطلان ما تدعونا إليه وهكذا الباطل مهما تشبث به أصحابه، وحاولوا إظهاره، فإن نفوسهم لا تطمئن إليه، وقوله: ﴿ **مُريب** ﴾ أي: موقع في الريبة، من: أرابَه: أوقعه في الريبة، أي: قلق النفس وانتفاء الطمأنينة.

وقد بيّنت سورة الأعراف بطلان دعواهم، والإجماع على التشكك والارتياب في دعوته، حيث يقول تعالى: ﴿ **قال الْملأُ الَّذين استْكْبرُوا من قوْمه للَّذين استُضْعفُوا لمنْ آمن منْهُمْ أتعْلمُون أنَّ صالحًا مُرْسلٌ منْ ربِّه قالُوا إنَّا بما أُرْسل به مُؤْمنُون (٧٥) قال الَّذين استْكْبرُوا إنَّا بالَّذي آمنتُم به كافرُون** ﴾[2].

---

(١) سورة هود: الآية (٦٢).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (٧٥، ٧٦).

ونأخذ من هذه الآية جملة حقائق :

أولها : أن الملأ المستكبرين في كل أمة هم سبب شقائها .

ثانيها : أن ملأ ثمود قد راعهم إيمان بعض المستضعفين بصالح ـ عليه السلام ـ مع أن هؤلاء المستضعفين خاضعون لهم ، وما كانوا ملأ إلا بهم ، وقد يقوي هؤلاء المستضعفون بنبيهم صالح ـ عليه السلام ـ فيسلبون هؤلاء الملأ قوتهم .

ثالثها : محاولة ثَنْي المستضعفين عن إيمانهم بما قصه الله عنهم ﴿ **أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ** ﴾ ؟! فالاستفهام هنا ليس على حقيقته ، بل هو للتعجب من إيمان هؤلاء المستضعفين وإنكاره عليهم ، وقد أرادوا بقولهم هذا محاربة دعوة صالح ـ عليه السلام ـ والفتّ في عضد المستضعفين .

رابعها : أن الإيمان يزيل ضعف النفوس ، ويجعل المستكبرين المتجبرين غاية في الهوان في نظر المؤمنين ، ولذا لم يرهبهم المؤمنون ولم يخافوهم على أنفسهم ، مع كونهم مستضعفين كما حكته الآية ، بل قالوا مؤكدين إيمانهم بنبيهم بـ (إن) التي هي لتوكيد الخبر ﴿ **إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ** ﴾ وغرضهم من ذلك أن يُقنطوا الملأ من الطمع في كفرهم بعد أن هداهم الله للإيمان حيث عمموا الإيمان بكل ما أرسل به صالح ـ عليه السلام ـ مما يستغر به الملأ كدعوتهم للتوحيد ، ومما قد يسلمون به كدعوته إلى مكارم الأخلاق ، فإن مكارم الأخلاق تجذب الإنسان إليه وإن كانت عقيدته منحرفة ، ولذا جاء قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ** ﴾ ماضيًا مبنيًا لما لم يُسمَّ فاعله ليترجم عن قصد هؤلاء المستضعفين ، ولذلك قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ **لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ** ﴾ ولو قال تعالى : قال الملأ الذين استكبروا من قومه لمن آمن منهم . لفاتت هذه المعاني ولَظُن أن بعض الملأ قد آمن بصالح ـ عليه السلام ـ .

ولما يئس الملأ من تَوْهين إيمان المستضعفين واجهوهم بالإعلان عن كفرهم بما جاء به صالح ـ عليه السلام ـ وبما آمنوا به، وقد وصف الله ـ جل وعلا ـ ملأ صالح ـ عليه السلام ـ بالكبر مرتين في هاتين الآيتين لبيان أن سبب إعراض مَن أعرض عن دعوة صالح ـ عليه السلام ـ هو الاستكبار، لا عدم وضوح دعوته، أو مجيئه بما هو مستغرب في نفسه.

وهذا الكبر الذي وُصف به ملأ صالح ـ عليه السلام ـ هو داء سائر الأمم المكذبة، وإنك لتجده منصوصًا عليه في أغلب الأحيان، وفي بعضها تستشعره من حال بعض المستكبرين الذين لم يوصفوا به صراحة؛ لأنهم قد وصفوا بأوصاف أخرى تستدعي وتدل عليه كالكفر والترف والتكذيب بيوم الدين، وغير ذلك من الأوصاف.

وقد أسلفت الكلام عن الكِبْر بإيجاز في قصة آدم ـ عليه السلام ـ في بيان الوسائل التي يستخدمها الشيطان في إغواء بني آدم وإضلالهم[1].

ومن لطيف ما علّق به الفخر الرازي على تفسير هذه الآية: ﴿**قال الملأُ الذين استكبروا من قومه للذين استُضعفوا**﴾ قال: «إن وصف أولئك الكفار بكونهم مستكبرين فعل استوجبوا به الذم، ووصف أولئك المؤمنين بكونهم مستضعفين معناه أن غيرهم يستضعفهم ويستحقرهم وهذا ليس فعلاً صادرًا عنهم بل غيرهم، فهو لا يكون صفة ذم في حقهم، بل الذم عائد إلى الذين يستحقرونهم ويستضعفونهم»[2].

وأشار أبو السعود إلى فائدة عظيمة في تأويل الآية، فقال ـ رحمه الله ـ:

---

(١) انظر: من ص (١٧٧) إلى ص (١٧٩) من بحثنا هذا.

(٢) بتصرف من تفسير الفخر الرازي (١٤/ ١٦٥).

«وقوله: ﴿أتعلمون أنَّ صالحًا مُرْسلٌ مِن رَبِّه﴾؟! وإنما قالوا ذلك بطريق الاستهزاء بهم ﴿قالُوا إنَّا بما أُرسل به مُؤْمنون﴾ عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا: نعم، أو: نعلم أنه مرسل منه ـ تعالى ـ، مسارعةً إلى تحقيق الحق، وإظهار ما لهم من الإيمان الثابت المستمر الذي تنبيء عنه الجملة الاسمية، وتنبيهًا على أن أمر إرساله من الظهور بحيث لا ينبغي أن يسأل عنه، وإنما الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به.

وقوله: ﴿قال الْملأُ الَّذين اسْتكْبرُوا﴾ أعيد الموصول مع صلته مع كفاية الضمير إيذانًا بأنهم قد قالوا ما قالوه بطريق العتو والاستكبار.

وقوله: ﴿إنَّا بالَّذي آمنتُم به كافرُون﴾ وإنما لم يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون، إظهارًا لمخالفتهم إياهم، وردًا لمقالتهم». ا.هـ[1].

ثانيا: استنكروا بشريته واتهموه بالكذب والكبر:

استبعدت ثمود أن يبعث الله إليها رسولاً من أنفسهم، شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من الأمم، مثل قوم عاد ونوح، وقد تناولتُ هذه الشبهة عند حديثي عن قوم نوح وما ذكر هناك[2] ينطبق على ما هنا.

وإليك بيان قولهم كما حكاه القرآن على لسانهم بعد أن كذبوا بالأنبياء ﴿فقالُوا أبَشرًا مِّنَّا واحدًا نَّتَّبعُهُ إنَّا إذًا لَّفي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾[3].

قولهم: ﴿أبَشرًا﴾ إنكار لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية، ، طلبوا أن يكون من الملائكة لأن الملائكة في نظرهم أشد مهابة وأكمل طهارة . . . إلخ.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٣/ ٢٤٣).

(٢) انظر: من ص (٢٢٦) إلى ص (٢٢٩) من بحثنا هذا.

(٣) سورة القمر: الآية (٢٤).

وقولهم ﴿ مَنَّا ﴾ ما دام منَّا فلمَ خُص من بيننا بالرسالة؟ ولذلك قالوا: أبشرًا منا، وقولهم: ﴿ واحدًا ﴾ إنكار لأن تتبع الأمة رجلاً واحدًا. أو المراد إنكار أن تتبع الأمة شخصًا واحدًا من أوسطهم وليس من أشرفهم وأفضلهم، يدل عليه قولهم: ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ أي: أنزل عليه الوحي من بيننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة؟ ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾[1] أي: بطر متكبر، حمله بَطَره وطلبه التعظيم علينا على ادعاء ذلك[2].

ثالثا: كذَّبوا بالبعث وأنكروا وقوعه:

لقد امتنّ الله على ثمود بالنعم الوفيرة، فكانوا في رغد من العيش، أمدهم خالقهم بالقوة وبطول العمر[3] فضلاً عما حبوا به من الزروع والثمار، وفجَّر لهم العيون والأنهار، فكان اللائق بهم أن يزدادوا إيمانًا بالله وشكرًا لما أفاض عليهم لكنهم كفروا وجحدوا تلك النعم، وأعماهم حب الدنيا عن الإيمان باليوم الآخر فأنكروا وقوعه، واطمأنوا إلى دنياهم واستأنسوا بها، وقد أنكر عليهم نبيهم صالح ـ عليه السلام ـ ذلك، وقال ما قصه القرآن على لسانه: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾[4]. أي: إنه ـ عليه السلام ـ أنكر عليهم أن يُتركوا خالدين في نعيم لا يزالون عنه؛ لأن ركونهم

---

(١) سورة القمر: الآية (٢٥).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (٤/ ٢٠٤).

(٣) قال الألوسي نقلاً عن ابن إسحاق عند ذكر قصة ثمود: «إن عادًا لما هلكوا عمرت ثمود بعدها، واستخلفوا في الأرض وعمروا حتى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهدم والرجل حي، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتًا، وكانوا في سعة من معايشهم . . . الخ» (تفسير الألوسي ٨/ ١٦٦).

(٤) سورة الشعراء: الآيات من (١٤٦) إلى (١٤٨).

إلى ما حباهم الله به من النعم زين لهم حب دنياهم، أضف إلى ذلك ما دأبوا عليه من طول العمر، كما قال تعالى في معرض تذكيرهم بالنعم التي منّ الله بها عليهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وذلك بأن أطال أعمارهم، كل ذلك جعلهم ينسون الآخرة، ومع تطاول الأزمان كذبوا بالبعث وأنكروا وقوعه.

وقوله: ﴿آمِنِينَ﴾ من العذاب والزوال والموت، تتمتعون في جنات وعيون ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ الطلع هو ما يخرج من النخل كنصل السيف ﴿هَضِيمٌ﴾ ليّن نضيج، والمعنى: أمدكم بالنخيل الذي قد أرطب ثمره[1].

ثم حثهم على تقوى الله، واجتناب محارمه، وتذكر الموت الذي لا مفر منه لأنه سيُجازي كلاً منهم بعلمه، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: أطيعوني فيما جئتكم به، فإن في طاعتكم لي سعادتكم في دنياكم وآخرتكم.

رابعاً: رموه بالسحر:

عندما يعجز المكذبون للرسل عن مواجهتهم، ويشعرون أنهم قد غلبوا وهزموا وقد ألقموا الحجة، ليس هناك مخرج لهم إلا أن يتهموا نبيهم بالسحر، وبعضهم يتهمونهم بالجنون والعته.

فلقد حاجّ صالح ـ عليه السلام ـ قومه بالحجة والبرهان القاطع على صدق رسالته[2] فما كان لهم سبيل للخروج من مأزقهم الذي أوقعهم فيه إلا اتهامه بالسحر، كما قصه القرآن الكريم على لسانهم: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾[3].

---

(١) انظر: تفسير النسفي (٣/ ١٩٢).

(٢) إتيانهم بالمعجزة وهي الناقة العشراء أكبر برهان قاطع على صدق رسالته.

(٣) سورة الشعراء: الآية (١٥٣).

والْمُسَحَّر: الذي سحر كثيرًا حتى غلب على عقله[١] فلا يستطيع تمييز الحسن من القبيح والخير من الشر والصالح من الطالح، وقصدهم بذلك الطعن في رسالته.

خامسًا: طلبهم المعجزة الحسية:

قال تعالى في بيان إنكارهم دعوتهم، وتعنتهم معه بطلب الخوارق الحسية، والعجائب الخارجة عن المألوف: ﴿ **ما أنت إلاَّ بشرٌ مِّثْلُنا فأْت بآية إن كُنت من الصَّادقين** ﴾[٢] أي: بآية حسية خارجة عن نطاق العادة ﴿ **إن كُنت من الصَّادقين** ﴾ في دعوى النبوة والرسالة، وقد أعطاهم الله ـ تعالى ـ معجزة الناقة، وجعلها فتنة عظيمة لهم، حيث كانت سببًا في هلاكهم واستئصالهم لعدوانهم عليها.

ومن سنن الله ـ تعالى ـ في الأمم المكذبة أنهم إذا اقترحوا آية فأعطوها ثم لم يؤمنوا حل بهم عذاب الله ـ تعالى ـ، ولذلك لم تُجَبْ قريش في ما اقترحت على سيد الخلق ﷺ لأن الله لم يرد إهلاك هذه الأمة، ومعاملتها بما عومل به الأولون.

قال تعالى: ﴿ **وما منعنا أن نُرْسل بالآيات إلاَّ أن كذَّب بها الأوَّلون وآتينا ثمُود النَّاقة مُبْصرةً فظلَمُوا بها وما نُرْسلُ بالآيات إلاَّ تخْويفًا** ﴾[٣] والمراد بالآيات في هذه

---

(١) انظر: تفسير النسفي (٣/ ١٩٢).

(٢) سورة الشعراء: الآية (١٥٤).

(٣) سورة الإسراء: الآية (٥٩).

أخرج الواحدي بسنده عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعون، فقيل له: إن شئت تستأني بهم لعلنا نجتبي منهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم، قال: لا، بل أستأني بهم فأنزل الله: ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ...** ﴾ الآية. انظر أسباب النزول للواحدي، بتحقيق السيد أحمد صقر ص (٢٩٥، ٢٩٦)، ص (٢٧٧، ٢٧٨).

الآية الخوارق الحسية، وقد توزع الحديث عن ناقة صالح في السور التي تناولت هذه القصة ففي سورة الأعراف التي هي موضوع بحثي يقول تعالى: ﴿ **قَدْ جاءتْكُم بيِّنَةٌ** ﴾[1] أي: معجزة حسية واضحة مستغربة غير مألوفة، وقد فسر الله ـ تعالى ـ هذه البينة بقوله: ﴿ **هذه ناقةُ اللَّه لكُمْ آيَةً** ﴾ أي: جعلها الله معجزة خاصة بكم، ودليل صدقي في أن الله أرسلني إليكم، وقد أضاف الله الناقة إليه ليستقر في قلب ثمود خطر العدوان عليها، فإنها ناقة خلاَّق القوى والأقدار الذي يحمي ماله وينزل النقمة بالمعتدى عليه، وليمهد بذلك إلى بيان أحوال هذه الناقة التي قد لا يطيقونها ولا يصبرون عليها، وقد بينت سورة الأعراف بعض ما لهذه الناقة من الصفات والخصال، قال تعالى: ﴿ **فذَرُوها تأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّه** ﴾ والمعنى: كل أرضكم كلأ مباح لها، لا تمنع من ارتياد ما تشاؤه منها، ولذا قال: ﴿ **فذَرُوها تأْكُلْ في أَرْضِ اللَّه** ﴾ وفي الآية إشارة للمالك الحقيقي للكون كله، المتصرف فيما يشاء وكيف شاء، وله الحكمة البالغة، لا معقب لحكمه؛ فثمود عباد الله يأكلون في أرض الله، والناقة خلق الله تأكل في أرض الله، وإذا كان من مشيئة الخالق ـ عز وجل ـ توزيع ملكية أرضهم بينهم، فقد شاء أن تكون كل هذه الأرض مباحة لتلك الناقة، فتقسيمها بينها وبينهم بإرادته، وإباحتها للناقة بإرادته ﴿ **ولا تمسُّوها بسُوءٍ** ﴾ فإنكم إن فعلتم هذا أخذكم عذاب أليم، ونكّر السوء مبالغة في النهي.

﴿ **ولا تمسُّوها بسُوءٍ فيأْخُذكُمْ عذابٌ أَليمٌ** ﴾[2] وقد بيّن هذا النص حلول العذاب عليهم عقب مسها بسوء، بلا تراخٍ، وأن هذا العذاب عام شامل لا يقتصر على من مسها، وأن هذا العذاب بالغ الهول والشدة، ويلاحظ أنه ـ جل

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

وعلا ـ نهاهم عن مسها بسوء إكرامًا لها، فنهيُهم عن نحرها أو عقرها أو منعها من الكلأ والماء من باب أولى، فالجملة وعيد شديد لمن يمسها بسوء[١] وإذا كانت سورة الأعراف قد بينت أن الأرض كلها لها مرتع: ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ فقد بينت سورة الشعراء أن ماء ثمود مقسم بينهم وبينها، لها شرب يوم، ولهم شرب يوم معلوم، فلا يشربون في يومها ولا تشرب في يومهم، قال تعالى: ﴿قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾[٢].

وأشار إلى ذلك ـ جل وعلا ـ في سورة القمر فقال تعالى: ﴿إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر (٢٧) ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر﴾[٣].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إنا مرسلوا الناقة﴾ أي: مخرجوها من الهضبة التي سألوها، فروي أن صالحًا صلى ركعتين ودعا، فانصدعت الصخرة التي عينوها عن سنامها، فخرجت ناقة عُشراء وبراء ﴿فتنة لهم﴾ أي: اختبارًا وهو مفعول له ﴿فارتقبهم﴾ أي: انتظر ما يصنعون ﴿واصطبر﴾ أي: اصبر على آذاهم ﴿ونبئهم﴾ أي: أخبرهم ﴿أن الماء قسمة بينهم﴾ أي: بين آل ثمود وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم كما قال تعالى: ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾.

قال ابن عباس: كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئًا من الماء وتسقيهم لبنًا، وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تبق لهم شيئًا. وإنما قال: ﴿بينهم﴾ لأن العرب إذا أخبروا عن بني آدم مع البهائم غلَّبوا بني آدم.

---

(١) انظر: تفسير سورة الأعراف لفضيلة الدكتور/ أحمد السيد الكومي، والدكتور/ محمد سيد طنطاوي، ص (١١٩).

(٢) سورة الشعراء: الآية (١٥٥).

(٣) سورة القمر: الآيتان من (٢٧، ٢٨).

وروى أبو الزبير عن جابر قال: لما نزلنا الحجر في مغزى رسول الله ﷺ تبوك قال: «**أيها الناس لا تسألوا في هذه الآيات؛ هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم ناقة، فبعث الله - عز وجل - إليهم الناقة، فكانت ترد من ذلك الفج فتشرب ماءهم يوم وردها، ويحلبون منها مثل الذي كانوا يشربون يوم غبها**»[1] وهو معنى قوله تعالى: ﴿**وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ**﴾.

﴿**كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ**﴾ الشرب - بالكسر - الحظ من الماء وفي المثل: آخرها أقلها شربا، وأصله في سقى الإبل لأن آخرها يرد وقد نزف الحوض، ومعنى ﴿**مُحْتَضَرٌ**﴾ أي: يحضره من هو له، فالناقة تحضر الماء يوم وردها، وتغيب عنهم يوم وردهم. قاله مقاتل، وقال مجاهد: «إن ثمود يحضرون الماء يوم غبها فيشربون، ويحضرون اللبن يوم وردها فيحتلبون»[2].

ومن الملاحظ في الآثار التي أوردها القرطبي من خلال علاقة ثمود بالناقة أن الناقة وهي عجماء قد التزمت بأمر ربها فلم تشرب الماء في يومهم، على حين أنهم مع ما لهم من العقل والتمييز الحاصل بتكريم بني آدم، وتفضيلهم على كثير ممن خلق، لم يمتثلوا أوامر الله بشأن هذه الناقة، فكانوا من الهالكين.

وتكميلاً للفائدة، أنقل للقاريء الكريم ما رواه علماء التفسير والتاريخ في بسط قصة ثمود لمكان العظة والاعتبار، وإلاّ فجلي أن ما أجمله التنزيل الكريم لا غاية وراءه في ذلك، وما سكت عن بيانه من تلك القصص فلا حاجة إلى السعي وراءه لفقد القطع والجزم به، اللهم إلا لزيادة الاتعاظ، وتقوية العبرة فإنه لم يرد

---

(١) انظر: المستدرك للحاكم ذكر نحوه (٢/ ٥٦٧).
وانظر: الفتح الرباني شرح مسند الإمام أحمد، (٢٠/ ٤٤).
(٢) انظر: تفسير القرطبي، (١٧/ ١٤٠، ١٤١).

حديث صحيح يسلم بصحته ويعوّل عليه، وإنما هي قصة ذكرها المؤرخون ونقلها بعض المفسرين ولا يخفى ما فيها، والله أعلم.

وقصة ثمود على ما ذكر ابن إسحاق وغيره أن عادًا لما هلكوا عمرت ثمود بعدها، واستخلفوا في الأرض، وعمروا حتى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهدم والرجل حي، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتًا، وكانوا في سعة من معاشهم، فعتوا في الأرض وعبدوا غير الله ـ تعالي ـ فبعث الله ـ تعالى ـ إليهم صالحًا، وكانوا قومًا عربًا وكان صالح ـ عليه السلام ـ من أوسطهم نسبًا، وبُعث إليهم وهو شاب فدعاهم إلى الله ـ تعالى ـ حتى شمط وكبر، ولم يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون، فلما ألح عليهم بالدعاء والتخويف سألوه أن يريهم آية تصدق ما يقول فقال لهم: أية آية تريدون؟ فقالوا: تخرج غدًا معنا إلى عيدنا، وكان لهم عيد يخرجون فيه بأصنامهم، فتدعوا إلهك وندعو آلهتنا فإن استجيب لك اتبعناك، وإن استجيب لنا اتبعتنا، فقال لهم صالح: نعم، فخرجوا وخرج معهم، فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعو به، ثم قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيد ثمود: يا صالح آخرج لنا من هذه الصخرة ـ لصخرة منفردة ناحية الحجر يقال لها: الكاثبة ـ ناقة مخترجة، أي تشاكل البخت، أو: مخرجة على خلقة الجمل جوفاء[1] وبراء[2]، فإن فعلت صدقناك وآمنا بك، فأخذ عليهم صالح مواثيقهم: لئن فعلت لتصدقني ولتؤمنن بي؟ قالوا: نعم، فصلى ركعتين ودعا ربه، فتمخضت الصخرة تمخض النتوج لولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء[3] جوفاء وبراء: ما وصفوا، لا يعلم ما بين

(١) جوفاء: عظيمة الجوف. أي: البطن.

(٢) وبراء: الوبر صوف الإبل، وناقة وبراء، أي: كثيرة الصوف.

(٣) عُشراء: كفُنَقهاء وهي الناقة التي أتى عليها من وقت الحمل عشرة أشهر.

جنبيها إلا الله ـ تعالى ـ عظمًا، وهم ينظرون، ثم نتجت ولدًا مثلها في العظم، فآمن به جندع ورهط من قومه، وأراد أشرافهم أن يؤمنوا به فمنعهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب ـ صاحب أوثانهم ـ ورباب ابن صعر ـ كاهنهم ـ فلما خرجت الناقة قال لهم: هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، فمكثت الناقة ومعها سقبها[1] في أرضهم ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترده غبًا[2] فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال له الآن: بئر الناقة، فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها، ثم ترفع رأسها وتنفحج لهم فيحلبون ما شاءوا من اللبن فيشربون ويدخرون، ثم تصدر من غير الفج الذي وردت منه لا تقدر تصدر من حيث ترد لضيقه عنها، حتى إذا كان الغد يومهم فيشربون ما شاءوا ويدخرون ما شاءوا ليوم الناقة، ولم يزالوا في سعة ورغد، وكانت الناقة تصيف إذا كان الحر بظهر الوادي، فتهرب منها مواشيهم وتهبط إلى بطن الوادي في حره وجدبه، وتشتوي في بطن الوادي، فتهرب مواشيهم إلى ظهره في برد وجدب، فأضر ذلك بمواشيهم للأمر الذي يريده الله ـ تعالى ـ بهم والبلاء والاختبار فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم، فأجمعوا على عقرها، وكانت امرأتان من ثمود يقال لإحداهما: عنيزة بنت غنم بن مجاز وتكني بأم غنم، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو، وكانت عجوزًا مسنة ذات بنات حسان، وذات مال من إبل وبقر وغنم، ويقال للآخرى: صدوق بنت المختار، وكانت جميلة غنية ذات مواشٍ كثيرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح ـ عليه السلام ـ وكانتا تحبان عقر الناقة لما أضرت من مواشيهما، فدعت صدوق رجلاً يقال له: الحباب، لعقر الناقة، وعرضت عليه نفسها إن هو فعل فأبى فدعت ابن عم لها يقال به: مصدع بن

(١) سقبها: السقب ولد الناقة، وقيل: الذكر من ولد الناقة.

(٢) غبًا: بالكسر في سقي الإبل يوم ويوم.

مهرج وجعلت له نفسها إن هو فعل فأجابها إلى ذلك، ودعت عنيزة أم غنم قدار بن سالف وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً، يزعمون أنه لزانية، ولم يكن لسالف لكنه ولد على فراشه، فقالت: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة، وكان عزيزاً منيعًا في قومه فرضي، وانطلق هو ومصدع فاستغويا غواة ثمود فأتبعهم سبعة فكانوا تسعة رهط، فانطلقوا ورصدوا الناقة حتى صدرت عن الماء، وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع في أصل أخرى، فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها، وخرجت أم غنم فأمرت إحدى بناتها وكانت من أحسن الناس وجهًا فسفرت عن وجهها ليراها قدار، ثم حثته على عقرها فشد على الناقة بالسيف، فكشف عن عرقوبها، فخرت ورغت رغاة[1] واحدة فتحدر سقبها من الجبل، ثم طعن قدار في لبتها[2] فنحرها، فخرج أهل البلدة فاقتسموا لحمها فلما رأى سقبها ذلك انطلق هاربًا حتى أتى جبلاً منيعًا يقال له: قارة، فرغا ثلاثًا وكان صالح ـ عليه السلام ـ قال لهم: أدركوا الفصيل عسى أن يدفع عنكم العذاب فخرجوا في طلبه فرأوه على الجبل، ورامـوه فلم ينالوه، وانفجت الصخرة بعد رغائه فدخلها، فقال لهم صالح: لكل رغوةٍ أجلُ يوم، تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، ذلك وعد غير مكذوب.

وعن ابن إسحاق أنه تبع السقب من التسعة أربعة وفيهم مصدع، فرماه بسهم فأصاب قلبه ثم جر برجله فأنزله، وألقوا لحمه مع لحم أمه، وقال لهم صالح: انتهكتم حرمة الله ـ تعالى ـ فأبشروا بعذابه ونقمته، فكانوا يهزأون به ويقولون:

---

(١) رغت رغاة: الرغاء صوت ذوات الخف.

(٢) لبتها: بوزن الحبَة، أي: المنحر.

متى هو؟ وما آيته؟ فقال: تصبحون غداً - وكان يوم الخميس - ووجوهكم مصفرة، وبعد غد ووجوهكم محمرة، واليوم الثالث ووجوهكم مسودة، ثم يصبحكم العذاب، فهمّ أولئك الرهط بقتله فأتوه ليلاً فدفعتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة، فقالوا لصالح: أنت قتلتهم. ثم هموا به فمنع عنه عشيرته، ثم لما رأوا العلامات طلبوه ليقتلوه، فهرب ولحق بحي من ثمود يقال لهم: بنو غنم، فنزل على سيدهم واسمه نفيل ويكنى بأبي هدب، فطلبوه منه فقال: ليس لكم إليه سبيل، فتركوه وشغلهم ما نزل بهم، ثم خرج - عليه السلام - ومن معه إلى الشام، فنزل رملة فلسطين، ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم وهلكوا جميعًا إلا جارية مقعدة يقال لها: ذريعة بنت سلف، وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح - عليه السلام - فأطلق الله - تعالى - رجليها بعد أن عاينت العذاب، فخرجت مسرعة حتى أتت وادي القرى، فأخبرتهم الخبر، ثم استسقت ماءً فسُقيت، فلما شربت ماتت، وكان رجل منهم يقال له: أبو رغال - وهو أبو ثقيف - في حرم الله - تعالى - فمنعه الحرم من عذاب الله - تعالى - فلما خرج أصابه ما أصابهم، فدفن ومعه غصن من ذهب. وروي أن النبي ﷺ مر بقبره فأخبر بخبره، فابتدره الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - بأسيافهم، فحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن. وروي أنه - عليه السلام - خرج في مائة وعشرين من المسلمين وهو يبكي، فالتفت فرأى الدخان ساطعًا، فعلم أنهم قد هلكوا[1].

* * *

(١) تفسير الألوسي، (٨/ ١٦٦، ١٦٧).

المبحث الثالث
مصير الكافرين المكذبين
انتقام الله من ثمود

لما جرت سنة الله في خلقه أن يبعث إلى كل أمة رسولاً، يدعوهم إلى إخلاص العبادة له، وإلى ما فيه نجاتهم وسعادتهم، فإذا ما أصروا على كفرهم وضلالهم، ولا سيما بعد طلبهم المعجزة فإن الله ـ جل وعلا ـ ينتقم منهم شر انتقام، لتكذيبهم وتعنتهم أولاً، ثم لاستخفافهم بما طلبوه من البينة، قال تعالى: ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ﴾[1].

لم يبال قوم ثمود بما حذرهم الله به من أمر الناقة، وعدم مسها بسوء فضلاً عن عقرها، والعقر هو بمعنى القتل، قال الأزهري: «أصل العقر عند العرب قطع عرقوب البعير، ثم استعمل في النحر لأن ناحر البعير يعقره، ثم ينحره»[2].

﴿ فعقروا الناقة ﴾ وقد بينت سورة القمر أن الذي عقرها واحد منهم هو ـ على ما رُوي ـ قدار بن سالف، قال تعالى: ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾[3] أي: فتعاطي الأمر العظيم الذي لا يجتريء على فعله أحد، وإسناد الفعل إلى الكل ﴿ فعقروا ﴾ مع أن المباشر البعض: مجاز لملابسة الكل لذلك؛ لأنهم كانوا جميعًا

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٧).

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (٨/ ١٦٥)؛ وانظر: تهذيب اللغة للأزهري (١/ ٢١٥).

(٣) سورة القمر: الآية (٢٩).

راضين به، راغبين فيه، وقد تسببوا فيه بالنداء والتحريض، فكانوا في الجرم كالمباشر له سواء بسواء، ولذا أسندته سورة الأعراف إليهم جميعًا و«أل» في الناقة للعهد، أي: فعقروا الناقة العظيمة التي نصبها الله ـ تعالى ـ آية لهم على قدرته، ووجوب الإيمان به، ونبذ الشركاء والأنداد، ولم يفرضها الله عليهم بل هم الذين ألحوا في طلبها، وكانت آية عظيمة من آيات الله بحق، فهي لم تكن نتاجًا لناقة أخرى كسائر النوق، بل انشقت عنها الصخرة، فخرجت ناقة قوية لم تمر بأطوار كل مولود متدرجة من الصغر إلى الكبر، كما أنها ولدت فصيلها دون أن ينزو عليها فحل ـ كما قيل ـ أضف إلى ذلك أنها كانت تعطيهم لبنًا بقدر ما شربته من الماء في يومها، فهي لا محالة آية عظيمة، ومع ذلك أقدم أشقاهم على هذا الفعل العظيم، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾[1] أي: اجترأ على عقر الناقة، فتعاطى قدار بن سالف الأمر العظيم واجترأ عليه، وهو عقر الناقة، أو تعاطي السيف فعقر به الناقة، فالمفعول به مسكوت عنه لتهويل الأمر وتفظيعه.

﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: استكبروا عن امتثال أمره، مع أن طاعته واجبة عليهم لأنه قادر على معاقبة من خالف أمره، لأنه إله لا يعجزه شيء والملك كله خلقه وفي قبضته، وقد استقر في قلوب الناس أن من كان بهذه المثابة لا يجتريء أحد على مخالفة أمره، فإذا انضم إلى ذلك أنه ربهم، أي: المدبر لشئونهم، والمتولي تربيتهم، والمصلح لاعوجاجهم، والناقل لهم من الطفولة العاجزة واليفوعة الضعيفة إلى الشباب والقوة، والمطعم لهم من خيره في الأرض، ومن مائه من السماء، فكيف يستكبرون عن أمره وهو بهذه المثابة؟ وقد ألف وعرف أنك أسيرُ مَن يغمرك بإحسانه من الخلق، فكيف بإحسان الخالق؟ فالإضافة في

(١) سورة الشمس: الآيتان (١١، ١٢).

قوله: ﴿ ربهم ﴾ تدل على كل ما ذكرت، وتسوق إليه.

﴿ وقالوا يا صالح ﴾ مخاطبين له ـ عليه السلام ـ بطريق التعجيز والإفحام ﴿ ائتنا بما تعدنا ﴾ من العذاب، وأطلق للعلم به، والأمر هنا للإعجاز لأنهم يعتقدون أنه لا يتأتى له ذلك، وعبر بقوله: ﴿ تعدنا ﴾ أي: أكثرت من ذكره على مسامعنا فلو كان حقًا كما تزعم لوقع.

ولقد غرّهم حلم الله عليهم، فبدلاً من أن يشكروه على الإمهال فيثوبوا ويتوبوا، اتخذوا الإمهال سبيلاً للتكذيب، ولذا قالوا لنبيهم: ﴿ إن كنت من المرسلين ﴾[1] مستخدمين كلمة ﴿ إن ﴾ التي غالبا للشك في وقوع ما بعدها، والمعنى: لست من المرسلين، وإنا لنشك كثيرًا في رسالتك، ولذا نستعجلك في نزول ما توعدتنا به، لأننا نعلم أنه لا يكون.

ولقد كان صراعًا مريرًا بين الحق والباطل، فإن الإنسان إذا قسا قلبه، وعميت بصيرته؛ سدَّت منافذه إلى الحق فغدا اليقين عنده باطلاً، أو شيئًا مشكوكًا فيه، ولقد عانى الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من أممهم أشد المعاناة، ولقوا من العنت ما يزول معه كل حلم، ويطيش له كل عقل، ولقد تحملوا من صنوف البلاء من أممهم ما لا يطيقه غيرهم، فالله يعلم حيث يجعل رسالته، وصدق الله إذ يقول: ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس ﴾[2] ولا تعجب إذا سمعت ربك يقول لسيدهم وإمامهم: ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ﴾[3] لصبره على أعدائه، وما تحمله في سبيل الدعوة من الأذى، والمعنى:

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٧).

(٢) سورة الحج: الآية (٧٥).

(٣) سورة الإسراء: الآية (٧٤).

لم تركن إليهم لأننا ثبتناك، وإن حصل الركون منك فلن تستمر فيه، ولن يكون إلا شيئًا قليلاً، وإنا فطرناك على أكمل الصفات، وجعلناك جعلاً خاصًا، فمثلك ـ بدون التثبيت ـ لا يكون منه ركون إلا شيئًا قليلاً، فكيف وقد ثبتناك ومكنا لك بما قضيناه في علمنا الأزلي من نصرك ودحر أعدائك؟.

وسيمر بك من هذا الصراع في المستقبل من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة، ما يجعلك تعتصر شفقة لما لقيه الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من عنت وضيق وغم للعتو عن الحق، والمكابرة فيه مع ظهوره.

ولذلك لم يمهلهم الله بعد قولهم: ﴿ **ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾[1] بل عجل لهم ما استبطأوه من العذاب، ولذا قال تعالى: ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ** ﴾ أي: استولت عليهم وملكتهم، ولم تدع منهم أحدًا، وهي نهاية عذابهم، والمراد بالرجفة الزلزلة الشديدة، ونتيجةً لذلك قال تعالى معقبًا: ﴿ **فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾[2].

وقال ـ جل وعلا ـ في سورة هود: ﴿ **وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾[3] وتلاحظ تعدد التعبير القرآني في وصف العذاب الذي حل بقوم صالح[4] وبعض المفسرين يرى أن الرجفة والصيحة شيء واحد[5] وأنهم لما زلزلوا كان لزلزلة الأرض بهم صوت قوي شديد، بحيث لو سمعه غيرهم لخلع

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٨).

(٣) سورة هود: الآية (٦٧).

(٤) جاء في الأعراف بوصفه بالرجفة، وفي هود والعنكبوت بالصيحة، وفي الذاريات بالصاعقة، وفي الحاقة بالطاغية.

(٥) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٦٢).

به قلبه، فما بالك بهم؟

وبعضهم يرى أن جبريل ـ عليه السلام ـ صاح بهم صيحة شديدة أخرست ألسنتهم وأصمَّت آذانهم، ثم رجفت بهم الأرض، وطغى عليهم العذاب وهم ينظرون، فلا يملكون خلاصًا مما هم فيه لأن عقولهم التي يهتدون بها قد ذهبت، وألسنتهم التي ينذر بها بعضها بعضًا بخطورة ما دهمهم قد خرست، ولعلك تلمح هذه المعاني في قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿ **وفي ثمود إذْ قيل لهُمْ تمتَّعُوا حتَّىٰ حينٍ (٤٣) فعتوْا عن أمْر ربِّهِمْ فأخذتْهُمُ الصَّاعقةُ وهُمْ ينظُرون (٤٤) فما اسْتطاعُوا من قيامٍ وما كانُوا مُنتصرين** ﴾[1].

وأنا أرجح أن تكون الصيحة عذابًا غير الرجفة وغير الصاعقة، فالصيحة في هود صوت جبريل ـ عليه السلام ـ والرجفة في الأعراف صوت زلزلة الأرض بهم، والصاعقة في الذاريات مجموع ما حصل لهم من الأمرين، أو أنها نار سقطت عليهم من السماء مع اضطراب الأرض بهم، والطاغية في سورة الحاقة معناها الطامة العظيمة والعذاب الشديد، والداهية التي لم يجدوا لهم منها مخلصًا لأن الطغيان مجاوزة الحد، فلا غرابة بعد ذلك من تسمية عذاب ثمود رجفة مرة، وصيحة وصاعقة وطاغية مرة أخرى، لأن ما حل بهم قابل لأن يسمى بتلك الأسماء على رأي من يراه شيئًا واحدًا، أو أنها أنواع مستقلة من العذاب كما رجحته سابقًا، وأن كل تلك الأنواع قد حلّت بهم، ولا تناقض فيه فالتعبير بهذه الأنواع سائغ ومقبول، ولا يؤدي إلى الطعن في القرآن بدعوى التناقض والاضطراب في تسمية الشيء الواحد بعدة أسماء كما يعزم الملاحدة الطاعنون في القرآن بتصيد هذه الأشياء التي يشوشون بها على قلوب

---

(١) سورة الذاريات: الآيات من (٤٣) إلى (٤٥).

الضعفاء[١].

﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾[٢] أي: ساقطين على وجوههم، هامدين لا يتحركون، وهذا دليل على شمول العذاب لهم، إلا ما كان من أمر الجارية ـ على ما قيل ـ التي أخبرت عنهم، كما سلف في قصتهم، وقد هلكت هي الأخرى.

و(الفاء) تشير إلى سرعة أخذ العذاب لهم، وأن الله لم يجعل لهم مهلة يراجعون أنفسهم فيها ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ فتولى عنهم ﴾ أي صالح ـ عليه السلام ـ بعد أن أعلمه الله بهلكتهم، وقال موبخًا ومؤنبًا لهم ومظهراً بلوغه في دعوتهم المدى الممكن: ﴿ وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ﴾ واجتهدت في هذا الإبلاغ أيما اجتهاد، وقابلتم ذلك مني بالصدود والعناد، ولا تقل كيف خاطبهم بذلك، وهم موتى هالكون؟ والجواب أنه قال لهم ذلك في أول المهلة التي أعطوها، أو أنه قال لهم ذلك بعد ما ماتوا فعلاً، ولا غرابة فيه، فأهل القبور يسمعون وإن كانوا لا يجيبون[٤] ﴿ ونصحت لكم ﴾ أي: محضت النصحية خالصة لكم، واجتهدت

---

(١) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ١٦٥، ١٦٦) وتفسير الألوسي (٨/ ١٦٥).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٨).

(٣) سورة هود: الآية (١٠٢).

(٤) كما خاطب رسول الله ﷺ المشركين بعد قتلهم يوم بدر: «يا فلان بن فلان، يا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟» قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري (٨/ ٣٠٤).

=

فيما يصلحكم، ولكن لا تحبون الناصحين، أي: تكرههم قلوبكم مع حرصهم عليكم، ومن هذا الباب كان هلاكهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ أي: لا تحبون الأنبياء، فنُصح كل نبي سبق لأمته هو نصح للأمة اللاحقة، وهذا لا يعني عموم رسالتهم، ويجوز أن يكون المعنى: ﴿وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ من المؤمنين الذين آمنوا بصالح ـ عليه السلام ـ فإنهم كانوا يشاركونه في نصح الضالين من قومه، والله أعلم.

* * *

= وانظر: السيرة النبوية لابن هشام، فقد أورد القصة مع اختلاف يسير، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، المجلد الثاني، ص ٣٩٢).

خلاصة ما جاء في الفصل الرابع

١ ـ المعروف أن قوم ثمود هم من نسل الصالحين من قوم عاد، وأن قوم عاد هم من نسل الصالحين من قوم نوح، ولكن البشر يتطاول عليهم العهد فينسون ما حل بمن قبلهم من العذاب، ويستولي عليهم الشيطان فيغيرون شرع الله.

٢ ـ قامت أسس دعوة نبي الله صالح لقومه على أمور، أهمها.

* أن يعبدوا الله ما لهم من إله غيره.

* أن يذكروا إذ جعلهم الله خلفاء في الأرض من بعد عاد.

* أن يذكروا أن الله بوأهم في الأرض وأسكنهم فيها، يتخذون من سهولها قصورًا، وينحتون الجبال بيوتًا.

* أن يذكروا دومًا نعم الله وآلائه عليهم المتعددة التي لا تحصى.

* أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه من سوء أفعالهم.

* أن لا يعثوا في الأرض مفسدين.

٣ ـ كان موقف قوم ثمود من نبيهم كموقف الأمم السابقة ويتمثل فيما يلي:

* استنكروا دعوته إلى عبادة الله وحده، وكذبوا رسالة صالح ـ عليه السلام ـ.

* استنكروا بشريته واتهموه بالكذب والكبر.

* كذبوا بالبعث وانكروا وقوعه.

* رموا نبيهم صالحًا ـ عليه السلام ـ بالسحر.

* طالبوه بالمعجزة الحسية، فجاءهم بناقة الله آية، يذروها ولا يمسوها بسوء.

٤ ـ هناك حقائق تبرزها قصة صالح ـ عليه السلام ـ منها:

* أن الملأ المستكبرين في كل أمة سبب شقائها.

* أن ملأ ثمود قد راعهم إيمان بعض المستضعفين بصالح ـ عليه السلام ـ.

* محاولة ثني هؤلاء المستضعفين عن إيمانهم.

* أن الإيمان يزيل ضعف النفوس، ويجعل المستكبرين المتجبرين غاية في الهوان في نظر المؤمنين.

٥ ـ كان من رد قوم ثمود على دعوة نبيهم ما يلي:

* عقروا الناقة وقتلوها.

* عتوا عن أمر ربهم وكفروا واستكبروا عن امتثال أمره.

* استعجلوا عذاب ربهم فيهم وطلبوه على سبيل التعجيز والإنكار له.

٦ ـ كان جزاؤهم بالصيحة وهي صوت جبريل ـ عليه السلام ـ وكذا الرجفة وهو صوت زلزلة الأرض بهم، وكذلك الصاعقة وهي مجموع ما حصل لهم من هذه وتلك.

* * *

الفصل الخامس
الصراع بين
لوط - عليه السلام -
وزوجته خاصة وقومه عامة

الفصل الخامس

الصراع بين لوط ـ عليه السلام ـ وزوجته خاصة وقومه عامة

مقدمة: التعريف بلوط ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

المبحث الأول: الصراع بين لوط وزوجته وقومه.

وفيه شرح للأساليب التي اتخذها لوط ـ عليه السلام ـ في دعوة قومه مع بيان نوع المعصية التي كانوا عليها مع ذكر أضرارها على المجتمع.

المبحث الثاني: أسباب موقف الكافرين المعاندين لدعوة لوط ـ عليه السلام ـ.

المبحث الثالث: مصير الكافرين المعاندين المُصرِّين على الفاحشة.

الأبحاث الطبية الحديثة عن أضرار فاحشة اللواط.

لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ

مقدمة:

القصة الرابعة من قصص الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ التي تجسد الصراع بين الحق والباطل في سورة الأعراف؛ قصة لوط ـ عليه السلام ـ وقد أجملتها سورة الأعراف في خمس آيات، بينّ الله فيها دعوة لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقومه بترك الفاحشة التي عرفوا بها بين سائر البشر، وموقفهم من هذه الدعوة، ونهايتهم لما أمعنوا في تكذيبه والتبرم بدعوته.

قال تعالى: ﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾[1].

وينبغي قبل أن أشرع في تفسير هذه الآيات وتحليلها أن أذكر نبذة مختصرة حول نسب لوط ـ عليه السلام ـ وعلاقته بقومه لحاجة البحث إلى ذلك، وإليك بيان ذلك.

التعريف ـ بلوط عليه السلام ـ:

اختلف العلماء والنسابون في نسب لوط ـ عليه السلام ـ وفي صلة القرابة

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (٨٠) إلى ٨٤).

التي بينه وبين أبي الأنبياء إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قال الحاكم في مستدركه: «قد اتفقت الروايات في أنه من بيت إبراهيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم اختلفوا: أهو من ولده أو من ولد أخيه؟»[١].

وجمهور العلماء[٢] والنسابون ذهبوا إلى أنه ابن أخي إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويؤيد ذلك ما أخرجه الحاكم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «ولوط النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان ابن أخي إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ قال الذهبي معقبًا: صحيح»[٣] وعليه فلوط هو ابن هاران بن تارح[٤] وهو: آزر.

ولقد تأثر لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعمه إبراهيم الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليهما ـ ولمس في عمه قدوة حسنة، وإيمانًا راسخًا، فصدقه في جميع ما جاء به، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾[٥] أي: صدَّق لوط إبراهيم في جميع ما جاء به عن ربه، ولازم لوط عمه إبراهيم ـ عليهما الصلاة

---

(١) المستدرك للحاكم (٢/ ٥٦٠).

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير، (١/ ١٧٦).
انظر: البدء والتاريخ للبلخي، (٣/ ٥٦).
انظر: روح المعاني للألوسي، (٨/ ١٦٨).
انظر: فتح القدير للشوكاني، (٢/ ٢٢٢، ٤/ ١٩٩).
انظر: أخبار الدول وآثار الأول للقرماني، (ص ٣٠).
انظر: لوط ﷺ وقومه على ضوء الكتاب والسنة، رسالة ماجستير للزميل/ ناصر النصار، من ص (٣٢ ـ ٣٥).

(٣) المستدرك للحاكم، (٢/ ٥٦١).

(٤) انظر: تاريخ الطبري، (١/ ٢٩٢).

(٥) سورة العنكبوت: الآية (٢٦).

والسلام ـ متحملاً معه مشاق الدعوة، حيث كان المجتمع ـ بلاد الرافدين العراق حاليًا ـ متعصبًا للوثنية، مصرًا عليها، حتى أذن الله لهما بالهجرة من العراق ـ أرض بابل ـ إلى الأرض المباركة، قال تعالى: ﴿ **ونجَّيْناهُ ولُوطًا إلى الأرْضِ الَّتي باركْنا فيها للْعالمين** ﴾[١] ولما هاجر إبراهيم ولوط إلى أرض الشام، هيأ الله ـ جل وعلا ـ لوطًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ للنبوة، وأرسله إلى قومه في ناحية الأردن، وإلى ذلك يشير قوله ـ تعالى ـ على لسانه: ﴿ **وقَالَ إنِّي مُهاجرٌ إلىٰ ربِّي** ﴾[٢] أي: قال ذلك لعمه ـ عليه السلام ـ ولما تخوّف عمه عليه من أهل الناحية التي يبغي الهجرة إليها، لما كانوا عليه من سوء الخلق، وأنه وحده لا يستطيع مقاومتهم، والثبات لهم، قال لعمه ما حكاه الله: ﴿ **إنَّهُ هُوَ الْعزيزُ الْحكيمُ** ﴾ أي: الغالب الذي ينصر من اعتز به وإن كان وحيدًا ﴿ **الْحكيمُ** ﴾ فيما هيأني له وبعثني إليه، واستقر لوط ـ عليه السلام ـ في الأرض المباركة ـ فلسطين؛ في قرية سدوم ـ وكانت سدوم أعظم وأجمل قرى قوم لوط، التي اختُلف في ضبطها اختلافٌ كثير ليس هناك مجال لبسطه، والذي عليه المفسرون[٣] والمؤرخون[٤] هو ما جاءت به الرواية التي أخرجها ابن أبي حاتم في تفسير بسند حسن من طريق محمد بن كعب القرظي: «إن المؤتفكات ـ قرى لوط ـ كُن خمسًا: صيغة، وصفرة، وعمرة، ودوما، وسدوم وهي القرية العظيمة»[٥]. وكان موقع بلاد قوم لوط كما تشير المراجع والكشوف الجغرافية بين الحجاز والشام، وعلى وجه التقريب ما يعرف بالبحر الميت والذي

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٧١).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٢٦).

(٣) تفسير ابن كثير، (٢/ ٤٥٥) وتفسير ابن جرير، (١٥/ ٤٢٢).

(٤) انظر: أخبار الدول وآثار الأول ص (٣١) للقرماني.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ـ سورة هود ـ رقم الأثر (٥٧٥) ص (٣٢٥).

كان يسمى فيما سبق ببحيرة زغر أو البحيرة الممتنة[١].

وأشار القاسمي في تفسيره نقلاً عن صاحب كتاب مرشد الطالبين أن بحر لوط هو بحر سدوم، ويدعى أيضًا بالبحر الميت، وهو بركة مالحة في فلسطين طولها خمسون ميلاً وعرضها أثنا عشر ميلاً، وهي أوطأ من بحر الروم بنحو ١٢٥٠ قدمًا وموقعها في الموضع الذي كانت عليه سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم[٢] ا. هـ.

ولقد أشارت كتب التاريخ أن بلاد قوم لوط كانت من أبدع بلاد الله وصفًا وجمالاً، مليئة بالخيرات، غنية بالمياه، كثيرة الأشجار والحبوب والثمار[٣] وكان جديرًا بأهلها أن يشكروا الله ـ جل وعلا ـ ويخلصوا له العبادة لما حباهم الله به من النعم الكثيرة لا سيما وقد بعث إليهم نبيهم لوطًا ـ عليه السلام ـ ناصحًا لهم ومنقذًا لهم من الكفر والجهل الذي خيم عليهم، ولابد قبل أن أتطرق لدعوة لوط ـ عليه السلام ـ لقومه أن أشير باختصار إلى صلة لوط ـ عليه السلام بقومه.

---

(١) لوط ـ ﷺ ـ وقومه على ضوء الكتاب والسنة، رسالة مقدمة من الزميل/ ناصر أحمد نصار لنيل درجة الماجستير، ص (١٥١).

(٢) تفسير القاسمي (٧/ ٢٠٢).

(٣) انظر: آثار البلاد للقزويني ص (٢٠٢) وأخبار البلاد للقرماني ص (٤٥٥) وجاء في تقويم البلدان: إن بحيرة زغر جنوبي مدينة أريحا على بعد شوط فرس، وتعرف هذه البحيرة بالبحيرة الممتنة وليس فيها حيوان ولا سمك ولا غيره . . . وعلى القرب من البحيرة الممتنة كانت ديار قوم لوط، وهي ديار تسمى بالأرض المقلوبة، وليس بها زرع ولا حشيش وهي بقعة سوداء فرش بها حجر كلها متقاربة في الكبر ويروى أنها من الحجار المسمومة التي رمي بها قوم لوط؛ انظر: تقويم البلدان لعماد الدين إسماعيل، ص (٢٢٨).

صلة لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقومه:

إن الدارس لدعوة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يلاحظ أن غالب الأنبياء كان مبعثهم في وسط ذويهم وعشيرتهم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في بحثنا عند دراستنا لنوح وهود وصالح ـ عليهم الصلاة والسلام ـ . . . إلخ.

أما لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلم يكن يربطه بقومه أي نسب، ولقد هاجر ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع عمه من بلاد بابل بالعراق ـ كما سبق أن أشرت إلى ذلك ـ إلى بلاد الشام حيث بعثه الله فيها نبيًا لهؤلاء القوم، لذلك نلاحظ اختلاف السياق القرآني في قصة لوط عما سبقها من قصص الأنبياء الذين سبقوه، والتي أشارت إليهم سورة الأعراف.

قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ** ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ** ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ **وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ** ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴾[٤].

ولم تذكر أخوة لوط لقومه اللَّهمَّ إلا في سورة الشعراء، وسورة ق، أما في الشعراء فقال تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ** ﴾[٥].

وللبقاعي كلام نفيس في بيان معنى الأخوة المرادة من الآية:

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٥٩).
(٢) سورة الأعراف: الآية (٦٥).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٧٣).
(٤) سورة الأعراف: الآية (٨٠).
(٥) سورة الشعراء: الآية (١٦١).

قال ـ رحمه الله ـ: «أخوهم في السكنى في البلد لا في النسب؛ لأنه ابن أخي إبراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وهما من بلاد المشرق من بابل، وكأنه عبر بالأخوة لاختياره لمجاورتهم، ومناسبتهم بمصاهرتهم، وإقامته بينهم في مدينتهم مدة مديدة، وسنين عديدة، وإتيانه بالأولاد من نسائهم . . .»[١].

أما في سورة ق قال تعالى: ﴿ **وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ** ﴾[٢] وقد فسر البيضاوي الأخوة بقوله: «سمَّاهم إخوانه لأنهم كانوا أصهاره»[٣].



(١) نظم الدرر للبقاعي، (١٤/ ٨٠).

(٢) سورة ق: الآيتان (١٣، ١٤).

(٣) تفسير البيضاوي، ص (٦٨٧).

المبحث الأول
دعوة لوط ـ عليه السلام ـ لقومه

وأشرع الآن في دعوة لوط ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقومه وموقفهم منه وعاقبتهم، فأقول وبالله التوفيق:

قال تعالى: ﴿ **ولُوطًا إذْ قال لقوْمه أتأْتُون الْفاحشة ما سبقكُم بها منْ أحد منَ الْعالمين (٨٠) إنَكُمْ لتأْتُون الرِّجال شهْوة منْ دُون النِّساء بلْ أنتُمْ قوْمٌ مُسْرفُون** ﴾[1].

وقبل الشروع في تفسير هاتين الآيتين أقول للقاريء الكريم: إن قوم لوط كانوا كفارًا بالله ورسله، ولقد دعاهم لوط ـ عليه السلام ـ كسائر الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من قبله ومن بعده إلى توحيد الله ـ تعالى ـ والإيمان به لأن توحيد الله يقود الإنسان إلى تطبيق سننه وشرعه، ويزجره عن ارتكاب الفواحش والرذائل، ولكن القرآن لم يصرح بذلك لأنه معلوم معروف، لكنه ركز على ذكر فاحشتهم التي انفردوا بها من بين سائر العالمين لتفشِّها واستحكامها فيهم، فنْبذُها وتقبيحها والإنكار بها عليهم أهم في الذكر من دعوته إياهم لعبادة الله وحده، فلم يكن قوم لوط ـ عليه السلام ـ كما قد يُظن موحدين عصاة بل الواقع أنهم كانوا كافرين، كما قال تعالى: ﴿ **فأخْرجْنا من كان فيها من الْمُؤْمنين (٣٥) فما وجدْنا فيها غيْر بيْت منَ الْمُسْلمين** ﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (٨٠، ٨١).

(٢) سورة الذاريات: الآيتان (٣٥، ٣٦).

فهاتان الآيتان مصرحتان بكفر قوم لوط، وأنه لم يكن فيهم بيت مؤمن إلا بيت لوط ـ عليه السلام ـ ولذلك دارت قصته في القرآن الكريم على تقبيح تلك الفاحشة التي شاعت فيهم، وانفردوا بها، ولم تعرف إلا لهم، ولم تورث في بعض الناس إلا من بعدهم، فهذا هو السبب في انفراد هذه القصة بهذا الأسلوب عما قبلها وعما بعدها في سورة الأعراف، بل وفي سائر القرآن الكريم كما ذكرت.

فقوله تعالى: ﴿ولُوطًا﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره واذكر، أي: يا محمد ﷺ الوقت الذي قال فيه لوط لقومه ما قال، وتسلّ به عما تلقاه من بلاء قومك ومعاندتهم وإنكارهم، فإن لوطًا ـ عليه السلام ـ كان يتصدى وحده لقوم ذوي هلع واندفاع فيما يأتون من فاحشتهم التي لم يخالجهم أي شك في استحسانها، مما جعلهم يتهكمون بلوط وآله المؤمنين الذين يتبرأون من تلك الفاحشة، بما حكاه الله عنهم أكثر من مرة ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[1] وذكر الوقت متضمن لما يقع فيه من أحداث، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أي: بلا خوف منهم، متوكلاً على ربه معتزًا به.

ولم يمنعه أن قومه لم يكن فيهم عاقل من أن يقول لهم ما قال، فإن من سبقه من الرسل ومن لحقوه لا يعدمون أن يجدوا في أقوامهم عاقلاً أو عقلاء، يصغون لدعوتهم، ويستجيبون لهم إلا لوطًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فإنه لم يجد في قومه عاقلاً قط، ولا مستجيبًا سوى أولاده ـ عليه السلام ـ وحتى امرأته التي الشأن فيها أن تتعصب لزوجها، فإن لم تعنه لا تنقلب عليه، قد خانته(*) وقوله

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٢).

(*) ومرادي بقولي: (خانته) أي: بإفشاء سره فكانت تدل قومها على الضيف، قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما =

تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ جيء به بأسلوب الاستفهام، لشديد إنكاره عليهم وتوبيخهم على إتيانه ما يستنكره كل ذي طبع سليم، ومعنى ﴿أَتَأْتُونَ﴾ أي: تفعلون ذلك، وتستعلنون به في نواديكم، وتفتخرون بفعله، والمراد بالفاحشة إتيانهم الذكور بدل الإناث، كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾[٢] أي: بهذه الفاحشة القبيحة التي سلف ذكرها ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ أي: من أصناف المخلوقات التي لا تعقل[٣]، فضلاً عن الأناس العقلاء، والمعنى: ما رأيتم من الحيوانات ذكراً ينزو على ذكر ويترك أنثاه، مع كثرة أصناف الحيوانات وتنوعها، وما سمعتم بأحد من الناس غيركم يعملها، فما لكم لا تقلعون عنها بعد هذا التقبيح؟ وما لكم تخالفونني وتنازعونني فيما لا يقبل النزاع؟ وقد قرر المفسرون[٤] في ﴿مِنْ﴾

= من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ سورة التحريم: الآية (١٠). انظر: تفسير الألوسي، (٢٨/ ١٦٢)، والنسفي، (٤/ ٢٧٢).

(١) سورة الشعراء: الآيتان (١٦٥، ١٦٦).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٠).

(٣) ذكر القرطبي في تفسيره نقلاً عن محمد بن سيرين: ليس شيء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار (٧/ ٢٤٥). وأشار إلى ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان وخلاصته: ليس من البهائم من يعمل عمل قوم لوط إلا الحمار، وإن فعل ذلك فغايته الشهوة فقط، ليس يخطر بباله أن ذلك الماء يُخلق منه شيء، ثم ذكر قول ابن سيرين الآنف الذكر. انظر بتصرف من الحيوان للجاحظ (١/ ١١٠).

(٤) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ١٦٨).
انظر: تفسير القرطبي، (٧/ ٢٤٥).
انظر: تفسير الألوسي، (٨/ ١٦٩).
انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٤٥).

الأولى: بأنها مزيدة في سياق النفي، ليفيد العموم والاستغراق، وفي الثانية: بأنها للتبعيض.

والمعنى: أن تلك الفاحشة لم تصدر من بعض العالمين منذ خلقوا فضلاً عن جميعهم إلا ما كان منكم، والمراد بالعالمين: بنو آدم، فكيف لا تنزجرون عنها؟

قال أبو السعود: والجملة مستأنفة، مسوقة لتأكيد النكير، وتشديد التوبيخ والتقريع، فإن مباشرة القبح قبيح، واختراعه أقبح، فأنكر تعالى عليهم أولاً إتيان الفاحشة ثم وبخهم بأنهم أول من عملها، ثم استأنف بيان تلك الفاحشة تأكيداً للإنكار السابق، وتشديداً للتوبيخ [١] بقوله سبحانه: ﴿**إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً**﴾ أي: رغبة مفرطة في هذا الإتيان كأنه أمر سليم لا يلام عليه، قال الألوسي: شهوة مفعول له، أو مصدر في موقع الحال، وفي التقييد بها وصفهم بالبهيمة الصرفة، وتنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد، وبقاء النوع، لا قضاء الشهوة[٢].

و«أل» في الرجال يمكن أن تكون عوضًا عن مضاف إليه، بمعنى: إنكم يأتي بعضكم بعضًا، تاركين نساءكم اللائي أعدهن الله لقضاء الوطر، واستنبات الولد، أو: إنكم عازفون عن النساء بالكلية إلى هذه الفاحشة التي تأتونها. ويجوز أن تكون «أل» جنسية، والمعنى: إنكم تأتون جنس الرجال منكم ومن غيركم إذا أمكنكم ذلك، وفي إيراد لفظ «الرجال» دون الغلمان والمردان ونحوهما مبالغة في التوبيخ[٣]. قال الحسن: كانوا ينكحون الرجال في أدبارهم

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٤٥).

(٢) تفسير الألوسي، (١٤/ ١٧٠).

(٣) انظر: الألوسي، (٨/ ١٧٠).

وكانوا لا ينكحون إلا الغرباء[١].

وقد صرح القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى في سورة هود: ﴿ **ولَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطًا سيءَ بهِمْ وضاقَ بهِمْ ذرْعًا وقالَ هذا يومٌ عصيبٌ (٧٧) وجاءهُ قومُهُ يُهْرَعُونَ إليْهِ ومنْ قبْلُ كانُوا يعْملُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قوْمِ هؤُلاءِ بناتي هُنَّ أطْهرُ لكُمْ فاتَّقُوا اللَّهَ ولا تُخْزُونِ في ضيْفي أليْس منكُمْ رجُلٌ رَشيدٌ (٧٨) قالُوا لقدْ علمْتَ ما لنا في بناتِكَ منْ حقٍّ وإنَّكَ لتعْلمُ ما نُريدُ** ﴾[٢].

وإنما سيء بهم لوط وضاق بهم ذرعًا، لأنهم ملائكة جاءوه في صورة بشر حسان وضاء الوجوه، ولوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعلم ما سيكون من قومه عندما يعلمون بمجيئهم، ولذلك لما قال لقومه: ﴿ **قالَ لوْ أنَّ لي بكُمْ قُوَّةً أوْ آوي إلىٰ رُكْنٍ شديدٍ (٨٠) قالُوا يا لُوطُ إنَّا رُسُلُ ربِّكَ لنْ يصلُوا إليْكَ ...** ﴾[٣] الآيات وسأعود إلى هذه الآيات مرة أخرى عند كلامي عن عذابهم.

ولما لم يصغوا لدعوته ـ عليه السلام ـ بعد هذا الأسلوب القوي أضرب عنهم فقال ما قصه الله: ﴿ **بلْ أنتُمْ قوْمٌ مُسْرفُونَ** ﴾[٤] أي: متجاوزون الحد فاعلون مالا يقركم عليه أحد، كما وصفهم بالعدوان والجهل في الشعراء والنمل: ﴿ **بلْ أنتُمْ قوْمٌ عادُونَ** ﴾[٥] ﴿ **بلْ أنتُمْ قوْمٌ تجْهلُونَ** ﴾[٦] وقوم اجتمع فيهم الإسراف والعدوان والجهل لا يرجى منهم أن يستجيبوا لله ولرسوله لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

---

(١) انظر: الفخر الرازي، (١٤/ ١٦٨).

(٢) سورة هود: الآيات من (٧٧) إلى (٧٩).

(٣) سورة هود: الآية (٨٠ ـ ٨١).

(٤) سورة الأعراف: (٨١).

(٥) سورة الشعراء: الآية (١٦٦).

(٦) سورة النمل: الآية (٥٥).

هذا ولم يكتف قوم لوط بما استحدثوه من إتيان الذكور، بل كانوا يتخبطون في كل ما استهوته نفوسهم من أنواع الفساد والمنكر، وقد جمع الله ـ سبحانه ـ ما هم عليه من المعاصي في قوله تعالى: ﴿ **أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ** ﴾[١].

فقوله تعالى: ﴿ **أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ** ﴾ أي: تفعلون اللواط، وعبر سبحانه هنا بلفظ ﴿ **الرِّجَالَ** ﴾ كما سبق أن ذكرت دون الذكران زيادة في بيان مدى قبحهم وفسادهم، وإلى ذلك أشار الألوسي في تفسيره: «وإيراد المفعول بعنوان الرجولية دون الذكورية لتربيته التقبيح . . . »[٢].

وقوله: ﴿ **وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ** ﴾ ورد في تفسيره عدة معان:

أحدها: كانوا يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم[٣].

ثانيها: كانوا يأخذون الناس من الطرق لفعل الفاحشة بهم[٤].

ثالثها: كانوا يقطعون سبيل النسل بإتيانهم ما ليس بحرث[٥].

رابعها: كانوا يقطعون الطريق بقبح الأحدوثة[٦].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٢٩).

(٢) تفسير الألوسي (١٩/ ٢١٦).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤١١).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير، (٣/ ٤١١)؛ والقرطبي (١٣/ ٣٤١)؛ والكشاف للزمخشري، (٣/ ٢٠٤).

(٥) انظر: المراجع السابقة.

(٦) انظر: تفسير أبي حيان (٧/ ١٥٠)؛ وتاريخ الأنبياء للنجار، (ص ١١٢) وانظر: تفسير الألوسي، (٢٠/ ١٥٣).

قال القرطبي: «ولعل الجميع كان فيهم . . .»[١].

أما قوله: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ النادي والندى والمنتدى: مجلس القوم ومتحدثهم[٢].

والمنكر: ما تنكره العقول والشرائع والمروءات[٣].

أخرج الترمذي[٤] وحسنه والحاكم[٥] وصححه وأحمد[٦] في مسنده عن أم هانيء بنت أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله سبحانه: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ قال: «كانوا يجلسون بالطريق فيحذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم»، وقد ذكر المفسرون أقوالاً أخرى مثل أنهم كانوا يأتون بعضهم بعضًا في الملأ، وكانوا يتضارطون ويتضاحكون، وكانوا يناطحون بين الكباش ويناقرون بين الديوك، ولا مانع أنهم كانوا يفعلون كل تلك المنكرات[٧].

* * *

(١) انظر: تفسير القرطبي، (١٣/ ٣٤١).

(٢) تفسير الشوكاني، (٤/ ٢٠١).

(٣) انظر تفسير ابن حبان، (٧/ ١٥٠).

(٤) سنن الترمذي في تفسير سورة العنكبوت، حديث رقم (٣١٨٩).

(٥) المستدرك للحاكم، (٢/ ٤٠٩) وصححه ووافقه الذهبي.

(٦) مسند الإمام أحمد، (٦/ ٣٤١، ٤٢٤).

(٧) تفسير ابن كثير، (٣/ ٤١١).

المبحث الثاني
موقف قوم لوط من دعوته ـ عليه السلام ـ

اعلم أن موقف قوم لوط من دعوته لهم إلى الفضيلة والخير كموقف سائر الكفار والمعاندين، هو الإباء والاستكبار والإمعان في معارضة دعوة نبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ غير أن القرآن الكريم لم يصفهم بالتكذيب والاستكبار كما وصف قوم نوح بقوله: ﴿ **فكذَّبوهُ فأنجيْناهُ والَّذين معهُ في الْفُلْك وأغْرقْنا الَّذين كذَّبُوا بآياتنا إنَّهُمْ كانُوا قوْما عمين** ﴾[١].

كما وصف قوم صالح بقوله تعالى: ﴿ **قال الْملأُ الَّذين اسْتكْبرُوا من قوْمه** ﴾[٢] الآية . . . إلى آخر ما ذكر من سائر أوصاف الأمم الكافرة.

بل ذكر لهم جوابًا عجيبًا كرره الله ـ سبحانه وتعالى ـ في القرآن الكريم ثلاث مرات: مرة في سورة الأعراف، ومرة في سورة النمل، ومرة في سورة العنكبوت، لتستدل بهذا التكرار على سوء ما كانوا عليه، وما شاع فيهم من خلق ذميم، ينفر كل كافر وكل مكذب إلا من كان على شاكلتهم بعد أن صدر ذلك منهم وكانوا هم أساسه.

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ **وما كان جواب قوْمه إلاَّ أن قالُوا أخْرجُوهُم من قريتكُمْ إنَّهُمْ أُناسٌ يتطهَّرُون** ﴾[٣] والمعنى: وما كان جواب قومه الذي أجمعوا

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٥).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٢).

عليه، واتفقوا على مواجهته به، إلا هذا القول السيء والتهديد السخيف، الصادر من قوم بلغوا في الحقارة والخسة منتهاها، ولذا قدم خبر كان هنا على اسمها لأن كلمة ﴿ **جواب** ﴾ قرئت بالنصب. واسمها جملة ﴿ **إلاَّ أن قالوا أَخْرِجُوهُم مِن قَرْيَتِكُمْ** ﴾ وقد ذكر جوابهم أولاً عامًا ثم حدده ـ تعالى ـ وبينه، لتستقبله أتم استقبال فلا يكون هناك ثم اعتذار عنهم، ولا أي قبول لخلقهم الذي كانوا عليه.

وقال في سورة الأعراف: ﴿ **وما كان جواب قومه** ﴾ بالواو وفي سورة النمل[1] والعنكبوت[2] (بالفاء) لملحظ لطيف قد استنتجته بفضل الله، وهو أنه ذكر (بالواو) في الأعراف لبيان أنهم ما كانوا يجدون قولاً يخففون به حنقهم على لوط ـ عليه السلام ـ إلا هذا الجواب، وهذا دليل إمعانهم في تلك الرذيلة، فناسب لأجل هذا الفهم أن يذكر بالواو التي هي للاستئناف.

أما في النمل والعنكبوت، فالمقصود من ذكر الفاء فيهما أنهم كلما دعاهم نبيهم لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الإقلاع عن تلك الرذيلة، أسرعوا في الرد عليه بهذا الجواب، وتواصي بعضهم بعضًا لإخراجه وآله من قريتهم لئلا يفسد عليهم ما هم فيه؛ فكان ذكر الفاء فيهما أنسب.

وقد ذكر الألوسي ـ رحمه الله ـ وغيره لذلك تعليلات، تقوم كلها على الناحية اللفظية لا المعنوية، كقول الألوسي مثلاً: ذكر ﴿ **وما كان جواب قومه** ﴾ في الأعراف بالواو لأن تلك الجملة مسبوقة بجملة اسمية هي قوله تعالى: ﴿ **بل أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ** ﴾ أما في النمل والعنكبوت فالآية مسبوقة بفعلين. والفاء أدخل في

---

(١) سورة النمل: الآية (٥٦).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٢٩).

عطف الأفعال بعضها على بعض من الواو. قال الألوسي: وإنما جيء بالواو في ﴿وما كان﴾ إلخ ... دون الفاء كما في النمل والعنكبوت لوقوع الاسم قبل هنا والفعل هناك، والتعقيب بالفعل بعد الفعل حسن دون التعقيب به بعد الاسم. وفيه تأمل. ا. هـ[1].

ومع احترامي وتقديري له، فلا أرى ما رأى، لأن الواو والفاء تذكران بحسب المعنى المقصود لا بحسب الصناعة اللفظية، ولعله قولٌ لبعض النحويين لا أعرفه، وهو - رحمه الله - أردفه بقوله: «وفيه تأمل» هذا من دقته وسعة فهمه، وقوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ معناه: تواصوا به وأجمعوا على فعله، واحذروا أن يكون فيكم من يرى غير هذا الرأي.

وضمير الغيبة هنا يرجع إلى لوط ومن آمن به «من أهله» وقد قصد لوط بذلك تحقيرهم وتهوين شأنهم، وأرادوا بإخراجه مصادرة أمواله وطرده من مجتمعهم، وقوله تعالى: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي: من بلدكم التي نشأتم فيها وورثتموها عن آبائكم، وفي إضافة قريتهم إليهم إشارة إلى أن لوطًا وافد عليهم، ليس بأصيل فيهم، وليس له قبيل منهم يحميه ويدفع عنه.

وما كنا نعرف هذا التسفيه وذلك الإنكار علينا إلا بعد أن جاءنا وأسكناه بيننا، فعَلامَ نبقي عليه بيننا وحاله كما عرفتم؟! وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[2] أي: يتنزهون عن تلك الفاحشة وغيرها مما نراه حسنًا، ويرونه قبحًا وسوءًا، وهم لا يقصدون الثناء عليهم ولا مدحهم، بل قصدهم التهكم والاستهانة والاستهزاء، شأنهم شأن قوم وعظهم واعظ وهم ضائقون بكلامه

---

(١) الألوسي، (٨/ ١٧١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٢).

فقالوا له: وعظك يعجبنا، تهكمًا به، وهذا أسلوب شائع في العربية.

وهو على كل حال يدل على سفاهة قوم لوط. فما ظنك بمن يتهكم بالخير، ويريدك على تركه إلى الشر بعامة، بَلْهَ تلك الفاحشة التي شاعت فيهم بخاصة؟.

وقد تتساءل لماذا قال الله تعالى في الأعراف: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ وفي النمل: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾[1].

وقد أجاب المفسرون عن ذلك: بأن بعضهم قال: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ وبعضهم قال: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ فحكى الله القولين في موضعين مختلفين من كتابه، إيذانًا بسخطه على كل من قال ذلك؛ وللمفسرين تأويلات خلاف ذلك[2].

وعندي أن الله ـ جل وعلا ـ راعى أحوالهم النفسية عندما صدر منهم هذا القول، فكانوا إذا ذكروا آل لوط بالتحقير قال: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾، وإذا ذكروهم بالغيظ وشدة الحنق قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾.

كقولك لمن تزدريه: إنه لا يستحق كذا، فإذا اشتد غضبك عليه قلت: إن فلانًا حقيق بالتقل، فمبعث التسمية شدة الغضب. وليس قولهم ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ بالقول الوحيد الذي صدر عنهم في الرد على دعوة لوط عليه الصلاة والسلام، بل قد حكى الله عنهم في العنكبوت أنهم لما أنكر عليهم لوط ما أنكر، تحدوه بأن يأتيهم بما توعدهم من العذاب إن لم يقلعوا عن تلك الفاحشة، قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ

---

(١) سورة النمل: الآية (٥٦).

(٢) انظر: الألوسي (٨/ ١٧١).

من الصَّادقين (٢٩) قال ربِّ انصُرْني على القَوْمِ المُفْسِدين ﴾[١]. وقد سبق تفسير أول هذه الآيات بما يغني عن إعادتها[٢]، أما قولهم: ﴿ ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِن كُنتَ من الصَّادقين ﴾ فصريح بأن نفوسهم الأمارة بالسوء حدثتهم بأن لوطًا ليس صادقًا، ولن يحل بهم عذاب، أو تنزل بهم قارعة، ولن تتغير أحوالهم، وسوف تستمر لهم الأيام كما يريدون.

ودعاء نبيهم عليهم بقوله: ﴿ ربِّ انصُرْني على القَوْمِ المُفْسِدين ﴾ كان بعد علمه أنه لا خير فيهم وأنهم لا يؤمنون.

وقد رَكَّزَ القرآن الكريم على ذكر قوم لوط بالفاحشة، مع أنهم جمعوا إليها الكفر كما ذكرت في أول هذه القصة، لبيان أن عذاب الاستئصال في الدنيا لا يقع فقط بسبب الكفر، بل يقع أيضًا بسبب الانهماك في المعاصي، واقتراف الذنوب، ليتحامى العقلاءُ أهلُ الإيمان المعاصي، وليستفظعوها ولا يسمحوا بانتشارها وشيوعها، وأن يجتهدوا في الضرب على أيدي فاعليها. ولقد نوهت سورة الشعراء بموقف أضيفه إلى ما ذكرته سابقًا، وهو أنهم نهوه عن التحدث معهم في شأن تلك الفاحشة، وأنه إن لم يكف عن ذلك فيكون مصيره الإخراج والطرد من بينهم، وقد بين لهم عليه السلام أنه لعملهم من المبغضين، وسيظل ينكره عليهم مادام حيًا، وما داموا مقيمين على هذه السوء ﴿ قالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يا لُوطُ لتكُونَنَّ من المُخْرَجين (١٦٧) قال إِنِّي لعَملِكُم مِّنَ القالين ﴾[٣] أي: من المبغضين غاية البغض كأنه يقلي الفؤاد والكبد لشدته[٤].

---

(١) سورة العنكبوت: الآيتان (٢٩، ٣٠).

انظر كتاب: منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله لمحمد سرور بن نايف زين العابدين، (١٦٥).

(٢) انظر: ص: (٣٤٢) من بحثنا هذا.

(٣) سورة الشعراء: الآيتان (١٦٧، ١٦٨).

(٤) تفسير أبي السعود، (٦/ ٦٢١).

ولما كان الأنبياء عليهم السلام في أتم أحوال العبودية لله تعالى، وأنهم ما أهلوا للنبوة إلا بفضل الله، وأنه لا مانع من أن يسلبوا ما أعطوا وما به شرفوا، إذ الفضل منه وإليه، تضرع لوط لربه أن ينجيه الله وأهله مما يعمله قومه من الفاحشة ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[1] فهذا القول منه من باب إظهار العبودية والتذليل لله تعالى، لا أنه يمكن أن يقع منه ذلك، لأنه من المستحيل عليه ما دام نبيًا معصومًا.

❊ ❊ ❊

(١) سورة الشعراء: الآية (١٦٩).

المبحث الثالث

نجاة لوط وأهله ومصير الكافرين المعاندين

قال تعالى في ختام الآيات التي في سياق قصة لوط في سورة الأعراف: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾[١].

وقوله: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ ﴾ أي: برحمتنا وقدرتنا، وهذا اللفظ يحتمل نجاته وأهله من أذى قومه، ويحتمل نجاته وأهله من العذاب الذي نزل بقومه. والرأي الثاني وإن كان أقرب إلى ما تقصده هاتان الآيتان إلا أن المعنى الأول أيضًا قوي، لا سيما إذا عرفت أن لوطًا كان يجاهد فيهم وحده، ولم تكن له فيهم عصبية ولم يؤمن معه أحد منهم كما قررته في أول القصة.

والمراد «بأهله» بناته عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ ﴾ استثناء متصل مما قبله، والمعنى: إلا امرأته كانت في علم الله من الغابرين، أي: الباقين مع هؤلاء المهلكين أو الغابرين أي: هالكة مع الهالكين، لأن غبر تأتي بمعنى: بقي، وبمعنى: ذهب، فهو من الأضداد[٢] وقوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ أي: كثيرًا شديدًا مخالفًا لما عُهد من مطر السماء، لأنه كان حجارة من سجيل مطبوخ، لا بنار البشر بل بنار

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (٨٣، ٨٤).

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (٨/ ١٧١).

خلاق القوى والقدر، مخصوصًا بهم، معدًا لهم من عند الله تعالى كما بينته سورة هود[١] والذاريات[٢].

وقوله تعالى: ﴿ فانظُرْ كيْف كان عاقبةُ الْمُجرمين ﴾ خطاب لكل من يتأتى منه الخطاب ويوصف بالفهم، والغرض من هذا الفهم الاتعاظ بما وقع لقوم لوط والانزجار عن فاحشتهم، والمقصود أن عذابهم كان شديدًا فظيعًا مميزًا من بين ما عذب به المكذبون من قبلهم ومن بعدهم، وهذا هو الأقرب لسياق الآية، ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿ فانظُرْ كيْف كان عاقبةُ الْمُجرمين ﴾ تعقيبًا على ما مضى في سورة الأعراف من قصص نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط.

وعلى التفسير الأول: يكون تسمية قوم لوط بالمجرمين موافقًا لما كانوا عليه من سوء لأنهم أخذوا من الإجرام أرذله وأخسه، فكانوا جديرين بهذه التسمية، وقد بينت سورة الأعراف نجاته وأهله، وهلاك امرأته، ونوعًا مما عذب به قوم لوط، سالكة في ذلك مسلك الإجمال، محيلة على ما فصل من أمر هذا العذاب ومقدماته في سورة أخرى كهود، والحجر، والعنكبوت، والذاريات، والقمر، عدا ذكر المؤتفكات في التوبة، والنجم، والحاقة.

وقد اخترت آيات سورة هود لنقف على ذكر هذا العذاب بالتفصيل ومقدماته التي سبقته.

قال تعالى: ﴿ فعقرُوا النَاقة وعتوْا عنْ أمْر ربهمْ وقالُوا يا صالحُ ائْتنا بما تعدُنا

(١، ٢) قال تعالى في سورة هود: ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ الآيتان (٨٢، ٨٣) وقال تعالى في سورة الذاريات: ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * لنرسل عليهم حجارة من طين * مسومة عند ربك للمسرفين ﴾، الآيتان من (٢٢) إلى (٣٤).

إن كنت من المرسلين (٧٧) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (٧٨) فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين (٧٩) ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين (٨٠) إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون (٨١) وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون (٨٢) فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾[1].

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة إلى نبيه لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد جاءوه في صورة شبان حسان الوجوه ابتلاء من الله للوط ولقومه، إذ مجيئهم على هذه الصورة جعل لوطًا لا يعرفهم، فكان منه ما قصَّه الله عنه وعن قومه في هذه الآيات ليعرف مدى ما عليه قومه من سوء الأخلاق، وذميم الفعال، وكيف أنه دافع عن ضيوفه مع هذا الموقف الحرج، ولله الحكمة والحجة البالغة، فلما رأى لوط قومه وقد جاءوه يحث بعضهم بعضًا مسرعين، ساءه مجيئهم، وضاقت نفسه بسببهم لأنه خاف على ضيوفه منهم، وقد خفي عليه حقيقتهم أخرج الطبري بسنده عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «لما جاءت الرسل لوطًا أتوه وهو في أرض له يعمل فيها، وقد قيل لهم، والله أعلم: لا تهلكوهم حتى يشهد لوط. قال: فأتوه فقالوا: إنا متضيفوك الليلة، فانطلق بهم، فلما مضى ساعة التفت فقال: أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية؟ والله ما أعلم على ظهر الأرض أناسًا أخبث منهم، قال: فمضى معهم، ثم قال الثانية مثل ما قال، فانطلق بهم، فلما بصرت بهم عجوز السوء امرأته، انطلقت فأنذرتهم»[2].

---

(١) سورة هود: الآيات من (٧٧) إلى (٨٣).

(٢) تفسير القرطبي، (١٣/ ٨١).

وفي رواية أخرى للسدي: وقالت لهم: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط، فجاءة قومه يهرعون إليه[١]. وقوله: ﴿ **وقال هذا يوم عصيب** ﴾ أي: شديد، وقوله: ﴿ **وجاءه قومه يهرعون** ﴾[٢] أي: يسرعون كأنما يدفعون دفعًا مما بهم من طلب الفاحشة.

﴿ **ومن قبل كانوا يعملون السيئات** ﴾ ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش، حتى مرنوا عليها، وانعدم عندهم استقباحهم فلذلك جاءوا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء[٣] وقوله: ﴿ **قال يا قوم هؤلاء بناتي** ﴾ فتزوجوهن أراد أن يقي أضيافه ببناته وذلك غاية الكرم، وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزًا في ذلك الوقت.

وقوله تعالى: ﴿ **هن أطهر لكم** ﴾ قال القرطبي: أي: أزوجكموهن فهو أطهر لكم مما تريدون، أي حل، والتطهر التنزه عما لا يحل، وقال ابن عباس: كان رؤساؤهم خطبوا بناته فلم يجبهم، وأراد ذلك اليوم أن يفدي أضيافه ببناته، وليس ألف (أطهر) للتفضيل حتى يتوهم أن في نكاح (الرجال) طهارة، بل هو كقولك: الله أكبر وأعلى وأجل ولم يكابر الله ـ تعالى ـ أحد حتى يكون الله ـ تعالى ـ أكبر منه[٤].

﴿ **فاتقوا الله** ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بالإيمان به وترك

---

(١) تفسير القرطبي، (١٣/ ٨٢).

(٢) يهرعون: يقال: أهرع الرجل: خف وأرعد من سرعة أو خوف أو حرص أو غضب، وفي التنزيل: ﴿ **وجاءه قومه يهرعون إليه** ﴾ أي: يستحثون إليه كأنهم يحث بعضهم بعضًا.
انظر: لسان العرب، بتصرف (٨/ ٣٦٩).

(٣) بتصرف: تفسير النسفي، (٢/ ١٩٨، ١٩٩).

(٤) انظر: تفسير القرطبي، (٩/ ٧٦).

الفواحش، ﴿ **لا تخزون في ضيفي** ﴾ أي: لا تهينوني وتفضحوني في حق ضيوفي، فإنه إذا أخزى ضيف الرجل أو جاره فقد خزي الرجل وذلك من عراقة الكرم، وأصالة المروءة.

﴿ **أليس منكم رجل رشيد** ﴾ أي: رجل واحد يهتدي إلى طريق الحق، وفعل الجميل، والكف عن السوء[١].

والآيات الكريمة السابقة واللاحقة تصور لنا مدى تشبث أهل الباطل بباطلهم واستحسانهم له في نفوسهم، وإصرارهم عليه، وذلك يتمثل في قوم لوط وكيف أنهم أمعنوا في باطلهم أو بالغوا في فحشهم.

وفي الوقت نفسه يبرز موقف أهل الحق، واستنكارهم باطل أهل الباطل. ﴿ **أليس منكم رجل رشيد** ﴾ يتبع الحق ويهتدي إليه، ويرعوي عن الباطل القبيح، لكنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، لذلك أجابوه بمحض ما ترمي إليه أهواؤهم وشهواتهم.

﴿ **قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق** ﴾ حاجة؛ لأن نكاح الإناث أمر خارج عن مذهبنا، فمذهبنا إتيان الذكور.

قال الشوكاني: أي: ما لنا فيهن من شهوة ولا حاجة، لأن من احتاج إلى شيء كأنه حصل له فيه نوع حق[٢].

وقوله: ﴿ **وإنك لتعلم ما نريد** ﴾ إشارة خبيثة منهم، وأنهم يعنون إتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة.

---

(١) تفسير النسفي، (٢/ ١٩٩).

(٢) فتح القدير للشوكاني، (٢/ ٥١٤).

﴿ **قال لو أن لي بكم قوة أو ءاوي إلى ركن شديد** ﴾ أي: لما أصروا على مرادهم تمنى أن يكون له قوة تدفع الخزي عن ضيوفه، أو أن يكون له حصن من عشيرة تنصره عليهم.

قال الفخر الرازي رحمه الله: قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ **لو أن لي بكم قوة أو ءاوي إلى ركن شديد** ﴾ يدل على أنه كان في غاية القلق والحزن بسبب إقدام أولئك الأوباش على ما يوجب الفضيحة في حق أضيافه.

فلما رأت الملائكة تلك الحالة بشرّوه بأنواع من البشارات:

أحدها: أنهم رسل الله.

ثانيها: أن الكفار لا يصلون إلى ما هموا به.

ثالثها: أنه ـ تعالى ـ يهلكهم.

رابعها: أنه ـ تعالى ـ ينجيه من ذلك العذاب.

خامسها: أن ركنك شديد وأن ناصرك هو الله، فحصلت له هذه البشارات[1].

وقال النسفي رحمه الله: جواب «لو» محذوف أي: لفعلت بكم ولصنعت والمعنى: لو قويت عليكم بنفسي، أو أويت إلى قوي أستند إليه وأتمنع به فيحميني منكم، فشبه القوى العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعته.

روي أنه أغلق بابه حين جاءوا وجعل يردهم ما حكى الله عنه ويجادلهم فتسوروا الجدار، فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب قالوا: يالوط. إن ركنك لشديد[2] أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ

---

(١) الفخر الرازي، (١٨/ ٣٥).

(٢) تفسير النسفي (٢/ ١٩٩) وانظر: تفسير القرطبي (٩/ ٧٨) والكشاف (٢/ ٢٨٤) وانظر تفسير =

قال: «**يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد**»[١] أي: إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ومراد النبي ﷺ أن لوطًا ـ عليه السلام ـ كان يطلب ركنًا شديدًا من البشر ليستعين به على مقاتلتهم على حد قوله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده**»[٢] وإلا فلوط ـ عليه السلام ـ كان آويًا إلى ربه ـ جل وعلا ـ على الدوام، موقنًا بنصرته له في الوقت الذي أراد الله ـ جل جلاله.

ولما كان ربنا ـ جل شأنه ـ حليمًا لا يعجل ويستحيل عليه أن يستخفه كفر كافر، أو فجور فاجر، وأن قوم لوط قد يعتدون على الرسل الذين لم يعرفهم لوط في أول الأمر، وقد يكون من قدر الله أن يؤخر عنهم العقاب مع استفظاع ما أصروا عليه، من أجل ما قدمته قال لوط ما قصّة الله: ﴿**أو ءاوي إلى ركن شديد**﴾.

وقوله: ﴿**إنا رسل ربك**﴾ فافتح الباب ودعنا وإياهم، فدخلوا، فاستأذن جبريل ـ عليه السلام ـ ربه في عقوبتهم فأذن له، فضرب بجناحه وجوههم، فطمس أعينهم، فأعماهم كما قال تعالى: ﴿**ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر**﴾[٣] فصاروا لا يعرفون الطريق، فخرجوا وهم يقولون: النجاءَ ـ النجاء، فإن في بيت لوط سحرة[٤].

= السورة التي يذكر فيها الأعراف لابن أبي حاتم الرازي، دراسة وتحقيق الزميل الشيخ/ أحمد بن أبي بكر. رسالة ماجستير، جامعة أم القرى (١/ ٣٥٣).

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري، (٧/ ٢٢٦).

(٢) صحيح مسلم بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، (١/ ٦٩)، حديث رقم (٧٨)، كتاب الإيمان.

(٣) سورة القمر: الآية (٣٧).

(٤) انظر: تفسير النسفي (٢/ ١٩٩؛ وانظر: تفسير القرطبي، (٩/ ٧٨)؛ والكشاف، (٢/ ٢٨٤) وتفسير سورة الأعراف لابن أبي حاتم، (١/ ٣٥٣).

وقوله: ﴿ **لن يصلو إليك** ﴾ أي: لن يمسوك بما تكره.

وقوله: ﴿ **فأسر بأهلك** ﴾ أي: فاخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل، والمراد بأهله: قيل: أنصاره وأتباعه الذين قبلوا دينه، وقال ابن عباس: ابنتاه[١].

والسري: السير في الليل. وقوله تعالى: ﴿ **بقطع من الليل** ﴾ أي: في وقت معلوم من الليل وقد بينه قوله تعالى: ﴿ **إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر** ﴾[٢] والسحر هو الثلث الأخير من الليل فيما يبدو لي والله أعلم، ومن الواجب علينا أيها القاريء الكريم أن نعرف أهمية الوقت الذي اختاره الله لنجاة نبيه لوط ـ عليه السلام ـ وأهله، حتى يأتي هذا الوقت ونحن في تضرع وابتهال إلى الله ـ تعالى ـ، لنصون أنفسنا بإحياء هذا الوقت من كل مكروه يصيبنا، فالقرآن ليس كتاب تاريخ بقدر ما هو كتاب علم وهداية وعبرة ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب** ﴾[٣] وما نكب المسلمون بما نرى وما مضى مما سطرته كتب التاريخ إلا لقلة أهل السَّحَر فيهم، وانشغال أغلبهم في هذاالوقت العظيم بالغفلة الشديدة، والنوم العميق. فإذا أضفت ما يفعله البعض من سهر في هذا الوقت مع اللهو والطرب، كانت النكبة أكبر والبلية أعم، نسأل الله السلامة.

ثم قال تعالى: ﴿ **ولا يلتفت منكم أحد** ﴾ نهي عن الالتفات هو ومن معه.

ورجح الرازي أن المراد أنه كان لهم في البلدة أموال وأمتعة، فأمروا أن يخرجوا أو يتركوا تلك الأشياء ولا يتلفتوا إليها البتة، وكأن المراد منه قطع تعلق

---

(١) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ١٧١).

(٢) سورة القمر: الآية (٣٤).

(٣) سورة يوسف: الآية (١١١).

القلب عن تلك الأشياء، وقد يراد النهي عن التخلف وعدم التباطؤ في الخروج[١].

وقوله: ﴿ **إلا امرأتك** ﴾ بالنصب وعليه فالاستثناء متصل. بتأويل أن الله ـ جل وعلا ـ أمر لوطًا أن يسري بأهله سوى زوجته فإنه نهي أن يسري بها، وأمر بتخليفها مع قومها، فإنها هالكة مع الهالكين.

وعلى القراءة بالرفع ﴿ **إلا امرأتك** ﴾ فيكون الاستثناء منقطعًا. ويكون المعنى أن لوطًا ـ عليه السلام ـ قد أخرجها معه، وأنه نهي ومن معه ممن أسرى معه أن يلتفت سوى زوجته، وأنها التفتت. لذلك أدركها حجر فقتلها[٢] وقوله: ﴿ **إنه مصيبها ما أصابهم** ﴾ من العذاب والهلاك.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: إنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها تمالئهم عليه، وتخبرهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم، ولهذا لما أمر لوط ـ عليه السلام ـ ليسري بأهله، أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد، ومنهم من يقول إنها اتبعتهم، فلما جاء العذاب التفتت هي، فأصابها ما أصابها. والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم، ولهذا قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ **فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ** ﴾[٣] أي: الباقين في الهلاك[٤].

روي أن لوطًا ـ عليه السلام ـ سأل الملائكة عن موعد هلاكهم فقالوا له: ﴿ **إن**

---

(١) بتصرف من تفسير الرازي، (١٨/ ٣٦).

(٢) انظر: تفسير الرازي، (١٨/ ٣٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٣).

(٤) تفسير ابن كثير، (٢/ ٢٣١).

موعدهم الصبح ﴾ فقال: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿ **أليس الصبح بقريب** ﴾ وإنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع . . .[١].

وقوله تعالى: ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود. مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾[٢].

هاتان الآيتان تصوران عاقبة الصراع، وعاقبة الكفر، وأن الباطل مهما طال أمده فنهايته وخيمة، وفي النهاية لابد أن ينتصر الحق وتعلو كلمته، لقد أصر قوم لوط على فاحشتهم وتمادوا في منكرهم، واستكبروا عن امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وعَتوا كبيراً.

قال تعالى: ﴿ **فلما جاء أمرنا** ﴾ أي: عذابنا أو الأمر به ﴿ **جعلنا عاليها سافلها** ﴾ جازيناهم بالعذاب الذي يناسب شناعة جرمهم وفحشهم، فإنهم لما خالفوا الفطرة الإلهية، وقلبوا الأوضاع، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء، أهلكهم الله بالعقوبة التي قلبت عليهم قريتهم، ومزقتهم شر ممزق فجعل أعلاها أسفلها، وذلك بأن قلعها جبريل ـ عليه السلام ـ بجناحه من أسفلها، ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبها عليهم، كما ذكر ذلك المفسرون[٣] رحمهم الله تعالى، وأتبعوا الحجارة من فوقهم وذلك قوله: ﴿ **وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود** ﴾ أو ذلك لمن كان منهم خارج القرية.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٤/ ٢٣٠)، وانظر: تفسير النسفي (٢/ ٢٠٠).

(٢) سورة هود: الآيتان (٨٢ـ٨٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير، (٢/ ٤٥٥)؛ وتفسير القرطبي، (٩/ ٨١)؛ وتفسير الرازي (١٨/ ٣٨).

قال الألوسي رحمه الله: ظاهر الآية أنه أمطر عليهم كلهم، وجاء في بعض الآثار أنه خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم حتى إن تاجرًا كان في الحرم فوقف له حجر أربعين يومًا حتى قضى تجارته وخرج من الحرم، فوقع عليه[١].

وقوله: ﴿ **من سجيل** ﴾ اختلف في معنى الـ ﴿ **سجيل** ﴾ فقيل: الطين المتحجر بطبخ وغيره، وقيل: هو الشديد الصلب من الحجارة[٢] وقيل غير ذلك.

وقوله ﴿ **منضود** ﴾ نعت لسجيل أي متتابع، أو مجموع معد للعذاب[٣] والمعنى: أمطرنا عليهم حجارة شديدة غاية في الصلابة والقوة تهلكهم، ولا تتفتت بل تبقى عبرة للمعتبرين وذكرى للمتذكرين.

وقوله: ﴿ **وما هي من الظالمين ببعيد** ﴾ وما هي أي الحجارة التي أهلك بها قوم لوط ببعيدة من الظالمين، وهم قريش الذين أمعنوا في تكذيب النبي ﷺ فالله قادر على أن يعاقب بتلك الحجارة، لأنها لم تستنفذ قوتها بصبها على قوم لوط، أو يأتي بأمثالها، وهو تهديد للمشركين. أو الضمير راجع إلى ديار قوم لوط. أي: ليست هذه الديار ببعيدة عمن كذبك ولم يؤمن بك يا محمد ﷺ، فهي بين الشام والمدينة، فكان الأجدر بقومك أن يعتبروا بما حل بالأقوام السابقة من العذاب والهلاك، عندما كذبوا رسلهم، ولم يؤمنوا بك وبما جئت به.

فالقصة بلا ريب صراع مرير بين الحق والباطل، وقد تبين لنا مآل من تنكبوا

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي (٨/ ١٧٢).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٨١، ٨٢)، والرازي (١٨/ ٣٨)، وأبي السعود (٤/ ٢٣٠).

(٣) تفسير النسفي؛ (٢/ ٢٠٠) . . قال في الصحاح: يقال نضدت المتاع: إذا جعلت بعضه على بعض. فهو منضود ونضيد؛ انظر: الصحاح للجوهري (نضد ٢/ ٥٤٤).

عن جادة الحق، وأصروا على فحشهم وباطلهم، وكيف أن الله نصر الحق وحزبه وأخذل الباطل وأهله، وقد كشفت الأبحاث الطبية الحديثة في عصرنا هذا عن الأمراض الخطيرة المعدية للمصابين بالشذوذ الجنسي، فكان انتقام الله لهم ودفنهم في باطن الأرض هم وممتلكاتهم أفضل حل لتتخلص البشرية من شرهم وخطرهم، ولكن بقي أن يعتبر من هم مصابون بمثل دائهم في زماننا هذا، وينسلخوا عن جرمهم، فقد ختم الله قصة لوط في سورة الأعراف بنعت قوم لوط بأنهم مجرمون، قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[1] وأي إجرام أكبر وأشنع من تلك الفاحشة؟ ويكفي في فحشها أنها مواطن القذارة !!

❊ ❊ ❊

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٤).

الأبحاث الطبية الحديثة
كشفت عن أضرار فاحشة اللواط

لقد كشف العلم الحديث خطورة تلك الفاحشة وأضرارها، لا على الفاعل والمفعول فقط بل على المجتمع بعامة. ومن أحسن ما طالعت في هذا الموضوع كتاب «الأمراض الجنسية» للدكتور/ محمد علي البار. وألخص لك بعضًا من الأضرار والأمراض التي تنجم من تلك الفاحشة منها أنه يسبب ارتخاء عضلات المستقيم، ويمزقه، ويفقد الشخص القدرة على السيطرة على المواد البرازية، وعدم استطاعته الإمساك عليها.

ولا يخفى أن الأمراض التي تنتشر بالزنا ـ والعياذ بالله ـ يمكن أن تنشر بطريق اللواط، وتصيب أصحابه، وتفتك بهم فتكًا ذريعًا، مثل مرض (الإيدز) وهو مرض فقدان المناعة المكتسبة الذي يعتبر الآن هو الشاغل الأول لوزارة الصحة في الولايات المتحدة الأمريكية[١]. بل العالم أجمع والذي ـ حتى يومنا هذا ـ لا يوجد له أي علاج، وقد تعدى انتشاره إلى أوروبا واستراليا وكندا . . . وغيرها. ومن الأمراض الجنسية الفاتكة التي تنتشر نتيجة هذه الفاحشة (مرض الهربس)[٢]

---

(١) انظر كتاب: الأمراض الجنسية للدكتور محمد علي البار، ص (١٣١) نقلاً عن مجلة التايم الأمريكية في ٤ يوليه سنة ١٩٨٣م.

(٢) (الهربس) مرض فطري جلدي. وترجم باسم القوباء المنطقية، ويصيب الجنب على هيئة بثور كما يصيب الفم والشفة. انظر: كتاب الأمراض الجنسية للدكتور محمد علي البار، ص (٢٣١).

وينتشر هذا المرض في الدول الإباحية بصورة مرعبة وتبلغ إصابة (الشاذين جنسيًا) بهذا المرض عدة أضعاف ما هي عليه عند الزناة، وحتى الآن لا يوجد له علاج يقطع شأفته نهائيًا.

وهذا المرض غالبًا ما يكون مصحوبًا بأمراض الزنا واللوط الأخرى مثل: (السيلان)، و(الكلاميديا) وهو التهاب مجرى البول من غير سيلان، والزهري، بالإضافة إلى الكثير من الأمراض، والأورام، والسرطانات الخبيثة[١] أضف إلى ذلك ما يسببه اللواط من الأمراض النفسية، والاكتئاب، والأمراض العصبية.

ومن العجيب رغم ما يعرفه العالم أجمع عن ما ينجم من تلك الفاحشة من أمراض فتاكة لازلنا نسمع في المجتمعات الغربية الإباحية الدعوة إلى الحرية الجنسية، وإقامة النوادي الخاصة باللواط.

ولقد أوضحت آخر الإحصائيات الأمريكية أن عدد الشاذين جنسيًا في الولايات المتحدة وصل إلى ١٢ مليون شاذًا وشاذة[٢].

* * *

(١) تشير الدراسات الحديثة إلى أن سرطان الكبد منتشر بصورة خاصة في المجتمعات الغربية لدى الشاذين جنسيًا، انظر: المرجع السابق ص (٤٧، ٤٨).

(٢) مجلة (المجلة)، لندن، ٣١ ديسمبر ١٩٨٧م، العدد ٣٦٠.

خلاصة ما جاء الفصل الخامس

١ ـ ذهب جمهور العلماء والنسابون إلى أن لوط ـ عليه السلام ـ من بيت إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأنه ابن أخيه فهو لوط بن هاران بن تارح، وهو آزر.

٢ ـ لم يكن لوط ـ عليه السلام ـ يرتبط بقومه من أي نسب، ولكنه صاهرهم فهو أخوهم في السكن وفي البلد لا في النسب، وهو بذلك يختلف عن سائر الأنبياء، لأن غالب الأنبياء كان مبعثهم في وسط ذويهم وعشيرتهم.

٣ ـ لم يكن قوم لوط ـ عليه السلام ـ موحدين عصاة ـ كما قد يُظن ـ بل كانوا كافرين، لأن توحيد الله يقود إلى تطبيق شرعه.

٤ ـ كانت ذنوب قوم لوط ومخالفاتهم متعددة، منها:

* أنهم كانوا يأتون الفاحشة المنكرة، يأتون الرجال شهوة من دون النساء.

* أنهم كانوا يقفون في طريق الناس ويقتلونهم ويأخذون أموالهم.

* أنهم كانوا يأخذون الناس من الطرق لفعل الفاحشة بهم، أو كانوا يقطعون سبيل النسل بإتيانهم ما ليس بحرث.

* وكانوا يقطعون الطريق بقبح الأحدوثة، بل كانوا يأتون بعضهم بعضًا في الملأ.

* وكانوا يتضارطون ويتضاحكون في ناديهم المنكر.

٥ ـ كان رد قوم لوط على دعوته أن قالوا: أخرجوهم من قريتكم لأنهم أناس

يتنزهون عن تلك الفاحشة ويتطهرون.

٦ ـ لما جاءت الرسل إلى لوط ـ عليه السلام ـ وجاءه قومه يهرعون إليه، بشرته الملائكة بأنواع من البشارات.

* أنهم رسل الله.

* أن الكفار لن يصلوا إلى ما هموا به.

* أن الله تعالى ينجيه من العذاب النازل بقومه.

* أن ركنك شديد، وأن الله ناصرك.

٧ ـ كشفت الأبحاث الطبية الحديثة عن أضرار فاحشة اللواط وثبت أنها سبب في أمراض كثيرة منها:

* ارتخاء عضلات المستقيم وتمزيقه ـ فقدان القدرة على السيطرة على المواد البرازية وعدم الاستطاعة على إمساكها.

* مرض الإيدز والهربس والسيلان، والكلاميديا، والزهري وبعض الأورام السرطانية وغيرها.

٨ ـ لما خالف قوم لوط بفعلتهم الفطرة السليمة، وقلبوا الأوضاع، كان جزاؤهم أن قلب جبريل قريتهم وجعل عاليها سافلها بل وأمطر الله عليهم حجارة من سجيل منضود من طين متحجر متتابع.

* * *

الفصل السادس
الصراع بين
شعيب - عليه السلام - وقومه

الفصل السادس

الصراع بين شعيب ـ عليه السلام ـ وقومه

مقدمة: نبذة عن نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ .

المبحث الأول: دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه .

المبحث الثاني: موقف قومه من شعيب ودعوته .

المبحث الثالث: عاقبة قوم شعيب .

نبذة عن نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ

اسمه ونسبه:

اختلف المؤرخون والنسَّابة في نسب نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ اختلافًا كثيرًا، والذي عليه الأكثرون هو: شعيب بن ميكييل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام[١].

ولقد أرسل ـ عليه السلام ـ إلى أهل مدين، وهم قوم عرب[٢] من بني مدين ابن إبراهيم الخليل ويربطه بهم نسب وإلى ذلك أشار تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾[٣] قال صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب: إن مدين بن إبراهيم عاش عمرًا طويلاً، وكان قد تزوج من العمالقة[٤]. فولدت له أربعة بنين ونسلوا فكثر

---

(١) محمد، الصادق المنَّا: نبي الله شعيب، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى بمكة المكرمة، بإشراف فضيلة الدكتور: مسعد عبد المعطي الحفني النبراوي.

(٢) شعيب وقومه من العرب، وقد أخرج الطبراني عن ابن عباس قال: «الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوح، وهود، ولوط، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وعيسى، ومحمد ﷺ».

الهيثمي، مجمع الزوائد. (بيروت: دار الكتاب العربي، د. ت)، ٨/ ٢١٠، قال فيه الهيثمي: «رواه الطبراني موقوفًا ورجاله ثقات».

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

(٤) العمالقة: يرجع أصلهم من قبائل العرب البائدة، وقد كان لهم ملوك ودول حيث امتد ملكهم إلى الشام ومصر، ويذكر المؤرخون أن هذه القبائل كانت تسكن قديمًا في آسيا الصغرى، ثم هاجروا إلى جزيرة العرب حيث سكنوا شمال الحجاز مما يلي جزيرة سيناء، وقد فتحوا مصر مدة الفراعنة وأسسوا فيها أسرة ملكية. =

عددهم في حياته، فلما رأى كثرة عقبه جمعهم، وأشار عليهم أن يبنوا مدينة ويحصنوها من العمالقة، ففعلوا ذلك، وجعلوا أبوابها من الحديد، وسموها (مدين) باسم أبيهم، وجعلوها محال قبائلهم. فرغب العمالقة في مجاورتهم وعندئذ امتلأت المدينة بهم وبأهلها حتى ضاقت، فخرج العمالقة من مدين، ونزلوا الأيكة وهي غيضة عن يمينها، فبنوا هناك الدور لأنفسهم[١].

موقع مدين:

قال صاحب معجم البلدان: (مدين) على بحر القلزم[٢] محاذية تبوك على نحو ست مراحل، وهي أكبر من تبوك[٣].

وتسمى حديثًا مدينة «العقبة» الميناء المعروف بالأردن[٤]. قال القزويني: «مدين: مدينة قوم شعيب ـ عليه السلام ـ بناها مدين بن إبراهيم الخليل جد شعيب، وهي تجارة تبوك بين المدينة والشام»[٥]. وتقع بالقرب من بحيرة لوط، وهذا يفسر لنا معنى قوله ـ تعالى ـ على لسان نبيه شعيب ﴿**وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنكُم ببعيد**﴾[٦] وقد فسر المفسرون القرب المعني بالقرب المكاني والزماني.

= وجدي، محمد فريد. دائرة معارف القرن العشرين. الطبعة الثالثة، (بيروت: دار المعرفة) ٦/ ٢٣٢.

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، (١٣/ ١٦٧).

(٢) البحر الأحمر حاليًا.

(٣) الحموي، ياقوت. معجم البلدان. (بيروت: دار صادر، . . .)، ٥/ ٧٧.

(٤) انظر: مراصد الاطلاع، (٤/ ١٢٤٦).

(٥) القزويني، زكريا. آثار البلدان وأخبار العباد. (بيروت: دار بيروت، . . .)، ص ٢٦١.

(٦) سورة هود: الآية (٨٩).

شهرته ـ عليه السلام ـ.

ولقد اشتهر شعيب ـ عليه السلام ـ بفصاحته، وبلاغته، وقوة حجته، وحسن مراجعته لقومه.

قال الفيروزي آبادي: «ولم يكن من الأنبياء بعد نبينا محمد ﷺ أفصح ولا أبلغ من شعيب ـ عليه السلام ـ، قرأ رسول الله ﷺ قصته وما كان منه ومن قومه، وتأمل في ألفاظ تذكيره لقومه فقال: «**رحم الله أخي شعيباً ذاك خطيب الأنبياء كان يحسن مراجعة قومه**»[1].

* * *

(١) الفيروز آبادي. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. (تحقيق) عبد العليم الطحاوي، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية)، ٦/ ٥٧.

والحديث الذي ذكره الفيروز آبادي ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١٨٥) وأخرجه الحاكم في المستدرك بلفظ: «وكان رسول الله ﷺ إذا ذكره قال: **ذاك خطيب الأنبياء لمراجعته قومه**» المستدرك، (٢/ ٥٦٨) وأورده الألوسي نقلاً عن ابن عساكر عن ابن عباس بنفس اللفظ السابق، (٨/ ١٧٥).

المبحث الأول
دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه

هذه القصة السادسة في هذه السورة الكريمة، والتي تصور مشهداً جديداً وصراعًا مغايراً للصراعات السابقة، فرغم أنها تتفق مع سالفتها من الصراعات في قضية التوحيد والحض عليه وترسيخ العقيدة؛ إلا أنها عالجت نمطًا جديداً، وخلقًا وضيعًا، وطغيانًا ماديًا استفحل في قلوب الملأ من أهل مدين ومن تخلقوا بأخلاقهم، وقد ساعد على تفشيه بينهم بسبب ما تتمتع به مدين من موقع جغرافي استراتيجي، فهي كما أسلفت مركز تجاري هام يربط بين الحجاز والشام، وتمر عليها القوافل التجارية من مختلف الأقطار، مما أكسب أهل مدين معرفة واسعة بأصول التجارة، ومهارة فائقة في البيع والشراء، فأصبحوا في ثراء عظيم ونعم لا تحصى.

ولقد طغى عليهم حب المال، وأصبحوا لا هَمّ لهم إلا في جمعه، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰٓ﴾[1] لا يعنيهم من أي الوجوه أتى الربح، فهم يرون أنفسهم أنهم أحرار في أموالهم، يفعلون فيها ما بدا لهم ـ وإن ظلموا غيرهم، فليس لديهم أي بأس أو حرج عندما ينقصون الكيل والميزان إذا هم باعوا لغيرهم، وأن يطففوه إن هم اشتروا لأنفسهم.

ومن هذا المنطلق كانت دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ لذلك المجتمع الذي

---

(١) سورة العلق، الآيتان (٦، ٧).

طغت عليه المادية، وذلك بإعادة التوازن في البيع والشراء، والعدل في الكيل والميزان، وعدم بخس الأخرين حقهم حتى تسود روح المحبة والإخاء بين أفراده، ويتلاشى طغيان المادة التي تسبب اشتعال نار الحقد والكراهية في نفوس بعض الأفراد ضد بعض.

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾[١].

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبًا، وهذا المحذوف معطوف على المقدر في نظائره فيما مضى من قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾[٢]، ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾[٣] فالتقدير: وأرسلنا هودًا إلى عاد، وأرسلنا صالحًا إلى ثمود، وأرسلنا شعيبًا إلى مدين. وشعيب ـ عليه السلام ـ من أبناء مدين كما أسلفت[٤] فالأخوة نسبية.

وتتلخص دعوة شعيب لقومه بما يلي:

١ ـ أمرهم بإخلاص العبادة لله تعالى وحده:

ولقد دعا شعيب قومه إلى عبادة الله وحده، ونبذ ما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ ناداهم ـ عليه السلام ـ بـ ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ تذكيراً لهم بأواصر الأخوة والنسب، وأنه ـ عليه السلام ـ حريص على هدايتهم وإنقاذهم من الهلاك الذي يتربص بهم، لذلك كان أول نداء وجهه إليهم ـ شأنه في ذلك شأن الأنبياء الذين سبق ذكرهم ـ هو حثهم على

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٦٥).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

(٤) انظر: ص (٣٧١ ـ ٣٧٢) من بحثنا هذا.

عبادة الله وحده؛ فليس هناك إله يستحق العبادة سواه، ولم يحتج ـ عليه السلام ـ إلى إثبات وحدانيته ـ جل وعلا ـ بأدلة حسية أو غيرها لأن أهل مدين هم من أحفاد إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ كما سبق أن أسلفت، ولم يكن أمر التوحيد بالغريب عليهم. لكن لتطاول الأزمان بين دعوة شعيب ودعوة إبراهيم ـ عليهما السلام ـ اجتالتهم الشياطين، وأنسوهم ذكر الله، وحادوا عما كان عليه آباؤهم، واتبعوا أهواءهم، وزين لهم الشيطان الشرك والكفر بالله، فعكفوا على عبادة الأصنام والأوثان، واتخذوها آلهة تعبد من دون الله.

وقوله تعالى: ﴿ما لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ معناه أن شيئًا مما ألهتموه لم تأمركم بذلك ولم تدعكم إلى تأليهها، لأنها جمادات لا تسمع، ولا تبصر، ولا تغني عنكم شيئًا، ولا تحس بتوجهاتكم إليها، ومن العجيب أن الأمم الكافرة قد عكفت على عبادة الجمادات التي لا تشعر بعابديها، ولم يُعرف تأليه البشر إلا على لسان اليهود والنصارى، وهم لم يتجرأوا على جعل من ألهوا من البشر آلهة مستقلين، بل جعلوهم أبناء لله الواحد.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

وهذا كله متأخر عن عصر شعيب، ولعل الكافرين الذين شابههم اليهود والنصارى هم المصريون القدماء الذين انطلت عليهم فرية فرعون حيث قال لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ ومما يقوي ذلك أن اليهود كانوا يعيشون في مصر في ذلك

(١) سورة التوبة: الآيتان (٣٠، ٣١).

الوقت وقد اقتبسوا عن المصريين الكثير من أحوالهم، فإذا قال شعيب لقومه: ﴿ **ما لكُم مَنْ إله غيْرُهُ** ﴾ فقد نبه قومه أنهم هم الذين افتعلوا تأليه مبعوداتهم لا أنها أمرتهم بذلك، ولأن أحدًا لم يتجرأ على دعوى ألوهية هذا الكون وتدبيره وحفظه. وغاية ما ادعاه فرعون أنه قال لقومه: ﴿ **أنا ربُكُمُ** ﴾ ولم يقل لهم أنا رب الخلائق ﴿ **قدْ جاءتْكُم بيِّنةٌ مِن رَبِكُمْ** ﴾ أي: دلالة وحجة واضحة، وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلني، والمقصود من هذا القول الكريم حملهم على التوحيد ونبذ الشركاء.

ولقد اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في بينة شعيب ـ عليه السلام ـ أهي معجزة حسية كناقة صالح ـ عليه السلام ـ؟ أم هي معجزة قولية؟ أم هي مجموع الأمرين؟ وسبب هذا الخلاف أن القرآن الكريم لم يقص علينا معجزة حسية لشعيب كناقة صالح، وعصا موسى ـ عليهما السلام ـ وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنه خطيب الأنبياء بسبب قوة حجته وإفحامه قومه ـ عليه السلام ـ مما اضطرهم أن يقولوا له: ﴿ **قالُوا يا شُعيْبُ ما نفْقهُ كثيرا مِمَا تقُولُ وإنَا لنراك فينا ضعيفا ولوْلا رهْطُك لرجمْناك وما أنت علينا بعزيز** ﴾[1].

قال الألوسي: جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف من قبل التخليط والهذيان الذي لا يفهم معناه، ولا يدرك فحواه، مع أنه كما ورد في الحديث الشريف (خطيب الأنبياء)[2].

لما قدمته قال بعضهم: كانت له ـ عليه السلام ـ معجزة حسية، ولا يضر عدم ذكرها ـ بل يكفي أن نعلم أنه أوتي بينة من ربه.

---

(١) سورة هود: الآية (٩١).

(٢) بتصرف من تفسير الألوسي، (١٢/ ١٢٣).

وقال فريق آخر: بل بينته حجته ـ لما أسلفته من سبب هذا القول، وقد لخص الألوسي ـ رحمه الله ـ الخلاف فقال:

﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ أي: معجزة عظيمة ظاهرة من مالك أموركم، ولم تذكر معجزته ـ عليه السلام ـ في القرآن العظيم كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ والأنبياء ـ عليهم السلام ـ فيه.

والقول بأنه لم يكن له ـ عليه السلام ـ معجزة غلط؛ لأن الفاء في قوله سبحانه: ﴿ فأوفوا الكيل والميزان ﴾ لترتيب الأمر على مجيء البينة، واحتمال كونها عاطفة على ﴿ اعبدوا ﴾ بعيد، وإن كانت عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهي التي معظمها بعد الكفر البخس، فكأنه قيل: قد جاءتكم معجزة شاهدة بصحة نبوتي، أوجبت عليكم الإيمان بها، والأخذ بما أمرتكم به فأوفوا إلخ . . . ولو ادَّعى مُدَّعٍ النبوة بغير معجزة لم تقبل منه؛ لأنها دعوى أمر غير ظاهر، وفيه إلزام للغير، ومثل ذلك لا يقبل من غير بينة، ومن الناس من زعم أن البينة نفس شعيب، ومنهم من زعم أن المراد بالبينة الموعظة، وأنها نفس ﴿ فأوفوا ﴾ إلخ . . . وليس بشيء كما لا يخفى. ا. هـ[1].

٢ ـ أمرهم بإيفاء الكيل والميزان:

قال تعالى: ﴿ فأوفوا الكيل والميزان ﴾: الفاء تفيد الترتيب، وهذا يؤكد وجود المعجزة، فإن عطف هذا الأمر بالفاء لا يصح إلا إذا كان مبنيًا على ما هو سبب له، وهو البينة على صدقه ووجوب طاعته، ولو كان معطوفًا على قوله: ﴿ اعبدوا الله ﴾ لعطف بالواو[2].

---

(١) تفسير الألوسي، (٨/ ١٧٦).

(٢) انظر: تفسير المنار، (٨/ ٥٢٥).

قال الفخر في بيان الحكمة من ابتداء شعيب ـ عليه السلام ـ بتحذير قومه من البخس والتطفيف في الكيل: «اعلم أن عادة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إذا رأوا أقوامهم مقبلين على نوع من أنواع المفاسد إقبالاً أكثر من إقبالهم على سائر أنواع المفاسد، بدأوا بمنعهم عن ذلك النوع، وكان قوم شعيب مشغوفين بالبخس والتطفيف، فلهذا السبب بدأ بذكر هذه الواقعة فقال: ﴿ **فأوفوا الكيل والميزان** ﴾[1] وأهل مدين ـ كما أسلفت ـ بحكم موقع مدينتهم على ممر القوافل التجارية بين الحجاز والشام أهل تجارة وبيع وشراء، وقد أنعم الله عليهم بالنعم والرخاء في العيش كما أشارت إلى ذلك سورة هود: ﴿ **ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير** ﴾[2] أي: في ثروة واسعة ورغد في العيش يغنيكم عن التطفيف وأكل أموال الناس بالباطل.

وكان اللائق بهم أن يعرفوا ويؤدوا حق شكر هذه النعم، لا أن يقابلوها بالكفر والجحود والعصيان؛ لأن المال الحرام لا بركة فيه، وسرعان ما يزول عن صاحبه بدون أن يشعر، بينما المال الذي يكسبه الإنسان عن طريق الحلال المشروع فإن الله يبارك فيه، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في سورة هود: ﴿ **بقيت الله خير لكم إن كنتم ...** ﴾[3] أي: ما أبقاه الله لكم، وأنعم به عليكم من الحلال، خير مما تجمعونه من الحرام الذي يذهب هباء، فضلاً عن أنه يكون وبالاً على صاحبه. والمراد بالكيل في الآية: آلة الكيل وهو الميكال.

وأمرُ شعيب قومه بإيفاء الكيل والميزان يحتمل أن آلاتهم التي كانوا يكيلون بها ويزنون سليمة، وأن النقص كان في المكيل والموزون. ويحتمل أن آلاتهم

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي، (١٤/ ١٧٣).

(٢) سورة هود: الآية (٨٤).

(٣) سورة هود: الآية (٨٦).

كانت على خلاف ما تعورف عليه، فكانوا يرتكبون الجريمتين: نقص المكيل والموزون ونقص آلاتهما، فلفظ الكيل في الآية يحتمل هذين المعنيين، إذ قد يكون الكيل بمعنى الميكل، أو هو اسم للآلة التي يكال بها، وقد شاع فيهما الأمران قال تعالى: ﴿ **ولا تنقصوا المكيال والميزان** ﴾[1] فحملهما على الآلة في هذه الآية واضح ظاهر.

٣ ـ نهاهم عن بخس الناس حقوقهم:

ولما أمرهم بإيفاء الكيل والميزان، نهاهم عما يؤدي إلى نقص الحقوق بعامة فقال: ﴿ **ولا تبخسوا الناس أشياءهم** ﴾ أي: لا تبخسوا الناس أشياءهم كافة أوجه البخس والنقص، فيدخل فيه المنع من الغصب، والسرقة، وأخذ الرشوة، وقطع الطريق، وانتزاع الأموال بطريق الحيل[2].

٤ ـ نهاهم عن الإفساد في الأرض:

ثم نهاهم عن الفساد في الأرض بعامة، بعد أن أصلحها الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بالشرائع الإلهية، فيدخل فيه كل فساد وكل ظلم ـ وهذا النهي من قبيل ذكر العام بعد الخاص الذي ينتظم الخاص المذكور، وما لم يذكر من أنواع الفساد والجور، فيدخل فيه النهي عن الزنا، والقتل، وقطع الطريق، وظلم الضعيف، وغير ذلك من المناهي التي جاءت بها الشرائع، على اختلافها في الفروع والأصول، قال تعالى: ﴿ **ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾[3].

---

(١) سورة هود: الآية (٨٤).

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي، (١٤/ ١٧٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

وخلاصة القول : إن المباشرة الحرة للمال من غير قيود، ومن غير عدل تنتهي حتمًا إلى الفساد في المجتمع، بسبب فساد المترفين عن طريق الربح غير المحدود بل وغير المشروع، الربح الحرام الذي يسبب الشقاء والظلم للآخرين.

﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إشارة إلى ما مضى من نبذ عبادة الأصنام، وأمرهم بإيفاء الكيل والميزان، والنهي عن البخس والفساد في الأرض، وقد جاء بلفظ الجمع في الإشارة ﴿ ذلكم ﴾ لأنه أراد عموم ما ذكره لهم، وجمع في الخطاب ليعلمهم أن هذه الخيرية حاصلة لكل واحد منهم على حده، أي: هي حاصلة للأفراد وللجماعة. وهذه نكتة الجمع في الخطاب.

﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي: موقنين مصدقين لي فيما جئتكم به فإنكم حينئذ تدركون قبح ما أنتم عليه، وأن صلاحكم في توحيد ربكم، والالتزام بما أمرتكم به، وترك ما نهيتكم عنه.

وهذا بيان إلهي عظيم، هُدينا به إلى أن القبح لا يعرف ولا يدرك قبحه إلا بالإيمان بالله ـ عز وجل ـ وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره ومما يؤكد لك هذه الحقيقة أن ما نستقبحه في البيئة الإسلامية ونتحاماه كل التحامي، نجد الكفار ينكبون عليه، وينهمكون في فعله، ويسنون القوانين الحامية لمن يفعله، والفرق بيننا وبينهم هو الإيمان بالله ـ عز وجل ـ ويستحيل على العقل أن يدرك قبح الأشياء وحده بدليل أنك ترى أكبر المفكرين والفلاسفة من غير المؤمنين ـ يأتون من قبائح الأفعال، والكفر بالله عز وجل ما يجعل المؤمن في حيرة ودهشة من صدور ذلك عن هذا المفكر المشهود له بقوة العقل، لكن إذا تذكرنا قوله تعالى لقوم شعيب: ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فلا حيرة ولا غرابة.

٥ ـ نهاهم عن القعود على طريق الدين ومناهج الحق لأجل أن يمنعوا الناس عن قبوله :

ثم إنه عليه السلام أخذ ينهاهم عن رذائل أخرى استحسنوها، وتعاقبوها، وهي أنهم تشبهوا بإبليس في توعده لبني آدم، وأخذه العهد على نفسه بإغوائهم: ﴿ **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** ﴾، وذلك أنهم كانوا يتربصون بالطرقات كل من أراد الذهاب إلى شعيب فيمنعونه بشتى الأساليب.

قال تعالى: ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به** ﴾[1] أي: ولا تقعدوا بكل طريق يسلكه الناس، تحولون بين شعيب ومن آمن به، أو من كان يقصده من الغرباء والمسافرين، وقصدهم بذلك عزل شعيب عن كل من يريد الاتصال به، حتى لا يجد لمواعظه مكانة في قلوب الناس فيتأثرون به، ويؤمنون بما جاءهم به ﴿ **توعدون** ﴾ من التوعد بمعنى التهديد والتخويف، أي أنهم يهددون ويخوفون كل من أراد الإيمان بشعيب بأنواع الأذى.

﴿ **وتصدون عن سبيل الله من آمن به** ﴾ أي: وتصرفون عن دين الله وطاعته من آمن به ﴿ **وتبغونها عوجا** ﴾ أي: تبغون طريق الله عوجًا تقركم على ما أنتم عليه من السوء، أو تأتون بالشبه التي تلبس على المؤمنين فتحيرهم، أو تصرفهم عن الدين بعد أن آمنوا به، لأنه صار عندهم معوجًا بما ألقيتموه من الشبه، كما أنكم بعلمكم هذا تصرفون من يميل إلى دين الله ويحاول الاهتداء، وهذه قبائح لا ينبغي أن تقيموا عليها، لأن الله توعد من يتصف بها بالهلاك في الدنيا، وسوء المصير في العقبى، ومهما حاولتم أن يكون دين الله عوجًا فلن تصلوا.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٦).

والخلاصة: إنه نهاهم عن القعود على صراط الله حال كونهم موعدين[١] وصادين عن سبيل الله، وحالة كونهم طامعين في أن تكون طريق الله عوجًا تبيح لهم ما هم عليه.

٦ ـ ذكرهم بنعم الله عليهم:

﴿واذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾: وقد غاير نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ في أسلوب دعوته، فترك تذكيرهم بما هم عليه من فساد، وذكرهم بما أفاض الله عليهم من نعمة، واختار من بينها نعمة لا يشكون فيها، ولا يجحدون وقوعها، وهي أنهم كانوا قليلين فيما مضى، يطمع فيهم الطامعون، وينال منهم من يشاء من نيل فلا يمتنعون عليه، ثم نقلهم الله من هذا الحال، فجعلهم أمة عظيمة مرهوبة الجانب، لها على غيرها من السيادة والسلطان بما أوتيت من وفرة المال الذي من شأنه أن يخضع لهم الناس.

فقال تعالى: ﴿واذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾[٢] أي: قليلاً في عددكم فأصبحتم كثرة كاثرة، وفي هذا الأسلوب نهج قويم للدعاة بألا يكثروا من ذكر المثالب[٣] بل يخلطوا دعوتهم ببيان الخطأ والصواب، فإن النفس إذا سيست بأسلوب واحد سئمت وعميت عن الحق مهما كان واضحًا، ولذلك نجد القرآن الكريم إذا توعد يردف بالوعد، وإذا وعد يردف بالتوعد، لأن النفس البشرية لا تصلح ولا تقام عليها الحجة إلا بهذا الأسلوب.

---

(١) من التوعد: بمعنى التهديد والتخويف.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٦).

(٣) العيوب.

٧ ـ ثم حذرهم من الإفساد :

وإنه سوف يكون مصيرهم مصير من سبقهم من الأمم السابقة قال تعالى : ﴿ **وانظُرُوا كيْف كان عاقبةُ الْمُفْسدين** ﴾[١] أي : تذكروا كيف كان مآل المفسدين وما أصابهم من الخزي والنكال ، وليكن ذلك حافزاً على طاعة الله ، والابتعاد عن معاصيه ، وما نهيتكم عنه وحذرتكم منه ، وإلى ذلك أشارت آية هود ﴿ **ويَا قَوْمِ لا يجْرمنَّكُمْ شقاقي أن يُصيبكُم مَثْلُ ما أصاب قَوْمَ نُوحٍ أوْ قَوْمَ هُودٍ أوْ قَوْمَ صَالحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنكُم ببعيد** ﴾[٢] .

* * *

(١) سورة الأعراف : الآية (٨٦) .

(٢) سورة هود : الآية (٨٩) .

تعقيب

وقوله تعالى: ﴿ وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفةٌ لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾[١].

لقد أثمرت دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ ثمارها، ودخلت طائفة من قومه في دين الله، وبقدر ما أفادتنا هذه الآية الكريمة من إيمان طائفة من قومه فقد أفادتنا أيضًا حرصه ـ عليه السلام ـ على إيمان قومه عن بكرة أبيهم، لأنه ـ عليه السلام ـ بذل لقومه من الحجة، ووضوح البينة، ما لم يبق عذرًا لمعتذر أو سببًا لكفر كافر منهم.

وقوله تعالى: ﴿ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ﴾ يحتمل معنيين:

المعنى الأول:

أنه وعيد للمكذبين من قومه المصرين على معاندته كقوله تعالى: ﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾[٢] أي: تربصوا هلاككم وخذلانكم، وإنا معكم متربصون وقوع ذلك لكم. فقوله: ﴿ فاصبروا ﴾ خرج من معنى الأمر بالصبر إلى تهديد المكذبين وقوله: ﴿ حتى يحكم الله بيننا ﴾ غاية لهذا الأمر، أي: فحينئذ تعلمون المبطل منا من المحق، وهذا هو المعنى الأقوى في نظري، وله في القرآن نظائر كثيرة لا أطيل بذكرها[٣] وقوله تعالى: ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ أي: هو العدل

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٧).

(٢) سورة التوبة: الآية (٥٢).

(٣) مثل قوله تعالى: ﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ سورة يونس: الآية (١٠٢).

الذي لا يجور في حكمه، لذا فلن يعاقب إلا من هو أهل للعقاب، ولن ينصر إلا من هو أهل للنصرة.

المعنى الثاني:

أنه أمر بالصبر للطائفة المؤمنة على ما يلقون من عنت الكافرين والمكذبين، وقوله تعالى: ﴿**حتَّىٰ يحكُم اللَّهُ بيْننا وهُو خيرُ الْحاكمين**﴾ تبشير لهم بالنصر، وأن معاناتهم من المكذبين لن تدوم، والله أعلم بالصواب.

❊ ❊ ❊

المبحث الثاني
موقف الكافرين
من دعوة شعيب عليه السلام

إن الدارس للآيات الكريمة الواردة في سورة الأعراف حول موقف الكافرين من دعوة شعيب يجد أنها لا تتعدى الثلاث آيات التالية:

وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾[1].

والمتمعن في الآيات السابقة مع الآيات الأخرى من كتاب الله مثل سورة الشعراء وسورة هود اللتين تحدثتا عن موقف الكافرين من دعوة شعيب يجد أن الآيات الواردة في سورة الأعراف جاءت لبيان خاتمة الموقف الذي سلكه قوم شعيب مع نبيهم شعيب ـ عليه السلام ـ ولما كان القرآن الكريم بأسلوبه المعجز، الذي أعجز بلغاء العرب وفصحاءهم، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يعتبر في الواقع وحدة متكاملة مترابطة، فهو يفسر بعضه بعضًا، فما يجمله في مكان، يبسطه في موضع آخر، وهو في الإجمال والبسط في أعلى

(١) سورة الأعراف: الآيات من (٨٨) إلى (٩٠).

درجات الفصاحة، بحيث يأسرك إجماله وتفصيله، وذلك سر من إعجازه، لذلك أحب أن أوضح للقاريء الكريم أنني سوف أذكر موقف الكافرين من دعوة شعيب من خلال بعض الآيات في سورة الشعراء أولاً، ثم سورة هود ثانيًا اللتين فصلتا الموقف، ثم أعرج في النهاية على ذكر ما توصل إليه الملأ من قوم شعيب، حين أصروا على تعنتهم، وأبوا اتباع الحق، واستهووا الباطل، وقرروا طرد شعيب ومن آمن معه من قريتهم، إن لم يقلع عن دعوتهم إلى التوحيد، وترك ما ألفوه من أكل أموال الناس بالباطل، وهذا ما أفصحت عنه آيات سورة الأعراف.

وغرضي من هذا بيان الصراع الذي واجهه شعيب ـ عليه السلام ـ من قومه، وكيف أنه بذل كل ما في وسعه من طاقة لهدايتهم متحملاً المهانة والاستهزاء والتهديد والوعيد من قومه، ثم نتعرف بمشيئة الله في الفصل الذي يليه نتيجة تلك المكابرة، وما حل بهم من العذاب الأليم.

لقد كان نبي الله شعيب حريصًا كل الحرص على هداية قومه، وانتشالهم من الكفر والفساد والظلم الذي خيم عليهم واستقر في نفوسهم، ويتلخص موقف قوم شعيب من نبيهم ـ عليه السلام ـ فيما يلي:

١. اتهموه بالسحر والكذب:

ولقد قابل قوم شعيب ـ عليه السلام ـ دعوته بالاستنكار والتكذيب فضلاً عن السخرية والتهكم، لقد فاجأتهم دعوته وهزت مشاعرهم، وأقلقت نفوسهم، ولم يجدوا ما يردون عليه به، إلا أن يطعنوا في دعوته، وينسبوه إلى السحر، ويصفوه بأنه من الكاذبين، قال تعالى: ﴿**قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾[1] فقد اتهموه بأنه مسحور قد أفسد السحر عقله وتفكيره، فأصبح يتفوه بما لا يعرف مما جعله ينهاهم عن ترك عقائد

(١) سورة الشعراء: الآيتان (١٨٥، ١٨٦).

عزيزة في نفوسهم، راسخة في قلوبهم، توارثوها عن آبائهم وأجدادهم، وقد جاءوا بلفظ «الواو» في قولهم: ﴿ **وما أنت** ﴾ للدلالة على أنه جامع بين وصفين منافيين للرسالة مبالغة في تكذيبه، ثم اتهموه بالكذب ﴿ **وإن نَظُنُّك لمن الْكاذبين** ﴾ أي: في دعواك[١].

٢. تهكموا عليه واستهزأوا بدعوته:

ثم كرر القوم استهزاءهم بنبيهم مستكبرين عن قبول دعوته، ساخرين منه، متهكمين عليه، قائلين له: كيف تؤثر عليك صلاتك يا شعيب فتأمرك بأن تحملنا على ترك ما درجنا عليه، وألفناه من تقاليد، وما نشأنا عليه من عبادات ورثناها عن آبائنا؟

وكيف تطالبنا أن نتصرف في أموالنا بما تراه وتعتقده مع أنه يؤثر على تجارتنا ومصالحنا ويقيد حرياتنا؟ وكان شعيب ـ عليه السلام ـ كثير الصلاة فلذلك خصوها بالذكر: ﴿ **قالُوا يا شُعيْبُ أصلاتُك تأْمُرُك أن نَتْرُك ما يعْبُدُ آباؤُنا أوْ أن نَفْعل في أمْوالنا ما نشاءُ إنَّك لأنت الْحليمُ الرَشيدُ** ﴾[٢] تهكموا به، وقصدوا وصفه بضد ذلك. وقيل: إنهم عللوا إنكار ما سمعوه منه واستبعاده بأنه موسوم بالحلم والرشد، المانعين عن المبادرة إلى أمثال ذلك[٣].

أما آيات سورة الأعراف التي بينت موقف الكافرين من دعوة شعيب فسوف أتحفك بشرحها في مبحث «موقف شعيب ـ عليه السلام ـ من اتهام قومه له بالضعف»[٤].

---

(١) البيضاوي. أنوار التنزيل وأسرار التأويل. (بيروت: مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع)، ٤/ ١٠٩.

(٢) سورة هود: الآية (٨٧).

(٣) انظر: تفسير البيضاوي، (٤/ ١١٨).

(٤) انظر: ص (٣٩٤) من بحثنا هذا.

موقف شعيب ـ عليه السلام ـ من قومه

ثم بينت الآيات الثلاث التالية موقف شعيب ـ عليه السلام ـ من هذا الاستهزاء والتهكم:

ورغم تهكمهم واستهزائهم بنبيهم، وإصرارهم على باطلهم، لم تبدُ منه ـ عليه السلام ـ أي جفوة أو قسوة، بل تلطف في جدالهم، وآثر استمالتهم باللين، واجتذابهم بالرفق، وذكَّرهم بما بينه وبينهم من صلة، فكان يناديهم: (يا قوم) ليشعرهم بأواصر القرابة والنسب، وبأنه منهم وأنهم منه، قائلاً لهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].

والمعنى: يا قومي الذين أحب لهم ما أحبه لنفسي من الخير والسعادة والنفع والصلاح، إنني مرسل إليكم ببينة وحجة واضحة من ربي الذي خلقني وخلقكم، وما جئتكم به إنما هو وحي من الله لا رأي مني، وقد أنعم الله على بالرزق الطيب الحلال، ولست أقول لكم، وآمركم بشيء، وأخالفه إليه من ورائكم، خفية عنكم مؤثرًا نفسي عليكم، بل أنا مستمسك به قبلكم، لأنه لو كان صوابًا لآثرته ولم أعرض عنه فضلاً عن أن أنهي عنه، وما أريد إلا أن أصلحكم بأمري لكم بالمعروف ونهيي لكم عن المنكر، وليس لي فيما أقول هوى

---

(١) سورة هود: الآية (٨٨).

أو منفعة ذاتية تعود بالخير علي، فلو وجدت الصلاح فيما أنتم عليه لما نهيتكم عنه، وما توفيقي لإصابة الحق والصواب إلا بهدايته ومعونته ـ جلّ وعلا ـ عليه توكلت وإليه أنيب، فهو المعين لي في أداء الرسالة التي شرفني بإبلاغها.

وبعد هذا الأسلوب الهادىء الذي ينطوي على ترغيبهم في عمل الخير، واتباع الحق، يتدرج شعيب ـ عليه السلام ـ إلى أسلوب الترهيب، حتى يبصرهم عواقب المخالفة والزيغ عن الحق والهدى إلى الباطل والضلال، وكل ذلك حرصًا منه على هدايتهم، قائلاً لهم ما قصَّة الله على لسانه: ﴿**ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد**﴾[1].

أي: لا تحملنكم عداوتكم لي على الإصرار على ما رضيتموه لأنفسكم من الفساد والمنكر، وعلى التمادي في الكفر والباطل، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق، وقوم هود من الريح، وقوم صالح من الرجفة والنقمة والسخط والعذاب.

﴿**وما قوم لوط منكم ببعيد**﴾ زمانًا أو مكانًا، فإن لم تعتبروا بمن قبلكم فاعتبروا بمن هم ليسوا ببعيد عنكم، فقد علمتم أنهم هلكوا بالأمس بسبب استكبارهم على نبيهم وموقفهم العدائي من دعوته، وقد قال المفسرون بأن هذه الآية لها أكثر من دلالة.

فقيل: إن معناها أنهم ليسوا ببعيد عنهم في الزمان، إذ كان شعيب عليه السلام أقرب الأنبياء الذين جاءوا بعد لوط، وكان البلاء الذي أصاب قوم لوط لا تزال ترويه الأجيال التي سبقتهم.

---

(١) سورة هود: الآية (٨٩).

وقيل: إن معنى البعد المقصود هو البعد المكاني، فلقد كانت أرض مدين قريبة من أرض «سدوم» قرية قوم لوط.

وقيل: إن معنى البعد المراد أنهم ليسوا ببعيد منهم في الصفات أي أن ما يفعلونه من الموبقات والمنكرات، يتشابه في كثير من نواحيه مع ما كان يرتكبه قوم لوط، إذ كانوا مثلهم يقطعون الطريق، ويؤذون الرفيق، ويأتون القبائح من الأفعال جهاراً نهاراً.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: والجمع بين هذه الأقوال ممكن، فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم، لا زماناً ولا مكاناً ولا صفات[1].

ثم دفع شعيباً ـ عليه السلام ـ إشفاقه عليهم، إلى أن يطلب منهم أن يتجهوا إلى الله تعالى بطلب المغفرة والتوبة مما هم فيه من الشرك والضلال، وأكل أموال الناس بالباطل، فإن الله رحيم بعباده، فهو الغفور الودود وسعت رحمته كل شيء.

قال تعالى: ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود﴾[2].

٣. اتهامه بالضعف في منطقة فلم يفهموا دعوته وتهديده برجمه بالحجارة:

كان اللائق بقوم شعيب بعد ذلك النصح الذي يتسم بالإشفاق والحرص الشديد على هدايتهم، كان اللائق بهم أن ينصاعوا لما يأمرهم به، ويَدَعوا كل ما فيه سخط الله عليهم، لكنهم أخذتهم العزة بالإثم، ولم يجدوا سبيلاً إلى مواجهته ومجادلته غير الشتم والتهديد، لا سيما وأنهم أحسوا أنه قد غلبهم بالحجة، وقهرهم بالبيان، وعزهم بالخطاب، فادعوا أنهم لم يفهموا قوله لهم.

---

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، تحقيق عبد الغفور عطار، (١/ ٢٩٥).

(٢) سورة هود: الآية (٩٠).

ومن العجيب أن يتضح الحق أمامهم بما أدلى به شعيب من الحجج والبينات ثم يأبون إلا الجحود والإنكار؛ واتهموا نبيهم بالضعف في منطقه، والقصور في بيانه، وأنه لا قوة له تنصره، ثم هددوه بأنهم كانوا سيرجمونه بالحجارة ليقضوا على دعوته، لولا خوفهم من رهطه وخاصته ﴿ **قالُوا يا شُعَيْبُ ما نفقهُ كثيرا مِمَّا تقُولُ وإنَّا لنراكَ فينا ضعيفا**[1] **ولولا رهطُك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز** ﴾[2] أي: إنك لست محترمًا، أو صاحب شأن وكلمة بيننا حتى نمتنع عن قتلك.

* * *

(١) قال الألوسي - رحمه الله - في تفسير قوله: «﴿ وإنا لنراك ﴾ أي: فيما بيننا ﴿ ضعيفا ﴾ لا قوة لك ولا قدرة على شيء من الضر والنفع والإيقاع والدفع» وروي عن ابن عباس وابن جبير وسفيان الثوري وأبي صالح تفسير (الضعيف) بالأعمى وهي لغة أهل اليمن. وذلك كما يطلقون عليه ضريراً. وهو من باب الكناية على ما نص عليه البعض، وإطلاق البصير عليه كما هو شائع من باب الاستعارة تمليحًا.

وضعف هذا التفسير بأن التقييد بقولهم: ﴿ فينا ﴾ يصير لغوًا لأن من كان أعمى يكون أعمى فيهم وفي غيرهم، وإرادة لازمه وهي الضعف بين من ينصره ويعاديه ولا يخفى تكلفه.

ومن هنا قال الإمام: «جوز بعض أصحابنا العمى على الأنبياء - عليهم السلام - لكن لا يحسن الحمل عليه هنا، وأنت تعلم أن المصحح عند أهل السنة أن الأنبياء - عليهم السلام - ليس فيهم أعمى، وما حكاه الله - تعالى - عن يعقوب - عليه السلام - كان أمرًا عارضًا وذهب» ا. هـ. تفسير الألوسي (١٢/ ١٢٣).

(٢) سورة هود: الآية (٩١).

موقف شعيب من اتهامه بالضعف

ولكن شعيبًا ـ عليه السلام ـ لم تهن عزيمته أمام تهديدهم، بل واصل مدافعة باطلهم، مبينًا لهم أن رهطه ليسوا بأعز من الله ولا أشد قوة منه، والرهط: هو الجماعة. قال الراغب: هم ما دون العشرة[١]. وقال الزمخشري: الرهط: من الثلاثة إلى العشرة. وقيل إلى السبعة[٢]، وقال موجهًا إياهم إلى أن الحق يجب أن يسمو على كل شيء، وأن الخوف يجب أن يكون من الله وليس من المخلوقين.

هكذا كانت ثقة شعيب بربه، وأنه على يقين من أن الحق سيعلو ويظهر، ويدحض الباطل وأهله، وفي هذا درس للدعاة إلى الله، وأن عليهم أن يتحملوا المشاق والشدائد في سبيل نصرة الحق وإحقاقه، وقد أيقن شعيب عليه السلام بقدرة الله التي لا تعلو عليها قدرة، وبعظمته التي فاقت كل عظمة، وتوكل على الله حق التوكل، قائلاً لهم ما قصَّه الله على لسانه ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ**﴾[٣].

أي أنه تحداهم أن يعملوا ما بدا لهم، وما هو في مقدورهم عليه لعرقلة مسيرة دعوته، وهو من جانبه سيسعى جاهدًا لرفعة شأن دعوته ما استطاع إلى ذلك

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني، ص (٢٠٤).

(٢) الكشاف للزمخشري، (٢/ ٢٨٩).

(٣) سورة هود: الآيتان (٩٢، ٩٣).

سبيلاً، وهددهم بأنهم سيعرفون في النهاية أي الفريقين كان على الحق، ومن الذي سينتقم الله منه، ودعاهم إلى ترقب هذه النتيجة وانتظارها، وما هي من الظالمين ببعيد.

وأعود بالقاريء الكريم إلى آيات سورة الأعراف:

وإزاء هذا التهديد، وهذه الحجج التي تفصح عن حسن مراجعته لقومه، واستخدامه لحسن منطقه، وبعد نظره وحكمته في دعوته لقومه، ونصحه لهم، وتحذيرهم لهم من عاقبة المخالفة ـ مع ذلك كله ـ لم تثمر جهوده معهم لا سيما الملأ أصحاب الأموال والثروات، بل ازدادوا له عداوة وكراهية وقد ضاقوا به ذرعًا، لاسيما وأنه تطرق إلى أعز وأنفس ما تصبوا إليه نفوسهم، ألا وهو جمع المال، لأنه استحكم على قلوبهم، حتى صاروا عبيدًا له، كما جاء في الحديث: «تعس عبد الدينار»[1]. كل ذلك جعل الملأ أصحاب الأموال والنفوذ وهم الحجب الكثيفة في كل أمة تجابه دعوة الرسل وتوجه التحذير لشعيب ومن آمن معه بالنفي والطرد من البلاد كلية، حتى تهنأ نفوسهم، ويمارسوا باطلهم كيف شاءوا، إن لم يترك دعوته إلى التوحيد، وتدخله في التضييق عليهم في معاملاتهم المالية، ولم يكتفوا بهذا الحد، بل طالبوه بالعودة إلى عقيدة مجتمعة، والتخلص بأخلاقهم، وممارسته لما ألفوه من الظلم والفسق والفساد.

﴿ **قال الْملأُ الَّذين استَكْبرُوا من قوْمه لنُخْرجنَّك يا شُعيْبُ والَّذين آمنُوا معك من قريتنا أوْ لتعُودُنَّ في ملَّتنا قال أو لوْ كُنَّا كارهين** ﴾[2].

فأجابهم عليه السلام بقوله:

---

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (١٤/ ٢٩، ٣٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٨).

﴿ قد افترينا على الله كذبا إن عُدْنا في ملَّتكُم بعْد إذْ نجَّانا اللَّهُ منْها وما يكُونُ لنا أن نَعُود فيها إلاَّ أن يشاء اللَّهُ ربُّنا وسع ربُّنا كُلَّ شيْء علْما على اللَّه توكَّلْنا ربَّنا افْتحْ بيْننا وبيْن قوْمنا بالْحقّ وأنت خيْرُ الْفاتحين ﴾[1].

والمتأمل في جواب شعيب ـ عليه السلام ـ على ما قاله المستكبرون من قومه يلمس فيه أسمى ألوان الحكمة وحسن البيان، مع توخي المنطق الذي لا يقبل الجدل، ويتلخص في أمرين:

أولا: أن الإيمان بأي مبدأ لابد أن يكون مع الاقتناع التام، لأن الدخول في العقائد اختياري محض، فاستبعد هو ومن آمن معه ما يتمنونه لهم، ﴿ **قال أو لو كُنَّا كارهين** ﴾ أي: تجبروننا على العودة إلى ملتكم حتى ولو كنا كارهين لها لاعتقادنا أنها باطلة وقبيحة ومنافية للعقول السليمة، لا لن نعود إليها مهما كانت الظروف، فالهمزة لإنكار الوقوع ونفيه.

ثانيا: أنه قابل تهديدهم ووعيدهم بالرفض التام والكراهية المتناهية، واعتبر أن رجوعه عن عقيدة التوحيد خيانة للرسالة، وبهتانٌ على الله ـ جلّ جلاله ـ الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿ **قد افْترينا على اللَّه كذبا إنْ عُدْنا في ملَّتكُم بعْد إذْ نجَّانا اللَّهُ منْها** ﴾[2] لأن الذي يذوق حلاوة الإيمان من أتباع الرسل، يستحيل أن يرجع إلى الكفر، والأمثلة على ذلك لا تحصى، والتاريخ سطر لنا الكثير من البطولات والتضحيات، فهؤلاء آل ياسر، وهذا سيدنا بلال الحبشي، عذبوا وقاسوا ألوان العذاب، لكنهم أبوا أن يرجعوا عن دين الله، وهؤلاء ـ كما أسلفت ـ هم من أتباع الرسل فكيف يكون الأمر مع الرسول نفسه؟

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٩).

ولقد طلب المشركون من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هذا الطلب نفسه، وهو الرجوع عن دين الله، وهم على كامل الاستعداد أن يجعلوه سيداً عليهم، يغدقون عليه ما شاء من الأموال، ويزوجونه مَن أحب من النساء، ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم رفض كل تلك الإغراءات، وقال قولته التي دوت في مشارق الأرض ومغاربها وسطرها التاريخ «**يا عم. والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ـ تعالى ـ أو أهلك فيه ما تركته**»(١).

وقد بلغ صلى الله عليه وآله وسلم غاية الإفصاح عن استحالة تركه الدعوة، حتى يظهرها الله ـ سبحانه ـ أو يموت دون ذلك.

ونعود إلى الآيات من سورة الأعراف:

ثم إن شعيباً عليه السلام كرر رفضه مؤكداً ذلك بأبلغ وجه ﴿**وما يكُونُ لنا أن نَعُود فيها إلاَّ أن يشاء اللَّهُ ربُّنا وسع ربُّنا كُلَّ شيْء علْما**﴾(٢).

أي أنه يستحيل علينا، وتأبى ذلك نفوسنا أن نعود إلى ما كنا عليه من الباطل، وظلم الناس، وأكل أموالهم سحتًا في حال من الأحوال، إلا في حال أن يشاء الله ـ جل جلاله ـ فهو المتصرف في جميع الأحوال وله الحكمة البالغة، فهو القادر على ذلك، لأننا نحن على يقين كامل بأن ملتكم باطلة، وعن حلية الحق عاطلة، وملتنا هي الحق، ولا نستطيع أن نحول عن ذلك ولا نغيره، وإنما الذي بيده التغيير هو الله مقلب القلوب، الذي أحاط علمه كل شيء.

والآية الكريمة تترجم المستوى الكبير، والخلق العظيم الذي عليه الأنبياء من الأدب مع خالقهم ـ جل وعلا ـ فشعيب ـ عليه السلام ـ مع ثقته المطلقة في أنه لن

---

(١) الحلبي، علي بن إبراهيم. السيرة الحلبية. إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون. (مكة المكرمة: دار الباز للنشر والتوزيع، ١٤٠٠هـ)، ١/ ٤٦٢.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٩).

يعود وأتباعه إلى ملة الكفر أبدًا، ومع ذلك هو يرجع الأمر إلى الحق ـ جل وعلا ـ تأدبًا معه، فلا يجزم بمشيئته هو، بل يفوض الأمر لله، فقد يكون في علمه ـ سبحانه ـ ما يخفى على البشر مما تقتضيه حكمته وإرادته، ونظير هذه الآية قوله تعالى على لسان إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ: ﴿ **ولا أخافُ ما تُشْرِكُون به إلاَّ أن يشاء ربّي شيئًا وسع ربّي كُلَّ شيْءٍ علْما أفلا تتذكّرُون** ﴾[١].

وبعد ذلك التهديد والتخويف الذي وجهه قوم شعيب لنبيهم ومن معه من المؤمنين، فما كان من شعيب إلا أن يتوجه إلى الله بالاعتماد والدعاء قائلاً: ﴿ **على اللّه توكّلْنا ربّنا افْتحْ بيْننا وبيْن قوْمنا بالْحقّ وأنت خيْرُ الْفاتحين** ﴾[٢] وفي ذلك إظهار لعبوديته وفقره وعجزه، وأنه ـ جل وعلا ـ بإعانته عليهم ستضمحل أمامه كل قوى العدوان، وستكون النهاية النصر لأهل الحق، يندحر أهل الباطل مع باطلهم، وفي الآية إشارة إلى أنه أعرض عن مجادلتهم بعد أن تبين له عنادهم وسفههم، وإصرارهم على غيهم وعتيهم.

﴿ **وأنت خيْرُ الْفاتحين** ﴾ أي: الحاكمين لخلو حكمك عن الجور والحيف[٣] ثم تخور عزائم أهل الكفر بعد أن يئسوا من التأثير في شعيب وأتباعه، وينتهون إلى تحذير الناس من السير على نهجه، مؤكدين لهم أن مَن اتبعوا شعيبًا ستلحق بهم الخسارة في شرفهم، وفي أموالهم وثرواتهم، ﴿ **وقَالَ الْمَلأُ الَّذين كَفَرُوا من قوْمه لئن اتّبعْتُم شُعيْبا إنّكُمْ إذا لخَاسرُون** ﴾[٤] أي: مغبونون لاستبدالكم الضلالة بالهدى، ولفوت ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف[٥].

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٨٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٩).

(٣) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٥).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٩٠).

(٥) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٦٥).

المبحث الثالث
عاقبة قوم شعيب

وبعد تلك المجادلات والمحاورات التي تمت بين شعيب ـ عليه السلام ـ وقومه، جاءت الخاتمة التي تؤكد فيها خسران أهل الباطل واضمحلالهم. وهذه هي نهاية كل من انحاز عن منهل أهل الحق واتبع هواه، قال تعالى: ﴿ **فأخذتهم الرَّجْفَةُ فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾[1] أي: استولت عليهم وباغتتهم وشدتهم شدًا، فلم تبق منهم أحدًا، والرجفة هي الزجرة الشديدة والصوت القوى الناتجين عن الزلزلة الشديدة، ولذا حرص القرآن الكريم على بيان تسلط الرجفة عليهم وحدهم فقال: ﴿ **فأخذتهم الرَّجْفَةُ** ﴾ وهذا من أقوى الأدلة على قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن تكون جماعتان متجاورتان في قرية فيصيب إحداهما ما لم يلحق الأخرى، وهو دليل على علمه ـ تعالى ـ بكل شيء، وأن ما لا يمكن في قدرة البشر ممكن في قدرته ـ تعالى ـ.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ **فأصبحوا في دارهم جاثمين** ﴾ أي: خامدين هامدين موتى ليس فيهم حركة ولا اقتدار على شيء.

قال النسفي: ﴿ **جاثمين** ﴾ ميتين قعودًا، يقال: الناس جثم، أي: قعود لا حراك بهم ولا يتكلمون[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٩١).

(٢) تفسير النسفي، (٢/ ٦٢).

ومعنى قوله: ﴿ **فأصْبحُوا** ﴾ أي: فصاروا، و«الفاء» تدل على حصول حالهم هذا بعد أخذ الرجفة لهم مباشرة.

ثم قال تعالى: ﴿ **الَّذين كذَّبُوا شُعيْبا كأن لَّمْ يغْنوْا فيها** ﴾ أي: الذين أصروا على تكذيبه وأمعنوا في ذلك إمعانًا حجبهم عن الحق بادوا، وكأنهم لم يخلقوا في ديارهم هذه، وكأن لم تكن لهم بها قوة ومجتمع.

والكلام في ﴿ **كأن لَّمْ يغْنوْا فيها** ﴾ يدور على التشبيه، ويبين مدى ما حل عليهم من العذاب الأليم، أي شبهت حالهم بحال الذين لم يوجدوا أصلاً. ثم قال: ﴿ **الَّذين كذَّبُوا شُعيْبا كانُوا هُمُ الْخاسرين** ﴾[1] أي: كانوا هم بأعينهم الخاسرين لدنياهم التي ظلوا يحرسونها، ومن أجلها كذبوا بالحق لما جاءهم. وفيه بيان سلامة المؤمنين ونيلهم لصلاح الدنيا والآخرة.

وكرر قوله تعالى: ﴿ **الَّذين كذَّبُوا شُعيْبا** ﴾ إمعانًا في العظة، وتنبيهًا لعتات قريش الذين يعاندون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا سيما وأن قوم شعيب عرب مثلهم. ونظير ذلك قوله تعالى في قصة لوط: ﴿ **وما هي منَ الظَّالمين ببعيد** ﴾[2].

ثم أثنى تعالى على نبيه شعيب بتوليه عن قومه بعد علمه بأنهم لم يؤمنوا، وذكر آخر قوله لهم لبيان أنه ـ عليه السلام ـ ظل ينصحهم إلى آخر لحظة، وأنه لم يصرفه علمه بعدم إيمانهم باختيار النصح الذي يؤثر فيهم لو بقيت فيهم بقية من حق، وأنه لم ييأس ولم يحزن على كفرهم لأنه لم يقصر في نصيحتهم.

قال تعالى: ﴿ **فتولى عنهم** ﴾ أي: قبل حلول الهلاك. وهذا هو الراجح

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٩٢).

(٢) سورة هود: الآية (٨٣).

عندي ليعلموا بهذا التولي أن العذاب واقع عليهم لا محالة، وليحمل بتوليه عنهم المؤمنين على كثرة التضرع لربهم ومزيد حمده أن نجاهم مما سيحل بهؤلاء الهالكين.

وبعض المفسرين يقول: تولى عنهم بعد موتهم، ولا أرى فيه فائدة كبيرة إلا أن يقال: إنه ظل ينصحهم إلى آخر لحظة في حياتهم.

﴿ **وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي** ﴾ وهذه الجملة العظيمة بمثابة الدفاع عن دعوته لهم، والتذكير الأخير لو ينفعهم، وأنه ـ عليه السلام ـ لم يكن مصلحًا اجتماعيًا استهوته رئاستهم فأراد أن يظهر فيهم بما لم يألفوه، بل هو مبلغ عن ربه رسالاته التي جاء بها هو ومن قبله من الرسل.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ **رسالات ربي** ﴾ فلم يقل ربكم لأنهم بمجافاتهم قد جحدوا آثار الربوبية فيهم، فلم يؤمنوا بربهم، فكان اللائق أن يضيف نفسه إلى الله ـ تعالى ـ تشريفًا له ـ عليه السلام ـ واعترافًا بآثار ربوبية الله ـ تعالى ـ عليه.

﴿ **ونصحت لكم** ﴾ أي: كثيرًا، وسلكت في نصحي كل مسلك أراه يوصلكم إلى الاهتداء، فالآن ألقي عن كاهلي عبأكم مُشهدًا ربي على بلوغ جهدي في استنقاذكم، لذا لا أجد في نفسي أسى على مصيركم هذا.

﴿ **فكيف ءاسى على قوم كافرين** ﴾ وأنا رسول الله إليكم، وقد كذبتموني، إنكم بكفركم بربكم لم تستبقوا مودة تستدعي الأسف على مصيركم. وللإمام الفخر في تفسيره كلام نفيس في تفسير قوله تعالى: ﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾ قال: «وهي الزلزلة الشديدة المهلكة، فإذا انضاف إليها الجزاء الشديد المخوف على ما ذكره الله ـ تعالى ـ من قصة الظلمة كان الهلاك أعظم، لأنه أحاط بهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم».

﴿ **فأصبحوا في دارهم** ﴾ أي: في مساكنهم.

﴿ جاثمين ﴾ أي: خامدين ساكنين بلا حياة.

ثم قال تعالى: ﴿ الَّذين كذَّبُوا شُعيبًا كأن لَّمْ يغْنَوْا فيها ﴾ وفيه بحثان:

البحث الأول:

في قوله: ﴿ كأن لَّمْ يغْنَوْا فيها ﴾ قولان: الأول: يقال: غني القوم في دارهم إذا طال مقامهم فيها، والثاني: المنازل التي كان بها أهلوها، واحدها مغنى قال الشاعر:

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظل مُلك ثابت الأوتاد

أراد: أقاموا فيها. وعلى هذا الوجه كان قوله: ﴿ كأن لَّمْ يغْنَوْا فيها ﴾ كأن لم يقيموا بها ولم ينزلوا فيها. والقول الثاني: قال الزجاج: ﴿ كأن لَّمْ يغْنَوْا فيها ﴾ كأن لم يعيشوا فيها مستغنين. يقال: غنى الرجل يغنى إذا استغنى، وهو من الغنى الذي هو ضد الفقر.

وإذا عرفت هذا فنقول: على التفسيرين، شبه الله حال هؤلاء المكذبين بحال من لم يكن قط في تلك الديار. قال الشاعر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يسمر بمكةَ سامرُ

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروفُ الليالي والجدودُ العواثرُ

البحث الثاني:

قوله: ﴿ الَّذين كذَّبُوا شُعيْبًا كأن لَّمْ يغْنَوْا فيها ﴾ الذين يدل على أن ذلك العذاب كان مختصًا بأولئك المكذبين، وذلك يدل على أشياء:

أحدها: يدل على أن ذلك العذاب إنما حدث بتخليق فاعل مختار، وليس ذلك أثر الكواكب والطبيعة، وإلا لحصل في أتباع شعيب كما حصل في حق الكفار.

الثاني: يدل على أن ذلك الفاعل المختار عالم بجميع الجزئيات، حتى يمكنه التمييز بين المطيع والعاصي.

الثالث: يدل على المعجزة العظيمة في حق شعيب؛ لأن العذاب النازل من السماء لما وقع على قوم دون قوم مع كونهم مجتمعين في بلدة واحدة كان ذلك من أعظم المعجزات، ثم قال تعالى: ﴿**الَّذين كذَّبُوا شُعيْبًا كانُوا هُمُ الْخاسرين**﴾ وإنما كرر قوله: ﴿**الَّذين كذَّبُوا شُعيْبًا**﴾ لتعظيم المذلة لهم، وتفظيع ما يستحقون من الجزاء على جهلهم. والعرب تكرر مثل هذا في التفخيم والتعظيم، فيقول الرجل لغيره: أخوك الذي ظلمنا، أخوك الذي أخذ أموالنا . . .

وأيضًا، إن القوم لما قالوا: ﴿**لئن اتَّبعْتُمْ شُعيْبًا إنَّكُمْ إذًا لخَاسرُون**﴾ بين تعالى أن الذين لم يتبعوه وخالفوه هم الخاسرون[1] فقال: ﴿**الَّذين كذَّبُوا شُعيْبًا كانُوا هُمُ الْخاسرين**﴾.

قلت: وهي نهاية كل من ضل عن طريق الهدى، وسلك سبيل الشيطان، نسأل الله العافية والهداية.

* * *

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي، (١٤/ ١٨١، ١٨٢) بتصرف.

خلاصة ما جاء في الفصل السادس

١ ـ نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ هو شعيب بن ميكييل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام، أرسل إلى أهل مدين، وهم قوم من العرب، ويربطه بهم نسب، ومدين هي الآن: العقبة، الميناء المعروف بالأردن.

٢ ـ اشتهر شعيب بفصاحته وبلاغته، وقوة حجته، وحسن مراجعته لقومه.

٣ ـ تتلخص دعوة شعيب فيما يلي:

* الأمر بإخلاص العبادة لله تعالى وحده.

* الأمر بإيفاء الكيل والميزان.

* النهي عن بخس الناس حقوقهم.

* النهي عن الإفساد في الأرض.

* النهي عن القعود على طريق الدين ومناهج الحق لأجل أن يمنعوا الناس عن قبوله.

* التحذير من الإفساد وعاقبته.

٤ ـ يظهر موقف قومه من دعوته من خلال أمور، أهمها:

* اتهموه بالسحر والكذب.

* تهكموا عليه واستهزؤا بدعوته.

* اتهموه بالضعف في منطقة، فلم يفهموا دعوته، وهددوه برجمه بالحجارة.

٥ ـ لم يتأثر شعيب برفض قومه للدعوة، ولم توقفه اتهاماتهم وظل على

مقدمة موجزة

هذه هي القصة السابعة التي تحدثت عنها سورة الأعراف، والمتمعن في السورة الكريمة وما حوته من القصص، يجد أنها اختصت بوجه عام بالحديث عن مصارع المكذبين، ونهاية إمعانهم في تكذيبهم لأنبيهائهم ـ عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ وكيف أن الحق أزهق الباطل فكانت كلمته هي العليا، وكلمة الباطل هي السفلى، وقصة موسى[1] ـ عليه السلام ـ كسابقتها من القصص التي مرت علينا في هذه السورة الكريمة، جاءت لترسيخ معنى الألوهية الحقة، وتحرير الناس من العبودية الزائفة، فنلاحظ أنها افتتحت في أول آية بالهدف الذي سيقت من أجله وهو التمعن والتفكر في مآل المفسدين من الكفرة الملحدين، ولم تذكر هذه السورة قصة موسى ـ عليه السلام ـ كما ذكرتها سورة القصص، بل ابتدأت بإرسال موسى ـ عليه السلام ـ إلى فرعون، ودعوته إلى توحيد الله ـ تبارك وتعالى ـ كما سيتضح لك من الآية التالية قال تعالى: ﴿**ثُمَّ بعثْنا من بعْدهم مُوسىٰ بآياتنا إلىٰ فرْعوْن وملئه فظلموا بها فانظُرْ كيْف كان عاقبةُ الْمُفْسدين**﴾[2].

* * *

(١) هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ـ عليهم السلام ـ وهو من أولى العزم من الرسل. انظر: البداية والنهاية لابن كثير، (١/ ١٣٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٠٣).

المبحث الأول
دعوة موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون وملئه

عاش الفراعنة في مصر بحكمون القبط وبني إسرائيل، معلنين أنفسهم أربابًا من دون الله، منكرين أن يكون لهذا الكون إله، وأجبروا الناس على تأليههم من دون الله، وانقاد لهم وزراؤهم وأعوانهم على الظلم والاستبداد، واستعملوا بني إسرائيل في أشق الأعمال وأردئها، فضلاً عن القتل والتعذيب الذي أوشك أن يبيدهم.

وتخليصًا مما كان عليه بنو إسرائيل أرسل الله نبيه موسى ـ عليه السلام ـ إلى فرعون ـ قال تعالى ـ: ﴿ **ثُمَّ بعثْنا من بعْدهم مُوسىٰ بآياتنا إلىٰ فرْعوْن**[1] **وملئه فظلمُوا بها فانظُرْ كيْف كان عاقبةُ الْمُفْسدين** ﴾[2].

فقوله: ﴿ **ثُمَّ بعثْنا من بعْدهم مُوسىٰ** ﴾ أي: من بعد الأنبياء الذين قصصنا عليك يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليك ـ قصصهم وهم آدم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب ـ عليهم السلام. ﴿ **بآياتنا** ﴾ أي: بالمعجزات الدالة على صدقه فيما أتاهم به، ﴿ **إلىٰ فرْعوْن** ﴾ فرعون لقب لملوك مصر القدماء كلقب قيصر لملوك الروم، ولقب كسرى لملوك الفرس. ﴿ **وملئه** ﴾ وهم أشرف قومه والوجهاء أصحاب النفوذ، وليست رسالة موسى مختصة بفرعون وملئه بل هي

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٠٣).

(٢) فرعون موسى، واسمه الوليد بن مصعب. انظر: الأنابكي؛ جمال الدين أبي يوسف بن تغري بردي. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٨هـ)، ١/ ٥٨.

لهما وللمصريين كافة، فإنها إذا كانت لخاصتهم فهي لعامتهم من باب أولى، وإنما نص القرآن على فرعون وملئه؛ لأنهم هم العقبة الكأداء في سبيل دعوة موسى ـ عليه السلام ـ فإذا تغلب عليهم سهل عليه أن يوصل دعوته إلى سائر المصريين. كل ذلك على تفسير الملأ بأشراف قوم فرعون وخواصهم، ولا مانع أن يراد بالملأ كل المصريين؛ لأنهم يمالئون فرعون على ضلاله وادعائه الألوهية، وبطلان ذلك منه لا يخفى على من له أدنى عقل.

﴿ **فظلموا بها** ﴾ الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، والمعنى ﴿ **فظلموا بها** ﴾ أي: بسببها حيث جعلوا ما هو سبيل للهداية سبيلاً للغواية والضلالة، لأن الآيات جاءتهم لتساعدهم على الإيمان بالله ـ عز وجل ـ وتصديق موسى ـ عليه السلام ـ في دعواه ﴿ **فانظُرْ كيف كان عاقبةُ الْمُفْسدين** ﴾ أي: انظر أيها الرسول الكريم كيف كانت نهايتهم، حيث أغرق فرعون وملؤه. وموسى وقومه ينظرون إليهم.

ونلاحظ أن هذه الآية سارعت بالتنبيه في كيفية عقاب فرعون وملئه وتسميتهم بالمفسدين، كأن هذا الاسم فيهم حقيقة، وفي غيرهم مجاز؛ ليعلم السامع لهذه القصة من أول الأمر، أن فرعون وقومه مع ما رأوا من الآيات الكفيلة بصرفهم عن باطلهم، لم ينتفعوا بما أوتوا، وصدق فيهم قوله تعالى: ﴿ **ختم اللهُ علىٰ قلوبهم وعلىٰ سمعهم وعلىٰ أبصارهم غشاوةٌ ولهم عذابٌ عظيمٌ** ﴾[1].

ثم بدأ موسى ـ عليه السلام ـ في بيان حقيقته لفرعون؛ فقال تعالى: ﴿ **وقالَ موسىٰ يا فرعونُ إني رسولٌ من ربِّ العالمين** ﴾[2] أي: إنني مرسل لكم لكي أدعوكم إلى من يستحق العبادة وحده، وهو الله رب العالمين الذي له في كل عالم

(١) سورة البقرة: الآية (٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٠٤).

من العوالم تربية ظاهرة، ورعاية مستمرة، فهو الحقيق بأن يكون ربًا، وهو الحقيق بأن يكون إلهًا وهذه الآية تعريض بفرعون الذي قال لقومه كما في آية أخرى ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾[١]. وإنما سلك موسى ـ عليه السلام ـ معه مسلك التعريض من أول الأمر، لأنه الأمثل في أسلوب الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ ولعل فرعون يتنبه بقول موسى: ﴿ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الذي هو واحد منهم، فينظر في حال نفسه، ويصغي بقلبه إلى دعوة موسى ـ عليه السلام ـ وقد استشعر موسى ـ عليه السلام ـ أن فرعون بحاجة إلى معرفة بعض أوصاف الكليم، حتى يفكر فيما يلقى عليه، وحتى لا يتسرع بالإباء والمعاندة كشأن السابقين عليه، فقال ما قصه الله عنه: ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾[٢].

قال النسفي في تفسير الآية: «أي: أنا حقيق على قول الحق، أي: واجب عليه قول الحق أن أكون قائله والقائم به. وعلى قراءة نافع ﴿ حَقِيقٌ عَلَيَّ ﴾ أي واجب عليَّ ترك القول على الله إلا الحق أي الصدق، وعلى هذه القراءة تقف على ﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ وعلى القراءة الأولى يجوز الوصول على جعل ﴿ حَقِيقٌ ﴾ وصف الرسول.

وعلى قراءة أُبيّ تكون ﴿ على ﴾ بمعنى الباء أي: إني رسول خليق بأن لا أقول. أو يعلق ﴿ على ﴾ بمعنى الفعل في الرسول أي: إني رسول حقيق جدير بالرسالة، أرسلت على أن لا أقول على الله إلا الحق»[٣].

ثم وصف نفسه لفرعون بوصف ثان هو قوله تعالى: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي: بمعجزة تدل على صدقي في أني رسول من رب العالمين ربكم، لأنكم بعض العالمين، فلا تجعلوا ربوبيته ورحمته سببًا في كفركم وعنادكم،

---

(١) سورة النازعات: الآية (٢٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٠٥).

(٣) بتصرف من تفسير النسفي، (٢/ ٦٨).

ولأجل ذلك أضاف اسمه ـ تعالى ـ إليهم، ولم يقل قد جئتكم ببينة من ربي، لأنهم هم المقصودون بهذا الإرسال، ولم يسم لهم هذه البينة، ولم يحددها لأن من حصافة الحصيف أن لا يكشف عما معه حتى يرغب السامع إليه في كشفه وفي طلبه، حتى يكون له وقع في نفس السامع. فما ظنك بعقل موسى الكليم الذي قال الله له: ﴿ **واصطنعتك لنفسي** ﴾[1]؟ بما مضى مهد موسى ـ عليه السلام ـ لما سيطلبه من فرعون وهو قوله: ﴿ **فأرسل معي بني إسرائيل** ﴾ أي: خلهم واتركهم لي، لأصلح إفسادك لهم، ولأردهم إلى توحيد الله الحق، فإنهم أبناء الأنبياء إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب ـ عليهم السلام ـ.

وكان فرعون قد فتن بني إسرائيل فتنة عظيمة، أثرت على عقائدهم وعلى نفسياتهم، فهانوا هوانًا عظيمًا، وأصبحوا في مصر كالسجناء، لا يملكون الفكاك من قبضة فرعون، وقد استخدمهم في أسوأ الأعمال، وأحقرها، وأشقها: كالزراعة، وقطع الطوب، والخدمة في البيوت. وقد أدى خوفه من كثرتهم وتعاظمهم إلى تذبيح أبنائهم، واستيحاء نسائهم، ليبقى الرجال في الخدمة في الحقول، والنساء للخدمة في البيوت، ولا يكثر نسلهم حتى يأمن سطوتهم عليه في وقت من الأوقات، قال ـ تعالى ـ: ﴿ **وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾[2] وقد تكرر ذلك المطلب في سورة طه، وفي سورة الشعراء، مما يدل على أنه أول طلب طلبه موسى ـ عليه السلام ـ من فرعون.

قال تعالى: ﴿ **فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى** ﴾[3].

---

(١) سورة طه: الآية (٤١).

(٢) سورة البقرة: الآية (٤٩).

(٣) سورة طه: الآية (٤٧).

وقال تعالى: ﴿ فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين (١٦) أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾[١] وهنا أمر جدير بالبحث وهو أن القصص السابق في هذه السورة بين لنا أن أول مطلب كان الرسول يتوجه به إلى قومه هو دعوتهم إلى التوحيد.

قال تعالى: ﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ﴾[٤]... الآية.

وقال تعالى: ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾[٥]... الآية.

وقد لاحظت مخالفة هذا المنهج في قصة لوط وموسى - عليهما السلام - وقد بينت سببه في قصة لوط - عليه السلام - وها أنا أبين سببه في قصة موسى - عليه السلام -. وهو باختصار أن الظلم قرين الشرك، قال تعالى: ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾[٦] وأن من يظلم ويتمرس على الظلم كفرعون يصعب عليه قبول أي حق، فكان المناسب تجريده من ظلمه أولاً لبني إسرائيل، فإذا سلم بذلك أمكن مخاطبته في الوحدانية. على أن موسى - عليه السلام - قد بدأ دعوته إليه بقوله:

---

(١) سورة الشعراء: الآيتان (١٦، ١٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٩).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٦٥).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

(٦) سورة لقمان: الآية (١٣).

﴿ إني رسولٌ من ربِّ العالمين ﴾[١]. فهو نوع اشتراك في المناهج السابقة في قصة نوح، وهود، وثمود.

ولقد ضاق فرعون بهذا المطلب ولكنه لم يشأ أن يظهر ضيقه بالرفض والإباء على سنن الملوك في كبريائهم، ولاطمئنانه من داخله أن موسى ـ عليه السلام ـ ليس برسول.

فقال ما قصه الله عنه: ﴿ قال إن كُنت جئْت بآيةٍ فأْت بها ﴾ عملاً وظهوراً كما ذكرتها قولاً: ﴿ إن كُنت من الصادقين ﴾[٢] في دعواك أنك رسول من رب العالمين، وهنا شرطان جوابهما واحد، وقع الجواب بينهما، وهو أسلوب عربي مألوف، ونوع من الإيجاز طريف، إذ لولا هذا الإيجاز لكان التركيب هكذا: إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين فأت بها. ولما كان الإتيان بها هو المقصود، وهو الدليل على أنه جاء بها، وأنه صادق، سلك القرآن هذا المسلك اللطيف.

وقد اختصرت سورة الأعراف ما بُسط في القصة قبل المجيء بالآيات كما هو في سورة الشعراء[٣]. وهو مسلك عظيم دقيق، ودليل عظيم من أدلة الإعجاز. وددت لو كان بحثي متمحضاً[٤] لقصة موسى ـ عليه السلام ـ حتى لا أترك من لطائفها شيئاً، لكن طول البحث فرض عَلَيّ الاختصار.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٠٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٠٦).

(٣) انظر الآيات من قوله تعالى: ﴿ فقولا إنا رسول رب العالمين * أن أرسل معنا بني إسرائيل * قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾ الآيات من (١٦) إلى (١٨) إلى قوله: ﴿ قال فأت به إن كنت من الصادقين ﴾ الآية (٣١) من سورة الشعراء.

(٤) متمحض: المحض من كل شيء الخالص. قال الأزهري: كل شيء خلص حتى لا يشوبه شيء يخالطه فهو محض؛ انظر: لسان العرب، (٧/ ٢٢٧).

المبحث الثاني
ظهور بينة موسى ـ عليه السلام ـ
المرئية لفرعون وقومه

قال تعالى: ﴿ **فألقىٰ عصاهُ فإذا هي ثُعبانٌ مُبينٌ** ﴾[١] لم يتريث موسى عليه السلام في إظهار بعض معجزاته التي أيده الله بها، وهي انقلاب عصاه الجامدة التي هي على مرأي العين كسائر العصي ثعبانًا مبينًا، وحية تسعى كما جاء في سورة طه[٢]. ونلاحظ أن القرآن الكريم عطف قوله تعالى: ﴿ **فألقىٰ عصاهُ** ﴾ بـ (الفاء) لبيان قلة المهلة بين الطلب وحصول المعجزة، كما استخدم القرآن ﴿ **إذا** ﴾ الفجائية، والضمير ﴿ **هي** ﴾ لبيان تأثير ذلك على فرعون وملئه، وأنهم أصيبوا بالدهشة عندما رأوا العصا التي كانت في يد موسى ـ عليه السلام ـ هي بعينها ثعبانًا مبينًا، والثعبان: الحية الضخم الذكر، وهو أعظم الحيات. ﴿ **مُبينٌ** ﴾ أي حية حقيقية لا لبس فيها ثم ثنَّى بمعجزته الثانية ﴿ **ونزع يدهُ فإذا هي بيضاءُ للنَّاظرين** ﴾ أي: ونزع يده من جيبه فإذا هي بيضاء لامعة، ذات نور متوهج، مع بقائها يدًا آدمية يجري الدم في عروقها أمام جميع الناظرين الحاضرين والقادمين عليهم، فكلما جاءت فئة من أهل مصر رأت ذلك دون أن تصاب يد موسى ـ عليه السلام ـ بأذى، لأن النور لا يكون إلا من حرارة شديدة تنعكس على زجاج أو نحوه، وتلك الحرارة نتاج شيء محترق. أما موسى ـ عليه السلام ـ فيده كما هي.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٠٧).

(٢) قال تعالى: ﴿ **قال هي عصاي أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى * قال ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هي حية تسعى** ﴾ سورة طه: الآيات من (١٨) إلى (٢٠).

قال القرطبي: ﴿ونزع يدهُ﴾ أي: أخرجها وأظهرها. قيل: من جيبه أو من جناحه كما في التنزيل: ﴿وأدْخلْ يدك في جيْبك تخْرُجْ بيْضاء منْ غيْرِ سُوءٍ﴾[1] أي: من غير برص. وكان موسى أسمر شديد السمرة، ثم أعاد يده إلي جيبه فعادت إلى لونها الأول.

قال ابن عباس: «كان ليده نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض»[2].

* * *

(١) سورة النمل: الآية (١٢).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٢٥٧).

المبحث الثالث
موقف فرعون وملئه من دعوة موسى ـ عليه السلام ـ

لقد أيد الله نبيه موسى ـ عليه السلام ـ بحجج كثيرة، منها ما حكته لنا الآيتان السابقتان وهما:

أولاً: قلب العصا ثعبانًا ضخمًا عظيمًا يبعث الرعب في قلوب الكافرين.

ثانيًا: أخرج يده السمراء من جيبه بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس ﴿**من غير سوء**﴾ أي: من غير برص أو أذى أو تشويه.

ومعلوم أن الله ـ جل وعلا ـ أيد كل نبي بمعجزة تفوق أضعاف أضعاف ما كان مشتهر به قومه الذين أرسل إليهم.

ولقد كان السحر غالبًا في ذلك الزمان وله علومه الخاصة، وفنونه المختلفة، ولا شك أن مراتب السحرة كانت متفاضلة متفاوتة، فمنهم المبتديء، ومنهم الماهر، ومنهم العالم، ومنهم المتمكن المتمرس.

فعندما شاهد الملأ ما جاء به موسى ـ عليه السلام ـ من الآيات العظيمة التي أذهلتهم زعموا أن موسى ـ عليه السلام ـ قد بلغ النهاية في علم السحر، ووصفوه بما حكاه الله عنهم: ﴿**قال الملأ من قوم فرعون إنَ هذا لساحرٌ عليمٌ**﴾[1] وقد أتى بذلك السحر رغبة في الملك والرياسة، وقد يتساءل القاريء الكريم: إن إطلاق هذا الوصف على موسى ـ عليه السلام ـ كان في سورة الشعراء من قبل فرعون

(١) سورة الأعراف: الآية (١٠٩).

وليس من قبل الملأ.

قال تعالى: ﴿قال للملأ حوله إنّ هذا لساحرٌ عليمٌ﴾[١] فكيف الجمع بينهما؟

فالجواب عن ذلك من وجهين:

الأول: إنه لا يمتنع أنه قد قاله فرعون أولاً ثم قاله الملأ، فحكى الله قول فرعون في الشعراء وقول الملأ في الأعراف.

الثاني: أو أنه لعل فرعون قاله ابتداءً، فتلقاه الملأ منه، فقالوا لغيرهم، أو قالوه لسائر الناس عن طريق التبليغ، فإن الملوك إذا رأو رأيًا قالوه للخاصة... وهم يذكرونه للعامة[٢].

والمراد بالملأ من قوم فرعون خاصته وبطانته المقربة إليه، الذين يستشيرهم في النوازل. وقد مر بك أكثر من مرة أن الملأ في كل أمة هم كبراؤها ومترفوها وأصحاب النفوذ، وكانوا هم سبب نكبتها.

وقول الملأ لفرعون: ﴿إنّ هذا لساحرٌ عليمٌ﴾ ملق ونفاق وتهوين لشأن موسى - عليه السلام - ولعل فرعون بعد ما رأى معجزة موسى ملكه الدهش، فأخذ يفكر فيما يصنع، فأجابه الملأ بهذا الجواب.

ويمكن كما قررت سابقًا أنه هو الذي بدأ بهذا القول، ثم أخذ الملأ من قومه يرددونه تقربًا إليه بذلك، وإظهارًا لاقتناعهم بقوله.

وقولهم: ﴿إنّ هذا لساحرٌ عليمٌ﴾ أي: ماهر متمرس في هذه الصنعة، لا يبطل سحره إلا من هو أقوى منه، فكان ذلك منهم توطئة لجمع أقوى السحرة من جهات مختلفة من نواحي مصر، ليحصل لهم الغلب على موسى - عليه السلام - وإذا ضعف أحدهم عن مقارعة موسى - عليه السلام - تقوى بإخوانه.

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٣٤).

(٢) تفسير الرازي بتصرف، (١٤/ ١٩٦، ١٩٧).

وقوله تعالى: ﴿ **يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ** ﴾ أي مصر. والمعنى يريد أن يسلبكم ملككم ﴿ **فَمَاذَا تَأْمُرُونَ** ﴾ أيها الملأ؟ وبماذا تشيرون علي لتلافي هذا الأمر الجلل؟ فأجابه الملأ بما قصه الله عنهم ﴿ **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ** ﴾.

قال صاحب الكشاف: أي: أخرهما وأصدرهما عنك، حتى ترى رأيك فيهما وتدبر أمرهما[1].

﴿ **وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ** ﴾ جمع مدينة، أي: أرسل في مدائن مصر رجالاً يحشرون إليك ويجمعون ما فيها من السحرة، فيأتوك بكل ﴿ **سَاحِرٍ عَلِيمٍ** ﴾ أي: ماهر حاذق في أصول السحر... قال تعالى: ﴿ **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ** ﴾[2].

* * *

(١) الكشاف للزمخشري، (٢/ ١٠٢).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (١١١، ١١٢).

المبحث الرابع
شعور السحرة بأهميتهم لدى فرعون في هذا الوقت العصيب

وما إن بلغ الخبر إلى آذان السحرة بطلب فرعون في حضورهم حتى بادروا بالامتثال مسرعين ملبين قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ بعد أن أرسل إليهم الحاشرين ﴿ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ استئناف منوط بسؤال نشأ من حكاية مجيء السحرة. كأنه قيل: فماذا قالوا له عند مجيئهم إياه؟

فقيل: قالوا مدلين بما عندهم، واثقين بغلبتهم، وكانوا يثقون بأنفسهم ثقة لا يحدها حد والدافع لهذه الثقة المفرطة عدة أمور:

١ ـ أنهم كانوا من أمهر السحرة الذين بلغوا النهاية في علم السحر.

٢ ـ أنهم كانوا كثرة. والنفس بطبعها تستأنس عند حصول الكثرة، وفي نفس الوقت كانوا يواجهون شخصًا واحدًا، ليس مشهورًا أو معروفًا بالسحر.

٣ ـ أنهم كانوا يظنون أن ما قام به موسى سحرٌ وقد غفلوا عن أنه معجزة وقد دفعتهم ثقتهم ويقينهم الكامل بتفوقهم أن ساوموا فرعون على تعيين مكافأة وأجر إذا انتصروا على موسى. والتنكير في قوله: ﴿ أَجْرًا ﴾ للتعظيم.

﴿ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾[1].

فأجابهم فرعون إجابة المتشوق معرفة النتيجة، المتعجل لوقوعها: ﴿ قَالَ

(١) سورة الأعراف: الآية (١١٣).

نعم﴾. وقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[1] عطف على محذوف سد مسد حرف الإيجاب، كأنه قال: إن لكم لأجرًا جزيلاً إذا انتصرتم عليه، فضلاً عن ذلك فأنتم تكونون من الظافرين بقربي، أي: من رجال حاشيتي، مبالغة في ترغيبهم وتشجيعهم على الإجادة والإتقان لعملهم.

وقد غاب عن السحرة حقيقة الأمر، فظنوا أن الموقف موقف احتراف ومهارة، وهو في الواقع موقف إعجاز ورسالة.

❊ ❊ ❊

(١) سورة الأعراف: الآية (١١٤).

المبحث الخامس
موقف السحرة من موسى ـ عليه السلام

اتفق فرعون مع نبي الله ـ عليه السلام ـ على موعد يجتمع فيه وسحرته ليعلم موسى بما يشاهده من عمل سحرته أن ما أتاه به سحر لا معجزة كما يقول، وقد بين الله ذلك بقوله: ﴿ **قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى (٥٧) فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى (٥٨) قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى** ﴾[1].

والمتأمل في الآيات السابقة يلاحظ أن فرعون اشترط شرطين، وأن موسى ـ عليه السلام ـ اشترط شرطين. وقد رضي فرعون بشرطي موسى ـ عليه السلام ـ اطمئنانًا إلى نصرته عليه بسحرته.

فأما شرطا فرعون فقوله تعالى: ﴿ **فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى** ﴾.

الشرط الأول:

أن يحدد موسى ـ عليه السلام ـ زمانًا ملائمًا يجتمع فيه الناس ليشاهدوا بأنفسهم كذبه وافتراءه ـ عليه السلام ـ وحاشاه ـ وهذا الشرط يشعر أن فرعون كان متيقنًا تمامًا من انتصار السحرة وغلبتهم على موسى، فهو لا يبالي أيًا كان زمن الاجتماع، فالنهاية بالنسبة له واضحة كوضوح الشمس في أن أمهر السحرة سيتفوقون في النهاية وبالتأكيد على موسى الفرد الذي لا يملك إلا عصاته الصغيرة التي لا حول لها ولا قوة.

---

(١) سورة طه: الآيات من (٥٧) إلى (٥٩).

الشرط الثاني:

أن يحدد موسى ـ عليه السلام ﴿ **مكانا سُوى** ﴾ أي: هو في المنتصف[١] بين قصر فرعون والمكان الذي يقيم فيه موسى حيث لا يرهق الطرفان في الوصول إليه، وقد أراد فرعون بهذا الشرط أن يفهم موسى بأن هزيمته ـ المتيقن منها ـ لو حصلت لا لكونه موجودًا في ساحة قصر فرعون ـ وكما يقال: الأرض تضرب مع أصحابها. فالزمان والمكان أنت يا موسى الذي حددتهما، ولا دخل لهما في هزيمتك، وإن انتصارنا وغلبتنا عليك لكونك خارجًا عن طاعتنا، ومكذبًا لربوبيتنا، ومفتريًا علينا.

وقد رضي موسى ـ عليه السلام ـ منه ذلك؛ فقال ما قصه الله ـ تعالى ـ: ﴿ **موعدُكُم يومُ الزِّينة** ﴾ ـ **وهذا شرط موسى الأول** ـ أي: مكان الاجتماع هو المكان الذي تجتمعون فيه يوم عيدكم، وقد لزم من تحديد الزمان تحديد المكان، لأنهم يحتفلون بعيدهم في وقت مخصوص في مكان مخصوص، وقد قلب موسى بشرطه الأول على فرعون مقصده، فإن مكان يوم الزينة هو مكان لهم، ولا يضر موسى ـ عليه السلام ـ أن يلقى فرعون في أي مكان، وقد أراد ـ عليه السلام ـ بهذا الاختيار للزمان والمكان أن تصل معجزته إلى آذان كثير من المصريين، لأنهم يجتمعون في يوم زينتهم حتى يكاد أن لا يتخلف منهم أحد، فإذا ما شاهدوا معجزة موسى ـ عليه السلام ـ كانت نكبة فرعون أشد، وتزعزت هيبته ومكانته في نفوسهم، وظهر بطلان ادعائه للربوبية، إذ لو كان له من الأمر شيء ما أصابته هذه الهزيمة على يد موسى ـ عليه السلام ـ ولتنبه إليها قبل وقوعها، فاحتاط لنفسه من هذا الشرط.

وكان **الشرط الثاني لموسى** ـ عليه السلام ـ قوله تعالى: ﴿ **وأن يُحشر النَّاسُ ضُحى** ﴾ حتى لا يداخل الناس ريبة في معجزة موسى ـ عليه السلام ـ إذ وضوح

---

(١) انظر: تفسير الكشاف، (٢/ ٥٤٢).

الرؤيا في هذا الوقت لا ينازع فيه أحد.

قال الزمخشري: «وإنما وعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وظهور دينه، وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد في المجمع الغاص، لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكل حد المبطلين وأشياعهم، ويكثر المحدث بذلك الأمر العام في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر». ا. هـ[1].

وهكذا تحدد مكان وزمان الحفل العظيم، وحضر فرعون ورجاله وسحرته، واحتشد الناس، والكل مشدود لمعرفة من يظفر من الفريقين.

ولم يأل موسى ـ عليه السلام ـ جهداً في إسداء النصيحة للسحرة، وتنبيههم إلى ما يفعلونه من السحر لا يمكن أن يجابه ما معه من البينة.

قال تعالى: ﴿ **قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ** ﴾[2].

والمعنى: أيها السحرة لا تضلوا بسحركم، فتصرفوا الناس عن حجة الله وبينته التي أرسلني الله بها إليكم وإلى فرعون، فإنكم إن بقيتم على ذلك ولم تصغوا لنصحي، ولم تؤمنوا بالله ربكم، وبقيتم تفترون على الله الكذب بعدما وضح الحق لكم، فستهلكون هلاكًا بعذاب شديد من الله، لا يمكنكم دفعه لأن مصير من افترى على الله الكذب الخيبة والخسران في الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ **فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ** ﴾ أي: إنهم تشاجروا فيما بينهم، واختلفوا في حقيقة موسى ـ عليه السلام ـ فقائل يقول: إنه ساحر مثلهم، وآخر يقول: إنه نبي، ﴿ **وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ** ﴾ أي: إنهم تشاوروا في السر، حتى لا يبلغ

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري، (٢/ ٥٤٢).

(٢) سورة طه: الآية (٦١).

ذلك فرعون، ولا سيما أنه قد أغراهم بالمال والجاه والقرب منه لكنهم خلصوا إلى رميه بالسحر قائلين ما قصه الله عنهم: ﴿ **قالُوا إنْ هذان لساحران** ﴾ أي: موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ.

﴿ **يُرِيدانِ أن يُخْرِجاكُم مِّنْ أرْضِكُم بسحْرِهما ويذْهبا بطريقتِكُمُ الْمُثْلىٰ** ﴾[1] أي: الفضلى، والمعنى: إن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه ـ يعنون موسى وهارون ـ ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم، ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده، فينصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم.

﴿ **ويذْهبا بطريقتِكُمُ الْمُثْلىٰ** ﴾ أي: يُستبدّان بهذه الطريقة وهي السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها.

يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفرد بذلك وتمخضت لهما الرياسة بها دونكم[2].

﴿ **فأجْمِعُوا كيْدكُمْ** ﴾ أي: كونوا مجتمعين على كيده ولا تختلفوا ﴿ **ثُمَّ ائتُوا صفًّا** ﴾ أي: مصطفين؛ لأنه أهيب في صدور المجتمعين، ويبعث الرعب في قلب الخصم.

﴿ **وقدْ أفْلح الْيوْم من اسْتعْلىٰ** ﴾[3] أي: قد فاز من غلب.

وقد طوت سورة الأعراف هذه المشاهد، لأن المنهج القرآني يقوم على عدم حشد مشاهد القصة في موضوع واحد، إمعانًا في التحدي، وإظهارًا للإعجاز، إلا ما كان من قصة يوسف ـ عليه السلام ـ فإن القرآن لم يفرق مشاهدها، لأن

---

(١) سورة طه: الآية (٦٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير، (٣/ ١٥٧).

(٣) سورة طه: الآية (٦٤).

الغرض الأول من مجيئها مؤانسة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وضرب المثل له بصبر من سبقوه، وجلدهم في تحمل البلاء، فكان الإعجاز فيها توالي مشاهدها وفصولها في سورة واحدة.

وأعود إلي سورة الأعراف لاستكمال القصة منها باعتبار أنها موضوع بحثي الأصلي: ﴿ **قالُوا يا مُوسىٰ إمَّا أن تُلْقي وإمَّا أن نَكُون أوَّل منْ ألْقىٰ** ﴾[1].

﴿ **قالُوا** ﴾ أي: السحرة ﴿ **يا مُوسىٰ إمَّا أن تُلْقي** ﴾ أي: عصاك التي تزعم أنها آية ﴿ **وإمَّا أن نَكُون أوَّل منْ ألْقىٰ** ﴾ والمتأمل في قولهم هذا يلاحظ عليه أنهم يخاطبونه بلغة الواثق من نفسه، والمتمكن المتيقن من نصره، المتحدي لخصمه، وكأنهم يقولون له: في كلتا الحالتين نحن على ثقة من الفوز والظفر: فاستسلم لنا، ولا تكبد نفسك مشقة المنازلة.

و ﴿ **إمَّا** ﴾ شرطية، وجواب الشرط محذوف تقديره: إما أن تلقي أولاً فلا يكون لك اعتراض بعد ذلك، وإما أن نلقي نحن أولاً فلا يكون لنا اعتراض عليك إذا غلبتنا، ومع تحديهم له إلا أن الآية ﴿ **وإمَّا أن نَكُون أوَّل منْ ألْقىٰ** ﴾ يفهم منها رغبتهم في أن يكون ابتداء الإلقاء من جانبهم، لأنهم ذكروا الضمير المتصل وأكدوا بالضمير المنفصل، وجعلوا الخبر معرفة لا نكرة[2].

﴿ **قال ألْقُوا** ﴾ أي: افعلوا ما أمكنكم من السحر، فإنه لن ينفعكم في هذا الموقف، وإن الله سيبطله، لأنه ـ تعالى ـ لا يصلح عمل المفسدين، ولا يضرني أن تبدأوا قبلي بإلقاء ما معكم، وكان موسى ـ عليه السلام ـ واثقًا من نصرة ربه له كل الوثوق.

وقوله تعالى: ﴿ **فلمَّا ألْقوْا سحرُوا أعْيُن النَّاس** ﴾ يدل على أنهم ألقوا ما معهم

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١١٥).

(٢) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ٢٠٢).

من سحر فور إخبار موسى ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿ **ألقوا** ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ **سحروا أعين الناس** ﴾[1] يدل على تأثير سحرهم في الحاضرين، وأن السحرة أتوا بفنون من السحر كثيرة ومتوالية جعلت الأبصار تكل من متابعة ما جاءوا به، وقد خيل إليها أشياء نتيجة مهارتهم، وكلها ليست بحقيقية إلى حد أن موسى ـ عليه السلام ـ وهو مَن هو في قوة الحواس ـ لأن الله

---

(١) اختلفت المذاهب في حقيقة السحر، وقد فصّل القول الإمام القرطبي في تفسيره، وإليك ما قاله ـ رحمه الله ـ: «فذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة، وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الإستراباذي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له وإنما هو تمويه وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به، وأنه ضرب من الخفة والشعوذة؛ كما قال تعالى: ﴿ **يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾ ولم يقل تسعى على الحقيقة، ولكن قال: ﴿ **يخيل إليه** ﴾ وقال أيضًا: ﴿ **سحروا أعين الناس** ﴾».

قلت: قال الرازي نقلاً عن القاضي: «لو كان السحر حقًا لكانوا قد سحروا قلوبهم لا أعينهم، فثبت أن المراد أنهم تخيلوا أحولاً عجيبة مع أن الأمر في الحقيقة ما كان على وفق ما تخيلوه» ا. هـ. ، تفسير الرازي (١٤/ ٢٠٣) وأعود مرة أخرى إلى تكملة كلام القرطبي.

قال القرطبي: «وهذا لا حجة فيه لأننا لا ننكر أن يكون التخيل وغيره من جملة السحر، ولكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع؛ فمن ذلك ما جاء في الآية من ذكر السحر وتعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس. فدل على أن له حقيقة» قلت: وأراد ـ رحمه الله ـ بالآية قوله تعالى في سورة البقرة (الآية ١٠٢) قوله تعالى: ﴿ **يعلمون الناس السحر** ﴾. ثم قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «وقوله تعالى في قصة سحرة فرعون: ﴿ **وجاءوا بسحر عظيم** ﴾ وسورة الفلق مع اتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لبيد بن الأعصم، وهو مما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «سحر رسول الله ﷺ يهوديٌ من يهود بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم . . . الحديث» وفيه أن النبي ﷺ قال لما حل السحر: «إن الله شفاني» صحيح البخاري على هامشه فتح الباري (١٢/ ٣٣٧) والشفاء إنما يكون برفع العلة وزوال المرض، فدل على أن له حقًا وحقيقة، فهو مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه، وعلى هذا أهل الحل والعقد الذي ينعقد بهم الإجماع» ا. هـ.

انظر: تفسير القرطبي، (٢/ ٤٦)؛ وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٣٣).

اصطنعه لنفسه ـ قد خيل إليه أن حبال السحرة وعصيهم كانت تسعى، قال تعالى في سورة طه: ﴿ **قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾ فلا غرابة أن تضعف أبصار الحاضرين فترى الأشياء على غير حقيقتها.

قال النسفي ـ رحمه الله ـ عند تفسير قوله: ﴿ **قال: بل ألقوا** ﴾[1]: أنتم أولاً ليُبرزوا ما معهم من مكايد السحر، ويظهر الله سلطانه، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه، ، يسلط المعجزة على السحر فتمحقه، فيصير آية نيرة للناظرين، وعبرة بينة للمعتبرين[2].

وقال الفخر نقلاً عن الواحدي ـ رحمهما الله ـ في معنى قوله تعالى: ﴿ **سحروا أعين الناس** ﴾: المراد سحروا أعين الناس أي: قلبوها عن صحة إدراكها بسبب تلك التمويهات[3].

قلت: ومراد الواحدي بهذا القول أن السحر حقيقة موجودة لا تمويه ولا تخيل، وليس أنه لا حقيقة له كما يقول به المعتزلة.

﴿ **واسترهبوهم** ﴾ أي: إنهم بعثوا الرهبة في قلوب العامة لما رأوه من حركات تلك الحبال والعصى، قال الفخر: واسترهبوهم أي: أخافوهم. أو ﴿ **استرهبوهم** ﴾ أي: طلبوا واستدعوا رهبة الناس حتى رهبهم الناس، وكانوا على ما قيل بعثوا جماعة ينادون عند إلقاء ذلك: أيها الناس. احذروا[4].

﴿ **وجاءوا بسحر عظيم** ﴾[5] أي: عندهم لأنه كان كثيراً وليس بعظيم على الحقيقة.

---

(١) سورة طه: الآية (٦٦).

(٢) تفسير النسفي، (٣/ ٥٨).

(٣) تفسير الرازي، (١٤/ ٢٠٣).

(٤) نقل بتصرف من تفسير الرازي، (١٤/ ٢٠٣).

(٥) سورة الأعراف: الآية (١١٦).

المبحث السادس
موقف موسى ـ عليه السلام ـ من السحرة

قال تعالى: ﴿وأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ[1] مَا يَأْفِكُونَ[2] (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾[3].

قوله: ﴿وأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ أي: كلمناه وناجيناه وكان ربه يكلمه بلا واسطة كما هو معروف معلوم[4] أو ألهمناه أن يلقي عصاه، وأيًا ما كان فإن موسى ـ عليه السلام ـ لم يلق عصاه بهواه متكلاً عليها، وإنما انتظر أمر الله له بما يفعله في هذا الوقت فقد يؤتيه معجزة أخرى تدحض هذا الباطل.

وهكذا سائر الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ لا يصدرون في شيء من الأشياء قلَّ أو كثر إلا بإلهام الله أو وحيه، وحتى ما صدر منهم مما كان لهم فيه اجتهاد فإنه لا يخرج عن إلهام في رأي، وهو من باب ترك ما هو صواب إلى ما هو أصوب، وذلك تعليمًا لرسله ـ عليهم الصلاة السلام ـ أن ما هو مستور في علم الله فوق اجتهادهم.

---

(١) اللقف: التناول بسرعة، يقال: لقف الشيء يلقفه لقفًا ولقفانًا أخذه بسرعة.

(٢) الإفك: في اللغة قلب الشيء عن وجهه. ومنه قيل للكذب إفك لأنه مقلوب عن وجهه. تفسير الرازي (١٤/ ٢٠٤).

(٣) سورة الأعراف: الآيات من (١١٧) إلى (١١٩).

(٤) ويؤيده قوله تعالى في سورة طه: ﴿قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ الآيتان (٦٨، ٦٩).
وقول الله لنبيه إنما يكون عن طريق الوحي.

وقوله تعالى: ﴿ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾.

﴿ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ أمر منه تعالى لنبيه. والمعنى أن ألق عصاك التي عهدتها تنقلب حية تسعى وثعبانًا مبينًا لا يثبت أمامه شيء، فألقاها ـ عليه السلام ـ بأمر ربه فإذا هي تأخذ بسرعة خاطفة ما أفكه السحرة من الباطل الذي ضلوا به أهل مصر أزمنة طويلة، والذي كان يعتمد عليه فرعون في بعض سياسة المصريين؛ بدليل أنه لجأ إلى السحرة عندما ظن أن معجزة موسى ـ عليه السلام ـ من قبيل السحر، وقد أراد الله بذلك إبطال السحر وأنه مهما تفنن فيه لا يضر أحدًا إلا بإذن الله، ـ جل وعلا ـ وأن السحر غير محكوم بقدرته فلا يصح أن يعول عليه أحد إنما المعول على الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

و﴿ إِذَا ﴾ في هذه الآية فجائية والمعنى أن الحضور أخذتهم تلك المفاجأة فأصابتهم بالدهش والغلب.

قال الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ: قال المفسرون: لما ألقى موسى العصا صارت حية عظيمة حتى سدت الأفق، ثم فتحت فكها، فكان ما بين فكيها ثمانين ذراعًا، وابتلعت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم، فلما أخذها موسى صارت عصًا كما كانت من غير تفاوت في الحجم والمقدار أصلاً. واعلم أن هذا مما يدل على وجود الإله القادر المختار، وعلى المعجزة العظيمة لموسى ـ عليه السلام ـ وذلك لأن ذلك الثعبان العظيم لما ابتعلت تلك الحبال والعصي مع كثرتها، ثم صارت عصًا كما كانت، فهذا يدل على أنه تعالى أعدم أجسام تلك الحبال والعصي، أو على أنه تعالى فرق بين تلك الأجزاء وجعلها ذرات غير محسوسة، وأذهبها في الهواء بحيث لا يحس بذهابها وتفرقها. وعلى كلا التقديرين فلا يقدر على هذه الحالة أحد إلا الله ـ سبحانه وتعالى[1].

---

(١) تفسير الرازي، (١٤/ ٢٠٤).

﴿ **فوقع الحقُ وبطل ما كانُوا يعْملُون** ﴾[١] والمتمعن في الآيات السابقة يرى بوضوح كيف أن الباطل قد يسحر عيون الناس ببريقه الزائف لفترة من الوقت، ويستولي على أفئدتهم ومضة من الزمن، حتى ليخيل لضعاف القلوب أنه غالب وحق . . . ولكن ما إن يواجه الحق الثابت الذي لا يتزعزع حتى يضمحل ويزول. وإذا بأتباع الباطل يصيبهم الذعر والذل وهم يرون صروحهم تتهاوى، وآمالهم تتداعى أمام نور الحق المبين، وإذا بتحديهم الصريح وتطاولهم الأحمق يتحول إلى استسلام مهين وذل مشين. قال تعالى: ﴿ **فغُلبُوا هنالك** ﴾ أي: غلبوا في ذلك المكان والزمان اللذين حددا من قبل في قوله تعالى: ﴿ **فاجعل بيننا وبينك موعدا لاَّ نُخلفُه نحنُ ولا أنت مكانا سُوى** ﴾[٢] وقد سبق تفسيرها[٣].

والمعنى ـ والله أعلم ـ: أن القوم بهتوا، ولم تستطع أقدامهم أن تبرح بهم ذلك المكان من شدة ما أصابهم، وأنهم لم يستطيعوا مبارحته إلا بعد مضي وقت التقطوا فيه أنفاسهم، وقد انقلبوا إلى بيوتهم وأهليهم بعد ذلك ﴿ **وانقلبُوا صاغرين** ﴾ أذلة لا يملكون ما يدفعون به حجة موسى ـ عليه السلام ـ إلى حد أنهم سئموا أن يكلم بعضهم بعضًا، وأنهم حسبوا لمسألة نسائهم ومن لم يحضر هذا المشهد من ذويهم حسابًا شديدًا.

* * *

(١) سورة الأعراف: الآية (١١٨).

(٢) سورة طه: الآية (٥٨).

(٣) انظر: ص (٤٢٩) من بحثنا هذا.

المبحث السابع
موقف السحرة بعد بطلان سحرهم من معجزة موسى ـ عليه السلام ـ

قال تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾[١].

بعد أن رأى السحرة بينة موسى ـ عليه السلام ـ وقد التهمت بسرعة مذهلة ما جاءوا به من السحر، ثم تحول ثعبان موسى ـ عليه السلام ـ إلى عصا كما كانت من قبل، أيقنت السحرة أن هذا الأمر خارج عن نطاق السحر، وهو أمر إلهي لا طاقة للبشر به، وتيقنوا أن الذي أمامهم ليس بساحر بل هو نبي صادق من عند الله.

قال الرازي رحمه الله: هذه الآية من أعظم الدلائل على فضيلة العلم، وذلك لأن أولئك الأقوام كانوا عالمين بحقيقة السحر، واقفين على منتهاه، فلما كانوا كذلك ووجدوا معجزة موسى ـ عليه السلام ـ خارجة عن حد السحر، علموا أنه من المعجزات الإلهية، لا من جنس التمويهات البشرية، ولو أنهم ما كانوا كاملين في علم السحر لما قدروا على ذلك الاستدلال، لأنهم كانوا يقولون: لعله أكمل منا في علم السحر، فقدر على ما عجزنا عنه، فثبت أنهم كانوا كاملين في علم السحر، فلأجل كما لهم في ذلك العلم انتقلوا من الكفر إلى الإيمان. فإذا كان حال علم السحر كذلك فما ظنك بكمال حال الإنسان في علم التوحيد[٢]؟

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (١٢٠) إلى (١٢٢).

(٢) تفسير الرازي، (١٤/ ٢٠٥، ٢٠٦).

قال تعالى: ﴿ وأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجدين ﴾ وفي الآية دليل على أن فعل العبد من خلق الله ـ تعالى ـ وتدل الآية أيضًا على أن السحرة سجدوا فور رؤية معجزة موسى ـ عليه السلام ـ وأنهم اندفعوا ملقين أنفسهم للسجود لرب العالمين، فأعضاؤهم لم تكن مهيأة في تلك اللحظة لشيء سوى السجود، وأن هذا الشعور وتلك الرغبة العارمة تساوى فيها السحرة جميعهم فلم يتوقف منهم أحد. فـ(أل) في السحرة للاسغراق.

قال النسفي: «خروا سجدًا كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم، أو لم يتمالكوا مما رأوا، فكأنهم ألقوا، فكانوا أول النهار كفارًا سحرة وفي آخره شهداء بررة»[1].

وقوله: ﴿ قالُوا آمنَا بربِّ العالمين ﴾ أي: آمنا بمالك أمر العالمين، ومدبر شئونهم، والمتصرف فيهم.

﴿ ربِّ مُوسىٰ وهارُون ﴾[2] بدل من الجملة التي قبلها. والغرض منها نفي توهم من يتوهم أن رب العالمين قد يطلق على غير الله ـ تعالى ـ كما قال فرعون: ﴿ فقال أنا ربُّكُمُ الأعلىٰ ﴾[3].

والظاهر عندي أنهم لما ألقوا ساجدين قالوا بحيث يسمع فرعون: ﴿ قالُوا آمنَا بربِّ العالمين (١٢١) ربِّ مُوسىٰ وهارُون ﴾ إمعانًا في كشف الحقيقة التي بدت لهم، وإعلانًا عن مخالفتهم له في عقيدته مخالفة لم تبق فيهم من تقدير لتلك العقيدة الضالة.

وأن فرعون هددهم بما سأذكره على سجودهم وعلى مقالتهم في سجودهم،

---

(١) تفسير النسفي، (٢/ ٧٠).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (١٢١، ١٢٢).

(٣) سورة النازعات: الآية (٢٤).

إذ لولا تلك المقالة لظُن بعض الظن أن السجود كان لفرعون، لمحاولة نصرته ببعض النصرة وتخفيف نكبته، لكن السحرة أرادوا بمقالتهم هذه أن يعلم كل من يراهم أنهم سجدوا للواحد الأحد، وأن ظهور الحق دفعهم إلى أن يأتوا بما هو أدل على خلوص التوحيد وهو السجود المشفوع بقولهم في سجودهم: ﴿آمنَّا برب العالمين (١٢١) رب موسىٰ وهارون﴾.

وإنما نحوت هذا المنحى لأن السجود في الأمم السابقة كان شيئًا مألوفًا من الرعية للملوكها، ولأجل نفي ذلك أردف السحرة سجودهم بمقالتهم هذه، وإنما قالوا: ﴿رب موسىٰ وهارون﴾ إتيانًا منهم بركني الشهادة التي لا تكون إلا بهما وهي توحيد الله ـ تعالى ـ والإيمان بالرسول الذي جاءهم بهذا التوحيد، كما أنهم أرادوا أن ينسبوا الفضل لمن كان سببًا في خلاصهم من الكفر إلى الإيمان.

* * *

المبحث الثامن
تهديد فرعون للسحرة وتوعده لهم

قال تعالى: ﴿قال فرعونُ آمنتم به قبل أن آذن لكم إنَّ هذا لمكرٌ مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون (١٢٣) لأقطعنَ أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين﴾[١].

وبعد أن رأى فرعون أن أعلم الناس بالسحر قد أقروا بنبوة موسى ـ عليه السلام ـ أمام ذلك الجمع العظيم، لأنهم أدركوا أن ما جاء به موسي ـ عليه السلام ـ ليس من قبيل السحر، وتحولوا من تحديهم السافر إلى التسليم المطلق أمام نداء الحق الذي لا يجحده إلا مكابر ومتعال.

ولقد خشي فرعون أن يستولي الإيمان على قلوب العامة كما استولى على قلوب السحرة، لا سيما وقد اتضح ذلك على صفات وجوههم كما أخبر بذلك قوله تعالى: ﴿فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾[٢] أي: أذلاء مبهوتين، فأخذ فرعون ينكر عليهم مُوبخًا ومقرعًا لهم فعلهم الشنيع الذي ارتكبوه وهو إيمانهم برب موسى وهارون، قائلاً لهم: آمنتم به قبل أن آمركم بذلك؟ فهو من غروره واستعلائه ظن أن الإيمان بالحق بعد ما تبين يحتاج إلى سبق موافقة واستئذان! فالضمير في ﴿به﴾ يعود إلى الله ـ عز وجل ـ ولم يصرح فرعون باسمه تعالى تحاميًا لجريان ذكر الله ـ تعالى ـ على لسانه، مما ينبه العامة إلى التشكك في ألوهية فرعون، خصوصًا بعد ما نابه من كرب على يد موسى ـ عليه السلام ـ بإيمان

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٢٣، ١٢٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١١٩).

السحرة، الذين كان يعتبرهم ملجأه وحصنه لإبطال معجزة موسى ـ عليه السلام ـ.

ويجوز أن يراد بالضمير موسى ـ عليه السلام ـ وقد قصد بذلك تحقيره وأنه أقل من أن يؤثر فيهم هذا التأثير.

قوله تعالى: ﴿قبل أن آذن لكم﴾ يريد به فرعون أن الخروج على كلمته والانتحال بنحلة لا يقرها، أمر يستدعي عقوبة فعلية؛ لأنهم أرادوا بذلك سلبه ملكه، وإخراج أهل المدينة منها، باستتباعهم إياهم فيكون لهم الغلب بميل الكفة إليهم، وأنه لا يقر لأهل المدينة بتلك التبعية للسحرة، وسيؤاخذهم على ذلك أشد المؤاخذة بالمحاربة والانتقام، مما يؤدي إلى إخراج أهل المدينة منها، والمدينة التي يتحدث عنها هي عاصمة ملكه وقصبته وحاضرته، ولعلها منف، أو منفيس، أو طيبة، فهذه الأسماء كانت لأشهر مدينة في ذلك العهد كما قيل. والله أعلم.

وما كان فرعون ليأذن لهم في الإيمان، ولو مالت نفسه إلى ذلك لما أنكره، ولكنه أراد أن يبين للسحرة أنه لا يزال صاحب السلطان، وإليه المرجع حتى فيما يدينون به ويعتقدونه؛ لذلك نراه في الحال قد ألقى إلى أسماع الحاضرين شبهتين لتصيرا حائلاً بين إيمان القوم وبما جاء به موسى ـ عليه السلام ـ.

فالشبهة الأولى: قوله: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة﴾ أي: فعلكم هذا أيها السحرة ما هو إلا حيلة احتلتموها أنتم وموسى وتواطأتم عليها، وغرضه من هذا التنقيص من قوة الحجة والتأثير الذي أحدثته المعجزة.

الشبهة الثانية: قوله: ﴿لتخرجوا منها أهلها﴾ أي: إن غرضكم من تواطئكم ذلك هو إخراج أهلها الأصليين ـ الأقباط ـ منها وإسكان بني إسرائيل مكانهم،

ومعلوم أن مفارقة الأهل والبلد والوطن من أصعب وأشق الأمور على النفس، فكانت هذه الشبهة من أقوى العوامل المؤثرة في النفوس، وغرضه من هذا إعلان العداوة على موسى والسحرة، ثم أتبع هذا الاتهام الباطل بالوعيد الشديد قائلاً لهم: ﴿ **فسوف تعلمون** ﴾ وعيد مجمل موجه للسحرة الذين وصفهم بذلك التدبير والكيد. ﴿ **لأقطعنَ أيديكُمْ وأرجُلكُم مِنْ خلاف** ﴾ أي: من كل شق طرفًا.

﴿ **ثُمَ لأُصلِبَنكُمْ أجْمعين** ﴾ تنكيلاً وتفظيعًا.

وقد أراد بقوله: ﴿ **لأُقطعنَ أيْديكُمْ وأرْجُلكُم مِنْ خلاف ثُمَ لأُصلِبَنكُمْ أجْمعين** ﴾ أن يبين قدرته عليهم وأن يخيفهم بالتأثير على قوتهم الذاتية، لأن الذي قطعت يده ورجله من خلاف لا يحسن مشيًا، ولا يحسن إمساكًا بشيء، مما يجعله لا يستقل بعمل، ومما يستذله لغيره دائمًا فيكون عالة عليه. ومن وصل إلى هذا الحد لا يعتد برأيه ولا يعول على تأثيره. وكان فرعون من أوائل من سن تعذيب المؤمنين على إيمانهم، ومن أوائل من وضع لَبِنَات فنون تعذيب المؤمنين في كل عصر لانتصارهم لدينهم، ولمخالطة بشاشة الإيمان قلوبهم. وقوله: ﴿ **ثُمَ لأُصلِبَنكُمْ أجْمعين** ﴾ أي: لن أبالي بأن لبعضكم قوة، بل كلكم معشر السحرة في التنكيل سواء، ولن أقبل شفاعة شافع فيكم، وإنما هددهم بالتقطيع والصلب ليعتبر غيرهم بهم، وليرجعوا بما هددوا به عن التوحيد. وقد حكى القرآن تأبّيهم على فرعون، واستخفافهم بما هددهم بأكثر من أسلوب، لنعرف بذلك قوة إيمانهم ورسوخه في قلوبهم، ولنتعلم مغالبة الصعاب والاستعلاء عليها بقوة الإيمان.

قال تعالى في سورة طه: ﴿ **قالُوا لن نُؤْثرك علىٰ ما جاءنا من الْبيِّنات والَذي فطرنا فاقْض ما أنت قاضٍ إنَما تقْضي هذه الْحياة الدُنْيا (٧٢) إنَا آمنَا بربنا ليغْفر لنا**

خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾[١].

والمعنى: أن السحرة قالوا لفرعون لما توعدهم بما توعدهم به: ﴿ لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ أي: لن نختارك فنتبعك، ونكذب ما جاءنا به موسى من الحجج والأدلة القاطعة على حقيقة ما دعانا إليه. وقوله: ﴿ والذي فطرنا ﴾ عطف على ﴿ ما جاءنا ﴾ أي: لن نختارك على الذي جاءنا، ولا على الذي خلقنا. أو قسم وجوابه ﴿ لن نؤثرك ﴾ مقدم على القسم، والتقدير: والذي فطرنا لن نؤثرك على ما جاءنا به موسى فاقض ما أنت قاض. ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ أي: اصنع ما أنت صانع من القتل والصلب.

﴿ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ أي: إنما تحكم فينا مدة حياتنا ثم لا سلطان لك بعد ذلك: ﴿ إنا آمنا بربنا ﴾ أي: إنا آمنا، وأقررنا بتوحيد ربنا، وصدقنا وعده ووعيده، وأن ما جاء به موسى حق. ﴿ ليغفر لنا خطايانا ﴾ أي: ليعفو عن ذنوبنا.

﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ أي: ما أكرهتنا على تعلمه والعمل به. روى أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائمًا ففعل، فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر، الساحر إذا نام بطل سحره. فكرهوا معارضته خوف الفضيحة، فأكرههم فرعون على الإتيان بالسحر. وضر فرعون جهله به، ونفعهم علمهم بالسحر. فكيف بعلم الشرع[٢]؟

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون (٥٠) إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾[٣].

---

(١) سورة طه: الآيتان (٧٢، ٧٣).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (٣/ ٦٠).

(٣) سورة الشعراء: الآية (٥٠، ٥١).

قال النسفي: «أي: إن السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به قالوا: ﴿ قالُوا لا ضَيْر ﴾ أي: لا ضرر علينا في ذلك بل لنا أعظم النفع، لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا، أو: لا ضير علينا فيما تتوعدنا به، إنه لابد لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت، والقتل أهون أسبابه وأرجاها، أو: لا ضير علينا في قتلك إيانا، إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا انقلاب من طمع في مغفرته، ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق إلى الإيمان»[1].

وأعود إلى ما قاله القرآن عنهم في سورة الأعراف.

﴿ وما تنقمُ منَّا إلاَّ أنْ آمنَّا بآيات ربِّنا لَمَّا جاءتْنا ﴾[2].

أي: وما تكره منا، وتعيب علينا إلا الإيمان بآيات الله، الذي هو من أعظم المناقب وأفضل المحاسن، مما يجعلك لو كنت عاقلاً أن تمدحنا به لا أن تنقم منا، فكيف نترك صوابنا إلى جهلك وطغيانك؟

وقوله تعالى: ﴿ ربَّنا أفْرِغْ علينا صبْرا وتوفَّنا مُسْلمين ﴾[3] فلما تبين لهم إصراره على تنفيذ ما توعدهم به، استعانوا على هذا البلاء العظيم بربهم، يتضرعون إليه، ويسألونه أن يفرغ على ذواتهم وقلوبهم صبرًا عظيمًا، لا يبالون معه بما يفعله بهم فرعون، ورجوا ربهم في ضراعة أن يثبتهم على الإسلام الذي هداهم إليه، وأن يتوفاهم عليه، لأن سعادة المسلم لا تستيقن إلا إذا خرجت روحه على الإيمان.

فقوله تعالى: ﴿ ربَّنا أفْرِغْ علينا صبْرا ﴾ هو نداء واستنجاد، وهو مقول قول محذوف تقديره قالوا: يا ربنا، ومالك أمرنا وشئوننا، أفرغ علينا صبرًا عظيمًا يدافع هذا البلاء عنا، وتوفنا برحمتك مسلمين.

---

(١) تفسير النسفي، بتصرف (٣/ ١٨٤).

(٢، ٣) سورة الأعراف: الآية (١٢٦).

وهذا الدعاء الذي قصه الله علينا، تعليم لكل مسلم أن يستنجد بربه وقت الشدة، فلا مغيث له إلا هو، وأن يكون همه الأكبر الخروج من هذه الدنيا على الإيمان، وأن أي مصيبة مهما جلّت فهي دون مصيبة التوفي على الكفر، والعياذ بالله - تبارك وتعالى - وأن المؤمن لا يليق به أن ينسى الآخرة في غمرة صعوبة الأحداث وخطورتها، وأن يجعل رجاء الوفاة على الإيمان نصب عينيه، وموضع سؤاله ربه، وتضرعه إليه دائمًا، ولذا لم يسأل السحرة في هذا الموطن سوى هذين الأمرين.

ولقد اختلف المفسرون هل أوقع فرعون بالسحرة ما هدد به أوْ لا؟

والذي أميل إليه أنه أوقع بهم ما هدد به أو بعضه لهذا الدعاء. والله أعلم.

❊ ❊ ❊

المبحث التاسع
موقف الملأ من موسى ـ عليه السلام ـ وقومه وإجابة فرعون لملئه

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾[1].

﴿ وقال الملأ من قوم فرعون ﴾ الجملة معطوفة على ما سبقها من قوله: ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ﴾[2].

والملأ: هم أصحاب النفوذ والسلطة والزعامة والوجاهة، والملأ في كل أمة هم سبب شقائها وهلاكها بعذاب الاستئصال المتنوع في الدنيا، كما بينه القرآن الكريم من خلال قصص الماضين، وقد ألمحت إلى ذلك مرارًا، وقد كان شأنهم مع فرعون شأن الجبان الذي يلتمس فرصة يظهر فيها بمظهر الشجاعة الكاذبة والغيرة المفتعلة.

وقوله تعالى: ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون ﴾ لا يدل على إيمان بني إسرائيل واستقامة حالهم، وامتناعهم من تأييد فرعون ونصرته، وإنما يدل على مهانتهم وأنهم لم يكونوا ذوي وزن عند فرعون. وسيتضح ذلك فيما سيأتي من أحوالهم ما يؤكد هذا الفهم، وكان فرعون لا يستشير إلا قومه ـ وهم المصريون الحقيقيون ـ لا بنو إسرائيل الدخلاء.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٠٩).

وقوله: ﴿ أتذر موسىٰ وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك ﴾ القصد منه تهييج فرعون على موسى وقومه، ومحاولة حمله على مغالبة خوفه وروعه، ولذا ذكر القرآن الكريم قولهم هذا بأسلوب الاستفهام الذي لا يقصد حقيقته بل القصد منه الإثارة - كما ذكرت - وقد استخدم الملأ في إثارتهم لفرعون سببين قويين في نظرهم، كل واحد منهما كفيل بأن يحمل فرعون على التصدي لموسى وقومه فكيف باجتماعهما؟

أولهما: إفساد موسى وقومه في أرض مصر على حد زعمهم، وذلك أن معجزة موسى - عليه السلام - هزت قلوب المصريين، وزعزعت علاقتهم بفرعون، وحملت الكثيرين منهم على التفكير في الإيمان بموسى - عليه السلام - وذلك ينقض ويهز ملك فرعون وهذا هو أقوى السببين. ولا غرابة في عرف أهل الباطل أن يسموا الحق والإيمان فسادًا، وضلالهم وكفرهم فلاحًا ورباحًا.

ولقد كان لموسى - عليه السلام في بعض المصريين تأثيره الظاهر قبل أن يرسله الله إلى فرعون، وقبل أن يشهد المصريون معجزته. ويؤكد هذا الفهم قوله تعالى: ﴿ وجاء رجل من أقصا المدينة يسعىٰ قال يا موسىٰ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين ﴾[1].

قال النسفي - رحمه الله -: «إن هذا الرجل كان ابن عم فرعون، وهو مؤمن من آل فرعون، الذي قص الله علينا خبره في سورة غافر»[2] فما بالك بعد مشاهدتهم معجزته - عليه الصلاة والسلام -؟

والسبب الثاني: هو قولهم: ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ فإن مما يشق على أصحاب الجاه والسلطان انحراف الناس عنهم إلي غيرهم، وهو تهييج آخر، أرادوا به إثارة

---

(١) سورة القصص: الآية (٢٠).

(٢) قال تعالى: ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ﴾ ... الآية (٢٨) من سورة غافر؛ انظر: تفسير النسفي، (٣/ ٢٣٠).

فرعون على موسى وقومه، ويحسن بي أن أتعرض لقضية تتعلق بقوله تعالى: ﴿ **ويذرك وآلهتك** ﴾ فإن ذلك يعني أن فرعون لم يكن إلهًا بل كان يعبد آلهة؛ وهذا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ **وقال فرعونُ يا أيُها الملأُ ما علمتُ لكُم مَن إله غيري** ﴾[1].

والواقع لا تعارض بين آية الأعراف وآية القصص، لأن آلهة فرعون التي ذكرتها سورة الأعراف قد نصبها فرعون لتأكيد ألوهيته هو؛ وهي بمثابة التهيئة لمن يدخل عليه، فلا يليق بداخل عليه أن يدخل من أول الأمر، بل عليه أن يمر على تلك الآلهة التي صنعها خصيصًا لنفسه لتهيء الداخلين عليه لملاقاته؛ وقد فهمت ذلك من الإضافة في قوله تعالى: ﴿ **وآلهتك** ﴾ أي: المخصوصة بك، والتي تهيء بها رعيتك لقبول ألوهيتك، لأنها كانت آلهة جامدة لا تسمع، ولا تبصر فإذا سلم لها من مر عليها بالألوهية كان تسليمه بألوهية فرعون ألزم، لأنه يسمع، ويبصر، ويتكلم، ويعطي، ،يمنع باعتباره بشراً زوده الله ـ تعالى ـ بما يمكنه من ذلك، ولم أجد هذا المعنى في كتب التفسير ولكن الله هداني إليه، فلله الحمد والمنة.

ومما يقوي فهمي هذا قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ **فحشر فنادى (٢٣) فقال أنا ربُكُم الأعلى** ﴾[2] والمعنى ـ والله أعلم ـ أنه يقول: إن فوق تلك الألهة التي جعلتها تمهيدًا لتعريفكم بألوهيتي، بل وفوق رب موسى الذي يزعم أنه أرسله إليكم. تعالى الله عما يقول علوًا كبيراً.

وقد اختلف المفسرون في آلهة فرعون فمن قائل: إنها الكواكب، ومن قائل إنها أصنام صغيرة، أمرهم بعبادتها، ومن قائل: إنه كان يعبد البقر، وقد شاعت عبادة البقر عند المصريين في بعض الأزمنة[3].

---

(١) سورة القصص: الآية (٣٨).

(٢) سورة النازعات: الآيتان (٢٣، ٢٤).

(٣) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ٢٢١)؛ وتفسير أبي السعود، (٣/ ٢٦٢)؛ وتفسير النسفي، (٢/ ٧٠)، وتفسير ابن كثير، (٢/ ٢٣٩)، وتفسير القاسمي، (٧/ ٢٣٤).

من كل ما أسلفت ذكره في هذا الموضوع يتضح لك - إن شاء الله - زوال هذا التعارض بين آية الأعراف وآية القصص. فقوله تعالى في آية القصص: ﴿ **ما علمتُ لكُم مِن إله غيري** ﴾ لا يقصد فيها نفي الآلهة الموطئة له، بل يقصد صرف قومه عن توحيد الله - تعالى - وعن اتباع موسى - عليه السلام - فإنهم إذا آمنوا بالله - تعالى - نبذوا ولا شك فرعون وألوهيته وآلهته.

ولقد عرف فرعون ما يدور في نفوس الملأ فأجابهم إجابة المخذول الذي يجتهد في كتمان خذلانه: ﴿ **قال سنُقتّلُ أبْناءهُمْ** ﴾[1] أي: سنستمر على ذلك كما كنا، ولن نكف عنه. والضمير يعود لبني إسرائيل.

﴿ **ونستحيي نساءهُم** ﴾ في المهانة والخدمة فلا تقوم لبني إسرائيل قائمة، ولن ينفعهم موسى بما جاءهم به على حد زعمه، لأن القوة في كل عصر أساسها الأول وفرة البنين، وكثرة الرجال والأموال. قال تعالى في شأن بني إسرائيل لما رد عليهم القوة على من استعبدوهم وجاسوا خلال ديارهم: ﴿ **ثُمَّ رددْنا لكُمُ الكرَة عليهِم وأمددْناكُم بأموال وبنين وجعلْناكُم أكْثر نفيرا** ﴾[2] أي: عدداً مما كنتم. وهو تمييز، جمع نفر وهو مَن ينفر مع الرجل من قومه[3].

وقوله تعالى: ﴿ **وإنَا فوْقهُم قاهرُون** ﴾ هو مزيد طمأنة ملئه المستغرب لامتناعه عن معاقبة موسى وقومه، ومراد فرعون بقوله هذا أن ينبه ملأه أنه لا يزال هو الملك، وأن الرئاسة لا تزال بيده، وبني إسرائيل لا يزالون تحت قبضته، ولا يمكنهم الخروج من مصر في نظره بأي حال من الأحوال. وكأنه يقول لملئه: لماذا ارتعتم هذا الارتياع والأمر كما ذكرته لكم؟

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٧).

(٢) سورة الإسراء: الآية (٦).

(٣) تفسير النسفي. (٢/ ٣٠٧).

وتلاحظ أن فرعون استخدم نون العظمة في: ﴿نَقتَلْ﴾ و﴿نستحيي﴾ و﴿وإنَا﴾ بقصد إظهار قوته لملئه، وأن يستل هذا الاستغراب من نفوسهم.

والمتمعن في كلام الملأ من قوم فرعون يجده لا يختلف إطلاقًا عن منطق دعاة الباطل كافة في كل العهود، فهم يرون أن الدعوة إلى وحدانية الله ـ تعالى ـ وتخليص الناس من براثن العبودية الزائفة إفساد في الأرض؛ لأنهم على يقين من أن هذه الدعوة ستدك حصونهم، وتكشف عوراتهم، وتحرر الناس من ظلمهم، وجبروتهم، وتحرمهم مما هو فيه من النعيم على حساب الآخرين.

أما ما قاله فرعون فهو منطق الطغاة المتجبرين، فقد لجأ إلى قوته المادية ونفوذه الواسع، ليبدد به دعوة الحق، وليظل ينعم في شهواته ويستبد بظلمه وقهره على الضعفاء البائسين.

* * *

المبحث العاشر
وصية موسى ـ عليه السلام ـ
لقومه بالاستعانة بالله والصبر على البلاء

قال تعالى: ﴿ **قال موسىٰ لقومه استعينوا بالله واصبروا إنَّ الأرْض لله يورثُها من يشاءُ من عباده والعاقبةُ للمُتقين** ﴾[1].

وبعد تهديد فرعون وملئه لقوم موسى، وقد بلغ موسى وقومه ذلك التهديد الذي أفزعهم، وهز مشاعرهم، وأقض مضاجعهم، حينئذ طلب موسى ـ عليه السلام ـ من وقومه أن يلوذوا بالصبر، وألا يجزعوا من وعيد فرعون لهم، وأفهمهم بأن الأرض ليست ملكًا لفرعون وملئه، بل هي لله الواحد القهار، ويورثها لمن يشاء من عباده، وأنه ـ جل وعلا ـ وعد بأن تكون العاقبة لمن خافه وآمن به.

وفي الآية إشارة إلى أن البلاد ومَن عليها ستكون في النهاية لهم، وهي بمثابة البشارة التي تزيد في عزيمة المؤمنين المعقودة على الصبر واحتساب البلاء النازل بهم لوجه الله ـ تعالى ـ.

قال الرازي ـ رحمه الله ـ: «قوله: ﴿ **استعينوا بالله واصبروا إنَّ الأرْض لله يورثُها من يشاءُ من عباده والعاقبةُ للمُتقين** ﴾ فهاهنا أمرهم بشيئين، وبَشّرهم بشيئين: أما اللذان أمر موسى ـ عليه السلام ـ بهما:

فالأول: الاستعانة بالله.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٨).

والثاني: الصبر على بلاء الله.

وإنما أمرهم أولاً بالاستعانة وذلك لأن من عرف أنه لا مدبر في العالم إلا الله انشرح صدره بنور معرفة الله ـ تعالى ـ، وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنه إنما حصل بقضاء الله ـ تعالى ـ وتقديره، واستعداده بمشاهدة قضاء الله خفف عليه أنواع البلاء.

أما اللذان بشّر بهما:

فالأول: قوله: ﴿**إنّ الأرض لله يورثها من يشاءُ من عباده**﴾ وهذا إطماع من موسى ـ عليه السلام ـ لقومه في أن يورثهم الله ـ تعالى ـ أرض فرعون بعد إهلاكه، وذلك معنى الإرث: وهو جعل الشيء للخلف بعد السلف.

والثاني: قوله: ﴿**والعاقبةُ للْمُتقين**﴾ فقيل: المراد أمر الآخرة فقط، وقيل: أمر الدنيا فقط، وهو الفتح والظفر والنصر على الأعداء. وقيل: المراد مجموع الأمرين.

وقوله: ﴿**للْمُتقين**﴾ إشارة إلى أن كل من اتقى الله ـ تعالى ـ وخافه فالله يعينه في الدنيا والآخرة»[1].

وقد دل موسى ـ عليه السلام ـ قومه على قانون الله، الذي ما تمسكت به أمة إلا هديت، وما قصرت وما تخلت عنه أمة إلا قهرت وخذلت، وهذا القانون يقوم أولاً على الاستعانة بالله القوى العزيز، الذي يقهر ولا يُقهر، والذي يذل ولا يُذل، والذي يجير ولا يُجار عليه، وقد استقر في فطر البشر أنهم إذا لجأوا إلى قوي منهم يثقون بقوته اطمأنت قلوبهم، وتعززت شوكتهم، فكيف بمن استعان بالله ـ تعالى ـ ولجأ إليه؟ فموسى ـ عليه السلام ـ بيّن لقومه أن مرد قوتهم في ثقتهم بربهم وصدق إيمانهم به، وفي طلب المعونة منه وحده.

---

(١) تفسير الرازي، (١٤/ ٢١٢).

والمادة الثانية لهذا القانون الصبر، وما عالج فرد أو أمة مشكلته بالصبر إلا حلت، وجنى أفضل العواقب، وإنما أمرهم ـ عليه السلام ـ بالصبر لأن أقدار الله ـ تعالى ـ لا يؤثر فيها استعجال مستعجل، وأن نقمته تنزل بعدوه بحسب مشيئته، وفي الوقت الذي يريده هو، لا في ما يريده القلقون لأن البلاء هو الذي يمحص المؤمنين، ويظهر صلابة معدنهم وقوة إيمانهم، قال تعالى: ﴿ **وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾[٣].

مادته الثالثة أن الكون كله لله، والأمر كله لله، والأرض جزء من الكون، فهي لله يورثها ويعطيها من يشاء من عباده كافرين أو مؤمنين، فلا تيأسوا من أن تنالوها، بل هي واصلة إليكم ما استعنتم به وصبرتم على بلائه، والدنيا كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، فليس التعزز بملكها، وليس الخير كل الخير التوسع فيها بالظلم والبغي، كلا بل إن العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة إنما هي للمتقين.

والمادة الرابعة لهذا القانون الإلهي أن ﴿ **الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ فعلى بني إسرائيل أن يدركوا أن سلامتهم في تقوى الله لا في الاعتزاز بالانتساب إلى الأنبياء وهم على غير منهجهم، فالمتقون لله أيًا كان نسبهم هم أهله وأولياؤه، وأما المبغضون عندهم فهم من فارقوا التقوى، وإن كانوا من سلالة الأنبياء، قال تعالى في شأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال: ﴿ **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾[٤].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٤١).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٤٢).

(٣) سورة التوبة: الآية (١٦).

(٤) سورة البقرة: الآية (١٢٤).

المبحث الحادي عشر
تضجر بني إسرائيل
من وصية موسى ـ عليه السلام ـ لهم

قال تعالى: ﴿ **قالُوا أُوذينا من قبْل أن تأْتينا ومن بعْد ما جئْتنا قال عسىٰ ربُّكُم أن يُهْلك عدُوَّكُمْ ويستْخْلفكُمْ في الأرْض فينظُر كيْف تعْملُون** ﴾[1].

والمتأمل في جواب قوم موسى لنبيهم يدل على سوء أدبهم، وسفاهتهم مع نبيهم وبلادة عقولهم، حيث إنه ـ عليه السلام ـ بشرهم إذا صبروا بالظفر على أعدائهم لكنهم قالوا: ﴿ **أوذينا من قبْل أن تأْتينا ومن بعْد ما جئْتنا** ﴾ أي أنهم قالوا له ردًا على نصيحته لهم بالاستعانة بالله وبالصبر على البلاء: لقد لاقينا يا موسى من فرعون صنوف العذاب وذلك قبل بعثتك بالرسالة؛ فقد قتل أبناءنا، واستحيا نساءنا وأنزل بنا ألوان الظلم والاضطهاد، وها نحن بعد بعثتك ومجيئك إلينا لم تتغير أحوالنا، فقد عاد فرعون إلى ظلمه وسفكه للدماء وإذلالنا، وقد قصدوا بقولهم هذا أنهم لم يستفيدوا بإيمانهم به وبرسالته شيئًا، فقد استبطأوا وعده لهم بالنصر، فأجابهم ـ عليه السلام ـ إجابة الحليم، فهدأ ثورتهم وطمأن روعتهم، ورجا من ربه أن يهلك عدوهم، ويستخلفهم في الأرض بعدهم.

قال تعالى على لسان موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ **قال عسىٰ ربُّكُمْ أن يُهْلك عدُوَّكُمْ ويستْخْلفكُمْ في الأرْض** ﴾ أي: أن يجعلكم خلفاء فيها من بعد أهلها ـ قوم فرعون ـ والمراد بالأرض: أرض مصر، وهذا تحريض منه ـ عليه السلام ـ لهم على العزم على الشكر، والمداومة عليه عند حلول النعم وزوال النقم.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٩).

﴿ فينظُر كيف تعْملُون ﴾[١] أي: يرى ذلك بوقوع ذلك منكم، مَن منكم أحسن وأدى شكر النعم؟ ومَن منكم كفر بالله ونعمه؟ فيجازي كلاً بحسب عمله.

قال الرازي ـ رحمه الله ـ: «واعلم أن النظر قد يراد به النظر الذي يفيد العلم وهو على الله محال، وقد يراد به تقلب الحدقة نحو المرئي التماسًا للرؤية وهو أيضًا على الله محال، وقد يراد الانتظار وهو أيضًا على الله محال، وقد يراد به الرؤية ويجب حمل اللفظ ههنا عليه.

قال الزجاج: أي يرى ذلك بوقوع ذلك منكم لأن الله ـ تعالى ـ لا يجازيهم على ما يعلمه منهم، وإنما يجازيهم على ما يقع منهم»[٢].

* * *

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٩).

(٢) تفسير الرازي، (١٤/ ٢١٣).

المبحث الثاني عشر
معاقبة الله لفرعون وقومه قبل إغراقهم

قال تعالى: ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾[١].

مر علينا في الآية الكريمة السابقة أن موسى ـ عليه السلام ـ قال لقومه: ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾[٢] وفي هذه الآية التي نحن بصدد دراستها وتفسيرها، يخبرنا ـ جل وعلا ـ عما حل بفرعون وقومه من صنوف المحن والبلاء استجابة لرجاء نبيه ـ عليه السلام ـ لعلهم يثوبون إلى رشدهم، وكان هذا أول إنذار لهم.

قال تعالى: ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ﴾ أي: بالجدب والقحط والجوع عامًا بعد عام، امتحانًا لهم، وتنبيهًا لهم، حتى يرجعوا عن غيهم وظلمهم، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «أما السنون فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم، أما نقص الثمرات فكان لأهل أمصارهم»[٣].

﴿ لعلهم يذكرون ﴾ أي: لعلهم يثوبون إلى رشدهم فيتعظوا، ويعلموا ضعفهم أمام خالقهم، ويرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي؛ لأن الشدائد في العادة تنبيه الغافل من غفلته، وترقق القلوب، وتزجر النفوس عن غيها، وتحثها على الضراعة إلى الله والتزام شرعه، كما قال تعالى: ﴿ وإذا مسه الشر

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٢٩).

(٣) الكشاف، (٢/ ١٠٥).

﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾[١] أي: كثير، أي: أقبل على الدوام يدعو ربه، وأخذ في الابتهال والتضرع[٢].

لكن ذلك لم يحدث لقوم فرعون، بل ازدادوا تمردًا وكفرًا، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾ أي: إنهم إذا أنعم الله عليهم بالخصب والقطر والرخاء نسبوا ذلك إلى أنفسهم، وأنهم أهل لهذا الخير الذي حل بهم، وأن ما جاءهم بكدهم واجتهادهم، ناسين المسبب الحقيقي لذلك، غافلين عن شكره على نعمائه.

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ﴾ وإذا حلت بهم حالة من القحط والجدب والجوائح النازلة من السماء التي تصيب الأموال والثمار بسبب ظلمهم نسبوا ذلك إلى موسى ومن معه من المؤمنين من باب التشاؤم، وقالوا: لولا موسى ومَن معه لما أصابنا القحط والجدب، وهذا من شؤمهم ولولاهم ما أصابنا ما أصابنا.

قال النسفي: «وإنما دخل ﴿ إِذَا ﴾ في الحسنة وعُرّفت الحسنة، و ﴿ إِن ﴾ في السيئة ونُكّرت السيئة لأن جنس الحسنة وقوعه كالكائن لكثرته، وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها»[٣].

والتطير: أصله التفاؤل بالطير. ثم يستعمل في كل ما يُتفاءل به ويُتشاءم...

قال تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا ﴾ أي: يتشاءموا به ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ أي: شؤمهم وما قد أعد الله لهم بسوء أعمالهم[٤] ا. هـ. ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ ﴾ استئناف مسوق للرد على أباطيلهم، والمراد به شؤمهم - كما أسلفت -.

---

(١) سورة فصلت: الآية (٥١).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (٤/ ٩٨).

(٣) تفسير النسفي، (٢/ ٧١، ٧٢).

(٤) انظر: المفردات للأصبهاني، ص (٣٠٩، ٣١٠).

﴿ عند الله ﴾ أي: في حكمه ومشيئته، وصدر بلفظ ﴿ ألا ﴾ الذي يفيد التنبيه لإبراز كمال العناية بمضمون هذا الخبر، أي: إنما سبب خيرهم وشرهم هو الحكيم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية، فيجازيهم بحسب أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وليس لموسى عليه السلام ومن معه أي تدخل في ذلك.

﴿ ولكنَّ أكثرهُمْ لا يعلمُون ﴾[1] أن ما لحقهم من القحط والجدب إنما هو في الحقيقة من عند الله ـ تعالى ـ بسبب ذنوبهم وظلمهم، لا من عند موسى وقومه، وكان أخذهم بالسنين والنقص من ثمراتهم كالإنذار لهم، وكان الأجدر بهم أن يتعظوا، ويؤمنوا بموسى وما جاء به.

ورغم قسوة ما لاقوه من هذه السنين وما عانوه من نقص ثمراتهم إلا أن ذلك إذا قيس بما سيمتحنون به بعد من العذاب قبل هلاكهم يعتبر رحمة ونعمة، وكان المتوقع من فرعون وقومه أن يذكروا بما نزل بهم فيؤمنوا بموسى ـ عليه السلام ـ لتسلم لهم دنياهم وأخراهم، لكن ذلك لم يحدث، وقد أنبأ عن عدم حدوثه قوله تعالى: ﴿ لعلَّهُمْ يذَّكَّرُون ﴾[2] (لعل) موضوعة لرجاء الأمر المحبوب، وفرق بين أن ترجو شيئًا لم يتأهل له من ترجوه منه، وبين مَن تأهل لفعله. وواضح لنا من خلال قصة موسى عليه السلام وفرعون تعنت فرعون وقومه، واستكبارهم عن الحق مع ظهوره واستبانته، ولذا لم يذعنوا لموسى ـ عليه السلام ـ ولم يؤمنوا به بعد حلول السنين بهم، بل قالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿ وقالُوا مهْما تأْتنا به من آيةٍ لتسْحرنا بها فما نحْنُ لك بمؤْمنين ﴾[3] والمراد: مهما جئتنا من آية جديدة هي في غاية العظم والكبر والقهر فإننا لن نخضع لها، ولن نؤمن بك ولا بما جئت به البتة.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣٠).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٣٢).

والآية الكريمة تصور لنا مبلغ عنادهم ورفضهم للحق، وقد أسلمهم عنادهم هذا إلى أن سلط الله عليهم أنواعًا من العذاب[١] لم يعرف في الأمم السابقة ولا اللاحقة، فالحق - جل وعلا - يمهل ولا يهمل.

قال تعالى: ﴿ **فأرْسلْنا عليْهمُ الطُّوفانَ والْجراد والْقُمَّل والضَّفادعَ والدَّمَ آياتٍ مُفصَّلاتٍ فاسْتكْبرُوا وكانُوا قوْمًا مُجْرمين** ﴾[٢].

قوله: ﴿ **فأرْسلْنا عليْهمُ** ﴾ أي: بقدرتنا وقهرنا وغلبتنا عليهم عقوبة لجرائمهم وتكذيبهم ﴿ **الطُّوفانَ** ﴾ قال الألوسي: «أي: ما طاف بهم وغشي أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل، فهو اسم جنس من الطواف»[٣].

فقد أمطروا أيامًا متوالية بلياليهن، وفاض عليهم النيل فعمت المياه جميع أراضيهم، فأتلفت عليهم مساكنهم ومزارعهم وتجاراتهم. والمعجز في هذه الآية والآيات التاليات أنها تلحق الضرر والأذى بالأقباط فقط دون الإسرائيليين، ومما يقوي ذلك ويؤكده قوله تعالى: ﴿ **فأرْسلْنا عليْهمُ** ﴾ أي: لا على سواهم ممن خالطهم. وتأمل في قوم غمر الماء مساكنهم وما فيها من الفرش والأثاث، ومزارعهم وما فيها من الزروع والثمار والأنعام، ومتاجرهم وما فيها من البضائع والأموال، كيف يكون حالهم؟!

فلما اشتد عليهم الأمر لجأوا إلى موسى - عليه السلام - يتضرعون إليه، وقالوا له: لئن دعوت لنا ربك لنؤمنن لك، فلما دعا موسى - عليه السلام - الله - عز وجل - وكشف الله عنهم ما حل بهم، عادوا إلى كفرهم وضلالهم، لذلك عاقبهم الله - جل وعلا - بتسليط الجراد عليهم.

---

(١) وهو الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وهو ما سنُفصّل فيه قريبًا.

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣٣).

(٣) تفسير الألوسي، (٩/ ٣٣).

﴿ وَالْجَرَادَ ﴾ معطوف على الطوفان بتقدير: وأرسلنا عليهم الجراد، وهي الحشرة المعروفة. والجراد جمع جرادة وهو مما يستوي فيه المذكر والمؤنث، فإن أردت الفصل نعتّ، فتقول رأيت جرادة ذكرًا، وجرادة أنثى، كنملة وحمامة[١].

وكان إرسال الجراد عليهم بمثابة الإنذار الثاني لهم لعلهم يرجعون عن تكذيبهم، وكان نقمة كبيرة حلت عليهم لأن الله بعد أن كشف عنهم البلاء السابق وهو الطوفان سوّل لهم الشيطان أن ذلك الطوفان هو نعمة هم أهل لها، فقد أرتوت بساتينهم ومزارعهم وقفارهم، ونبت العشب في براريهم لرعي مواشيهم، وفرحوا بذلك، فأرسل الله عليهم الجراد، فأكل زروعهم وثمارهم إلا الشيء اليسير الذي استطاعوا أن يحصدوه قبل فساده، فقالوا: قد بقي لنا ما يكفينا فلن نؤمن لك، ولن نرسل معك بني إسرائيل. وكان اللائق بهم أن يرتدعوا ويؤمنوا بنبيهم، عليه السلام.

﴿ وَالْقُمَّلَ ﴾ واحدتها قُمَّلة، وهي عند أهل اللغة ضرب من القردان إلا أنها أصغر منها[٢] وقال أبو عبيدة: «القُمَّل عند العرب هي الحمنان. قال الأثرم الراوي عنه: والحمنان ـ يعني بالمهملة ـ ضرب من القردان»[٣] وهذا هو الابتلاء الثالث لقوم فرعون، وقد انتشر في بيوتهم وفرشهم، فأقض مضاجعهم، فلم يمكنهم من الغمض والقرار، وانظر إلى شدة هذا الابتلاء وعظيم هذه الآية فلو أن قملة واحدة تسلطت على إنسان وعجز عن قتلها لأفزعته، ولأقلقته، ولمنعته من

---

(١) انظر: تفسير القرطبي، (٧/ ٢٦٩)، ٢٧٠)؛ وتفسير الفتوحات الإلهية المسمى بالجمل، ص (٢/ ١٨٣).

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٢٧٠) وقد روي عن سعيد بن جبير: كان إلى جنبهم كثيب أعفر فضرب به موسى ـ عليه السلام ـ بعصاه فصار قملاً، فأخذت في أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم، ولزم جلودهم كأنه الجدري فصاحوا وصرخوا. انظر: تفسير الرازي، (٤/ ٢١٨)، وتفسير الطبري (٩/ ٣٩).

(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، (٧/ ٢٤١).

النوم والراحة والهدوء، فما بالك بعدد لا حصر له، ولا يعلمه إلا الله؟ والمعجز في هذه الآية ـ كما سبق أن أسلفت ـ أن القمل يتسلط على الأقباط فقط دون الإسرائيليين ومن آمن من الأقباط.

وقد ذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ نقلاً عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن المراد بالقمل السوس الذي يخرج من الحنطة[١] فقد انتشر في بيوتهم وأطعمتهم، ومن خصائصه أنه يطير مما يعجزهم عن مدافعته ومقاومته، وكانوا قد جمعوا بعض الأقوات ليغالبوا بها الجراد، وخزنوها في مخازنهم، فلما استجاب الله دعاء نبيه موسى، ورفع عنهم الجراد، سول لهم الشيطان أن ينكثوا عهدهم، فسلط الله عليهم ما أتلف هذه الأقوات لعلهم ينزجرون، ولا مانع من أن الله قد جمع عليهم الأمرين: القمل والسوس.

قال النحاس: «وليس هذا بناقض لما قاله أهل التفسير لأنه يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم، وهي أنها كلها تجتمع في أنها تؤذيهم»[٢].

وقوله تعالى: ﴿والضَّفادع﴾ جمع ضفدع، وهي الحيوان المعروف الذي يعيش في الماء. فقد روي أنها ملأت فرشهم وأوعيتهم، وطعامهم وشرابهم، وتأمل ما في هذه الآية من العذاب حيث إن المعروف من هذه الحشرة بشاعة منظرها، وكراهة رائحتها، ولزاجة ملمسها، فضلاً عن ذلك كله نقيقها المزعج المتواصل، فكيف يكون الحال عند كثرتها واختلاطها بطعامهم وشرابهم وبين فرشهم؟ حتى إنه كان إذا تكلم أحدهم وثبت في أفواههم فمنعته الكلام[٣].

---

(١) البداية والنهاية، (١/ ٢٦٥).

(٢) تفسير القرطبي، (٧/ ٢٧٠).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير، (٢/ ٢٤١)؛ وتفسير الطبري، (٩/ ٣٤ـ٣٦)؛ وانظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢٧٠، ٢٧١).

وقوله تعالى: ﴿ **والدَّم** ﴾ فأرسل الله عليهم الدم، فسال النيل عليهم دمًا عبيطًا[١] وكان المؤمنون منهم وبنو إسرائيل يغترفون منه الماء، والقبطي الدم[٢].

وتأمل ما في هذه الآية من العذاب، فحقًا إن كل آية أعظم من التي قبلها. فالماء الذي هو شريان الحياة وعمادها ولا يستطيع أن يستغني عنه أحد البتة أصبح دمًا عبيطًا نتنًا مليئًا بالأوبئة، وإن الناظر إلى الدم فقط تشمئز نفسه فكيف يكون حالهم وقد أصبح شرابهم ومغتسلهم؟

وقيل: المراد بالدم هنا الرعاف[٣] الذي سال من أنوفهم وهدد حياتهم، إذ إن كثرة الرعاف يؤدي بصاحبه إلى الهلاك. والله أعلم.

والغريب أنهم في كل آية يطلبون من موسى أن يسأل ربه أن يكشف عنهم العذاب، فإذا ما كشف الله عنهم ما حل بهم رجعوا إلى ما كانوا عليهم من التكذيب والكفر، والمتمعن في الآيات السابقة وعظمها والتعبير بقوله: ﴿ **فأرسلْنا** ﴾ أي: وجهنا إليهم، ويقصد منه الدفع بالعقوبة في قوة، والتنصيص بقوله: ﴿ **عليْهم** ﴾ أي: لا على غيرهم ممن خالطهم. كما أسلفت. ﴿ **الطُّوفان والْجراد والْقُمَّل والضَّفادع والدَّم** ﴾ وهي كما عبر عنها القرآن بـ ﴿ **آيات مُفصَّلات** ﴾ أي: واضحات لا يشك عاقل في كونها آيات إلهية، ومع ذلك لم يؤمنوا، بل في كل مرة ينكثون وعودهم لنبيهم، فالمتمعن في ذلك يستنتج ما يلي:

أولاً: تفريط أهل الباطل، واستكبارهم عن قبول الحق مع وضوح حجته، وعنادهم وإصرارهم على الكفر.

---

(١) الدم العبيط: أي الدم الطري. لسان العرب، (٧/ ٣٤٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤١) وتفسير الطبري (٩/ ٣٤-٣٦)، وانظ: تفسير القرطبي (٧/ ٢٧٠، ٢٧١).

(٣) انظر: البداية والنهاية، (١/ ٢٦٦)، والكشاف (٢/ ١٠٨).

ثانيا: حرص نبيهم ـ عليه السلام ـ على إيمانهم واجتهاده في الدعاء لهم مع تكرار نقضهم لعهودهم.

ثالثا: صبر نبيه ـ عليه السلام ـ عليهم وترفقه بهم، ومع ذلك لم يُجد ذلك معهم، وفي ذلك تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مما يلاقيه من قَومه، من إصرارهم على الكفر وإمعانهم فيه، وأيضًا فيه توجيه للدعاة إلى الله بأن لا يقنطوا ولا يسأموا من مواقف مَن يدعونهم وإن تكرر تكذيبهم ورفضهم للحق، وتحمل ما قد يصادفهم من مشاق ومتاعب.

رابعا: أن الله ـ عز وجل ـ تدرج بهم في الآيات التي ابتلاهم بها لعلهم يثوبون إلى رشدهم، ومع ذلك لم ينتبهوا من غفلتهم، ويؤيد فهمي هذا قوله تعالى: ﴿**وما نُريهم مِنْ آية إلاَّ هي أكْبرُ منْ أُخْتها وأخَذْناهُم بالْعَذاب لعَلَّهُمْ يرْجعُون (٤٨) وقالُوا يا أيُّها السَّاحرُ ادْعُ لنا ربَّك بما عهِد عندكَ إنَّنا لَمُهْتدُون (٤٩) فلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعذاب إذا هُمْ ينكُثُون**﴾[1].

خامسا: أن هذه الآيات لم يعرف أن الله عاقب بها أحدًا قبل فرعون ولا بعده، مما يدل على تناسبها بعناد وإصرار الذين عوقبوا بها على ما هم عليه من كفر واستكبار.

وقوله تعالى: ﴿**آيات مُفَصَّلات**﴾ قيل: أي آيات مبينات ظاهرات لا يشكل على عاقل من أنها من عند الله، وقيل: ﴿**مُفَصَّلات**﴾ أي: بين كل آية والآية الأخرى فترة من الزمن يمتحن فيه أحوالهم ويروي أنه كان بين كل آية ثمانية أيام، وقيل: أربعون، وقيل: شهر[2].

وقوله: ﴿**فاسْتكْبرُوا**﴾ أي: ترفعوا عن الإيمان بالله ـ تعالى ـ وأصروا على

---

(١) سورة الزخرف: الآيات من (٤٨) إلى (٥).

(٢) انظر: تفسير القرطبي، (٧/ ٢٧١).

كفرهم وضلالهم ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مُصرِّين على الجرم والذنب، فإنهم لم يبالوا بما جاءهم من الآيات الواضحات الظَاهرات وما سبقها من المعجزات الباهرات[1].

* * *

(١) انظر: تفسير الرازي، (١٤/ ٢١٨).

المبحث الثالث عشر
نبذهم العهد الذي عاهدوا به نبيهم

قال تعالى: ﴿ ولَمَّا وقع عليْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسى ادْعُ لنا ربَّكَ بِما عهِدَ عندكَ لئِن كشفْتَ عنَّا الرِّجْز لنُؤمننَّ لكَ ولنُرْسلنَّ معكَ بني إسْرائيل (١٣٤) فلَمَّا كشفْنا عنْهُمُ الرِّجْز إلىٰ أجلٍ هُم بالغُوهُ إذا هُمْ ينكُثُون ﴾[١].

قوله: ﴿ ولَمَّا وقع عليْهِمُ ﴾ أي: ولما حل بهم ونزل عليهم ﴿ الرِّجْزُ ﴾ قال أهل اللغة: الرجز بكسر الراء العذاب.

وقال أبو إسحاق: «ومعنى الرجز في القرآن هو العذاب المقلقل لشدته، وله قلقلة شديدة متتابعة»[٢].

قال تعالى: ﴿ فأنزلْنا علىٰ الَّذين ظلمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّماءِ بِما كانُوا يفْسُقُون ﴾[٣].

وقال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: «قال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب»[٤].

وقد فسر سعيد بن جبير الرجز بالطاعون[٥].

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٣٤، ١٣٥).

(٢) لسان العرب (٥/ ٣٥٢).

(٣) سورة البقرة: الآية (٥٩).

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٩٨).

(٥) الطاعون: قروح تخرج من الجسد فتكون في المَرَاقّ أو الآباط أو الأيدي أو الأصابع وسائر البدن، ويكون معه ورم وألم شديد، وتخرج تلك القروح مع لهيب ويسود ما حوله أو يخضر =

ويؤيد قوله هذا الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**الطاعون آية الرجز، ابتلى الله ـ عز وجل ـ به ناسا من عباده، فإذا سمعتم به فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تفروا منه**»[(١)].

وفي رواية أيضًا لمسلم عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ: «**إن هذا الطاعون رجز سلط على من كان قبلكم، أو على بني إسرائيل، فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فرارا منه، وإذا كان بأرض فلا تدخلوها**»[(٢)].

وقد روى سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ تفسير الرجز بالطاعون عن ابن عباس حبر الأمة ـ رضي الله عنهما ـ وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «لما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل» والرجز: الطاعون[(٣)].

فعَليه فالمفسرون اختلفوا في تفسير هذه الآية، والأكثرون على أن المراد بالرجز هنا في هذه الآية هو تلك الآيات التي عذبوا بها ـ والتي سبق توضيحها ـ والتي كانوا في كل مرة يعاهدون فيها نبيهم ـ عليه السلام ـ إن كشف الله عنهم ذلك العذاب يؤمنوا به، ويرسلوا معه بني إسرائيل، فلما دعا نبيهم ـ عليه السلام ـ ربه بكشف العذاب عنهم عادوا مرة أخرى، ونكثوا وعدهم، وكفروا بالله وقوله ـ

= أو يحمر حمرة بنفسجية كدرة، ويحصل معه خفقان للقلب مع الرغبة في القيء. ا. هـ.
انظر: شرح صحيح مسلم للإمام النووي، (١٤/ ٢٠٤).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، (١٤/ ٢٠٥).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، (١٤/ ٢٠٥).

(٣) تفسير السورة التي يذكر فيها الأعراف من تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٥٨) دراسة وتحقيق الزميل/ د. حمد بن أحمد بن أبي بكر.

تعالى ـ: ﴿ قالُوا يا مُوسى ادعُ لنا ربَّك بما عهد عندك ﴾ (ما) مصدرية، والمعنى: بعهده عندك وهو النبوة، وسميت النبوة عهداً لأن لها حقوقًا، وقد عهد الله ـ سبحانه وتعالى ـ إكرام الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بها، وعهدوا إليه تحمل أعبائها[١].

﴿ لئن كشفْت عنَا الرَجز ﴾ المراد إما تلك الآيات السابقة التي عذبوا بها، وإما آخرها وهو الدم، وإما الطاعون الذي سلط عليهم كما روي عن ابن عباس. ﴿ لنؤمننَ لك ولنرسلنَ معك بني إسرائيل ﴾ فقد ذهبوا إلى نبيهم ـ عليه السلام ـ يعاهدونه العهد المؤكد قائلين له: لئن كشفت عنا هذا الرجز لنؤمنن لك، ولنرسلن معك بني إسرائيل، وقد عاهدوه على الأمرين اللذين دعاهم موسى ـ عليه السلام ـ إليهما وكانوا يأبونهما كل الإباء:

الأمر الأول: إيمانهم واستسلامهم له ـ عليه الصلاة والسلام ـ وانصياعهم لكل ما يأمرهم به ربهم ـ سبحانه وتعالى ـ.

الأمر الثاني: هو إرسال بني إسرائيل معه إلي الأرض المقدسة التي نزحوا منها إلى مصر أصلاً مع جدهم يعقوب أبي الأسباط[٢] ـ عليه وعليهم السلام ـ[٣].

وكان الله قد أمر موسى ـ عليه السلام ـ بإخراج بني إسرائيل من مصر حتى يمكن تقويمهم وعودتهم إلي الدين الصحيح؛ إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ وإلى لزوم الأوامر التي ستأتيهم من ربهم في التوراة لأنهم بخلطتهم للمصريين قد اكتسبوا جُلّ عاداتهم إن لم تكن كلها، فضلاً عن الذل الذي لحقهم على يد

---

(١) انظر: تفسير الألوسي (٩/ ٣٦).

(٢) الأسباط: هم أبناء يعقوب الاثنى عشر؛ يوسف وإخوته ـ عليهم السلام ـ والموضوع فيه خلاف. وبنو إسرائيل الذين كانوا في عهد موسى هم أحفاد يعقوب المسمى في القرآن تارة بيعقوب وتارة بإسرائيل، أي: عبد الله.

(٣) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، (١/ ٣٢٠، ٣٦١).

فرعون واستخدامهم في أشق الأعمال مثل ضرب اللّبن، ونحت الطوب، ونقل التراب والحجارة وحمل الماء، وفي أمور الزراعة والفلاحة[١] وهم سلالة الأنبياء الكرام: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط من بعدهم، ويوسف ـ عليه السلام ـ فمهمتهم الحقيقية إذن هي نشر التوحيد، وهداية الخلق إلى الله ـ عز وجل ـ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لا الاشتغال بالبناء والفلاحة وما شابهها مما كان يستخدمهم فيه فرعون، ولذلك قال فرعون وقومه لموسى ـ عليه السلام ـ تلك المقالة التي ذكرتها هذه الآية، والتي أسلفت بيانها: ﴿ **ولنرسلنَ معك بني إسْرائيل** ﴾.

ولقد دعا موسى ـ عليه السلام ـ ربه عز وجل بدليل قوله تعالى: ﴿ **فلمَا كشفْنا عنهُم الرّجْز** ﴾ فما كان فرعون وقومه ليُكشف عنهم العذاب بمجرد ما قطعوه على أنفسهم من العهد لأنه عهد مشروط بكشف العذاب، والإيمان المشروط لا وزن له، ولو كانوا راغبين في الإيمان حقًا للجأوا إلى موسى ـ عليه السلام ـ مؤمنين بلا شرط حتى إذا ما ماتوا على هذا الإيمان نفعهم عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ ودل على رغبتهم الحقيقية فيه، فكشف العذاب إذن كان لدعاء موسى ـ عليه السلام ـ وألفت النظر إلى معنيين جليلين في هذه الآية:

أولهما: قوله تعالى: ﴿ **ولَما وقع عليْهمُ الرّجْزُ** ﴾ فمعنى ذلك أن الذي ألجأهم إلى موسى ـ عليه السلام ـ هو تمكن العذاب منهم، ولولا ذلك ما أصغوا إليه، لا سيما وقد قالوا له ـ عليه السلام ـ ما حكاه الله عنهم قبل ذلك: ﴿ **وقالُوا مهْما تأْتنا به منْ آيةٍ لتسْحرنا بها فما نحْنُ لك بمؤْمنين** ﴾[٢] وكل ذلك يدل على غاية عنادهم وتعصبهم لباطلهم.

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٢٠)، وتفسير الرازي (١٤/ ١٩٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣٢).

والمعنى الثاني: أن العذاب الذي حل بهم ما كان في مقدور أحد من الخلق أن يرفعه عنهم مهما أوتي من القوة، ولتجلية هذا الذي أقرره نجد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يستخدم نون العظمة المنبئة عن قدرة لا تدانيها أية قدرة ﴿ **فلمَّا كشفْنا عنهُم العذاب** ﴾ وكان كشف العذاب عنهم لبلوغ الأجل الذي قدر الله أن يعيشوا إليه قبل أن يخلقهم، ولولا ذلك ما كشفه عنهم.

قال تعالى: ﴿ **فلمَّا كشفْنا عنْهُمُ الرِّجْز إلىٰ أجلٍ هُم بالغُوهُ** ﴾ وقد ناط الله بهم أشياء لابد أن يفعلوها لأن الله قدر أن تقع منهم كالزراعة، والتجارة، وسائر الشئون التي ربطها الله بالعبد، وهذا يشعر بأنهم لن يؤمنوا إلا إذا رأوا العذاب الأليم، وهو الهلاك الدنيوي الذي يتلوه الموت الذي لا ينفع عنده إيمان.

وقد دعا عليهم نبيهم بذلك كما حكاه الله في سورة يونس ـ عليه السلام ـ: ﴿ **وقال مُوسىٰ ربَّنا إنَّك آتيت فرْعون وملأهُ زينةً وأموالاً في الْحياة الدُّنْيا ربَّنا ليُضلُّوا عن سبيلك ربَّنا اطْمس علىٰ أمْوالهم واشْدُدْ علىٰ قُلُوبهمْ فلا يُؤْمنُوا حتَّىٰ يروُا العذاب الأليم** ﴾[1].

أي: الذي لا ينفع عنده إيمان، ولذا كان جواب لما في هذه الآية ﴿ **فلمَّا كشفْنا عنْهُمُ الرِّجْز إلىٰ أجلٍ هُم بالغُوهُ إذا هُمْ ينكُثُون** ﴾ جملة مُصدَّرة بـ ﴿ **إذا** ﴾ الفجائية، مصرحة بنكثهم واستمرارهم عليه بلا تذكر لما قطعوه على أنفسهم من قبل، وبلا روية وتريث بين النكث وكشف العذاب عنهم ﴿ **إذا هُمْ ينكُثُون** ﴾ أي: أسرعوا إلى النكث إسراعًا، وفاجأوا به مفاجأة، ولذا لم يمهلهم الله طويلاً بعد هذا النكث، بل عجل بنكبتهم بما قصه الله علينا في قوله تعالى: ﴿ **فانتقمْنا منْهُمْ فأغْرقْناهُمْ في اليمِّ** ﴾.

قال النسفي: «﴿ **فلمَّا كشفْنا عنْهُمُ الرِّجْزَ إلىٰ أجَلٍ هُم بالغُوهُ** ﴾ أي: إلى حد

---

(١) سورة يونس: الآية (٨٨).

من الزمان هم بالغوه لا محالة فمعذبون فيه، لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلوله ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ جواب ﴿لَمَّا﴾ فلما كشفنا عنهم أي: العذاب أو الطاعون ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي: إذا هم يفاجئون بالنكث وذلك برجوعهم إلى الكفر»[1].

* * *

(١) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٧٣)، وتفسير الكشاف (٢/ ١٠٩).

المبحث الرابع عشر
عاقبة الصراع ونهاية فرعون وقومه

قال تعالى: ﴿ فانتقمْنا منهمْ فأغْرقْناهُمْ في اليمِ بأنَّهُمْ كذَّبُوا بآياتنا وكانُوا عنْها غافلين ﴾[1].

قوله: ﴿ فانتقمْنا ﴾: فـ (الفاء) الدالة على التعقيب أبانت سرعة حلول هذا العذاب بهم عقب النكث، وقد استخدم القرآن الكريم في هذه الآية أسلوبًا مشوقًا لطيفًا يرغب السامع في الحرص على تفاصيل ما حل بهم من العقاب؛ حيث أخبر ـ تعالى ـ أولاً بوقوع انتقامه ـ تعالى ـ منهم دون أن يبين نوع الانتقام، ناهيك عن إسناد الانتقام إليه مما يدل على شدة هذا الانتقام، وبعد أن بلغت النفوس غايتها في الشوق للتعرف عليه عَجّل لها ببيان نوعه فقال: ﴿ فأغْرقْناهُمْ في اليمِ ﴾ وقد أسند هذا الإغراق إليه لأن النجاة منه كانت غير ممكنة، ولأنه تم بصورة مفاجئة معجزة.

وقوله: ﴿ فأغْرقْناهُمْ في اليمِ ﴾ ولابد أن أقف وقفة لإلقاء الضوء على الأحداث التي صاحبت هذه الحادثة المحتمة لفرعون وقومه، الذين استكبروا عن اتباع الحق رغم وضوحه، فضلاً عن البينات والآيات المؤيدة له، لكنهم أصروا على الباطل رغم زيفه وبطلانه. ولما كانت سورة الأعراف ـ التي هي صميم الدراسة ـ لم تفصل أحداث هذه النهاية إلا أن القرآن الكريم قد تعرض بشيء من التفصيل لتلك الأحداث في سور أخرى كسورة يونس، وطه، والشعراء، والدخان . . .

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٦).

ومعلوم أن القرآن الكريم وحدة متكاملة يكمل بعضه بعضا، فما أجمل ذكره في موضع فصله في موضع آخر، ولما كان توضيح هذه النهاية وتفصيلها أحد الأسس الرئيسية المهمة التي انْبنَت عليها هذه الرسالة، وهي عاقبة الصراع ونهاية أهل الباطل رغم ما يملكونه من النفوذ والقوى بمختلف أشكالها وصورها، لذلك فقد رأيت أن استعرض الآيات الواردة في سورة الشعراء حول نهاية فرعون وغرقه، لشمولها لمعظم تلك الأحداث، وأفصل القول فيها، والاستشهاد فقط إن لزم الأمر بآيات سور يونس وطه والدخان.

أقول ـ وبالله التوفيق والسداد ـ: لقد تمادى فرعون وقومه في ظلمهم وعنادهم رغم الآيات المتوالية التي ابتلاهم الله بها، ورغم وعودهم المؤكدة بأن يؤمنوا بموسى ـ عليه السلام ـ وإرسال بني إسرائيل معه إلا أنهم عاودوا النكث ـ كما أسلفت ـ فعندئذ لم يبقَ لهم إلا العذاب والنكال، فأوحى الله ـ جل وعلا ـ إلى نبيه ـ عليه السلام ـ أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً دون أن يعلم أحد من الأقباط بذلك، وأن يمضي بهم حيث يؤمر، وهذا هو ما يفهم من سياق القرآن الكريم عند قوله: ﴿ **وأوْحينا إلىٰ موسىٰ أنْ أسْرِ بعبادي إنَكُم متَبعُون** ﴾[1].

ورغم أن السرى معناه المشي ليلاً إلا أن الله ـ تعالى ـ نص على الليل كما في قوله تعالى: ﴿ **فأسْرِ بعبادي ليلا إنَكُم مُتَبعُون** ﴾[2] لئلا ينازع فيه بنو إسرائيل متذرعين بالخوف والجهل بالمسالك، فبنوا إسرائيل وإن كانوا من سلالة الأنبياء إلا أنك سترى لهم عما قريب من العناد والكفر بعد ما رأوا الآيات البينات ما هو قبيح بشأنهم، وقد علل القرآن ذلك الاختيار بقوله: ﴿ **إنَكُم مُتَبعُون** ﴾ أي: من عدوكم فرعون وجنده، والليل من أعظم الحواجز التي يمكن أن يضلل به العدو عن مقصده. ولا يزال القتال الليلي في الحروب الحديثة مع تقدم الوسائل الحربية

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٥٢).

(٢) سورة الدخان: الآية (٢٣).

غاية في الصعوبة، ولا شك في أن الله ـ تعالى ـ قد رسم لنبيه موسى ـ عليه السلام ـ كيفية مسراه والجهة التي يقصدها، والقرآن الكريم لم يتعرض للجهة المقصودة رأسًا؛ لأنها تفاصيل تخرج عن غرض القصة في القرآن من ناحية، إذ إن معرفة الجهة وتفصيل السير إليها ليس بالأهمية التي تستدعي أن ينزل بها وحي، فضلاً عن أنك ستعرفها من خلال مشاهد ستمر بك، وهذا من إعجاز القرآن المعجز؛ فهو كثيرًا ما يستغني بالإشارة عن كثرة العبارة، وبالكلمة عن القصة.

فعندما بلغ فرعون خبر خروجهم غاظه ذلك، وظن أنهم خرجوا ليجمعوا شملهم، ويستكملوا قوتهم ليعودوا إلى مهاجمته[١] واشتد غضبه على بني إسرائيل، وأمر في الحال بأن ينادي في مدائن مصر المشهورة.

قال تعالى: ﴿ **فأرْسل فرْعونُ في الْمدائن حاشرين** ﴾[٢] وقد ضاق فرعون صدرًا بموسى وبني إسرائيل، ورغب في التخلص منهم بقتلهم والقضاء عليهم لئلا يتعرض في ظنه إلى نوع من أنواع العذاب الذي سلط عليهم فيما مضى، فإن ذلك العذاب ما كان يأتيهم إلا بمخالفتهم موسى ـ عليه السلام ـ وكلمة ﴿ **حاشرين** ﴾ توحي لك بإكراه فرعون المحشورين على مشاركته فيما يريد فعله[٣] لأن معجزات موسى ـ عليه السلام ـ والنقم التي عوقب بها المصريون بسبب مخالفتهم له قد هزت قلوبهم جميعًا، وقلقلت مكانة فرعون عندهم، فأراد بهذا الفعل أن يبرهن على أنه هو المطاع طاعة مطلقة، وأن أحدًا من المصريين ـ باستثناء السحرة ومن آمن منهم ـ لم يشك في سلطانه، ولم يتأثر بما حدث، ثم قال فرعون لجنوده المحشورين ما قاله الله ـ تعالى ـ: ﴿ **إنَّ هؤُلاءِ** ﴾ يعني بني إسرائيل

---

(١) النجار، محمد الطيب. تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية. (الرياض: مكتبة المعارف، ص ٢٠٨).

(٢) سورة الشعراء: الآية (٥٣).

(٣) انظر: تفسير النسفي، (٣/ ١٨٤).

﴿ لشرْذمةٌ ﴾ أي: جماعة قليلة، ثم بالغ في هذا التفصيل ﴿ قليلُون ﴾[١] ومراده بهذا القول أن ينزل من صدور جنوده الاستشعار بخطر القوم والتخوف من أن يصيبهم منهم أو بسببهم مكروه.

قال النسفي: «﴿ إنَ هؤُلاء لشرْذمةٌ قليلُون ﴾: والشرذمة: الطائفة القليلة، وذكرهم بالاسم الدال على القلة، ثم جعلهم قليلاً بالوصف، ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً واختار جمع السلامة الذي هو للقلة، أو أراد بالقلة الذلة لا قلة العدد أي: إنهم لقلتهم لا يُبالى بهم ولا تُتَوقع غلبتهم»[٢].

﴿ وإنَهُمْ لنا لغائظُون ﴾[٣] لما يأتينا بسببهم مما قد يوحي بعجزنا أمامهم، وهذا أسلوب تحريض قصد به إيغار صدور جنوده على بني إسرائيل، ومحاولة تجنيبهم التفكير في ما يمكن أن يلحقهم من عذاب إلهي بدعوة موسى ـ عليه السلام ـ عليهم وكأن فرعون يقول لقومه: ليس خروجكم بهذه الكثافة وحشركم من كل مدينة لخوف من قوة بني إسرائيل بل لأننا قوم ﴿ حاذرُون ﴾ أي: يقظون مجددون حذرنا باستمرار، لا نسمح أن نُؤخذ على غرة، وفي ذلك من الكبر والغرور ما لا يخفى ﴿ وإنَا لجميعٌ حاذرُون ﴾[٤].

وقد ذكر الله لنا ـ نحن المخاطبين من أمة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم مقدمة نهايتهم، وهي إخراج فرعون وجنده من بلدة ذات جنات وعيون، وأنهار جارية وكنوز وأموال كثيرة لا حصر لها، ومقام كريم، وعيش رغيد بهيج، ليعلمنا ـ تعالى ـ بذلك أن زوال النعم سببه الكفر وعدم الشكر، وأن فرعون وجنده ما كان لهم أن يخرجوا مما هم فيه من نعمة لمعركة ليسوا مضطرين إليها إلا

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٥٤).

(٢) تفسير النسفي، (٣/ ١٨٤، ١٨٥).

(٣) سورة الشعراء: الآية (٥٥).

(٤) سورة الشعراء: الآية (٥٦).

بتدبير من الله ـ تعالى ـ مما يدل على أن الحذر مع الكفر والمعاصي وشدة الاحتياط لا ينفعان فاعلهما شيئًا.

قال تعالى: ﴿ **فأخرجناهم من جنات وعيون (٥٧) وكنوز ومقام كريم** ﴾[١] وقال تعالى في سورة الدخان: ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون (٢٥) وزروع ومقام كريم (٢٦) ونعمة كانوا فيها فاكهين (٢٧) كذلك وأورثناها قوما آخرين** ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ **كذلك وأورثناها بني إسرائيل** ﴾[٣] أي: ملكناهم لهم تمليك الإرث[٤] والإيراث لا يكون إلا بعد زوال المالك الأصلي، وهو فرعون وقومه، أي بعد غرقهم. وعليه فالواو لمطلق الجمع، فلا تقتضي تعقيبًا.

ولقد اختلف المفسرون في زمن هذا الإيراث؛ فقد نقل الألوسي عن الواحدي أن الله ـ تعالى ـ رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه، فأعطاهم جميع ما كان لقوم فرعون من الأموال والعقار والمساكن.

وقد عقب عليه الألوسي بقوله: «وما ذكر عن الواحدي من أن الله ـ تعالي ـ رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه ظاهره وقوع ذلك من غير تطاول مدة»[٥]. ثم قال الألوسي: «وأظهر منه في هذا ما روي عن الحسن قال: لما عبروا البحر رجعوا، وورثوا ديارهم وأموالهم. ورأيت في بعض الكتب أنهم رجعوا مع موسى ـ عليه السلام ـ وبقوا معه في مصر عشر سنين، وقيل: إنه رجع بعضهم بعد إغراق فرعون، وهم الذين أورثوا أموال القبط وذهب الباقون إلى أرض الشام، وقيل: إنهم بعد أن جاوزوا البحر ذهبوا إلى الشام ولم يدخلوا مصر في حياة موسى ـ عليه السلام ـ وملكوها زمن سليمان ـ عليه السلام ـ.

(١) سورة الشعراء: الآيتان (٥٧، ٥٨).
(٢) سورة الدخان: الآيات من (٢٥) إلى (٢٨).
(٣) سورة الشعراء: الآية (٥٩).
(٤) تفسير الألوسي، (١٩/ ٨٣).
(٥) تفسير الألوسي، (١٩/ ٨٣).

والمذكور في التوراة التي بأيدي اليهود اليوم صريح في أنهم بعد أن جاوزوا البحر توجهوا إلى أرض الشام . . . »[١].

قلت: وهناك وجه آخر في تفسير هذه الآية ﴿ **كذلك وأورثناها بني إسرائيل** ﴾ وهو أن الضمير في قوله: ﴿ **وأورثناها** ﴾ لا يعود على الجنات والعيون والكنوز التي في الآية بل أورثهم جنات وعيون وكنوز ومقام كريم عوضًا عنها حلت محل تلك الكنوز، ففي الأرض التي بارك الله فيها ـ الأرض المقدسة ـ جنات وعيون وكنوز ومقام كريم، بل ربما فاقت ما في مصر[٢].

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «ولا يُعرف أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة، وورثوا ملك مصر وكنوز فرعون ومقامه لذلك يقول المفسرون: إنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه، فهي وراثة لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم»[٣].

قلت: المسألة خلافية بين أهل التفسير، وسأعود لتوضيح هذا الخلاف، وأرجح ما أميل إليه عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها** ﴾[٤] . . . الآية.

وهذا في القرآن له نظائر مثل قوله تعالى: ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** ﴾ وهو آدم ـ عليه السلام ـ ﴿ **ثم جعلناه نطفة في قرار مكين** ﴾[٥] فالضمير في ﴿ **جعلناه** ﴾ لا يعود على آدم ـ عليه السلام ـ بل يعود على جنس الإنسان باستثناء آدم ـ عليه السلام ـ.

---

(١) تفسير الألوسي، (١٩/ ٨٣، ٨٤).

(٢) انظر: تفسير سورة الأعراف. د/ محمد البهي.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب، (٦/ ٢١٢).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٣٧) وانظر من ص (٤٨٤) إلى ص (٤٩٢) من بحثنا هذا.

(٥) سورة المؤمنون: الآية (١٣).

ونعود إلى تكملة تفسير آيات سورة الشعراء، وبيان نهاية فرعون وجنوده، ولما علم فرعون بخروج بني إسرائيل أتبعهم بجنوده قاصدًا أثرهم لئلا يفوتوه، وقد نص الله على وقت لحوقهم وهو وقت الإشراق - كما هو وارد في أحد الأقوال في معنى ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ - لبيان أن هذا الوقت لا تصلح فيه المعاصي وإنما المطلوب فيه التسبيح للواحد الأحد، الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، لكن فرعون وقومه من أهل الطغيان، لا من أهل الاعتبار فهم لا يفطنون لهذا المعنى، وكيف وقد كذبوا نبيهم - عليه الصلاة والسلام -؟

قال تعالى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾[1] أي: فلحق فرعون وجنوده ببني إسرائيل وقت إشراق الشمس فقوله: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ أي: لحقوهم، يقال: تبعت القوم فأتبعتهم، أي: تلوتهم فلحقتهم، كأن المعنى: فجعلتهم تابعين لي بعد ما كنت تابعًا لهم، مبالغة في اللحوق.

وقال أبو عبيدة: «هو من أشرق: توجه نحو الشروق، كأنجد: توجه نحو نجد، وأعرق: توجه نحو العراق. والجمهور على الأول»[2] ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ أي: تقاربا بحيث يرى كل واحد منهما صاحبه والجمعان هما القبط وبنو إسرائيل.

﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾[3] أي: بفرعون وجنوده وواقعون في قبضتهم إذ هم من خلفنا والبحر من أمامنا، فكيف، النجا؟ وهذا من بني إسرائيل يدل على ضعف يقينهم، وتزعزع إيمانهم، وأنهم لم يكونوا راغبين في الخروج مع موسى - عليه السلام -. إذ غاية ما يصيبهم لو وقعوا في قبضة فرعون الموت

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٦٠).

(٢) تفسير الألوسي، (١٩/ ٨٤)؛ وانظر: تفسير الرازي، (٢٤/ ١٣٨)؛ وانظر: ابن كثير (٣/ ٣٣٦)؛ وانظر: تفسير النسفي (٣/ ١٨٥).

(٣) سورة الشعراء: الآية (٦١).

والهلاك، وقد أنزله بأبنائهم مرارًا. فأي طعم للحياة بعد تقتيل الأبناء أمام الأعين؟ وأي ضرر عليهم في الموت لو ماتوا في مواجهة فرعون وجنده؟ إنهم حينئذ شهداء أحياء عند ربهم يرزقون. فأي الحياتين أولى: عند فرعون الجبار، أم عند العزيز الغفار؟

وقد استوحيت ذلك كله من قوله تعالى: ﴿ **قال أصحاب موسى** ﴾ فالإضافة في نظري تعني أن ما قالوه بعد ما عاينوا من نقم الله المنصبة على المصريين سابقًا ما كان يصح أن يصدر عنهم. فإن الله الذي أرسل على القبط الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطاعون ـ على قول من فسر الرجز بالطاعون ـ لهو قادر على إنجائهم رغم عدم تصورهم له بالسبل العادية، ولذا رد عليهم موسى ـ عليه السلام ـ ردًا فيه شدة وحدة وردع وزجر ﴿ **قال كلا** ﴾ أي: ارتدعوا عن ذلك القول ولا تعيدوه.

﴿ **إن معي ربي سيهدين** ﴾[1] ولم يقل معي ومعكم لأنهم بقولهم السالف لم يكونوا أهلاً للمعية[2].

وقوله: ﴿ **سيهدين** ﴾ أي: حالاً وعاجلاً إلى نجاتي ونجاتكم تبعًا لي مع أنكم لا تستحقونها، وقوله: ﴿ **فأوحينا إلى موسى** ﴾ أي: في هذه اللحظة الحرجة ﴿ **أن اضرب بعصاك البحر** ﴾ ﴿ **أن** ﴾ مفسرة إن جُعل الوحي بمعنى القول، أو مخففة من الثقيلة إن جعل الوحي بمعنى الإلهام، والمراد بقوله ﴿ **البحر** ﴾ أي: بحر القلزم[3] ـ المعروف حاليًا بالبحر الأحمر ـ، ولعله خليج السويس ـ فضرب موسى ـ عليه السلام ـ بعصاه البحر ﴿ **فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم** ﴾[4]

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٦٢).

(٢) انظر: تفسير الألوسي (١٩/ ٨٥).

(٣) انظر: تفسير الألوسي، (١٩/ ٨٥)، وانظر: في ظلال القرآن، (٦/ ٢١١).

(٤) سورة الشعراء: الآية (٦٣).

فانفلق البحر طرقًا يابسة جامدة أرضًا طبيعية كأنها كذلك من ملايين السنين، والبحر على جانبي هذه الطرق ليطمئن بنو إسرائيل على اجتيازه بأمان، ولئلا يخالفوا نبيهم عندما يأمرهم باجتيازه، وحتى لا يزاحم بعضهم بعضًا في الاجتياز فإنها ولا شك لحظة رهيبة، قال الراغب الأصفهاني: «الفرق يقارب الفلق، لكن الفلق يقال اعتبارًا بالانشقاق، والفرق يقال اعتبارًا بالانفصال»[١].

وقال صاحب لسان العرب: «والفرق من الشيء إذا انفلق منه، ومنه قوله تعالى: ﴿ **فانفلق فكان كُلُّ فرقٍ كالطَّوْدِ الْعظيم** ﴾ أراد: فانفرق البحر، فصار كالجبال العظام، وصاروا في قراره»[٢] وقوله: ﴿ **كالطَّوْدِ الْعظيم** ﴾ أي: كالجبل البالغ الشموخ في عنان السماء فكان كل فرق كالطود العظيم، وإنما فعل الله ذلك ليستوثق بنو إسرائيل من هذه الطرق فلا يخافوا من الاجتياز فهم أحرص على حياة، وليغري فرعون وجنوده بملاحقتهم والاطمئنان إلى الظفر بهم حتى يهلكوا عن آخرهم عندما يعود البحر إلى سيرته الأولى وينجو بنو إسرائيل.

ولذا قال تعالى: ﴿ **وأزلفنا ثمَّ الآخرين** ﴾[٣] أي: قربنا فرعون وجنوده إلى البحر المحول ليحيط بهم عن آخرهم ﴿ **وأنجينا موسىٰ ومن معهُ أجمعين** ﴾[٤] من بني إسرائيل، ومن خرج معه من المؤمنين المصريين، وقد طمأن الله قلب نبيه موسى - عليه السلام - بما قصه في سورة طه: ﴿ **لاَّ تخافُ دركًا ولا تخْشى** ﴾[٥] أي: لا تخاف أن يدركك عدوك، ولا تخشى أن ينالك الغرق. وانظر إلى هذه المعجزة العظيمة التي كانت كفيلة برد فرعون وجنده عن طغياهم ومع ذلك لم يستفيدوا منها لأن طرق الحق إلى بصائرهم قد طمست.

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، ص (٣٧٧).

(٢) لسان العرب، (١٠/ ٣٠٠).

(٣) سورة الشعراء: الآية (٦٤).

(٤) سورة الشعراء: (٦٥).

(٥) سورة طه: الآية (٧٧).

هذا وقد أراد موسى ـ عليه السلام ـ بعد مرور قومه أن يضرب البحر بعصاه ليعود كما كان فأمره ـ تعالى ـ أن يتركه ساكنًا على هيئته قال تعالى: ﴿ **واتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا** ﴾ أي: ساكنًا على هيئته لا تغيِّره عن هذه الصفة ﴿ **إِنَّهُمْ جُندٌ مُغْرَقُونَ** ﴾ قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ بعد تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **واتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُغْرَقُونَ** ﴾[1]: «فلما تركه على هيئته وحالته، وانتهى فرعون، فرأى ما رأى وعاين ما عاين، هاله هذا المنظر العظيم، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدم، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم، لكنه أظهر لجنده تجليدًا، وعاملهم معاملة العدا، وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه وعلى باطله تابعوه: انظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين من يدي الخارجين على طاعتي وبلدي، وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم، ويرجو أن ينجو ـ وهيهات ـ ويقدم تارة، ويحجم تارات»[2].

ثم إنه عزم على اللحاق بموسى وقومه، فنزلوا البحر ليلحقوا بهم حتي إذا تم نزولهم جاء أمر الله فانطبق البحر عليهم، وداهمتهم أمواجه العالية، وحق عليهم الغرق، وكانوا من الهالكين، وحينئذ صاح فرعون يلتمس النجاة من شدة الهول الذي أحاط به كما قصه الله ـ سبحانه ـ. ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[3].

وقوله الذي حكاه الله عنه يحتمل أنه أراد به أن ينجو من الغرق كما تعود من قبل على النجاة من الطوفان وما تلاه من الآيات التي سبق تفصيلها فنجاته حينئذ

---

(١) سورة الدخان: الآية (٢٤).

(٢) قصص الأنبياء للحافظ ابن كثير (٢/ ٨٠).

(٣) سورة يونس: الآية (٩٠).

بالإقرار بما جاد به موسى ـ عليه السلام ـ أولى في نظره لتحصيل النجاة له.

ويحتمل أنه قال ذلك ليكون من الناجين في الآخرة عند ربه بعد ما ذهب عنه ملكه وسلطانه فلا يخسر الآخرة كما خسر الدنيا. والاحتمال الثاني أرجح في نظري لقوله تعالى: ﴿ **وأنا من المسلمين** ﴾ وقد بيَّن الله له أن قوله هذا لا ينفعه في هذه اللحظة في العودة إلى الدنيا، لأن أجله قد انقضى ﴿ **ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها** ﴾[1] كما أنه لا ينفعه في الآخرة لأنه قاله بعد ما حضره الموت، فلم يقله اختياراً بل اضطراراً، والإيمان الاضطراري لا يقبل من صاحبه، قال تعالى: ﴿ **آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين** ﴾ والمعنى: أتؤمن الآن وفي وقت لا ينفع فيه الإيمان؟! وقد فاتك عقلك وقت أن كنت تأتي المعصية ولا تستحي قبل أن يحل عليك الغرق، وكنت إمامًا للمفسدين في الأرض بتكذيب آياتي ورسلي وما كان يصدر منك من طغيان بلغ إلى حد ادعائك الربوية[2] فوضعك ماضيًا وحالا يحول بينك وبين رحمتنا، فكيف ترجوها بعد أن فوّتَّ على نفسك أسبابها؟

ثم بين تعالى صنعه بفرعون من بين سائر المغرقين معه ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك** ﴾ أي: نلقي بك بعدوة من الأرض بدنًا لا روح فيه ليعلم من عبدوك ومن أضللتهم حقارتك وضعفك، أو ببدنك سليمًا لم يأكل منه السمك ولم تحطمه الأمواج ليعلم من رآك أنك أنت بعينك فلا يشك فيما نزل بك وأنك من الهالكين، وقيل: ببدنك، أي: بدرعك. وتعليل ذلك هو نفس التعليل السابق[3].

---

(١) سورة المنافقون: الآية (١١).

(٢) فقد قصَّ القرآن الكريم قوله: ﴿ **ما علمت لكم من إله غيري** ﴾ سورة القصص: الآية (٣٨). وهو الذي كان يحشر قومه وينادي بهم بقوله: ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ سورة النازعات: الآية (٢٤).

(٣) انظر: تفسير السمعاني، (٢/ ١٧٥).

وقد فعل الله به ذلك ليكون آية لمن خلفه، قيل: هم بنو إسرائيل، فإنهم تشككوا في قول نبيهم له إنه غرق، فألقى الله به على الشاطيء الذي يليهم ليعاينوا ذلك بأنفسهم فيزول عنهم الشك، أو ﴿ **لمن خلفك** ﴾ أي: لمن بعدك من القرون الآتية لعلهم يرتدعون بما فعل بك[١].

أو ﴿ **لمن خلفك** ﴾ أي: للمصريين الذين لم يخرجوا معك، ليعلموا نهايتك، وليستشعروا المنة في تجنبهم ما نزل بك. وقلبي يميل إلى هذا الرأي والذي قبله خصوصًا إذا عرفنا براعة المصريين في فن التحنيط الذي يؤدي إلى بقاء الأجساد آلاف السنين كما نشاهده الآن.

قال تعالى: ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية** ﴾ أي: آية دالة على عقاب الله للمكذبين وشديد انتقامه منهم، كما قال تعالى: ﴿ **ولقد جاء آل فرعون النذر (٤١) كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر** ﴾[٢].

فكان ولا يزال عبرة على مر الليالي، ليعرف الناس جميعًا أن الباطل ليس له قرار، وأن الملك والعباد دائمًا لله الواحد القهار.

وكل ما فصلته في هذه النهاية هو الموجز المجمل في سورة الأعراف موضوع بحثي في قوله تعالى: ﴿ **فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** ﴾[٣].

* * *

(١) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ١٧٥).

(٢) سورة القمر: الآيتان (٤١، ٤٢).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٣٦).

المبحث الخامس عشر
منة الله ـ تعالى ـ على بني إسرائيل بتمكينهم من الأرض المباركة ـ بلاد الشام أو أرض مصر على ما قيل ـ

قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾[1].

فقوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ ﴾ أي: ملكناهم الأرض ومكناهم منها بقدرتنا، حيث قهرنا لهم أعداءهم بإغراق فرعون وجنوده في اليم، ونصرناهم على الجبارين في أرض الشام، الذين طغوا فيها وطمسوا معالم التوحيد الذي أظهره الله في هذه الأرض على لسان إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ عليهم السلام ـ.

والإرث والإيراث: هو صيرورة الشيء إليك ملكًا بعد أن كان مملوكًا لغيرك إما بموت المورث، أو بالغلبة على المالك ونزع ما بيده[2].

وعَنْوَ لبني إسرائيل بكلمة ﴿ الْقَوْمَ ﴾ التي معناها الجماعة[3] الزائدة عن النفر والرهط التي تعني القلة والكثرة على السواء، لبيان لطفه ـ تعالى ـ بهم حيث غير حالهم من المذلة والمهانة إلى رفعة المكانة.

ولقد كان بنو إسرائيل بمصر كثيري العدد، ولكن تأثرهم بالمصريين

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٧).

(٢) انظر: لسان العرب (٢/ ١٩٩ ـ ٢٠١).

(٣) انظر: لسان العرب (١٢/ ٥٠٥).

وعوائدهم أفقدهم مكانتهم ومكن لعدوهم منهم، ولو كانوا على الجادة ما نكبوا على يد فرعون بما نكبوا به، ولو لزموا دين آبائهم؛ لأثّروا في غيرهم ولكانوا هم السادة، ولكن اليهود في كل عصر ينكبون بتركهم التوحيد، وخروجهم على شرائع الله ـ تعالى ـ فتلزمهم المهانة والخسة، ويستعبدهم غيرهم، ولقد أمهلهم الله كثيرًا، فكلما نكبوا رحمهم وتاب عليهم، ورد لهم قوتهم ومكن لهم من أعدائهم، فلما علم الله أنه لا خير فيهم، وأنهم لا يعتبرون بما ضيهم ضرب عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله؛ لأنهم كانوا يكفرون بآيات الله دائمًا، ويقتلون النبيين بغير الحق، ولا يمكن أن يكون قتل نبي بحق.

والتاريخ يعيد نفسه فها هم الآن يعيثون في أرض فلسطين فسادًا، فبدلاً من أن يدخلوا في عداد الموحدين، ويؤمنوا بخاتم النبيين، استبدلوا ذلك بالإفساد في الأرض، والاجتهاد في الفسوق، والكفر بسائر الأنبياء، وقاصمتهم آتيةٌ لا محالة إن عاجلاً أو آجلاً؛ فقد توعدهم الله ـ جل وعلا ـ بذلك حيث قال مخاطبًا حبيبه ونبيه، ومسليًا قلبه مما سوف يحصل لليهود على يد أمته فقال: ﴿ **وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلىٰ يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب** ﴾[1] فهم أشبه بإبليس، هيهات أن يتوب الله عليهم كأمة، وإن آمن بالإسلام قليل منهم، قال تعالى: ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون** ﴾[2].

وكلمة ﴿ **القوم** ﴾ ـ في نظري ـ توحي بأنهم ما كانوا ليغلبوا بفرعون لو لزموا التوحيد، ومعنى ﴿ **يستضعفون** ﴾ أي: يستذلون ويهانون على يد فرعون بالعذاب الشديد الذي تكرر ذكره مرارًا في القرآن، والذي ذكر الله به اليهود في عهد النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ليعلموا أن سلامتهم في اتباع هذه النبي

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦٧).

(٢) سورة البقرة: الآية (٧٥).

العظيم كما كانت سلامتهم في اتباع الكليم، من قبل - صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا أفضلهما وأتمهما - ولكنهم لم يعتبروا بذلك ﴿ **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾[١].

ومن الطريف أنهم لما رغبوا في عبادة الأصنام في عهد نبيهم موسى - عليه السلام - وعظهم بهذه الموعظة التي ستأتيك عند التعرض لهذا الموضوع[٢].

وقوله تعالى: ﴿ **مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها** ﴾ أي: مكناهم منها، وقد اختلف المفسرون في الأرض التي ورثوها، وسألخص هذا الخلاف مرجحًا ما غلب على قلبي أنه الصواب. والله الموفق وهو الفتاح العليم.

يرى كثير من المفسرين أن المراد بالأرض التي مكنوا من مشارقها ومغاربها هي أرض الشام؛ أرض آبائهم الأولين: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب. لما روي ذلك عن الحسن[٣] وقتادة، وزيد بن أسلم.

ويرى بعضهم أن المراد بذلك أرض الشام وأرض مصر كما نقل الألوسي ذلك عن محيي السنة، البغوي - رحمه الله -.

وهناك رأي ثالث: وهو أن المراد بتلك الأرض هي أرض مصر وإلى ذلك ذهب الجبائي، ورواه أبو الشيخ عن الليث بن سعد[٤].

والذين قالوا بهذا الرأي الأخير ومنهم الواحدي - كما أسلفت -[٥] استدلوا

---

(١) سورة البقرة: الآية (٤٩).

(٢) انظر: ص (٤٩٥، ٤٩٦) من بحثنا هذا.

(٣) انظر: تفسير السورة التي يذكر فيها الأعراف من تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ الرازي، دراسة وتحقيق الزميل الشيخ/ حمد بن أحمد بن أبي بكر، (٢/ ٤٦١، ٤٦٢).

(٤) انظر: الألوسي، (٩/ ٣٧).

(٥) انظر: ص (٤٧٦) من بحثنا هذا.

بقوله تعالى: ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون (٢٥) وزروع ومقام كريم (٢٦) ونعمة كانوا فيها فاكهين (٢٧) كذلك وأورثناها قوما آخرين** ﴾[١] فالضمير يعود على الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم الذي كان لقوم فرعون، أورثه الله لبني إسرائيل.

قال الواحدي في تفسير قوله تعالى: ﴿ **كذلك وأورثناها بني إسرائيل** ﴾[٢]: «إن الله ـ تعالى ـ رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه، فأعطاهم جميع ما كان لقوم فرعون من الأموال والعقار والمساكن»[٣]، وعلى هذا القول يكون معنى الآية: أورثنا المستضعفين أرض مستضعفيهم[٤].

والذين قالوا بإرث أرض مصر مع أرض الشام استشعروا أن بني إسرائيل لم يُعرف أنهم دخلوا مصر بعد أن خرجوا منها لأنهم استقروا بسيناء وحال البحر بينهم وبين الرجوع، كما أن الرجوع إليها لم يكن مقصودًا لموسى ـ عليه السلام ـ بل كان قصده كما صرح به القرآن الكريم دخول الأرض المقدسة، التي كتبها الله لهم ما داموا مسلمين موحدين، فإن حادوا فلا بقاء لهم فيها، قال تعالى: ﴿ **يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين** ﴾[٥].

ولذا حاول هذا البعض أن يفسروا إرث بني إسرائيل بتفسير يمكن قبوله فقالوا: المراد أن مصر صارت تبعًا لملك بني إسرائيل بعد أن استقروا في الشام في عهد يوشع بن نون[٦] أو أنها كانت تابعة لملك داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ

---

(١) سورة الدخان: الآيات من (٢٥) إلى (٢٨).

(٢) سورة الشعراء: الآية (٥٩).

(٣) تفسير الألوسي، (١٩/ ٨٣).

(٤) تفسير الألوسي، (٩/ ٣٧).

(٥) سورة المائدة: الآية (٢١).

(٦) يوشع بن نون: هو الخليل يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم =

وكلا التعليلين ضعيف؛ أما الأول فلأن المصريين كتبوا تاريخهم في هذه الحقب وما بعدها وما قبلها، فلم يوجد فيه تبعتهم لبني إسرائيل لا في عهد يوشع بن نون ولا في عهد سليمان بن داود، وعلى فرض حصول التعليل الثاني فكان ذلك لأحفادهم، ونص الآية التي بين أيدينا ﴿ **وأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ** ﴾ وبنو إسرائيل وإنْ استضعفوا قبل داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ إلا أن السياق في سورة الأعراف يدل على استضعاف فرعون لهم لا للجبارين بأرض الشام بعد يوشع بن نون ـ عليه السلام ـ.

والذي أرجحه أن المراد بالأرض التي أورثوا مشارقها ومغاربها أرض الشام لا غير، والذي يؤيد ما ذهبت إليه ما يلي:

أولا: لقوله ـ تعالى ـ في نفس الآية: ﴿ **الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** ﴾ ولقوله ـ تعالى ـ في سورة الأنبياء في قصة إبراهيم: ﴿ **ونجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ** ﴾[1] ولقوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ** ﴾[2] فمجموع هذه الآيات يقضي بأن تلك الصفة التي في آية الأعراف هي لأرض الشام لا لأرض مصر، وإذا شاركت أرضُ مصر أرض الشام في الخصب والنماء وجريان الأنهار فإنها لم تشاركها في كونها مساكن لكثير من الأنبياء، ولم تشاركها في ضم بيت المقدس كما هو الحال بأرض الشام[3].

= ـ عليه السلام ـ وهو فتى موسى ـ عليه السلام ـ المذكور في قوله تعالى: ﴿ وإذ قال موسى لفتاه ﴾ وقوله: ﴿ فلما جاوزا قال لفتاه ﴾ واختُلف في نبوته. انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ص(١٨٦) تحقيق عبد القادر أحمد عطا.

(١) سورة الأنبياء: الآية (٧١).

(٢) سورة الإسراء: الآية (١).

(٣) أخرج ابن عساكر عن ضمرة بن ربيعة قال: «سمعت أنه لم يُبعث نبي إلا من الشام فإن لم يكن منها أسري به إليها» كما فعل الله بخاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٣٨).

ثانيا : لقوله ـ تعالى ـ في هذه الآية نفسها : ﴿ **ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** ﴾ فما معنى إرث أرض مدمرة، تعاقب عليها ألوان العذاب بتكذيبهم لنبيهم موسى ـ عليه السلام ـ، فلا شك أن القول بتفسير الأرض بمصر بعيد؛ وعليه فالقول الأول القائل بأن قوله : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها** ﴾ المراد بها أرض الشام.

وقد ملت إلى ما رجحه الإمام الألوسي وغيره، فقال ـ رحمه الله ـ: «وأقول : قد يقال : المراد بالأرض هنا وفيما تقدم من قوله ـ سبحانه ـ: ﴿ **عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض** ﴾[1] الأرض المقدسة التي طلب موسى ـ عليه السلام ـ من فرعون بني إسرائيل ليذهب بهم إليها، فإنها موطن آبائهم فيكون موسى ـ عليه السلام ـ قد وعدهم هلاك عدوهم المانع لهم من الذهاب إليها، وجعل الله ـ تعالى ـ إياهم خلفاء فيها بعد آبائهم وأسلافهم، أو بعد مَن هي في يده إذ ذاك من العمالقة، ثم أخبر ـ سبحانه ـ هنا أن الوعد قد نجز : وقد أهلكنا أعداء أولئك الموعودين، وأورثناهم الأرض التي منعوهم عنها، ومكناهم فيها وفي حصول بغية موسى ـ عليه السلام ـ وما ألطف توريث الأبناء مساكن الآباء!»[2].

وقوله : ﴿ **وأورثنا** ﴾ أورث يتعدى إلى مفعولين أولهما ﴿ **القوم** ﴾ وثانيهما ﴿ **مشارق الأرض ومغاربها** ﴾ ليبين تمكينه ـ تعالي ـ لبني إسرائيل في جميع نواحيها، وذكر الجهات الأصلية يستلزم الجهات الفرعية، وقد اختلف المفسرون في حدود الشام[3] وذكروا أحاديث في فضل الشام، ومن أفضل ما اطلعت عليه

---

(١) سورة الأعراف : الآية (١٢٩).

(٢) تفسير الألوسي، (٩/ ٣٧).

(٣) حدد الجغرافيون حدود الشام بأنها يحدها من الشرق نهر الفرات ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط.

كتاب: ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام، تأليف الإمام أبي محمد عبد العزيز بن عبد السلام[١].

ومعنى: ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ أي: باركنا بكثرة خروج الأنبياء منها، وبكثرة الخصب وجريان الأنهار، فالبركة فيها مادية ومعنوية.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾[٢] يعني: تفضله ـ جلَّ وعلا ـ عليهم، وإكرامه لهم بردهم إلى أرض آبائهم وإهلاك عدوهم.

قال الألوسي عند تفسيره لهذه الآية: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ ...﴾: أي مضت عليهم واستمرت، من قولهم: مضى على الأمر إذا استمر، والمراد من الكلمة وعده ـ تعالى ـ لهم بالنصر والتمكين على لسان نبيه ـ عليه السلام ـ وهو قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ...﴾ الآية.

وذهب غير واحد إلى أنه الوعد الذي يؤذن به قوله ـ سبحانه ـ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٣] قلت: والفرق بين الآيتين هو سبق الوعد لهم بجعلهم أئمة، والتمكين لهم في الأرض، والانتقام من فرعون بسببهم قبل ولادة موسى ـ عليه السلام ـ وبعثه.

---

(١) رسالة صغيرة طبعت حديثًا بتحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي الميادين، بيروت، مكتبة المنار. ترجمة: الإمام العلامة شيخ الإسلام عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام المغربي أصلاً، الدمشقي مولدًا، المصري داراً ووفاةً، المعروف بـ: العز بن عبد السلام ولد سنة ٥٧٧ هـ، برع في الفقه على مذهب الإمام الشافعي وله مؤلفات عديدة، وتوفي ـ رحمه الله ـ في العاشر من جمادي الأولى سنة ستين وستمائة من الهجرة ودفن في مصر. انظر: الأعلام للزركلي، (٤/ ٢١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣٧).

(٣) سورة القصص: الآية (٥).

وعلى آية الأعراف فالوعد حاصل لهم من حين شكواهم لموسى ما يلقون من فرعون كما سبق تفسيره[١] ولا مانع من سبق الوعد لهم بذلك قبل ظهور سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ فيكون قوله تعالى: ﴿عسىٰ ربُّكُمْ أن يُهلك عدوَّكم﴾ هو تكرارًا لهذا الوعد.

وقيل: المراد بها علمه تعالى الأزلي، والمعنى: مضى واستمر عليهم ما كان مقدرًا من إهلاك عدوهم وتوريثهم الأرض و ﴿الْحُسْنى﴾ تأنيث الأحسن، صفة للكلمة، ووصفت بذلك لما فيها من الوعد بما يحبون ويحسنون . . . والتفت من التكلم إلى الخطاب في قوله سبحانه: ﴿ربِّك﴾ على ما قال الطيبي؛ لأن ما قبله من القصص كان غير معلوم له ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وأما كونه جل شأنه منجزًا لما وعد، ومجريًا لما قضى وقدر، فهو معلوم له ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وقوله: ﴿بما صبروا﴾ أي: بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه، وحسبك بهذا حاثًا على الصبر، ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع وكّله الله ـ تعالى ـ إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله ـ تعالى ـ له الفرج.

وقوله: ﴿ودمَّرْنا﴾ أي: خربنا وأهلكنا.

﴿ما كان يصنعُ فرعونُ وقومُهُ﴾ في أرض مصر من العمارات والقصور، أي دمرنا الذي كان يصنعه فرعون وقومه.

﴿وما كانوا يعرشون﴾ من الجنات، أو: ما كانوا يرفعونه من البنيان كصرح هامان»[٢].

* * *

(١) انظر: ص (٤٥٥، ٤٥٦) من بحثنا هذا.

(٢) نقل بتصرف من تفسير الألوسي (٩/ ٣٨، ٣٩).

القسم الثاني
الصراع بين موسى ـ عليه السلام ـ وبني إسرائيل[١]

وفيه مباحث:

المبحث الأول: جحود بني إسرائيل لنعم الله وطلبهم من نبيهم أن يجعل لهم صنمًا يعبدونه من دون الله.

المبحث الثاني: تهيئة الله نبيه موسى ـ عليه السلام ـ لتلقي التوراة.

المبحث الثالث: طلب موسى ـ عليه السلام ـ من ربه الرؤية.

المبحث الرابع: اختلاف أهل السنة والمعتزلة في وقوع رؤية الله.

المبحث الخامس: تسلية موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن مُنع من الرؤية وذكر بعض نعم الله عليه.

المبحث السادس: تحذير بني إسرائيل بتجنب مسالك الهالكين والضالين.

المبحث السابع: عبادة بني إسرائيل للعجل في غيبة موسى ـ عليه السلام ـ وعدم انتفاعهم بما وعظمه الله به.

---

(١) يرجع تسميتهم ببني إسرائيل إلى الأصل الذي ينسبون إليه وهو سيدنا يعقوب ـ عليه السلام ـ الملقب بإسرائيل حفيد إبراهيم ـ عليه السلام ـ وإسرائيل: كلمة عبرانية مركبة من (إسرا) بمعنى عبد أو صفوة، ومن (إيل) وهو الله فيكون معنى الكلمة: عبد الله، أو: صفوة الله. انظر كتاب: بنو إسرائيل في القرآن والسنة د. محمد سيد طنطاوي. الطبعة الأولى، (القاهرة: دار حراء، ١٣٨٨هـ)، ص(١ ـ ٦).

المبحث الثامن : ندم قوم موسى على عبادتهم العجل .

المبحث التاسع : توبيخ موسى ـ عليه السلام ـ لقومه على عبادتهم العجل .

المبحث العاشر : لوم موسى ـ عليه السلام ـ لأخيه هارون ودفاع هارون عن نفسه .

المبحث الحادي عشر : اعتذار موسى لربه عما بدر منه لأخيه .

المبحث الثاني عشر : نقمة الله ـ جل وعلا ـ على من لم يعتذر إلى ربه عن عبادة العجل وتوبته على المعتذرين .

المبحث الثالث عشر : حرص موسى ـ عليه السلام ـ على الألواح وشدة تعلقه بها .

المبحث الرابع عشر : منة الله ـ جل وعلا ـ على صلحاء بني إسرائيل .

المبحث الخامس عشر : ثناء الله ـ تعالى ـ على صلحاء بني إسرائيل .

المبحث السادس عشر : نعم الله على بني إسرائيل في التيه وكفرانهم تلك النعم .

المبحث السابع عشر : مخالفة أخرى شنعاء من مخلفات بني إسرائيل .

المبحث الثامن عشر : جناية أخرى من جنايات بني إسرائيل في عهد موسى ـ عليه السلام ـ .

* * *

المبحث الأول
جحود بني إسرائيل لنعم الله

قال تعالى: ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون (١٣٨) إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون (١٣٩) قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين (١٤٠) وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾[١].

قوله: ﴿ وجاوزنا ﴾ أي: قطعنا ببني إسرائيل البحر، والنون في قوله: ﴿ وجاوزنا ﴾ نون العظمة ﴿ ببني إسرائيل البحر ﴾ المراد به بحر القلزم المعروف حاليًا بالبحر الأحمر عند خليج السويس.

وفي الآية تذكير لبني إسرائيل بنعم الله ـ تعالى ـ عليهم بعد أن أغرق عدوهم ونجاهم من أعدائهم، وكيف أنه سيرّهم في البحر بعدما صار يبسًا، فبماذا قابل بنو إسرائيل هذه النعم العظيمة؟

وقوله تعالى: ﴿ فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴾ الاعتكاف والعكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له[٢] ومعنى الآية: فبعد أن قطع بنو إسرائيل البحر مع نبيهم في سلامة واطمئنان وأمان مروا على قوم يلازمون ويواظبون على تعظيم وعبادة أصنام صنعوها بأيديهم، ونصبوها

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (١٣٨) إلى (١٤١).

(٢) انظر: المفردات للراغب الأصفهاني، ص (٣٤٢، ٣٤٣).

آلهة لهم يعبدونها من دون الله ﴿ قَالُوا ﴾ أي: عندما شاهد ذلك بنو إسرائيل السائرين مع موسى ـ عليه السلام ـ ﴿ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ هذه الآية الكريمة تصور جحود بني إسرائيل لنعم الله ونسيانهم لما كانوا فيه من ذل واستعباد، وكيف أنهم فضلوا عبادة الأصنام على عبادة خالقهم ـ جل وعلا ـ.

فقوله: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهًا ﴾ أي: اصنع لنا صنمًا نتخذه إلهًا ﴿ كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ الكاف متعلقة بمحذوف وقع صفة لإلهًا و(ما) موصولة و﴿ لَهُمْ ﴾ صلتها و﴿ آلِهَةٌ ﴾ بدل من الضمير المستتر فيه.

والتقدير: اجعل لنا إلهًا كائنًا كالذي استقر هو لهم[1].

وقوله: ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ وللألوسي كلام نفيس في تفسير هذه الآية، قال ـ رحمة الله ـ: «تعجب ـ عليه السلام ـ من قولهم هذا بعدما شاهدوه من الآية الكبرى والبينة العظمى، فوصفهم بالجهل على أتم وجه حيث لم يذكر له متعلقًا ومفعولاً لتنزيله منزلة اللازم، أو لأن حذفه يدل على عمومه، أي تجهلون كل شيء، فيدخل فيه الجهل بالربوبية بالطريق الأولى، وأكّد ذلك بـ (إن)، وتوسيط قوم، وجعل ما هو المقصود بالإخبار وصفًا له»[2].

ولم يكتف نبيهم ـ عليه السلام ـ بوصفهم بالجهل المطلق بل أخذ يبين لهم عاقبة من تمنوا أن تكون لهم آلهة مثل آلهتهم، فقال لهم ـ عليه السلام ـ لعل مَن به رشد منهم أن يثوب إلى رشده: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

وإنما جَهَّل بني إسرائيل أولاً قبل أن يبين لهم عاقبة الأصنام وعابديها ليشعرهم بشديد غفلتهم عمن أنعم عليهم بجلائل النعم التي منها:

---

(١) انظر: تفسير الألوسي (٩/ ٤٠).

(٢) تفسير الألوسي (٩/ ٤١).

تجاوزهم البحر وتحويله إلى طريق يبس، وتأمينهم من الغرق كما فعل بعدوهم - كما أسلفت - ولو استصحبوا ذكر هذه النعمة لما كفوا عن ذكر الله وشكره، ولما اشتهت أنفسهم هذا الانحطاط المخزي بأن يعبدوا الأصنام التي لا تشعر بعبادتهم، ولا تدبر من أمرهم شيئًا، ويكفرون بالرحمن الذي خلع عنهم ثوب الذل بتخليصهم من يد فرعون وإهلاكه، وبإكرامهم بموسى - عليه السلام - وبإرجاعهم إلى التوحيد دين آبائهم الكرام يعقوب وإسحاق وإبراهيم.

والواقع أن بني إسرائيل قد انسلخوا من دينهم في مصر تمامًا فيما أظن، وتعَّودوا عبادة ما يعبده المصريون من تأليه الهياكل والحيوانات كما عُرف في تاريخهم القديم، وما الذل الذي نزل عليهم من فرعون وقومه إلا نقمة منه - جل وعلا - لانحرافهم عن دين آبائهم، وما طلب موسى من فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل إلا ليصلح فساد قلوبهم وليردهم إلى الصواب. فلا عجب إذن أن تراهم يطلبون من نبيهم هذا الطلب، وقد مر بنا قوله تعالى: ﴿ **قالُوا أُوذينا من قبْل أن تأْتينا ومن بعْد ما جئْتنا** ﴾[1] وهذا القول منهم يدل على تململهم وعدم صبرهم مع موسى - عليه السلام - حتى يأتي موعد هلاك عدوهم، فإنهم يعلمون تحقق نصرة الله لأنبيائه، وقد رأوا منها على يد موسى بانقلاب العصا حية، وبإيمان السحرة واستعلائهم على تهديد فرعون ما كان يكفيهم لو كانوا طلاب حق وأهل دين. وسنراهم فيما سيأتي من الآيات يقعون في عبادة عجل مصنوع، صنعه لهم السامري من حليهم التي كانوا يلبسونها، كما سيمر بنا تفصيله، مما يدل على أن هذا الجيل كان غاية في الفساد والاستعصاء والتمرد بدليل ما جاء في قصة البقرة من قولهم لنبيهم لما أخبرهم بأن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة: ﴿ **قالُوا أتتَّخذُنا هُزُوا** ﴾[2] وهذا يدلك على غاية جهلهم بالنبوة؛ إذ الأنبياء يستحيل أن يصدر

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٩).

(٢) سورة البقرة: الآية (٦٧).

عنهم الهزء البتة لأنه نوع من الجهل والسفاهة وهم عن ذلك وغيره معصومون.

وقوله ـ تعالى ـ على لسانهم في آخر القصة: ﴿ **قالُوا الآن جئْت بالْحقّ فذبحُوها وما كادُوا يفعلُون** ﴾[1] فهذا اتهام صريح منهم لنبيهم ـ عليه السلام ـ بأن ما أخبرهم به ليس بحق مع أنه قوله ـ عز وجل ـ في كل مرة؛ إذ هم لما سألوا عن الماهيّة قال موسى ـ عليه السلام ـ لهم: ﴿ **إنَه يقُولُ إنَها بقرةٌ لاَ فارضٌ ولا بكْرٌ عوانٌ بين ذلك فافعلُوا ما تؤمرُون** ﴾[2] ولما سألوا عن اللون قال الله لهم: ﴿ **إنَها بقرةٌ صفراءُ فاقعٌ لَونُها تسرُ النَاظرين** ﴾[3] ولما تحيروا في ذوات اللون الواحد قال الله لهم: ﴿ **إنَها بقرةٌ لاَ ذلُولٌ تثيرُ الأرض ولا تسقي الْحرْث مُسلَمةٌ لاَ شية فيها** ﴾[4] ولو ذبحوا من أول الأمر أي بقرة لأدوا ما أمروا به، ولكن حياتهم في مصر حولت قلوبهم عن الحق وطباعهم عن الخير.

وبدليل اعتذارهم عن دخول الأرض المقدسة حتى يخرج مَن فيها من الجبارين لأن طبائعهم تأبى الجهاد، وقد ألفوا الخنوع في مصر إلى حد يشبه الاستبعاد حتى قال نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ لربه: ﴿ **قال ربَ إنَي لا أملكُ إلاَ نفسي وأخي** ﴾[5].

فقوم هذا حالهم لا يستغرب منهم هذا الطلب لأنهم كما قال نبيهم: قوم يجهلون، أي: متصفون بالجهل بعامة، وهم لا ينفكون عن هذا الوصف.

قال تعالى: ﴿ **قالُوا يا مُوسى اجْعل لَنا إلها كما لهُمْ آلهةٌ قالَ إنَكُمْ قَوْمٌ**

---

(١) سورة البقرة: الآية (٧١).

(٢) سورة البقرة: الآية (٦٨).

(٣) سورة البقرة: الآية (٦٩).

(٤) سورة البقرة: الآية (٧١).

(٥) سورة المائدة: الآية (٢٥).

﴿ تجْهَلُونَ ﴾[١].

فقوله: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ ﴾ أي: مدمر ومهلك ما هم فيه بسبب انحرافهم عن الفطرة، واتباعهم لعبادة آلهة هي عاجزة عن نفع ذاتها فكيف يأملون في نفعها؟

﴿ وَبَاطِلٌ ﴾ أي: زاهق ومضمحل بالكلية[٢].

﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الإشراك بالله ـ سبحانه وتعالى ـ وعبادتهم لتلك الأصنام التي طلبوا عبادتها، ثم لم يكتف موسى ـ عليه السلام ـ بتذكيرهم بهلاك وبطلان ما فيه هؤلاء القوم بل ذكرهم بنعم الله عليهم مما يستدعي الإنكار عليهم غاية الإنكار في طلبهم أن يكون لهم إله كما لهؤلاء القوم الذين مروا عليهم آلهة.

ولذا ساق موسى ـ عليه السلام ـ القول لهم بأسلوب الإنكار الشديد عن هذا الطلب السخيف ﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا ﴾ أي: أأطلب لكم إلهًا سواه؟ وكيف يكون ذلك مني وأنا رسوله أرسلني بدينه الحق والجهاد على توحيده؟ وكيف تطلبون أنتم إلهًا غيره وهو فضلكم على عالمي زمانكم بإرسالي إليكم، أو فضلكم على كثير من العالمين بأن جعل آباءكم أبناء أنبياء؟

قال الألوسي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا ﴾: «قيل: هذا هو الجواب[٣] وما تقدمه مقدمة وتمهيد له، ولعله لذلك أعيد لفظ ﴿ قَالَ ﴾ وقال شيخ الإسلام[٤]: هو شروع في بيان شؤون الله ـ تعالى ـ الموجبة

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٨).

(٢) انظر: الألوسي (٩/ ٤١).

(٣) أي: الجواب عن سؤالهم ﴿ واجعل لنا إلها كما لهم ءالهة ﴾.

(٤) المقصود به الشيخ العلامة محمد بن محمد العمادي، أبو السعود المتوفى سنة ٩٥١هـ ـ رحمه الله ـ.

لتخصيص العبادة له ـ سبحانه ـ بعد بيان أن ما طلبوا عبادته مما لا يمكن طلبه أصلاً لكونه هالكًا باطلاً أصلاً، ولذلك وسّط بينهما ﴿ قَالَ ﴾ مع كون كل منهما كلام موسى ـ عليه السلام ـ»[١].

والمعنى: أمن غير المستحق للعبادة أطلب لكم معبودًا؟

وقوله: ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي: وهو فضلكم على جميع العالمين بتلك الآيات التي ظهرت لكم على يد نبيكم موسى ـ عليه السلام ـ فإنها ولا شك من خصائصهم، ومتعلقة بهم، فالتفضيل على العالمين كافة بهذا القيد لا مطلقًا حتى لا يلزم تفضيلهم على أمة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فتعارض هذه الآية ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[٢].

والمراد بـ ﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ عالم الإنس، والجن تبعٌ لهم باعتبار الفريقين أهل التكليف، قال الألوسي: «والجملة حالية مقررة لوجه الإنكار، أي: والحال أنه ـ تعالى ـ خص التفضيل والاختصاص بأن قصدوا أن يشركوا به أخس مخلوقاته، وهذا الاختصاص مأخوذ من معنى الكلام وإلا فليس فيه ما يفيد ذلك»[٣].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ يحتمل أنه من كلام الله ـ عز وجل ـ وأنه ـ تعالى ـ تمّم به حجة موسى ـ عليه السلام ـ وعلى قراءة ابن عامر ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ يكون ذلك من كلام موسى وأنه قال لهم: اذكروا صنع ربكم بكم وهو إنجاؤه إياكم من آل فرعون، في هذا الوقت الذي حصل فيه هذا الصنيع، فيكون الظرف وقتًا للمفعول المحذوف وهو الصنيع، أو: اذكروا نفس التوقت نفسه أنجاكم فيه ربكم، وذكر الوقت يستلزم ذكر ما فيه.

---

(١) تفسير الألوسي، (٩/ ٤١).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

(٣) تفسير الألوسي، (٩/ ٤٢).

ويرى البعض أن قوله تعالى: ﴿ **وإذ أنجيناكم من آل فرعون** ﴾ من كلام موسى ـ عليه السلام ـ حتى على هذه القراءة وأن النون في ﴿ **أنجيناكم** ﴾ له ولهارون ـ عليهما السلام ـ والمعنى: حصل الإنجاء لكم بسببنا. وإن كنت لا أقوى ذلك.

﴿ **من آل فرعون** ﴾ وعبر بآل فرعون؛ لأنهم كانوا أداته في سومهم سوء العذاب وتقتيل الأبناء، فالنتيجة منهم نتيجة منه، ومعنى ﴿ **يسومونكم سوء العذاب** ﴾ أي: يحلّون وينزلون بكم أشده، والجملة إما حالية وإما استئنافية؛ فعلى كونها حالية فهي حالٌ من ضمير بني إسرائيل، والمعنى: أنجيناكم حال نزول العذاب عليكم فلا يصح أن تعولوا على غيرها، ويجوز أن تكون حالاً من آل فرعون، أي: أنجيناكم منهم حال تعذيبهم لكم، والمعنيان متقاربان، وأما على كونها استئنافًا فكأن سائلاً سأل: ماذا فعل بهم آل فرعون؟ فجاءت هذه الجملة وما بعدها جوابًا لهذا السؤال.

وأرجِّح كونها حالية لضمير الخطاب في ﴿ **يسومونكم** ﴾ ولو كانت استئنافًا لقال: (يسومونهم) لتتوافق مع السؤال الذي تقديره وماذا فعلوا بهم؟ وقوله تعالى: ﴿ **يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم** ﴾ تفصيل للإجمال في ﴿ **يسومونكم سوء العذاب** ﴾ وإن أمرَّ شيء على النفس أن يقتل ولدك أمامك وأنت عاجز عن الدفاع عنه، وأن تُستحيا امرأتك لتخدم غيرك رغمًا عنك، والمعنى: أن الله الذي خلصكم من ذلك كله هو الحقيق بالعبادة والتأليه لا تلك الأصنام العاجزة؛ فكيف نسيتم صنعه بكم؟

والإشارة في قوله: ﴿ **وفي ذلكم** ﴾ راجعة إلى العذاب، والخطاب لبني إسرائيل، والمعنى: فذلكم العذاب الذي شهدتم أحداثه امتحان عظيم حلّ بكم، فَمن خلصكم منه أولى بأن يُعبد، ويجوز أن ترجع الإشارة إلى الإنجاء وهو الأقوى والأقرب لقوله تعالى: ﴿ **بلاءٌ من ربكم** ﴾ والمعنى: وفي إنجائكم من هذا

العذاب اختبار عظيم لكم من ربكم ليظهر به شكركم من كفركم، فهل يليق بكم وأنتم حديثو عهد بهذه النعم أن تطلبوا من نبيكم أن يُجيز لكم الكفر بمن هذا شأنه معكم؟ وهل يجوز أن تعكفوا على عبادة ذلك الإله المقترح منكم؟ إن ذلك الخزي عظيم لكم في الدنيا، وهوان شديد لكم في الآخرة إن لم تتوبوا وتستشغروا قبح طلبكم.

❊ ❊ ❊

المبحث الثاني
تهيئة الله نبيه موسى ـ عليه السلام ـ
لتلقي التوراة

قال تعالى: ﴿ وواعدنا مُوسىٰ ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتمّ ميقاتُ ربه أربعين ليلةً وقال مُوسىٰ لأخيه هارون اخلُفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المُفسدين ﴾[1].

لقد انتهت المرحلة الأولى من مهمة موسى ـ عليه السلام ـ التي أرسل لها، انتهت مرحلة تخليص بني إسرائيل من حياة الذل والهوان والنكال والتعذيب من فرعون وملئه، وإنقاذهم من أرض الذل والقهر إلى الصحراء الطليقة في طريقهم إلى الأرض المقدسة . . . ولكن القوم لم يكونوا بعد على استعداد لهذه المهمة الكبرى . . . مهمة الخلافة في الأرض والقيام بدين الله . . . ولقد رأينا في الآيات السابقة كيف اشرأبت نفوسهم إلى الوثنية والشرك بمجرد أن رأوا قومًا يعكفون على أصنام لهم، وتخلخلت عقيدة التوحيد التي جاءهم بها موسى ـ عليه السلام ـ في قلوبهم، ولم يمض إلا القليل على نجاتهم من ذل فرعون، وتحويل البحر لهم إلى طريق يبس، وإغراق عدوهم أمام أعينهم لما أصر على ملاحقتهم . . . فلم يكن بد من رسالة مفصلة لتربية هؤلاء القوم وإعدادهم لما هم مقبلون عليه من الأمر العظيم . . . ومن أجل هذه الرسالة المفصلة كانت مواعدة الله ـ تعالى ـ لعبده موسى ـ عليه السلام ـ ليلقاه ويتلقى عنه، وكانت هذه المواعدة بمثابة التهيئة لموسى ـ عليه السلام ـ استعدادًا لذلك الموقف العظيم[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٢).

(٢) بتصرف من (في ظلال القرآن) لسيد قطب، (٩/ ٦٣١).

فقوله تعالى: ﴿ **وواعدنا موسىٰ ثلاثين ليلة** ﴾ بمعنى وعدنا، وبذلك قرأ أبو عمرو ويعقوب، ويجوز أن تكون الصيغة على بابها بناءً على تنزيل قبول موسى - عليه السلام - منزلة الوعد، ويجوز أن يكون ﴿ **وواعدنا** ﴾ من باب الموافاة وليس من الوعد[١] قال الألوسي - رحمه الله -: «روي أن موسى - عليه السلام - وعد بني إسرائيل وهم بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل موسى - عليه السلام - ربه الكتاب، فأمره أن يصوم ثلاثين يومًا وهو شهر ذي القعدة، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فمه فتسوك، فقالت الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله أن يزيد عشرة أيام من ذي الحجة».

ثم قال - رحمه الله -: «أخرج الديلمي[٢] عن ابن عباس يرفعه لما أتى موسى - عليه السلام - ربه - عز وجل - وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين وقد صام ليلهن ونهارهن، كره أن يكلم ربه - سبحانه - وريح فمه ريح فم الصائم، فتناول من نبات الأرض فمضغه، فقال له ربه: لم أفطرت؟ - وهو أعلم بالذي كان - قال: أي رب، كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح، قال: أومَا علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك؟ ارجع فصم عشرة أيام ثم ائتني ففعل موسى - عليه السلام - الذي أمره ربه، وذلك قوله سبحانه: ﴿ **وأتممناها بعشر** ﴾[٣]».

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (١/ ٢٥٧)، (٩/ ٤٣).

(٢) انظر: الفردوس بمأثور الخطاب لأبي شجاع شيرويه الديلمي، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول (٣/ ٤٢٧) ذكره بنحوه مع اختلاف في بعض الألفاظ. الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ) ٣/ ٤٢٧.

(٣) تفسير الألوسي (٩/ ٤٣) وانظر: ابن أبي حاتم لسورة الأعراف، تحقيق الأخ الزميل/ حمد بن أحمد بن أبي بكر (٢/ ٤٧٠) وقد حقق إسناد الحديث وقال: إسناد حسن؛ وانظر: الدر المنثور، (٣/ ٥٣٥، ٥٣٦).

«وعبر ـ جل وعلا ـ بالليالي في قوله: ﴿ثلاثين ليلة﴾ لأن الليالي غرر الشهور، أو إشارة إلى مواصلة الصوم ليلاً ونهاراً، ولو قال ثلاثين يومًا لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل، فلما نص على الليالي فهم من قوة الكلام أنه واصل المدة المشار إليها في الآية أربعين ليلة بأيامها»[1].

قلت: وإلى ذلك أشارت رواية الديلمي: «وقد صام ليلهن ونهارهن» ولا يستغرب ذلك من موسى ـ عليه السلام ـ وليس لقائل أن يقول: إن الامتناع عن الأكل والشرب هذه المدة قد يؤدي إلى هلاك الإنسان، أو إلى إضعاف قواه بحيث لا يكون مستعدًا لتلقي شيء أو فهمه، فإن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قد أعطوا من القوة الروحية ما يمكنهم من ذلك وأكثر منه، وهذا يدلنا على قوة موسى ـ عليه السلام ـ وعظيم معرفته بربه حيث استحيا أن يلقي ربه بجوف فيه أثر الطعام لعلمه أن الطعام وإن كان فيه قوة البدن إلا أنه حجاب كثيف يعطل الروح عما تريد الوصول إليه لو تخففت من الطعام بتركه بعض الوقت، ولذلك كان نبي الله داود ـ عليه السلام ـ يصوم يومًا ويفطر يومًا، وقد سماه الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أفضل الصيام، ولا يصح أن نقيس أحوالنا بأحوال الأنبياء فيما هو من خصائصهم لأن ذلك تجاوز واعتداء يؤديان إلى صرف العبد في النهاية عن الطاعة أو إلحاق أضرار بالبدن لا يطلبها الشرع، ولذا نهى الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ عن الوصال، فلما قال أصحابه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: إنك تواصل، قال لهم: «**وأيكم مثلي**؟ **إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**»[2] وأخرج الإمام مسلم أيضًا عن ابن عمر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ نهى عن الوصال، قالوا: إنك تواصل، قال: «**إني لست**

---

(١) تفسير الألوسي، (١/ ٢٥٧).

(٢) صحيح مسلم، تحقيق وتصحيح وتعليق/ محمد فؤاد عبد الباقي (٢/ ٧٧٤)، بيروت دار إحياء التراث العربي.

كهيئتكم، إني أطعم وأسقى»[١] فإني بهذا الحال مستغن عما لا تستغنون عنه ولا تقدرون في الاستمرار عليه، وقد ضعف الألوسي القول بأن وعد موسى كان لقيام الليل.

فقال ـ رحمه الله ـ: «والقول بأن ذكر الليلة كان للإشعار بأن وعد موسى ـ عليه السلام ـ كان بقيام الليل ليس بشيء لأن المروي أن المأمور به الصيام لا القيام»[٢].

وقوله: ﴿ **وأتممناها بعشر** ﴾ تفصيل لما أجمل في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿ **وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون** ﴾[٣] وإنما أمره الله ـ سبحانه ـ أن يتم الثلاثين بعشر ليتخلص مما تناوله من نبات الأرض ليدفع به خلوف فمه حتى لا يلقى ربه بفم متغير، فأخبره الله بأن حاله التي كان عليها أولاً هي الأحب إلى الله ـ عز وجل ـ ولذا أمره أن يتمها بعشر لتعود إليه الحالة أتم ما كانت عند صيام الثلاثين، وغني عن الإيضاح ما لخلوف فم الصائم من مزية عند الله ـ عز وجل ـ ففي الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «**والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب من ريح المسك**»[٤].

فإن قيل: ما معنى ﴿ **فتم ميقات ربه أربعين ليلة** ﴾ مع أن المتبادر للسامع من ضم العشرة إلى الثلاثين هو أن الميقات كان أربعين ليلة؟ والجواب علي ذلك:

---

(١) صحيح مسلم، تحقيق وتصحيح وتعليق/ محمد فؤاد عبد الباقي (٢/ ٧٧٤)، بيروت دار إحياء التراث العربي.

(٢) تفسير الألوسي (١/ ٢٥٧).

(٣) سورة البقرة: الآية (٥١).

(٤) صحيح البخاري مع شرح عمدة القاري، للشيخ الإمام العلامة ابن محمد محمود بن أحمد العيني (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ١٠/ ٢٧٧).

لإزالة التوهم من أن تلك العشر ليست من الثلاثين لأنه يحتمل أتممناها بعشر من الثلاثين، كأنه كان عشرين ثم أتمه بعشر فصار ثلاثين فأزال هذا الإبهام»[١]، هذا ما نُقل عن المفسرين. والذي أراه ـ والله أعلم ـ أن المقصود من ذكر هذا المعلوم هو الإشادة بموسى عليه السلام؛ وبطاعته إذ مَن صام ثلاثين يومًا فقد بلغ به الجهد، فإذا أمر بفعل عشر بعد هذا الجهد فامتثل وفعل فذا يدل على شدة يقينه وأن رغبته في مرضاة ربه لا فيَّ مطلوب نفسه.

وهذا درس لنا لنتعلم منه العزم والقوة على طاعة الله ـ تعالى ـ التي كلفنا بها على قدر طاقتنا، فلا نتهاون بشيء أمرنا به، مُستَنّين في الأخذ بالعزائم بسنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد يتساءل متسائل عن الوقت الذي صامه موسى ـ عليه السلام ـ وقد تكفل المفسرون ببيانه، وقد اخترت منه ما قاله الحافظ ابن كثير:

قال ـ رحمه الله ـ: «اختلف المفسرون في قوله: ﴿**وأتممناها بعشر**﴾ والأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة والعشر: عشرٌ ذي الحجة، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر وحصل فيه التكلم لموسى ـ عليه السلام ـ وفيه أكمل الله الدين لمحمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كما قال تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾[٢]».

ولما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور استخلف موسى ـ عليه السلام ـ على بني إسرائيل أخاه هارون، ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد قال تعالى: ﴿**وقال موسىٰ لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين**﴾[٣].

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٤٣)، وانظر: فتح القدير للشوكاني، (٢/ ٢٤٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٣)، وانظر: تفسير الألوسي (٩/ ٤٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٤٢).

ولقد خصص موسى أخاه هارون بالخلافة من بين سائر الصالحين من بني إسرائيل لأسباب منها:

١ ـ أن هارون نبي ولا تخفى أفضلية النبي على غيره.

٢ ـ أن هارون كان وزيراً لموسى ـ عليه السلام ـ قال تعالى على لسان موسى: ﴿واجعل لي وزيرا من أهلي (٢٩) هرون أخي﴾[١] ولا شك أن الوزير بالنسبة للأمير يكون من أقرب الرعية إليه، لا سيما وأنه تربطه به صلة قرابة، فيكون الحرص على القيام بتبعة الخلافة أشد وأقوى.

والمراد بقوله: ﴿وأصلح﴾ أي: ما يحتاج إلى الإصلاح من أمور دينهم إذا ظهر منهم ما يخالف ما تركهم عليه نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ.

عن ابن عباس أن المراد: الرفق بهم والإحسان إليهم[٢].

وقوله: ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ أي: ولا تتبع سبيل من سلك الإفساد[٣] وهذا من باب التذكير والتنبيه والتأكيد لأن الأنبياء ـ عليه السلام ـ معصومون من فعل الفساد، ومعصومون من متابعة فاعليه.

وقد أتى بنو إسرائيل في غيبة موسى بعظيمة هي غاية في القبح لم تعرف إلا لهم في الموحدين وهي عبادة العجل، ولقد حاولوا حمل هارون ـ عليه السلام ـ على أن يعبد معهم ما عبدوه، فكانت العصمة ومقالة موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ مؤججين لاستدامة يقينه، وعدم تأثره بمخالفة بني إسرائيل بما هو عليه وأخوه موسى ـ عليهما السلام ـ.

---

(١) سورة طه: الآيتان (٢٩، ٣٠).

(٢) تفسير الألوسي (٩/ ٤٤).

(٣) المصدر السابق.

وسيمر بنا [١] دفاع هارون عن نفسه لما لقي ما لقي من غضب موسى ـ عليه السلام ـ لعدم اللحوق به لإخباره بما فعل بنو إسرائيل: ﴿وأخذ برأس[٢] أخيه يجُرُّهُ إليه قال[٣] ابن أُمَ إنَّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾[٤].

* * *

(١) انظر ص (٥٥١ ، ٥٥٢) من بحثنا هذا.

(٢) أي موسى ـ عليه السلام ـ.

(٣) أي هارون ـ عليه السلام ـ.

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٥٠).

المبحث الثالث
طلب موسى من ربه الرؤية

قال تعالى: ﴿ ولَمَّا جاء مُوسىٰ لميقاتنا وكلَّمهُ ربُّهُ قالَ ربِّ أرني أنظُرْ إليْكَ قالَ لن تراني ولكن انظُرْ إلى الْجبلِ فإنِ اسْتقرَّ مكانهُ فسوْفَ تراني فلمَّا تجلَّىٰ ربُّهُ للْجبلِ جعلهُ دكًّا وخرَّ مُوسىٰ صعقًا فلمَّا أفاق قال سُبْحانكَ تُبْتُ إليْكَ وأنَا أوَّلُ الْمؤْمنين ﴾[1].

وقوله: ﴿ ولَمَّا جاء مُوسىٰ لميقاتنا ﴾ أي: للوقت الذي وقّتنا له، أي تمام الأربعين لتلقي ما سنمليه عليه من الشرائع التي بها يستقيم حال أمته، وقوله: ﴿ وكلَّمهُ ربُّهُ ﴾ أي: أسمعه كلامه ولم يكن فيما بينه وبين الله ـ عز وجل ـ وفيما سمع واسطة، ولذلك سمي بموسى الكليم، وذلك بعدما هَيَّأه الله ـ تعالى ـ لذلك الموقف العظيم بالصيام والانقطاع عن الناس.

ولقد كلم الله ـ عز وجل ـ نبيه موسى ـ عليه السلام ـ قبل هذا الموقف مرارًا كما جاء في سورة طه[2] والنمل[3]

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٣).

(٢) قال تعالى: ﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله: امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى. فلما أتاها نودي يا موسى. إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى. إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ... ﴾ سورة طه: الآيات من (٩) إلى (١٤).

(٣) قال تعالى: ﴿ إذ قال موسى لأهله: إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون. فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم. وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جآن ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ... ﴾ سورة النمل: الآيات من (٧) إلى (١٠).

والقصص[١] ولم يسبق هذا الكلام بهذه التهيئة ولا بهذا الميعاد لأن الفرق بين ما مضى من كلام الله له وميقاته ـ تعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ في سورة الأعراف أنه في هذه المرة سينزل عليه كتابه التوراة جملة واحدة كما سيمر بنا[٢] ولا شك أن للوحي ثقله الذي يحتاج إلى تهيئة خاصة، قال الله ـ تعالى ـ لحبيبه ونبيه محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: ﴿ **إنَّا سنُلْقي عليك قولًا ثقيلا** ﴾[٣] ومعلوم أن القرآن لم ينزل جملة واحدة، ومع تقطيعه نجومًا وصفه الله بالثقل، فما بالك بتلقي كتاب بأكمله يُسمعه الله ـ جل وعلا ـ بنفسه كليمه موسى ـ عليه السلام ـ؟ إن الأمر ولا شك يحتاج إلى إعداد خاص، وكون هذا الإعداد قد تم بالصوم لا باستدامة الصلاة والذكر يدل على ما للصوم من منزلة رفيعة عند الله ـ عز وجل ـ ويدل على ما له من أثر عظيم في ترقية الروح إلى معارج القدس، وترقية البدن الذي هو قالب هذه الروح فيحتمل ما لا تحتمله الأبدان الكثيفة التي حجبت أرواحها بالشهوات سيما شهوة الطعام والشراب اللذين للنفس بهما تعلق شديد.

ولما اطمأن موسى ـ عليه السلام ـ على أن خاصيته التي خصه الله بها من بين سائر الأنبياء ـ إلا نبينا محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم ـ هي كلامه مباشرة طمح قلبه إلى رؤية ربه ـ تبارك وتعالى ـ لفرط شوقه إليه، فإن من تمام الفضل أن ترى من تكلمه، ولذا أجيبت ﴿ **لَمَّا** ﴾ بقوله تعالى: ﴿ **قال ربِّ أرني أنظُر إليك** ﴾ قال الإمام البخاري: «قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿ **أرني** ﴾ أعطني[٤]».

---

(١) قال تعالى: ﴿ **فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين. وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ...** ﴾ سورة القصص: الآيتان (٣٠، ٣١).

(٢) انظر: من ص (٥٢٢) إلى ص (٥٢٣) من بحثنا هذا.

(٣) سورة المزمل: الآية (٥).

(٤) صحيح البخاري مع فتح الباري، كتاب التفسير ـ سورة الأعراف ـ (٩/ ٣٧٢) وقوله: ﴿ أرنى ﴾ أعطني، يعني: أعطني قدرة تمكنني من النظر إليك، وإنما فسرها ابن عباس بذلك لأن الرؤية =

وقد سلك موسى ـ عليه السلام ـ بقوله هذا مسلك الاستعطاف وغاية الأدب حيث قدم لطلبه بقوله: ﴿ **ربِّ** ﴾ أي: يا مَن أنت حَفي بي، وتفضلت على بتكليمي مباشرة، ويا من ربيتني في بيت عدوك، ويا من رددتني على أمي، ويا من نصرتني على فرعون وقومه، فعهدي بك دوام فضلك عليَّ ورعايتك لي رعاية خاصة ﴿ **أرني أنظُرْ إليْك** ﴾ أي: أرني ذاتك الجليلة أنظر إليك، ومكني من رؤيتك بأن تتجلى لي حتى أراك.

وما خطر ببال موسى ـ عليه السلام ـ أن سؤاله هذا فوق طاقته، وأن بشريته وروحه مهما كان من قوتهما لا يُمكِّنانه من ذلك إذ الأمر أجل وأعظم، ولو خطر على باله أن ذلك محظور ما طلبه، لكنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد ظن أن إباحة تكليمه مسوغ لهذا الطلب، ولذا طلبه بقوله: ﴿ **قالَ ربِّ أرني أنظُرْ إليْكَ** ﴾ فأجابه بقوله: ﴿ **لن تراني** ﴾ أي: في دار الدنيا، إذ المؤمنون جميعًا سيرون ربهم في الآخرة كما يرون البدر متكاملاً لا يُضامون في ذلك، أي لا يشق عليهم فيه، بل يمكنهم ربهم ـ سبحانه وتعالى ـ من ذلك بفضله، فنفي الرؤية منصب على الحالة الدنيوية، أما في الآخرة فقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن المؤمنين يرون ربهم في روضات الجنات.

أخرج البخاري في صحيحه ـ في كتاب الأذان، باب فضل السجود ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن الناس قالوا: «يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: **فهل تمارون[1] في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنكم ترونه كذلك . . .**»[2] الحديث.

= هي النظر، والمطلوب هو القدرة على النظر.

انظر: تفسير ابن عباس، تأليف الدكتور/ عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، (١/ ٤٣٠).

(١) تمارون: من المماراة وهي المجادلة.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري (٢/ ٤٣٦) وانظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (١/ ٤٢).

وأخرج مسلم في صحيحه عن صهيب أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ـ عز وجل ـ**»[1] فإذا وقع ذلك للمؤمنين فوقوعه للأنبياء ولاشك أحق، ووقوعه للكليم الذي برح به الشوق إلى ربه متأكد، ولكي يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن ذلك فوق طاقته، وأنه ليس مسموحًا له به في الدنيا قال ـ تعالى ـ له استدراكًا على قوله تعالي: ﴿ **لن تراني** ﴾ ﴿ **ولكن انظُرْ إلى الْجبل فإن اسْتقرَّ مكانهُ فسوْف تراني** ﴾ أي. لن تطيق رؤيتي يا موسى وأنت في هذه الحياة الدنيا بحالتك التي أنت عليها ﴿ **ولكن انظُرْ إلى الْجبل** ﴾ الذي هو أقوى وأشد صلابة منك.

وفي هذ الاستدراك ﴿ **ولكن انظُرْ** ﴾ تسلية لموسى ـ عليه السلام ـ وتلطف معه في الخطاب وتكريم له، وتعظيم لأمر الرؤية وأنه لا يقوى عليها إلا من قواه الله بمعونته[2] ﴿ **فإن اسْتقرَّ مكانهُ** ﴾ أي: إن ثبت مكانه حين أتجلى له ولم يتفتت ويندك لعظمتي ﴿ **فسوْف تراني** ﴾ أي: تثبت لرؤيتي إذا تجليت لك وإلا فلا طاقة لك برؤيتي، وعبر بكلمة ﴿ **سوْف** ﴾ لبيان أن ذلك لو وقع فلن يتحقق لك في الدنيا إلا بعد أن تتهيأ تهيئة خاصة لأن ﴿ **سوْف** ﴾ إذا دخلت على المضارع تفيد وقوعه في المستقبل البعيد، فكيف والأمر على خلاف ما تظن؟ فلا بقاء للجبل حال تجلى له فكيف تطلب الرؤية؟ ولو زاد التجلي عليك حال الكلام ما كان لك

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٣/ ١٧) باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم ـ سبحانه وتعالى ـ.

(٢) انظر: تفسير الأعراف للدكتور/ أحمد السيد الكومي، والدكتور/ محمد سيد طنطاوي، ص(٢١٥).

بقاء، ولذهبت منك كل استطاعة، والمراد بالجبل على ما قاله الألوسي هو طور سيناء[١].

قال تعالى: ﴿ **فلمَّا تجلَّىٰ ربُّهُ للْجبل** ﴾ والتجلي هنا: هو الظهور بالكيفية التي تليق بجنابه ـ تعالى ـ[٢]، فظهر ـ جل وعلا ـ للجبل ظهوراً بلا كيف[٣] قال الحافظ ابن كثير: «ما تجلى منه إلا قدر الخنصر»[٤] وساق ـ رحمه الله ـ آثاراً أكتفي منها بما أخرجه الحاكم في مستدركه والترمذي في سننه عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ **فلمَّا تجلَّىٰ ربُّهُ للْجبل جعله دكًا . . .** ﴾ قال حماد: هكذا، ووضع الإبهام على مفصل الخنصر الأيمن قال: فقال حميد لثابت: تحدث بمثل هذا؟! قال: فضرب ثابت صدر حميد ضربة بيده وقال: رسول الله ﷺ يحدث به وأنا لا أحدث به[٥] قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم.

وفي رواية للترمذي أيضًا عن أنس أن النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قرأ هذه الآية: ﴿ **فلمَّا تجلَّىٰ ربُّهُ للْجبل جعلهُ دكًا** ﴾ قال حماد: هكذا، وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة أصبعه اليمنى قال: فساخ الجبل[٦] ﴿ **وخرَّ موسَىٰ صعقا** ﴾[٧] وقوله: ﴿ **دكًا** ﴾ أي: ترابًا مهشمًا مدقوقًا مفتتًا.

قال الألوسي: ﴿ **جعلهُ دكًا** ﴾ أي مدكوكًا متفتتًا، والدك والدق أخوان كالشك والشق»[٨] فنبه ـ سبحانه وتعالى ـ على أن الجبل مع شدته وصلابته ما دام

(١، ٢) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٤٥).

(٣) النسفي، (٢/ ٧٥).

(٤) تفسير ابن كثير، (٢/ ٢٤٤).

(٥) المستدرك للحاكم، (٢/ ٣٢٠، ٣٢١).

(٦) أي: غاص في الأرض وغاب فيها.

(٧) سنن الترمذي، (٥/ ٢٦٥).

(٨) تفسير الألوسي، (٩/ ٤٥).

لم يستقر عند هذا التجلي فالآدمي مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقر، وفيه تسكين لفؤاد موسى بأن المانع من الانكشاف الإشفاق عليه[١].

قال الألوسي: «وهذا كما لا يخفى من المتشابهات التي يسلك فيها طريق التسليم وهو أسلم وأحكم»[٢] «وقوله: ﴿**وخرَّ مُوسى**﴾ أي: وقع وقوعًا شديدًا من هول التجلي فارتطم على الأرض ارتطامًا أحدث صوتًا شديدًا؛ إذ الخرور هو الوقوع المصاحب للصوت الشديد؛ كما فرق بعض اللغويين بين السقوط والخرور بأن السقوط مطلق، والخرور سقوط له صوت كالخرير»[٣].

﴿**وخرَّ مُوسىٰ صعقًا**﴾ أي: سقط من هول ما رأى من الأنوار التي بهرته وأسقطته على الأرض مغشيًا عليه كمن أصابته صاعقة، وهذا رأي ابن عباس والحسن - رضي الله عنهما -. وعن قتادة أنه مات ثم أحياه الله بعد ذلك، وعلى هذا الرأي يكون موسى قد ذاق الموت في الدنيا مرتين، ويكون ذلك استثناء من قوله تعالى: ﴿**لا يذُوقُون فيها الْموْت إلاَّ الْموْتة الأُولىٰ ووقاهُم عذاب الْجحيم**﴾[٤] وقد ذاق الموت في الدنيا أكثر من مرة جماعات منهم مَن أحياهم موسى - عليه السلام - معجزة له ودليلاً على نبوته - عليه السلام - ومنهم أيضًا من ذكرهم الله - تعالى - في قوله: ﴿**ألمْ تر إلى الَّذين خرجُوا من ديارهم**[٥] **وهُمْ أُلُوفٌ حذر الْموْتِ فقال لهُم اللَّهُ موتُوا ثُمَّ أحْياهُمْ إنَّ اللَّه لذُو فضْلٍ على النَّاسِ ولكنَّ أكْثر**

---

(١) انظر: تفسير القاسمي - محاسن التأويل، (٥/ ٢٤٧).

(٢) تفسير الألوسي (٩/ ٤٥).

(٣) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٤٦)، والمفردات للراغب الأصفهاني، ص (١٤٤).

(٤) سورة الدخان: الآية (٥٦).

(٥) قيل هي: (واسط) وقع فيها الطاعون فخرج أهلها هاربين، فأماتهم الله ثم أحياهم بدعاء حزقيل - عليه السلام - وقيل: هم قوم من بني إسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا حذرًا من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم. انظر: تفسير النسفي، (١/ ١٢٣).

﴿ النَّاس لا يشْكُرُون ﴾[١] ورغم وقوع ذلك فالرأي الأول عندي أرجح لقوله تعالى: ﴿ فلمَّا أفاق ﴾ إذ الإفاقة تكون من الغشية والإحياء يكون بعد الإماتة، فلو كانت الصاعقة موتًا لقال تعالى: (فخر ميتا) ولقال: (فلما أحييته قال سبحانه) وقوله: ﴿ فلمَّا أفاق ﴾ الإفاقة رجوع العقل والفهم إلى الإنسان بعد ذهابهما عنه بسبب من الأسباب[٢].

وقوله: ﴿ قال سُبْحانك ﴾ أي تنزيهًا لك من مشابهة خلقك في شيء، وبدأ بالتسبيح لاستشعاره بأنه طلب ما لاحقّ له فيه، وهو أمر عظيم لا يكفِّره إلا التسبيح، كما أنه ـ عليه السلام ـ أراد أن يمهد به لبيان توبته الصادقة عن طلب ما لا قدرة له عليه.

﴿ تُبْتُ إليْك ﴾ من الإقدام على السؤال بغير إذن، ولم يقل: تبت إليك عن هذا الطلب ليبين ـ عليه السلام ـ توبته الشاملة عما بدر منه وعرفه، وعما قد يظن أنه بدر منه ولم يعرفه، والغرض من قوله: ﴿ تُبْتُ إليْك ﴾ إظهار الافتقار والمسكنة لربه، والرضا التام بمقدوراته.

﴿ وأنا أوَّلُ الْمُؤْمنين ﴾ بعظمتك وجلالك، أو: أنا أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد من خلقك في حالته الدنيوية[٣] فالأولية هناك ليست على إطلاقها بل هي مقيدة بما ذكرت لأنه ـ عليه السلام ـ قد تقدمه مؤمنون كثيرون أنبياء وغير أنبياء.

* * *

(١) سورة البقرة: الآية (٢٤٣).

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٤٦).

(٣) انظر: تفسير الألوسي (٩/ ٤٦).

المبحث الرابع
مسألة اختلاف أهل السنة والمعتزلة
في وقوع رؤية الله

اختلف علماء أهل السنة والمعتزلة في وقوع رؤية الله ـ تعالى ـ في الدنيا والآخرة فيرى أهل السنة جواز وقوع رؤية الله ـ تعالى ـ في الدنيا عقلاً، إذ لا مانع منها إلا عدم تحملها، كما يقطعون بوقوعها في الآخرة للمؤمنين لقوله تعالى: ﴿ **وجوهٌ يومئذ ناضرةٌ (٢٢) إلىٰ ربها ناظرةٌ** ﴾[١] وهي وجوه المؤمنين قطعًا بقرينة ﴿ **ووجوهٌ يومئذ باسرةٌ** ﴾[٢] وبقوله ـ تعالى ـ في شأن الكفار كما يدل عليه السياق، والسياق ﴿ **كلاَّ إنهم** ﴾ أي: الكفار ﴿ **عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾[٣] ولما أسلفته من الحديث الصحيح عن مسلم في تفسير قوله تعالى: ﴿ **قال لن تراني** ﴾[٤] أما المعتزلة فيرون استحالة وقوعها في الدنيا والآخرة لأنها علقت في الدنيا على مستحيل والمستحيل لا يتصف بالوقوع، فما علق عليه فهو مستحيل مثله، وقد أوجزت شيئًا من رد أهل السنة، قالوا: إن قوله تعالى: ﴿ **قال ربِّ أرني أنظُرْ إليْك** ﴾ يدل على إمكان وجواز الرؤية وذلك من وجهين:

أولهما: أن نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ سألها بقوله: ﴿ **ربِّ أرني أنظُر إليْك** ﴾ ولو كانت مستحيلة ما سألها موسى ـ عليه السلام ـ وهو كما هو معلوم من أولي العزم من الرسل ولا يتصور أن يسأل موسى ـ عليه السلام ـ المحال، فإن

(١، ٢) سورة القيامة: الآيات من (٢٢) إلى (٢٤). وقوله: ﴿ باسرة ﴾ أي: كالحة شديدة العبوس، انظر: تفسير الجلالين ص (٤٩٤).

(٣) سورة المطففين: الآية (١٥).

(٤) انظر: ص (٥١٢) من بحثنا هذا.

قيل: إن موسى ـ عليه السلام ـ لم يكن عالمًا بالاستحالة؟ فالجواب أن يلزم من ذلك أن يكون آحاد المعتزلة ومن حصل على طرف من علومهم أعلم بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز من النبي الصفي، والقول بذلك غاية الجهل والرعونة، وحيث بطلَ القول بالاستحالة تعيّنَ القول بالجواز[١] ولا شك أن اعتقاد ما لا يجوز ولا سيما في الأمور العقائدية كفر، ولا يجوز أن يجهل موسى ـ عليه السلام ـ مثل ذلك لأن معرفة الأنبياء ليس فيها نقص، ومما يقوي ما ذهب إليه أهل السنة من جواز الرؤية أن الله ـ تعالى ـ لم ينكر عليه المسألة وإنما منعه من الرؤية، ولو استحالت عليه لقال: (لا أرى) ألا ترى أن نوحًا ـ عليه السلام ـ لما قال: ﴿إنَّ ابني من أهْلي﴾[٢] أنكر عليه ـ جل وعلا ـ بقوله: ﴿إنَّهُ ليْس من أهْلك﴾[٣]؟

ولقد سبق أن بينا معنى ﴿لن تراني﴾ وقلنا: إنها مستأنفة استئنافًا بيانيًا، كأنه قيل: فماذا قال الله حين قال موسى ذلك؟ فكان الجواب ﴿لن تراني﴾ أي: لن تطيق رؤيتي وأنت على هذه النشأة والحالة الدنيوية التي أنت عليها[٤].

ثانيهما: ومما يدل على جواز الرؤية ويقوي ما ذهب إليه أهل السنة أنه ـ جل وعلا ـ علقها على استقرار الجبل وذلك ممكن في نفسه، وما علق على الممكن ممكن، فدل على أنها جائزة، ألا ترى أن دخول الكفار إلى الجنة لما استحال علّقه بمستحيل فقال: ﴿إنَّ الَّذين كَذَّبوا بآياتنا واسْتَكْبَروا عنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أبْوَابُ السَّماء ولا يدْخُلُونَ الْجنَّةَ حتَّىٰ يلجَ الْجَملُ في سَمِّ الْخيَاطِ وكَذَلكَ نَجْزي الْمُجْرمين﴾[٥]؟ فلما استحال دخول المكذبين والمستكبرين إلى الجنة علق ذلك

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٤٦، ٤٧).

(٢) سورة هود: الآية (٤٥).

(٣) سورة هود: الآية (٤٦).

(٤) انظر: ص (٥١٢) من بحثنا هذا.

(٥) سورة الأعراف: الآية (٤٠).

على المستحيل[١].

والحق الذي أدين به أن رؤيته ـ تعالى في الآخرة متحققة للمؤمنين لا محالة لما أسلفته من الآيات والأحاديث، وأن المعتزلة في هذه المسألة مخفقون محجوجون، وأدلتهم واهية، وتوهمهم أنها علقت في الدنيا على مستحيل قد رَددتُ عليه في خلاصتي، وهَبْهَا عُلِّقت على مستحيل في الدنيا فهل تقاس أمور الآخرة بالدنيا؟ وهل يقاس الغائب على الشاهد؟ اللهم لا.

وقد ذكرت هذه المسألة لأنها تصور الصراع بين الحق والباطل في أجلى صورة إذا النصوص ثابتة بثبوت الرؤية في الآخرة، ولا ينفع المعتزلة قتالهم على العقل مع وجود النص.

قال شارح العقيدة الطحاوية: «وهذه المسألة من أشرف مسائل الدين وأجلها وهي الغاية، شمّر إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مردودون»[٢] والله أعلم.

* * *

(١) وقد توسع الألوسي في بيان وجهة كل فريق، ومن أراد التوسع فليرجع إلى تفسيره (٩/ ٤٦ ـ ٥٣).

(٢) وقد بسط الشارح الإمام علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي الكلام في هذه المسألة، ومن أراد التوسع فليراجع كتابه شرح العقيدة الطحاوية ص، (٣٠٣ ـ ٢١٤).

المبحث الخامس
تسلية موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن منع من الرؤية وذكر بعض نعم الله عليه

قال تعالى: ﴿ **قال يا مُوسىٰ إنِّي اصْطفيْتُك على النَّاس برسالاتي وبكلامي فخُذْ ما آتيْتُك وكُن مِن الشَّاكرين (١٤٤) وكتبنا لهُ في الألْواح من كُلِّ شيْءٍ مَوْعظةً وتفْصيلاً لكُلِّ شيْءٍ فخُذْها بقُوَّةٍ وأْمُرْ قومك يأْخُذُوا بأحْسنها سأُريكُمْ دار الفاسقين** ﴾[١].

فقوله تعالى: ﴿ **قال يا مُوسىٰ** ﴾ استئناف مسوق لتسلية موسى ـ عليه السلام ـ من عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية كأنه قيل: إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما أعطيتك فاغتنمه وثابر عليه[٢].

وقد ناداه ـ جل وعلا ـ باسمه تكريمًا له ومؤانسة ومباسطة فإن مما يسر عبد الملك أن يذكره الملك باسمه للدلالة على التقارب والتآلف وقوله: ﴿ **إنِّي اصْطفيْتُك على النَّاس** ﴾ أي: اخترتك، وهو افتعال من الصفوة، وأكد الحق ـ جل وعلا ـ ذلك بـ (إنَّ) لبيان شدة اعتنائه ـ سبحانه وتعالى ـ بموسى فلقد كان هارون ـ عليه السلام ـ نبيًا ومع ذلك لم يصل إلى هذه المرتبة، والمعنى: أني اخترتك من بين عالمي زمانك لرسالاتي ولكلامي مع أن في عالمي زمانك من لو هيأته لهذا الاصطفاء لصلح كأخيك هارون ـ عليه السلام ـ فليكن ذلك مني مدعاة لمزيد شكرك لي، ومزيد استشعار منتي عليك، وقال تعالى: ﴿ **إنِّي اصْطفيْتُك على**

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٤٤، ١٤٥).

(٢) تفسير الألوسي، (٩/ ٥٥).

﴿النَّاسِ﴾ دون أن يقول على الخلق؛ لأن الملائكة يسمعون كلام ربهم بلا واسطة فلو قال الحق ـ تعالى ـ اصطفيتك على الخلق لشاركته الملائكة في هذه المزية.

واختيار الله له واصطفاؤه بالرسالة وبالكلام ـ كما سيأتي ـ هو كتفضيله قومه على عالمي زمانهم بقوله تعالى: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾[1].

وقوله: ﴿برسالاتي﴾ أي: بأسفار التوراة، وجاءت بصيغة الجمع نظرًا إلى أن التوراة التي أوتيها ـ عليه السلام ـ كانت أسفارًا متعددة، كل سفر منها رسالة، أو لأن الله أوحى إليه مرة بعد مرة وكلمه كثيرًا، وفي كل مرة يفيض عليه ويعطيه، فهي بمثابة رسالة فصحّ الجمع بهذا المعنى.

وقرأ نافع وابن كثير: ﴿برسالاتي﴾ بالإفراد، وهذه القراءة لا تعارض قراءة الجمع لأنها صيغة من صيغ العموم، وصيغ العموم يصح إحلالها محل الجمع، أو لأنها مصدر كما قال الفخر الرازي. «وكثيرًا ما يُعَبَّر عن المعاني المتعددة بالمصدر مفردًا»[2] وقد يسأل سائل: أيّ مزية لموسى ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى: ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي﴾ وقد سبقه في هذا الاصطفاء رسل كما لحقه آخرون؟ والجواب عن هذا التساؤل: أن مزية موسى ـ عليه السلام ـ حصلت بمجموع الأمرين بالاصطفاء بالرسالة وبالكلام مباشرة بينما غيره اصطُفي بالرسالة وجاءه الوحي بالواسطة، ولا شك أن تكليم الحق لموسى مباشرة فيه مزية عظمى له؛ إذ الفرق عظيم بين أن يخاطبك الملك بنفسه وبين أن يخاطبك بوزيره. ﴿فخذ ما آتيتك﴾ أي: احرص عليه غاية الحرص ولا يهوّنه عليك أني منعتك رؤيتي لعدم تهيئك لها، وحاشا لموسى ـ عليه السلام ـ أن يكون هان عليه ما أتاه ربه إياه، أو أن يكون قد توقف في أخذه، فليس ذلك هو المقصود من

(١) سورة البقرة: الآية (٤٧).

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٣٦).

الأمر، وإنما المقصود تهييجه على مزيد الشكر، وتخفيف وطأة منع الرؤية عليه بمؤانسة قلبه بالتشبث بما آتاه وخلع عليه، وقد حذف المفعول في قوله تعالى: ﴿ **ما آتيتُك** ﴾ إما للعلم به وهو التوراة، أو لأن الله آتاه أسرارًا وعطيات تخصه، فيكون المعنى: فخذ ما آتيتك مما هو بيني وبينك والذي لم أطلع عليه غيرك في زمانك، والتوراة التي بعثتك بها لإصلاح بني إسرائيل.

ولا غرابة في حذف هذا المفعول لأنه عائد على اسم موصول، والعائد كثيرًا ما يحذف، وإذا حملنا (ما) الموصولة على معناها الخاص وهو التوراة فالتعبير عنه بـ (ما) إشادة به وبعلو شأنه إذ هو لظهوره لا يحتاج إلى ذكر اسمه.

﴿ **وكن من الشاكرين** ﴾ أي: دُم على الشكر، وقم بموجبه علمًا وعملاً، فالأمر هنا ليس لطلب ما لم يكن موجودًا، بل هو للثبات على ما تخلّق به موسى ـ عليه السلام من شكره لربه وعبوديته له، ثم فصّل ـ جل وعلا ـ بعض النعم التي منحها لنبيه موسى ـ عليه السلام ـ فقال تعالى: ﴿ **وكتبنا له في الألواح من كُلِّ شيءٍ موعظة وتفصيلا لكُلِّ شيءٍ** ﴾[1].

والمراد بالألواح ألواح التوراة، واختُلف في عددها وفي ماهيّتها، ولم يرد نص صريح عن النبي ـ ﷺ ـ في عددها وما هيتها، فالأفضل تفويض معرفة ذلك إلى الله ـ تعالى ـ.

وهذه الألواح هي الصحف التي أخبر عنها ـ جل وعلا ـ في قوله تعالى: ﴿ **أَمْ لم يُنبَّأْ بما في صحف موسى** ﴾[2] وهي الكتاب والفرقان التي ذكرتها آية البقرة في قوله تعالى: ﴿ **وإذْ آتينا موسى الْكتاب والْفُرْقَانَ لعلَّكُمْ تهْتَدُونَ** ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٥).

(٢) سورة النجم: الآية (٣٦).

(٣) سورة البقرة: الآية (٥٣).

والمعنى المراد من قوله: ﴿ **وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا** ﴾ أي: كتبنا لموسى ـ عليه السلام ـ في ألواح التوراة من كل شيء يحتاجون إليه؛ من الحلال والحرام، والحكم والعبر، والمحاسن والقبائح.

﴿ **موعظة وتفصيلا لكل شيء** ﴾ بدل من الجار والمجرور أي: كتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام[١].

﴿ **فخذها بقوة** ﴾ أي: بجد وحزم وعزيمة[٢] وليس معنى هذا أن موسى ـ عليه السلام ـ سيقصِّر في القيام بها، فهذا منتف في حقه بمقتضى العصمة، وإنما المقصود والغرض من ذلك تنبيه بني إسرائيل على الاستمساك بما في هذه الألواح والحرص التام على العمل بها فيها، لأن أمر الله لكليمه أن يأخذها بقوة ـ والشأن فيه أنه كذلك بمقتضى العصمة ـ يقتضي أن يوجه هذا الأمر لقومه لأن التفريط متوقَّع منهم بل قد حصل كما سنعرفه قريبًا[٣].

﴿ **وأْمُرْ قومك يأْخُذوا بأحْسنها** ﴾ أي: بأحسن ما فيها كالعفو والصبر فكان فيها القود والعفو فأمروا بالعفو . . . إلخ. فأفعل التفضيل إذن على بابه، ويجوز أن يكون أفعل التفضيل ليس على بابه وأنه جيء به لثبوت الوصف في نفسه، فيكون المراد من قوله: ﴿ **يأْخُذوا بأحْسنها** ﴾ أي: بحسنها إذ كل ما فيها حَسن، فليس في هذه الألواح شيء إلا وهو حسن، وجعل أحسن على بابها أقوى وأظهر.

وقوله تعالى: ﴿ **سأُريكُمْ دار الْفاسقين** ﴾[٤] المخاطبون هنا هم بنو إسرائيل، وقد التفت القرآن من أسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿ **وأْمُرْ قومك يأْخُذوا**

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧٠)، وتفسير الألوسي، (٩/ ٥٧).

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٥٨).

(٣) انظر: ص (٥٣١) من بحثنا هذا.

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٤٥).

﴿بأحسنها﴾ إلى أسلوب الخطاب حملاً لبني إسرائيل على الجد في الامتثال بما أمروا به. والمقصود بقوله ـ تعالى ـ لبني إسرائيل: ﴿سأُريكُمْ دار الْفاسقين﴾ إما الوعيد والتهديد على أن المراد بدار الفاسقين أرض مصر ودار عاد وثمود وأضرابهم، أي: إنكم إن نأيتم عما أمرتكم به، وكفرتم بما أنزل عليكم، فعلت بكم مثل ما فعلته بهؤلاء الذين أريتكم ديارهم، وقد خَلت منهم وحلَّ بهم من العذاب ما لا يخفى عليكم؛ وإما على جهة الوعد، وأن المقصود بهذا القول الكريم تمكينهم من أرض فلسطين التي كانت ديار العمالقة والجبارين في ذلك الوقت، مع أنها كانت في السابق موطن الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ عليهم السلام ـ كما كانت ديار توحيد وطاعة لله ـ عز وجل ـ والمعنى على هذا الرأي: إنكم إن التزمتم بما أنزل إليكم وأخذتم بأحسن ما جاءكم هديتكم وسلكت بكم سبيل الرشاد، ومكنت لكم من عدوكم. ولبيان هذين المعنيين بيَّن لهم في الآيتين التاليتين حال المتكبرين والمكذبين بآيات الله ـ تعالى ـ حمانا الله وحفظنا، إنه سميع مجيب[1].

* * *

(١) بتصرف من تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧١).

المبحث السادس
تحذير بني إسرائيل
بتجنب مسالك الهالكين والضالين

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ استئناف مسوق لتحذير بني إسرائيل عن التكبر الموجب لعدم التفكر في الآيات التي كتبت في ألواح التوراة المتضمنة للمواعظ والأحكام أو ما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية، التي من جملتها ما وُعدوا إراءته من دار الفاسقين، ومعنى صرفهم عنها: منعهم بالطبع على قلوبهم فلا يكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها لإصرارهم على ما هم عليه من التكبر والتجبر كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ[2]﴾[3].

والآية الكريمة تصور لنا بوضوح مسالك الذين أعمى الله بصيرتهم وطمس على قلوبهم بأسلوب معجز، فهم عاجزون عن فهم الحجج والأدلة على عظمتها، والآيات التنزيلية التي فيها هدايتهم ورشدهم، وذلك بسبب تكبرهم

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٤٦، ١٤٧).

(٢) سورة الصف: الآية (٥).

(٣) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٦٠).

وجحودهم وظلمهم.

ومعنى قوله: ﴿ **يتكبَّرُون** ﴾ أي: يرون في أنفسهم أنهم أفضل الخلق، وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم، وصفة التكبر صفة ذم في جميع العباد وصفة مدح في الله ـ جل جلاله ـ لأنه يستحق إظهار ذلك على مَن سواه، لأن ذلك في حقه حق وفي حق غيره باطل.

وقوله: ﴿ **بغير الْحقّ** ﴾ إما حال، أي: يتكبرون غير محقين لأن التكبر بالحق لله وحده[١] ويجوز أن تكون جملة ﴿ **بغيْر الْحقّ** ﴾ صلة للتكبر، أي: يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل وظلمهم المفرط[٢].

وصرف أهل الباطل عن الحق من أعظم المحن لأن هؤلاء المتكبرين المصروفين عن الحق يرون الحق باطلاً والباطل حقًا ـ أسأل الله لي ولك العافية والسلامة ـ وقد شاهد بنو إسرائيل أمثلة واضحة جلية لأمثال أولئك، وهم قوم فرعون الذين ابتلاهم الله ـ جل وعلا ـ بالآيات العظيمة المخيفة، التي لم يُبتلَ بها أحدٌ من الأمم التي سبقتهم بما ابتلاهم الله به، والتي وصفها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه بقوله: ﴿ **وما نُريهم مِّن آية إلاَّ هي أكْبرُ من أُخْتها وأَخذْناهُم بالْعذَاب لَعلَّهُمْ يرجعُون** ﴾[٣] ومع ذلك كانوا كلما أتتهم آية ينكثون وعدهم، ويعودون إلى كفرهم وضلالهم، وقد أشرت إلى ذلك سابقًا[٤].

فهل ذلك يكون رادعًا لبني إسرائيل وزاجرًا لهم؛ فيتجنبوا الباطل ويكفوا عن كفرهم؟ وفي أيامنا هذه ما أكثر مَن يرون الحق واضحًا جليًا، ومع ذلك يصرون على الباطل حتى طبع على قلوبهم، ونسوا خالقهم ومدبر أمرهم، كما

---

(١) تفسير النسفي، (٢/ ٧٧).

(٢) تفسير أبي السعود (٣/ ٢٧٢).

(٣) سورة الزخرف: الآية (٤٨).

(٤) انظر: من ص (٤٠٦) إلى ص (٤١٤) من بحثنا هذا.

قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[1] وليس ذلك لعلم امتازوا به عن غيرهم، أو لأن الحق ملتبس عليهم، بل لنسيانهم قانون الله الذي لا يتبدل والمذكور في هذه الآية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ هو نتيجة لصرف المتكبرين في الأرض بغير الحق عن آياته ـ تعالى ـ لأنهم بالصرف قد حيل بينهم وبين تدبرها، والمراد بالآيات ما يعم المُنزَّلة والكونية، فهم لصرفهم لا يصغون للآيات التنزيلية عند سماعها ولا يعتبرون بالآيات الكونية عند رؤيتها، فهم مصروفون عن الإيمان بكل آية على حدة، ولا يتوقع منهم التأثر بأية آية تنزيلية أو كونية وفي التعبير بـ ﴿إِن﴾ و ﴿كُلَّ آيَةٍ﴾ إعجاز ظاهر وتصوير دقيق لنفسية أولئك المتكبرين، فرؤويتهم للآيات لا تقع منهم إلا على قلة، وهي وإن وقعت لا يستفيدون منها بحال، والعجيب في الأمر في إنسان زماننا الحاضر أنه مُكّن له بالصعود إلى القمر ورؤية هذا الكون العجيب وما فيه من الآيات الباهرة التي تدل على الخالق العظيم، والوقوف عليها من قرب، ومع ذلك نراه ممعنًا في كفره وباطله، والسبب في ذلك ما أشارت إليه خاتمة الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ أي: الهدى ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ في أي وقت من الأوقات، ولا ينحازون إليه بحال لأن سبل الهدى لا تُعرف إلا من الآيات المُنَزَّلة أولاً، فلا سبيل للاهتداء إلا بذلك، والتفكير بالآيات الكونية معضد لما جاءت به الآيات التنزيلية، فكيف يسلكون سبيل الرشاد وقد استولى الشيطان عليهم، وطبائعهم منجذبة إلى الباطل، منصرفة كل الانصراف عن الحق؟ إن ذلك لا يكون منهم أبدًا فهم مصروفون حتى عن محاولة ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ أي: الضلال وعدم الاهتداء ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ يلازمونه ولا ينفكون عنه بحال من الأحوال على حد

(١) سورة الحشر: الآية (١٩).

قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** ﴾[1] فكيف يستجيب المصروفون عن الحق وينأون عن الباطل وقد صرفهم الله المالك لقلوبهم التي لا تميل إلى الاهتداء أو تنصرف إليه، وقد حجبهم الله عن الاهتداء، فلا يكون منهم إلا سلوك سبيل الغواية؟

وقوله تعالى: ﴿ **يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا** ﴾ يدل على شدة تشبثهم بسبيل الضلالة والدفاع عنه بكل وسيلة، ولذا نرى أهل الكفر ودعاة الباطل يستعذبون في سبيل باطلهم إزهاق أرواحهم مع ظهور بطلان باطلهم!!

وقوله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** ﴾ بيان لسبب صرف المتكبرين في الأرض بغير الحق، وعدم إيمانهم بآيات الله ـ تعالى ـ ونأيهم عن سبل الرشد، واستمساكهم بسبل الغواية.

والإشارة بقوله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ** ﴾ راجعة إلى كل ما ذُكر من أحوالهم في هذه الآية، والمعنى: أن ما وصفوا به من تلك الأوصاف راجع إلى تكذيبهم بآيات الله المنزلة على ألسنة رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إن قلنا: إن الآيات هي التنزيلية، وإن قلنا بما يعم التنزيلية والكونية يكن المعنى: إنهم لفرط كفرهم وتكذيبهم بكل آية ينسبون الآيات الكونية لغيره ـ سبحانه وتعالى ـ أو: لا يرون أنه المنفرد بخلقها.

وكلمة ﴿ **كَذَّبُوا** ﴾ تدلك على أنهم أبعدوا في التكذيب بهذه الآيات غاية الإبعاد، ولم يتركوا للتصديق بها مجالاً في قلوبهم، فهم عنها في غاية الغفلة، ولذا ختمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ **وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** ﴾ أي: هم غافلون عنها باستمرار، وجيء بـ (كان) لبيان تحقق هذه الغفلة واستمرارها.

ثم آيس تعالى الذين كذبوا بآيات الله وبلقاء الآخرة من أن يقبل منهم أي

---

(١) سورة يونس: الآيتان (٩٦، ٩٧).

عمل صالح جرى على يديهم في الدنيا وصلة رحم، أو إغاثة ملهوف، أو إحسان إلى مسكين؛ لأنهم لم يعملوها لله ـ عز وجل ـ وإنما عملوها بدوافع نفسية أملتها عليهم بيئتهم المحيطة بهم.

فقال تعالى: ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم** ﴾[١] أي: الصالحة، أي: أزيلت وذهبت، فلا ينتفعون بها أيَّ انتفاع على حد قوله تعالى: ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** ﴾[٢] والهباء يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيهًا بالغبار[٣] وهو رغم ضآلته التي يستحيل معها تجميعه وُصف بالمنثور، أي: المفرق، بقصد تيئيس الكفار من الانتفاع بأعمالهم الصالحة.

﴿ **هل يجزون إلا ما كانوا يعملون** ﴾[٤] معناه: ما يجزون إلا بالجزاء الذي يناسب أعمالهم في الدنيا، من التكبر في الأرض بغير الحق، والكفر بآيات الله كلها، وإهمال سبل الرشد، وسلوك سبل الضلالة، أي أن عملهم من الصالحات لا ينتفعون به كما ينتفع المؤمنون، وما عملوا من السيئات لا يغفر لهم بل يجازون عليه بالعذاب الأليم، وقد عبر عن ذلك بأسلوب الاستفهام إمعانًا لتأكيد معاقبتهم على سوء أعمالهم، وعدم انتفاعهم بصالحها، ولما له من أثر في نفوس السامعين، وحتى لا يغترّ بأعمالهم المؤمنون، ولا يركن إليهم ذو عقل سليم.

ورغم تحذير بني إسرائيل بهاتين الآيتين الكريمتين اللتين بيَّنتا فعل الحق ـ سبحانه ـ بالمتكبرين في الأرض بغير الحق، فإن بني إسرائيل من عهد موسى ـ عليه السلام ـ وإلى أن تقوم الساعة لم ينتفع منهم بهذا التحذير إلا فريق منهم

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٧).

(٢) سورة الفرقان: الآية (٢٣).

(٣) تفسير النسفي، (٣/ ١٦٣).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٤٧).

على حد قوله تعالى: ﴿ **ومن قوم موسىٰ أمّةٌ يهدُون بالْحقّ وبه يعْدلُون** ﴾[١] ومنهم أمم كثيرة أعرضت عن الحق، وكفرت بالواحد الأحد، وناصبت أهل التوحيد العداء، وحاربتهم بألوان شتى من المحاربة تحدث القرآن الكريم عنها في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿ **وضُربتْ عليهمُ الذلّةُ والْمسْكنةُ وباءُوا بغضبٍ منَ اللّه ذلك بأنّهمْ كانُوا يكْفُرُون بآيات اللّه ويقْتُلُون النّبيّين بغيْرِ الْحقّ ذلك بما عصوا وّكانُوا يعْتدُون** ﴾[٢].

وسترى في الآيات التالية كفر قوم موسى بربهم، واتخاذهم العجل معبوداً لهم من دون الله ـ تعالى ـ وموقف نبيهم منهم، وتوبتهم ثم تكرر معصيتهم، وإذا وقع ذلك منهم في عهد موسى ـ عليه السلام ـ فوقوعه منهم بعده أشيع وأكثر كما فصّله القرآن وبيّنه في آيات كثيرة لا يتسع لذكرها موضوعي هذا.

* * *

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٩).

(٢) سورة البقرة: الآية (٦١).

المبحث السابع
عبادة بني إسرائيل للعجل
في غيبة موسى ـ عليه السلام ـ
وعدم انتفاعهم بما وعظهم الله به

قال تعالى: ﴿ واتَّخذ قومُ موسىٰ من بعْده من حُليِّهم عجلا جسدا لَّهُ خُوارٌ ألم يروْا أنَّهُ لا يُكلِّمُهُمْ ولا يهْديهم سبيلا اتَّخذُوهُ وكانُوا ظالمين ﴾[١].

على الرغم من النعم التي حباها المولى الكريم بني إسرائيل، وقلدها رقابهم، وأغدقها عليهم، وذلك في تخليصهم من الذل الذي عاشوا فيه قرونًا عديدة تحت وطأة حكام مصر وملوكها الفراعنة، وإنجائهم من الغرق في البحر وإغراق عدوهم أمام أعينهم، وغير ذلك من النعم العظيمة، مع ذلك جحدوا نعم الله عليهم، ومالت نفوسهم إلى الشرك بالله بعد خروجهم من مصر وهم في طريقهم إلى الطور، فما إن شاهدوا أناسًا يعكفون على أصنام لهم حتى قالوا لنبيهم موسى ـ عليهم السلام ـ: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، فقال لهم نبيهم: ﴿ إنَّكُم قومٌ تجْهلُون (١٣٨) إنَّ هؤلاء متبَّرٌ مَّا هم فيه وباطلٌ مَّا كانُوا يعملُون (١٣٩) قال أغير اللَّه أبْغيكُمْ إلها وهُو فضَّلكُمْ على الْعالمين ﴾[٢] ثم ذكرهم في الآية التي تلى الآيات السابقة بنعم الله عليهم[٣] ﴿ وإذْ أنجيْناكُم مِّنْ آل فرعوْن يسُومُونكُمْ سُوء الْعذاب يُقتِّلُون أبْناءكُمْ ويستحيُون نساءكُمْ وفي ذلكُم بلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عظيمٌ ﴾[٤].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٨).

(٢) سورة الأعراف: الآيات من (١٣٨) إلى (١٤٠).

(٣) انظر: ص (٤٩٥) من بحثنا هذا في بحث (جحود بني إسرائيل).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٤١).

ثم إنهم انتهزوا انقطاع وغياب موسى عنهم عند ذهابهم للقاء ربه، فصنع لهم السامري[١] من حليهم عجلاً عبدوه من دون الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتبجحوا بتلك العبادة غاية التبجح، حتى إنهم كادوا يقتلون هارون ـ عليه السلام ـ لما نصحهم ببطلان ما هم عليه: ﴿ **قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي** ﴾[٢] ثم زعموا أن العجل هو إلههم وإله نبيهم موسى ﴿ **فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ** ﴾[٣].

وقد بدأت سورة الأعراف بالحديث عن اتخاذ بني إسرائيل العجل معبودًا لهم، وتركت الحديث عمن صنعه وأغراهم بعبادته لسورة طه ولذا أجدني مضطرًا قبل تفسير آية الأعراف ﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ ...** ﴾ وما بعدها أن أتعرض لما أحالته سورة الأعراف على سورة طه لسببين:

أولاً: لأنه يجلي الصراع بين الحق والباطل الذي هو موضوع هذه الرسالة.

ثانيًا: لكي تكون القصة مكتملة بين يدي القاريء حتى لا يبقى مشغوفًا بالبحث عن مقدماتها.

وسأحاول الإيجاز فيه ما استطعت، وتبدأ قصة هذا الصراع في سورة طه بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ** ﴾[٤] والاستفهام في هذه الآية إنكاري قصد به معاتبة

---

(١) السامري: هو موسى بن ظفر. ينسب إلى قرية من قرى بني إسرائيل تدعى سامرة، وكان منافقًا، وهو الذي أضل بني إسرائيل، وقد جُوزي على ذلك بأن منع مخالطة الناس منعًا كليًا، وحُرِّم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته، وإذا اتفق أن مس أحدًا حمَّ الماس والممسوس، وكان يهيم في البرية يصيح: لا مساس، قال تعالى: ﴿ **قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس** ﴾ سورة طه: الآية (٩٧). انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٨٤)؛ وتفسير النسفي (٣/ ٦٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٥٠).

(٣) سورة طه: الآية (٨٨).

(٤) سورة طه: الآيتان (٨٣، ٨٤).

موسى ـ عليه السلام ـ لتقدمه على قومه؛ لأن تقدمه عليهم أوقعهم في إضلال السامري وفتنته إياهم بالعجل الذي صنعه لهم.

والمراد بالقوم في قوله: ﴿ **عن قومك** ﴾ هنا إما السبعون المختارون لمصاحبته أثناء تكليم الله له كما صرحت به آية الأعراف والتي سيأتيك نبأها[١] وإما بنو إسرائيل بعامة.

وعلى التفسير الأول لكلمة القوم، يكون المختارون من بني إسرائيل لمصاحبة موسى قد أصابهم إضلال السامري كما أصاب عامة بني إسرائيل، وقد اعتذر موسى ـ عليه السلام ـ لربه باعتذارين.

أولهما: قوله تعالى: ﴿ **قال هُمْ أُولاء علىٰ أثري** ﴾ أي: ليس بيني وبينهم مكان شاسع، أو زمان متطاول، أي: هم قريبون مني، وتقدمي عليهم بمثابة تقدم إمام القوم إلى الملك ليهيئ لهم المكانة عنده.

والاعتذار الثاني: هو قوله تعالى: ﴿ **وعجلْتُ إليْك ربِّ لترضىٰ** ﴾ أي: ليدوم رضاك عليّ، وليظهر عظيم شوقي إلى لقائك، واقعًا كما علمته مستترًا في قلبي، ولعل سبب هذا العتاب هو اجتهاد موسى ـ عليه السلام ـ في العجلة إلى ربه دون أن ينتظر الوحي الذي يحدد له ميعاد مفارقته قومه لمناجاة ربه ـ تعالى ـ فلم يقره الله على هذا الاجتهاد[٢].

وقد بيَّن الله سر هذه المعاتبة فقال: ﴿ **قال فإنَّا قدْ فتنَّا قومك منْ بعْدك** ﴾[٣] أي: أوقعناهم في الفتنة، وهي عبادة العجل من دوننا، وهذا يرجح أن المراد بالقوم هم الذين خلف عليهم موسى أخاه هارون، وهم عامة بني إسرائيل لا المختارون، وقوله تعالى: ﴿ **وأضلَّهُمُ السَّامريُّ** ﴾ أي: بإغوائه إياهم بعبادة

---

(١) قال تعالى: ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ﴾ سورة الأعراف: الآية (١٥٥).

(٢) بتصرف من تفسير الفخر الرازي، (٢٢/ ٩٨، ٩٩).

(٣) سورة طه: الآية (٨٥).

العجل، وصرفهم عن عبادة الواحد الأحد، واستخفافه بعقولهم، وعلمه بأنهم مهيأون لعبادة غير الله بما تعودوه في مصر، وتأثرهم بعبادة المصريين للأشخاص أو الحيوانات على ما تذكره كتب تاريخ مصر القديم(١).

وقد اختلفوا في أن السامري من بني إسرائيل أو من غيرهم، وهذا لا يعنينا كثيراً، إنما المهم المقصود هو إضلاله بني إسرائيل، وكيف راجت عندهم خدعته، وقد وجدوا من عناية ربهم بهم وإفاضته نعمه العظام عليهم ما يحول بينهم وبين ما وقعوا فيه، لو تأملوها وتذكروها، لكنهم كانوا قليلي التأمل والتذكر.

وقوله تعالى: ﴿ **فرجع موسىٰ إلىٰ قومه** ﴾ أي: المفتونين بما صنعه السامري، من حيث كان يناجي ربه، وقد أعلمه ربه بما أحدث قومه من عبادة العجل ﴿ **غضبان** ﴾ ممتلئا غضباً ﴿ **أسفا** ﴾ أي شديد الحزن - كما روي عن ابن عباس(٢) - من كفر قومه بالله - عز وجل - وعكوفهم على عبادة العجل في غيبته، ولذا عاتبهم العتاب الشديد، ووبخهم أشد التوبيخ على ما وقعوا فيه.

﴿ **قال يا قوم ألم يعدكم ربكم** ﴾ الواحد الأحد الذي أنجاكم من عدوكم، وجعل لكم البحر طريقاً يبساً «والهمزة لإنكار عدم الوعد ونفيه وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكده، أي: وعدكم»(٣).

﴿ **وعدا حسنا** ﴾ يأتيكم على يدي أثناء غيبتي عنكم، وهو مجيء التوراة التي فيها صلاح دينكم ودنياكم وآخرتكم، أو الثواب على طاعاتكم بينما العجل الذي عبدتم لا يعرفكم ولا يشعر بتقربكم له بالعبادة، ثم زاد في توبيخه وإنكاره عليهم، قال تعالى: ﴿ **أفطال عليكم العهد** ﴾ والمراد بالعهد هنا: الزمان، أي: لم

---

(١) انظر: الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث لميخائيل شاروبيم بك (١/ ٩٣ - ٩٨) والديانات والعقائد في مختلف العصور لأحمد عبد الغفور عطار ص (٣٠٧) مكة المكرمة: ١٤٠١هـ.

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (١٦/ ٢٤٤).

(٣) تفسير الألوسي، (١٦/ ٢٤٤).

تطل غيبتي عنكم حتى تنسوا عبادة الواحد الأحد، وتعبدوا ما لا يملك لكم ضرًا ولا نفعًا، والاستفهام هنا إنكاري بمعنى النفي، أي: لم تطل غيبتي عليكم حتى تعتذروا بها عما وقعتم فيه، وقد خلفت عليكم، أخي هارون، نبي الله ـ تعالى ـ فكيف عصيتموه؟

ثم أضرب عن هذا التوبيخ إلى بيان دخائل نفوسهم، وما رغبوا فيه، وهو الوقوع في غضب الله ـ تعالى ـ باكتسابهم ما يؤدي بهم إليه ﴿ **أم أردتُم أن يحلَّ عليكُم غضبٌ مِن ربِّكُم فأخلفتُم مَوعدي** ﴾ الذي وعدتموني أثناء غيبتي عنكم باستقامتكم وثباتكم على الدين الحق.

وقد استشعر بنو إسرائيل قبح ما صنعوا فحاولوا أن يتعذروا لموسى ـ عليه السلام ـ بما لا يصلح اعتذارًا ﴿ **قالُوا ما أخلفْنا موعدك بملكنا** ﴾ أي: برغبتنا وإرادتنا ﴿ **ولكنَّا حُمِّلْنا أوْزارا مِن زينة القومِ** ﴾ أي: حملنا حلي المصريين التي استعرناها منهم لنتجمل بها في يوم عيد لنا، ثم خرجنا بها من مصر ولم ندر ماذا نفعل فيها. فأشار علينا السامري بإلقائها في حفرة، وقد ألقى ما معه من حليّ في تلك الحفرة ليغرينا بإلقائها لئلا ننتظر توجيهك فيها، فأوقد عليها النار، وصنع منها عجلاً جسدًا له خوار أضلنا به، وأغرانا بعبادته، قال تعالى: ﴿ **ولكنَّا حُمِّلْنا أوْزارا مِن زينة القومِ فقذفْناها فكذلك ألْقى السَّامريُّ** ﴾[1].

والآن أعود إلى سورة الأعراف ـ موضوع رسالتي ـ لأتناول آيات هذه القصة بالتفسير وبذلك الجهد فيها. والله المستعان وعليه الاتكال.

قال تعالى: ﴿ **واتَّخذ قومُ موسىٰ من بعْده من حُليِّهم عجْلاً جسدًا لَّهُ خُوارٌ ألم يروْا أنَّهُ لا يُكلِّمُهُمْ ولا يهْديهِمْ سبيلاً اتَّخذُوهُ وكانُوا ظالمين** ﴾[2] أي: اتخذوه إلهًا

---

(١) سورة طه: الآية (٨٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٤٨).

معبودًا، والتضعيف في كلمة ﴿ **اتَّخذ** ﴾ يدل على أنهم تكلفوا ذلك وافتعلوه، ولو فكروا أدنى تفكر لما حامت نفوسهم حول هذا الاتخاذ ولكن شهوة تقليدهم للمصريين الذين عاشروهم دهرًا طويلاً هي التي حملتهم على هذا الاتخاذ، وهي التي جعلتهم يقولون لموسى ـ عليهم السلام ـ: ﴿ **اجعل لنا إلها كما لهم ءالهة** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **من حليهم** ﴾ بيانٌ أن ما عبدوه أصله عندهم معروف، وهو معدن من معادن الأرض، فكيف عبدوه من دون الله ـ تعالى ـ؟ وهل يليق في العقل أن تَحوُّل الحلي والزينة إلى شكل آخر ـ مهما ظهرت له من صفات مستغربة ـ يستدعي أن يكون إلهًا؟.

وقوله: ﴿ **عجلا جسدا** ﴾ اختلف المفسرون في معناه، وسأنقل لك نصوصهم في ذلك مرجحًا ما غلب على قلبي، والله أعلم بالصواب.

قال الفخر ـ رحمه الله ـ عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ** ﴾ ما نصه: «اختلفوا في أنه هل كان ذلك الجسد حيًا أم لا؟

فالقول الأول: لا ـ أي ليس ذلك الجسد حيًا ـ لأنه لا يجوز إظهار خرق العادة على يد الضال، بل السامري صوّر صورة على شكل العجل، وجعل فيها منافذ ومخارق بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل.

والقول الثاني: أنه صار حيًا، وخار كما يخور العجل، واحتجوا عليه بوجوه:

أ ـ قوله: ﴿ **فقبضت قبضة من أثر الرسول** ﴾[1] ولو لم يَصِر حيًا لما بقي لهذا الكلام فائدة.

ب ـ أنه ـ تعالى ـ سماه عجلاً، والعجل حقيقة في الحيوان، وسماه جسدًا وهو إنما يتناول الحي.

---

(١) سورة طه: الآية (٩٦).

جـ ـ أثبت له الخوار، وأجابوا عن حجة الأولين بأن ظهور خوارق العادة على يد مدعي الألوهية جائز لأنه لا يحصل الالتباس، وهاهنا كذلك فوجب أن لا يمتنع»[١].

والراجح عندي ـ والله أعلم ـ أنه كان عجلاً حقيقيًا لقوله تعالى: ﴿عجلا﴾ والعجل حقيقة في ولد البقر، ولو صفه له ـ جل وعلا ـ بقوله: ﴿جسدا﴾ والجسد إنما يطلق على ما فيه الروح ولا غرابة في ذلك، فتحويل الحلي إلى عجل حقيقي على يد السامري ليس خلقًا من السامري إنما وقع بخلق الله ومراده لاختبار بني إسرائيل الذين غفلوا عن نعمه، واشتهوا عبادة غيره ـ كما ذكرته مرارًا ـ فجَعْلُ الحلي عجلاً حقيقيًا أظهر في وقوعهم في تلك الفتنة من القول الأول القائل بأنه صور الحلي بصورة عجل وجعل فيه مجاري يمر فيها الريح فيحدث الصوت، ولو كان هذا الرأي قويًا لقال الله ـ عز وجل ـ: (عجلاً جسدًا له صوت) ولكنه قال: ﴿لَهُ خُوارٌ﴾ والخوار حقيقة في صوت البقر، ومما يزيدني استمساكًا بما رجحته قال الألوسي: «وإلى القول بالحياة ذهب كثير من المفسرين»[٢] ومما يؤيد كون العجل كان قد نفخ فيه الروح ما أخرجه ابن أبي حاتم بسنده قال: حدثنا أبي[٣] ثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني[٤] ثنا محمد بن ثور[٥]

---

(١) تفسير الرازي (٢٢/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) تفسير الألوسي (٩/ ٦٤).

(٣) وهو: أبو حاتم محمد بن إدريس بن المنذر بن مهران الحنظلي الرازي، أحد الأئمة الحفاظ، ولد سنة ١٩٥ هـ، وهو من الطبقة الحادية عشر.
انظر: الجرح والتعديل، (١/ ٣٤٩)؛ وسير أعلام النبلاء، (١٣/ ٢٤٧)؛ وتذكرة الحفاظ، (٢/ ٥٦٧)؛ وتهذيب التهذيب، (٩/ ٣١)؛ وتقريب التهذيب، (٢/ ١٤٣).

(٤) محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، البصري، ثقة من الطبقة العاشرة، مات سنة خمس وأربعين.
انظر: التهذيب، (٩/ ٨٧)؛ وتقريب التهذيب (٢/ ١٨٤).

(٥) محمد بن ثور الصنعاني أبو عبد الله العابد، ثقة، من التاسعة، مات سنة تسعين ومائة تقريبًا
انظر: تهذيب التهذيب، (٩/ ٨٧)؛ وتقريب التهذيب (٢/ ١٤٩).

عن معمر[١] عن قتادة[٢] في قوله: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ قال: استعاروا حليًا من آل فرعون فجمعه السامري فصاغ منه عجلاً، فجعله الله جسدًا لحمًا ودمًا له خوار[٣].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ﴾ توبيخ لهم وتقريع، والمقصود أنه لا يتأتى منه الكلام، فهو خال من آية صفة تصلح لجعله إلهًا.

وقد اختار القرآن نفي صفة الكلام عن هذا العجل بالذات دون السمع والبصر وغيرهما لأن بني إسرائيل كانوا يعلمون يقينًا أن الله ـ تعالى ـ يكلم موسى ـ عليه السلام ـ وأنه يتلقى من ربه بلا واسطة، فكيف يعرضون عن عبادة هذا الإله إلى عبادة عجل لا يتكلم؟

ثم نفى اتصاف هذا العجل بأية صفة تستدعي التباس الأمر عليهم فيه فقال: ﴿وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلا﴾ بوجه من الوجوه، لأنه عارٍ عن سائر الصفات التي تمكّنه من ذلك.

ولذلك ختمت هذه الآية ببيان طبيعة بني إسرائيل، وهي استمرارهم على الظلم بوضع الشيء في غير موضعه، وتعاميهم عن الحق مع ظهوره ﴿اتَّخَذُوهُ

---

(١) معمر بن راشد الأزدي مولاهم، أبو عروة البصري، نزيل اليمن، ثقة ثبت فاضل، من كبار السابعة، مات سنة أربع وخمسين، انظر: التهذيب، (١٠/ ٢٤٣)؛ وميزان الأعتدال، (٤/ ١٥٤).

(٢) قتادة: قتادة بن دعامة السدوسي أبو الخطاب البصري، ثقة ثبت، وهو رأس الطبقة الرابعة، مات سنة مائة وبضع عشرة، انظر: ابن سعد، (٧/ ٢٢٩)؛ والجرح والتعديل، (٢/ ٣/ ١٣٣)؛ والميزان (٣/ ١٨٥)؛ والتهذيب، (٨/ ٣٥١)؛ والتقريب، (٢/ ١٢٣). درجة الأثر: (صحيح الإسناد) ورجاله ثقات.

(٣) الدر المنثور للسيوطي، (٩/ ٥٦٣)؛ وانظر: تفسير ابن أبي حاتم ـ سورة الأعراف ـ تحقيق/ حمد بن أبي بكر، (٢/ ٥٢١).

﴿وكانوا ظالمين﴾[١] أي: إن المعصية دأبهم، فليس اتخاذهم العجل بأول منكر فعلوه.

وهكذا تصور لنا الآيات السابقة ضلال وكفر بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي يذبحونه بأيديهم ليأكلوه، وكونه منقلبًا عن ذهب ـ كما رجحته سابقًا ـ لا يخرجه عن كونه عجلاً يتلذذ الإنسان بأكل لحمه، وكان عليهم أن يجتهدوا في عبادة ربهم الذي حول ذهبهم إلى عجل جسد له خوار، فالسامري لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بقبضة من أثر جبريل عليه السلام[٢] وما كان لأثر جبريل هذا التأثير إلا لكونه عبدًا لباريء السماوات والأرض.

أخرج ابن أبي حاتم قال: «حدثنا أبي[٣] ثنا أبو صالح[٤]، حدثنا معاوية بن صالح[٥]

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٨).

(٢) قال تعالى في سورة طه: الآية (٩٦): ﴿قال ما خطبك يا سامري: قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي﴾ فالمراد: فقبضت قبضة من التراب الذي مر عليه فرس جبريل كما صرحت بذلك الروايات في كتب التفسير. انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٦٤).

(٣) سبقت ترجمته ص (٥٣٧).

(٤) أبو صالح: هو أبو عبد الله بن صالح بن محمد بن مسلم الجهني مولاهم المصري، قال عبد الملك حفيد الليث: ثقة مأمون، وقال أحمد: كان أول أمره متماسكًا ثم فسد باخره، وقال أبو زرعة: لم يكن عندي ممن يتعمد الكذب في الحديث، وقال ابن عدي: هو عندي مستقيم، وقال ابن حجر: صدوق كثير الغلط ثبت في كتابة وكانت فيه غفلة، من الطبقة العاشرة، مات سنة اثنتين وعشرين وله خمس وثمانون سنة.
انظر: الميزان، (٢/ ٤٤٠)، والتهذيب، (٥/ ٢٥٦)، والتقريب (١/ ٤٢٣).

(٥) معاوية بن صالح بن حدير بن سعيد بن فهد الحضرمي من أبو عمرو وقيل أبو عبد الرحمن الحمصي، وثقه ابن مهدي والعجلي والنسائي وأبو زرعة وابن سعد والبزار، وقال مرة: ليس به بأس، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال ابن عدي وابن خراش: صدوق، قال ابن حجر: =

عن علي بن أبي طلحة[١] عن ابن عباس[٢] قال: وكان السامري قد أبصر جبريل - عليه السلام - على فرس، وأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب فقال حين مضي ثلاثون ليلة: يا بني إسرائيل إن معكم حليًا من حلي آل فرعون وهذا حرام عليكم، فهاتوا ما عندكم نحرقها، فأتوه ما كان عندهم فأوقدوا نارًا فألقى الحلي في النار، فلما ذاب الحلي ألقى تلك القبضة من تراب في النار فصار عجلاً جسدًا له خوار، فخار خوارة لم يثن»[٣].

* * *

= صدوق له أوهام، من الطبقة السابعة، مات سنة ثمان وخمسين وقيل بعد السبعين.
انظر: تهذيب التهذيب، (١٠/ ٢٠٩)، والتقريب (٢/ ٢٥٩).

(١) علي بن أبي طلحة واسمه سالم بن المخارق الهاشمي، يكنى أبا الحسن وقيل غير ذلك، أصله من الجزيرة وانتقل إلى حمص، أخذ تفسير ابن عباس عن مجاهد فلم يذكر اسم مجاهد بل أرسله عن ابن عباس، وثقه العجلي، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال النسائي: ليس به بأس، وقال: له أشياء منكرة، وقال ابن حجر: صدوق قد يخطيء، من الطبقة السادسة، مات سنة ثلاث وأربعين، انظر: ميزان الاعتدال (٣/ ١٣٤) والتهذيب (٧/ ٣٣٩) والتقريب (٢/ ٣٩).

(٢) ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن وابن عم رسول الله ﷺ ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، وتوفي سنة سبع أو ثمان وستون، انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٣١).

(٣) درجة الأثر: هذا أصح الأسانيد عن ابن عباس في التفسير، وما يرويه ابن أبي حاتم بهذا السند هو النسخة المشهورة لعلي بن أبي طلحة.
قال أحمد بن حنبل: «بمصر صحيفة في تفسير القرآن رواها علي بن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدًا ما كان كثيرًا» ولولا صحة هذه النسخة لما قال فيها أحمد ما قال.
قال ابن حجر: «وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث، وهي عند البخاري عن أبي صالح وقد اعتمد عليها في صحيحه كثيرًا فيما يعلقه عن ابن عباس».
انظر: الإتقان (٤/ ٢٠٧) في النوع الثمانين طبقات المفسرين.

المبحث الثامن
ندم قوم موسى على عبادتهم العجل

قال تعالى: ﴿ **ولَمَّا سُقط في أيديهم ورأوْا أنَّهُمْ قد ضلُّوا قالُوا لئن لَمْ يرحمنا ربُّنا ويغفرْ لنا لنكُونَنَّ من الْخاسرين** ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ **ولَمَّا سُقط في أيديهم** ﴾ كناية عن شدة الندم الذي حل بهم بعد عبادتهم للعجل، وبالغ تأسفهم على مخالفتهم أوامر نبيهم ـ عليه السلام ـ.

وقد عبر عنه بالسقوط في اليد؛ لأن النادم يعض على يده فتصير يده مسقوطة فيها لأن فَاه قد وقع فيها[٢] ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ **ويوم يعضُّ الظَّالمُ علىٰ يديْه يقُولُ يا ليْتني اتَّخذْتُ مع الرَّسُول سبيلا** ﴾[٣] أو يضرب بإحدى يديه على الأخرى من الندم كما قال تعالى: ﴿ **وأُحيط بثمره فأصبح يُقلِّبُ كفَّيْه علىٰ ما أنفق فيها وهي خاويةٌ علىٰ عُروشها ويقُولُ يا ليْتني لم أُشْرك بربِّي أحدا** ﴾[٤].

وقوله: ﴿ **ورأوْا أنَّهُمْ قد ضلُّوا** ﴾ أي تبينوا ضلالهم باتخاذهم العجل، وأيقنوا أنهم جاروا عن قصد السبيل، وانحرفوا عن دين الله الحق إلى عبادة ما لا ينفع ولا يضر، وقد تبينوا ذلك كأنهم قد أبصروه بعيونهم وعاينوه.

وفي تقديم الندم على الرؤية مع كونه متأخرًا عنها للمسارعة إلى بيانه، والإشعار بغاية سرعته[٥].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٩).

(٢) انظر: تفسير الرازي، (١٥/ ٧، ٨).

(٣) سورة الفرقان: الآية (٢٧).

(٤) سورة الكهف: الآية (٤٢).

(٥) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٦٤، ٦٥).

ولفرط ندمهم وتأسفهم على ما وقع منهم قالوا مبتهلين إلى الله ـ جل وعلا ـ وجلين: ﴿ **قالوا لئن لَمْ يرحمنا ربُّنا** ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء فيتوب علينا ويكفر عنا سيئاتنا.

﴿ **ويغفرْ لنا** ﴾ بتجاوزه عن خطيئتنا.

﴿ **لنكونَنَّ من الْخاسرين** ﴾ جواب قسم محذوف تقديره: والله لئن لم يرحمنا ربنا، وتوبتهم هذه كانت بعد رجوع موسى ـ عليه السلام ـ من ميقات ربه، وإنكاره لما وجدهم عليه، وتأنيبهم وتوبيخهم، بدليل قوله ـ تعالى ـ حكاية عنهم عندما نهاهم هارون عن عبادة العجل: ﴿ **قالوا لن نَبْرحَ عليْه عاكفين حتَّىٰ يرْجعَ إلينا مُوسىٰ** ﴾[1] وبدليل الوهلة والغضب الذي أصاب موسى ـ عليه السلام ـ عندما رآهم عاكفين على عبادة العجل، فطرح الألواح على الأرض ﴿ **ولَمَّا رجعَ مُوسىٰ إلىٰ قومه غضْبان أسفا قال بئْسما خلفْتمُوني من بعْدي أعجلْتمْ أمْر ربِّكُمْ وألْقى الألْواح** ﴾[2] وسوف يمر عليك بعد هذا المبحث تفصيل ذلك.

قال بنو إسرائيل: ﴿ **لئن لَمْ يرْحمْنا ربُّنا ويغْفرْ لنا لنَكُونَنَّ منَ الْخاسرين** ﴾ أي: الهالكين لا محالة، مُقدِّمين الرحمة على المغفرة لبيان قبح ذنبهم وأنه لا يغفر إلا برحمة عظيمة من الله ـ تعالى ـ فهل رحمهم وغفر لهم؟

سأرجيء الجواب عن هذا السؤال إلى تفسير قوله تعالى: ﴿ **إنَّ الَّذين اتَّخذُوا الْعجْل سينالُهُمْ غضبٌ منْ ربِّهمْ وذلَّةٌ في الْحياة الدُّنْيا وكذلك نجْزي الْمُفْترين** ﴾[3].

* * *

(١) سورة طه: الآية (٩١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٥٠).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٥٢).

المبحث التاسع
توبيخ موسى ـ عليه السلام ـ
لقومه على عبادتهم العجل

قال تعالى: ﴿ ولَمَّا رجع مُوسىٰ إلىٰ قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتُمُوني من بعْدي أعجلْتُم أمْر ربِّكُمْ وألقى الألواح ﴾[1].

وقوله: ﴿ ولَمَّا رجع مُوسىٰ إلىٰ قومه ﴾ بعد أن استوفى الميقات الذي ضربه له ربه ليكلمه بعده، ولينزل التوراة التي فيها موعظة وتفصيل لكل شيء مما يحتاج إليه بنو إسرائيل، وقد أعلمه ربه بما أحدثه قومه من عبادة العجل في غيبته أثناء هذا الميقات ـ كما بينته سابقًا ـ[2] رجع ـ عليه السلام ـ إلى قومه وهو غضبان عليهم أشد ما يكون الغضب لما أحدثوه في غيبته ﴿ أسفا ﴾ أي: حزينًا أشد ما يكون الحزن على فعلة قومه النكراء، وعلى أنهم لم يذكروا ما أنعم الله ـ تعالى ـ به عليهم مما أشرت إليه أكثر من مرة، وأنهم لخفة عقولهم وقلة يقينهم تقبلوا خدعة السامري لهم برغبة وحب، إلى حد أنهم قطعوا الطريق على هارون ـ عليه السلام ـ لما بيَّن لهم بطلان ما هم عليه من عبادة العجل، بما قصَّه الله عنهم: ﴿ قالُوا لن نَبْرح عليْه عاكفين حتَّىٰ يرْجع إلينا مُوسىٰ ﴾[3] بل لقد هَمّوا بقتله كما ستقف عليه في آخر هذه الآية الكريمة، ولذا عبرت الآية عن غضب موسى وحزنه بصيغتين من صيغ المبالغة (فعلان وفعل).

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٠).

(٢) انظر: ص (٥٣١) من بحثنا هذا.

(٣) سورة طه: الآية (٩١).

فقوله ﴿ **غضبان** ﴾ أي: ممتلئًا عضبًا، وشدة الغضب في الله من خصال الخير، وشدة الحزن كذلك، وكان نبينا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لا يغضب لنفسه، فإذا انتهكت حرمات الله غضب لذلك غضبًا لا يقوم معه شيء، وأن قرابة بني إسرائيل لم تغن عنهم شيئًا عنده لما حادوا عن الحق، وقد اشتد حزنه عليهم لكفرهم بالله وهو بين أظهرهم، ولأنهم أبناء أنبياء كرام، فانحرافهم عن الحق يستتبع انحراف غيرهم عنه غالبًا، ولا تستغرب إذا قلت لك: إن اليهود أو بني إسرائيل ـ سمِّهم كما شئت ـ هم سبب نكبة أغلب العالم قديمًا وحديثًا.

وقوله ﴿ **أسفا** ﴾ قال الإمام الفخر الرازي: «في الأسف قولان:

الأول: أن الأسف الشديد الغضب، وهو قول أبي الدرداء وعطاء عن ابن عباس، واختيار الزجاج، واحتجوا بقوله: ﴿ **فلمَّا آسفُونا انتقمْنا منهُمْ فأغْرقْناهُمْ أجمعين** ﴾[1] أي: أغضبونا.

والثاني: وهو أيضًا قول ابن عباس والحسن والسدي: أن الآسف هو الحزين، وفي حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: «إن أبا بكر رجل أسيف» أي: حزين.

قال الواحدي: «والقولان متقاربان؛ لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب، فإذا جاءك ما تكره ممن هو من دونك غضبت، وإذا جاءك ممن هو فوقك حزنت، فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزنًا والأخرى غضبًا، فعلى هذا كان موسى غضبان على قومه لأجل عبادتهم العجل، أسفًا حزينًا لأن الله فتنهم، وقد كان ـ تعالى ـ قال له: ﴿ **قال فإنَّا قدْ فتنَّا قومَكَ منْ بعْدِكَ** ﴾[2]»[3] وجواب (لما)

---

(١) سورة الزخرف: الآية (٥٥).

(٢) سورة طه: الآية (٨٥).

(٣) تفسير الرازي، (١٥/ ١٠).

قوله تعالى: ﴿ **بئسما خلفتمُوني من بعدي** ﴾.

فـ(ما) نكرة موصوفة، تفسر فاعل بئس المستتر، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: بئس خلافة خلفتموني بها أثناء غيبتي عنكم لأتلقى من ربي ما فيه صلاحكم.

والخطاب في قوله: ﴿ **خلفتُمُوني** ﴾ إما لعبدة العجل، وهو الراجح عندي، وإما لهارون ومن معه ممن ثبت على إيمانه، والمعنى على هذا التقدير الأخير: إن موسى ـ عليه السلام ـ لام هارون ومن معه على تقصيرهم في مَنْع عبدة العجل من عبادتهم، ولم يكن يعلم ـ عليه السلام ـ مقاومة هارون لهؤلاء العبدة، ولا همّهم بقتله، بل ظن أنه ومن معه قد خافوهم لكثرتهم فلم ينصحوهم.

ولكن حمل الخطاب على العبدة أوفق ليتلاءم مع قوله تعالى: ﴿ **أعجلتم أمر ربكُم** ﴾ لأن العجلة غير متصورة من هارون ـ عليه السلام ـ ولأن آخر هذه الآية صريح في لوم هارون، فلو جعل الخطاب لهارون ومن معه من المؤمنين لخلت الآية من لوم عبدة العجل مع أنه الأولى بالذكر، والاستفهام في قوله تعالى: ﴿ **أعجلتُم أمر ربكُم** ﴾؟ إنكاري تحقيقي على معنى قد عجلتم أمر ربكم، وإنما عدل عن التحقيق لإبراز إنكار موسى عليهم لتلك العجلة، وقد قيل في معنى العجلة: هي فعل الشيء قبل وقته بخلاف السرعة فإنها فعل الشيء في أول وقته، ولذا ذم بعضهم العجلة ولم يذم السرعة[1].

والمراد بأمر ربهم الذي استعجلوه هو وعده ـ تعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ أن يأتي ربه بعد مضي ثلاثين ليلة وقد عرفت ـ فيما أسلفنا ـ[2] أن موسى ـ عليه السلام ـ صام كل هذه الأيام بلياليها، وأنه لما أنكر رائحة فمه تسوك، فزاده الله

---

(١) بتصرف من تفسير الرازي (١٥/ ١٠، ١١).

(٢) انظر: ص (٥٠٣، ٥٠٤) من بحثنا هذا.

عليها عشرًا، فلما لم يرجع إليهم على رأس الثلاثين ظنوا أنه قد مات، فغيروا وبدلوا، وكفروا بالله مع وجود هارون النبي بينهم واستخلاف موسى إياه عليهم، وهذا أمر عجيب حقًا يقتضي الإنكار عليهم، ويرى عطاء أن المراد بأمر ربهم الذي استعجلوه سخطه عليهم، وعذابه لهم، والمعنى على هذا الرأي الأخير: قد عجلتم عذاب ربكم لكم بعبادتكم العجل واستقرار حبه في قلوبكم.

وقد ذكرت الآية لشدة غضب موسى ـ عليه السلام ـ مظاهر:

١ ـ قوله لقومه: ﴿ **بئسما خلفتمُوني من بعْدي** ﴾.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿ **أعجلتُمْ أمْر ربكُمْ** ﴾.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿ **وألْقى الألْواح** ﴾.

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿ **وأخذ برأس أخيه يجرُّهُ إليْه** ﴾.

وهذه المظاهر تبين لك تهاوي الباطل وتخاذله أمام الحق وشدته؛ فإن بني إسرائيل عبدة العجل لما رأوا شدة غضب موسى ـ عليه السلام ـ مع كثرتهم ـ رأوا أنفسهم كعصافير محبوسة في قفص لا يعي صائدها عن أخذها، وحاولوا أن يجتهدوا في الاعتذار إليه وذكر السبب الذي به ضلوا كما ذكرته سورة طه، وهو قوله تعالى: ﴿ **قالُوا ما أخلفْنا موْعدك بملْكنا ولكنَّا حُمِّلْنا أوْزارًا مِن زِينة الْقوْمِ فقذفْناها فكذلك ألْقى السَّامريُّ** ﴾[1] وقد تناولت هذه الآية في التقدمة لعبادة بني إسرائيل العجل، فتأمل موقف بني إسرائيل مع موسى القائم على الاعتذار، وعلى ما عراهم من خوفهم بطش الكليم بهم، وموقفهم من هارون حين قالوا له: ﴿ **قالُوا لن نَبْرح عليْه عاكفين حتَّى يرْجع إلينا مُوسى** ﴾[2] فإنهم قالوا ذلك لاستضعافهم له، وعدم خشيتهم من صولته، وهكذا أهل الباطل يتبجحون

---

(١) سورة طه: الآية (٨٧).

(٢) سورة طه: الآية (٩١).

بباطلهم ما فقدوا الرادع القوي، فإذا ردعوا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وكادت قلوبهم تبلغ حناجرهم، وقوله تعالى: ﴿ **وألقى الألواح** ﴾ للمفسرين في هذه الجملة كلام طويل وكثير أنفذ إلى أقواه وأرجحه بلا دخول في سرد ما قالوه.

والسبب في كثرة ما قيل حول هذه الجملة الكريمة هو التعبير بكلمة ﴿ **ألقى** ﴾ مكان كلمة (وضع) فإن كلمة ﴿ **ألقى** ﴾ تعني: إلقاء ما في اليد بلا مبالاة، وكلمة (وضع) تعني: وضع ما في اليد بتريث وتحفظ لما وضع.

والواقع أن ﴿ **ألقى** ﴾ هنا بمعنى (وضع) وقد اختار القرآن التعبير بها ليمهد بها لما بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿ **وأخذ برأس أخيه** ﴾ فإن الأخذ لا يكون إلا باليد، ولا يستطيع ذلك إلا إذا فرغت يده مما فيها، وموسى ـ عليه السلام ـ إنما أسرع بإلقاء ما في يده، لما يرى أن ما بعد من الأهمية بمكان، ولذا وضع ما بيده من الألواح ليتفرغ لمسألة أخيه والأخذ برأسه، لا أن شدة الغضب هي التي حملته على إلقاء الألواح بدون النظر لما يحدث لها بسبب الإلقاء، ومما يقوي ما ملت إليه أن هذه الجملة جاءت لمدح موسى وبيان شدة غيرته في دين الله تعالى.

وأما ما قيل من تكسر معظمها بالإلقاء، فرفع المكسر بما فيه، فلم يثبت في حديث صحيح حتى نعوّل عليه، وفي جعل الإلقاء الذي أدى إلى تكسر الألواح ناشئًا عن استيلاء الغضب على موسى ـ عليه السلام ـ مما جعله ينسى قدسية الألواح التي بيده لا يساعده ظاهر النص لأن هذه الجملة كما قلت لم ترد للعتاب.

والذين قالوا بتكسر الألواح استدلوا بالحديث الذي أورده الألوسي في تفسيره: «أخرج أحمد وغيره وعبد بن حميد والبزار وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وغيرهم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**يرحم الله ـ تعالى ـ موسى؛ ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه ـ تبارك**

وتعالى ـ أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح، فتكسر منها ما تكسر»[١].

هذا الحديث أثبت تكسر بعض الألواح، وقد أخرجه الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب السنة وأثبت أيضًا التكسر وإليك نص الحديث:

حدثني أبونا سريج ابن النعمان ناهشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**ليس الخبر كالمعاينة، إن الله ـ عز وجل ـ أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت**»[٢].

قلت: الحديث إسناده ضعيف لأن فيه هشيم وهو ابن بشير السلمي أبو معاوية بن أبي حازم الواسطي، ثقة ثبت كثير التدليس والإرسال الخفي[٣].

والحديث نفسه أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم في المستدرك بدون ذكر التكسير، أخرج ابن أبي حاتم بسنده قال: «حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ثنا عفان ثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: قال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: **يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه ـ تبارك وتعالى ـ أن قومه فتنوا فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح**»[٤].

أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب تفسير سورة الأعراف، (٢/ ٣٢١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

(١) تفسير الألوسي (٩/ ٦٧).

(٢) ابن حنبل، الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد. كتاب السنة. تحقيق د. محمد بن سعيد القحطاني، مكة المكرمة، ابن القيم.

(٣) انظر: التقريب، (٢/ ٣٢٠).

وقد ذكر ابن أبي حاتم بعد هذه الرواية رواية أخرى قال: «حدثنا أبي حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي ثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني يعلي ابن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنه ألقى موسى الألواح فتكسرت فرفعت إلا سدسها»[١].

وأخرج الحديث الذي نحن بصدد دراسته الحاكم في المستدرك بدون ذكر التكسير: «عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**ليس الخبر كالمعاينة، إن الله أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح**» هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي[٢].

فقد تبين لنا من دراسة متن الحديثين وسندهما أن الحديث الذي لم يتعرض للتكسير حسن أو صحيح بينما الحديث الذي تعرض للتكسير والذي قد يشم منه الطعن على الكليم في الإلقاء ضعيف لا يُعوَّل عليه في مثل هذا المقام لأن الأنبياء معصومون عن الأحوال العادية التي لا تجوز في حقهم مع جوازها من غيرهم.

والذي يفهم من الحديث بيان سبب إلقاء الألواح، فهو بمثابة الاعتذار عن أخيه هارون مما قد يظن به مما لا يليق بمقامه ـ عليه السلام ـ وهو أيضًا مدح له كالآية تمامًا، والله أعلم بالصواب.

---

(١) انظر: تفسير سورة الأعراف الأخ الزميل/ د. حمد بن أبي بكر، (٢/ ٥٢٥).

(٢) الحديث إسناده ضعيف لأن في سنده (حجاجًا) وهو ابن محمد المصيص الأعور أبو محمد، مولى سليمان بن مجالد، ترمذي الأصل، سكن بغداد ثم تحول إلى المصيصة، ثقة ثبت لكنه اختلط في آخر عمره لما قدم بغداد وقد مات بها سنة ست ومائتين.
انظر: الميزان (١/ ٤٦٤) والتهذيب (٢/ ٢٠٥) والتقريب (١/ ١٥٤) وانظر: تفسير سورة الأعراف الأخ الزميل/ د. حمد بن أبي بكر (٢/ ٥٢٦).

(٣) المستدرك للحاكم (٢/ ٢١).

قال الفخر الرازي - رحمه الله -: «ليس في القرآن إلا أنه ألقى الألواح، فأما أنه ألقاها بحيث تكسرت فهذا ليس في القرآن وإنه لجرأة عظيمة على كتاب الله، ومثله لا يليق بالأنبياء - عليهم السلام -»[1].

❊ ❊ ❊

(١) تفسير الرازي (١٥/ ١١).

المبحث العاشر
لوم موسى ـ عليه السلام ـ لأخيه هارون ودفاع هارون عن نفسه

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ ...وأخذ برأس أخيه يجُرُّهُ إليه قال ابن أُمَ إنَ القوم استضعفُوني وكادُوا يقْتُلُونني فلا تُشْمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظَّالمين ﴾[1].

قبل أن أشرع في تفسير هذه الآيات الكريمة لابد أن أبين الحوار الذي حدث بين موسى وأخيه، والذي فصلته سورة طه، ليكون القاريء على علم بالأحداث التي صاحبت هذه الحادثة، ولأن القرآن وحدة متكاملة، فما أجمل في موضع يفصل في موضع آخر، وهذه إحدى سمات الإعجاز في كتاب الله العزيز.

قال تعالى: ﴿ قال يا هارُونُ ما منعك إذ رأيتهُم ضلُوا (٩٢) ألاَ تتبعن أفعصيت أمْري ﴾؟[2] أي: لماذا لم تسارع إلى إخباري وإعلامي بما أحدثوه من عبادة العجل فمكاني منكم ليس ببعيد عنكم؟ ويستدل بالآية على حرص الرسل الشديد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ على هداية أقوامهم، ونجاتهم وفلاحهم، واحترازهم البالغ من وقوع أممهم في المهالك.

﴿ أفعصيت أمْري ﴾؟ استفهام انكاري، أي: هل عصيت ما أمرتك به من استخلافك على قومي؟ كما قصَّه القرآن ﴿ وقال مُوسىٰ لأخيه هارُون اخلُفني في

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٠).

(٢) سورة طه: الآيتان (٩٢، ٩٣).

قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المُفسدين ﴾[١].

فأخذ هارون يدافع عن نفسه بقوله: ﴿ قال يا بنؤمَ لا تأخُذْ بلحيتي ولا برأسي إنّي خشيتُ أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل ولم ترقُب قولي ﴾[٢] يفهم من الآية أن الغضب قد أخذ من موسى لمخالفة قومه ما تركهم عليه، فقد أخذ موسى بلحية ورأس هارون يجره إليه، يعنّفه على الذي حدث، فقال هارون: ﴿ إنّي خشيتُ أن تقول فرّقت بين بني إسرائيل ﴾.

أي: خشيت إن فارقتهم وأتيت إليك لإخبارك بما أحدثه قومك، ولحق بي من هم باقون معي على الإيمان، ولحق الفريق الآخر السامري أن تقول حينئذ: ﴿ فرّقت بين بني إسرائيل ﴾.

﴿ ولم ترقُب قولي ﴾ أي: لم تحافظ وتراع ما قلته لك، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ اخلفني في قومي وأصلح ... ﴾ وفي الآية دليل على جواز الاجتهاد.

وأعود إلى سورة الأعراف فقوله: ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ أي: بشعر رأس هارون ـ عليه السلام ـ ﴿ يجرُّهُ إليه ﴾ ظنّا منه أنه فرّط في نصحهم وكفِّهم، وقد فعل موسى ـ عليه السلام ـ بأخيه هارون ذلك مع أنه أكبر منه سنًا، وذلك لشدة غضبه وفرط غيظه، ولم يقصد موسى بهذا إهانته والاستخفاف به بل للَّوم والتأنيب على التقصير المظنون بحكم الرئاسة وفرط الحمية.

هذا وقد فسر الرازي ـ رحمه الله ـ أخذ موسى رأس أخيه يجره إليه ليُسارَّه ويستكشف منه كيفية الواقعة[٣] وهذا يمنعه صريح منطوق الآية لأن دفاع هارون عن نفسه بقوله: يا ﴿ بن أُمَّ ﴾ فيه استعطاف واسترحام، فهو يستجيش عاطفة

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤٢).

(٢) سورة طه: الآية (٩٤).

(٣) تفسير الرازي. (١٥/ ١١).

الأخوة في قلب موسى بنداء رقيق يا ﴿ **بن أم** ﴾ لا تعجل بلومي وتعنيفي فما آليت جهداً في الإنكار عليهم، وما قصرت في نصيحتهم، لكنهم لم يستمعوا لنصحي، واستضعفوني وأوشكوا أن يقتلوني، فلا تفعل بي ما هو محل شماتتهم من الاستهانة بي والإساءة إليّ.

﴿ **ولا تجعلني مع القوم الظالمين** ﴾ أي: بغضبك عليَّ وذلك من هارون ـ عليه السلام ـ تواضع تام وأدب جم مع أخيه موسى، الذي له الرئاسة، والذي بطلبه وبرغبته نال هارون ـ عليه السلام ـ النبوة والوزارة لموسى ـ عليه السلام ـ قال تعالى: ﴿ **ووهبنا له من**[1] **رحمتنا أخاه هارون نبيا** ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ **واجعل لي وزيرا من أهلي (٢٩) هارون أخي (٣٠) اشدد به أزري (٣١) وأشركه في أمري (٣٢) كي نسبحك كثيرا (٣٣) ونذكرك كثيرا (٣٤) إنك كنت بنا بصيرا (٣٥) قال قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾[3].

* * *

(١) أي: لموسى.

(٢) سورة مريم: الآية (٥٣).

(٣) سورة طه: الآيات من (٢٩) إلى (٣٦).

المبحث الحادي عشر
اعتذار موسى لربه عما بدر منه لأخيه

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[1] لما عرف موسى - عليه السلام - أن أخاه هارون لم يقصر في نصح القوم وأنهم تمالأوا عليه، وأن موسى قال له: ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ ولم يقل له: «إن بدت منهم مخالفة فاتبعني لتخبرني بها» سأل ربه أن يغفر له ما بدر منه مع أخيه، وأن يغفر لأخيه إن كان قد حصل منه تقصير - ولم يقصر - هذا ما قرر المفسرون[2] وهو كلام حسن، والذي أراه - والله أعلم - أن موسى - عليه السلام - طلب المغفرة عامة له ولأخيه ولم يحصرها في شيء محدد كما ذكر المفسرون، لا لأنه أساء في الحقيقة لهارون فهو معذور فيما فعل معه، وإنما طلب المغفرة له ولأخيه اعتذارًا إلى ربه - سبحانه وتعالى - لا عن شيء حدث، وإنما يرى أنه مع شدة غضبه وأسفه وتوبيخه لقومه لم يبلغ في نظر نفسه غاية ما هو مطلوب، وإن كان في الواقع قد فعل أقصى ما يمكن فعله اعتذارًا إلى الله - تعالي - إن كان قد قصر - وهو في الحقيقة لم يقصر -.

وصَدْرُ هذه الآية يعلمنا أننا مهما حصَّلنا من التقوى، ومهما اجتهدنا من العمل الصالح، فلا نغتر بما عملنا، بل ننحو على أنفسنا باللائمة والاتهام، وقوله تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ﴾ أي: أدخلني وأخي في رحمتك التي خصصت بها أحبابك، والتي لا ينالهم معها ضيم، والتي لا تخرجهم منها بكرمك.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥١).

(٢) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٦٨)، والرازي، (١٥/ ١٢)، والنسفي، (٢/ ٧٩).

وقوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ تذييل أريد به سعة رحمة الله ـ تعالى ـ والمعنى: فأنت يا حي يا قيوم بفرط رحمتك لا حرج عليك إذا أدخلتنا في رحمتك.



المبحث الثاني عشر
نقمة الله ـ جل وعلا ـ على من لم يعتذر إلى ربه عن عبادة العجل وتوبته على المعتذرين

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾[1].

في هذه الآية الكريمة بيَّن ـ جل وعلا ـ نقمته في الدنيا والآخرة على مَن صنع العجل، أو ساعد في صنعه، أو حرّض السامري على فعله ـ كما سأرجحه ـ.

وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية الكريمة، والذي رجح عندي بعد استعراض ودراسة أقوالهم أن هذه الآية في السامري وأصحابه الذين أشربوا حب العجل في قلوبهم، ولم يعتذروا إلى ربهم قصَّه الله سلفًا عن المعتذرين ﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[2].

فالمعنى إذن: أن الذين صنعوا العجل ليكون إلهًا لبني إسرائيل بقصد إضلالهم وفتنتهم عن التوحيد كالسامري ومشايعيه في هذا الأمر لا يتوب الله عليهم في الدنيا وإن تابوا، فهم مستثنون من آيات التوبة كما استُثنى إبليس لعنه الله. والاتخاذ هنا بمعنى: الصنع، ولذا لم يصرح القرآن بالمفعول الثاني لـ ﴿ اتَّخَذُوا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ سَيَنَالُهُمْ ﴾ بالسين هو إخبار لموسى ـ عليه السلام ـ عن حال

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٤٩).

هؤلاء الصانيعين، وأن ما ذكر من العقاب واقع بهم عن قرب، وقد كان كما قصته سورة طه.

قال تعالى: ﴿ **قال فما خطبُك يا سامريُ (٩٥) قال بصُرتُ بما لم يبصُروا به فقبضْتُ قبْضة مَنْ أثر الرَّسُول فنبذْتُها وكذلك سوَلت لي نفسي (٩٦) قال فاذهب فإنَ لك في الْحياة أن تقُول لا مساس وإنَ لك موْعدا لَن تُخْلفهُ وانظُر إلىٰ إلهك الَّذي ظلْت عليْه عاكفا لَنُحرقَنَّه ثُمَ لننسفنَّه في الْيمَ نسفا** ﴾[1].

فهاتان الآيتان صريحتان في أنه لا توبة للسامري، وأنه إن تاب لا يتوب الله عليه، وهذا ما أجملته سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿ **سينالُهُم غضبٌ مَن رَبّهمْ** ﴾ أي: سيحل عليهم غضب شديد من ربهم، الذي شأنه رحمتهم ورعايتهم، لكنه رفع عنهم الرحمة لكونهم ليسوا بأهل لها، وأن هذا الغضب واقع عليهم في الدنيا والآخرة، ولذا جاء به القرآن مُنكَّرًا لتستشعر فظاعته وشدته، ووصفه بأنه ﴿ **مَن رَبّهمْ** ﴾ لتعلم أن الرحمن إنما حرمهم الرحمة لأنهم لا يستحقونها، وأنه جعل الذلة والهوان نصيبهم في الدنيا وأنهم مُزْدَرون، لا يُمسون ولا يخالطون، وإذا كانت آيتا طه قد بينتا حالة السامري فآية الأعراف قد بينت مآله ﴿ **وذلّةٌ في الحياة الدُنْيا** ﴾ الذلة التي اختص بها السامري من الانفراد عن الناس والابتلاء بلا مساس[2] مع أشياعه الذين تميزوا عن سائر بني إسرائيل بشدة الضلال والإضلال، ثم ختم ـ تبارك وتعالى ـ هذه الآية بقوله: ﴿ **وكذلك نجْزي الْمُفْترين** ﴾ أي: وكهذا العقاب الشديد الدنيوي والأخروي الذي حلّ على السامري وأضرابه نجزي ونعاقب به كل مفترٍ في دين الله وكل مبتدع، وكل متقول على الله ما لم يقل، إذ الافتراء هو قول الزورِ والبهتان.

---

(١) سورة طه: الآيات من (٩٥ ـ ٩٧).

(٢) يروي أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك وإذا مس أحدُهم أحدًا غيرهم حَمّوا جميعًا. والله أعلم انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧٥).

هذا وإن كل يهودي لا يؤمن بالأنبياء بعد موسى ـ عليه السلام ـ ويعُينُ على قتلهم كما قصَّه القرآن، ولا يؤمن بإمام الرسل نبينا محمد ﷺ داخل في هذه الآية وفي هذا الغضب الشديد، وتلك الذلة إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ **وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾[1].

هذا ما رَجَحَ عندي، وللمفسرين محامل أخرى أذكرها فيما يلي باختصار إكمالاً للفائدة:

حمل بعضهم الآية على اليهود المعاصرين للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بتقدير: إن الذين اتَّخذ آباؤهم العجل سينالهم غضب من ربهم[2] . . . إلخ، كما حصل لبني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ولليهود خيبر وفدك ووادي القرى، وأخبارهم في السيرة معروفة . . .[3].

وحملها بعضهم على عموم بني إسرائيل وأن شدة الغضب التي حلت عليهم قد تمثلت في شكل توبتهم التي لم يعامل بها أحد قبلهم ولا بعدهم[4] وأن الذِّلة التي أصابتهم في الدنيا هي خزيهم بعبادة العجل، واستحقارهم أنفسهم لَمَّا استنارت قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن**

---

(١) سورة البقرة: (٦١).

(٢) قال أبو السعود ـ رحمه الله ـ: «فإن تعيير الأبناء بأفاعيل الآباء مشهور معروف، منه قوله تعالى: ﴿ وإذ قتلتم نفسا . . . ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿ وإذ قلتم يا موسى . . . ﴾ الآية.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٢، ٢٠٠، ٢٤٤، ٣٦٨، ٣٧١، ٣٧٢).

(٤) حديث: أمروا بقتل بعضهم بعضا . . . كما سوف يمر علينا بيانه.

﴿ بعْدها لغفُورٌ رَحيمٌ ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ والَّذين عملُوا السَّيِّئات ﴾ أي: الكفر فما دونه من الذنوب ﴿ ثُمَّ تابُوا من بعْدها ﴾ أي: من بعد فعل تلك السيئات ورجعوا عنها وأقلعوا ﴿ وآمنُوا ﴾ بالله حق الإيمان وأنه لا يليق أن يعصوه أو أن يكفروا به، واستصحبوا ذلك الإيمان وتلك التوبة حتى خرجوا من هذه الدنيا، فإن الله يقبل توبتهم، ويفرح بها، بل يحبهم برجوعهم إليه أشد الحب، قال تعالى: ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ وقوله: ﴿ إنَّ ربَّك ﴾ أي: يا محمد ـ صلى الله عليك وآلك وسلم ـ والإضافة هنا للتشريف فهو رب السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، فاختصاص الإضافة مصرِّح بعلو شأنه عند ربه ﴿ من بعدها ﴾ أي: من بعد تلك التوبة الصادقة.

﴿ لغفُورٌ ﴾ أي: ستور وصفوح عن زلاتهم.

﴿ رَحيمٌ ﴾ بهم، أي: يقيل عثراتهم، ولا يبقيهم أسرى لذنوبهم، وقد أكد ذلك بـ (إن) و (اللام) ليطمع عباده في كرمه، ولئلا ييأسوا من رحمته مهما قبحت ذنوبهم ومهما أتوا من الكفر، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذين كفرُوا إن ينتهُوا يُغفرْ لهُم مَّا قدْ سلف ﴾[٢].

وهذه الآية بشارة عامة للمؤمنين من كل أمة، وهي بأمة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ألصق، غير أن توبة الله على بني إسرائيل كانت أمرًا عجبًا يماثل كفرهم الأعجب والأغرب، وقد تكفلت سورة البقرة ببيان تلك التوبة.

قال تعالى: ﴿ وإذْ قال مُوسىٰ لقوْمه يا قوْم إنَّكُمْ ظلمْتُمْ أنفُسكُم باتِّخاذكُمُ الْعجْل فتُوبُوا إلىٰ بارئكُمْ فاقْتُلُوا أنفُسكُمْ ذلكُمْ خيْرٌ لَّكُمْ عند بارئكُمْ فتاب عليْكُمْ

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٣).

(٢) سورة الأنفال: الآية (٣٨).

إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[١].

أخرج ابن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قال موسى لقومه: ﴿ تُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ قال: أمر موسى قومه عن أمر ربه ـ عز وجل ـ أن يقتلوا أنفسهم، قال: فاختبأ الذين عكفوا على العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل وأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضا فانجلت الظلمة عنهم وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل مَن قُتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة»[٢].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «قال السدي في قوله: ﴿ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف، فكان مَن قُتل من الفريقين شهيدًا، حتى كَثُرَ القتل حتى كادوا أن يَهلكوا، حتى قُتل سبعون ألفًا، وحتى دعا موسى وهارون: ربنا أهلكت بني إسرائيل، ربنا البقيةَ البقية، فأمرهم أن يلقوا السلاح وتاب عليهم، فكان من قُتلَ منهم من الفريقين شهيدًا ومن بقي مُكَفَّرًا عنه، فذلك قوله: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾»[٣].

ولو تمعّنا في توبة الله لبني إسرائيل باقترانها بقتل بعضهم بعضًا، وكيف يتوب الله ـ جل وعلا ـ على المذنبين من أتباع الأمة المحمدية ـ على نبيها أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ لرأينا رحمة الله بهذه الأمة، إذ إن العاصي مهما كانت معصيته، أو المذنب مهما كان ذنبه، أو المشرك والمرتد عن دينه يكفي في توبتهم الندم والاستغفار وعدم الرجوع إلى ما كانوا عليه، والمبادرة إلى الأعمال الصالحة، بشرط أن يتوبوا قبل أن تصل أرواحهم حناجرهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى

(١) سورة البقرة: الآية (٥٤).
(٢) تفسير الطبري، (١/ ٨٦).
(٣) تفسير ابن كثير، (١/ ٩٢).

اللَّه للَّذين يعملُون السُّوء بجهالة ثُمَّ يتُوبُون من قريب فأُولئك يتوبُ اللَّهُ عليهم وكان اللَّهُ عليما حكيما (١٧) وليست التَّوبةُ للَّذين يعملُون السَّيئات حتَّىٰ إذا حضر أحدهُم الْموتُ قال إنِّي تُبتُ الآن ولا الَّذين يمُوتُون وهُم كُفَّارٌ أُولئك أعتدْنا لهُم عذابا أليما ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ فمن تاب من بعْد ظُلْمه وأصْلح فإنَّ اللَّه يتُوبُ عليه إنَّ اللَّه غفُورٌ رَّحيمٌ ﴾[2] وقال ـ تعالى ـ: ﴿ ومن تاب وعمل صالحا فإنَّهُ يتُوبُ إلى اللَّه متَابا ﴾[3].

* * *

(١) سورة النساء: الآيتان (١٧، ١٨).

(٢) سورة المائدة: الآية (٣٩).

(٣) سورة الفرقان: الآية (٧١).

المبحث الثالث عشر
حرص موسى ـ عليه السلام ـ على الألواح وشدة تعلقه بها

قال تعالى: ﴿ولَمَّا سكت عن مُوسى الْغضبُ أخذ الأَلْواح وفِي نُسْخَتِها هُدًى ورحْمةٌ لِلَّذين هُم لربِّهِم يرْهبُون﴾[1].

قوله تعالى: ﴿ولَمَّا سكت عن مُوسى الْغضبُ﴾ السكت والسكوت خلاف النطق[2] أي: الإقلاع عن الكلام وتركه، والتعبير القرآني هنا بقوله: ﴿ولَمَّا سكت ...﴾ يجسد الغضب كأنما هو كائن حي يدفعُ ويحثُّ موسى على الغضب ثم تركه بعد ذلك، والجملة هنا استعارة مكنية حيث شبه الغضب بشخص آخر يدفعهم ويقوِّيه على ما فَعل، ويقول له: قل لقومك بئسما خلفتموني من بعدي، ويأمره بأن يأخذ برأس أخيه ويجره إليه، فلما زال عنه الغضب صار كأنه سكت. وهذا من بديع الاستعارة، أو أن قوله: ﴿ولَمَّا سكت عن مُوسى الْغضبُ﴾ جعل سكون الغضب سكوتًا، ويكون معنى الآية: ولما سكن وهدأ الغضب عن موسى.

والغضب: هو الانفعال الشديد الذي يصيب الكائن الحي نتيجة مؤثرات خارجية لا توافق هواه، وهو إما محمود وإما مذموم، فالمذموم ما كان في غير الحق، والمحمود ما كان في جانب الدين والحق، ولابد للإنسان إذا غضب أن يتمالك نفسه ويعي ما يفعل وما يقول، لذلك جاء في الحديث عن أبي هريرة ـ

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٤).

(٢) لسان العرب: (٢/ ٤٤).

رضي الله تعالى عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «**ليس الشديد بالصُّرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[١] وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لا يغضب إلا إذا انْتُهكَت محارم الله.

وقوله تعالى: ﴿**أَخذ الأَلْواح وفي نُسْختها هُدى ورحْمةٌ**﴾ ظاهر الآية أن الألواح لم تنكسر، ولم يرفع من التوراة شيء، وأنه أخذ الألواح التي ألقاها ﴿**وفي نُسْختها**﴾ أي فيما نسخ فيها وكتب[٢] ﴿**هُدى ورحْمةٌ**﴾ أي: هدى من الضلالة ورحمة من العذاب.

وقوله تعالى: ﴿**لِلَّذين هُمْ لربِّهِمْ يرْهبُون**﴾ أي: يخافون أشد الخوف منه، واللام الأولى في قوله: ﴿**لِلَّذين**﴾ متعلقة بمحذوف وقع صفة لرحمته، أي: بكائنة لهم، أو هي لام العلة، أي: هدى ورحمة لأجله؛ واللام الثانية في قوله: ﴿**لربِّهِمْ**﴾ لتقوية عمل الفعل المؤخر، كما في قوله: ﴿**إن كُنتُم للرُّءيا تعْبُرُون**﴾[٣] أو هي أيضًا لام العلة والمفعول الثاني محذوف، أي: يرهبون المعاصي لأجل ربهم لا للرياء والتباهي[٤].

* * *

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، جمعه/ محمد فؤاد عبد الباقي، (الكويت: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ١٣٩٧هـ)، ٢/ ٧٠٧.

(٢) تفسير أبي السعود، (٣/ ٣٧٦).

(٣) سورة يوسف: الآية (٤٣).

(٤) بتصرف من تفسير الألوسي، (٩/ ٧١)، وتفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧٦).

المبحث الرابع عشر
منة الله ـ جل وعلا ـ على صلحاء بني إسرائيل

قال ـ تعالى ـ: ﴿ واختار موسىٰ قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلمَّا أخذتهم الرَّجفة قال ربِّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإيَّاي أتهلكنا بما فعل السُّفهاء منَّا إن هي إلاَّ فتنتك تضلُّ بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين (١٥٥) واكتب لنا في هذه الدُّنيا حسنة وفي الآخرة إنَّا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كلَّ شيء فسأكتبها للَّذين يتَّقون ويؤتون الزَّكاة والَّذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿ واختار موسىٰ قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ﴾ اختلف المفسرون في سر هذا الاختيار:

فذكر بعضهم أن سبب هذا الاختيار هو الاعتذار إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عما صنع بنو إسرائيل من عبادة العجل، وأنه كان تمهيداً لطلب توبة الله عليهم، والرغبة إليه أن لا يهلكهم بتلك الفعلة، ويسألوه التوبة على مَن تركوهم وراءهم من قومهم[2].

ويرى بعضهم أن سبب هذا الاختيار موت هارون ـ عليه السلام ـ دون أن يّطلع عليه بنو إسرائيل، وقد أمر الله موسى أن ينطلق بهارون إلى مكان موته من طور سيناء، فذهب بهارون وابنه، فلما مات هارون رجع موسى وابن أخيه

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٥٥، ١٥٦).

(٢) قاله السدي، انظر: زاد المسير لابن القيم، (٣/ ٢٦٨).

وقاله ابن إسحاق، انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧٧).

حزينين إلى بني إسرائيل فاتهموه بقتله، فاختار هؤلاء السبعين ليحي الله لهم هارون فيعودوا إلى قومهم مصدقين موسى في مقالته لهم بموت هارون، وأنه لم يقتله كما يفترون[١].

ولا غرابة في صدور ذلك عنهم، فكم لاقى الكليم عنتًا وأذى مما اقتضى تحذير المؤمنين من إيذاء النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ تشبهًا ببني إسرائيل الذين آذوا موسى ـ عليه السلام ـ فقال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها** ﴾[٢].

وكذلك اختلف المفسرون في الميقات، والراجح عندي أنه ميقات مخصوص يغاير الميقات الأول المذكور في قوله تعالى: ﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ...** ﴾ الآية، فإن هذه الآية صريحة في أن موسى هو الذي أمر وحده بالذهاب إلى ميقات ربه، ولم يكن معه أحد.

ومعنى: ﴿ **واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا** ﴾ أي: انتقى وتخير موسى ـ عليه السلام ـ سبعين رجلاً من قومه ليطلعوا على بعض أحوال موسى ـ عليه السلام ـ عند تكليم الحق ـ جل وعلا ـ له، فيستشهد بهم في وصفه لبني إسرائيل، وليثبتوهم على الإيمان، فيكونوا بمثابة الوزراء والخلصاء لموسى ـ عليه السلام ـ وهذا يرجح ما ملتُ إليه من كون ميقات هؤلاء السبعين غير الميقات الأول.

﴿ **فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي** ﴾ المراد بالرجفة هنا: صعقة أصابتهم لهول ما عاينوا، أو أن الجبل قد رَجَفَ بهم فماتوا أو غُشِيَ عليهم. وقد اختلف المفسرون في سبب أخذ الرجفة لهم:

---

(١) ذكره الألوسي نقلاً عن ابن أبي الدنيا وابن جرير وغيرهما عن علي ـ كرم الله وجهه ـ، انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٧٤).

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٦٩).

فقال بعضهم: هيبة المقام التي لم يحتملوها.

وقال بعضهم: إنهم لما سمعوا كلام الله لموسى وأمره ونهيه قالوا بعد انتهاء المكالمة: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الرجفة لذلك[1]...

وقد أطال المفسرون في ذلك، والذي يظهر لي أن الرجفة أخذتهم للهيبة لا لتلك المقالة، وأن تلك المقالة صدرت عن غير هؤلاء السبعين، ومما يقوي ذلك ما قاله موسى ـ عليه السلام ـ معتذراً إلى ربه بقوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ وبقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ وطلبه المغفرة والرحمة بقوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ فإن كل ذلك يدل على أن هؤلاء السبعين الصلحاء من بني إسرائيل رُجفَ بهم لأن طاقتهم لم تحتمل الحالة التي أحيط بها موسى ـ عليه السلام ـ فقد روي أنه ـ عليه السلام ـ لما أتى الجبل تغشاه عمود الغمام، وأنه أمر السبعين أن يدخلوا فيه فلما دخلوا خروا سجداً، وسمعوا كلام الله ـ تعالى ـ[2] ولذلك ضعفت قواهم عند هذا السماع وتزلزلوا.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: قبل حضورهم معي إلى هذا الميقات الذي جعلته لهم بأمرك سبحانك، فإن هؤلاء السبعين مع صلاحهم لم يفارقوا قومهم حين عبدوا العجل، ولم يبالغوا في الإنكار عليهم، فهم بذلك يستحقون الإهلاك، فإذا أمهلتهم وهم بهذه المثابة فلا تهلكهم وهم معي لئلا يظن بنو إسرائيل أني قتلتهم، فلا يأمنوني بعدُ على أحد منهم.

وقوله: ﴿وَإِيَّايَ﴾ عند قتلي للقبطي في مصر، ومع ذلك لم تهلكني بما استحق رحمة منك، بل رحمتني لما اعتذرت إليك بما قصَّهُ الله من اعتذاره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[3].

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٧٣، ٧٤)؛ وأبي العود، (٣/ ٢٧٧)؛ وزاد المسير، (٣/ ٢٦٩).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧٧) نقلاً عن السُّدِّيِّ.

(٣) سورة القصص: الآية (١٦).

وقوله: ﴿ **أتُهْلِكُنا بما فعل السُّفهاءُ منَّا** ﴾ يؤكد لك أن هؤلاء السبعين لم يرتكبوا ذنبًا يستحقون به هذه الرجفة، والمراد بالسفهاء عبدة العجل، والاستفهام هنا لإنكار الوقوع على معنى: إنه لا يكون منك إهلاك قوم بذنب آخرين، فإنك لا تفعله تفضلاً وعدلاً، أو على معنى النفي، أي: لا يكون منك ذلك، فإنك تعاليت وتعاظمت وقد حرّمت الظلم على نفسك.

وفي قوله: ﴿ **أتُهْلِكُنا** ﴾ يعود الضمير على موسى ومن معه، وهذه من أقوى الأدلة على أن الرجفة كانت للهيبة وعدم التحمل لا لمقالة قالها السبعون، فإنه جمع نفسه معهم، ومحال أن يقرن نفسه بسفهاء متطاولين، وقوله: ﴿ **إنْ هي إلاَّ فتنتُك** ﴾ يقصد به: إما فتنة بني إسرائيل بعبادة العجل ـ وهو ما أرجحه، وهذا أيضًا يؤكد ما ملت إليه من أن الرجفة كانت للهيبة وليست لمقالة قالوها ـ وكأن موسى يقول لربه ـ عز وجل ـ: إن هي إلا فتنتك التي أخبرتني عنها عند مناجاتي معك في الميقات الأول، حيث أخبرتني بقولك جل جلالك: ﴿ **قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك** ﴾[1].

أو كما قيل: إن المراد بالفتنة[2] هنا الابتلاء مطلقًا لعباده في كل زمان، إذ الفتنة في كلام العرب هي الابتلاء والاختبار.

وقوله تعالى: ﴿ **تُضلُّ بها من تشاءُ** ﴾ لعلمك أنه سيختار الضلال ويُصرُّ عليه ﴿ **وتهْدي من تشاءُ** ﴾ أي: ممن اختار الهدى وثبت عليه.

ثم دعا موسى ربه ﴿ **فاغْفِرْ لنا وارْحمْنا** ﴾ وقدم المغفرة هنا التي هي محو الذنب بالعفو عنه من باب التخلية قبل التحلية، فإن بقاء العبد مذنبًا يعرضه لسخط الله ـ عز وجل ـ فإذا حليَّ بالعفو كان أهلاً للرحمة، وقد عمم ـ عليه

---

(١) انظر: ص (٥٣٣) من بحثنا هذا (عند تفسير هذه الآية).

(٢) في قوله: ﴿ **إن هي إلا فتنتك** ﴾.

السلام ـ في طلب المغفرة والرحمة لتشمل مغفرته ـ تعالى ـ ما كان من الذنب وما سيكون، وليستديم ـ عليه السلام ـ رحمته ـ تعالى ـ به وبقومه، ثم أثنى على ربه بقوله: ﴿ **وأنت خير الغافرين** ﴾ أي: خير العافين لأن عفو غيرك غايته سلامة الدنيا أما عفوك وغفرانك ففيهما سلامة الدنيا والآخرة، كما أن غيرك لا يعفو إلا بتحنينك وتعطيفك، فأنت العفو والغفار على الحقيقة.

هذا وإن للمفسرين في هذه الآية كلامًا طويلاً، وخلافات وردودًا على تلك الخلافات، وروايات منها ما لا يصح ومنها الضعيف الذي لا يُعوَّل عليه، وقد استخلصت بفضل الله ـ تعالى ـ لباب كلامهم، وما ذكرته واخترته هو خلاصة لقراءاتي لما وقع في يدي منها[1].

ثم سأل موسى ـ عليه السلام ـ ربَّهُ أن يكتب له ولقومه الفعلة الحسنة في الدنيا، وأن يثبتهم عليها، والمثوبة الحسنى في الآخرة، وأن يوفقهم لتحصيل أسبابها.

﴿ **واكتُب لنا في هذه الدُّنيا حسنة وفي الآخرة** ﴾ والكتابة هنا ليس معناها تغيير القضاء الأزلي بل معناها: اجعل لنا، وتعطّف علينا وتفضل. ومن حق كل مؤمن أن يسأل ربه ما يشاء من أمور الخير، وأن يدرأ عنه كل شر، فإن قضاء الله غيب عنه، وهو مأمور بالدعاء.

ونكّر ﴿ **حسنة** ﴾ إمعانًا منه ـ عليه السلام ـ في إكرام الله له ولقومه بكل خير الدنيا والآخرة، ثم أردف طلبه بذكر السبب الذي يستدعي قبول دعائه ﴿ **إنَّا هُدْنَا إليك** ﴾ أي رجعنا وتبنا، فشأنك وأنت الكريم أن تعود على من رجع إليك تائبًا بمسرته في الدنيا والآخرة.

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٧١ - ٧٥)؛ وتفسير الرازي؛ (١٥/ ١٥ ـ ٢٠)؛ وتفسير أبي السعود، (٤/ ٢٧٦، ٢٧٧)؛ وتفسير الطبري، (٩/ ٧٧)؛ وتفسير ابن كثير، (٢/ ٢٤٩، ٢٥٠)؛ والبحر المحيط، (٤/ ٣٩٨ ـ ٤٠١)؛ وزاد المسير لابن القيم، (٣/ ٢٦٧ ـ ٢٦٩).

هذا وإن لفظ (يهود)[١] مستعمل الآن في ضد ما كان عليه بنو إسرائيل وقت هذا الدعاء، فيهود في الأصل فعل مضارع من هاد يهود بمعنى: رجع عن الشر إلى الخير، وتاب إلى الله وأناب، أما هو الآن فمعناه الرجوع عن الخير إلى الشر، وقد تُنوسي كونه فعلاً وصار اسمًا بالنقل لفسدة بني إسرائيل، ولذا نقول: فعله يهود كذا بالتنكير، وفعله اليهود كذا بالتعريف، وقوله: ﴿ **قال عذابي أصيب به من أشاءُ** ﴾ وهو جواب سؤال دل عليه الكلام، تقديره: فبماذا أجاب الله موسى ـ عليه السلام ـ؟

ومعنى ﴿ **أصيبُ به من أشاءُ** ﴾ من قومك وغيرهم، فدعاؤك مقبول في الصلحاء منهم، وفي هذا الجواب إشارة إلى حال بني إسرائيل بعده ـ عليه السلام ـ ونظير هذه الآية قوله ـ تعالى ـ لإبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهنَ قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين** ﴾[٢] أي: إن الظالمين من ذريتك لا ينالهم عهدي. فكذلك الضالون من بني إسرائيل لا تنالهم رحمة الله.

وقوله تعالى: ﴿ **ورحمتي وسعت كلَ شيءٍ** ﴾ أي: ليس في الدنيا والآخرة ساكن أو متحرك، عاقل أو غير عاقل إلا ورحمة الله فيه ظاهرة، ويجوز أن يكون المعنى: إن رحمتي واسعة في الدنيا والآخرة، لا تضيق بمخلوق، ولكني قضيت بها لمن اتصفوا بالأوصاف الموصِّلة إليها، ولذا قال بعد ذلك: ﴿ **فسأكتبها للذين يتقُون ويؤتُون الزكاة والذين هُم بآياتنا يُؤمنُون** ﴾ وقد عمم وخصص في هذا النص الكريم حيث قال: ﴿ **للذين يتقُون** ﴾ فهو ينتظم سائر المأمورات وجميع الخيرات، وخصص بذكر الزكاة والإيمان بجميع الآيات، لعلمه ـ تعالى ـ أن الزكاة

---

(١) (هُود): الهود التوبة، هاد يهود هودًا وتهَود: تاب ورجع إلى الحق فهو هائد، وفي التنزيل العزيز ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ أي: تبنا إليك . . . انظر: لسان العرب، (٣/ ٤٣٩).

(٢) سورة البقرة: الآية (١٢٤).

كانت وستظل من أشق التكاليف على بني إسرائيل لأنهم عبيد الدينار والدرهم، ومَن كان هذا حاله يبعد أن يؤدي تلك الفريضة، ولعلمه ـ تعالى ـ بأن اليهود يحرفون الكلم عن مواضعه، ويكتبون كتباً ينسبونها إلى الله زوراً، فيها ما لم يأذن به الله، تلبيساً على العامة، وأنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، وقد تجلى ذلك واضحاً في كفرهم بالنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فإن الإيمان به جزء من كتابهم قبل أن يؤمروا بالإيمان به في القرآن، ولأجل ذلك قال: ﴿ **ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ أي: بالتوراة والزبور والإنجيل والقرآن، فلم يفعلوا، من أجل ذلك جانبتهم الرحمة، وذهب عنهم التوفيق، ويجوز كما قال أبو السعود ـ رحمه الله ـ أن المراد بقوله: ﴿ **والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ أن: «فيه تعريض بهم وبكفرهم بالآيات العظام، والتي جاء بها موسى ـ عليه السلام ـ وبما سيجيء بعد ذلك من الآيات البينات، كتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى»[(١)].

وقد تعرضت لقوله تعالى: ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون** ﴾[(٢)] عند ذكري لمبحث الآيات الخاصة بالحض على الإيمان، فاكتفيت بما ذكرته هناك[(٣)].

* * *

(١) تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٧٩)، انظر ص (٥٧٣) إلى (٥٧٧) من بحثنا هذا.

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

(٣) انظر: ص (٤٢) من بحثنا هذا.

المبحث الخامس عشر
ثناء الله تعالى على صلحاء بني إسرائيل

قال تعالى: ﴿ ومن قوم موسىٰ أُمَّةٌ يهدُون بالْحقِّ وبه يعدلُون ﴾.

أثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على فريق قليل من قوم موسى ـ عليه السلام ـ ثبتوا على الحق، وهدوا غيرهم إليه وجعلوه شعارهم في أحكامهم وسلوكهم.

وقوله: ﴿ ومن ﴾ للتبعيض وفيها القلة، وذكر هذا البعض القليل تعريض بأكثرهم الذين كانوا يلبسون الحق بالباطل، ويكتمون الحق وهم يعلمون، وليس المقصود بهذا الفريق الصالحين المعاصرين لموسى ـ عليه السلام ـ بل المقصود صلحاء بني إسرائيل من عهده ـ عليه السلام ـ إلى عهد نبينا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهم غير أنبيائهم لأن هداية الخلق بالحق ولزومه في الأحكام من ضرورات النبوة، فلا يحمد الثناء عليهم به، وإنما المقصود صلحاء بني إسرائيل غير الأنبياء، ولا تعارض بين ما قررته من قلتهم، وقوله تعالى: ﴿ أُمَّةٌ ﴾ فالأمة تطلق على الجماعة الكثيرة[1] وتطلق على القليلة إذا كانت ذات شأن، وقد يسمى الواحد أمة لما تميز به من خصال الخير كما قال تعالى: ﴿ إنَّ إبراهيم كان أُمَّةً ﴾[2] ... الآية.

ومعنى قوله: ﴿ يهدُون بالْحقِّ ﴾ أي: يهدون الناس إليه، وهم متلبسون به ثابتون عليه، لا يقولون ما لا يفعلون، بل يدعون غيرهم إلى ما عرف من أحوال هؤلاء الصلحاء، والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار الصورة الماضية لا لأن ذلك

(١) انظر: تفسير الرازي، (١٥/ ٣١).

(٢) سورة النحل: الآية (١٢٠).

حاصل الآن إذ مهمة بني إسرائيل قد انتهت ببعثة النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فمَن أسلم منهم فهو يهدي بالحق ويعدل به لا لأنه من قوم موسى ـ عليه السلام ـ بل لأنه مسلم متبع لنبينا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

ومعنى: ﴿ **وبه يعدلُون** ﴾ أي: في أحكامهم وسياساتهم، وهذه الآية جاءت لبيان أن رحمة الله ليست مكتوبة للذين يتبعون الرسول النبي الأمي فقط بل هي لهم ولمن سلف قبلهم ممن هدى بالحق وعدل به من قوم موسى ـ عليه السلام ـ.

وهذه الآية تُرينا مدى الصراع بين الحق والباطل في اتباع موسى ـ عليه السلام ـ فأغلبهم دعاة باطل، والقليلون منهم هم الثابتون على الحق، ولذلك تجد القرآن الكريم يؤكد على وقوع بني إسرائيل في سوءتين قبيحتين، هما: الكفر بالله، وقتل الأنبياء بغير حق، ذكر ذلك مرة في البقرة: ﴿ **ذلك بأنَهُمْ كانُوا يكْفُرُون بآيات اللَه ويقتُلون النَبيَين بغير الْحقَ ذلك بما عصوا وَكانُوا يعتدُون** ﴾[1] والضمير في ﴿ **بأنَهُم** ﴾ راجع إلى بني إسرائيل، والإشارة راجعة إلى ضرب الذلة والمسكنة عليهم.

وفي سورة آل عمران: ﴿ **إنَ الَذين يكْفُرُون بآيات اللَه ويقْتُلُون النَبيَين بغير حقَ ويقتلون الَذين يأْمُرُون بالْقسْط من النَاس فبشَرْهُم بعذاب أليم** ﴾[2].

وفي سورة آل عمران أيضًا: ﴿ **ضُربتْ عليْهمُ الذلَةُ أيْن ما ثُقفُوا إلاَ بحبْل مَن اللَه وحبل مَن النَاس وباءُوا بغضب مَن اللَه وضُربتْ عليْهمُ الْمسْكنَةُ ذلك بأنَهُمْ كانُوا يكْفُرُون بآيات اللَه ويقْتُلُون الأنبياء بغير حقَ ذلك بما عصَوْا وَكانُوا يعتدُون** ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٦١).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٢١).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١١٢).

المبحث السادس عشر
نعم الله على بني إسرائيل في التيه وكفرانهم تلك النعم

إن سورة الأعراف قد عدّدت من تلك النعم خمسًا، ذكرها الله في قوله ـ جل من قائل ـ: ﴿ وقطّعناهُمُ اثنتي عشرة أسباطا أُمما وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومُهُ أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كلُ أناس مَشربهُم وظلّلنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المنَ والسلوى كلُوا من طيبات ما رزقناكُم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهُم يظلمون ﴾[1].

النعمة الأولى:

هي قوله تعالى: ﴿ وقطّعناهُمُ اثنتي عشرة أسباطا أُمما ﴾ ومعنى ﴿ قطّعناهُم ﴾ أي: فرّقناهم وصيّرناهم إلى هذا العدد لأنهم من نسل أبناء يعقوب ـ عليه السلام ـ الاثنى عشر، والذين سماهم القرآن الكريم بالأسباط، وكان كل نسل يعتز بأبيه ويرى لنفسه الرئاسة، فإذا لم يقسموا بحيث يلي كل سبط منهم رجلٌ يلي أمرهم ويسوسهم فإن التهارج والتحاسد والتباغض ينتشر بينهم، وهم كما عرفت من خلال ما سلف من أحوالهم أمة قلقة نافرة، كثيرة التقلب، قليلة الشكر، مندفعة في الكفر، فكان هذا التقطيع بالنسبة لهم نعمة وخيرًا.

وتأمل الفرق بيننا وبينهم فالله ـ تعالى ـ يقول في حق أمة الإسلام ﴿ إنَ هذه أُمتُكُم أُمةً واحدة ﴾[2] أي: فلا أرضى تمزيقها ولا تفريقها، فإن فعلتم فقد ذهبت

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦٠).

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٩٢).

ريحكم، بينما بنو إسرائيل لا يستقيم حالها إلا بالتقطيع كما أن حال أمة الإسلام لا يستقيم أمرها إلا بالاتحاد والتجمع.

النعمة الثانية:

هي استسقاء موسى لقومه لما قحطوا في التيه وكاد العطش يقتلهم، وهو مقصود قوله تعالى: ﴿ **وأوْحينا إلىٰ موسى** ﴾ أي: أعلمناه وأمرناه استسقاء قومه، أي: أوحينا إليه في ذلك الوقت الذي طلب منه قومه الاستسقاء لهم بالسبيل الذي تحصل به السقيا، ولم نبطئ عليهم، والسبيل هو قوله تعالى: ﴿ **أن اضرِب بعصاك الحجر** ﴾ فامتثل موسى أمر ربه فضرب، وإنما أمر بضرب الحجر لأن خروج الماء غير معهود منه، فهو لاكتناز أجزائه وصلابته لا ينفذ منه الماء ولا يدخل فيه ولا يثبت عليه لملامسته، فإذا خرج الماء من الحجر وهو بهذه المثابة كان بذلك معجزة ظاهرة لموسى ـ عليه السلام ـ ولفتًا لأنظارهم إلى قدرة الله على إخراج الماء من مكان لا يُتصور منه عادة خروج الماء، وهي تبكيت لهم بالفحوى على عبادة العجل من قبل.

والعصا المذكورة في هذه الآية هي عين العصا التي انقلبت حية فخافها موسى والتي لقفت ما يأفكه السحرة فانتصر بها الحق، وهي التي فلق بها البحر، وهي التي كان يهش بها موسى على غنمه، وهي التي كانت تضيء له في ظلمة الليل، وهي التي كانت تنقلب إلى شجرة ذات أغصان وأوراق تظله إذا نام ـ عليه السلام ـ وقيل إنها من الجنة، نزلت مع آدم، وتوارثها الصلحاء حتى وصلت إلى موسى ـ عليه السلام ـ وأما الحجر: فقد اختلفوا فيه: أهو حجر معهود؟ أو هو أقرب حجر مرّ به موسى بعد هذا الأمر؟ أم هو حجر كان موسى يحمله معه ينبع منه الماء إذا احتاج إليه؟ أقوال وآراء الله أعلم بحقيقتها، ولا يترتب على العلم بها حقيقة دينية، والمهم أن الماء انبجس من الحجر كما ذكرته سورة الأعراف[1] وانفجر كما ذكرته سورة البقرة.

(١) انظر: تفسير الألوسي (١/ ٢٧٠).

وفرّقوا بين الانبجاس والانفجار بأن الانبجاس هو أول خروج الماء، والانفجار هو فورانه وتواليه وتكاثره. وكلا المعنيين جميل دال على قدرة الله[١] وقد أخرج الله لبني إسرائيل اثنتي عشرة عينًا، لكل سبط منهم عين مخصوصة به، يجري في جدول يتصل به لا يختلط بجدول غيره، حمايةً لهم من التزاحم على الماء الذي هو أساس الحياة، والذي قد يؤدي الازدحام عليه إلى قتل الأنفس والوقوع فيما يغضب الله، ولذا نص الله ـ تعالى ـ على علم كل سبط بمشربه، أي: بمكان شربه وعينه المخصوصة به النابعة من الحجر ﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ أي: قد علمت كل جماعة من بني إسرائيل مشربها فلا تنازع ولا تزاحم ولا تقاتل.

النعمة الثالثة:

تظليلهم بالغمام أثناء تيههم بسيناء؛ فإنهم لَمَّا أمروا بمقاتلة الجبارين في الأرض المقدسة فلسطين أرض آبائهم إسحاق ويعقوب وأبنائه الأسباط الاثنى عشر، وقد استولى الجبارون عليها أثناء إقامتهم في مصر وصيّروها دار كفر بعد أن كانت دار توحيد امتنعوا عن ذلك ـ وسيأتيك خبره قريبًا ـ[٢] فعاقبهم الله بالتيه في سيناء أربعين سنة. وسيناء إلى الآن أرض قليلة الشجر والمطر، شديدة الحر، ولذلك ظلّلهم الله بالغمام أثناء هذا التيه رحمة منه ـ تعالى ـ بهم، ولعلمه أن في أصلابهم من سيسترد الأرض المقدسة من أيدي الجبارين بقيادة يوشع بن نون[٣] ـ عليه السلام ـ والغمام هو السحاب الأبيض وسُمِّيَ غمامًا لأنه يحجب وجه السماء.

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (١/ ٢٧١) و (٩/ ٨٨).

(٢) انظر: ص (٥٨٧) من بحثنا هذا.

(٣) سبق أن ترجمت له، انظر: ص (٤٨٧، ٤٨٨) من بحثنا هذا.

النعمة الرابعة:

إنزال المنّ عليهم وهو ـ على الراجح ـ طعام حلو ينزل عليهم أول كل يوم كالطلّ، وقد أمروا أن يأخذوا منه حاجتهم ليومهم فقط ولا يدخروا، إلا يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخروا فيه ليوم السبت لأنه يوم انقطاع وعبادة، وقد حرّم الله عليهم العمل فيه[١][٢].

النعمة الخامسة:

والسَّلْوى وهو طائر[٣] كان يأتيهم متى شاءوا، ينتقون منه ما يشاءون ويتركون ما لا يحبون، وقيل: إنه كان ينزل عليهم مطبوخًا. فسبحان من يقول للشيء كن فيكون[٤].

ومع ذلك لم يشكروا تلك النعم كعادتهم فكفروا وظلموا وعايشوا النعم بالإلْف لا بالشكر فضلوا ضلالاً بعيدًا، وخالفوا أمر ربهم في الادخار فنكبت بهم البشرية إلى أن تقوم الساعة بتعفن أطعمتها الطرية وسريان السوس إلى الصلبة كالحبوب مما كلف البشرية معاناة كبيرة وخسارة فادحة، وحتى مع التحضر في حفظ الأطعمة فإن ذلك محدود بأمد؛ أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها**»[٥].

---

(١) انظر: تفسير الألوسي (١/ ٢٦٣).

(٢) روى ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان المن ينزل على الشجر فيأكلون منه ما شاءوا، وعن قتادة: كان المن يسقط عليهم سقوط الثلج أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل. انظر: فتح الباري (٩/ ٢٣٠).

(٣) طائر يشبه السُّماني، روي ذلك عن ابن عباس. وعن وهب بن منبه قال: هو السُّماني، وعنه قال: طائر سمين مثل الحمام. انظر: فتح الباري (٩/ ٢٣٠).

(٤) انظر: تفسير الألوسي (١/ ٢٦٤).

(٥) انظر: صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (٧/ ١٧٧).

قال ابن حجر: يَخْنزَ - بفتح أوله وسكون الخاء وكسر النون وفتحها أيضًا بعدها زاي - أي: ينتن، والخنز: التغيُّر والنتن، قيل أصله أن بني إسرائيل ادخروا لحم السلوى وكانوا نهوا عن ذلك فعوقبوا بذلك. حكاه القرطبي وذكره غيره عن قتادة وقال بعضهم: معناه: لولا أن بني إسرائيل سنوا ادخار اللحم حتى أنتن لما ادخر فلم ينتن[1].

ثم ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وما ظلمُونا﴾ معطوف على مُقدر دَلَّ عليه سياق الكلام تقديره: فجحدوا نعمنا وما شكروها.

وقوله: ﴿ولكن كانُوا أنفُسهُمْ يظْلمُون﴾ أي: إن كفرهم ومعاصيهم راجعان إليهم، وفي ذلك من التنديد والتحقير لهم ما يجل عن الوصف لأن كل إنسان يحب نفسه ويحرص عليها، وأن وقوع الظلم منه لنفسه أمر مستغرب ومستبعد، لكنه على الكفار بعامة وبني إسرائيل بخاصة ليس بمستغرب ولا مستبعد، وقد حوى هذا النص الكريم الفعل الماضي والمضارع ﴿كانُوا﴾ و ﴿يظْلمُون﴾ لإفادة ثباتهم على هذا الحال، واستمرارهم عليها في كل الأزمنة رغم مضرتها لأنفسهم، لكنهم لفرط بلادتهم لا يشعرون بما يسيئون به لأنفسهم.

* * *

(١) انظر: فتح الباري (٧/ ١٧٧) وقوله: «**لولا حواء لم تخن أنثى زوجها**» فيه إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم للأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك. فمعنى خيانتها أنها قبلت ما زين به إبليس حتى زينته لآدم... وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفاحشة - حاشا وكلا - لكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة وحسّنت ذلك لآدم عُدّ ذلك خيانة له، أما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها. ا. هـ. فتح الباري بتصرف (٧/ ١٧٧).

المبحث السابع عشر
مخالفة أخرى شنعاء من مخالفات بني إسرائيل

قال تعالى: ﴿ وإذْ قيل لهُمُ اسكُنُوا هذه القريةَ وكُلُوا منها حيثُ شئتُمْ وقُولُوا حطَّةٌ وادخُلُوا البابَ سُجَّدًا نَغفِرْ لكُمْ خطيئاتكُمْ سنزيدُ المُحسنين (١٦١) فبدَّلَ الَّذين ظلمُوا منهُمْ قولًا غيرَ الَّذي قيلَ لهُمْ فأرسلْنا عليهِمْ رجزًا مِّنَ السَّماءِ بما كانُوا يظلمُون ﴾[1].

ففي هاتين الآيتين يبين الله ـ تعالى ـ شنيعة قبيحة من شنائع بني إسرائيل، وأنهم كانوا يستفيدون بالمواعظ استفادة وقتية ثم لا يلبثون أن تغلب عليهم طبيعة المخالفة والتباعد عن الحق، فإن المتتبع لأحوالهم السالفة منذ طلبهم من موسى ـ عليه السلام ـ أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه من دون الله كإله مَن مروا عليهم بعد انفلاق البحر لهم، وتوبيخهم الشديد على هذا الطلب، يَظُنُّ أنهم لم يعودوا بعد إلى ما يحاط من شأنهم ويدل على سفاهة عقولهم، لكنه يرى هذا الظن قد تبدّد بعبادتهم العجل من دون الله كما مر، ثم بتأمل المتتبع لتوبة الله عليهم التي هي غاية في المشقة والشدة يعود إليه ظنه بأنهم لن يقدموا بعد على شناعة تسقط مكانتهم عند ربهم، ثم يتبدد هذا الظن عندما يأمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم، ووعده محقق، فإذا علموا أنه ـ تعالى ـ كتبها لهم سهل عليهم دخولها، ومع ذلك يتعللون بما قصَّه القرآن الكريم عنهم: ﴿ قالُوا يا موسىٰ إنَّ فيها قوما جبَّارين وإنَّا لن نَّدخُلها حتَّىٰ يخرُجُوا منها فإن يخرُجُوا منها فإنَّا داخلُون (٢٢) قال رجلان من الَّذين يخافُون أنعمَ اللَّهُ عليهِما ادخُلُوا عليهِمُ البابَ فإذا

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٦١، ١٦٢).

دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين (٢٣) قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون (٢٤) قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ففرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾[1].

وقد عوقبوا بالتيه في سيناء هذه المدة لمخالفتهم نبيهم - عليهم السلام - في دعوتهم إلى دخول الأرض المقدسة، ثم لما سهل الله لهم دخول الأرض المقدسة بعد التيه، وقيل كان ذلك في حياة موسى - عليه السلام - حيث دخل بهم أريحاء ثم مات، وأكمل بعده يوشع بن نون - فتى موسى وخليفته عليهم - دخول بيت المقدس، وقيل: إنهم دخلوا الأرض المقدسة بعد موت موسى - عليه السلام - وفي عهد يوشع، وأمرهم الله بأوامر يلتزمونها عند دخول قرية بيت المقدس على ما هو الراجح[2] وكان المتوقع منهم أن يلتزموا ولا يغيروا ولا يبدلوا فيما أمرهم الله - تعالى - به ولكنهم ومع ما مر بهم من المواعظ والعقوبات على المخالفات خالفوا أيضًا تلك الأوامر في هاتين الآيتين.

وبعد هذه المقدمة نعود إلى تفسير ألفاظ هاتين الآيتين اللتين نحن بصدد دراستهما من سورة الأعراف.

فقوله: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ القائل هو الله - عز وجل - بواسطة الوحي ﴿ إِذْ ﴾ منصوب على المفعولية بتقدير فعل محذوف خوطب به النبي ﷺ وخوطبنا به نحن لنعتبر ولنتعظ بأحوال بني إسرائيل فلا ننحو منحاهم الذي قال الله فيه لبني إسرائيل كيت وكيت فبدَّلوا وغيَّروا. لتتعظ أمتك ولئلا تطمعوا في إيمان اليهود، وليعلم المعاصرون لك منهم جرائم آبائهم الذين هم عليها مقيمون حتى لا يرفعوا رأسًا بمجادلتك، وبنى الفعل لما لم يُسمَّ فاعله جريًا على سنن الكبرياء، وللعلم بالفاعل وأنه لا يحتاج إلى التنصيص عليه، واكتفاءً

(١) سورة المائدة: الآيات من (٢٢) إلى (٢٥).

(٢) انظر: تفسير الألوسي (١/ ٢٦٥).

بالتصريح به في سورة البقرة في نفس تلك القصة: ﴿ **وإذْ قُلْنا ادْخُلُوا هذه القرية** ﴾[١] وذكرهم بقوله: ﴿ **لهم** ﴾ ليشعرك من أول الأمر بأنهم سيخالفون، وأنهم ليسوا من المطيعين حتى يقال: «وإذ قيل لبني إسرائيل» ولموافقة الضمائر في آية ﴿ **وقطَّعناهُم اثنتى عشرة أسْباطا أمما**[٢] ﴾[٣].

والقرية: هي بيت المقدس، وقيل: أريحاء، وهذا كان على لسان موسى - عليه السلام - وقيل: على لسان يوشع بن نون - عليه السلام -.

ويقول الألوسي - رحمه الله -: «الأمر بالسكنى في القرية للإباحة»[٤] على معنى: أبحت لكم سكنى هذه القرية، ويستأنس لرأيه بعطف ﴿ **كُلُوا من طَيِّبات ما رزقْناكُم** ﴾ عليه، ورأى أن الأمر بسكنى تلك القرية للوجوب، وأنهم أمروا أن لا يبارحوها، وأن لا يفسدوا فيها حتى تكون لهم وطنًا ولأن غيرها لا تصلح لإيوائهم لأنها مهد آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط، فلزومهم لها يقودهم إلى سلوك نهج آبائهم، فإن أفسدوا فيها سلب الله منهم الأمن، وسلط عليهم من لا يرحمهم كما قال - تعالى - في سورة الإسراء: ﴿ **وقضَيْنا إلىٰ بني إسرائيل في الكتاب لتُفسدُنَّ في الأرض مرتين ولتعلُنَّ عُلُوًّا كبيرا (٤) فإذا جاء وعْد أولاهُما بعثْنا عليكُم عبادا لَنا أُولي بأْس شديد فجاسُوا خلال الدِّيار وكان وعْدًا مفْعُولا (٥) ثُمَّ رددْنا لكُمُ الكرَّة عليهِم وأمْددْناكُم بأموال وبنين وجعلْناكُم أكْثر نفيرا (٦) إن أحْسنتُم أحْسنتُم لأنفُسكُم وإن أسأْتُم فلها فإذا جاء وعْدُ الآخرة ليسُوؤُوا وُجُوهكُم وليدْخُلُوا المسْجد كما دخلُوهُ أوَّل مرَّة وليُتبِّرُوا ما علَوْا تتْبيرا (٧) عسىٰ ربُّكُم أن يرْحمكُم وإن عُدتُّم عُدْنا وجعلْنا جهنَّم للْكافرين حصيرا** ﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٥٨).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٠).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٨٣).

(٤) انظر: تفسير الألوسي، (١/ ٢٦٥).

(٥) سورة الإسراء: الآيات من (٤) إلى (٨).

وقوله تعالى: ﴿ **وكُلُوا منها حيثُ شئتُم** ﴾ أي: من طعامها وثمارها ولم يذكر كلمة ﴿ **رغدا** ﴾ في الأعراف كما ذكرت في البقرة اكتفاءً بدلالة ﴿ **حيثُ شئتُم** ﴾ عليه، فإنك إذا أكلت من بلدك حيث شئت، وكنت فيها حر التصرف دلّ ذلك على هناء عيشك ورغده.

وعطف ﴿ **وكُلُوا** ﴾ بالواو هنا لأن زمن الأكل واحد، والمعنى: اجمعوا بين الأمرين، وعطف بـ (الفاء) في البقرة لأن الأكل مترتب على الدخول، وأن الدخول هو الموصل إليه، فحسن عطفه هناك بـ (الفاء) لهذا المعنى، وهذا سر عظيم من أسرار الإعجاز، منتشر في الكتاب العزيز، جدير بأن يلتمس، وقد كتب فيه مؤلفون في القديم والحديث[١].

وقوله تعالى: ﴿ **وقُولُوا حطّةٌ** ﴾ أي: مَسألَتُنا لك ربنا حين دخولنا هذه القرية وبعده أن تحط عنا ذنوبنا، وأن تغفر لنا ما كان منا، ورفعت ﴿ **حطّةٌ** ﴾ لأنها خبر مبتدأ محذوف تقديره: مسألتنا حطةٌ، أخرج البخاري بسنده عن همام ابن منبه أنه سمع أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**قيل لبني إسرائيل: ﴿ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وقُولُوا حطّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خطاياكُم ﴾ فبدّلوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعرة**» قال ابن حجر: كذا للأكثر، وكذا في رواية الحسن المذكورة بفتحتين، وللكشميهني «في شعيرة» بكسر المهملة وزيادة تحتانية بعدها. والحاصل أنهم خالفوا ما أمروا به من الفعل والقول فإنهم أمروا بالسجود عند انتهائهم شكرًا لله ـ تعالى ـ وبقولهم حطة، فبدلوا السجود بالزحف، وقالوا حنطة بدلَ حطة[٢].

وقوله: ﴿ **ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا** ﴾ إن قلنا فيه إن (أل) للعهد كان المراد به بابًا

---

(١) انظر: إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، والإعجاز في دراسات السابقين لعبد الكريم الخطيب؛ وبيّنات المعجزة الخالدة. د/ حسن عتر.

(٢) انظر: فتح الباري، (٩/ ٣٧٤).

معينًا هو باب الحطة أو باب التوبة، كذا رُوي عن السلف، وإن أريد بها الجنس كان المعنى: ادخلوا أبواب هذه القرية ـ بيت المقدس ـ سجدًا لله وشكرًا له على أن أعادكم إلى موطن آبائكم وخلّصه لكم من أيدي الجبارين.

والمراد بالسجود هنا إما حقيقته اللغوية بمعنى الخضوع والانحناء والتطامن، وإظهار ما يدل على الخشية، ولذا رُوي عن ابن عباس في معنى ﴿ **سُجَّدًا** ﴾ أي: راكعين[1] وإما أن يراد به حقيقته الشرعية وهو وضع الجبهة على الأرض، وأن يسجدوا سجودًا حقيقيًا لله ـ عز وجل ـ: وأنا أميل إلى الرأي الثاني.

وقد وعدهم الله إذا التزموا بهذين الأمرين قولهم حطة، ودخولهم الباب سجدًا أن يغفر لهم خطيئة المخطئين منهم، وأن يزيد المحسنين منهم ثوابًا وإكرامًا، وقال في سورة البقرة: ﴿ **نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ** ﴾ وفي سورة الأعراف: ﴿ **نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ** ﴾ تفنُّنًا في القول، ودليل على الإعجاز، حيث روعة النظم مع اختلاف التعبيرين.

وقال في سورة البقرة: ﴿ **وَسَنَزِيدُ** ﴾ بالواو وفي الأعراف بدونها لأن الكلام في الأعراف استئناف وقع جوابًا لسؤال مقدر تقديره: وما لغير المخطئين؟ فقيل: سنزيد المحسنين. وهذان الأمران غاية في السهولة واليسر، فأحدهما قول لا يكلف شيئًا والآخر فعل تعشقه قلوب الطائعين، فهل التزم بنو إسرائيل بهما؟!

هذا ما ستجيب عنه الآية الثانية، قال تعالى: ﴿ **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ** ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿ **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ** ﴾ أي: فعلوا خلافًا لما أمروا به، أي: بدلوا بالقول الذي أمروا به وبالفعل الذي أمروا به قولاً

---

(١) تفسير الألوسي: (١/ ٢٦٥).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٢).

غيره وفعلاً غيره، و(بدّل) تتعدى إلى مفعولين أحدهما مجرور بالباء وهو المتروك، والآخر غير مجرور وهو الذي عمله بنو إسرائيل من التبديل.

وفي ذكرهم بـ ﴿ **الَّذين ظلَمُوا** ﴾ غاية التشنيع عليهم لأن المعنى: بدل الذين شأنهم الظلم دائمًا ما أمروا به وأتوا بخلافه.

وفي قوله: ﴿ **منْهُم** ﴾ إنصاف وأي إنصاف لأنَّا عرّفنا به المخالفين من بني إسرائيل وغير المخالفين، ولم تذكر ﴿ **منْهُم** ﴾ في البقرة اكتفاء لأن ﴿ **الَّذين ظلَمُوا** ﴾ تشعر بأن منهم ظالمين وغير ظالمين، وجعل الله ذلك الإشعار حقيقة في الأعراف بقوله: ﴿ **منْهُم** ﴾ وقوله: ﴿ **قولاً غير الَّذي قيل لهُم** ﴾ فقالوا مكانه: (حنطة) فدَلَّ ذلك على مبلغ حبهم للدنيا، وانهماكهم في تحصيلها، وانصرافهم عن الآخرة، مع أن الله قد ضمن له رغد العيش في هذه القرية، وكفاهم همّ ذلك بقوله تعالى: ﴿ **فكُلُوا منْها حيْثُ شئْتُم رغدا** ﴾[1] وبقوله: ﴿ **وكُلُوا منْها حيْثُ شئْتُمْ** ﴾[2] ودخلوا زاحفين على أستاههم أي: أدبارهم، ولم يسجدوا كما أمرهم الله ـ تعالى ـ تكبرًا منهم واستعظامًا.

فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ **فبدَّل الَّذين ظلَمُوا منْهُم قولاً غير الَّذي قيل لهُم** ﴾ ولذا لم يمهلهم الله ـ تعالى ـ بل أرسل عليهم فَوْرَ ذلك ﴿ **رجْزا منَ السَّماء** ﴾ قيل: هو الطاعون، وقيل: عذاب عام أهلك الظالمين منهم، ويدلك على فورية هذا العذاب العطف بـ (الفاء) ﴿ **فأرْسلْنا عليْهم** ﴾ ويدل الجار والمجرور على لزوم هذا العذاب للظالمين، وأنه لم يَتَخَطَّهُمْ إلى الصالحين منهم، والتنصيص على كونه من السماء للدلالة على شدته وهوله، ولذا قال بعض المفسرين: مات منهم أربعة وعشرون ألفًا في ساعة واحدة[3].

(١) سورة البقرة: الآية (٥٨).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦١).

(٣) انظر: تفسير الألوسي، (١/ ٢٦٧)، وتفسير أبي السعود، (٣/ ٢٨٤)، وتفسير الكشاف، (١/ ٢٨٣).

ثم علل الله تعذيبه لهم لاستمرارهم على الظلم وإقبالهم عليه مع وجود الزواجر الشديدة الصارفة لهم عنه، وأتى بـ (كان) ماضيه وبـ (يظلمون) للمضارع ليدل على أن ذلك العذاب لم يكن نتيجة تلك المخالفة بل لأجلها ولاستمرارهم على الظلم والفسق واجتهادهم في ذلك.

وقد ذكر الفخر الرازي أجوبة على تغاير بعض الألفاظ في آيتي البقرة والأعراف والقصة واحدة، وقد ضعّفها الألوسي ولم يرتضها، وفضّل عليها ما ذكره الزمخشري في الكشاف، وقد أعجبني نقد الألوسي لأجوبة الفخر واسترحت إلى ما استراح إليه، وأحيل القاريء إلى نقد الألوسي لتلك الأجوبة، ولم أذكرها خشية الإطالة[١] واكتفيت بذكر أجوبة الزمخشري.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف اختلفت العبارة هنا وفي سورة البقرة؟ قلت: لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض، ولا تناقض بين قوله: ﴿ **اسكنوا هذه القرية وكلوا منها ...** ﴾[٢] وبين قوله: ﴿ **قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا** ﴾[٣] لأنهم إذا سكنوا القرية فتتسبب سكناهم للأكل منها، فقد جمعوا في الوجود بين سكناها والأكل منها، وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو أخّروها فهم جامعون في الإيجاد بينهما، وتَركُ ذكر الرَغَد لا يناقض إثباته.

وقوله: ﴿ **نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين** ﴾ مُوعدٌ بشيئين: بالغفران والزيادة، وطرح الواو لا يخل بذلك لأنه استئناف مرتب علَى تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: ﴿ **وسنزيد المحسنين** ﴾ وكذلك زيادة ﴿ **منهم** ﴾ زيادة بيان. وأرسلنا، وأنزلنا، ويظلمون، ويفسقون من واد واحد[٤].

---

(١) انظر: تفسير الرازي، (١٥/ ٣٤-٣٦)، وانظر: تفسير الألوسي، (١/ ٢٦٧-٢٦٩).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦١).

(٣) سورة البقرة: الآية (٥٨).

(٤) انظر: الكشاف للزمخشري، (٢/ ١٢٤، ١٢٥)، وتفسير النسفي (٢/ ٨٢).

المبحث الثامن عشر
جناية أخرى من جنايات بني إسرائيل
في عهد موسى ـ عليه السلام ـ

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(١).

وقبل أن أشرع في تفسير هذه الآية ينبغي أن أذكر السبب الذي لأجله رفع الجبل على بني إسرائيل، وقد بينه الله ـ سبحانه وتعالى ـ في سورة البقرة، وهو أنه ـ تعالى ـ أخذ على بني إسرائيل ميثاقًا مؤكدًا بعبادته وحده، والإحسان إلى الوالدين، وأن يقولوا للناس حسنًا، وأن يقيموا الصلاة ويؤتو الزكاة، ثم تولوا عن هذا الميثاق وأعرضوا عنه وذلك في عهد نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ فرفع الله الطور عليهم ليحملهم على الاستمساك بهذا الميثاق، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾(٢).

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٧١).

ملاحظة: يلاحظ المتتبع للبحث أنني تركت تفسير الآيات من قوله: ﴿ وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ﴾.. الآية (١٦٣) إلى قوله: ﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المحسنين ﴾.. الآية (١٧٠) وذلك لأنني سوف أتحدث عنها في بحث الصراع بين نبينا محمد ﷺ وبين قومه ـ الفصل الثامن ـ لمناسبتها ولأنها خطاب للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ أن يسأل اليهود عن القرية التي كانت حاضرة البحر... انظر: ص (٦٢١) من بحثنا هذا.

(٢) سورة البقرة: الآية (٨٣).

وقيل: إن موسى ـ عليه السلام ـ لما جاءهم بالتوراة استثقلوا ما فيها من التكاليف، وأبوا قبولها، وقد مر بك قوله تعالى: ﴿ **وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا** ﴾ والمقصود بقوله بأحسنها[1] وأبى بنو إسرائيل أن يأخذوا بشيء منها فرفع الله عليهم الجبل ليحملهم على الأخذ بالتوراة.

والرأيان متقاربان لأن مواد الميثاق المأخوذ عليهم هو بعض ما في التوراة، فالأخذ بالتوراة أخذ بالميثاق؛ ولذا نجد القرآن الكريم في غير سورة الأعراف يقرن رفع الطور بأخذ الميثاق، فيقول في سورة البقرة: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ** ﴾[2] ويقول أيضًا في سورة البقرة: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** ﴾ الآية[3].

والخطاب في آيات سورة البقرة لليهود المعاصرين لرسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فهم وإن لم يرفع الطور عليهم فقد نقضوا الميثاق، وكفروا بالله ـ عز وجل ـ وأكل الحقد أكبادهم ببعثة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بحجة ذهاب النبوة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل ـ العرب ـ.

وفي سورة النساء يقول تعالى: ﴿ **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ** ﴾[4] والكلام أيضًا مع اليهود في عصر النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الذي سألوه أن ينزل عليهم كتابًا من السماء في ألواح كما نزل على موسى من قبل، فسلّى الله نبيه عن هذا التبجّح بذكر ما سألوه موسى ـ عليه السلام ـ من قبل، فهو أكبر بكثير مما

---

(١) انظر: ص (٥٢٣) من بحثنا هذا . . . سورة الأعراف: الآية (١٤٥).

(٢) سورة البقرة: الآيتان (٦٣، ٦٤).

(٣) سورة البقرة: الآية (٩٣).

(٤) سورة النساء: الآية (١٥٤).

سألوه نبينا محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فقال تعالى: ﴿ **يسْئلُك أهلُ الْكتاب أن تُنزّل عليْهمْ كتابا منَ السّماء فقدْ سألُوا مُوسىٰ أكْبر من ذلك فقالُوا أرنا اللّه جهْرةً فأخذتْهُمُ الصّاعقةُ بظُلْمهمْ ثُمّ اتّخذُوا الْعجْل منْ بعْد ما جاءتْهُمُ الْبيّناتُ فعفونا عن ذلك وآتيْنا مُوسىٰ سُلْطانا مُبينا** ﴾[1] يحجزهم عما قالوا وعما فعلوا، ويحملهم على قبول شرائع الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكنهم ما قبلوا إلا برفع الطور عليهم، وقد ربط الله رفع الطور بالميثاق في سورة النساء، وجعله سببًا في هذا الرفع، ولم يعطفه على الميثاق كما سلف في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿ **ورفعْنا فوْقهُمُ الطُّور بميثاقهمْ** ﴾[2] أي: بسبب نقضه بعد قبوله، أو: بسبب الامتناع عن تحمله أصلاً.

وبعد هذه المقدمة نعود إلى أية الأعراف، فقوله تعالى: ﴿ **وإذْ نتقْنا الْجبل فوْقهُمْ** ﴾[3] الضمير فيه لبني إسرائيل الذين جرى الحديث معهم في هذه السورة منفردين عن فرعون، من قوله تعالى: ﴿ **وجاوزْنا ببني إسْرائيل الْبحر** ﴾[4] إلى هذه الآية، وهو قدر كبير من هذه السورة، يزيد على خمسها، وقد فصّلناه وبيّناه فيما مضى.

والخطاب في هذه الآية للنبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ و﴿ **إذْ** ﴾ في هذه الآية مفعول به لفعل محذوف تقديره: اذكر يا محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الوقت الذي نتقنا فيه الجبل فوق بني إسرائيل، وذكر الوقت يستدعي ذكر ما حصل فيه، والقصد من ذلك تسليته ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بما لقيه موسى من تعنت بني إسرائيل واستكبارهم عن الحق وهم من نسل الأنبياء، وشدة

---

(١) سورة النساء: الآية (١٥٣).

(٢) سورة النساء: الآية (١٥٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٧١).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٣٨).

عداوتهم له ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتي فاقت عداوة المشركين.

ومعنى: ﴿ نتقْنا ﴾ قلعنا الجبل من مكانه قلعًا تامًا، وجعلناه فوق رؤوس بني إسرائيل لنحملهم على قبول التوراة.

قال الإمام البخاري: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ ﴾ رفعنا»[1]، والمراد بالجبل الطور للتصريح باسمه مرارًا كما سلف لك.

ومعنى ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ أي: كأنه سقيفة مُظلةٌ لهم كسقف البيت[2] [3].

وعبر القرآن بـ (كأنَّ) لأن المقصود برفعه فوق رؤوسهم التهديد بإهلاكهم بسقوطه فوق رؤوسهم إذا لم يقبلوا شرائع التوراة، فكان لهذا المعنى مشبهًا بالظلة وليس بظلة حقيقة لأنه لا يبقى كذلك بقصد التظليل.

﴿ وظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ ﴾ أي: وظن بنو إسرائيل أن الجبل سيسقط عليهم، وعبر بـ ﴿ وظَنُّوا ﴾ مكان أيقنوا مع تيقنهم بوقوعه فوق رؤوسهم إذا لم يقبلوا الشرائع ليبين ـ تعالى ـ أنه مع رؤية الخطر الداهم لهم بأعينهم لم يصلوا إلى مرتبة اليقين، وهذا يدل على قساوة قلوبهم، فلما عاينوا ذلك قَبلُوا أحكام التوراة ورَضَوا بما فيها.

وقال الله لهم: ﴿ خُذُوا ما آتَيْناكُم بِقُوَّةٍ ﴾ أي: بجد وعزم، وقد نقلهم الله بعد الإعراض عن التوراة من الأخذ بأحسنها إلى الأخذ بكلها، فلم يرخص لهم في ترك شيء منها عقوبة لهم، والمعنى: خذوا التوراة التي آتيناكموها كلها دون أن نجعل لكم فيها مفروضًا ومسنونًا ﴿ واذْكُرُوا ما فِيهِ ﴾ أي: ما في هذا الكتاب

---

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (٧/ ٢٤١) وانظر: تفسير ابن عباس ومروياته.

(٢) في كتب السنة، تأليف الدكتور/ عبد العزيز الحميدي (مكة المكرمة: مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى)، ١/ ٤٣٢.

(٣) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٩٨).

من أحكام وأخلاق ومواعظ لتستعينوا بهذا الذكر على القيام بكل ما في هذا الكتاب قراءة وتطبيقًا.

ولأجل هذا النسيان ابتُليت أمة الإسلام في هذا العصر بمحن ورزايا لم تُعهد من قبل، وما ذلك إلا لأن أغلبهم لم يذكروا ما في القرآن الكريم فجهلوا المهمة التي أنيطت بهم وهي كونهم مسئولين عن دعوة كافة الخلق باسم نبيهم ـ صلى الله عليهم وآله وسلم ـ إلى التوحيد، والأخذ بمحاسن الأخلاق، وإماتة المنكرات في مهدها، أو تضييق الشُقَّة عليها حتى لا تنتشر.

ثم علل هذين الأمرين[1] لبني إسرائيل بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لا سبيل لكم إلى تقوى الله ـ عز وجل ـ التي هي وصية الله لأنبيائهم كلهم ولعباده الصالحين إلا بالالتزام بهذين الأمرين، والثبات عليهما، وقد حاد عنهما بنو إسرائيل بعد ذلك فكانوا أعداء الرسل الذين يأمرون بالقسط من الناس، وكانوا سبب كل داء أصيبت به البشرية بحيدهم عن هذين الأمرين، قال أبو السعود في معنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: «بذلك قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق، أو راجين أن تنتظموا في سلك المتقين» ا. هـ[2].

* * *

(١) الأخذ بالتوراة بقوة وعزم ثم تَذَكُّر ما في التوراة من أحكام وأخلاق ومواعظ.

(٢) تفسير أبي السعود، (٣/ ٢٨٩).

خلاصة ما جاء في الفصل السابع

١ ـ عاش الفراعنة في مصر يحكمون القبط وبني إسرائيل معلنين أنفسهم أربابًا من دون الله واجبروا الناس على ذلك.

٢ ـ لم تكن رسالة موسى ـ عليه السلام ـ خاصة بفرعون وملئه، بل لهما وللمصريين كافة.

٣ ـ بدأ موسى ـ عليه السلام ـ دعوته ببيان حقيقته لفرعون وأنه رسول رب العالمين، لا يقول إلا الحق، وهو مؤيّد بالحجة والبرهان على صدقه، وقد قوبل هذا الكلام بالرد والإنكار من فرعون وقومه.

٤ ـ أبدى موسى ـ عليه السلام ـ معجزتين على صدق رسالته، ألقى عصاه فإذا هي ثعبان لالبس فيه، وأخرج يده السمراء فإذا لها نور يضيء ما بين السماء والأرض، وكان رد فرعون وملئه أن اتهموه بالسحر ولابد من مقابلة سحره.

٥ ـ لما جمع السحرة، ظنوا أنهم سيغلبون لاعتقادهم أنهم أمهر السحرة، وقد بلغوا فيه غايته، ولكثرتهم، وظنهم أن موسى ساحر.

٦ ـ اشترط فرعون شرطين: أن يحدد موسى ـ عليه السلام ـ زمانًا ملائمًا، ومكانًا سوى، أي في المنتصف بين قصر فرعون ومكان إقامة موسى ـ عليه السلام ـ.

واشترط موسى ـ عليه السلام ـ شرطين: تحديد يوم الزينة وهو يوم عيدهم، وأن يحشر الناس ضحى لئلا تتداخلهم ريبة.

٧ ـ ألقى السحرة سحرهم، وأتوا بفنون متوالية من السحر، سَحَرتْ الجميع، حتى موسى الذي خيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

٨ ـ أوحى الله إلى موسى ـ عليه السلام ـ أن يلقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون ويدّعون.

٩ ـ كان من موقف السحرة أن صدقوا وآمنوا وأعلنوا اتباعهم لموسى ومن معه بل وسجدوا لله وحده إظهاراً لموقفهم.

١٠ ـ ألقى فرعون شبهتين وتهمتين إلى موسى والسحرة ليصدّ الناس عن الحق وهما:

* أن فعلكم ـ أيها السحرة ـ هو مكر مكرتموه في المدينة.

* أن غرضكم من مكركم أن تخرجوا من المدينة أهلها.

١١ ـ توعد فرعون السحرة بالعذاب والتمثيل بهم ولكنهم لم يتزعزعوا عن موقفهم بل زادهم الأمر ثباتًا وإيمانًا.

١٢ ـ أثار الملأ فرعون على موسى ومن معه بأمرين:

* إفساد موسى وقومه في أرض مصر ـ على حدِّ زعمهم ـ.

* أن هذا يؤدي إلى أن يخلعوا عنك ما أنت فيه من ربوبية وسلطان.

١٣ ـ كانت إجابة فرعون فيها الخذلان والضعف بأن توعد بقتل أبناء موسى وقومه واستحياء نسائهم وأننا قادرون عليهم.

١٤ ـ أمر موسى ـ عليه السلام ـ قومه بأمرين: الاستعانة بالله، والصبر، ثم بشرهم ببشارتين: أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وأن العاقبة للمتقين، ولكنَّ قوم موسى تضجروا فلم يصبروا.

١٥ ـ لما عاند قوم فرعون ورفضوا الحق سلط الله عليهم أنواعًا من العذاب لم تعرف من قبل:

* الطوفان وزيادة الماء حتى الغرق وإتلاف المزارع والتجارة والمساكن.

* الجراد، الذي أكل زرعهم وثمارهم إلا ما نذر.

* القُمّل: الذي انتشر في بيوتهم وفرشهم حتى أقضّ مضاجعهم.

* الدم: حتى سال النيل عليهم دمًا، أو هو رعاف سال من أنوفهم.

١٦ ـ يظهر من موقف موسى ـ عليه السلام ـ وموقف قومه عدة أمور:

* تفريط أهل الباطل واستكبارهم عن قبول الحق مع وضوح حجته.

* حرص نبيهم ـ عليه السلام ـ على إيمانهم واجتهاده في الدعاء لهم.

* صبر موسى ـ عليه السلام ـ عليهم وترفقه بهم.

* أن الله ـ عز وجل ـ تدرج في الآيات التي ابتلاهم بها لعلهم يتوبون ويرجعون إلى رشدهم.

* أن هذه الآيات لم تعرف من قبل، وهو مناسب لذنوب فرعون وقومه من كفر وعناد واستكبار غير مسبوق من قبل.

١٧ ـ عاهد قوم موسى نبيهم على أمرين: الإيمان بالله والاستسلام له ـ عليه السلام ـ وكذا أن يرسلوا معه بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة التي نزحوا منها إلى مصر.

١٨ ـ كان عاقبة فرعون وقومه أن أغرقهم الله جميعًا في البحر ليكونوا عبرة وعظة لكل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

١٩ ـ الراجح أن الأرض التي أورثها الله بني إسرائيل هي أرض الشام لا أرض مصر.

٢٠ ـ لما أراد الله أن يهيئ نبيه موسى ـ عليه السلام ـ للقائه أمره ـ سبحانه ـ بأن يصوم ثلاثين يومًا ليلهن ونهارهن ثم أتمها بعشر، فتم ميقات ربه أربعين ليلة.

٢١ ـ إنما خصص موسى أخاه هارون يخلفه في قومه من بين سائر الصالحين لأمور منها :

* أن هارون ـ عليه السلام ـ نبي ، ولا تخفى أفضلية النبي على غيره .

* أن هارون كان وزيرًا لموسى ـ عليهما السلام ـ ، ولا شك أن الوزير هو أقرب الرعية إلى الأمير .

٢٢ ـ إنما طلب موسى ـ عليه السلام ـ من ربه الرؤية لفرط شوقه إليه ، لأن من تمام الفضل أن ترى من تكلمه ، ولما علم أن هذا لا يكون تاب إلى ربه وأعلن أنه أول المؤمنين بعظمة ربه وجلاله .

٢٣ ـ الصحيح ما قاله أهل السنة من جواز رؤية الله تعالى عقلاً ، خلافًا للمعتزلة وذلك لوجهين :

* أن نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ سألها .

* أن الله سبحانه علق وقوعها على استقرار الجبل ، وذلك ممكن في نفسه ، وما علق على الممكن ممكن .

٢٤ ـ لما أراد الله ـ تعالى ـ أن يسلي موسى ـ عليه السلام ـ بعد امتناع الرؤية ذكر له أمورًا منها :

* ناداه باسمه تكريمًا له ومؤانسة ومباسطة .

* ذكر له أنه اصطفاه على الناس برسالته .

* أمره أن يأخذ ما آتاه الله وأن يداوم على شكر ربه .

* انتهز قوم موسى غيابه وذهابه للقاء ربه فصنع لهم السامريّ عجلاً جسدًا من حليهم يعبدونه من دون الله .

* الراجح عندي أنه كان عجلاً حقيقيًا هكذا أسماه الله في قرآنه ووصفه بأن جسد.

* غضب موسى - عليه السلام - لما رأى قومه خالفوا أمر ربهم فيهم، وظهر غضبه من خلال قوله:

* بئسما خلفتموني من بعدي.

* أعجلتم أمر ربكم.

* وأخذ برأس أخيه يجره إليه.

* اعتذار موسى - عليه السلام - لربه عما بدر منه لأخيه من لوم وتعنيف، وطلب المغفرة له ولأخيه.

٢٩ - صرحت سورة الأعراف بأنه لا توبة للسامري، وأنه إن تاب لا يتوب الله عليه، وكذلك كل مفتر في دين الله وكل مبتدع، وكل متقوّل على الله ما لم يقل، وكذلك كل يهودي لاً يؤمن بالأنبياء بعد موسى - عليه السلام - ولا يؤمن بإمام الرسل نبينا محمد ﷺ كله داخل في هذا الغضب الشديد من الله والحرمان من قبول توبته إلى يوم القيامة.

٣٠ - مَنَّ الله - تعالى - على صلحاء بني إسرائيل، واختار موسى قومه سبعين رجلاً ليمقات ربه، وقد أثنى الله على صلحاء بني إسرائيل.

٣١ - أنعم الله على بني إسرائيل في التيه بنعم خمس هي:

* أن الله قطعهم اثنتي عشرة أسباطًا أممًا.

* استسقاء موسى لقومه لما قحطوا في التيه وكاد العطش يقتلهم.

* تظليلهم بالغمام أثناء تيههم بسيناء.

* إنزال المن عليهم، وهو على الراجح طعام ينزل عليهم أول كل يوم كالطل.

* السلوى، وهو طائر كان يأتيهم متى شاءوا، ينتقون منه ما يشاءون ويتركون مالا يحبون.

٣٢ ـ من إساءة بني إسرائيل ومخالفتهم أن بدّلوا القول الذي قيل لهم، وغيّروه إلى فعل غيره وكذلك استثقلوا ما في التوراة من تكاليف وأبوا قبولها.

* * *

تمهيد

لما كان الإيمان بالله ـ عز وجل ـ هو الركيزة الأساسية التي قامت عليها دعوات جميع الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لذلك كان موكب الإيمان الذي قاده الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يواجه الجاهلية الضالة بكلمة الحق في صرامة وصراحة، بقول الأنبياء جميعًا لأقوامهم: ﴿ **اعْبُدُوا اللَّه ما لكُم مِّنْ إله غيْرُه** ﴾[1] كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم: ﴿ **وما أرْسلْنا من قبْلك من رَّسُول إلاَّ نُوحي إليْه أنَّهُ لا إله إلاَّ أنا فاعْبُدُون** ﴾[2].

والمتمعن في سورة الأعراف المكية يجدها من بدايتها تعرضت للمعجزة الخالدة التي ختم الله بها الرسالات السماوية قال تعالى: ﴿ **الَمَصٓ (١) كتابٌ أُنزلَ إليْك** ﴾[3] ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي أعجز الثقلين أن يأتوا بآية من مثله، ذلك الكتاب الذي فيه سعادة الناس أجمعين، فهو النعمة العظمى من الرحمن للبشرية جمعاء لإنقاذهم من دياجير الظلمات وركام الأوهام والخرافات.

وكما هو معروف أن القرآن الكريم عني بالدرجة الأولى بتثبيت العقيدة، وترسيخها في قلوب المسلمين آنذاك، ولفت أنظارهم إلى موجد هذا الكون، وما فيه من أجرام سماوية ومخلوقات هي في غاية الإبداع وأن يدعوا عبادة الطواغيت التي يعبدونها من دون الله، والتي لا تعي ولا تسمع ولا تبصر ولا

---

(١) سورة الأعراف: الآيات (٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥).

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

(٣) سورة الأعراف: الآيتان (١، ٢).

تجلب نفعًا ولا ضرًا، وأن يتجهوا إلى عبادة الواحد القهار ويتبعوا ما شرعه لهم، فيحلوا ما أحله لهم، ويحرموا ما حرمه عليهم، ويمتثلوا أوامره، ويجتنبوا نواهيه، لأنه - جل وعلا - خالقهم ومربيهم ومدبر أمرهم، والعليم بما فيه مصلحتهم، وحذرهم من أن يتخذوا معه شركاء، يزينون لهم الباطل، ويصرفونهم عن دينه القويم، قال تعالى: ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾[1].

* * *

(١) سورة الأعراف: الآية (٣).

المبحث الأول
دعوة النبي ﷺ لقومه

لقد بعث الله ـ جل وعلا ـ نبيَّهُ محمدًا ﷺ إلى الناس كافة عُربًا وعُجمًا، وكان أول من واجه من الناس العرب باعتباره ﷺ من أنفُسهم ومن أنفَسهم، فقابلوا دعوته بالعناد والتكذيب شأنُ سائر الأمم الذين فصَّل الله علينا خبرَهم في سورة الأعراف موضوع الدراسة.

ولم تختلف شبهاتهم وأساليب عنادهم في مواجهة دعوة النبي ﷺ عما فعله السابقون مع الرسل الكرام ـ عليهم السلام ـ ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿ **كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون (٥٢) أتواصوا به بل هم قوم طاغون** ﴾[1] والضمير في ﴿ **من قبلهم** ﴾ راجع إلى مشركي قريش، وسنبيِّن إن شاء الله تعالى في هذا المبحث الأساليب التي اتبعها ـ عليه الصلاة والسلام ـ في دعوة المشركين من خلال سورة الأعراف، وسيقتضي البحث أن نتعرض لآيات في آخر السورة قبل التعرض لآيات في أوائلها أو في وسطها تبعًا للعناوين. ومن تلك الأساليب:

أسلوب الترغيب والترهيب:

وهما منتشران في هذه السورة. تطالعك ثالث آية فيها وهي قوله تعالى: ﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون (٣) وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون (٤) فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين (٥) فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن**

(١) سورة الذاريات: الآيتان (٥٢، ٥٣).

المرسلين (٦) فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين (٧) والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (٨) ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾[1] وقد سبق التعرض لهذه الآيات عند دراستي للآيات الخاصة بالحض على الإيمان[2] والآيات الخاصة باليوم الآخر وأن وقوعه لا ريب فيه[3]، والقصد من ذكرها هنا توضيح أسلوب النبي ﷺ في دعوة المشركين من خلال هذه السورة، والناظر في هذه الآيات يجدها تركز على أربع نقاط رئيسية:

أولا: ترغيبهم في اتباع القرآن بوصفه بأنه أحسن ما أنزل، وأنه أنزل لسعادتهم في الدنيا والآخرة، وأنه من ربهم الحفي بهم القائم بمصالحهم والمدبر لشؤنهم، قال تعالى: ﴿ **واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون** ﴾[4] والخطاب في هذه الآية[5] للمشركين بقرينة قوله تعالى: ﴿ **قليلا ما تذكرون** ﴾.

ويدخل فيه ضمنا جميع المكلفين باتباع ما أنزل وهو القرآن، كما أنه ـ تعالى ـ نهاهم عن اتباع أولياء من الجن والإنس من دون الله حتى لا يحملوهم على الكفر بربهم الذي أنزل القرآن لأجلهم.

ثانيا: تلخيص مصير كثير من المكذبين السابقين ومجيء العذاب لهم في أي وقت يشاؤه الله ـ تبارك وتعالى ـ وما كان قولهم حين جاءهم العذاب إلا وصفهم أنفسهم بالظلم علّ ذلك يخلصهم من هذا العذاب، لكن تلك المقالة ما أغنت

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (٣) إلى (٩).

(٢، ٣) انظر: ص (٤٢، ٤٦) من بحثنا هذا.

(٤) سورة الزمر: الآية (٥٥).

(٥) قوله تعالى: ﴿ **واتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون** ﴾ سورة الأعراف: الآية (٣).

عنهم شيئًا ﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾[١] والضمير في ﴿ دعواهم ﴾ يرجع إلى المكذبين السابقين. والغرض من هذه الآيات وعظ قريش بحال السابقين، وأنهم ليسوا بأعز منهم، مما يحملهم على الإقبال على الإيمان لكنهم مع ذلك لجوا في العناد فاستحقوا ما وصفوا به.

﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ نفى عنهم التذكر البتة أو أنه تذكر قليل لا يؤدي إلى المطلوب.

ثالثًا: التنبيه على البعث بذكر بعض ما فيه وهو سؤال الذين أرسل إليهم عن إيمانهم وعنادهم، وسؤال المرسلين عن تبليغهم واجتهادهم في نصح قومهم تبكيتًا للمكذبين ومسرة للمؤمنين، قال ـ تعالى ـ: ﴿ فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين (٦) فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾[٢].

رابعًا: الحديث عن وزن الأعمال وحقيقة الميزان، وأنه يثقل بالأعمال الصالحة، وأنه يخف بالكفر وسيئ الأعمال، وأن المفلحين هم الذين ثقلت موازينهم بإيمانهم وصالح أعمالهم، وأن الخاسرين هم الذين خفت موازينهم لخلوها من الإيمان والعمل الصالح، وأنهم ظلموا أنفسهم بعدم اتباعهم ما أنزل إليهم من ربهم، فكانوا لها ظالمين ﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (٨) ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾[٣] والأسلوب في هذه الآيات عام وشامل لسائر المكذبين وليس لومًا مباشرًا لمشركي العرب على كفرهم وعنادهم، وسبب هذا العموم التفاوت الكبير بين عقلية الأمة المحمدية والعرب منها بخاصة وعقلية الأمم السابقة.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٥).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (٦، ٧).

(٣) سورة الأعراف: الآيتان (٨، ٩).

ومن أسلوب الترغيب :

ترغيب المشركين بالإيمان بالله - عز وجل - وتذكيرهم بنعم شاملة لهم ولمن سبقهم من البشر، ولمن سيأتي بعدهم، كقوله تعالى: ﴿**ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون ولقد خلقناكم ثم صورناكم ...**﴾ الآية، وقد سبق التعرض لهذه الآية في الفصل الأول[١].

ومنها ذكر قصة آدم - عليه السلام - التي بدأت بسجود الملائكة له، تكريمًا لآدم خاصة وللنوع البشرى عامة، وبيان عداوة الشيطان للإنسان، وكيف احتال الشيطان في إخراج آدم وحواء من الجنة، وتعريض الجنس البشري للتكاليف والكدح في هذه الحياة، وسطو الشيطان عليهم لإغواء أكثرهم بالكفر وصرفهم عن طريق الحق.

قال تعالى: ﴿**ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين (١١) قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (١٢) قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين**﴾ ... إلى قوله تعالى: ﴿**قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين**﴾[٢] وقد سبق التعرض لها وتحليل الآيات بالتفصيل[٣].

ومنه الامتنان على بني آدم بما أنزله إليهم من اللباس الذي يسترون به عوراتهم، والريش التي يهيئون بها منازلهم أو يجملون بها حياتهم، قال تعالى: ﴿**يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا**﴾[٤] وقد سبق التعرض

---

(١) انظر: ص (٤٢ ، ٨٥) من بحثنا هذا.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٤).

(٣) انظر: من ص (١٢٦) إلى (١٢٨) من بحثنا هذا.

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٦).

لها في الفصل الأول[١].

ومنه إسداء النصح العام لبني آدم بتحذيرهم من فتنة الشيطان، والمشركون المخاطبون بهذه الآيات داخلون في هذا النصح دخولاً أوّليًا، قوله تعالى: ﴿**يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون**﴾[٢] وقد سبق التعرض لها أيضًا في الفصل الأول[٣].

ومنه حضهم على ما تُقوَى به أرواحهم من طاعته وعبادته، والتجمل بزينة اللباس عند فعل بعض هذه الطاعات، وما تتقوى به أبدانهم للقيام بما كلفها الله ـ تعالى ـ به بإعطائها حقها من الأكل والشرب، ونهيهم عن الإسراف الذي يجر عليهم كل بلاء، ويعرضهم لسخطه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿**يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾[٤].

وقوله: ﴿**خذوا زينتكم**﴾ قال صاحب الكشاف: «أي: ريشكم ولباس زينتكم ﴿**عند كل مسجد**﴾ أي: كلما صليتم أو طفتم، وكانوا يطوفون عراة، وعن طاووس: لم يأمرهم بالحرير والديباج وإنما كان أحدهم يطوف عريانًا ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضُرب وانْتزعت عنه لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها، وقيل تفاؤلاً: ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب» ا. هـ[٥].

---

(١) انظر: من ص (١٦١) إلى (١٦٢) من بحثنا هذا.

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٧).

(٣) انظر: من ص (١٦٣) إلى ص (١٦٤) من بحثنا هذا.

(٤) سورة الأعراف: الآية (٣١).

(٥) تفسير الكشاف، (٢/ ٧٦).

قال الواحدي في «أسباب النزول» عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت في الجاهلية وهي عريانة وعلى فرجها خرقة وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

فنزلت: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ونزلت: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ الآيتان[١] رواه مسلم[٢] عن بندار عن غندر عن شعبة مع اختلاف يسير، قال صاحب الكشاف: «والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة، وكان بنو عامر في أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلا قوتًا ولا يأكلون دسمًا يعظمون بذلك حجهم، فقال المسلمون: فإنا أحق أن نفعل، فقيل لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ وعن ابن عباس -رضي الله عنه-: «كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان؛ سرف ومخيلة» ويحكى أن الرشيد[٣] كان له طبيب نصراني حاذق فقال لعلي بن الحسين بن واقد[٤]: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، العلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان، فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا

(١) أسباب النزول للواحدي، تحقيق/ السيد أحمد صقر، ط دار القبلة، ص (٢٢٢).

(٢) صحيح مسلم، (٤/ ٢٣٢٠) تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي.

(٣) هارون الرشيد (١٤٩ - ١٩٣هـ): هو هارون بن محمد بن المنصور العباسي، أبو جعفر، خامس خلفاء الدولةالعباسية في العراق وأشهرهم، ولد بالري لما كان أبوه أميرًا عليها وعلى خراسان، ونشأ في دار الخلافة ببغداد وولاه أبوه غزو الروم في القسطنطينية، وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة (١٧٠ هـ) فقام بأعبائها، وازدهرت الدولة في أيامه، وكان عالمًا بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه، فصيحًا شجاعًا، كثير الغزوات، حازمًا كريمًا متواضعًا، يحج سنة ويغزو سنة؛ انظر: الأعلام للزركلي (٨/ ٦٢).

(٤) علي بن الحسين بن واقد: مولى الأمير فاتح خراسان عبد الله بن عامر بن كريز القرشي، الإمام المحدث الصدوق أبو الحسن المروزي، ولد سنة ثلاثين ومئة، وقال البخاري: توفي سنة إحدى عشرة ومئتين. ا. هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، (١٠/ ٢١١).

﴿تُسْرِفُوا﴾ فقال النصراني: ولا يؤثر عن رسولكم شيء في الطب، فقال: قد جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة، قال: وما هي؟ قال قوله: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وأعط كل بدن ما عودته» فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبًا».

ذكر هذه القصة الزمخشري في كشافه[١] والنسفي في تفسيره[٢] ونقلها ابن الجوزي في زاد المسير[٣] علّق على الحديث المذكور فيها عن النبي ﷺ بأنه لم يثبت. ا. هـ.

قلت: ذكره الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة وقال: لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب أو غيره[٤] والله أعلم.

ومن أسلوب الترغيب في هذه السورة الحديث عن الكون: عُلويّةً وسُفليّة:

وأن الله ـ عز وجل ـ هو وحده المنفرد بخلقه والمدبر له، والمُصرِّف ما فيه بقدرته، والحديث أيضًا عن بعض الظواهر الكونية التي لها علاقة وثيقة بالبيئة العربية، والتي ينبه بها المشركين على رحمة الله وفضله عليهم، واستخدام ذلك البعض في توضيح حقيقة البعث الذي أنكروه وتجليته بما ينتزع الشك من نفوسهم فيقول تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾[٥].

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري، (٢/ ٧٦).

(٢) النسفي، (٢/ ٥١).

(٣) زاد المسير لابن الجوزي، (٣/ ١٨٨).

(٤) المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للحافظ السخاوي؛ ص (٣٨٩).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٥٤).

فقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قال النسفي ـ رحمه الله ـ: «أراد السموات والأرض وما بينهما، وقد فصّلها في ﴿حم﴾ السجدة، أي: من الأحد إلى الجمعة لاعتبار الملائكة شيئًا فشيئًا؛ وللإعلام بالتأني في الأمور، ولأن لكل عمل يومًا، ولأن إنشاء شيء بعد شيء أدل على عالم مدبر يصرِّفه على اختياره ويجريه على مشيئته.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وتفسير العرش بالسرير والاستواء بالاستقرار كما تقوله المشبهة باطل لأنه كان قبل العرش ولا مكان، وهو الآن كما كان لأن التغير من صفات الأكوان.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: يلحق الليل بالنهار والنهار بالليل.

﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ حال من الليل، أي: سريعًا، والطالب هو الليل كأنه لسرعة مضيه يطلب النهار ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ أي: مذللات ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي: هو الذي خلق الأشياء وله الأمر ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: كثرة خيره، أو: دام بره»[1].

وقوله: جل شأنه ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ بشرًا: جمع بشير لأن الرياح تبشر بالمطر ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ﴾ أي: حملت ورفعت، واشتقاق الإقلال من القلة لأن الرافع المطيق يرى ما يرفعه قليلاً ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ أي: لأجل بلد ليس فيه مطر ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإخراج هو إخراج الثمرات ﴿نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ

---

(١) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٥٦).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٧).

﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فيؤديكم التذكر إلى الإيمان بالبعث، إذ لا فرق بين الإخراجين لأن كل واحد منهما إعادة الشيء بعد إنشائه[١].

وقوله تعالى: ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾[٢].

وقوله: ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ ﴾ الأرض الطيبة التراب ﴿ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ بتيسيره، وهو موضع الحال كأنه يخرج نباته حسنًا وافيًا لأنه واقع في مقابلة نكدًا، وقوله: ﴿ وَالَّذِي خَبُثَ ﴾ صفة للبلد، أي: والبلد الخبيث ﴿ لَا يَخْرُجُ ﴾ نباته، فحُذف للاكتفاء ﴿ إِلَّا نَكِدًا ﴾ هو الذي لا خير فيه، وهذا مَثَلٌ لمن ينجع فيه الوعظ وهو المؤمن ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك وهو الكافر، وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر مثل المطر وإنزاله بالبلد الميت وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد ﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل ذلك التصريف ﴿ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ ونرددها ونكررها ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ نعمة الله وهم المؤمنون ليتفكروا فيها ويعتبروا بها[٣].

أما أسلوب الترهيب للمشركين فقد ساقته سورة الأعراف بأساليب متنوعة أجمل منها ما يلي:

أولاً: مناقشتهم في شُبَهِ أثاروها وافتراءات لبيان الحق فيها، وأسوق لذلك أربع آيات: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾[٤].

﴿ فَاحِشَةً ﴾ الفاحشة: هي الفعلة القبيحة المتناهية في القبح، والمراد بها هنا عبادة الأصنام، وطوافهم بالبيت عراة، وسائر ما كانوا يأتونه في جاهليتهم، وقد

(١) تفسير النسفي بتصرف واختصار، (٢/ ٥٧).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٨).

(٣) تفسير النسفي بتصرف واختصار، (٢/ ٥٧، ٥٨).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٨).

تعللوا بصلاح ما فعلوا ـ مع أنه قبيح ـ لوجود آبائهم عليه، وهم أقرب إلى ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولو كان سوءاً ما فعلوه، ثم يتعللون بأن الله أمرهم بذلك، إذ لو كان ما يأتونه قبيحًا لحوّلهم عنه أو لعاقبهم عليه، ويرد الله عليهم بقوله: ﴿ **قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ** ﴾ لأنه ـ جل وعلا ـ جرت عادته على الأمر بمحاسن الأعمال، والحث على مكارم الخصال.

﴿ **أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾[1] الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، والإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يكون، ولكي يثير في نفوسهم قبح ما يقولون، وليبين لهم كبر جرمه، والأصل في المأمور به أن لا يكون إلا أمرًا حسنًا واجبًا، كان مندوبًا أو مباحًا، حتى يستحق أن يؤمر به، فأما الفواحش فلا يؤمر بها أصلاً بل يزجر الفاعل عن فعلها، فإذا رغب فيها راغب فذلك لبعده عن الإيمان وتحول فطرته من الخير إلى الشر.

ثانيا: ثم أمر الله نبيه أن يعرفهم ما يأمر الله ـ تعالى ـ به عباده حتى لا يبقى لبس في أن فواحشهم التي يأتونها ليست مما أمر الله به ﴿ **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ** ﴾ أي: بالعدل، وبكل خير شرعه الله على ألسنة رسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم وآلهم ـ ثم أمر الله عباده كافرين ومؤمنين إن أرادوا الخير لأنفسهم أن يقيموا وجوههم عند كل مسجد، وأن يدعوه مخلصين له الدين.

قال تعالى: ﴿ **وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ قوله: ﴿ **وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ** ﴾ أي: اقصدوا عبادته مستقيمين إليها، غير عادلين إلى غيرها، في كل وقت سجود أو في كل مكان سجود ﴿ **وَادْعُوهُ** ﴾ واعبدوه ﴿ **مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ أي: الطاعة، مبتغين بها وجهه خالصًا ﴿ **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴾ كما أنشأكم ابتداء يعيدكم[2] والمعنى: أنه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم، فأخلصوا له العبادة،

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٨).

(٢) تفسير النسفي (٢/ ٥٠).

فكما قَدَرَ على البدء بلا كلفة فهو قادر على الإعادة لا محالة، فإذا اهتدى مهتد فبتوفيق الله، وإذا أعرض معرض فبخذلان الله ﴿ **فريقا هدى وفريقا حقَ عليهمُ الضَّلالةُ** ﴾ بما اختاروه لأنفسهم من تكذيب الرسول ﷺ والإعراض عن الحق الذي جاءهم به، واتخاذهم الشياطين أولياء من دون الله يطيعونهم في ما يحملونهم عليه من الشر، ويحسبون مع ذلك أنهم على هدى، وهم في الحقيقة ليسوا بمهتدين، قال تعالى: ﴿ **إنَّهم** ﴾ أي: الكافرين الذي حق عليهم الضلالة ﴿ **اتخذُوا الشَّياطين أولياء من دُون الله ويحسبُون أنهم مهتدون** ﴾[1].

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿ **قُل من حرَّم زينة الله الَّتي أخرج لعباده ...** ﴾ الآية.

كان المشركون ـ كما أسلفت[2] ـ يطوفون بالبيت عراة، ويدَّعون أن الله حرّم الزينة والتجمل باللباس في هذه المواطن، كما أنهم كانوا إذا أحرموا يمنعون أنفسهم من أكل لحوم الضأن ودهونها وألبانها، فخطأهم الله في ذلك بقوله: ﴿ **قُل من حرَّم زينة الله الَّتي أخرج لعباده والطَّيِّبات من الرِّزق** ﴾ والاستفهام في هذه الآية إنكاري، قصد به تقبيح هذا المُدَّعَي من قائليه لأن التحريم لله وحده، وهو لم يحرم ذلك على عباده، ثم أخبر ـ تعالى ـ أن الزينة وطيبات الرزق للذين آمنوا في الحياة الدنيا أصلاً وللكافرين تبعًا، وأنها خالصة يوم القيامة للمؤمنين لأنهم صاروا إلى دار الكرامة التي هي مستقر الزينة والطيبات من الرزق، فأما الكافرون فقد صاروا إلى دار المهانة التي ليس فيها إلا الهوان والعذاب الأليم، وختم هذه الآية ببيان شاف يقاس عليه غيره من آياته في الموضوع وظهور الحجة، لا يدرك إلا من رزقه الله العلم النافع ﴿ **قُل هي للَّذين آمنوا في الحياة الدُّنيا خالصة يوم القيامة كذلك نُفصِّلُ الآيات لقوم يعلمون** ﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٣٠).

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ يا بني آدم خذو زينتكم عند كل مسجد ﴾ انظر: ص (١٦٣) من بحثنا هذا.

(٣) سورة الأعراف: الآية (٣٢).

رابعًا: ثم بيَّن ـ جل وعلا ـ في الآية الرابعة ما حرمه على عباده حقًا، وما لم يأذن لهم فيه، فقال: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ** ﴾ أي: القبائح من الذنوب ﴿ **مَا ظَهَرَ مِنْهَا** ﴾ كالزنا وشرب الخمر ووأد البنات، وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية بلا حياء ﴿ **وَمَا بَطَنَ** ﴾ كالحقد والكبر والخيانة وسائر الرذائل النفسية ﴿ **وَالْإِثْمَ** ﴾ أي: شرب الخمر أو كل ذنب ﴿ **وَالْبَغْيَ** ﴾ الظلم والكبر ﴿ **بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ متعلق بالبغي[1] ﴿ **وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا** ﴾ أي: وحرم عليكم أيها المشركون ما اتخذتموه من الأصنام التي تدعون شركيتها لله ـ عز وجل ـ أو ندِّيتها له، تعالى الله عما يشركون ﴿ **وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[2] أي: وحرم أن تقولوا على الله ما لا تعلمون أنه أذن فيه أو قاله ـ جلّ جلاله ـ، تعالى الله عما يقولونه علوًا كبيرًا.

ومن أسلوب الترهيب:

تهديد المشركين بأوخم العواقب وقد سلكت السورة بذلك أساليب متنوعة:

أ ـ **تهديدهم بسوء المصير والخلود في العذاب** كقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾[3].

ب ـ **تهديدهم بسقوط مكانتهم عند** الله وأنه ـ تعالى ـ لا يسمع دعاءهم وأنه حَرَّم عليهم الجنة، وأنهم لا يدخلونها البتة حتى لو وقع ما يستحيل وقوعه في العقل، فإنهم لا يدخلونها بحال، ليقطع عليهم أطماعهم التي نطقوا بها، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ** ﴾[4] أي: الجنة،

---

(١) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٥١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٣٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٣٦).

(٤) سورة فصلت: الآية (٥٠).

أو: الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة[١] قال تعالى: ﴿ **إنَ الَذين كذَبُوا بآياتنا واستَكْبرُوا عنْها لا تُفتَحُ لهُمْ أبْوابُ السَماء ولا يدْخُلُون الْجنَة حتَىٰ يلج الْجملُ في سمَ الْخياط وكذلك نجزي الْمُجرمين** ﴾[٢].

جـ ـ تصوير واقع أهل الجنة وأهل النار وأنهما متجاوران، وشتان ما بينهما من الحالة التي وصل إليها كل فريق، فمع ما هم عليه أهل الجنة من فرح وسرور وحبور بما وجدوه من وعد الله الحق لهم ينادي أهل الجنة أهل النار ويسألونهم: ﴿ **هل وجدتُم مَا وعد ربُكُمْ حقًا قالُوا نعم** ﴾ وهذا إقرار من أهل النار بما هم فيه من هوان، والاستفهام في الآية للتهكُّم لأن أهل الجنة موقنون بأن ما وجده أهل النار فيها مما وعدهم الله به في الدنيا حق لا ريب فيه، فحينئذ يؤذَنُ مَلَك من ملائكة الحق وينادي بصوت يخلع القلوب عقيب حوار الفريقين بعضهما لبعض . . . قال تعال: ﴿ **فأذَن مؤذنٌ بينهُم أن لَعنةُ اللَه على الظَالمين (٤٤) الَذين يصدُون عن سبيل اللَه** ﴾ أي: يصدون أنفسهم وغيرهم بالعناد والتكذيب والشبه الباطلة والتشكيك في القرآن ونبي القرآن.

﴿ **ويبغُونها عوجا** ﴾ أي: موافقة لأهوائهم وضلالهم.

﴿ **وهُم بالآخرة كافرُون** ﴾[٣] أي: بالدار الآخرة وما وعد الله عباده فيها.

﴿ **وبينهُما حجابٌ** ﴾ فلا يصل أهل الجنة لأهل النار، ولا أهل النار لأهل الجنة.

د ـ ومن الأساليب التي سلكتها السورة في تهديد المشركين وصف حالة أهل النار واستغاثتهم بأهل الجنة، وطلب أهل النار أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء ليطفئوا ما بلغ بهم من العطش والحر الشديد، حتى إن ألسنتهم نزلت من أفواههم، فهم يلهثون كما تلهث الكلاب، ويتوسلون إلى أهل الجنة أن

---

(١) تفسير النسفي، (٤/ ٩٨).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٤٠).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٤٥).

ينيلوهم شيئًا مما رزقهم الله إياهم من النعيم، وكان كل همهم أن يفيضوا عليهم بعضًا من الماء ليستريحوا به شيئًا من الاسترواح من أكل الزقوم[١] والغسلين[٢] ومن شرب الحميم وهو الماء الحار المتناهي في الحرارة، فيجيبهم المؤمنون بأن الله حرم ذلك على الكافرين، وإنما سأل أهل النار ذلك مع يأسهم من حصوله لأن المتحير المكروب ينطق بما يفيد وبما لا يفيد[٣] قال تعالى: ﴿ **ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين** ﴾[٤].

هـ- ومرة أخرى **يبين لهم أنهم منسيون في النار لا يصلون إلى رحمته** بولولتهم ولا بتذمرهم لأنهم اتخذوا دينهم الذي اعتنقوه وانتسبوا إليه لهواً ولعبًا فحرّموا ما شاءوا، وأحلوا ما اشتهوه، وغرهم طول البقاء في هذه الدنيا ونسوا لقاء ربهم، قال تعالى: ﴿ **الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾[٥].

والتقدير: فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء هذا اليوم وكما كانوا بآيات الله يجحدون. وهذا يصور لك مبلغ عدم اكتراثهم بيوم القيامة وإمعانهم في التكذيب به، وإمعانهم في إنكار آيات الله -تعالى-.

و- وتارة يذكرهم بأنهم **سوف يعترفون بأن القرآن الذي جحدوه في**

---

(١) الزقوم: طعام أهل النار، قال -تعالى-: ﴿ **أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم إنا جعلناها فتنة للظالمين إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم** ﴾ سورة الصفات: الآيات من (٦٢) إلى (٦٧).

(٢) الغسلين: قال تعالى: ﴿ **ولا طعام إلا من غسلين** ﴾ سورة الحاقة: الآية (٣٦). والغسلين: غسالة أهل النار وهو ما يسيل من أبدانهم من الصديد والدم. انظر: النسفي، (٤/ ٢٨٩).

(٣) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٥٥).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٥٠).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٥١).

الدنيا حق لا ريب فيه، وأن الرسل الذين كذبوهم قد جاءوهم بالحق الذي لا مَعْدلَ عنه، وأن اعترافهم هذا لا يغني عنهم شيئًا لأنهم قالوه بعد فوات أوانه، وأنهم سيطلبون لأنفسهم شفعاء يشفعون لهم عند الله فلا يجدون، وأنهم يتمنون أن يُرَدُّوا إلى الدنيا من جديد ليعلموا ما امتنعوا عن عمله من قبل وأن ذلك لن يتحقق لهم، وأنهم قد خسروا أنفسهم بوقوعهم في العذاب الذي كذبوا به، وأن ما كانوا يفترونه من شركهم في الدنيا قد غاب عنهم؛ ولم يجدوا له نفعًا، قال تعالى: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ**﴾ أي: هل ينتظرون إلا عاقبة هذا الكتاب الذي كذبوا به حين يعلمون يوم القيامة أنه ما جاءهم إلا بالهدى والرحمة، لكنهم اجتهدوا في الإعراض عنه ففوجئوا بما لم يتوقعوا.

﴿**يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ**﴾ أي: تظهر الحقائق التي أخبر عنها ماثلة للعيان، فالجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ونبيهم محمد ﷺ الذي كذبوه حق ﴿**يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾[1].

ثم لم تكتف السورة بما مضى بل قصت عليهم حال نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه، وهود ـ عليه السلام ـ مع عاد، وصالح ـ عليه السلام ـ مع ثمود، وشعيب ـ عليه السلام ـ مع مدين، وموسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون ومع بني إسرائيل بعد إنجائهم من فرعون؛ ليتعظ المشركون بهذا القصص وليعتبروا بحال الأقوام ومآلهم.

ولعلي أكون قد وفقت ببيان ما سلكته السورة في حجاج المشركين وتجلية الصراع بينهم وبين النبي ﷺ.

وكما سلكت السورة مع المشركين عدة مسالك ألمحت إليها، كذلك سلكت مع اليهود عدة مسالك، أقامت بها الحجة على المعاصرين منهم للنبي ﷺ وبينت

(١) سورة الأعراف: الآية (٥٣).

أخطاء أسلافهم، وقد تعرضت لها من خلال تناولي لقصة موسى ـ عليه السلام ـ وهي تتلخص في ذكر ما أنعم الله به عليهم، وبيان ما قابلوا به هذا الإنعام من الجحود والنكران، وارتكاب أشنع المخالفات ـ كما فصلته سابقًا ـ[١].

ولم تكتف السورة مع اليهود بما بسطته من خلال قصة موسى ـ عليه السلام ـ بل ذكرت لهم أربعة أشياء محدودة تحملهم على متابعة النبي ﷺ والإيمان به؛ حتى لا يحدث لهم ما حدث لأسلافهم:

أولاً: بيان شرف النبي ﷺ وأنه رحمة مهداة للعالمين، وهم جزء من العالمين وأنه ﷺ رحمة خاصة لهم، وتجد ذلك واضحًا في قوله: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ**﴾[٢].

أي: التي حرمت عليهم وعلى أسلافهم بما ارتكبه أسلافهم من مآثم استوجبت تلك المعاقبة.

﴿**وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ**﴾ من الربا والرشوة وشرب الخمر وأكل الخنزير وغير ذلك مما شاع في اليهود من محرمات.

﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾ كاشتراط قتل النفس في قبول التوبة[٣] وأخذهم بالقود في قتل العمد والخطأ على سواء، وقطع ما تنجس من ثيابهم وجلودهم، وإحراق الغنائم، وظهور الذنوب على أبواب البيوت وغير ذلك. والإصر هو الثقل الذي يأصر صاحبه، أي: يحبسه عن الحراك

---

(١) انظر: من ص (٤٩٥) إلى ص (٥٠٢) من بحثنا هذا.

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٥٧).

(٣) كما أشار إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ في سورة البقرة: ﴿**وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم**﴾ سورة البقرة: الآية (٥٤).

لثقله، والمراد التكاليف الصعبة المشار إليها آنفًا، والأغلال جمع غُل - بضم الغين - وهي في الأصل الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه، وشُبِّهتْ التكاليف بالغل للزومها لزوم الغل[1].

ثم بين الله - تعالى - كيفية متابعة هذا النبي الأمي ﷺ فحصرها في أربعة أشياء:

أ - في تحقيق الإيمان به، قال تعالى: ﴿ **فالَّذين آمنُوا** ﴾.

ب - توقيره وتعظيمه وفداؤه بالنفس والمال والولد، قال تعالى: ﴿ **وعزَّرُوهُ** ﴾.

جـ - نصرته ومساعدته على نشر دينه، والقيام بعده بنشر هذا الدين والاجتهاد في تبليغه إلى العالمين، قال تعالى: ﴿ **ونَصرُوهُ** ﴾.

د - اتباع النور الذي أنزل معه وهو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ **واتَّبعُوا النُّور الَّذي أُنزل معهُ** ﴾.

قال تعالى: ﴿ **فالَّذين آمنُوا به وعزَّرُوهُ ونصرُوهُ واتَّبعُوا النُّور الَّذي أُنزل معهُ أُولَئك هُمُ الْمُفْلحُون** ﴾ ولم أفض كثيراً في هذه الآية لأنني ذكرتها في الفصل الأول[2].

ثانيًا: أمر الله نبيه ﷺ أن يسألهم عن دقيقة انفردوا بمعرفتها، ولم يعرفها عنهم غيرهم، ولم يُعرف أنه ﷺ جالسهم فأخبروه بها ألا وهي قصة أهل القرية التي كانت قريبة من البحر، والتي اعتدى أهلها بالعمل في يوم السبت، وكان قد فرض عليهم تعظيمه وتخصيصه بالعبادة لما اختاروه لأنفسهم بأهوائهم، وتركوا ما اختار الله لهم وهو يوم الجمعة، فكان اختيارهم سبب نكبتهم ومسخهم قردة وخنازير، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يسألهم عن هذه القصة ليعلموا أنه ﷺ قد عرفها من قبل الوحي، لعل ذلك يحملهم على الإيمان به وتصديقه فيما جاءهم به عن الله - عز وجل -.

---

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ٨٨)، وأبي السعود، (٣/ ٢٧٩، ٢٨٠)، والنسفي (٢/ ٨٠).

(٢) انظر: ص (٧٢) من بحثنا هذا.

وقد انفردت سورة الأعراف بتفصيل هذه القصة بينما أشار القرآن إليها بإيجاز في سورة البقرة بقوله: ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين (٦٥) فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين** ﴾[١] وقوله ـ تعالى ـ في سورة النحل: ﴿ **إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾[٢] أي: إنما جعل البلاء على اليهود المختلفين في يوم السبت الذين آثروه على يوم الجمعة، قال النسفي ـ رحمه الله ـ: «روي أن موسى ـ عليه السلام ـ أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يومًا للعبادة، وأن يكون يوم الجمعة، فأبوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت، إلا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فهذا اختلافهم في السبت لأن بعضهم اختاروه، وبعضهم اختاروا عليه يوم الجمعة، فأذن الله لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد، فأطاع أمر الله الرضوان بالجمعة فكانوا لا يصيدون، وأعقابهم[٣] لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك، وهو يحكم بينهم يوم القيامة فيجازي كل واحد من الفريقين بما هو أهله»[٤].

أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع؛ اليهود غدا والنصارى بعد غد**»[٥].

---

(١) سورة البقرة: الآيتان (٦٥، ٦٦).

(٢) سورة النحل: الآية (١٢٤).

(٣) هكذا في الأصل والصواب (أما أعقابهم لم ...).

(٤) تفسير النسفي، (٢/ ٣٠٤).

(٥) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، كتاب الجمعة (٣/ ٤ ـ ٦).

ويوضح الحديث الذي أخرجه البخاري الأثر الذي رواه أبو صالح[١] عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أنه قال: «أمر موسى ـ عليه السلام ـ اليهود بالجمعة، وقال: تفرغوا لله ـ تعالى ـ في كل سبعة أيام يومًا واحدًا وهو يوم الجمعة، ولا تعملوا فيه شيئًا من أعمالكم، فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا: لا نريد إلا اليوم الذي فرغ الله ـ تعالى ـ فيه من الخلق، وهو يوم السبت، فَجُعل عليهم، وشدد فيه الأمر، ثم جاء عيسى ـ عليه السلام ـ بالجمعة فقالت النصارى: لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا فاتخذوا الأحد، وكأنهم إنما اختاروه لأنه مبتدأ الخلق»[٢]. وإليكم تفصيل قصة أصحاب السبت من سورة الأعراف:

قال تعالى: ﴿ **وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ** ﴾[٣] أي: اسأل يا محمد ـ صلى الله عليك وآلك وسلم ـ اليهود المعاصرين لك المناوئين لدعوتك سؤال توبيخ وتقريع عن أمر يختص بآبائهم، لا يعلمه أحد غيرهم إلا إياك، فإنا أعلمناك به ليعلموا أن ما جئتهم به هو الحق، سَلْهم عن أهل القرية التي كانت قريبة من البحر، قيل: «آيلة»[٤] وقيل غير ذلك ﴿ **إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ** ﴾ بمعنى إذ يعتدون فيه بفعل ما حرم الله عليهم فعله في هذا اليوم من العمل الدنيوي، فإنهم

---

(١) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٤/ ٥٠٥).

(٢) تفسير الألوسي (١٤/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٦٣).

(٤) آيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم ـ البحر الأحمر ـ مما يلي الشام، كانت مدنية جليلة في زمن داود ـ عليه السلام ـ وهي القرية التي ذكرها الله ـ تعالى ـ حاضرة البحر، كان أهلها يهودًا حرم الله ـ تعالى ـ عليهم يوم السبت صيد السمك، وكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شُرَّعًا بيضًا سمانًا كأنها الماخض حتى لا يرى وجه الماء لكثرتها، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، فكانوا على ذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان وسوس لهم وقال: إنما نهيتهم عن صيدها يوم السبت فاتخذوا حياضًا حول البحر وسوقوا إليها الحيتان يوم السبت، فتبقى فيها محصورة واصطادوا يوم الأحد، وفي غير يوم السبت لا يأتيهم حوت واحد، ففعلوا ما أمرهم الشيطان خانفين . . .
انظر: آثار البلاد وأخبار العباد لزكريا القزويني، ص (١٥٣).

أمروا أن يتفرغوا فيه تفرغًا تامًا لعبادة ربهم، وقد ابتلاهم الله بذلك لما أعرض أغلبهم عن يوم الجمعة الذي اختاره الله لهم، مدعين أن يوم السبت هو اليوم الذي فرغ الحق ـ تبارك وتعالى ـ فيه من خلق السموات والأرض.

﴿ إذْ ﴾ ظرف في محل جر بدل من القرية، وقوله تعالى: ﴿ **إذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا** ﴾ أي: ظاهرة بادية على وجه الماء، كثيرة يسهل اصطيادها بلا عناء وكلفة.

وسبت من ﴿ **سَبْتِهِمْ** ﴾ مصدر سبتت اليهود تسبت سبتًا، أي: انقطعوا لعبادتهم، وقد ابتلاهم الله بذلك نقمة منهم ليصطادوا في هذا اليوم الذي نهوا عن العمل فيه والذي اختاروه لأنفسهم ﴿ **وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ** ﴾ أي: لا تأتيهم حيتانهم في سائر أيام الأسبوع التي لا يسبتون فيها و ﴿ **وَيَوْمَ** ﴾ ظرف منصوب بـ ﴿ **لَا تَأْتِيهِمْ** ﴾ مما جرأ سفهاءهم والضالين منهم على الاصطياد يوم السبت مما أدى إلى هلاكهم، وقوله تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ أي: كهذا البلاء، وهذا الافتتان الحاصل لهم بمجيء حيتانهم يوم سبتهم شرَّعًا، وانقطاعها في سائر أيام الأسبوع مما سهل عليهم المعصية، نبتليهم بأنواع أخرى من البلايا الشديدة بسبب استمرارهم على الفسق وإلْفهم له.

ولذا استخدم القرآن كلمة (كان) الدالة على الاستمرار في مثل هذا التعبير وبالفعل المضارع الدال على تجدد الفسق منهم، ووقوعه حينًا بعد حين دون مبالاة بعواقبه[1].

وقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ** ﴾ أي: أُمَّة صالحة من اليهود كانت قد يئست من رجعة أولئك السفهاء عن الاصطياد في يوم السبت، فتركت وعظهم لقوم آخرين صالحين استمروا على وعظهم، ولم يكفوا عنه مع استمرار هؤلاء

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود، (٣/ ٢١٤)، وتفسير النسفي (٢/ ٨٢).

السفهاء على المخالفة: ﴿لم تعظُون قوما اللَّهُ مُهلكُهُم؟﴾ أي: مستأصلهم في الدنيا بما يشاء لهم من العذاب الخاص بهم، المناسب لتلك الجريمة النكراء[١].

﴿أَوْ مُعذِّبُهُم عذابا شديدا؟﴾ دون الإهلاك، مع ما ينتظرهم من العذاب الشديد في الآخرة، وكان هؤلاء القائلون قد سلكوا كل وسيلة في وعظهم لينزجروا عن جريمتهم، فلم ينجح فيهم، وقد أجابهم الصالحون المستمرون على وعظهم ﴿قالُوا معذرة إلىٰ ربكُم﴾ أي: نعظهم لا لأنهم سيرجعون بل لنُظهر عذرنا عند ربنا وأننا لم نكف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن بدا أن المنهيين لا يرجعون ﴿معذرة﴾ مفعول لأجله وهي قراءة حفص، وقراءة الجمهور ﴿معذرةٌ﴾ بالرفع، والتقدير: موعظتُنا عذرٌ إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ لئلا ننسب إلى التقصير في النهي عن المنكر[٢] ومعنى القراءتين متقارب ﴿ولعلَّهُم يتَّقُون﴾ أي: رجاء لأن يتقوا بعض التقاة، واستخدام الواعظين كلمة (لعل) للدلالة على أن الأمل في تقواهم قليل.

وقد بيّن تعالى أنهم لما نسوا ما ذُكِّروا به من نهيهم عن العمل يوم السبت لما يجره عليهم من الويل نجّي الصالحين منهم، وأهلك المفسدين بعذاب خاص بهم، لم يعذب به أحدًا قبلهم ولا بعدهم وقد سماه الله باسم عام ﴿بعذاب بئيس﴾ لتذهب النفس فيه كل مذهب، ثم عيّنه ليريح القلوب من التفكير فيه، وليبين لها أنه شيء لم يخطر على البال، قال تعالى: ﴿فلمَّا نسُوا ما ذُكِّرُوا به﴾[٣] أي: فلما نسي الظالمون من اليهود ما ذكرهم به الصالحون وما خوّفهم به من عذاب الله ـ تعالى ـ ﴿أنجينا الَّذين ينهوْن عن السُّوء﴾ أي: أنجينا الصالحين منهم برحمتنا لأنهم تحلوا بما يؤهلهم لها وهو النهي عن السوء، ولم يقل: (ينهونهم) ليعلم أن هؤلاء

---

(١) أعين: اصطيادهم يوم السبت.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٣/ ٢٨٥).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٦٥).

الصالحين كانوا ينهون عن السوء الواقع من هؤلاء السفهاء ومن غيرهم، أي: كانت طبيعتهم كراهية السوء والنهي عنه مطلقًا، بلا تأثر بقرابة ولا جاه ولا مال ﴿ **وأخذنا الذين ظلموا** ﴾ أي: بقدرتنا وقهرنا، واستخدام القرآن الكريم اسم الموصول مزيدًا في تعيينهم، وكأنهم الظالمون لا غيرهم ﴿ **بعذاب بئيس** ﴾ في الدنيا، أي: شديد غريب لم يخطر مثله على البال ﴿ **بما كانوا يفسقون** ﴾ أي: بسبب فسقهم واستمرارهم عليه، وقد عمّم ـ تعالى ـ في وصفهم بالفسق ليعلم أن المعاصي كلها تجر إلى البلاء، فهو ـ تعالى ـ لم يقل: بما كانوا يفسقون في يوم السبت، والذي كان سببًا في هذا العذاب البئيس، بل قال تعالى: ﴿ **بما كانوا يفسقون** ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ **فلما عتوا عن ما نهوا عنه** ﴾ أي: أعرضوا عن ترك ما نهوا عنه كل الإعراض، وصدوا عن وعظ الواعظين منهم الصدود التام فاجأهم الله بما لم يكن في حسابهم ﴿ **قلنا لهم: كونوا قردة خاسئين** ﴾ أي: جعلناهم قردة حالة كونهم خاسئين خاسرين أذلاء، لا يستطيعون أن يدفعوا ما نزل بهم، وهذا الكلام حقيقي لا دخل للمجاز فيه البتة، فقد حولهم من صورهم الآدمية إلى قردة حقيقية، وتأمل قوله تعالى: ﴿ **قلنا لهم كونوا** ﴾ وهنا سؤال مهم وهو: هل مُسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير؟ أم مُسخ العاصون في يوم السبت كلهم قردة ومُسخ أناس آخرون من غيرهم خنازير؟ يرى بعض المفسرين أن شبابهم مسخوا قردة وشيوخهم مُسخوا خنازيرَ للتفاوت ما بين الشباب والشيوخ، ويرى البعض الآخر أنهم مسخوا كلهم قردة، وأما الذين مسخوا خنازير فهم الكافرون من بني إسرائيل بعد نزول المائدة التي طلبوا من الله نزولها في زمن المسيح ـ عليه السلام ـ والتي قال الله ـ جل وعلا ـ في آخر قصتها: ﴿ **قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين** ﴾[1] وكان الممسوخون

---

(١) سورة المائدة: الآية (١١٥) قال النسفي في تفسير قوله تعالى: ﴿ **قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة** ﴾ . . . سورة المائدة: الآية (٦٠) يعني أصحاب السبت، والخنازير أي: كفار أهل مائدة عيسى ـ عليه السلام ـ أو كلا المسخين من =

يعرفون صلحاءهم وأنسباءهم ويبكون لكنهم لا ينطقون، والجمهور على أنهم ماتوا بعد ثلاثة أيام، وقيل: إن هذه القردة قد عاشت وتناسلت، والله أعلم بالصواب[١].

قال تعالى: ﴿ **واسْئَلْهُمْ عن الْقَرية الَّتي كانت حاضرة الْبحر إذ يعدُون في السَّبْت إذْ تأْتيهمْ حيتانُهُمْ يوْم سبتهمْ شُرَّعا ويوْم لا يسْبتُون لا تأْتيهم كذلك نبْلُوهم بما كانُوا يفْسُقُون (١٦٣) وإذْ قالت أُمَّةٌ منْهُمْ لم تعظُون قوما اللَّهُ مهْلكُهُمْ أو معذبُهُمْ عذابا شديدا قالُوا معْذرة إلىٰ ربكُمْ ولعلَّهُمْ يتَّقُون (١٦٤) فلمَّا نسُوا ما ذُكَّرُوا به أنْجينا الَّذين ينْهوْن عن السُّوء وأخذْنا الَّذين ظلمُوا بعذاب بئيس بما كانُوا يفْسُقُون (١٦٥) فلمَّا عتوْا عن مَّا نُهُوا عنْهُ قُلْنا لهُمْ كُونُوا قردة خاسئين** ﴾[٢].

ثالثًا: أخبر الله نبيه ﷺ بعقوبات تلازمهم إلى يوم القيامة منها:

١ ـ أنهم كلما اجتمعوا لا يجتمعون إلا على الشر، سلط الله عليهم من ينزل بهم سوء العذاب إلى يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿ **وإذْ تأذَّن ربُّك ليبْعثنَّ عليْهم إلىٰ يوْم الْقيامة من يسُومُهُمْ سُوء الْعذاب إنَّ ربَّك لسريعُ الْعقاب وإنَّهُ لغفُورٌ رَّحيمٌ (١٦٧) وقطَّعْناهُمْ في الأرْض أُمما منْهُمُ الصَّالحُون ومنْهُمْ دُون ذلك وبلوْناهُم بالْحسنات والسَّيِّئات لعلَّهُمْ يرْجعُون** ﴾[٣].

فمعنى قوله: ﴿ **وإذْ تأذَّن** ﴾ أي: وإذ أعلم وأخبر، وفيه معنى القسم كما يقول النسفي، ولذا أجيب بما يجاب به القسم[٤] وهو قوله تعالى: ﴿ **ليبْعثنَّ**

= أصحاب السبت؛ فشبانهم مُسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير . . . تفسير النسفي، (١/ ٢٩٠).

(١) انظر: تفسير الرازي، (٣/ ١١٢)، وتفسير أبي السعود، (٣/ ٢٨٧)، والنسفي (٢/ ٨٣).

(٢) سورة الأعراف: الآيات من (١٦٣) إلى (١٦٦).

(٣) سورة الأعراف: الآيتان (١٦٧، ١٦٨).

(٤) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٨٣).

عليهم إلىٰ يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾.

٢ ـ والعقوبة الثانية أنه فرقهم في الأرض، ولم يأذن باجتماعهم في مكان واحد إلى يوم القيامة، وأنه ـ تعالى ـ ابتلاهم بالنعم تارة، والنقم أخرى، لعلهم يرجعون عما هم فيه من غي، فما اتعظ بذلك إلا قليلٌ منهم، وأما أغلبهم فأقاموا على الفساد والضلال، وهذا هو حالهم إلى يوم القيامة، فقلّ أن تجد فيهم مهتديًا إلى الحق، قال تعالى: ﴿ **وقطّعناهُمْ في الأرض أُمما منْهُمُ الصّالحُون ومنْهُمْ دُون ذلك وبلوْناهُم بالْحسنات والسّيّئات لعلّهُمْ يرْجعُون** ﴾[1].

وهم كذلك إلى عصرنا هذا فرغم قيام الدولة اليهودية في فلسطين إلا أنها لا تضم أكثر من خمسهم، وهم يحاولون جاهدين أن يستقطبوا كثيرين ممن يقيمون في دول أخرى، لكن أغلبهم إلى الآن لا يطيب لهم العيش في هذه الدولة ـ أعني فلسطين ـ لأن تقطيعهم وتفريقهم حكم من الله عليهم، وأحكام الله لا تنقض، وحتى القاطنون في هذه الدولة تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى، يدلك على ذلك كتلهم وأحزابهم التي أصون هذه الرسالة عن ذكر أسمائها، وهي لا تخفى على مَن له أدنى دراسة بأحوالهم.

وهؤلاء الذين وُصف بعضهم بالصلاح وبعضهم بالفساد مضَوا، أما اليهود المعاصرون لنا فلا خير فيهم، ولم نسمع بأن أحدهم قد اعتنق الإسلام، بل هم كما قال تعالى: ﴿ **فخلف من بعْدهم خلْفٌ ورثُوا الْكتاب يأْخُذُون عرض هذا الأدْنىٰ ويقُولُون سيُغْفرُ لنا وإن يأْتهمْ عرضٌ مثْلُهُ يأْخُذُوهُ** ﴾[2].

و(الخَلْف) بسكون اللام بدل السوء، بخلاف (الخَلَف) بفتح اللام فهو الصالح، والمعنى: فخلف من بعد هؤلاء المذكورين قبل بعثة النبي ﷺ خلفٌ؛ وهم الذين كانوا زمن رسول الله ﷺ قوم لا يتورعون عن الحرام ﴿ **يأْخُذُون عرض**

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦٨).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٩).

﴿هَذَا الأَدْنَىٰ﴾ أي: يأخذون الدنيا الفانية الحقيرة الزائلة بطرق غير مشروعة، كأخذ الرشا وأكل الربا وتحريف الكتاب ليشتروا به عرضًا قليلاً من هذه الدنيا، ويتذرعون إلى تبرير ما أخذوه بقولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لنا﴾ أي: ليس هذا الذنب الذي ذكرته الآية بل كل ذنب، ولا غرابة في هذا التفكير، فإنهم يقولون: إنهم أبناء الله وأحباؤه، وهم يقولون ذلك ليبروا أخطاءهم، وليكذبوا القرآن فيما أخبر به من عقوبة الكافرين والظالمين.

والواو في قوله: ﴿ويقُولُون: سيُغْفرُ لنا﴾ واو الحال، أي: حالهم الملازمة لهم أنهم لا يشعرون بقبح ما صنعوا بل هم قائمون على تبريره وتسويغه، وهؤلاء الخلْف - كما أسلفت - هم اليهود المعاصرون لرسول الله ﷺ ومَن بعدهم إلى يوم القيامة، والكتاب الذي ورثوه هو التوراة وكانوا في عهد النبي ﷺ يعلمون الحق من كتابهم، ويكتمونه، ويخلطونه بالباطل ليشوّشوا على الناس، وقد نهاهم الله عن ذلك بقوله - جل وعلا -: ﴿ولا تلْبسُوا الْحقَّ بالْباطلِ وتكْتُمُوا الْحقَّ وأنتُمْ تعْلمُون﴾[1] ولذلك وبخهم الله بقوله: ﴿ألمْ يُؤْخذْ عليْهم مّيثاقُ الْكتاب أن لاَّ يقُولُوا على اللَّه إلاَّ الْحقَّ﴾ أي: قد أخذ عليهم هذا الميثاق ولكنهم تنكبوا عنه.

وقوله تعالى: ﴿ودرسُوا ما فيه﴾ بيان لتمكّنهم من علم ما في كتابهم من الحلال والحرام، فهم لم يفعلوا ما فعلوه من السوء بجهل، بل فعلوه وهم عالمون ببطلانه، ولذا وعظهم الله بموعظة عامة فقال: ﴿والدَّارُ الآخرةُ خيْرٌ لَّلَّذين يتَّقُون﴾ أي: خير من عرض هذا الأدنى الذي حملكم على استحلال ما حرم الله عليكم.

قال الحافظ ابن كثير: «قال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيًا إلا ارتشى في الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهودَ أن

---

(١) سورة البقرة: الآية (٤٢).

لا يفعلوا ولا يرتشوا، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى فيقال له: ما شأنك ترتشي في الحكم؟ فيقول: سيغفر لي، فتَطْعَنُ عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نُزِعَ وجُعِلَ مكانه رجل ممن كان يَطْعَنُ عليه فيرتشي»[(١)].

ثم قال: ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ وهذا الاستفهام غاية في التوبيخ والتبكيت، و(الفاء) عاطفة لما بعدها على جملة محذوفة، تقديرها: أأصابكم الجهل بعد كل ما أنزل إليكم فلا تعقلون؟

ثم قال تعالى: ﴿ **والذين يُمسكُون بالكتاب وأقامُوا الصَّلاةَ إنَّا لا نُضيعُ أجْرَ المُصْلحين** ﴾[(٢)] وقد ناسب بعد ذكر أحوال المكذبين الغاوين ذكر المؤمنين الذين يمسكون بالكتاب ابتغاء وجهه ـ تعالى ـ ويحلون ما أحل الله ويحرمون ما حرم، ويجتهدون في دعوة غيرهم إلى ذلك، ويقيمون الصلاة التي هي أهم فريضة بعد التوحيد، والتي هي جزء من الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل في تبيين الحق للناس ولا يكتمونه، والذي أهملوه بالكلية كما قال تعالى: ﴿ **وإذْ أخَذَ اللَّهُ ميثاقَ الذين أوتُوا الكتاب لتُبيِّنُنَّهُ للنَّاسِ ولا تكْتُمُونَهُ فنبذُوهُ وراءَ ظُهُورهِمْ واشْتَرَوْا بهِ ثَمنًا قليلا فبئْس ما يشْترُون** ﴾[(٣)].

كما ناسب أن يُطمئن هؤلاء المتمسكين بالكتاب على سلامة فعلهم وحسن مصيرهم، وأن ما فعلوه لن يضيع عند ربهم، فهو يجازيهم عليه أحسن الجزاء، قال تعالى: ﴿ **إنَّا لا نُضيعُ أجْرَ المُصْلحين** ﴾.

رابعًا: أمر الله نَبيَّهُ ﷺ أن يتلو على اليهود نبأ رجل منهم آتاه الله علمًا خاصًا، فلم يهتد به، بل انسلخ من تلك الآيات، وابتعد عنها كل الابتعاد حتى

(١) تفسير ابن كثير، (٢/ ٢٦٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٧٠).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٨٧).

صار شيطانًا يقتدى به إبليس ويقترن به، فكان من الغاوين في الشر، الراغبين عن الخير، وقد بعثتك يا محمد لهؤلاء وغيرهم وأوحيت إليك من علم هذا المنسلخ الذي لا يعرف حاله إلا اليهود لعلهم يرجعون بما تتلوه عليهم ويعتبرون بحال هذا المنسلخ.

قال تعالى: ﴿ **واتْلُ عليهم نبأ الذي آتيناهُ آياتنا فانسلخ منها فأتبعهُ الشيطانُ فكان من الْغاوين (١٧٥) ولو شئنا لرفعناهُ بها ولكنهُ أخلد إلى الأرض واتبع هواهُ فمثلُهُ كمثل الْكلْب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبُوا بآياتنا فاقْصُص الْقصص لعلهُم يتفكرُون** ﴾[1].

قال الواحدي في بيان سبب نزول هذه الآية: «قال ابن مسعود: نزلت في بلعم بن أبره[2] - رجل من بني إسرائيل - وقال ابن عباس[3] وغيره من المفسرين: هو بلعم بن باعوراء، وقال الوالبي: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له: بلعم، وكان يعلم اسم الله الأعظم، فلما نزل بهم موسى - عليه السلام - أتاه بنو عمه وقومه وقالوا: إن موسى رجل حديد، ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادْعُ الله أن يردّ عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه مما كان عليه، فذلك قوله: ﴿ **فانسلخ منها** ﴾[4].

قال ابن كثير: وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٧٥، ١٧٦).

(٢) وفي طبعة أخرى لكتاب أسباب النزول للواحدي (ابن عاعورا) وهي الطبعة الأولى المطبوعة في مطبعة أمين هندية بالقاهرة سنة ١٣١٦ هـ، كما أشار إلى ذلك المحقق فضيلة الشيخ/ السيد صقر، والتي ذكر أنها مليئة بالأخطاء، وذكر لذلك أمثلة كثيرة في المقدمة.

(٣) الدر المنثور (٣/ ١٤٥) وتفسير البغوي (٢/ ٢٥٨).

(٤) الواحدي. أسباب النزول. تحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، (مكة المكرمة: دار القبلة، ١٤٠٤ هـ).

من المتقدمين في زمن بني إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف، وذكر القصة السابقة مروية عن علي بن أبي طالب عن ابن عباس[١].

﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ فلحقه الشيطان وأدركه وصار قرينًا له، أو أنَّ الشيطان سلّط عليه كفار الإنس وغواتهم من جنوده، فجعلهم أتباعًا له ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ فصار من الضالين الكافرين ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء، وذلك بأن نحُول بينه وبين الكفر قهرًا وجبرًا، لكننا تركناه مع اختياره ﴿ بِهَا ﴾ بتلك الآيات التي آتيناه إياها ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أي: مالَ إلى الدنيا ورغب فيها ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ في إيثار الدنيا ولذاتها على الآخرة ونعيمها ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ ﴾ أي: إن تزجره وتطرده[٢] ﴿ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ قال الرازي ـ رحمه الله ـ: «قال الليث: اللاهث هو أن الكلب إذا ناله الإعياء عند شدة العدْو وعند شدة العطش فإنه يُدلِعُ لسانه من العطش، واعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب وإنما يقع بالكلب اللاهث، وأخس الحيوانات هو الكلب، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث، وفي تقرير هذا التمثيل وجوه:

الأول: أن كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب اللاهث فإنه يلهث في حالة الإعياء، وفي حالة العطش، وفي حالة الري، فكان ذلك عادة منه وطبيعة، وهو مواظب عليه كعادته الأصلية وطبيعته الخسيسة، لا لأجل حاجة وضرورة، فكذلك مَن آتاه الله العلم والدين، وأغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس، ثم إنه يميل إلى طلب الدنيا، ويلقي نفسه فيها، كانت حاله كحال ذلك اللاهث، حيث واظب على العمل الخسيس والفعل القبيح لمجرد نفسه الخبيثة وطبيعته الخسيسة لا لأجل الحاجة والضرورة.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٦) وتفسير الرازي (١٥/ ٥٣، ٥٤).

(٢) انظر: تفسير النسفي بتصرف، (٢/ ٨٥، ٨٦).

الوجه الثاني: أن الرجل العالم إذا توسل بعلمه إلى طلب الدنيا فذلك إنما يكون لأجل أنه يورد عليهم أنواع علومه، ويظهر عندهم فضائل نفسه ومناقبها، ولاشك أنه عند ذكر تلك الكلمات، وتقرير تلك العبارات، يُدلعْ لسَانُه، ويخرجه لأجل ما تمكن في قلبه من حرارة الحرص، وشدة العطش إلى الفوز بالدنيا، فكانت حالته شبيهة بحالة ذلك الكلب الذي أخرج لسانه أبدًا من غير حاجة ولا ضرورة، بل لمجرد طبيعته الخسيسة.

الوجه الثالث: أن الكلب اللاهث لا يزال لهثه البتة، فكذلك الإنسان الحريص لا يزال حرصه البتة»[1].

ثم بيّن ـ جل وعلا ـ الغرض من ذكره لهذا المثل، فقال تعالى: ﴿ **ذَلك مثلُ الْقوْم الَّذين كذَّبُوا بآياتنا** ﴾ من اليهود بعد أن قرأوا نعت رسول الله ﷺ في التوراة وذكر القرآن المعجز وما فيه، وبشروا الناس باقتراب مبعثه ﴿ **فاقْصُص الْقصص** ﴾ أي: قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم ﴿ **لعلَّهُمْ يتفكَّرُون** ﴾ فيحذرون مثل عاقبته إذا ساروا نحو مسيرته ﴿ **ساء مثلا الْقوْمُ الَّذين كذَّبُوا بآياتنا** ﴾ أي: مثل القوم، فحذف المضاف، وفاعل ساء مضمر، أي: ساء المثل، ونصب مثلاً على التمييز ﴿ **وأَنفُسهُمْ كانُوا يظْلمُون** ﴾ معطوف على كذبوا، فيدخل في حيز الصلة، أي: وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب[2].

ولي على هذه الآيات استنتجات أحب أن أنبه عليها للفائدة:

النتيجة الأولى:

إن أحدًا لا يغلب الله بمعصيته، وإن شرود الشاردين ليس لعجز الله ـ تعالى ـ عن ردهم إليه ـ تعالى الله أن يوصَف بالعجز أو يخرج عن قدرته شيء ـ وإنك

---

(١) تفسير الرازي، (١٥/ ٥٦، ٥٧).

(٢) انظر: تفسير النسفي، (٢/ ٨٦).

لتجد هذا الاستنتاج واضحًا في قوله تعالى: ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها** ﴾ أي: ولكننا لم نشأ ذلك، فتركناه لغوايته وما اختاره لنفسه.

النتيجة الثانية:

هي قوله تعالى: ﴿ **ولكنه أخلد إلى الأرض** ﴾ أي: مال إلى الدنيا فآثرها، واجتهد في العمل لها، وترك الآخرة وأعرض عما يوصل للسعادة، ولو كان ذلك الميل إلى الدنيا والإعراض عن السعادة عن جهل لكان الأمر أهون، لكنه فعل ذلك وهو على رتبة عالية من العلم والمعرفة.

ولابد لي أن أشير إلى أن الدنيا مهما كثرت في أيدي أصحابها، فهي ليست بغاية يُسعَى إليها، ولكنها لكي تكون صالحة مرضيًا عنها من ربها، فلابد أن تكون وسيلة إلى السعادة في الآخرة، فإذا خرجت عن ذلك فهي بلاء ونقمة على أصحابها، نسأل الله العفو والسلامة.

النتيجة الثالثة:

أسوأ ما يُبتلى به الإنسان أن تتجارى به أهواؤه كما يتجارى الكلب بالجيفة ولذا قال ـ سبحانه وتعالى ـ في شأن هذا الإسرائيلي ﴿ **واتبع هواه** ﴾ أي: صار مَن يعقل تبعًا لما لا يعقل.

فعلى العاقل أن يلاحظ هواه، فإن كان تبعًا للكتاب والسنة متّنه واجتهد في تمتينه، وإن كان على خلاف ذلك فَلْيعَلْم أنه مريض بمرض عُضال، يحتاج في علاجه إلى بذل كل نفيس وغال حتى يُرَدُّ إلى فطرته الصحيحة التي فطره الله عليها، حيث يقول سبحانه: ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (٤) ثم رددناه أسفل سافلين (٥) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون** ﴾[1].

---

(١) سورة التين: الآيات من (٤) إلى (٦).

النتيجة الرابعة :

ذكر قصص الماضيين من أنجع الدواء الذي يعالج به اللاحقون، فتواصل الأجيال لابد منه، ووقوف اللاحق على حال السابق لابد منه لينتفع بما فيه المنفعة، ويحترسَ عما فيه المضرة، ولذا أمر الله رسوله ﷺ أن يقص على بني إسرائيل القصص بعامة: قصص بني إسرائيل وغيرهم ﴿ **لعلهم يتفكرون** ﴾ في أحوال أسلافهم وغيرهم ممن تنكبوا الحق فهلكوا، فلعل ذلك يفتح قلوبهم المَغْلقة، ويوصلهم إلى الهداية.

ولذا ينبغي لكل داعٍ ومصلح من المسلمين أن يهتم بدراسة القصص في الكتاب والسنة ليخرج منه الرحيق الذي يشفي النفوس من عللها، فإنَّ الحق والباطل يتصارعان إلى يوم القيامة، ومن أدوات انتصار الحقَ على الباطل أن يقص أصحابُ الحق القصصَ الحق على أهل الباطل؛ لينتشلوهم من باطلهم، أو ليصرعوهم بهذا السلاح الشديد المضاء. والله من وراء القصد.

❊ ❊ ❊

المبحث الثاني
أسباب موقف الكافرين المعاندين وإنكارهم لدعوة النبي ﷺ

من خلال ما سبق دراسته لمواقف الأمم السابقة مع أنبيائهم تتجلى لنا حقيقة واضحة وهي أنه ما من نبي إلا وواجه أمام دعوته التي بعثه الله لتبليغها المشاق الصعبة، والاتهامات الباطلة، والافتراءات الكاذبة، من فئة خاصة من أقوام ممن ألفوا الباطل وعميت بصائرهم عن الحق، وصمت آذانهم عن سماع ما فيه سعادتهم.

وهذه سنة الله في الأمم، فما من رسول أتى قومه إلا كذبوه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا[1] كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾[2] هذا ومما يجدر الإشارة إليه «أن الطغيان وقف بجانب الكثرة الكاثرة من دعاة الباطل، يتحدى الإيمان، ويتحدى التوحيد، ويتحدى رسالات الله، ووقف الهدى بجانب القلة القليلة من أتباع الحق وأنصاره، واحتدمت المعركة بين الهدى والضلال، والكفر والإيمان، وكانت النتيجة انتصارَ الإيمان على الكفر، والحقَّ على الباطل، وتلك سُنَّة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً، لن يغلب الباطل الحقَّ أبدًا وإن كانت معه قوة جميع أهل الأرض، فإن للحق صولة، وللباطل جولة، والمنتصر دائمًا جندُ الرحمن، مصداقًا لقول الله العلي الكبير: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ

---

(١) قوله ﴿تترا﴾: أي متتابعين واحدًا بعد واحد.

(٢) سورة المؤمنون: الآية (٤٤).

سُوءُ الدَّارِ ﴾[١]»[٢].

وأستطيع أن أوجز موقف الكافرين المعاندين من دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين بما يلي:

أولاً: تكذيبه فيما جاء به:

لقد بعث الله حبيبه ومجتباه بين أقوام العرب الذين كانوا يتخبطون في دياجير الوثنية، والمعتقدات الزائفة، والعصبيات الجاهلية، فضلاً عن الانحطاط الخلقي وانتشار الرذيلة، ولقد كان للفترة الطويلة بين بعثة رسول الله ﷺ وبين أخيه عيسى - عليه السلام - عامل كبير في وصول العرب إلى ما وصلوا إليه مما أشرت إليه آنفًا.

فقد أخرج البخاري بسنده عن سلمان الفارسي - رضي الله عنه - موقوفًا قال: «فترة بين عيسى - عليه السلام - ومحمد ﷺ ست مائة سنة»[٣].

ولذلك ما إن سمع أهل مكة ببعثة رسول الله ﷺ حتى كذبوه، واستبعدوا أن يكون يتيم قريش رسولاً من عند الله، وتعجبوا أن يختار الله رجلاً من الناس يرسله إليهم مع قدرته على بعثه الملائكة المقربين، قال ابن عباس - رضي الله عنه -: «لما بعث الله - تعالى - محمدًا ﷺ أنكرت الكفار، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا، أما وجد الله من يرسله ألا يتيمَ أبي طالب؟ فأنزل الله ﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ** ﴾[٤]»[٥] ثم إنهم كذبوا بكل ما جاء

---

(١) سورة غافر: الآيتان (٥١، ٥٢).

(٢) قبس من نور القرآن للشيخ/ محمد علي الصابوني، (٤/ ١٧٢، ١٧٣).

(٣) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، (٨/ ٢٨٠).

(٤) سورة يونس: الآية (٢).

(٥) انظر: أسباب النزول للواحدي، ص (٢٦٧)؛ وتفسير القرطبي، (٨/ ٣٠٦)؛ وتفسير الطبري، =

به، فكذبوا بالقرآن وما جاء فيه من الآيات الباهرات، وقالوا: إن هو إلا أساطير الأولين، كما قصَّ الله مقولتهم تلك بقوله: ﴿ **إذا تُتلى عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأوَلين** ﴾[1].

ولقد توعد الله ـ جل وعلا ـ المكذبين في هذه السورة التي نحن بصدد دراستها بتخليدهم في النار، قال تعالى: ﴿ **والذين كذَّبوا بآياتنا واستكْبَروا عنْها أُولئك أصحابُ النَّار همْ فيها خالدُون** ﴾[2].

فهذه الآية الكريمة وإن كانت حكمًا عامًا في كل مكذب إلا أنها ألصق بمشركي مكة، إذ هم الذين يباشرون تكذيب رسول الله ﷺ فيما جاء به.

وقد اشتملت هذه الآية على سببين مهمين من أسباب تكذيب الرسول ﷺ في دعوته:

أ ـ إمعان الكفار في تكذيبه ﷺ مع ظهور أن ما جاء به هو الحق.

ب ـ استكبارهم عن هذه الآيات وإباؤهم لها لأنها ضد أهوائهم وما ألفوه في جاهليتهم.

وقد روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: أن المراد بهذه الآية أهل مكة[3] فهو يريد ـ رضي الله عنه ـ أنَّ أهلَ مكة داخلون في الوعيد بهذه الآية دخولاً أوليًا. ولم تقتصر السورة بهذا الوعيد للمكذبين، بل جاء في نهايةالسورة وعيدٌ آخر، وهو قوله جل شأنه: ﴿ **والذين كذَّبُوا بآياتنا سنستدْرجُهم مِّنْ حيْثُ لا**

= (١٥/ ١٣)؛ وتفسير ابن كثير، (٢/ ٤٠٦)؛ وتفسير الدر المنثور، (٤/ ٣٤٠)؛ وتفسير الخازن، (٣/ ١٤١)؛ وتفسير البغوي (٣/ ١٤١).

(١) سورة القلم: الآية (١٥) وسورة المطففين: الآية (١٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٣٦).

(٣) انظر: تفسير الرازي، (١٥/ ٧٣).

﴿ يعلمون ﴾[١] والمعنى: سنقربهم إلى ما يهلكهم، ونضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يُراد بهم، وذلك لأنهم كلما أتوا بجُرم، أو أقدموا على ذنب، فتح الله عليهم بابًا من أبواب النعمة والخير في الدنيا ازدادوا بطرًا وأنهماكًا في الفساد وتماديًا في الغي، ويتدرجون في المعاصي بسبب ترادف تلك النعم، ثم يأخذهم الله دفعة واحدة على غرتهم أغفلَ ما يكونون[٢].

ثانيا: عدم تفكرهم في حاله ﷺ:

عاش ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين قومه أغلب عمره وهم يعبدون الأصنام، ويأتون ما يأتون من قبائح الجاهلية، فلم ينكر عليهم، ولم ينههم عن شيء كانوا يقارفونه، سوى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد زهد في أحوالهم، فلم يتلطخ بشيء منها بما حرسه الله ـ سبحانه وتعالى ـ قبل النبوة، وبما هداه إليه من سلوك الصراط القويم، وبما فطر عليه قلبه الكريم ﷺ من حب الخير، وشديد الرغبة فيه، وكراهيته وبغضه لتلك الشرور، فكيف يأتيهم بما أتاهم به بعد أن انسلخ من عمره أربعون سنة؟ لو كانت دعوته شهوة نفس، أو حبَّ رئاسة، أو سعيًا إلى مُلك وسيادة لأعلن عليهم ذلك قبل سنّه هذه بوقت طويل، لكنها النبوة، وتجد ذلك واضحًا في قوله تعالى: ﴿ **وما كُنت ترجُو أن يُلقىٰ إليك الكتاب إلاَّ رحمة مّن ربّك** ﴾[٣].

فـ ﴿ **إلاَّ** ﴾ بمعنى: لكن، والاستثناء هنا في هذه الآية منقطع[٤].

وقوله تعالى: ﴿ **وكذلك أوْحينا إليْك رُوحا مّنْ أمْرنا ما كُنت تدْري ما الْكتابُ ولا الإيمانُ** ﴾ أي: ما كنت تدري تفاصيل ما أوحينا إليك، وحقائق ما بعثناك به قبل

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٨٢).

(٢) انظر: تفسير، الرازي (١٥/ ٧٣).

(٣) سورة القصص: الآية (٨٦).

(٤) انظر: تفسير الكشاف، (٣/ ١٩٤).

أن نوحي إليك: ﴿ ولكن جعلناهُ نُورا نَهْدي به من نَشاءُ منْ عبادنا ﴾[١]... الآية.

ومما يؤكد ما ذكرته استغرابه لنزول الوحي عليه في أول مرة لولا أن الله ألهم السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ فذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، فأخبره أن ما جاءه هو الناموس والوحي الذي أنزل على موسى ـ عليه السلام ـ[٢].

فلو تفكّر الكفار المكذبون له، والمعاندون لدعوته في حاله تفكيرًا هادئًا لا تحرّكه عصبيتهم لباطلهم لسَهُل عَليهم من أول الأمر أن يصدقوه، ولذا جاءت آية الأعراف تنعي عليهم عدم تفكرهم في حاله، وتنكر عليهم ذلك أشد الإنكار؛ قال تعالى: ﴿ أولم يتفكّروا ﴾[٣] فالهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي، والواو عاطفة لما بعدها على جملة محذوفة، دل عليها سابق الكلام ولاحقه، والمعنى: أعَمُوا عن حالك وهو أبين ما يكون ظهورًا ولم يتفكروا فيه؟ مع أنهم لو تفكروا فيه حق التفكر، لأسرعوا إلى الإيمان بك والتصديق بما جئتَهُم به، وهذا السبب يطول ذكره، وقد اكتفيت بما ذكرت طلبًا للاختصار. والله الهادي إلى سواء السبيل.

ثالثا: اتهامه ﷺ بالجنون:

عندما يُلجمُ الحقُّ ألسنةَ أهل الباطل، وتقوم الحجج الواضحة والأدلة المقنعة بما يدفع أي ريب في دعوة النبي ﷺ وأنه رسول من عند الله، وأن القرآن الذي جاء به هو وحي من عند الله، ولم يبقَ أمام المعاندين المكذبين أي مخرج يواجهون به رسول الله ﷺ ليصرفوا الناس عن دعوته، فإنهم يلجأون إلى أسلوب الاحتقار والاستهانة وهو أسلوبٌ ماكرٌ، يُقْصَدُ من ورائه إبعاد الناس ـ وبالأخص العامة ـ عن اتباع النبي ﷺ وصرفهم عن دين الله ـ سبحانه وتعالى ـ وذلك برميه ﷺ

(١) سورة الشورى: الآية (٥٢).

(٢) انظر: صحيح البخاري مع فتح الباري، (١/ ٢٤ ـ ٣٠).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٨٤).

بالجنون، فإن المجنون لا يُتَّبعُ بحال من الأحوال، ولذا ناقشهم القرآن في هذه القضية في سور كثير[١] لا أطيل بذكرها بل أكتفي بما جاء في سورة الأعراف، قال تعالى: ﴿أولَمْ يتفكَّروا ما بصاحبهم مَن جنَة إنْ هُو إلاَ نذير مُبينٌ﴾[٢] وقد ذكر أبو السعود والألوسي ستة أوجه في تفسير هذه الآية، ألخصها لك من تفسير الألوسي: قال تعالى: ﴿أولَمْ يتفكَّروا ما بصاحبهم مَن جنَة﴾:

الوجه الأول:

أن الهمزة للإنكار والتوبيخ، والواو للعطف على مقدر يستدعيه السياق، و﴿ما﴾ في قوله: ﴿ما بصاحبهم﴾ تحتمل أن تكون استفهامية إنكارية في محل الرفع بالابتداء والخبر ﴿بصاحبهم﴾ ويحتمل أن تكون نافية اسمها ﴿جنَة﴾ وخبرها ﴿بصاحبهم﴾ و﴿جنَة﴾ مصدر كالجلْسة بمعنى الجنون، والتنكير للتقليل والتحقير، والتفكُّر التأمل وإعمال الخاطَر في الأمر، وهو من أفعال القلوب فحكمه حكمها في أمر التعليق، ومحل الجملة النصب على نزع الخافض، ومحل الموصول نُصبَ على ذلك في الوجه الأخير، أي: أكذَّبوا ولم يتفكروا في أي شيء من جنونَ ما كائن بصاحبهم الذي هو من أعظم الهادين للحق، وعليه أنزلت الآيات؟ أو في أنه ليس بصاحبهم من جنة حتى يؤديهم التفكر في ذلك إلى الوقوف على صدقه وصحة نبوته، فيؤمنون به وبما أنزل عليه من الآيات، أو في الذي بصاحبهم من جنة بزعمهم، وليعلموا أن ذلك ليس من الجنة في شيء فيؤمنوا.

---

(١) مثل: سورة الحجر الآية (٦) وسورة الشعراء: الآية (٢٧) والصافات: الآية (٣٦) والدخان: الآية (١٤) والذاريات: الآية (٣٩) كذلك الذاريات: الآية (٥٣) والطور: الآية (٢٩) والقمر: الآية (٢) والآية (٥١) والتكوير: الآية (٢٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٨٤).

الوجه الثاني:

واختار هذا الوجه الطبرسي وهو أن الكلام قد تم عند قوله: ﴿**أَوَلَمْ يتفكَّروا**﴾ أي: أكذبوا ولم يتفكروا في أقواله وأفعاله، أو لم يفعلوا التفكير؟ ثم ابْتديء فقيل: أي شيء بصاحبهم من جنة ما؟ على طريقة الإنكار والتعجيب والتبكيت، أو قيل: ليس بصاحبهم شيء منها.

والمراد ﴿**بصاحبهم**﴾ رسول الله ﷺ والتعبير عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بذلك لتأكيد الإنكار وتشديده لأن الصحبة تطلعهم على نزاهته ﷺ عن كل شائبة مما ذُكر. وعلى هذا الوجه بنيت تقسيمي لمواقف الكافرين المعاندين لدعوة النبي ﷺ.

الوجه الثالث:

أن هذه الآية نزلت للرد على عظيمتهم الشنعاء، فقد أخرج ابن الطبري وغيره عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قام على الصفا، فدعا قريشًا فخذًا فخذًا: يا بني فلان، يحذرهم بأس الله ـ تعالى ـ ووقائعه إلى الصباح، حتى قال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يُهَوِّت[1] حتى أصبح، فأنزل الله ـ تعالى ـ الآية[2]. وعليه فالتصريح ينفي الجنون للرد على عظيمتهم الشنعاء[3].

الوجه الرابع:

تأثير القرآن الكريم فيهم، وأخذه بمجامع قلوبهم، مما جعلهم يقترحون عليه ﷺ أن يأتيهم بقرآن غيره، أو يبدله بكلام من عند نفسه، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا تُتلَىٰ عليهم آياتنا بيِّنات قال الذين لا يرجُون لقاءنا ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هذَا أَوْ بدِّلْه**﴾[4] ... الآية.

---

(١) أي: يصوت.

(٢) انظر: تفسير الطبري، (٩/ ١٣٦).

(٢) تفسير الألوسي بتصرف، (٩/ ١٢٧، ١٢٨).

(٤) سورة يونس: الآية (١٥).

وقد بدأت سورة الأعراف بقوله تعالى: ﴿ **الٓمٓصٓ (١) كتابٌ أُنزل إليك فلا يكُن في صدرك حرجٌ منهُ لتُنذر به وذكرىٰ للمُؤمنين** ﴾[١].

فالمعنى: لا يكن في صدرك شك في أنه حق، أنزله إليك رب السموات والأرض، فلا تبال بمن كذبوا به، أو: لا يكن في صدرك ضيق بسبب تكذيبهم له، وخوف من إخبارهم بما فيه لئلا يتبعوه، فما عليك إلا البلاغ.

ولأجل هذا التثبيت الإلهي الناتج عن النهي في سورة الأعراف، قال الله له في سورة يونس: ﴿ **قُل ما يكُونُ لي أنْ أُبدلَه من تلقاء نفسي إنْ أتَبعُ إلاَّ ما يُوحىٰ إليَّ إنّي أخافُ إنْ عصيتُ ربّي عذاب يوم عظيم** ﴾[٢] أي: إذا قصرت في تبليغه إليكم أو أنقصت منه ما لا يعجبكم ﴿ **قُل لَو شاء اللّهُ ما تلوتُه عليكُم ولا أدراكُم به فقد لبثتُ فيكُم عُمُرًا مّن قبله أفلا تعقلُون** ﴾[٣].

الوجه الخامس:

حديث سورة الأعراف عن اليوم الآخر وما فيه من سوء مصير المكذبين وحسن مصير المؤمنين؛ فإن المكذبين لدعوته ﷺ ممن خاطبهم بالآيات المتحدثة عن اليوم الآخر وما فيه عزَّ عليهم أن يكون مصيرهم كما تلاه رسول الله ﷺ في آي القرآن التي تكفلت ببيان هذا المصير، كما قال تعالى: ﴿ **الّذين اتّخذُوا دينهم لهوًا ولعبًا وغرّتهُمُ الحياةُ الدُّنيا فاليوم ننساهُم كما نسُوا لقاء يومهم هذا وما كانُوا بآياتنا يجحدُون** ﴾[٤] وقد أشرت إلى بعض ذلك في هذا الفصل عند حديثي عن المكذبين، وعقدت موضوعًا خاصًا بالآيات الخاصة باليوم الآخر في الفصل الأول من هذه الرسالة[٥].

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١، ٢).

(٢) سورة يونس: الآية (١٥).

(٣) سورة يونس: الآية (١٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٥١).

(٥) انظر: من (ص) (٤٢) إلى ص (٤٦) من بحثنا هذا.

الوجه السادس :

حديث هذه السورة عن تحريم الفواحش ما ظهر منها كالزنا وقطع الأرحام، وأكل الميتة، ووأد البنات، وتحريم ما كانوا يهدونه لآلهتهم من الذبائح، إلى غير ذلك من عاداتهم، وتحريم الفواحش الباطنة كالحقد والحسد والكبر وسوء الظن والعصبية للباطل، وغير ذلك مما كان سائداً في الجاهلية، قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[1].

فكان هذا من أقوى الأسباب في تكذيبه، والوقوف أمام دعوته، وإنكارهم لها لأنها خالفت ما استحسنته نفوسهم مما هو محرم وباطل لا يرضاه الله ـ جل وعلا ـ ويأباه رسوله ﷺ.

* * *

(١) سورة الأعراف: الآية (٣٣).

المبحث الثالث
موقف الرسول ﷺ من الكافرين المعاندين

لقد واجه رسول الله ﷺ من قومه عناءً ومشقةً وإعراضًا شديدًا، وقد سبق في المبحث السابق التعرض لبعض ذلك، لكن ذلك لم يفتّ في عضده، ولم يمنعه تكذيبهم وإعراضهم عن المضي بعزيمة وثبات أمام تلك المحن وذلك الصدود، فكان ﷺ يترفّق بهم ويتحمل صنوفَ الأذى ومختلفَ الإساءات والافتراءات الكاذبة، ولم يمنعه ذلك من أن يداهمهم في مجالسهم وأنديتهم، داعيًا لهم للدخول في دين الله، ومنذرًا لهم من حلول بأسه وعقابه، ومسفّهًا أحلامهم، ومقبحًا لأصنامهم، فلم يألُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ جهدًا في دعوتهم ليلاً ونهارًا، صيفًا وشتاءً، ومن عجيب أمر هذا النبي الكريم ﷺ أن أمته في المعاندة والتكذيب في أول الأمر كانت كالأمم السابقة ـ قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب ـ عليهم السلام ـ وآل فرعون وبني إسرائيل ـ لكن النبي ﷺ أخذ يجتهد في الدعاء لهم، ويصبر على بلائهم، ولم يتعجل لهم العذاب والعقاب حتى هداهم الله في آخر الأمر، ونحّى الله منهم مَن علم أنه لا يؤمن دون أن يصيب الكفار بعذاب الاستئصال يقضي عليهم عن بكرة أبيهم، مع أنهم قد أجمعوا أمرهم على أن يخرجوه من مكة ليستريحوا من دعوته، أو يقتلوه، أو يوثقوه بالحبال في سجن يلقى إليه الطعام والشراب من خلال كوة حتى يموت، مما جعله ﷺ يبادر بالهجرة إلى المدينة بإذن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو ومَن معه ممن قَدَر على الهجرة، وقد أصبح المشركون بينهم مستضعفون من الرجال والنساء والولدان ممن آمن به ﷺ وهم لا يستطيعون حيلة للخروج، يؤذونهم بأشد أنواع

الأذى، ومع ذلك لم يعاجلهم الله بالعذاب العام كما فعل بالأمم السابقة ـ الذين ذكرتهم آنفًا ـ وفصلت أحوالهم فيما مضى من فصول.

قال ـ تعالى ـ في سورة الأنفال: ﴿ **وإذْ يمكُرُ بك الَّذين كفرُوا ليُثْبتُوك أوْ يقْتلُوك أوْ يُخْرجُوك ويمْكُرُون ويمْكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خيْرُ الْماكرين** ﴾[1].

وقال ـ تعالى ـ محرضًا هممَ المؤمنين على مقاتلة المشركين الذين يستضعفون إخوانهم من المؤمنين ويصدونَهم عن دين الله: ﴿ **وما لكُمْ لا تُقاتلُون في سبيل اللَّه والْمُسْتضْعفين من الرِّجال والنِّساء والْوِلْدان الَّذين يقُولُون ربَّنا أخْرجْنا منْ هذه الْقرْية الظَّالم أهْلُها واجْعل لَّنا من لَّدُنك وليًّا واجْعلْ لَّنا من لَّدُنك نصيرًا** ﴾[2].

ولقد كان لهم إلف شديد بما هم عليه، ولم يكن من السهل عليهم أن يتركوا ما تعودوه، بل لقد وصل بهم الأمر إلى تحريم بعض الطيبات، مثل: (**البحائر**) جمع بحيرة، وهي الناقة التي أُنْتِجت خمسة أبطن أخرها ذكر، فإن أهل الجاهلية يبحرون أذنها، أي: يشقونها، ويمتنعون عن ركوبها وذبحها، ولا تُمنع عن ماء ولا مرعى.

و(**السوائب**) جمع سائبة، وهي أنهم كانوا في الجاهلية يقول الرجل منهم: إذا قدمت من سفري أو برئت من مرضي فناقتي سائبة، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها.

و(**الوصيلة**) وهي أنهم كانوا إذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكرًا فهو لآلهتهم، وإن ولدت ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاه، ولم يذبحوا الذكر لآلهتهم.

و(**الحام**) وكانوا في الجاهلية إذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا:

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٣٠).

(٢) سورة النساء: الآية (٧٥).

قد حمى ظهره، فلا يُركب، ولا يُحمل عليه، ولا يُمنع من ماء ولا مرعى[١].

قال تعالى: ﴿ **ما جعل الله** ﴾ أي: ما شرع الله ﴿ **من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكنَّ الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون** ﴾[٢].

والمعنى: ما شرع الله تحريم هذه المباحات التي حرموها على أنفسهم ونسبوا تحريمها وامتناعهم عن الانتفاع بها إلى الله - جل وعلا - كذبًا وافتراء، قال تعالى: ﴿ **ولكنَّ الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون** ﴾ فتوارثوا هذه العادات والمعتقدات عن آبائهم دون أن يُعملوا عقولهم، ويمعنوا في التفكير في حقيقة ما يفعلونه.

وبعد هذه المقدمة أقول وبالله التوفيق: لقد أجملت سورة الأعراف أحوالهم تلك فقال جل شأنه: ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إنَّ الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾[٣].

وقال جل وعلا: ﴿ **قل إنما حرَّم ربيَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحقِّ وأن تشركوا بالله ما لم ينزِّل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾[٤] وقد سبق تفسير هذه الآيات بما يغني عن إعادتها[٥].

ولقد امتثل رسول الله ﷺ لأمر ربه بمجاهدتهم على هذا الدين جهادًا كبيرًا، ولم يستجب لأيّة محاولة قُصدَ بها ثنيه عن دعوته بحال من الأحوال رغم عظم

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٣/ ٨٦) وانظر: تفسير النسفي (١/ ٣٠٥).

(٢) سورة المائدة: الآية (١٠٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٢٨).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٣٣).

(٥) انظر: ص (٦١٤) من بحثنا هذا.

تلك المحاولات والمغريات[١] حتى قال ﷺ قولته المشهورة: «**يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يمني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته**»[٢].

ولقد رسمت سورة الأعراف للنبي ﷺ المنهج السوي القويم الذي يتَّبعُهُ في معاملة الخلق كافة: مؤمنهم وكافرهم، فقال سبحانه: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾[٣].

ولقد التزم النبي ﷺ بهذا المنهج تمام الالتزام، فما من كافر معاند أتاه مسلمًا إلا رق له ورفق به، وأظهر له من الجميل ما يحمل ذلك الكافر إما على نسيان ماضيه مع النبي ﷺ وإما على الاجتهاد في أمر هذا الدين ببذل غاية جهده في نصرته كما بذل من قبل غاية جهده في محاربته، وكم تألّف ﷺ قلوبًا بكرائم الأموال على الإسلام.

وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿**الْعَفْوَ**﴾ على معانٍ كثيرة يروق لنا منها معنيان:

أولهما: (العفو) ما عفا وسهل وتيسر من أخلاق الناس.

ثانيها: أن يراد بـ(العفو) ظاهره، أي: خذ العفو عن المذنبين، والمراد

---

(١) منها قول الوليد بن المغيرة لرسول الله ﷺ: «يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوى منه»، انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للشيخ/ محمد أبو شهبة (١/ ٣١٧).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، (١/ ٢٨٥)، وانظر: السيرة النبوية تأليف أبي الحسن على الحسن الندوي، ص (١٠٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٩٩).

اعف عنهم، وفيه استعارة مكنية إذ شبه العفو بأمر محسوس يطلب فيؤخذ، وإلى هذا ذهب جمع من السلف[١].

فهذا وحشي قاتل عمه حمزة أحب الناس إليه، ينيب ويسلم لله رب العالمين فيعفو عنه، ولا يستبشع ذنبه مع أنه بشع، ومع أنه ﷺ ما غضب في موطن كغضبه في هذا الموطن، لا سيما وقد مثّلوا به فبقروا بطنه وقطعوا كبده، فلما نظر إليه ﷺ كذلك ترحّم عليه وأثنى، ثم قال: «**والله لئن أظفرني الله بهم لأقتلنّ بسبعين منهم مكانك**» ثم ذكر قول الله تعالى: ﴿**وإنْ عاقبْتُمْ فعاقبُوا بمثْل ما عُوقبْتُم به ولئن صبرْتُمْ لهُو خيْرٌ لّلصّابرين (١٢٦) واصْبرْ وما صبْرُك إلاّ باللّه**﴾[٢] فاختار الصبر كما أمره الله، وكان ينهي عن المثلة[٣].

وعفوه ﷺ عن المذنبين وتغاضيه عن أخطاء عتاة الكافرين أكثر وأشهر من أن يذكر، وقوله تعالى: ﴿**وأْمُرْ بالْعُرْف**﴾ أي: بكل معروف، وبكل خلق حسن، فإن مَن جفاك وعادى دعوتك لا يمكن إلا أن ينصاع لهذا المعروف الذي تأمر به، فإن المعروف محبب إلى كل قلب، أو المعنى: وأمر بكل ما أمرك الله به وعرفته من قبل الوحي، وقد قام ﷺ بالأمرين جميعًا خير قيام؛ فهو المتمم لمكارم الأخلاق، وهو الذي جاهد على هذا الدين جهادًا كبيرًا كما أمره ربه، ولم تضعف عزيمته في ذلك ولم تهن مع شدة ما لاقاه من الأذى كما وصفت آنفًا.

وقوله: ﴿**وأعْرضْ عن الْجاهلين**﴾ يعم المشركين وأهل الجهالة من المؤمنين، والدليل على شمول اللفظ للفريقين هو أن الوصف لازم لهما، فالكفر ناشيء عن الجهل، واللجوء إلى السفاهة والمخالفة من عصاة المؤمنين سببه الأول الجهل،

---

(١) انظر: تفسير الألوسي بتصرف (٩/ ١٤٦، ١٤٧).

(٢) سورة النحل: الآيتان (١٢٦، ١٢٧).

(٣) حدائق الأنوار ومطلع الأسرار لابن الديبع الشيباني الشافعي، تحقيق الشيخ/ عبد الله الأنصاري، (٢/ ٥٢٧).

قال الألوسي ـ رحمه الله ـ: «ولا يخفى حسن موقع هذا الأمر بعد ما عدّ من أباطيل المشركين وقبائحهم ما لا يطاق حمله، وإذا قيل بأن ﴿ **الجاهلين** ﴾ موضوع موضع ضمير أولئك المشركين ـ حيث إن الكلام فيهم تسجيلاً عليهم بعدم الارعواء، وإقناطاً كليًا منهم، التأمت أطراف الكلام غاية الالتئام، وقد فسر هذه الآية للنبي ﷺ جبريل ـ عليه السلام ـ بعد أن سأل ربه عن معناها، فقال جبريل ـ علي السلام ـ للنبي ﷺ: «**إن الله ـ تعالى ـ أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك**»[1].

ويحسن أن أختم هذا الفصل بموقفه ﷺ من الطلقاء بعد أن أمكنه الله من فتح مكة، فإنه من أوضح التطبيقات لهذا المنهج الرباني الذي ذكرته سورة الأعراف.

إن الدروس التي لقنها ﷺ للإنسانية عامة، ولأهل مكة خاصة تكفي وحدها في إبراز ما نحن بصدده ـ بيان موقف الرسول ﷺ من الكافرين المعاندين ـ لقد دخل ﷺ مكة فاتحًا منتصرًا، وكان المشركون قد أخرجوه منها وهي أحب بقاع الأرض إليه بعد أن أذاقوه فيها المتاعب، وبعد أن نكّلوا بأصحابه المستضعفين منهم وفعلوا بهم ما تقشعر له الأبدان، وتصطك منه الآذان، فماذا كان جزاؤهم عنده حين وقعوا في قبضته وضاقت بهم الأرض بما رحبت؟ قال لهم قولته المشهورة: «**لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء**» بل لقد قال ﷺ وألوية النصر تخفق من حوله، والمشركون باسطو أيديهم يلقون بالسلم: «**بل اليوم يوم المرحمة**» رد بها على سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ وقد استبد به نشوة الظفر وهو يردد: «اليوم يوم الملحمة» وهذا لو حدث لما كان فيه أي لائمة، فجزاء سيئة سيئة مثلها، والباديء أظلم، ولكن نفسه العظيمة وأخلاقه الطاهرة التي لا أطهر منها لا تعرف الثأر، إنه لم يجيء لينتقم لنفسه، ولا ليثأر لأصحابه، إنما جاء وبُعث ليُعلي كلمة الله، والرحمة أنجح دواء لجميع القلوب وتوحيد

(١) انظر: تفسير الألوسي، (٩/ ١٤٧).

الصفوف، وهو الرحمة المهداة ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[١].

وتوالت بعد ذلك الفتوح ودان له العرب قاطبة، ولم يقبضه الله حتى راسل الملوك والأمراء ممن حوله يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، وخرج لمقاتلة الروم في شمال الجزيرة العربية في غزوة تبوك، وظل هكذا مجاهدًا صابرًا محتسبًا حتى نزل عليه قوله ـ جل وعلا ـ ينعي له نفسه ويخبره بدنو أجله ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح (١) ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا (٢) فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾[٢].

* * *

(١) سورة الأنبياء: الآية (١٠٧).

(٢) سورة النصر.

خلاصة ما جاء في الفصل الثامن

١ ـ اتبع رسول الله ﷺ أساليب متعددة في دعوته لقومه منها :

* الترغيب في سماع القرآن بوصفه أحسن ما أنزل .

* تلخيص مصير كثير من المكذبين السابقين .

* التنبيه على البعث بذكر بعض ما فيه .

* الحديث عن وزن الأعمال وحقيقة الميزان .

* الترغيب في الإيمان بالله وذكر نعمه سبحانه الشاملة على المشركين .

* الحديث عن الكون : علويه وسفليه .

الترهيب للمشركين من خلال أمور :

* أن عبادتهم للأصنام ، وطوافهم بالبيت عراة إنما هي سنة ورثوها عن آبائهم ، ماأمرهم الله بها .

* أن الله تعالى لا يأمر إلا بالقسط والعدل .

* الرد على من ادعى أن الله حرم الزينة التي أخرجها لعباده والطيبات من الرزق .

* بيان ما حرمه الله حقًا على عباده .

* تهديد المشركين بأوخم العواقب ، وسوء المصير ، والخلود في العذاب ، وسقوط مكانتهم عند الله .

* تصوير واقع أهل الجنة وأهل النار ، ووصف حال أهل النار واستغاثتهم بأهل الجنة وأن المشركين منسيون في النار ، لا يصلون إلى رحمة ربهم ، وأنهم سوف يعترفون بأن القرآن الذي جحدوه حق لا ريب فيه .

ذكرت السورة للمشركين ثلاثة أمور تحملهم على متابعة نبي الله محمد ﷺ :

* بيان شرفه وأنه رحمة مهداة للعالمين .

* سؤالهم عن دقيقة انفردوا بها وبمعرفتها ، وهي قصة أهل القرية التي كانت حاضرة البحر وبيانها لهم .

* بيان عقوبات تلازمهم إلى يوم القيامة منها :

أ ـ أنهم كلما اجتمعوا لا يجتمعون إلا على الشر ، وسلط الله عليهم من ينزل بهم سوء العذاب إلى يوم القيامة .

ب ـ ذكر نبأ ذلك الرجل اليهودي الذي آتاه الله علمًا خاصًا فلم يهتد به ، وقد انسلخ من تلك الآيات .

٢ ـ هناك بعض الاستنتاجات من خلال الآيات التي صورت صورة الذي انسلخ من آيات ربه بصورة الكلب اللاهث وهي :

* أن أحدًا لا يغلب الله بمعصيته .

* أن الدنيا مهما كثرت في أيدي أصحابها فهي ليست بغاية يسعى إليها .

* أسوأ ما يبتلى به الإنسان أن تتجارى به أهواؤه كما يتجارى الكلب بالجيفة .

* ذكر قصص السابقين من أنجع الدواء الذي يعالج به اللاحقون .

٣ ـ يظهر موقف الكافرين من المعاندين من دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين بما يلي :

* تكذيبه فيما جاء به .

* عدم تفكيرهم في حاله ﷺ .

اتهامه ﷺ بالجنون .

٤ ـ كان رد رسول الله ﷺ على موقف المشركين هو العفو ، والأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلين .

تمهيد

لم يخلق الله ـ عز وجل ـ الإنسان عبثًا في هذه الحياة ـ تعالى الله عن ذلك ـ بل خلقه ليؤدي رسالة أنيطت به، وضحتها الآية الكريمة في سورة الذاريات من قوله تعالى: ﴿ **وما خلقتُ الجنَ والإنس إلاَ ليعبُدُون (٥٦) ما أريدُ منهُم مِن رزقٍ وما أريدُ أن يُطعِمُون (٥٧) إنَ اللهَ هُو الرَزَاقُ ذُو القُوَة المتينُ** ﴾[1].

ولقد ميز الله ـ جل وعلا ـ الإنسان عن سائر مخلوقاته بالعقل، وهو بمثابة المؤدب يأمره بالعدل فيما يجتنب ويجتلب، وإلى جانب ذلك ركّب فيه الهوى والشهوة، فكان نتيجة لذلك أن الناس كانوا على فريقين: مهتد وضال، أو مؤمن وكافر، وبعث ـ جل وعلا ـ الأنبياء ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ دعاة هداة إلى الحق، فمن استمسك بشرعهم وهداهم وقبل دعوتهم واستنار قلبه فهو التقي السعيد، ومن أعرض عن هداية الله ورفض دعوة الرسل فهو الخاسر الشقي، وهكذا كان موكب الإيمان ـ موكب الأنبياء ـ عبر تاريخ الأمم والشعوب، من لدن نوح ـ عليه السلام ـ إلى خاتمهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ يدعون بلسان واحد إلى منهج ثابت لا يختلف، إلى إفراد الله بالعبادة ونبذ عبادة كل ما سوى الله، ويحذرونهم من كيد الشيطان وأتباعه وسلوك سبيله، ويذكرونهم باليوم الآخر وأنه حق لا ريب فيه، وفي ذلك اليوم يلاقي كل إنسان نتيجة عمله وسعيه؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

قال تعالى: ﴿ **يا بني آدمَ إمَا يأتينَكُم رُسُلٌ مِنكُم يقُصُون عليكُم آياتي فمن اتقَى وأصلَح فلا خوفٌ عليهِم ولا هُم يحزَنُون (٣٥) والَذين كذَبُوا بآياتنا واستكبَرُوا عنها**

---

(١) سورة الذاريات: الآيات من (٥٦) إلى (٥٨).

أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[١].

والمتمعن في دعوة الرسل - عليهم السلام - ومواقف أقوامهم منهم يجد أن الشبه بين ذلك واضحٌ ومتميز، ولأنني قد سبق أن فصلت القول فيها عند كل فصل من الفصول السابقة - حسب موضوع الفصل - أكتفي الآن بالإشارة باختصار إلى مباديء دعوة كل نبي مؤيداً ذلك بالآية الكريمة التي تؤيد ما أشرت إليه، ومن ثَمّ الإشارة إلى وجه الشبه بين دعواتهم جميعًا - عليهم السلام - ثم أشرع في بيان موقف كل أمة من نبيها، واستنباط وجه الشبه بين مواقف الأمم جميعًا حسب ما ورد في سورة الأعراف وغيرها إن لزم الأمر؛ كل موقف بآية أو آيتين من كتاب الله.

* * *

(١) سورة الأعراف: الآيتان (٣٥، ٣٦).

المبحث الأول
دعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ لأقوامهم

أولاً: دعوة نبي الله نوح ـ عليه السلام ـ:

أ ـ دعا قومه إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ وترك عبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[١].

ب ـ دعا قومه إلى الإيمان باليوم الآخر وحذرهم منه فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[٣].

جـ ـ دعاهم إلى مكارم الأخلاق وذلك أنه لم يقابل إساءتهم بمثلها عندما اتهموه بالضلال فقالوا له: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٤] فقال لهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٥] فلم يرمهم بالضلال مع أنهم كانوا متلبسين به.

د ـ دعاهم إلى تقوى الله واجتناب نواهيه، قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٦].

(١، ٢) سورة الأعراف: الآية (٥٩).

(٣) سورة نوح: الآيتان (١٧، ١٨).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٦٠).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٦١).

(٦) سورة الأعراف: الآية (٦٣).

ثانيا: دعوة هود ـ عليه السلام ـ لقومه:

أ ـ دعاهم إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿ **وإلىٰ عاد أخاهُمْ هودا قال يا قوم اعبدُوا اللَّه ما لكُم مَنْ إله غيرُهُ** ﴾[١].

ب ـ دعاهم إلى تقوى الله ـ عز وجل ـ حيث قال لهم بعد دعوتهم إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ: ﴿ **أفلا تتقُون** ﴾[٢].

جـ ـ دعاهم إلى مكارم الأخلاق لما تسافهوا عليه، ولم يقابل تطاولهم بوصفهم بما هم أهله من سوء الخلق، بل رد عليهم رداً جميلاً ينفي ما وصفوه به، ويبين لهم أنه رسول من رب العالمين، أرسله الله إليهم ليبلغهم رسالاته، وينصحهم بما يصلحهم في أولاهم وأخراهم: ﴿ **قال الْملأُ الَّذين كفرُوا من قوْمه إنَّا لنراك في سفاهة وإنَّا لنظنُّك من الْكاذبين (٦٦) قال يا قوْم ليْس بي سفاهةٌ ولكنِّي رسُولٌ منْ ربِّ الْعالمين (٦٧) أبلِّغُكُمْ رسالات ربِّي وأنا لكُمْ ناصحٌ أمينٌ** ﴾[٣].

د ـ ذكّرهم بنعم الله عليهم وآلائه، قال تعالى: ﴿ **واذْكُرُوا إذْ جعلكُمْ خُلفاءَ من بعْد قوْم نُوحٍ وزادكُمْ في الْخلْق بصْطةً** ﴾ أي: آتاكم هيئات عظيمة في أجسادكم، وقوّى بنيانكم بحيث قَدْرتُم عى ما عجز عنه غيركم، وقوله: ﴿ **فاذْكُرُوا آلاء اللَّه لعلَّكُمْ تُفْلحُون** ﴾[٤] أي: اذكروا نعمه الكثيرة عليكم، غير تلك النعمتين السابقتين فإن تذكركم يؤدي إلى فلاحكم.

ثالثا: دعوة صالح ـ عليه السلام ـ لقومه:

أ ـ دعاهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة لله وحده، قال تعالى: ﴿ **وإلىٰ ثمُود أخاهُمْ صالحا قال يا قوْم اعبدُوا اللَّه ما لكُم مَنْ إله غيْرُهُ** ﴾[٥].

(١، ٢) سورة الأعراف: الآية (٦٥).

(٣) سورة الأعراف: الآيات من (٦٦) إلى (٦٨).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٦٩).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٧٣).

ب ـ ذكرهم بنعم الله ـ عز وجل ـ وآلائه، قال تعالى: ﴿ **واذكُروا إذ جعلكُمْ خُلفاء من بعْد عاد وبوأكُمْ في الأرْض تتخذُون من سُهُولها قُصُورا وتنحتُون الجبال بُيُوتا فاذْكُرُوا آلاء اللَه** ﴾[1].

جـ ـ حذرهم من الإفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿ **ولا تعْثوا في الأرْض مُفْسدين** ﴾[2].

د ـ دعاهم إلى مكارم الأخلاق، وواجههم بالرد المقنع على إنكارهم نبوته، وأنه لم يزد بالنبوة إلا رفعة وكمالاً، فإنهم كانوا يُجلّونه قبل النبوة ويعظمونه ويكبرونه لما تميز به من أخلاقه وسلوكه، قال ـ تعالى ـ في سورة هود: ﴿ **قالُوا يا صالحُ قدْ كُنت فينا مرْجُوًا قبْل هذا أتنهانا أن نَعْبُد ما يعْبُد آباؤُنا وإنَنا لفي شكٍ مَمَا تدْعُونا إليْه مُريب (٦٢) قال يا قوْم أرأيتُم إن كُنتُ علىٰ بيّنة مَن رَبّي وآتاني منهُ رحْمة فمَن ينصُرُني من اللَه إنْ عصيْته فما تزيدُونني غير تخْسير** ﴾[3].

رابعًا: دعوة لوط ـ عليه السلام ـ لقومه:

أ ـ دعاهم إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ، لكن القرآن الكريم لم يصرح بذلك بل ندّد بذكر فاحشتهم التي انفردوا بها عن سائر العالمين والتي بها من الشناعة والقباحة ما لا يخفى.

ب ـ دعاهم إلى مكارم الأخلاق، وإلى ترك فاحشة اللواط التي كانوا يأتونها علنًا في نواديهم، وأمرهم أن يأتوا ما أباحه لهم من نسائهم، وأن ينتهوا عن كل منكر وخلق قبيح كانوا يفعلونه، قال تعالى: ﴿ **ولُوطًا إذْ قال لقومه أتأْتُون الْفاحشة ما سبقكُم بها منْ أحد مَن الْعالمين (٨٠) إنَكُم لتأْتُون الرّجال شهْوة مَن دُون النّساء بلْ أنتُم قوْمٌ مُسْرفُون** ﴾[4].

(١، ٢) سورة الأعراف: الآية (٧٤).

(٣) سورة هود: الآيتان (٦٢، ٦٣).

(٤) سورة الأعراف: الآيتان (٨٠، ٨١).

جـ- نهاهم عن قطع السُبل والتعرض لأرواح وأموال الناس وأعراضهم، وقد أشارت إلى ذلك سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾[١].

خامسًا: دعوة شعيب - عليه السلام - لقومه:

أ- دعا قومه إلى نبذ عبادة الأصنام وإخلاص العبادة لله الواحد القهار، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[٢].

ب- أمرهم بإيفاء الكيل والميزان، قال تعالى: ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ﴾[٣].

جـ- نهاهم عن بخس الناس حقوقهم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾[٤].

د- نهاهم عن الإفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾[٦].

هـ- نهاهم عن القعود على طريق الدين ومناهج الحق لأجل أن يمنعوا الناس عن قبوله، قال - تعالى -: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾[٧].

و- ذكرهم بنعم الله عليهم وآلائه، ولا سيما أنه كثّرُ عددهم فأصبحوا كثرة يهابهم من حولهم من الأعداء، قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾[٨].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (٢٩).

(٢، ٣، ٤، ٥) سورة الأعراف: الآية (٨٥).

(٦، ٧، ٨) سورة الأعراف: الآية (٨٦).

سادساً: دعوة موسى ـ عليه السلام ـ:

أولاً: دعوة موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون وقومه:

أ ـ دعاهم إلى توحيد الله ـ عز وجل ـ، قال تعالى: ﴿وقال مُوسىٰ يا فرْعونُ إنّي رسُولٌ مّن رّبّ الْعالمين (١٠٤) حقيقٌ علىٰ أن لاّ أقُول على اللّه إلاّ الْحقّ قد جئْتُكُم ببيّنة مّن رّبّكُمْ﴾[1] فهاتان الآيتان مصرحتان بأنه لا رب في الوجود جدير بأن يعبد سوى الله ـ عز وجل ـ خالق الخلق وموجدهم.

ب ـ دعاهم إلى عدم الظلم الذي كان منتشراً بينهم حيث كانوا يستعبدون الإسرائيليين، ويجعلونهم في أردأ وأسوأ الأعمال وأشقها، كما أمر فرعون من تحته من المصريين والإسرائيليين بعبادته من دون الله، قائلاً لهم ما حكاه الله على لسانه: ﴿أنا ربُّكُمُ الأعْلىٰ﴾[2].

جـ ـ نهاهم عن الإفساد في الأرض، فقال ـ تعالى ـ مخاطباً نبيه محمداً ـ ﷺ ـ يقص عليهم خبرهم: ﴿ثُمّ بعثْنا من بعْدهم مُوسىٰ بآياتنا إلىٰ فرْعوْن وملئه فظلمُوا بها فانظُرْ كيْف كان عاقبةُ الْمُفْسدين﴾[3].

د ـ دعاهم إلى الإيمان باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿وقال مُوسىٰ إنّي عُذْتُ بربّي وربّكُم مّن كُلّ متكبّرٍ لاّ يُؤْمنُ بيوْم الْحساب﴾[4].

ثانياً: دعوة موسى ـ عليه السلام ـ لبني إسرائيل:

أ ـ دعاهم إلى توحيد الله ـ جل وعلا ـ. قال تعالى: ﴿قال أغيْر اللّه أبْغيكُمْ إلهاً وهُوَ فضّلكُمْ علىٰ الْعالمين﴾[5].

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٠٤، ١٠٥).

(٢) سورة النازعات: الآية (٢٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٠٣).

(٤) سورة غافر: الآية (٢٧).

(٥) سورة الأعراف: الآية (١٤٠).

ب ـ ذكّرهم بنعم الله عليهم، قال تعالى: ﴿ وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى ﴾[٢].

جـ ـ تحذيرهم من اتباع مسالك الهالكين والضالين، قال تعالى: ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[٣].

د ـ تحذيرهم من التكذيب بآيات الله ـ عز وجل ـ ولا سيما اليوم الآخر وأن ذلك يؤدي إلى إحباط أعمالهم، قال تعالى: ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾[٤].

هـ ـ دعاهم إلى تقوى الله ـ عز وجل ـ وإيتاء الزكاة، قال تعالى: ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾[٥] كما دعاهم إلى التمسك والمحافظة على الصلاة لأنها عماد الدين، قال تعالى: ﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾[٦].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٤١).
(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٠).
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٤٦).
(٤) سورة الأعراف: الآية (١٤٧).
(٥) سورة الأعراف: الآية (١٥٦).
(٦) سورة الأعراف: الآية (١٧٠).

سابعا: دعوة خاتم الأنبياء نبينا محمد ﷺ لقومه:

أ ـ دعا ﷺ قومه إلى التوحيد وهجر عبادة الأصنام التي كانت منتشرة بين قبائل العرب، ودعاهم إلى الإيمان بالقرآن الكريم الذي أنزله الله بواسطة الوحي على قلب نبيه ﷺ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ﴾[١] وقد عضّد دعوته لهم بلفت أنظارهم إلى بعض الظواهر الكونية التي لها علاقة وثيقة بحياتهم اليومية، قال تعالى: ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾[٢].

ب ـ دعاهم ﷺ إلى مكارم الأخلاق، قال تعالى: ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون (٢٨) قل أمر ربي بالقسط ... ﴾[٣] الآية.

جـ ـ حذرهم من مكايد الشيطان وفتنه، قال تعالى: ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾[٤].

د ـ دعوته ﷺ إلى الإيمان باليوم الآخر، وأن وقوعه حق لا ريب فيه، وفيه يُجازى كلُّ إنسان بعمله، وضرب القرآن لذلك الأمثال المشاهدة في بيئة العرب وغيرهم، قال تعالى: ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٤).

(٣) سورة الأعراف: الآيتان (٢٨، ٢٩).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٢٧).

أقلَّت سحابًا ثقالاً سُقْناهُ لبلد مَّيت فأنزلْنا به الْماءَ فأخْرجْنا به من كُلِّ الثَّمرات كذلك نُخْرِجُ الْموْتىٰ لعلَّكُمْ تذكَّرُون ﴾[1].

هـ- تذكيرهم بنعم الله التي لا تعد ولا تحصى، قال تعالى: ﴿ ولَقدْ مكَّنَّاكُمْ في الأرْض وجعلْنا لكُمْ فيها معايش قليلاً مَّا تشْكُرُون (١٠) ولقدْ خلقْناكُمْ ثُمَّ صوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا للْملائكة اسْجُدُوا لآدم فسجدُوا إلاَّ إبْليس لمْ يكُن منَ السَّاجدين ﴾[2].

ونكتفي بهذا القدر؛ طلبًا للاختصار.

* * *

(١) سورة الأعراف: الآية (٥٧).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان (١٠، ١١).

وجه الشبه بين دعوات الرسل

والمتمعن في دعوات الرسل من خلال العرض الموجز الذي ذكرناه آنفًا يجد التشابه واضحًا إلى حد كبير، ونستخلص من ذلك ما يلي:

أولاً: إن الأنبياء جميعًا بُعثوا من أجل إعلاء كلمة التوحيد، وجاهدوا وكابدوا أهل الباطل من أجل إقناعهم وإفهامهم حقيقة ذلك، قال تعالى: ﴿ **وما أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رَسُولٍ إلاَّ نُوحي إلَيْه أَنَّهُ لا إله إلاَّ أنا فاعْبُدُون** ﴾[1] وقال جل شأنه: ﴿ **ولَقَدْ بعثْنَا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّه واجْتَنبُوا الطَّاغُوت** ﴾[2].

ثانيًا: دعوتهم جميعًا إلى مكارم الأخلاق، وزجرهم عن ارتكاب كل ما هو مستقبح.

ثالثًا: تذكيرهم بنعم الله وآلائه لأن تلك النعم والآلاء من أهم العوامل التي تؤدي إلى إيمان الأمم.

رابعًا: دعوتهم إلى الإيمان باليوم الآخر وأن وقوعه لا ريب فيه، فمن ثقلت فيه موازينه فأولئك الذين أصابوا الفلاح والسعادة، ومن خفت فيه موازينه فأولئك الذين ظلموا أنفسهم وَجَنُوا لها الخسارة والعذاب والهلاك.

* * *

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٥).

(٢) سورة النحل: الآية (٣٦).

المبحث الثاني
مواقف الكافرين المعاندين
من دعوة الرسل ـ عليه السلام ـ

أولا: موقف الكافرين من دعوة نوح ـ عليه السلام ـ:

أ ـ تكذيبهم بما جاء به نبيهم ـ عليه السلام ـ قال تعالى: ﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين ﴾[١].

وقال ـ تعالى ـ في سورة هود: ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾[٢] والخطاب في الآية لنوح ـ عليه السلام ـ ومن آمن به.

ب ـ رميُ نبيهم بما هو بريء منه وذلك بوصفه بالضلال، وكبرُهم واستعلاؤهم على نبيهم، وكذلك وصفهم له بالجنون: أما رميهم له بوصفه بالضلال، فقال تعالى: ﴿ قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين ﴾[٣] وأما كبرهم واستعلاؤهم على نبيهم فقد أشارت إليه الآية الكريمة في سورة هود: ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴾[٤] ولقد رموه بالجنون، وأشارت سورة المؤمنون إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾[٥].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٤).

(٢) سورة هود: الآية (٢٧).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٦٠).

(٤) سورة هود: الآية (٢٧).

(٥) سورة المؤمنون: الآية (٢٥).

جـ ـ إنكارهم بعثَ رسول بشراً وتعجبهم من ذلك، قال تعالى: ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾[١] وقال ـ تعالى ـ في سورة هود: ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا ﴾[٢] وكانوا يعتقدون أن الملائكة أولى بالرسالة من نبيهم.

د ـ كَذبُهُم وافتراؤهم على نبيهم بدعواهم أن ما جاءهم به نوح ـ عليه السلام ـ لم يسمعوا به في آبائهم، ولم يخبروهم عن ذلك أي خبر، وذلك منهم جحود وتكذيب وعناد، قال ـ تعالى ـ في سورة المؤمنين: ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾[٣].

هـ ـ طلبهم العذاب من نبيهم قال تعالى: ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾[٤].

ثانيا: موقف الكافرين المعاندين من دعوة نبيهم هود ـ عليه السلام ـ:

أ ـ تكذيبه فيما جاء به، قال تعالى: ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾[٥].

ب ـ طلبهم العذاب، وهذا منهم نهاية التكذيب والتحدي لنبيهم، وقصدوا بذلك أنه إن لم يأتهم بذلك العذاب ظهر للقوم كونه كاذبًا[٦] قال تعالى: ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾[٧].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٣).

(٢) سورة هود: الآية (٢٧).

(٣) سورة المؤمنون: الآية (٢٤).

(٤) سورة هود: الآية (٣٢).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٦٦).

(٦) انظر: ص (٢٦٤) من بحثنا هذا.

(٧) سورة الأعراف: الآية (٧٠).

جـ- طلبهم البينة والمعجزة الدالة على صدقه ولم تصرح سورة الأعراف بطلبهم هذا وقد صرحت به سورة هود عند قوله تعالى: ﴿ **قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ** ﴾[١] أي: ماجئتنا بحجة وبرهان قاطع عل ما تدعيه.

د- رمي نبيهم بما هو بريء منه وهو قذفه بالجنون، وهذه الفرية أيضًا لم تصرح بها سورة الأعراف وذكرتها سورة هود في قوله تعالى: ﴿ **إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ** ﴾[٢] أي: أخبلك ومسك بالجنون[٣].

هـ- تكذيبهم بيوم البعث والجزاء، قال- تعالى- حكاية عن قوم هود: ﴿ **أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ** ﴾[٤].

و- إنكارهم لبشريته، قال- تعالى-: ﴿ **وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ** ﴾[٥] وقصدوا أن البشر لا يصلحون لأن يكونوا أنبياء بل يجب أن يرسل الله لهم ملكًا من السماء.

ثالثا: موقف الكافرين المعاندين من دعوة نبيهم صالح - عليه السلام -:

أ- كذّبوا نبيهم فيما جاءهم به، قال تعالى: ﴿ **قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ** ﴾[٦]... الآية. وهذا منهم تكذيب بدعوته، وقال- تعالى- في سورة القمر حكاية عن قوم صالح-: ﴿ **أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ** ﴾[٧] أي: بطر متكبر،

---

(١) سورة هود: الآية (٥٣).

(٢) سورة هود: الآية (٥٤).

(٣) انظر: ص (٢٦٤، ٢٦٥) من بحثنا هذا.

(٤) سورة المؤمنون: الآية (٣٥).

(٥) سورة المؤمنون: الآية (٣٤).

(٦) سورة الأعراف: الآية (٧٥).

(٧) سورة القمر: الآية (٢٥).

حمله بطره وطلبه التعظيم علينا على ادعاء ذلك[١] وقال تعالى في سورة هود: ﴿ **وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** ﴾[٢].

ب ـ استنكروا بشريته، وطلبوا أن يكون المرسل إليهم جنسًا أعلى من البشر وهم الملائكة، وقد وضحت هذا الاستنكار سورةُ القمر، قال تعالى: ﴿ **فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ** ﴾[٣] أي: جنون أو عناء. فهو اسم مفرد، وقيل: جمع سعير، كأنهم عكسوا عليه فرتّبوا على اتباعهم إياه ما رتّبهْ على عدم اتباعهم له[٤].

جـ ـ كذبوا بالبعث، ولم تذكر سورة الأعراف ذلك صراحة لكن سورة الشعراء ذكرت إنكار نبيهم عليهم جحودهم للنعم العظيمة التي حباهم الله بها، والتي لم تزدهم إلا بطرًا وكفرًا وبُعْدًا عن اتباع الحق، ونسيانًا للبعث واليوم الآخر، فقال تعالى: يقص علينا إنكار نبيهم صالح عليه السلام ذلك: ﴿ **أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ** ﴾[٥].

د ـ رميه بما هو بريء منه وذلك باتهامه بأن السحرة أثّروا على عقله بعد أن سحروه كثيرًا حتى صار يتكلم بما لا يعقل ولم يسمعوا قَطّ كلامه من قبل، وقد بينت هذه الفرية سورة الشعراء عند قوله تعالى: ﴿ **قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ** ﴾[٦] أي: الذي سحر كثيرًا حتى غلب على عقله[٧].

---

(١) تفسير النسفي، (٤/ ٢٠٤).

(٢) سورة هود: الآية (٦٢).

(٣) سورة القمر: الآية (٢٤).

(٤) انظر: تفسير النسفي، (٤/ ٢٠٤)، وتفسير القاسمي، (١٥/ ٢٦٩).

(٥) سورة الشعراء: الآيات من (١٤٦) إلى (١٤٨).

(٦) سورة الشعراء: الآية (١٥٣).

(٧) تفسير النسفي (٣/ ١٩٢).

هـ - طلبهم المعجزة الحسية التي تؤيد صدقه فيما جاءهم به، قال تعالى: ﴿ **قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم** ﴾[١] وقد كان هذا بطلب منهم كما أشارت إلى ذلك آية الشعراء، قال تعالى: ﴿ **ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين** ﴾[٢] أي: ائتنا بآية حسية خارجة عن نطاق العادة تؤيد صدقك فيما جئتنا به.

و - طلبهم العذاب، قال تعالى: ﴿ **وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين** ﴾[٣] أي: بما تعدنا من العذاب.

رابعا: موقف الكافرين المعاندين من دعوة لوط - عليه السلام -:

أ - تكذيب نبيهم في ما جاءهم به، ولم تصرح سورة الأعراف بالتكذيب صراحة إنما يُفهم ذلك من المعنى العام لقوله تعالى: ﴿ **وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** ﴾[٤] وقال - تعالى - في سورة الشعراء: ﴿ **كذبت قوم لوط المرسلين** ﴾[٥] وقال - تعالى - في سورة القمر: ﴿ **كذبت قوم لوط بالنذر** ﴾[٦].

ب - طلبهم العذاب وتهكمهم على نبيهم، قال - تعالى - في سورة العنكبوت: ﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين** ﴾[٧].

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٣).
(٢) سورة الشعراء: الآية (١٥٤).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٧٧).
(٤) سورة الأعراف: الآية (٨٢).
(٥) سورة الشعراء: الآية (١٦٠).
(٦) سورة القمر: الآية (٣٣).
(٧) سورة العنكبوت: الآية (٢٩).

خامسا: موقف الكافرين المعاندين من دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ:

أ ـ تكذيبه فيما جاء به، قال تعالى: ﴿ **الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين** ﴾[١].

ب ـ رميه بما هو بريء منه وذلك باتهامه بأنه مسحور، قد أفسد السحرُ عقله وتفكيره فأصبح يتفوّه بما لا يعرف وما لم يسمعوا به قط من قبل، قال ـ تعالى ـ حكاية عن قوم شعيب: ﴿ **قالوا إنما أنت من المسحرين** ﴾[٢].

جـ ـ أنكروا بشريته واتهموه بالكذب، قال تعالى: ﴿ **وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين** ﴾[٣].

د ـ استكبروا على نبيهم لأنه جاءهم بما يخالف أهواءهم وهددوه بطرده وإخراجه من قريتهم، قال تعالى: ﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا** ﴾[٤]... الآية.

هـ ـ تهكّموا به واستهزأوا بدعوته، ولم تتعرض سورة الأعراف لهذا الخلق السيء الصادر منهم، وقد ذكرته سورة هود عند قوله تعالى: ﴿ **قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد** ﴾[٥].

و ـ اتهامه بالضعف في منطقه فلم يفهموا دعوته، وتهديده برجمه بالحجارة، قال ـ تعالى ـ أيضًا في سورة هود: ﴿ **قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا**

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٩٢).

(٢) سورة الشعراء: الآية (١٨٥).

(٣) سورة الشعراء: الآية (١٨٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٨٨).

(٥) سورة هود: الآية (٨٧) انظر: ص (٣٨٧، ٣٨٨) من بحثنا هذا.

لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطُك لرجمْناك وما أنت علينا بعزيز ﴾[١].

ز ـ استعجالهم للعذاب، قال تعالى: ﴿ فأسْقطْ علينا كسفا مّنَ السَّماء إن كُنت من الصَّادقين ﴾[٢].

سادسا: موقف الكافرين المعاندين من دعوة موسى ـ عليه السلام ـ:

أولا: موقف فرعون وقومه من دعوة نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ:

أ ـ تكذيبه وعدم تصديقه فيما جاءهم به، قال تعالى: ﴿ قَالَ إن كُنتَ جئْتَ بآية فأت بها إن كُنت من الصَّادقين ﴾[٣].

ب ـ رميه بالسحر، قال تعالى: ﴿ قَالَ الْملأُ من قَوْمِ فرْعَوْنَ إنَّ هذا لَساحرٌ عليمٌ ﴾[٤].

جـ ـ مخادعتهم لنبيهم، ونقضهم لعهودهم، قال تعالى: ﴿ ولَمَّا وقَعَ عَلَيْهمُ الرِّجزُ قالُوا يا مُوسى ادْعُ لَنا ربَّك بما عهد عندك لئن كَشفْت عنَّا الرِّجْزَ لنُؤْمننَّ لَك ولَنُرْسلنَّ معك بني إسْرائيل (١٣٤) فلمَّا كشفْنا عنْهُمُ الرِّجْزَ إلَىٰ أَجلٍ هُم بالغُوهُ إذَا هُمْ ينكُثُون ﴾[٥].

ثانيا: موقف بني إسرائيل من دعوة نبيهم موسى ـ عليهم السلام ـ:

أ ـ ميل نفوسهم إلى عبادة الآلهة من دون الله رغم عظَم النعم التي حباهم الله بها، قال تعالى: ﴿ وجاوزْنا ببني إسْرائيلَ الْبحْرَ فأتَوْا علَىٰ قَوْمٍ يعْكُفُونَ علَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قالُوا يا مُوسى اجْعل لَّنا إلها كما لَهُمْ آلهةٌ قَالَ إنَّكُمْ قَوْمٌ تجْهلُونَ (١٣٨) إنَّ هؤُلاء

---

(١) سورة هود: الآية (٩١).

(٢) سورة الشعراء: الآية (١٨٧).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٠٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٠٩).

(٥) سورة الأعراف: الآيتان (١٣٤، ١٣٥).

متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون (١٣٩) قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ﴾[١].

ب ـ عبادتهم للعجل من دون الله ـ عز وجل ـ أثناء غيبة موسى ـ عليه السلام ـ عنهم لتلقي التوراة من ربه ـ عز وجل ـ قال تعالى: ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾[٢].

جـ ـ كفرهم بنعم الله عليهم وظلمهم لأنفسهم، قال تعالى: ﴿ وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٤].

د ـ تبديلهم القول والكلم غير الذي أمروا به، قال تعالى: ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين (١٦١) فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون ﴾[٥].

هـ ـ مخالفتهم لنبيهم ـ عليه السلام ـ فيما يأمرهم به، وقد ذكرت ذلك سورة

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (١٣٨) إلى ١٤٠٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٤٨).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٤١).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٦٠).

(٥) سورة الأعراف: الآيتان (١٦١، ١٦٢).

المائدة عند قوله تعالى: ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين (٢١) قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون (٢٢) قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين (٢٣) قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾[١].

و ـ امتناعهم عن الأخذ بتعاليم الله وتهديدهم برفع الطور على رؤوسهم ورميه عليهم، قال تعالى: ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾[٢].

سابعا: موقف الكافرين المعاندين من دعوة النبي المصطفى ﷺ:

أ ـ تكذيبه فيما جاء به ﷺ قال تعالى: ﴿ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٣].

﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾[٤].

ب ـ عدم تفكرهم في حاله مما أداهم إلى اتهامه ﷺ بالجنون والسحر والشعر والكهانة، قال تعالى: ﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ﴾[٦].

---

(١) سورة المائدة: الآيات من (٢١) إلى (٢٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٧١).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٣٦).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٨٢).

(٥) سورة الأعراف: الآية (١٨٤).

(٦) سورة القلم: الآية (٥١).

أما اتهامه له ﷺ بالسحر فالآيات على ذلك كثيرة، قال تعالى: ﴿ **أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين** ﴾[١].

وجعلوا كذلك الآيات البينات التي جاء بها نبيهم من عند الله لهدايتهم بمثابة السحر، قال تعالى: ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين** ﴾[٢] أما اتهامهم له بالشعر والجنون، قال تعالى: ﴿ **ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون** ﴾[٣] وقد نفى الله عنه كون أن ما جاءهم به من قبيل الشعر، قال تعالى: ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين** ﴾[٤] وقد نسبوه أيضا ﷺ إلى أنه كاهن مجنون. وحاشاه ﷺ من ذلك. قال تعالى: ﴿ **فذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون** ﴾[٥].

جـ. تكذيبهم للبعث، قال تعالى: ﴿ **الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾[٦].

د. تعنتهم بطلب الآيات الدالة على صدق رسالته بعد أن تبين لهم إعجاز القرآن، وأنهم عاجزون كل العجز أن يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿ **ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا (٨٩) وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا** ﴾[٧] أي: تفجر لنا من أرض مكة عينا غزيرة من

---

(١) سورة يونس: الآية (٢).

(٢) سورة الأحقاف: الآية (٧).

(٣) سورة الصافات: الآية (٣٦).

(٤) سورة يس: الآية (٦٩).

(٥) سورة الطور: الآية (٢٩).

(٦) سورة الأعراف: الآية (٥١).

(٧) سورة الإسراء: الآيتان (٨٩، ٩٠).

شأنها أنها تنبع بالماء ولا تنقطع ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾[١] أي: قطعًا، يعنون قوله: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾[٢] ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾[٣] أي: كفيلاً بما تقول شاهدًا بصحته ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: ذهب ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: تصعد إليها ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا﴾ أي: من السماء فيه تصديقك ﴿نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[٤].

هـ- إنكارهم بشريته ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ يعني: أهل مكة ﴿أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي: النبي والقرآن ﴿إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[٥] أي: إلا شبهة تمكنت في صدورهم، وهي إنكارهم أن يرسل الله البشر[٦].

و- استعجالهم العذاب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٧] واستعجال المشركين للعذاب بهذه الألفاظ يصوّر لنا منتهى العناد الذي واجهوا به الحق، وأبوا كل الإباء أن يُذعنوا له ويستسلموا لسلطانه فلم يسعهم أمام هذا الكبر والتأبي عن قبول الحق إلا أن يسألوا الله - وقد سمعوا آياته وحججه على لسان نبيه ﷺ - أن يصيبهم بالعذاب العاجل، وهذا شأن الفطرة إذا انعكست عن كونها

---

(١) سورة الإسراء: الآيتان (٩١، ٩٢).
(٢) سورة سبأ: الآية (٩).
(٣) سورة الإسراء: الآية (٩٢).
(٤) سورة الإسراء: الآية (٩٣).
(٥) سورة الإسراء: الآية (٩٤).
(٦) تفسير النسفي (٢/ ٣٢٧).
(٧) سورة الأنفال: الآية (٣٢).

فطرة سوية؛ إذ شأن الفطرة السليمة عندما تنزل بها غمة الشبهة ويلتبس عليها الأمر أن تسأل الله ـ تعالى ـ أن يكشف ما بها، وأن يهديها إلى الحق الذي عمي عليها معرفته لعل الله يدركها برحمته فيقولون: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه وأرشدنا طريقه؛ لكنهم أخذتهم العزة بالإثم فآثروا الهلاك العاجل على الخضوع للحق[1].

* * *

(١) انظر: معالم الدعوة لعبد الوهاب الديلمي (٢/ ٦٩٦).

وجه الشبه بين مواقف الكافرين المعاندين لدعوة الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ

إن المتمعن في مواقف الكافرين المعاندين لدعوة الرسل ـ والتي استعرضتها لك بإيجاز ـ يجدها تكاد تكون متشابهة إلى حد كبير جداً، وإليك أوجه الشبه التي تشابهت فيها مواقفهم تجاه رسلهم ـ عليهم السلام ـ.

أولاً : التكذيب فيما جاءتهم به رسلهم من عند الله وهذا ملاحظ في قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، وخاتمهم نبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم وآلهم أجمعين ـ وغيرهم ممن لم تذكرهم السورة الكريمة. ويؤيد قولي هذا قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا** ﴾ أي: متواترين واحداً بعد واحد من الوتر وهو الفرد[1] ﴿ **كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ** ﴾[2] أي: أمعنوا في تكذيبهم ومعاندتهم وإصرارهم على الكفر مستدلين بحجج هي أوهى من بيوت العنكبوت، وكان يتزعم أولئك المكذبين «الملأ» وهم كما ـ أسلفت ـ أصحاب النفوذ والوجاهة والغنى.

ثانيا : إنكار الأمم جميعا لبشرية أنبيائهم وكانت هذه إحدى شبهات الأمم التي أثاروها لإنكار رسالة أنبيائهم، ونلاحظ ذلك في موقف قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، ونبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ. اقرأ الآيات في سورة إبراهيم: ﴿ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**

---

(١) الكشاف للزمخشري (٣/ ٣٣).

(٢) سورة المؤمنون: الآية (٤٤).

قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب (٩) قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين﴾(١).

ثالثا : **تكذيبهم للبعث وعدم إيمانهم باليوم الآخر**، وإن من الأصول العقائدية التي أجمعت عليها الديانات السماوية هي قضية البعث وإمكانية وقوعه، وهذه القضية كانت راسخة في قلوب جميع المكذبين للرسل، وكانوا يستبعدون البعث كل الاستبعاد وينكرون اليوم الآخر وما فيه من أحداث كل الإنكار، ولا يؤمنون بذلك البتة، لذلك كانت دعوة الأنبياء جميعًا إلى ترسيخ البعث واليوم الآخر في قلوب أقوامهم شاغلَهم الأول بعد قضية التوحيد واجتهدوا في ذلك وسعهم، ولقد مرّ بنا قريبًا إنكارُ كلّ أمة من الأمم للبعث وكفرهم باليوم الآخر بما يغني عن إعادته هنا.

رابعا : **اتهامهم لأنبيائهم بما يشينهم ويقلل من مكانتهم**، وهذه الرذيلة لا تكاد تخلو منها أمة من الأمم، فجميع الرسل ـ عليهم السلام ـ واجهوا من أممهم شتى أنواع التهم والافتراءات الكاذبة، وهذه التهمة لا تكون من المكذبين إلا عند عجزهم عن مواجهة أنبيائهم الذين أيدّهم الله بالحجج والآيات والمعجزات الباهرة فيقفوا مكتوفي الأيدي، فعندئذ يلجأ أهل الباطل إلى رمي أنبيائهم بالضلال والسفاهة والكذب والسحر والكهانة والجنون، وغير ذلك من التهم التي يلصقونها بأنبيائهم، وهم أبعد ما يكونون عنها بل هم صفوة خلق الله الذين اصطفاهم الله لإبلاغ شرعه وهدايته، واختارهم وطهّرهم لأداء رسالته، قال تعالى: ﴿**كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون**

(١) سورة إبراهيم: الآيتان (٩، ١٠).

(٥٢) ﴿أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾[١] وقد بيَّنا ذلك في العرض الموجز لمواقف الأمم مع أنبيائهم بما يغني عن الإعادة.

خامساً : طلبهم للآيات تعنتاً، وقد جرت سنة الله ـ تعالى ـ أن لا يبعث رسولاً إلا ويؤيده بالآيات البينات الدالة على صدق دعواه لتلزم بذلك الحجة على الناس، وكان موقف الأمم من رسلهم إزاء هذه الآيات البينات التكذيب والتعامي عن الحق، والإصرار على الكفر مع وضوح الحجة، قال تعالى: ﴿**تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين**﴾[٢].

هكذا كان موقف الأمم مع أنبيائهم ـ عليهم السلام ـ التكذيب بآيات الله الواضحة لَمَّا جاءتهم مع العلم بأن الذي حملهم على التكذيب ليس هو خفاء الآيات في ذاتها، أو ضَعْفُ البرهان والحُجَّة فيها، بل هي الرغبةُ في الإعراض عن الحق؛ إما عناداً واستكباراً وهذا ما يحصل من أكابر القوم، وإما تقليداً وتمسكاً بما كان عليه الآباء وهذا ما يحدث من عامتهم ممن عميت بصائرهم عن رؤية الحق، وعلى الرغم من وضوح الآيات التي يأتي بها الرسل، عليهم الصلاة والسلام ـ نجد أن هؤلاء الكفار لا يكتفون بها في الاستدلال على صدق الرسل، لكنهم يطلبون منهم آيات أخرى حتى لكأنّ الرسل لم يأتوا بشيء من الآيات، ومرادهم من ذلك ليس الاهتداء إلى الحق بل يطلبونها لمجرد التعنت، ولذلك كانوا إذا أجيبوا إلى طلبهم ثم لم يؤمنوا يعاجلهم الله ـ سبحانه ـ بالعقوبة الرادعة، يقول ـ تعالى ـ مشيراً إلى تعنت الأمم بطلب الخوارق والآيات وعدم الاكتفاء بما أيد الله ـ تعالى ـ به رسله من الحجج[٣] ﴿**ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد**

---

(١) سورة الذاريات: الآيتان (٥٢، ٥٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٠١).

(٣) انظر: معالم الدعوة لعبد الوهاب الديلمي، (٢/ ٦٦٨، ٦٦٩).

وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[١] قال النسفي ـ رحمه الله ـ: «﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: بحُجة بيِّنة، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات ـ كما ذكرت ذلك أول الآية الكريمة ـ وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتًا ولجاجًا»[٢].

سادسًا: طلبهم إنزال العذاب، فمن مواقف الأمم مع أنبيائهم أسلوب التحدي لهم وطلبهم إنزال العذاب العاجل عليهم، وهذا يحمل في طيّه التكذيب للرسل وكأنهم يقولون لرسلهم: لستم صادقين في دعواكم وبالتالي كيف تكونون صادقين في وعيدكم؟ قال ـ تعالى ـ حكاية عن قوم نوح: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[٣] وقال ـ تعالى ـ مشيرًا إلى طلب قوم هود ـ عليه السلام ـ للعذاب: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[٤] وقد طلب العذاب أيضًا قوم صالح ـ عليه السلام ـ: ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٥] وطلب العذاب كذلك قوم لوط وشعيب وطلبت قريش العذاب أيضًا: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٦].

---

(١) سورة إبراهيم: الآيتان (٩، ١٠).

(٢) تفسير النسفي (٢/ ٢٥٦).

(٣) سورة هود: الآية (٣٢).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٧٠).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٧٧).

(٦) سورة الأنفال: الآية (٣٢).

المبحث الثالث
كفر كل أمة ومعصيتها
ونوع العقاب الذي عوقبت به

لقد اجتمعت الأمم قاطبة على الكفر بالله ـ عز وجل ـ والكفر بالآيات والكتب التي أنزلها الله لهدايتهم، كما جمعوا إلى الكفر الذي هو أقبح المعاصي معاصي أخر كثيرة.

وتنوع عقاب الله ـ جل وعلا ـ للكفرة الملحدين المعاندين لدعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ كل بما تقتضيه إرادته وحكمته فهو ـ جل وعلا ـ: ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾[1] وله الحكمة البالغة: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾[2].

وسأشرع في بيان معصية كل أمة وعقاب الله الرادع لها.

أولا: قوم نوح ـ عليه السلام ـ:

وقد أصر قوم نوح على تكذيب رسولهم، وعلى كفرهم وعنادهم، وعبادتهم آلهتهم من دون الله كانت نهايتهم الغرق، قال تعالى: ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ** ﴾[3].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٢٣).

(٢) سورة يونس: الآية (٤٤).

(٣) سورة الأعراف: الآية (٦٤).

ثانيا: قوم هود ـ عليه السلام ـ:

ولقد أصر قوم هود ـ عليه السلام ـ على كفرهم وعبادتهم لأصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، وتبجَّحوا على نبيهم بطلبهم العذاب كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ **قالُوا أجئتنا لنعبُد اللَّه وحدهُ ونذر ما كان يعبُدُ آباؤنا فأتنا بما تعدُنا إن كُنت من الصَادقين** ﴾[1] فأنزل الله عليهم عذابه، ونجّي الله نبيه ومن معه من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ **فأنجيْناهُ والَذين معهُ برحمة منّا وقطعنا دابر الَذين كذَبوا بآياتنا وما كانُوا مؤمنين** ﴾[2] وقد فصلت ذلك العذاب سورة الحاقة، قال تعالى: ﴿ **وأمَا عادٌ فأُهلكُوا بريحٍ صرصر** ﴾ أي: شديدة الصوت، أو: باردة فهي تحرق من شدة بردها ﴿ **عاتية** ﴾ شديدة العصف ﴿ **سخَرها عليهم سبع ليال وثمانية أيَام حُسُوما** ﴾ أي: متتابعة لا تنقطع، أو أنها حسومًا بمعنى تستأصل استئصالاً ﴿ **فترى القوم فيها صرعىٰ** ﴾ أي: جثثًا هامدة، وصرعى جمع صريع ﴿ **كأنَهُم أعجازُ نخلٍ خاوية** ﴾ أي: ساقطة أو بالية ﴿ **فهلْ ترىٰ لهُم مَن باقية** ﴾[3] أي: إن الريح أهلكتهم واستأصلتهم فلم تبقِ منهم أثرًا[4].

ثالثا: قوم صالح ـ عليه السلام ـ:

أما قوم صالح ـ عليه السلام ـ أصحاب الحجر ـ فكانوا أيضًا يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله، فلما استعصوا على نبيهم، وأصروا على كفرهم وعنادهم، وجحدوا آيات ربهم، وعتوا عن أمر ربهم، وتحدوا نبيهم بأن يأتيهم ما يعدهم به من العذاب عاقبهم الله ـ جل وعلا ـ بالرجفة وهي الزلزلة الشديدة التي أماتتهم وهم في أماكنهم لا يستطيعون دفع ذلك عنهم، قال تعالى:

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٧٢).

(٣) سورة الحاقة: الآية (٨).

(٤) انظر: تفسير النسفي بتصرف، (٤/ ٢٨٦).

﴿ فأخذتهُمُ الرَّجْفَةُ فأصْبحُوا في دارهمْ جاثمين ﴾[١].

رابعًا: قوم لوط ـ عليه السلام ـ:

أما قوم لوط ـ عليه السلام ـ فكانوا أيضًا كفرة ملحدين عبدة للأصنام فجاءهم نبيهم لوط ـ عليه السلام ـ من عند الله لهدايتهم، ودعوتهم إلى التوحيد، ونبذ عبادة الأصنام، والتخلي عما عرفوا بهم من قبيحتهم[٢] والتي لم تعرف فيمن سبقهم من العالمين، لكنهم أصروا وتمادوا في طغيانهم وراودوه عن أضيافه يريدون فعل الفاحشة بهم، فقلب الله عليهم قريتهم فجعل عاليها سافلها بعد أن رفعها إلى السماء وألقى بها على الأرض، ثم أكمل عليهم بأن أمطر عليهم مطرًا من حجارة مخصصة ومعدة لتعذيبهم ومُلائمة لفظاعة فاحشتهم، فردمتهم وأهلكتهم ودفنتهم هم وفجورهم وفسادهم، قال تعالى: ﴿ **وأَمْطَرْنا عليْهم مَطَرًا فانظُرْ كيْف كان عاقبةُ الْمُجْرمين** ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ **فلَمَّا جاء أَمْرُنا جعَلْنا عالِيَها سافلها وأَمْطرْنا عليْها حجارةً مِّن سجِّيلٍ مَّنضُود (٨٢) مُسوَّمةً عند ربِّك وما هِي مِن الظَّالمين ببعيد** ﴾[٤].

خامسًا: قوم شعيب ـ عليه السلام ـ:

وأيضًا كان الشرك بالله وعبادة الأصنام عبادتهم التي كانوا يألفونها ويعتنقونها بالإضافة إلى أخلاق شاعت فيهم اتخذوها دستورًا لحياتهم، يرونها مظهرًا من مظاهر طغيانهم، وسببًا لنماء ثروتهم، ذلك أنهم كانوا ينقصون الكيل والميزان، ويبخسون الناس أشياءهم، ويصدون عن سبيل الله، ويمنعون الناس عن الاستجابة لما فيه هدايتهم فعاقبهم الله ـ جل وعلا ـ بالرجفة ـ الزلزلة الشديدة ـ التي

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٨).

(٢) ألا وهي فاحشة اللواط.

(٣) سورة الأعراف: الآية (٨٤).

(٤) سورة هود: الآيتان (٨٢، ٨٣).

صاحبها صوت شديد فلم تبق في حي حياة ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ أي: خامدين هامدين موتى ليس فيهم حركة.

سادساً: معصية قوم فرعون وعقاب الله لهم:

وفرعون كفر بالله وطغى وتجبر، وأمر الناس بعبادته من دون الله، قائلاً لهم: ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾[1] وظلم من تحته من بني إسرائيل أشد الظلم، فقتل أبناءهم، واستحيا نساءهم، وأنزل بهم من البلاء ما لا يوصف، فأرسل الله إليه نبيه موسى ـ عليه السلام ـ يدعوه إلى عبادة الله وحده وترك الظلم، وأن يسمح له بإخراج بني إسرائيل من مصر كي يعود بهم إلى الأرض المقدسة ـ أرض آبائهم ـ ليعبدوا الله فيها، وليستردوها من أيدي العمالقة الذين طغوا فيها، فأبى وكذّب وعصى، فأراه الآيات الدالة على صدقه لكنه أصرّ على الكفر والتكذيب، فكانت نهايته الغرق في اليم هو وجنوده، وقد نَجي الله بدن فرعون من الغرق ليكون عبرة لمن لم يدركه الغرق من قومه ولمن يأتي بعدهم، قال تعالى: ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[2].

❊ ❊ ❊

(١) سورة النازعات: الآية (٢٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣٦).

معاصي بني إسرائيل وعقاب الله لهم

أولاً : جحدوا نعم الله عليهم؛ فبعد أن أنعم الله عليهم بنجاتهم من فرعون وخلصهم من الذل والاستعباد، وتقتيل الأبناء واستحياء النساء وإهلاك عدوهم - فرعون - أمام أعينهم طلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه من دون الله، قال تعالى: ﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون (١٣٨) إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون (١٣٩) قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين** ﴾[١].

ثانيًا : اتخاذهم العجل في أثناء غياب موسى - عليه السلام - لتلقي التوراة وعبادتهم له من دون الله، قال جل شأنه: ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين** ﴾[٢].

وقد عاقبهم الله - جل شأنه - على ذلك بعقوبتين هما: الغضب والذلة في الحياة الدنيا[٣] قال تعالى: ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين** ﴾[٤].

ثالثًا : تبديلهم ما أمرهم به الله من القول والفعل عند دخولهم الأرض

---

(١) سورة الأعراف: الآيات من (١٣٨) إلى (١٤٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٤٨).

(٣) انظر: ص (٥٥٦) من بحثنا هذا.

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٥٢).

المقدسة، وذلك أن الله أمرهم أن يقولوا: ﴿ حطّةٌ ﴾ أي: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزأوا وقالوا: حنطة في شعيرة، وأمروا أن يدخلوا الباب سجدًا فدخلوا يزحفون على أستاههم رافعي رؤوسهم، قال تعالى: ﴿ **وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين** ﴾[1].

وقد عاقبهم الله ـ عز وجل ـ على ذلك بأن أرسل عليهم رجزًا من السماء لاستمرارهم على الظلم والفسق، وقد اختلف في المراد بالرجز فقيل: الطاعون، وقيل: عذاب عام أهلك الظالمين منهم، قال تعالى: ﴿ **فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون** ﴾[2].

رابعا: نقضهم للميثاق الذي أخذه الله عليهم، قال تعالى: ﴿ **وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون** ﴾[3].

وقد عاقبهم الله ـ جل وعلا ـ لنقضهم الميثاق بأن رفع عليهم جبل الطور وصار كالمظلة على رؤوسهم ليحملهم على الاستمساك بذلك الميثاق، قال تعالى: ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون** ﴾[4].

خامسا: تعديهم على محارم الله، وذلك باصطيادهم في اليوم الذي حرّم عليهم الصيد فيه، وذلك أنهم اختاروا لأنفسهم يوم السبت للعبادة فابتلاهم الله ـ

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦١).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٢).

(٣) سورة البقرة: الآية (٨٣).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٧١).

جل وعلا - بأن تأتيهم حيتانهم في يوم سَبْتهم ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، قال تعالى: ﴿ **واسْئلْهُم عن الْقرْية الَّتي كانتْ حَاضرة الْبحْر إذْ يعْدُون في السَّبْت إذْ تأْتيهمْ حيتانُهُمْ يوْم سبْتهمْ شُرَّعا ويوْم لا يسْبتُون لا تأْتيهمْ كذلك نبْلُوهُم بما كانُوا يفْسُقُون** ﴾[1].

ولما أصروا على معصيتهم مسخهم الله قردة، قال تعالى: ﴿ **فلَمَّا عتَوْا عن ما نُهُوا عنْه قُلْنا لهُمْ كُونُوا قردة خاسئين** ﴾[2].

والمتمعن في تاريخ بني إسرائيل على مرّ السنين يجدهم أنهم لم يَدَعُوا أيَّ جناية أو جريمة إلا فعلوها؛ فقد تعدَّوا على مقام الألوهية الأسنى، وتجنَّوا على أنبيائهم بالقتل والقذف والاعتداء، وحرّفوا كتبهم، وأكلوا الربا، وأثاروا نار العداوة والتفرقة بين الأمم أينما حلوا أو ارتحلوا فحقت عليهم لعنة أنبيائهم وسخط ربهم، قال تعالى: ﴿ **لُعن الَّذين كفرُوا من بني إسْرائيل علىٰ لسان داوُود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وَّكانُوا يعْتدُون (٧٨) كانُوا لا يتناهوْن عن مُنكرٍ فعلُوهُ لبئْس ما كانُوا يفْعلُون (٧٩) ترىٰ كثيرا منْهُمْ يتولَّوْن الَّذين كفرُوا لبئْس ما قدَّمتْ لهُمْ أنفُسُهُمْ أن سخط اللَّهُ عليْهمْ وفي الْعذاب هُمْ خالدُون** ﴾[3].

* * *

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٦٦).

(٣) سورة المائدة: الآيات من (٧٨) إلى (٨٠).

معصية قريش والعرب ممن حولهم

كان معظم العرب وثنيين يعبدون الأصنام من الحجار[١] والأوثان والأنصاب بل كان بعض معبوداتهم الأشجار، ومن العرب من كان يعبد الملائكة ويسميها بنات الله، ومنهم من كان يعبد الجن زاعمًا أن بينها وبين الله نسبًا وصهرًا، قال تعالى: ﴿ **فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ **وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ** ﴾[٣].

وأنكروا البعث، والآيات على ذلك كثيرة، قال تعالى: ﴿ **أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** ﴾[٤] ولقد حرّموا على أنفسهم الكثير مما أباحه الله، وأحلوا كثيرًا مما حرمه الله، فضلاً عما كان منتشرًا بينهم من الفواحش والرذائل ووأد البنات كما أخبر عنهم ـ جل وعلا ـ: ﴿ **وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ** ﴾[٥] فبعث الله إليهم خاتم رسله ﷺ لهدايتهم

---

(١) يرى فريق من العلماء أن أول من أدخل الأصنام إلى بلاد العرب هو عمرو بن لحي الخزاعي، قدم بها من الشام أيام العماليق فنصبها على الكعبة ومنها هبل. انظر: السيرة النبوية للشيخ محمد أبو شهبة (١/ ٧٠).

(٢) سورة الصافات: الآيات من (١٤٩) إلى (١٥٤).

(٣) سورة الصفات: الآية (١٥٨).

(٤) سورة المؤمنون: الآيات من (٣٥) إلى (٣٧).

(٥) سورة التكوير: الآيتان (٨، ٩).

ولإخراجهم من الظلمات إلى النور، ورغم أن قريشًا كانت أشد عنادًا ممن سبقها، ورغم أنها استعجلت العذاب كما استعجل الأمم السابقة إلا أنه ـ جل وعلا ـ لم يعاجلهم بالعقوبة، ولم ينزل على هذه الأمة عذاب الاستئصال كما فعل بالأمم السابقة ويرجع ذلك إلى أمرين:

الأمر الأول: اهتمام هذا النبي الرؤوف الرحيم بأمته ورحمته بها؛ فإنه لم يفتر لسانه عن مناجاة ربه وتضرّعه وتوسله إلى ربه بأن يهدي قومه، ويجنبهم مزالق الغواية، والأدلة على ذلك كثيرة أسوق منها قصته ﷺ مع أهل الطائف عندما ذهب إليهم يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، فإنهم رجموه بالحجارة حتى أدمَوا عقبه وسال دمه الزكي على أرض الطائف، ثم غادرها رسول الله ﷺ وهو مهموم النفس مكلوم الفؤاد وهو يدعو ﷺ الدعاء المشهور: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحلَّ عليَّ سخطك، لك العتبى**[1] **حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[2] وتابع سفره ﷺ إلى مكة حزينًا فلم يستفق إلا وهو بقرن الثعالب[3].

وهنا نقف ونذكر بقية ما حدث من صحيح مسلم كما حدّثت بذلك السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ حين سألت رسول الله ﷺ قائلة: هل أتى عليكم يوم كان

---

(١) أي: الاسترضاء.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٦١، ٦٢).

(٣) أي: لم يفطن لنفسه وينتبه لحاله وللموضع الذي ذهب إليه إلا وهو بقرن الثعالب، وهو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد.

آشد من يوم أحد؟ فقال ﷺ : «**لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال**[١] **فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب**[٢] **فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا جبريل فناداني، فقال: إن الله ـ عز وجل ـ قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم**» قال ﷺ : «**فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين**»[٣] فقال رسول الله ﷺ : «**بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا**»[٤].

فهذه القصة توضح مبلغ رحمته ﷺ بأمته وقد جاء في بعض الروايات: «**فقال له ملك الجبال: أنت كما سماك ربك رؤوف رحيم**»[٥].

الأمر الثاني: أن الله ـ جل وعلا ـ ما كان ليعذب أمته ﷺ وهو بين أظهرهم لكرامته على ربه ـ جل وعلا ـ قال تعالى: ﴿ **وما كان اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأنت فيهم** ﴾[٦] وهذا هو الأمان الأول لهذه الأمة، وقد جعل الله لها أمانًا ثانيًا بعد التحاق نبيها ﷺ بالرفيق الأعلى ألا وهو الاستغفار، قال تعالى: ﴿ **وما كان اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وهُمْ يستغفرون** ﴾ واختُلف في تفسيرها؛ فقال بعضهم: المعنى: وما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون، فاللفظ وإن كان عامًا إلا أن المراد: وإن

---

(١) وهو من أشراف ثقيف من أهل الطائف.

(٢) قرن الثعالب: هو قرن المنازل وهو ميقات أهل نجد

(٣) جبلا مكة: أبو قبيس والذي يقابله قعيقعان.

(٤) صحيح مسلم وعلى هامشه شرح النووي، (١٢/ ١٥٤، ١٥٥).

(٥) انظر: السيرة الحلبية، (٢/ ٥١ ـ ٥٨) والسيرة النبوية للدكتور محمد أبو شهبة، (١/ ٤١٧).

(٦) سورة الأنفال: الآية (٣٣).

بعضهم، وقال آخرون: المراد: ما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفي علم الله أنه يكون لهم أولاد يؤمنون بالله ويستغفرونه، فوصفوا بصفة أولادهم وذراريهم، وقال بعض أهل العلم: دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب، وقال ابن عباس: كان فيهم أمانان: نبي الله والاستغفار، أما النبي فقد مضى وأما الاستغفار فهو باقٍ إلى يوم القيامة.

❊ ❊ ❊

خلاصة ما جاء في الفصل التاسع

١ ـ دعا نوح ـ عليه السلام ـ قومه إلى توحيد الله، والإيمان باليوم الآخر ومكارم الأخلاق، وتقوى الله واجتناب نواهيه.

٢ ـ ودعا هود ـ عليه السلام ـ قومه إلى توحيد الله، وتقواه ومكارم الأخلاق وأن يذكروا نعم الله وآلاءه.

٣ ـ ودعا صالح ـ عليه السلام ـ قومه إلى توحيد الله، وذكر نعمه وآلائه، والتحذير من الإفساد في الأرض.

٤ ـ ودعا لوط ـ عليه السلام ـ قومه إلى توحيد الله، ومكارم الأخلاق ولا يقطعون السبيل.

٥ ـ ودعا شعيب ـ عليه السلام ـ قومه إلى توحيد الله، وإيفاء الكيل والميزان، ولا يبخسون الناس أشياءهم، ونهاهم عن القعود على طريق الدين وأمرهم أن يذكروا نعم الله عليهم.

٦ ـ دعا موسى ـ عليه السلام ـ فرعون وقومه إلى توحيد الله، وترك الظلم، وأن لا يفسدوا في الأرض وأن يؤمنوا باليوم الآخر، ودعا بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده، وأن يذكروا نعم الله عليهم، ويحذروا من اتباع مسالك الهالكين. ومن التكذيب بآيات الله، ودعاهم إلى تقوى الله تعالى.

٧ ـ دعا رسول الله محمد ﷺ قومه إلى توحيد الله، والإيمان بالقرآن وما فيه، ودعاهم إلى مكارم الأخلاق، وحذرهم من مكائد الشيطان وفتنه، وأن يؤمنوا باليوم الآخر، أن يذكروا نعم الله عليهم.

٨ ـ تتشابه دعوة الأنبياء وتتحد في أربعة أمور : توحيد الله ـ ومكارم الأخلاق ـ وذكر آلاء الله ونعمه ـ والإيمان باليوم الآخر .

٩ ـ يتشابه رد المشركين على أنبيائهم في ستة أمور : تكذيبهم ما جاءت به الرسل من عند الله ـ إنكارهم بشرية أنبيائهم ـ تكذيبهم للبعث وعدم الإيمان باليوم الآخر ـ اتهامهم أنبياءهم بما يشينهم ويقلل من مكانتهم ـ طلبهم للآيات تعنتًا ـ طلبهم إنزال العذاب واستعجاله .

١٠ ـ كانت معاصي بني إسرائيل جحود نعم الله عليهم ، واتخاذهم العجل وتبديلهم ما أمرهم الله به من القول والفعل ، ونقضهم الميثاق وتعديهم على محارم الله ، وقد عاقبهم الله ـ تعالى ـ على معاصيهم بألوان من العذاب

١١ ـ قابل الله ـ تعالى ـ جميع الأمم السابقة على معصيتهم وكفرهم بالعذاب والانتقام ، إلا أمة محمد ﷺ . لم يستعجلهم الله بالعذاب مثلما استعجل غيرهم لأمرين :

* اهتمام هذا النبي ﷺ الرؤوف الرحيم بأمته ورحمته بها .

* أن الله لم يعذب قومًا ما دام نبيهم فيهم ، وهكذا كانت أمة محمد ﷺ ، ثم زادها الله بأن لا يعذبها ما داموا يستغفرون .

* * *

الصراع كما تراه وتصوره النظريات الحديثة

مقدمة:

نشأة النظريات القديمة والحديثة :

انصرف العقل البشري منذ فجر التاريخ إلى التأمل في حقيقة الوجود وما فيه من بدائع المخلوقات فضلاً عن التأمل في ذاته وأصله وماله، وقد سلك هذا التفكير طرائق ضمن ألوان من التخبط الفكري سرعان ما اتخذ ديانات وملاً ومظاهر فلسفية مختلفة انعكست على شكل معتقدات كثيرة اعتنقتها أمم وشعوب شتى، ولكن الحق ـ جل وعلا ـ لم يدع عباده يهيمون في متاهات الأهواء والتخيلات بل كان يبصرهم بحقيقة الوجود وحقيقة الإنسان ومنتهاه؛ قال تعالى: ﴿ **وإن مِّنْ أُمَّةٍ إلاَّ خلا فيها نذيرٌ** ﴾[1] وهكذا ظهر على صعيد الفكر الإنساني منهجان عن حقيقة الكون والإنسان والحياة:

أحدهما : التزم بما هو أصل الفطرة الإنسانية وأيدته الشرائع الإلهية.

والثاني : اجتمع على ركان الأوهام والخرافات والعصبيات والتخيلات التي نشأت تحت وطأة الحضارة والثقافة التي ترزح تحتها.

فكان لابد لهؤلاء أن يصلوا إلى نتائج فكرية واعتقادية وتختلف باختلاف العوامل فيما بينهم، ولكل وجهة هو موليها، ولا يسلم من الذلل والوقوع في الوحل إلا من تمسك بشرع الله الحنيف وبهداية العقل الصافي عن الأهواء والعصبيات.

---

(١) سورة فاطر: الآية (٢٤).

ولقد تخبط الفلاسفة على مدار التاريخ في رحلة البحث عن حقيقة الكون تخبطًا يختلف باختلاف بيئاتهم ومفاهيمهم ومقدرة عقولهم في القرب أو البعد عن جادة الصواب، وكان من أهم الفلاسفة وأخطرهم وأبعدهم عن جادة الصواب مَن جعل الصراع ـ التناقض ـ جزءًا أساسيًا في تكوين الكون، واعتبر آخرون أن الصراع ـ التناقض ـ هو الأصل في نشوء الكون، وقد بدأ الفيلسوف هيرقلط ـ ٦ . ق . م ـ في إيجاد أول مصطلح لهذه المفاهيم اعتمد عليه الغربيون والماديون بشكل خاص فيما بعد؛ يقول هيرقلط: «كل شيء يتغير ويجري ويتطور من حال إلى أخرى فهو في حالة صيرورة مستمرة ضمن ذاته»[1].

وكان هيرقلط وجماعته يردون على مَن كان يقول في ذلك الوقت: إن جميع الأشياء جامدة الذات والمحتوى فهي لا تتغير ولا تتحرك، وأطلق عليهم الميتافيزيائيين.

ولقد انتشر رأي هيرقلط بين العلماء والفلاسفة ولاقى قبولاً كبيرًا منهم، وتم تهذيب هذا الرأي على مرِّ السنين فقالوا في مرحلة تالية: إن كل ما في الكون ينقسم إلى قسمين:

١ ـ مادة: وهي كالأخشاب، والأحجار، والمعادن.

٢ ـ قوة: وهي كالكهرباء، والحرارة والحركة.

وكلا القسمين مختلفان وفي ذات الوقت متلازمان؛ لأن كل شيء يتغير ويتحرك ضمن ذاته وهذا هو القاسم المشترك، لكن اختلف الفلاسفة حول هذا التحرك؛ هل هو بقوة ذاته أو قوة كامنة خارجة عنه؟ لم يقرر الفلاسفة أي شيء في ذلك الوقت.

---

(١) انظر: المواقف للعضد الأيجي وشرحه للشريف الجرجاني، (٢/ ١٥١ فما بعد)؛ وشرح مطالع الأنوار للأصفهاني، ص (١٢٢، ١٢٣).

نظرة الفلاسفة في العصر الحديث إلى الصراع

• تنبيه:

قبل أن نشرع في عرض لبعض النظريات الحديثة نرى من الضروري أن نلفت نظر القاريء الكريم إلى حقيقة هي غاية في الأهمية، وهي أن البيئة التي نشأت فيها تلك النظريات هي بيئة بعيدة كل البعد عن الدين، وأكثر من ذلك أن أوروبا موطن ولادة تلك النظريات كانت معادية تمام العداوة للكنيسة والقائمين عليها، وهي لم تعرف الدين الصحيح المنزّل من عند الله، وإنما اعتنقت دينًا محرَّفًا ممزوجًا بالوثنية[1] لذلك كانت آراؤهم ونظرياتهم ـ كما ستلمس ذلك من خلال عرض لتلك النظريات ـ بعيدة كل البعد عن الحق، وكانت وبالاً على أصحابها فضلاً على أقوامهم ومَن تبعوهم.

ولقد اخترت لك نماذج من أبرزهم:

هيجل[2]: (١٧٧٠، ١٨٣١م):

فيلسوف ألماني، استخدم مبدأ النقيض كي يصل إلى هدفه الذي هو مجال

---

(١) من أراد التوسع في معرفة الحالة التي كانت عليها أوروبا والكنيسة ورجال الدين فليرجع إلى: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ/ محمد قطب ص، (٩ ـ ٣٣) وص (٥٣ ـ ٦٦).

(٢) هو أحد الفلاسفة المشهورين في العصر الحديث، ألماني، كان على درجة واسعة من الثقافة فقد درس الفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات والتاريخ والفنون والاجتماع، عُيّن أستاذًا بجامعة أيينا سنة ١٨٠١م والتقى هناك بفختي وشلنج، ثم عين أستاذًا بجامعة هيدلبرخ سنة ١٨١٦م فأستاذًا بجامعة برلين سنة ١٨١٨م حيث بلغ ذروة الشهرة والمجد، والتفت حوله التلاميذ النابهون، شغل منصبه إلى وفاته، وكانت وفاته بالكوليرا، وله سبعة مؤلفات، وأسلوبه غاية في التجريد والتعقيد، انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم، ص (٢٦٤).

الفكرة، عمّق بيان العلاقة الجدلية بين ما سماه الفكر المطلق، والمادة المصنوعة والمخلوقة ليثبت من خلال ذلك أن المادة كلها إنما هي ثمرة الفكر المطلق، وإنما يعني بالفكر المطلق قدرة الله ـ عز وجل ـ[١].

فقد وصل إلى الحق لكنه لم يصرح به، فحاول أن يغلّف الحق بما سماه الفكر الكلي أو الوجود المطلق، يقول الدكتور البوطي في شرح نظرية هيجل هذه:

«إذن فالفكر الكلي هو مظهر تجلي الموجودات في مرحلتها المثالية الأولى ثم تتجسد في وجودها الخارجي صورة مطابقة للأصل في مرحلتها الثانية، وهذه الموجودات في مرحلتها الفكرية الأولى تكون متشابكة متآلفة بحيث لا وجود لمعنى التشاكس والتناقض فيما بينها حتى إذا برزت إلى ساحة الوجود الخارجي ظهرت حواجز التناقض والتضاد بين كثير منها، ثم إن الفكر لا تنقطع علاقته بها عندما تتحول منفصلة عنه إلى عالم المحسوسات الخارجية بل يظل الفكر يأخذها ويردها في منهاج تطويري لا نهاية له . . . يأخذها إليه مشروعًا للتحسين والتطوير، ويردها إلى الوجود الخارجي تجربة نافذة، ثم لا يلبث أن يأخذها إليه ثانية ليضيف إليها تطويرًا جديدًا، ويعيدها إلى ساحة الوجود الخارجي في طور أكمل . . . وهكذا دواليك»[٢].

وإليك توضيح فلسفة هيجل:

لقد اكتشف هيجل على حسب حدسه الفلسفي أن الجدلية[٣] الحركة المتغيرة ممتدة من أعمق أعماق الشعور ودنيا المجردات لتنتهي إلى علاقة ما بين الماهية والجوهر.

---

(١) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، د/ محمد سعيد رمضان البوطي ص (٩٩ـ١٠٢).

(٢) نقض أوهام المادية الجدلية، للدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي، ص (٢٠).

(٣) الجدلية = التناقص = الصراع.

فالجدلية عند هيجل قانون لابد من اعتباره في حركة الفكر والروح، ولابد من اعتباره في القول، ولابد من أخذه بعين الاعتبار بصدد فهم الطبيعة، وتتمثل في ثلاثة أطوار:

١ ـ أطروحة: نظام الشيء في ذاته.

٢ ـ نفي: نظام الشيء من أجل ذاته.

٣ ـ نفي النفي: نظام الشيء من أجل ذاته وفي ذاته.

إن رحلة الكشف عن أي حقيقة تكمن في ساحة الطبيعة أو تتجلى في علياء الروح إنما تبدأ ـ بنظر هيجل ـ من أطروحة مجردة تنشأ في أعماق الفكر، وهو الوجود المطلق أو نظام الشيء في ذاته ـ أي: نظام الشعور ـ ثم تنعكس إلى الواقع لتتحول إلى ما هيَّة، إذ تتولد من ذلك الوجود المطلق حقيقة ذات حدود وتعينات خارجية، وتتشخص وتتبين بواسطة نقائضها التي تلامس بعضها البعض، وهذا هو نظام الشيء من أجل ذاته، ثم ترد هذه الماهية إلى الفكر لتتركب من جديد مع الوجود الذهني فتغدو مفهومًا، وتلك هي مرحلة نظام الشيء من أجل ذاته وفي ذاته معًا.

تلك هي أطوار الحركة التناقضية الثلاثية عند هيجل، وهذه الحركة في حد ذاتها تتكرر وتتقدم في كل مرة بتركيب أفضل من الأول وأغنى منه؛ إذن هيجل يقرر أن الحركة تبدأ في الوجود المطلق متمثلة في الفكر متجهة إلى سائر مظاهر الموجودات الخارجية وإلى سائر الأحاسيس والقيم العلوية ثم عائدة إلى منطلقها الأول. فهيجل يخبرنا عن النظام الذي يسير الكون وفْقَهُ طبقًا لما يراه حدسه الفلسفي في ذلك[1].

ما المحور الذي تدور عليه فلسفة هيجل؟

---

(١) انظر: نقض أوهام المادية الجدلية، د. محمد سعيد رمضان البوطي ص (٢٥ ـ ٢٨).

إن المحور الذي تدور حوله فلسفة هيجل هو أن وجود الشيء على الصعيد الخارجي إنما هو ثمرة الإبداع الفكري له، فالفكر يبدع الشيء صورة ومثالاً ثم يدفعه إلى الصعيد الخارجي حقيقة مطابقة لذلك المثال، ونقول على وجه التقريب: كما أن الوجود الأصلي للشجرة كامن في نواتها، والوجود الأصلي للبناء كامن في خارطته، والوجود الأصلي للأنغام التي تنبعث من الآلات المشاهدة كامن في مدونة اللحن ـ النوتة ـ كذلك الوجود الأصلي لأي شيء من الموجودات التي نراها من حولنا كامن في جذورها التي أشرقت قبل كل شيء مثالاً وتصوراً في ساحة الفكر [١].

إن رسالة الإنسان الكامل عند هيجل هو الفيلسوف الباحث عن الحكمة الخفية في الكون، وتتطلب منه ألا يقف وراء المظاهر فقط بل يجب عليه أن يغوص ليعرف الأسباب كالذي يقف في سذاجة أمام فرقة موسيقية يعزف أفرادها إيقاعات وألحان تبدو أنها متخالفة ومتعارضة، ولو أراد أن يتجاوز حدود هذه المظاهر لعرف أن مدونة اللحن ـ النوتة ـ تتجلى فيها الوحدة الحقيقية الكاملة، ويتبدى فيها معنى الوجود المطلق الذي يحيا في فكر كل عازف على حدة ليقودهم جميعًا ـ كُلاً حسب طريقته ـ نحو غاية متسقة متكاملة.

ومن هنا فعلى الإنسان المتأمل لمنثورات العلوم والقوانين لهذا الكون عليه أن يقف أمام مدوَّنة اللحن العلوي الكامل لمعزوفة هذا العالم [٢].

والخلاصة:

إن هيجل ـ كما أسلفت ـ عمق بيان العلاقة الجدلية بين ما سماه الفكر المطلق، والمادة المصنوعة والمخلوقة ليثبت من خلال ذلك أن المادة كلها إنما هي ثمرة الفكر المطلق، وإنما يعني بالفكر المطلق قدرة الله ـ عز وجل ـ.

---

(١) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص (٩٩).

(٢) بتصرف من كتاب: نقض أوهام المادية الجدلية ص (٢٨، ٢٩).

الجدلية في منظار الماركسية (*)
كارل ماركس (**)

يقول الماركسيون: إن هيجل وضع الديالكتيك ـ أي: الجدلية ـ ولكن مُنكّسًا على رأسه، فجاءت الماركسية وأقامته منتصبًا على قدمه؛ إن الخط العريض الهام الذي طرأ على نظرية هيجل من وجهة نظر الماركسيين هو ما يلي:

١ ـ إذا كانت الأشياء في صيرورتها وتطورها الخارجي انعكاسًا لما يجري في الفكر أو الروح عند هيجل فإنّ ما يجري في الفكر والروح ليس إلا انعكاسًا لصيرورة الأشياء وتطورها في الخارج عند ماركس ورفاقه، أي أن الفكر والروح أصل عند هيجل والمادة من ثمراته بينما المادة هي الأصل عند ماركس والفكر والروح من ثمراتها (!).

أيهما الذي أقام النظرية مستوية على قدميها؟ وأيهما الذي نكَّسها؟

٢ ـ ترى الماركسية أن جدل الأطروحة ونفيها ونفي النفي لا يتم بين الفكر

(*) انظر كتاب: تاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم، ص (٣٦٨)، وموقف الإسلام من نظرية ماركس، ص (٦١١، ٦١٢).

(**) كارل ماركس هو مؤسس المادية التاريخية، وحاخام الشيوعية، وفيلسوفها الأكبر النافخ في نارها حتى أشعلها ثورة عالمية؛ ولد من أبوين يهوديين، وكان جده حاخامًا يهوديًا كبقية آبائه وأجداده، درس القانون في جامعة برلين ثم هجره إلى الفلسفة وحصل على الدكتوراه فيه سنة ١٨٤١م، طُرد من الجامعة وضويق فيها بسبب اتهامه بالإلحاد فاضطر إلى الهجرة إلى باريس، كان عصبي المزاج أناني الطبع لئيمًا حقودًا دوّن كتبه الكبرى وهي: نقد الاقتصاد السياسي، ونداء إلى الطبقات العاملة في أوروبا، وكتابه الأشهر رأس المال، ويتألف من المادية التاريخية والجدلية على طريقة هيجل ممزوجًا بالشيوعية الإلحادية التي هي نتيجتها.

والمادة كما يقرر هيجل بل يتم بين المادة ذاتها دون أي عمل خارجي من الفكر أو غيره، وذلك وحده هو سر تطور الكون والموجودات المختلفة التي لا تعدو أن تكون من جنس المادة أو من ثمراتها، والدستور الفلسفي الجديد ـ الماركسي ـ يقرر أن الذرَّة مثلاً وهي أصغر أجزاء المادة محشوة بالوحدات المادية المتناقضة المتصارعة؛ بعضها صائر إلى الفناء وبعضها متجدد صاعد نحو البقاء، ومن صراع ما بينها يتمسك وجودها ويمتد نموها.

ويتحقق هذا التناقض في العلوم بأشكال مختلفة؛ فهو مثلاً في الرياضيات ضمن الزائد والناقص، وفي الميكانيكا ضمن الفعل ورد الفعل، وفي الفيزياء بالتيار الموجب والتيار السالب، وفي الكيمياء باتحاد وتفكك الذرات، وفي علم الاجتماع بصراع الطبقات.

ويتحرك صراع الأضداد هذا ضمن الإيقاعات الثلاثة التي قررها هيجل؛ فالأطروحة هنا كامنة في أحشاء المادة ذاتها، أي: خارجة ومستقلة عن الوعي الإنساني، والنفي الأول يتجلى في الانعكاسات التي تأتي ردًا أو نتيجة للانبثاق، وتختلف هذه الانعكاسات في أشكالها، ونفي النفي يتجلى في بلوغ تلك الانعكاسات ذروتها، إنها عندئذ عائدة إلى الأطروحة حيث تتحول الأطروحة إلى حقيقة غنية ثابتة.

ثم إن هذه الحقيقة الجديدة لا تلبث تحت صراع الأضداد أن تنبثق منها أطروحة جديدة أكثر تقدمًا وغناء من الأولى في حركة لولبية نحو التطور المستمر الذي لا انقضاء له، وأبرز مثال يعتز به الماركسيون لبيان زعمهم هذا هو ما يلي:

إن انبثاق حبة الحنطة في الأرض عن عوامل داخلية متجهة نحو الإثبات هو ما نعنيه بالأطروحة، فإذا انعكس عن تلك العوامل النبات الأخضر المتصاعد فهو الطباق، أي: النفي الأول، ثم إذا عاد النبات سنبلاً متراكبًا من الحنطة فذلك هو التركيب، أي: نفي النفي، ثم إن حبات تلك السنبلة ما تلبث هي الأخرى أن

يتحول كل منها إلى أطروحة من جديد، وهكذا دواليك.

ذلك هو لبُّ الجدلية والباعث لحركتها وتطورها في نظر الفلسفة الماركسية، إلا أنه بالإضافة إلى هذه النظرية الأساسية هناك قوانين أخرى تؤمن بها المادية الجدلية، وتعتبرها أيضًا سرَّ فاعليتها ومن أسس دعائمها، وإليك هذه القوانين:

القانون الأول: قانون تحول الكم إلى كيف:

تقرر المادية الماركسية أن التغيرات التي تطرأ على كمية الشيء تؤثر أخيرًا في تغيير كيفياته، مثال ذلك: الحجارة التي تتراكم شيئًا فشيئًا في مجرى النهر، تتحول عند حد معين من تطورها الكمي إلى كيفية جديدة لم تكن من قبل؛ إذ إنك تنظر فترى ركام الحجارة وقد أصبح سدًا.

ومثال آخر: الماء الذي تشتد سخونته تطرأ عليه تغيرات تتعلق بالكم إذ ترتفع درجة حرارته من (٥٠°) إلى (٦٠°) إلى (٧٠°) وهكذا ما إن تتجاوز المائة حتى يتحول الماء إلى بخار، أي: إلى كيفية أخرى جديدة.

إلا أن التغير في الكيفية لا يتحقق بتدرج تبعًا لما يتم في التغير الكمي عقلاً، وإنما يكون تغيُّر الكمية في نظر الماركسية بمثابة التهيؤ والإعداد لولادة كيفية جديدة منتظرة على شكل قفزة، وهذه القفزة تختلف باختلاف الطبيعة التي هي موضوع التغيير؛ فما يحدث في الطبيعة الميتة غير العضوية يختلف تمامًا عما يتم في الطبيعة الحية على حد تعبيرهم[1].

القانون الثاني: قانون وحدة الأضداد وصراعها:

لقد أثبتت المادية الماركسية حسب فهمها أن كل شيء متغير متطور، لكن ما هو العامل الأساسي لهذا التطور؟ تجيب الماركسية عن هذا السؤال بأن مصدر

---

(١) القضايا الأساسية في الماركسية لبليخانوف، ص (٣٧)
ما هي الديالكتيك؟ تأليف ع. كورسانوف، ص ٤٣.

التطور في كل شيء إنما هو أضداد موجودة متزاحمة ضمن الشيء الواحد بل ضمن الذرة الواحدة، والعامل المباشر للتطور هو الصراع الذي يتم بين هذه الأضداد ضمن وحدات المادة.

القانون الثالث: نفي النفي:

والحقيقة أن هذا القانون هو في الوقت ذاته يعد الركن الثالث من الدائرة الجدلية ذات الإيقاعات الثلاثة ـ أطروحة، ونفي، ونفي النفي.

هذا القانون يمتاز من وجهة الفلسفة الماركسية بما يلي:

أ ـ الاستمرار الذي لا توقف له، فما من كيفية إلا وتحمل في باطنها بذور نسخها بما هو أتم وأفضل.

ب ـ والنسخ لا يعني القضاء على كل العناصر بل هو نفي من شأنه أن يحتفظ بأفضل خصائص القديم، ويمتاز عليه بخصائص لم تكن موجودة.

فنفي النفي الجدلي الماركسي يفترض النفس والمحافظة على حد سواء[1].

هكذا تتكامل عملية نفي النفي في كل دورة بشكل أفضل وأغنى، وترى الماركسية في نظرية التطور وانتخاب الأصلح التي طرحها داروين أكبر ثروة في مجال الاستشهاد على صحة هذا القانون.

إن هذه القوانين الثلاثة هي أركان المادية الجدلية الماركسية، ولهذه القوانين مستلزمات لابد منها:

أولاً: أن المادة هي أساس الوجود وينبوع الحقائق:

وذلك هو حجر الزاوية في الفلسفة المادية بكل ما لها من عمق وشمول فالمادة هي أول الموجودات وأقدمها، والمادة موجودة خارج وعي الإنسان ومستقلة عنه وأسبق في وجودها من وجود الوعي.

(١) موجز المادية الديالكتيكية، لبودوستنيك وياخوت، ص (١٠٦).

يقول لينين[١]: «إن المادة تثير الإحساس بالدماغ والأعصاب والشبكية، ولا يرتبط وجود المادة بالإحساس، فالمادة هي الشيء الأول، والإحساس والفكر والشعور هي المنتجات الأرقى للمادة المنظمة بشكل معين»[٢].

ثانياً: ملازمة المادة للحركة:

تقول الماركسية: «إن الحركة هي نمط وجود المادة في أي زمان وأي مكان، ولم توجد أبدًا مادة بلا حركة، ولا يمكن أن توجد»[٣].

ثالثاً: سرمدية العالم ووحدته:

تقول الماركسية: إن المكان بلا نهاية، والزمان سرمدي، والعالم ينبسط في جميع الجهات بلا نهاية، ولم تكن له بداية ولم تكن له نهاية.

فالمادية عند الماركسية قديمة أزلية، وهي منذ فجر وجودها الذي لا أول له تتحرك وتتطور، فالجديد من المادة هو أشكالها أما ذاتها فتغوص إلى أغوار سرمدية لا أول لها . . .[٤].

رابعاً: الوعي هو وظيفة لمادة عالية التنظيم هي الدماغ:

وهذا يعني لا وجود للوعي بدون مادة.

خامساً: تفاعل السبب والمسبب:

يقول أنجلز: «يوجد في المجتمع تفاعل عام قوامه أن السبب والنتيجة يتبادلان الأماكن على الدوام، إنّ ما يكون في بعض ظروف المكان والزمان سببًا يصبح في

(١) لينين: (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤م) اسمه الحقيقي فلافمير ايلبتشي لينين، اعتنق الماركسية ١٨٩٤م وشارك في التنظيمات الشيوعية، أهم كتبه: تطور الرأسمالية في روسيا.

(٢) المادية والمذهب التجريبي النقدي، للينين، ص (٤٣).

(٣) انظر: المادية والمذهب التجريبي، للينين، ص (١٧١).

(٤) انظر: الدفاتر الفلسفية، للنين، (١/ ٧٧).

ظروف أخرى نتيجة، والعكس بالعكس، فبين السبب والنتيجة إذًا جدلية مستمرة.

وتؤكد المادية الجدلية أن حركة الأسباب والمسببات لا تنبثق إلا من قوانين الطبيعة ذاتها ومقتضياتها الكاملة فيها، والتي تجمع بين الضرورة والمصادفة في آن واحد فلا يسمى بالعلة الغائية في تفاعل الأسباب والمسببات بعضها لبعض، والماديون يهزأون من كل تفسير لحركة الطبيعة يستهدف القول بالغائية»[١].

سادساً: علاقة المعرفة ـ الحقيقة النسبية ـ بالحقيقة المطلقة:

يقول الماديون الجدليون: إن الحقيقة المطلقة القائمة بذاتها إنما تتركب من حقائق نسبية، وإنما تتركب الحقائق النسبية من تراكمها وتكدسها في الذهن، ولا يكون ذلك في لحظة خاطفة بل من خلال طريق للمعرفة معقد تاريخي لا نهاية له، والبشرية لم تنهه ولم تنجزه[٢].

إن الفكر البشري لا يمكن أن يحيط بالحقيقة المطلقة التي تدل عليها أجزاؤها، كيف يمكن للفكر أن يؤمن بما لم يصل إليه؟ من أين يعرف أن من وراء هذه الظواهر النسبية حقيقة مطلقة؟ لا يمكن لنا التوسع في معرفة الإجابة عن هذه الأسئلة، ومن أراد ذلك فعليه مراجعة كتاب نقض أوهام المادية الجدلية ص (١٩٠).

سابعاً: المادية التاريخية:

وهي من أخطر النتائج المترتبة على المادية الجدلية المتعلقة بالطبيعة وأحكامها، فإن الفكر الإنساني طبقًا للنظرية المادية الجدلية شكل من أشكال المادة، وكذلك الروح من بعض ثمار المادة ونتائجها، فلابد أن تكون هذه المرحلة التاريخية التي قطعها الإنسان إلى اليوم منذ بدء الخليقة هي أيضًا من ثمرات المادة وآثارها، إذًا

---

(١) انظر: الدفاتر الفلسفية، (١/ ٥٧).

(٢) المادية والمذهب التجريبي النقدي ص (١٢٦) والموجز في المادية الديالكتيكية ص (١٨٤).

فلابد أن تخضع حركة التاريخ الإنساني للقانون ذاته الذي خضعت له المادة في أطوارها وتقلباتها، إنه قانون صراع الأضداد بدءًا من الأطروحة فالنفي فنفي النفي.

وإليك هذا المثال العلمي الواقعي حسب الفلسفة المادية الجدلية.

الأطروحة : تبدأ منها حركة المجتمع الإنساني، فقوى الإنتاج التي يملكها الإنسان ووسائله التي استفادها من الطبيعة أرغمت الناس على الدخول في علاقات إنتاجية متبادلة، وذلك من أجل العيش وتطوير أسباب الرفاهية في الحياة.

ومع مضي الزمن تزداد وسائل الإنتاج تقدمًا وتعقدًا مع بقاء علاقات الإنتاج متخلفة ـ ملكية جماعية تحت سلطان العشيرة أو القبيلة ـ وبذلك تظهر بذور التناقض بين وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج حيث لا يلبث أن ينفجر أخيرًا هذا الصراع بظهور الإقطاع وهو النفي الأول.

إلا أن هذا الطور الجديد للملكية يحمل في أحشائه بذور نقيضه وهي طبقة المستعبَدين والمستغَلّين، حيث تثور هذه الطبقة ـ المستبعدين ـ على سيطرة الإقطاع وتقضي عليها فيكون ذلك إيذانًا بتحقيق نفي النفي وتعود الملكية إلى حالتها السابقة.

إلا أن هذه الأطروحة الثلاثية وحسب النظام المادي الجدلي لا يلبث أن يصبح أطروحة جديدة يتولد عنها نفي جديد ونفي نفي جديد، يكون أسمى وأغنى، أو بتعبير آخر تحل البرجوازية ـ الطبقة الكادحة المستعبدة ـ مع الزمن محل الإقطاع ويعود التناقض بين البرجوازية والطبقة الكادحة المستعبَدة التي كانت في يوم ما درعًا لها، وفي اللحظة المناسبة يحل عصر الانتقال إلى عصر التركيب الجديد؛ إنه عصر الشيوعية المطلقة حيث تذوب الفوارق الطبقية نهائيًا وإلى غير رجعة،

ويتم إنقاذ البشرية من الظلم الاجتماعي كله، وتزول الحاجة إلى رقابة الدولة وقيادتها، فتنهي الدولة نفسها، وآنذاك تهدأ حالة التاريخ البشري بعد طول صراع ويلقي عصاه آمنًا مطمئنًا في ظل ظليل من الشيوعية الوارفة[1] (!!).

❊ ❊ ❊

(١) انظر: كتاب نقض أوهام المادية الجدلية، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص(٣٠-٥٠).

نقد المادية الجدلية

إن أركان النظرية المادية الماركسية ـ كما ذكرنا ـ ثلاثة قوانين :

أولاً : قانون تحول الكَمِّ إلى كيف .

ثانياً : قانون وحدة الأضداد .

ثالثاً : قانون نفي النفي .

ومن مستلزمات المادية الماركسية ما ذُكر آنفًا وهي :

أولاً : المادة هي أساس الوجود وينبوع الحقائق .

ثانياً : ملازمة المادة للحركة .

ثالثاً : سرمدية العالم ووحدته .

رابعاً : الوعي هو وظيفةلمادة عالية التنظيم هي الدماغ .

خامساً : تفاعل السبب والمسبب .

سادساً : علاقة المعرفة ـ الحقيقة النسبية ـ بالحقيقة المطلقة .

سابعاً : المادية التاريخية .

وستقتصر هذه الدراسة على نقد القوانين الثلاثة الرئيسية أما المستلزمات فأحيل القاريء إلى كتاب نقض أوهام المادية الجدلية للدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي ؛ من ص (٩٧ ـ ٢٤٢) .

هذا، وبعد أن فرغنا من استعراض النظرية بدءًا من أصولها إلى محطتها الجدلية الماركسية سنشرع في نقد قوانين الفلسفة المادية الماركسية، ولن أتطرّق لتطوراتها المختلفة بدءًا من هيرقلط مرورًا بهيجل ؛ لأن آراءهم قد تحولت إلى

قاعدة أقيمت على أسسها الفلسفة الماركسية التي سننقدها بإذن الله بدقة وأمانة، وليس أمامنا إلا ميزان واحد وضعه الإسلام بأصلَيْه الكتاب والسنة، هو ميزان المنطق العلمي وبراهينه الراسخة.

أولاً: قانون تحول الكم إلى كيف:

شرح مفهوم الكم والكيف: من المعلوم أن أي شيء يتكون من جوهر وظواهر؛ الجوهر هو ذات الشيء، والظواهر تجلياته وخصائصه الواضحة للعيان، هذه الظواهر تخضع لأحد مفهومين:

الكم: وهو ما يحدده العدد أو الحجم أو القياس أو الوزن، والكم ينقسم إلى قسمين: كم متصل، وكم منفصل.

* الكم المتصل: وهو تعبير عما يحققه الحجم أو القياس من التراكمات والأحجام.

* الكم المنفصل: تعبير عما يحدده العدد مما يؤثر الزيادة عليه أو النقص منه.

أما مقولة **الكيف**: فهو كاللليونة والبرودة والحرارة.

إن المادية الجدلية تقرر أن التغيرات الطارئة على كمية الشيء تؤثر أخيراً في تغيير كميته، هذا التقرير صحيح إلى حد ما ولكنه يحوي مغالطات كثيرة، أما كونه قانوناً عاماً لكل شيء فهذا غير صحيح البتة وإليك التفصيل: إن الكم كمّان كما ذكرنا؛ فالكم المنفصل لا يبدع عن طريق الزيادة أو النقصان أيّ كيفية ذات قيمة يمكن أن تنشأ من إضافة عشرة أحجار إلى خمسين حجراً، نعم إلا في حالة واحدة، إذا تدخل الوعي الإنساني فإنه بإمكانه أن يستغل تزايد الكم المنفصل لاستخراج كيفية جديدة ذات أهمية، فإذا ازداد عدد المستضعفين فلا يمكن أن يتحول كمهم إلى كيفية جديدة إلا إذا حكّموا وعيهم فإنهم حينئذ يستفيدون منه.
نستنتج من هذا كله ما يلي:

أولاً : إذا لم يظهر عامل خارجي من شأنه أن يحدث خللاً في تفاعل الأسباب مع المسببات لن تحقق القفزة بل تظل الأمور سائرة بتدرج ورتابة .

ثانياً : ليس حتمًا أن تتجه هذه القفزة حيثما وجدت إلى الأعلى بل قد تتجه إلى الأسفل ، فالقانون غير صحيح .

مثال ذلك : زيادة عدد السكان بدون موارد إنتاجية ، إنها زيادة كمّ ومع ذلك فهي قفزة إلى الأسفل لا إلى الأعلى لأنها تتمخض عنها مجاعات وصراعات[١] .

ثانياً: قانون وحدة الأضداد:

وهو قانون باطل ؛ فمن أحكام الضدين أنهما لا يمكن أن يجتمعا تحت ظل من وحدة الموضوع والمحمول والزمان والمكان وقيود الصفة ، أي : فالسواد القاتمّ والبياض الناصع لا يمكن أن يلتقيا في ذات واحدة أو في حيز مكاني واحد . وكذلك إذا عرفنا أن اجتماع الضدين في حيز واحد أو في زمان واحد كالليل والنهار أو في صفة واحدة كأن يكون الشيء أبيض وهو في نفس الوقت أسود ، لا يمكن أن يكون ذلك بحال من الأحوال . فحينئذ بطل قانون اجتماع الضدين الذي يقول به الماركسيون[٢] .

ثالثاً: قانون نفي النفي:

وهو ما يعبر عنه بالتركيب ، ففي مثال الحنطة المذكور آنفًا[٣] لم تحقق عمليات الزرع المتلاحقة خلال آلاف السنين أي تطور للحنطة ، فأين الصعود اللولبي الذي ذكره قانون نفي النفي؟ كذلك في صراع الطبقات تقرر النظرية أن نهاية العالم

(١) انظر : نقض أوهام المادية الجدلية الدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي ص (٣٤ ، ٣٥) وص (٦٧) وص (٧٣) .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) انظر : ص (٧١٠ ، ٧١١) من هذا الفصل .

تكون في قيادة الشيوعية المطلقة وتحت ظلها، أي بتعبير آخر: يتوقف القانون الثالث للتطور ـ قانون نفي النفي ـ وينسفونه من جذوره، وإلا فحسب ادعاءاتهم يجب أن تسقط الشيوعية المطلقة ببذور أضدادها من الداخل ويظهر تركيب أرقى وأغنى.

ويتبين لنا من ذلك أن تلك القوانين لا تعتمد على أي أصل علمي راسخ[١] وسوف نعود مرة أخرى إلى نقد الفلسفة الماركسية من الناحية العقائدية في الفصل القادم ـ إن شاء الله ـ عند حديثي عن موقف الإسلام من الصراع[٢].

* * *

(١) باختصار وتصرف من العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، د/ محمد سيعد البوطي.

(٢) انظر: ص (٧٣٩) إلى (٧٤٩) من بحثنا هذا.

نظرية داروين

داروين ـ صاحب نظرية التطور والارتقاء ـ

لقد نالت نظرية التطور والارتقاء من الشهرة والانتشار ما لم تنله نظرية حديثة في هذا العصر، ولعل السبب يرجع إلى أنها تدور حول خلق العالم وتكوين الإنسان والروح، ولكونها كانت بمثابة العون لدعاة الإلحاد وسلاحًا لهم في مجال الدعوة إلى الإلحاد والتحلل والقول بإنكار الخالق.

عرض موجز لأهم نظريات التطور:

يجب أن نعلم في البداية أنها ليست نظرية واحدة تلك الفكرة التي تتصور أن الإنسان تصاعد من مخلوقات أدنى، ولكنها سلسلة نظريات متلاحقة متخالفة، كلها يفرض أن الحياة تطورت على وجه هذه الأرض تطوراً آليًا، ثم تتفرق عن بعضها في طرائق مختلفة لتفسير هذا التطور وتحليله، وستعرض باختصار وإيجاز لأهم هذه النظريات وهي تتلخص في ثلاث نظريات:

١ ـ النظرية اللاماركية.

٢ ـ النظرية الداروينية.

٣ ـ النظرية الحديثة للعالم الهولندي Hugode Veries.

أولاً: النظرية اللاماركية:

النظرية اللاماركية نسبة إلى لامارك العالم الفرنسي المولود سنة ١٧٤٨م، وهو زعيم الجناح الإلحادي في هذه النظرية، وهو أول من نادى بنظرية التطور، ولكن في غمرة النقاش والجدال الذي دار حاميًا حول«داروين» وما سجله من

بحوث بشأن نظريته؛ نسي الناس لامارك واضعَ النظرية وأصبحت تُعرف فيما بعد بنظرية داروين.

وتتلخص نظرية لامارك في أن الأنواع الحيوانية غير ثابتة على حالها، ومردّ ذلك هو الظروف المناخية المختلفة التي تتقلب على كل منها كالإقليم والغذاء وطراز الحياة وحالة الطقس والطبيعة؛ ذلك لأن اختلاف شيء من هذه العوامل يؤثر في اختلاف العادات ويؤثر بدوره في اختلاف الوظائف والأعمال واختلافهما لابد أن يؤثر مع الزمن في اختلاف الشكل والأعضاء إذن فمحور نظريته هو الظروف والعوامل المناخية المختلفة التي تؤثر في نظره على تطور الأنواع وليس لها أي علاقة بالأصلح والقول بأن البقاء للأصلح.

ولقد دعم لامارك نظريته هذه ببعض من الأمثلة المحسوسة المشاهدة وجد فيها الدليل لما يقول، فالفقاريات التي تتغذى بدون مضغ تضمر أسنانها وتصبح مع الزمن خفية في اللثتين. والحوت وآكل النمل مثالان أيضًا على ذلك، والخلد الذي يعيش في الظلام يتمتع بعينين صغيرتين جدًا كل تلك الأمثلة تدل في نظره أن العوامل الطبيعة والمناخية لها أثر واضح في تغير المعالم. وهو ليس إلا دليل بدوره على السير في الطريق إلى اختلاف الأنواع.

وهكذا سرعان ما شاع في الأذهان ذلك التصور الذي تصوره لا مارك واستقبله الناس بالقبول والرضا لا سيما من أولئك الذي يعيشون في فراغ فكري تجاه مسألة اليقين بوجود مبدع للكون كله، وراحوا يفسرون به الحياة الإنسانية العجيبة المعقدة وتطورها من حال إلى حال خلال الأجيال والقرون المنصرمة.

❊ ❊ ❊

نقد نظرية لامارك

لقد وضعت نظرية لامارك تحت مجهر البحث والنقد العلمي من قبل العلماء والمفكرين وإليك تلك الانتقادات.

١ ـ الانتقاد الأول:

إن الأمثلة التي استشهد بها لامارك قرر فيها أن سير التطور يتجه إلى فائدة الحيوان وضمان استمراره في عمله الوظيفي وتكيفه بأكبر قدر مع أحوال المناخ والطبيعة. غير أن الواقع لا يؤكد ذلك ولا يثبته، فإن أنواعًا كثيرة من الحيوانات قد انقرضت وبادت تحت وطأة تلك العوامل المناخية والطبيعية وقد كان من مقتضى افتراضات لامارك أن تتطور تلك الحيوانات وفقًا لاختلاف الأحوال الطبيعية حتى تتأقلم وتتناسق معها بحيث تضمن لنفسها استمرار بقائها النوعي على أقل تقدير ومن أمثلة الحيوانات التي انقرضت ولم يتطور وفقًا لاختلاف الأحوال الطبيعية الديناصور.

٢ ـ الانتقاد الثاني:

إن أكثر ما لاحظه لامارك من مظاهر التطور التي اعتمدها أساسًا لبحثه ودليلاً على دعواه إنما يجري ضمن سلسلة الإفراد بعامل الوراثة، أي: من قبل أن يلتقي الحيوان مع الظروف أو البيئة التي تُلجئه إلى نوع من التطور أو التشكل للانسجام معها.

فجلد الطفل يكون منذ ولادته أشد غلظًا على أخمص القدمين منه في أي جهة أخرى من أجزاء الجسم، والجمال لها ثفنات في سويات رسغ اليدين والمرفقين بحيث تطابق السطح والتي تَتحمل وطأة الوزن عندما يستنيخ البعير،

غير أن هذه الثغنات موجودة في ولد الناقة منذ ولادته، ولا يمكننا في مثل هذه الحالة أن نعلل الأمر بتكيف سابق تأثر بالظروف والأحوال سيما وقد تبين أن تفاصيل الهيكل الحيواني منوط باقتران الصِّبْغيات والناسلات بكل نوع على حدة، ودعوى أن مانشاهده اليوم من قوانين الصبغيات لم يكن على هذا النحو الوراثي في غابر الزمن زعم غيبي بحت يتنافى مع الواقع المستمر المشاهد[1].

الانتقاد الثالث:

إن هذه الفرضية التي طرحها لامارك إنما تعالج مسألة أخرى أضيق بكثير من موضوع البحث، وهو مدى احتمال أن يكون سائر أنواع الحيوانات المختلفة قد تطور تطوراً نوعيًا كاملاً لا يحده تبدل أشكال وألوان وأعضاء بل يأتي على التكوين الحيواني كله من حيث هو، بدءًا من الغريزة والفكر إلى الشكل والشعر والمخالب والأظفار.

أما التحليل الذي تذهب إليه النظرية الاماركية بالنسبة لظاهرة الأشكال والأعضاء الجزئية تحت سلطان النوع الواحد فهو لا يفسر إلا جزءًا يسيراً جدًا من موضوع البحث الأساسي الذي لا يزال يتطلب تحليلاً وشرحًا يجيبان عن أسئلة كثيرة تفرض نفسها في هذا المجال.

هذه الانتقادات الثلاثة لم تجد أي إجابة عنها، وهكذا طُوي بساط هذه النظرية عن الالتفات إليه والاهتمام به بعد أن خُدع بها الكثير، وقامت على أنقاضها نظرية أخرى هي نظرية داروين فما هي خلاصتها؟

---

(١) انظر: التطور والإنسان، للدكتور حسن زينو، ص (١٧).

ثانياً: النظرية الداروينية:

داروين[١] (١٨٠٩ - ١٨٨٢)

في عام ١٨٧١م أخرج داروين كتابه المشهور المسمى بـ (أصل الأنواع والانتخاب بالنسبة للجنس) حاول أن يرد التطور إلى تغير آلي بحت بحيث يكون مستقلاً قدر الإمكان عن الأسباب الغائبة، ولكنه اتخذ مع ذلك من مبدأ اختيار الأصلح سببًا للتطور.

خلاصة نظرية داروين :

يرى داروين أن ثمة صفات قد لا تكون ذات أهمية في الظاهر، يتفاوت الأفراد في اتصافهم بها، ولكنها ذات أثر فعال في المحافظة على صاحبها وترشيحه لمستوى أفضل، وعندما يدخل هؤلاء الأفراد في صراع مع الطبيعة من أجل الحياة يجري اصطفاء طبيعي يؤدي إلى بقاء أشد الأفراد كفاءة وصلاحية للبقاء بما تمتاز به من تلك الصفات، أو بما تمتاز به من الحصول على أعلى الرتب منها.

وهكذا فإن التفوق الذي يتمتع به الحيوان من حيث هو نوع بالنسبة للأنواع الأخرى، أو من حيث هو فرد بالنسبة للأفراد الأخرى.

وبتعبير أوضح: إن بقاء بعض الأنواع وانقراض بعضها يرجع إلى ظاهرة

---

(١) هو تشارلز داروين، صاحب نظرية التطور العضوي المعروفة، ولد بويلز في بريطانيا، وألّف كتابه: (أصل الأنواع) بعد رحلة طويلة دامت خمس سنوات في دراسة عالم الأحياء على الطبيعة، وقد اطلع خلال هذه الرحلة على كثير من أسرار عالم الحيوان والنبات، وقد أحدثت نظريته انقلابًا فكريًا في معظم حقول المعرفة الأوروبية نظرًا للاستغلال العظيم الذي قام به المغرضون والهدامون من الملحدين ولا سيما اليهود، وأخيرًا ألف كتابه: أصل الإنسان ١٨٧٤ وقد خصص هذا الكتاب لموضوع التطور الإنساني. بتصرف من موقف الإسلام من نظرية ماركس ص (٦٠٨).

الصراع من أجل البقاء، فالبقاء يكون للنوع المكافح الأفضل، وأما النوع الخامل الذي لا يكافح من أجل البقاء فإنه يضمر ثم يضمحل ثم ينقرض[١].

وفي غمرة هذا التسابق الذي تم منذ أقدم العصور في عالم الأحياء ونتيجة لتفاوت الصفات الكامنة في أنواعها الكثيرة - وهي الطاقة الوحيدة لذلك التسابق - ظهر سلم الدرجات الذي صنف الأحياء إلى أنواع مختلفة ومتفاوتة شتى، وليس الإنسان في سلم هذه الدرجات إلا واحدٌ من فريق تلك الحيوانات البسيطة التي بدأ السباق فيما بينها ضمن دائرة نوعية واحدة، فكان من حسن حظه أن كان له من الصفات الكامنة ما تقدم به صعداً في حلبة ذلك الصراع والسباق ورشحته ليتبوأ أسمى درجات الحياة من حيث تخلَّفَ زملاؤه عنه في درجات متفاوتة شتى.

ولكن على أي دليل اعتمد في الذهاب إلى أن الإنسان كبقية الحيوانات الأخرى تطور من نوع واحد؟

أدلة داروين على أن الإنسان كبقية الحيوان تطور من نوع واحد:

أولاً: استمد داروين دليله على ما يقول من علوم التشريح المقارن والأجنة ومن التراكيب الأثرية التي توجد في الإنسان، فقد وجد مثلاً أن أجزاء الهيكل العظمي للإنسان يمكن أن يُقارن بمثيله في بعض الحيوانات الأخرى، وكذلك الأمر بالنسبة للجهاز العضلي أو العصبي حتى تركيب المخ وأجزائه يمكن مقارنتها بين الإنسان والحيوان واستخراج كثير من أوجه الشبه بينهما.

ثانياً: كما اعتمد على الأدلة التي استمدها من علم الأجنة، فقد لفت نظره أن عملية تكوين الجنين في الإنسان ما هي إلا استعادة لأطوار الحياة في حيوانات أقل مرتبة، كما أن المراحل الأولى لتطوير الجنين تتشابه تشابهًا كبيرًا في الإنسان

---

(١) كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة للشيخ/ عبد الرحمن حبنكة الميداني ص (٣١٨).

والحيوان؛ فقد لاحظ مثلاً أن عَجُز الجنين ينتهي بما يشبه الذيل في جنين كل من الإنسان وحيوانات أخرى، وبتطور الجنين يختفي الذيل في جنين الإنسان ويبقى في الحيوانات الأخرى.

ثالثًا : استدل داروين بمظاهر من الترابط النفسي بين الإنسان وبعض الحيوانات مثل ظاهرة الوجدان والشعور والانفعالات النفسية[١].

* * *

(١) بتصرف واختصار من: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، د/ محمد سعيد رمضان البوطي، ص (٢٣٥، ٢٣٦).

نقد الداروينية

وإليك بعض وجوه النقد العلمي الموجهة من العلماء للنظرية الدروانية.

١ ـ إن الواقع الذي نشاهده ونلمسه على صعيد الحياة يتنافى بشكل واضح مع ما أسماه داروين بقانون الاصطفاء والبقاء للأصلح، فإن الكون لا يزال بعد الذي قطعه من عمره المديد يَعُجُّ بالأصلح وغير الصالح من شتى صنوف الحيوانات بدءاً بالهلاميات إلى القردة فالإنسان، ولو كان قانونه صحيحًا لكان من أبسط مقتضياته الواضحة أن يتجاوز موكب السباق الحيواني نقطة البدء على أقل تقدير مهما فرضنا البطء في حركة التطور والاصطفاء، ولكن ها هي نقطة البدء لا تزال تفور بحيواناتها الضعيفة المختلفة، ولا تزال تتمتع بحياتها وخصائصها المعيشية كما كان يتمتع بها السابقون مثْلاً بمثل.

٢ ـ إن كل ما رصده الإنسان من معارف عن التاريخ والتاريخ الطبيعي دل على أن كل نوع من أنواع الحيوانات على اختلافها قوة وضعفًا تطرأ عليه خسائر ضخمة مع الزمن، لا تحت سلطان ما يسميه داروين البقاء للأصلح بل بسبب عواد وعوامل طبيعية مختلفة تتقلب عليها، وهي حقيقة مشاهدة لا تنكر، فالموت والنجّاة من الموت كثيرًا ما يكون أمرهما إلى المصادفة المجردة[1] لا إلى صفات خاصة في الفرد.

فالمستنقع العظيم الذي يجف مثلا، والموجة الهائلة التي تتدفق على الرمل،

---

(١) جريًا على مفهوم الذين لا يعتقدون وجود الخالق ـ عز وجل ـ وأن الطبيعة هي التي يعود عليها أمر هذا الكون ومما فيه. ولا شك أنه ليست هناك قيد أنملة تتحرك أو تسكن إلا بتقدير العزيز الحكيم.

والفيضانات والسيول الجارفة تبيد الألوف من الحيوانات وتنجو من الموت طائفة أخرى، ومن المعلوم أنه لا الموت اصطفى لنفسه الضعفاء ولا النجاة اختارت لنفسها الأقوياء بل الأمر كله جاء على سبيل المصادفة[١] وهذا يتعارض مع فكرة أن البقاء للأصلح وأن التطور يسير لمصلحته.

٣ ـ إن الموت من حيث هو ظاهرة عامة يتناقض مع ما يراه داروين من أن الطبيعة تسير مع جماعة الأحياء حسب قانون الاصطفاء والبقاء للأصلح، فأي بقاء يتم للأصلح إذا كان الموت يتربّص به؟ على أن الدراسات الإحصائية التي أثبتها علماء هذا الشأن تبيّن أن الموت يداهم أول ما يداهم الأفراد الذين قد يرتفعون عن النمط العادي حيث يبقى بعد ذلك نمط المتوسط وما دونه وهي نتيجة تعاكس نظرية داروين وتنبؤاته[٢].

٤ ـ عملية الاصطفاء هذه عملية غائية يتدخل فيها الفكر والتدبير وليست حركة آلية، سواء اعتبرنا الاصطفاء أمرًا صناعيًا أو طبيعيًا، فكيف يمكن إسناد هذا الاصطفاء إلى الطبيعة أو الحركة الآلية؟ إن السير الطبيعي والآلي لا مناص من أن يفسر ـ مهما تنوعت التعابير عنه ـ بالعشوائية المجردة، وأنّى للعشوائية أن تلتزم بالسير وراء قانون الاصطفاء والبقاء للأصلح؟

وبتعبير آخر: إن انتخاب الأصلح لابد أن يعتمد على قانون يميز الأصلح عمن دونه ويعلل ذلك ويوجهه، فعلى أي قانون تستند الطبيعة في انتخابها؟

٥ ـ إن وقاية الحياة من أن يتسلل إليها ضعيف لا تتوفر فيه مجموعة الصفات الصالحة أيسر على الطبيعة ـ لو كان الأمر بيدها ـ من أن تذهل عنه، حتى إذا تسلل إلي الحياة وأخذ قسطه منها وراح يشارك أمثاله في القيام بكافة الوظائف الحياتية

---

(١) انظر: علم الحياة الحيوانية للدكتور/ عبد الحليم سويدان ص (١٣٢).

(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٢.

انتهت إليه فجأة ثم راحت تلتقطه وأمثاله من بين سائر الحيوانات لتقضي عليه ولتصحح في محوه خطئتها التي ما كان لها أن ترتكبها، أي: إذا كان هذا الضعيف محكومًا عليه بالتخلف فالزوال لأنه ليس من صنف الصالح أو الأصلح وقدّرنا أمر إيجاده عائدًا إلى الطبيعة، فلماذا أوجدت الطبيعة هذا الذي تريد اليوم أن تقضي عليه أو تؤخره عن الركب؟ أما إن قلنا إن أمر إيجاده لم يكن إليها فأحرى أن لا يكون إليه أيضًا أمر تهذيب الكون بإعدامه والقضاء على خطيئة وجوده.

٦ ـ إن في أصناف الحيوانات ما يتمتع بصفات ترشحها لتتبوأ الصدارة في سلسلة أنواع الحيوانات ـ لو أن الطبيعة راعت فيها ذلك ـ ولكن هذه الحيوانات لم تترقَّ فوق مرتبتها التي هي فيها وبقيت دون مستوى حيوانات أخرى؛ لو صحت نظرية داروين فيها لسبقتها، وقد عرض داروين لهذا الاعتراض الوارد على نظريته في كتابه أصل الأنواع، ولم يعلق عليه بأكثر من قوله: «إننا لا ينبغي لنا أن نعثر على جواب محدود معين على هذا السؤال إذا ما عرفنا أننا لا جرم نعجز عن الإجابة عن سؤال أقل من هذا تعقيدًا»[١].

وهكذا تكاثرت الانتقادات على نظرية داروين من كل صوب فكان مصيرها في ميزان النقد العلمي شرًا من اللاماركية التي سبقتها[٢].

ثالثًا: الداروينية الحديثة:

غير أن العالم الهولندي Hugode Veries أقبل فأقام على أنقاض تصوّرات داروين هذه نظرية ثالثة في تفسير نظرية التطور المفروضة بشكل إجمالي سلفًا، سرعان ما سميت بالداروينية الحديثة.

---

(١) أصل الأنواع لداروين ص، (٤١٢).

(٢) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، للدكتور البوطي، ص (٣٣٥ـ٣٣٩).

ويتلخّص فرق ما بين نظرية داروين وهذا العالم الثاني أن داروين أفحم نفسه في متاهات محرجة لا مفر منها عندما أعطى الطبيعة القدرة على تصعيد أجناس الحيوانات إلى المستوى الأفضل، وهو عمل يدخل في صميم ما يسميه العلماء بالعلة الغائية، والعلة الغائية من أرقى وظائف الفكر والعقل.

أما هذا الثاني فقد قرر أن الإنسان كغيره من الكائنات الحية يخضع للتطور الجزئي والنوعي، ولكن عن طريق الطفرة لا عن طريق السعي نحو الاصطفاء وانتخاب الأصلح؛ فمن خلال طفرات نوعية أدركت الإنسان منذ أحقاب طويلة مرت أتيحَ له أن يرقى صعداً إلى هذه المرتبة التي وصل إليها.

غير أن مآل هذا التصور الثالث لم يكن خيراً من مآل كل من الفرضيتين السابقتين فقد وجهت لها هذه الانتقادات الآتية:

١ ـ أن التطور المفروض الذي هو أصل البحث تطور تقدمي، ولا ريب إذًا هو التصور المقترح لتدرج أصناف الحيوانات، فهل من شأن الطفرة أن تنطوي على هذا التطور التقدمي المطرد؟

المعروف أن الطفرة دائمًا تنطوي على صفات الانتقاص والاضطراب، والموت أكبر مثال على ذلك، فكيف يفسر التطور التصاعدي المطرد هذا على أساس من هذا العامل الانتفاضي المضطرب؟

أي أن العاقل لابد أن يسأل: لماذا لا تتجه الطفرة يومًا ما في مسيرها بالركب الحيواني نحو الانتكاس إلى الخلف بدلاً من الصعود الشاق الدائب إلى الأمام ما دام أن المسألة طفرة وليس ثَمّ سائق يتجه به إلى أي هدف؟

٢ ـ إذا كانت الطفرة هي التي تتحكم فيما يطرأ على الكائن الحي من تغير وتطور، فأي موجب يبقى لافتراض نشأة الكائنات الحية من أصل واحد؟ إذ من المعلوم أن هذا الافتراض إنما لاقى قبولاً من أصحابه بناءً على ما لاحظوه من

الشبه التصاعدي بين هذه الكائنات، وهي الملاحظة التي جعلتهم يقولون بمبدأ الاصطفاء وانتخاب الأصلح، فإذا نُسف هذا المبدأ بافتراض الطفرة فلابد من تجاوز ظاهرة التشابه التصاعدي بين أصناف الأحياء؛ إذ ليس من علاقة بينها وبين افتراض الطفرة وتصوُّر أنها هي عامل التطور[1].

وأخيرًا الكشف العلمي الذي قضى على فرضيات التطور كلها، وقد كانت هذه الانتقادات كلها تتجه إلى هذه النظريات المتناسخة قبل أن يكتشف العلماء ما في داخل نواة الخلية الحيوانية، وهو الذي يسمونه اليوم بالكروموزومات أو الصبغيات، أما اليوم وقد دخل هذا الكشف طور الحقيقة العلمية التي لا مرد لها فقد قام هذا الكشف سدًا محكمًا في وجه النظريات الثلاث التي درسناها، بل في وجه أي نظرية أخرى تفرض تطور الإنسان من كائن حيواني أقل شأنًا؛ ذلك لأن الصبغيات تنطوي على شريط حُشدت عليه رموز شتى تدل على الطبائع والصفات والأشكال الإنسانية التي ستتفتح في حياة هذا الكائن الإنساني.

والدلالة الهامة التي ينطوي عليها هذا الكشف العلمي هي أن سائر ما يمتاز به الإنسان أو الحيوان من المقومات الإنسانية أو الحيوانية ـ سواء في مظهره أو طبائعه أو أخلاقه ـ نابعة من أصل تكوينها الذاتي وليست طارئة عليه بفعل التطور المزعوم الذي اعتمد على مجرد التشابه التدريجي في الأنواع.

وبعد، فتلك هي أبرز النظريات التي تلتقي تحت مظلة دعوى أن الكائنات الحية بما فيها الإنسان قد تطورت من بعضها، ومن عجيب الأمر حقًا أنك في الوقت الذي تجد علماء هذا الشأن يتسابقون إلى تحطيم هذه النظريات والتنبيه إلى دلائل الثغرات ومظاهر الخطأ فيها تجدهم يعودون من سباقهم المتعب هذا ليقولوا: ولكن لابد أن التطور النوعي خلال القرون هو التفسير الوحيد لنشأة الإنسان وبلوغه هذا الأوج من الملكات العجيبة التي تميز بها؛ يعرقون ويتعبون في

(١) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، للدكتور البوطي ص (٢٣٩ ـ ٢٤١).

تحطيم كل نظرية تنادي بالتطور ثم ينكفئون عى أعقابهم ليقرروا في استكانة وذل أن القول بالتطور هو الملاذ الوحيد.

وليس هذا الوصف يقتصر بالذات على العلماء الأجانب لكنه للأسف هناك مَن تأثروا بمناهج أولئك من المسلمين اسمًا، فراحوا يسيرون خلف أولئك كظلال شاحبة، فما هو تفسير هذا الموقف المتناقض العجيب[١]؟

تفسير ذلك أن أصحاب هذه النظريات وأتباعهم من الغربيين وأولي النزعة المادية في تفسير أصل الوجود ينطلقون إلى دراسة هذه الظاهرة من يقين سابق لم يضعوه قط موضع ريبة أو بحث ألا وهو اليقين بأن الطبيعة هي التي نسجت هذا الوجود الكوني.

حتى الذين يستريحون منهم إلى القول بوجود الله ضمن حدود اليقين بأن قوة خفية لابد أنها أبدعت هذا الكون لا يرقى إيمانهم هذا إلى درجة من القوة بحيث يفرض عليهم إزاحة سلطان الطبيعة من طريق الخلق والإبداع فهو إيمان تقليدي لا أهمية له.

فكان من جرّاء ذلك أنهم وضعوا أنفسهم لدى محاولة البحث عن تفسير علمي صحيح لنشأة الإنسان أمام استقراء ناقص، أي أنهم فرضوا عدة احتمالات لنشأة الإنسان وأبعدوا أنفسهم عن واحد منها، ألا وهو احتمال أن يكون أمر نشأته بيد خالق مبدع، صوّره كما شاء، ثم قال له: كن فكان كما أراد، فلقد شطبوا وألغَوا هذا الاحتمال سلفًا ثم راحوا ـ وقد حصروا أنفسهم في باقي الاحتمالات ـ يتلمّسون الدليل العلمي في كل منها الواحد إثر الآخر، ولكن الدليل العلمي شطب على احتمالاتهم كلها، فكان مقتضى هذا الانغلاق الذي

---

(١) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، تأليف الدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي، ص (٤٢١ ـ ٤٤٣).

حكموا على أنفسهم به أن يختاروا التمسك بأحد تصورين اثنين: إما أن يغمضوا فكرهم وبصائرهم ثم يقرروا أن الطبيعة تمخضت فجأة عن كائن حي يتمتع بأعلى درجات الفهم والإدراك، ويطمح إلى السماء بقوته وسلطانه ويهيمن على خير الأرض، وإما أن يريحوا أنفسهم عناء البحث في كيفية نشأته ويكتفو، بالقول إجمالاً بأنه تطور عن كائنات أقل شأنًا خلال أحقاب طويلة من الدهر وإن لم ندر كيفية ذلك.

لا ريب أن المنطق النسبي - أي بالنسبة لمن حصر فكره ضمن احتمالات استقرائية ناقصة، وأبى أن ينطلق من الصفر في فرض كل الاحتمالات - يدفع هؤلاء الناس إلى الميل للقول بالرأي الثاني، فهو على علاَّته وغموض السبيل العلمي إليه أقرب إلى قبول الذهن من تصور أن الطبيعة أوجدت فجأة هذا الكائن العجيب على سبيل المصادفة وطبقًا للعوامل العشوائية[1].

غير أن هذا المنطق النسبي جهل عظيم وانخداع خطير، وسأجلي لك الرد على هذه النظرية من القرآن الكريم والسنة المطهرة في الفصل القادم.

* * *

(١) انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، تأليف الدكتور/ محمد سعيد رمضان البوطي، ص (٣٤٣-٣٤٤).

خلاصة ما جاء في الفصل العاشر

١ ـ يرى الفلاسفة القدماء أن كل ما في الكون هو : إما مادة (كالأخشاب والأحجار والمعادن) أو قوة (كالكهرباء والحرارة والحركة).

٢ ـ يرى هيجل أن المادة كلها إنما هي ثمرة الفكر المطلق ـ قدرة الله ـ.

٣ ـ يرى ماركس أن المادة هي الأصل، والفكر والروح من ثمراتها، وهناك قوانين تؤمن بها المادية الجدلية وهي :

* قانون تحول الكم إلى كيف ـ قانون وحدة الأضداد وصراعها ـ قانون نفي النفي.

٤ ـ من مستلزمات قوانين المادية الجدلية الماركسية ما يلي :

* المادة هي أساس الوجود وينبوع الحقائق ـ وملازمة المادة للحركة ـ وسرمدية العالم ووحدته ـ والوعي هو وظيفة لمادة عالية التنظيم هي الدماغ ـ وتفاعل السبب والمسبب ـ وعلاقة المعرفة ـ الحقيقة النسبية ـ بالحقيقة المطلقة ـ والمادة التاريخية.

وكل هذه القوانين ومستلزماتها لا تقوم على أي أصل علمي راسخ.

٥ ـ أهم نظريات التطور : النظرية اللاماركية والنظرية الداروينية، والنظرية الحديثة، للعالم الهولندي، وكلها نظريات مردودة مرفوضة.

* * *

الفصل الحادي عشر

موقف الإسلام من الصراع

ويتضمن

الرد على النظريات الحديثة

الفصل الحادي عشر
موقف الإسلام من الصراع
ويتضمن الرد على
النظريات الحديثة

تمهيد:

ويشتمل هذا البحث على ثلاثة جوانب :

أ ـ الجانب العقائدي : وفيه الرد على قضية الإلحاد.

ب ـ الجانب الاجتماعي : وفيه توضيح قضية نظام الطبقات.

جـ ـ الجانب الاقتصادي : وفيه توضيح قضية حق التملك.

تمهيد:

كل من يتمعن في الأسس التي احتوت عليها الشريعة الإسلامية يجد أنها تتضمن مجموعة من الأحكام الاعتقادية التي تخاطب في الإنسان عقله ووجدانه، وترشده إلى معرفة الله والإيمان به وبوحدانيته إيمانًا لا يقبل الشك، كما أنها تتضمن مجموعة من أحكام العبادات التي تدعم صلة الإنسان بربه، وتزكي نفسه، وتسمو بروحه، وإلى جانب ذلك نجد مجموعة أخرى من الأحكام والمبادئ التشريعية كالمبادئ والقيم الأخلاقية التي تنظم أمور المجتمع تنظيمًا عادلاً متوازنًا بما يؤدي إلى تخليصه من كل أسباب الصراع أو الشقاق أو الانحراف، وهذا يعني أن الإسلام يعتبر نظامًا شاملاً لسلوك الإنسان في جميع شئون الحياة، وهذا الشمول لا يقبل الاستثناء أو التخصيص فهو شمُول كامل بكل معاني الشمول، وسنتناول هذا البحث من ثلاثة جوانب، سالكين مسلك الاختصار تجنبًا للإطالة.

أولاً: الجانب العقائدي:

سنقتصر على قضية الإلحاد:

إن الإسلام فوق ما اشتمل عليه من مبادئ خلقية سامية هو في ذاته ـ كما أسلفت ـ دين العقل، فما من أمر جاء به إلا وكان موافقًا للعقل يدركه ويصدقه، ويذعن له ما دام غير معتكر بهوى غالب أو شهوات مسيطرة، فعقيدته هي الواحدانية لله ـ تعالى ـ في ذاته وفي صفاته، وخلقه وإبداعه أمر هو حكم العقل المستقيم، حام حوله الفلاسفة الأقدمون، وليس في إدراك تلك الوحدانية صعوبات تعوق العقل أو تمنع بل إنها واضحة غير معقدة، يصل إليها العقل إذا خلا من الأوهام ولم ينزلق في الوثنية أو المادية.

والسورة الكريمة ـ التي نحن بصدد دراستها ـ بينت لنا نماذج من الأمم السابقة إلى عهد خاتم الأنبياء نبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وكيف أن

الله بعث إليها رسله مبشرين ومنذرين ودعاة إلى الخير والحق والسلام، فكان منهم المعارضون المنكرون ومنهم المطيعون المصدقون، فهذه سنة الله في خلقه؛ فعلى عهد كل رسول أرسل برسالة الله، كان المؤمن والكافر، وكان المهتدي والضال، وكان المتقي والفاجر، وكان المتواضع والمستكبر المتبع لغواية الشيطان.

وفي العصر الحديث تختلف وتتنوع أساليب الكفر والضلال، وإن كانت تختلف في مسمياتها لكنها تتفق جميعها في رفض كل معاني الحق والفضيلة، فتطالعنا أشهر النظم وأوسعها أفقًا وأبعدها عن منهل الحق وأشدها انغماسًا في الكفر والإلحاد والضلال، ألا وهي النظرية الشيوعية التي اعتمدت في أساسها على إنكار وجود إله لهذا الكون، والقضاء على كل الأديان الموجودة في الأرض باعتبارها في نظرهم خرافات يتوارثها الأبناء عن الآباء، كما اعتمدت النظرية الشيوعية على أن المادة هي التي شكلت نفسها وما تزال تتطور حسب تفاعلات معينة؛ فالسموات في اعتقادهم بما فيها من كواكب متحركة ونظامها الدقيق الذي لا يتغير منذ مئات الملايين من السنين، وتعاقب الليل والنهار ليست في عقيدتهم من خلق الله، والأرض وما عليها من إنسان وحيوان ونبات وجبال وهضاب وسهول وبحار وأنهار كل هذا في نظرهم كان نتيجة لتفاعلات مادية.

وسنكتفي بنقد الفلسفة الماركسية دون التطرق لنقد فلسفة هيجل وذلك لأن ماركس ـ وكما أسلفنا عند عرض النظريات ـ قد عمد إلى نظرية هيجل عن الجدل بين المادة والفكر المطلق فمسخها وجعلها علاقة بين أجزاء المادة نفسها، وحذف الفكر المطلق الذي جعله هيجل مصدر الخلق والتطور؛ أي بعبارة أوضح: إن كل ما في الكون من موجودات هو من خلق الطبيعة، وذلك نتيجة لتفاعلات أجزاء المادة بعضها ببعض وليس هناك أي اعتبار لخالق الكون ـ جل جلاله ـ تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

لكنَّ سؤالاً واحدًا يُقوّض هذه العقيدة الماركسية من أساسها، والسؤال

يقول: لو قُدِّر لواحد من هؤلاء ولنفرض أنه ماركس مثلاً، لو كان يسير في أرض قاحلة جرداء مترامية الأطراف الفسيحة رأى من بُعد بناء شامخًا في وسط هذه الأرض التي لا أثر للحياة فيها، وحينما بلغه وجده مصنعًا مجهزًا بكل ما تتطلبه التقنية الحديثة من أجهزة إلكترونية، وآلات حاسبة دقيقة، وتمديدات كهربائية، وأبراج للمياه، ومكائن ومعدات صناعية تعمل في نظام دقيق ودقة إنتاجية مدارة وفق أدق الدراسات الاقتصادية الحديثة، فماذا يا ترى يدور في لحظة هذه المفاجأة في فكر ماركس؟ هل يعتقد والحالة هذه أن هذا المصنع وجد نتيجة للتفاعلات المادية، وأنه لم يكن نتيجة عمل قام به مجموعة من المهندسين والحدادين والكهربائيين والفنيين وغيرهم؟

إذا كان يعتقد أن الطبيعة أوجدته فهو بين أمرين: إما أنه مختل الشعور تمامًا، أو أنه معاند لا يعترف بالليل بأنه ليل ولا بالنهار أنه نهار!!

وإذا اعتقد أنه كان نتيجة جهود كبيرة بذلت من مهندسين وعمال فنيين، وأن عامل الصدفة لا مجال له هنا ففي هذا هدم للعقيدة الماركسية القائمة على الاعتقاد بأن التفاعلات المادية هي مصدر الخلق والتطور، وهنا نتساءل مع ماركس: لماذا تعتقد أن هذا المصنع الشامخ لم يكن من فعل الطبيعة وإنما هو من عمل الإنسان، ولا تعتقد أن هذا الكون بكل ما فيه مما نعلمه وما لا نعلمه من عمل خالق له وهو الله؟

سؤال لا نكاد نجد له جوابًا عند الشيوعيين إلا المكابرة والعناد والارتماء في أحضان الطبيعة وإسناد كل مقومات الحياة إليها، وما عرفوا أن الطبيعة هي ذاتها مخلوقة عاجزة عن أن تخرج قيد شعرة عما أراد الله لها أن تكون عليه، وما عرفوا أن كل ذرة في هذا الوجود وما تحويه من أسرار إنما هي دليل على وجود خالق لها.

لقد تعرف ذلك الأعرابي[1] على إله هذا الكون من محسوسات وآيات كونية

(١) هو: قصيّ بن سعيد الأيادي.

حوله، وهو أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولم يكن فيلسوفًا أو أستاذًا في إحدى الجامعات، فعندما سئل كيف عرفت الله؟ قال: يا سبحان الله إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

ويلخص هذا القول النظرية الثابتة لدى جميع الفلاسفة والتي تتضمن قانونًا بديهيًا من البديهيات وهي أن كل عمل منظم له هدف لابد له من موجود؛ فالساعة عمل منظم هدفها ضبط الوقت لا يوجد مكابر يقول إنها وجدت بالصدفة، والطائرة عمل منظم هدفها اجتياز المسافات الطويلة والتي كان يقطعها المسافر في أسابيع بل في شهور، فتجتازها الطائرة في سويعات ولربما دقائق ولا يوجد مكابر يدعي وجودها بالصدفة، وهناك آلاف الأمثلة الحسية بين أيدينا تنطق ببداهة هذا القانون.

فإذا طبقنا هذا القانون على الكرة الأرضية وما حولها من أجرام المجموعة الفلكية لأدركنا أنه لابد أن يكون لنشأة هذا الكون من خالق، يقول عالم الطبيعة فرانك ألن[1]: «لو أزيحت الأرض إلى ضعف بُعدها الحالي عن الشمس لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية، وقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول، وتضاعف تبعًا لذلك طول فصل الشتاء وتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض، ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هي عليه الآن لبلغت الحرارة التي تتلقاها الأرض أربعة أمثال، وتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس، ولآلت الفصول إلى نصف

(١) فرانك ألن: ماجستير ودكتوراه من جامعة كورنل، أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا (١٩٠٤ ـ ١٩٤٤) أخصائي في أبصار الألوان والبصريات الفسيولوجية وإنتاج الهواء السائل، وحائز على وسام توري الذهبي للجمعية الملكية بكندا.

طولها الحالي إذا كانت هناك فصول مطلقًا، ولصارت الحياة على سطح الأرض غير ممكنة»[١].

ويقول عالم الطبيعة فرانك ألن: «إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صورًا عديدة لا يمكن تفسيرها عى أساس المصادفة أو العشوائية؛ فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار، وهي تسبح حول الشمس مرة كل عام فيكون في ذلك تتابع الفصول . . .، ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير يزيد على ٥٠٠ ميل، ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة إلينا . . .، والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات، حيث يمكن أن يتكاثف مطرًا يحيي الأرض بعد موتها، والمطر مصدر الماء العذب ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة . . .»[٢].

ويقول أيضًا عالم الطبيعة فرانك ألن: «أما الشمس المستعرة، والنجوم المتوهجة، والأرض الغنية بأنواع الحياة، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذًا حدثٌ من الأحداث، ومعنى ذلك أنه لابد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، عليم محيط بكل شيء، قوي ليس لقدرته حدود، ولابد أن يكون هذا الكون من صنع يديه»[٣].

---

(١) انظر كتاب: الله يتجلى في عصر العلم تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعات الأرض، مبحث: نشأة العالم، هل هو مصادفة أو قصد؟ كتبه فرانك ألن عالم الطبيعة البيولوجية ص (١١ ـ ١٥).

(٢، ٣) المرجع السابق.

كل هذه التنظيمات الدقيقة المعجزة لها هدف، وهدف هذا العمل المعجز هو وجود الكائن الإنساني عليه، إذن لابد لهذا العمل من موجد حسب القانون السابق، ألا وهو رب العباد، والذي استدل عليه الأعرابي بفطرته السليمة وتوصَّل إليه هذا العالم الأمريكي - فرانك ألن - وغيره بما أتيحت لهم من دراسات عميقة في الطبيعة وما تحتويه من أسرار.

* * *

القرآن الكريم
استدل على وحدانية الله ـ تعالى ـ بالعلم والنظر

لقد استدل القرآن الكريم على وحدانية الله ـ تعالى ـ بالعلم والنظر لا بالفرض والوهم؛ فترى الآيات الكثيرة التي تدعو إلى النظر في المخلوقات وما فيها من أسرار تدل على وجود الله ـ تعالى ـ وأنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الخالق فهذا الكون، المدبر لشئونه، وله الحكمة البالغة في كل ما يجري على هذا الكون، قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذي رفع السَّموات بغير عمد ترونها ثُمَّ استوىٰ على الْعرْش وسخَّر الشَّمْس والْقمر كُلٌّ يجري لأجل مُسمًّى يُدبّرُ الأمْر يُفصّلُ الآيات لعلَّكُم بلقاء ربِّكُمْ توقنُون (٢) وهُو الَّذي مدَّ الأرْض وجعل فيها رواسي وأنْهارا ومن كُلِّ الثَّمرات جعل فيها زوْجين اثْنين يُغْشي اللَّيْل النَّهار إنَّ في ذلك لآيات لَقوْم يتفكَّرُون (٣) وفي الأرْض قطعٌ مُتجاوراتٌ وجنَّاتٌ مّنْ أعْناب وزرْعٌ ونخيلٌ صنْوانٌ وغيْرُ صنْوان يُسْقىٰ بماء واحد ونُفضّلُ بعْضها علىٰ بعْض في الأُكُل إنَّ في ذلك لآيات لَقوْم يعْقلُون** ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ **إنَّ ربَّكُمُ اللَّهُ الَّذي خلق السَّموات والأرْض في ستَّة أيَّام ثُمَّ استوىٰ على الْعرْش يُغْشي اللَّيْل النَّهار يطْلُبُهُ حثيثا والشَّمْس والْقمر والنُّجُوم مُسخَّرات بأمْره ألا لهُ الْخلْقُ والأمْرُ تبارك اللَّهُ ربُّ الْعالمين** ﴾[2].

واقرأ قوله تعالى: ﴿ **أمَّنْ خلق السَّموات والأرْض وأنزل لكُم مّن السَّماء ماء فأنْبتْنا به حدائق ذات بهْجة مَّا كان لكُمْ أن تُنبتُوا شجرها أإلهٌ مَّع اللَّه بلْ هُمْ قوْمٌ يعْدلُون (٦٠) أمَّن جعل الأرْض قرارا وجعل خلالها أنْهارا وجعل لها رواسي وجعل**

---

(١) سورة الرعد: الآيات (٢ ـ ٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٥٤).

بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون (٦١) أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون (٦٢) أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون (٦٣) أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[1].

ألا ترى في ذلك الاستدلال على الوحدانية ما يدعو إلى توجيه الأبصار والعقول وجميع الحواس إلى أسرار الكون وما فيه من بدائع المخلوقات؟ أليس هو بهذا التوجيه المنطقي ينير العقول ويدعو إلى النظر والتأمل والتفكير؟.

ولم يقتصر القرآن الكريم على توجيه العقول لمعرفة الله - تعالى - والاستدلال على وحدانيته بل دعاهم إلى النظر المستمر في الأشياء وفي الأحياء وإلى أصل الكون ودراسته، اقرأ قوله تعالى: ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت (١٧) وإلى السماء كيف رفعت (١٨) وإلى الجبال كيف نصبت (١٩) وإلى الأرض كيف سطحت (٢٠) فذكر إنما أنت مذكر (٢١) لست عليهم بمسيطر ﴾[2].

ودعاهم أيضًا إلى النظر والتفكر في حقيقة أنفسهم وكيف خلقهم، قال تعالى: ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى (٣٦) ألم يك نطفة من مني يمنى (٣٧) ثم كان علقة فخلق فسوى (٣٨) فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى (٣٩) أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾[4].

لكن أنى لهم أن يصلوا إلى معرفة الله - عز وجل - وإدراك وحدانيته وهم

---

(١) سورة النمل: الآيات من (٦٠) إلى (٦٤).

(٢) سورة الغاشية: الآيات من (١٧ إلى (٢٢).

(٣) سورة الذاريات: الآية (٢١).

(٤) سورة القيامة: الآياتة من (٣٦) إلى (٤٠).

يجاهدون بكل الوسائل المتاحة لهم للقضاء على الأديان ـ وبخاصة الإسلام ـ هذا ولقد شنت الشيوعية حربًا لا هوادة فيها ضد الإسلام في كل بلد تضع أقدامها فيه، ومارست كل الوسائل والضغوط لتحقيق أهدافها فأغلقت المساجد والكنائس، وأعدمت العلماء المسلمين ورجال الدين من النصارى، وقتلت الملايين من المسلمين وغيرهم، وشتت الملايين من ديارهم وأهلهم[١].

وترجع أسباب محاربة الشيوعية للدين في نظري إلى سببين:

أولهما: أن الشيوعية نتاج يهودي؛ فمعظم زعمائها وقادتها من اليهود، حتى ماركس المؤسس الأول للمذهب الشيوعي أصله يهودي[٢] فمعارضة الشيوعية للدين وحربها القاسية تعود إلى النفسية اليهودية التي تسعى جاهدة إلى تحقيق استعلاء شعب الله المختار، واليهود قوم معروفون بالحقد والكراهية للأديان الأخرى، ومجبولون عى الطمع والجشع وحب المال والفساد، فهم ينتهزون كل فرصة لإفساد الناس وإبعادهم عن الدين القويم حتى يتمكنوا من تنفيذ مخططاتهم الرامية إلى هدم عقائد الناس وإفساد أخلاقهم، وبالتالي يسوسون الناس كما يريدون، والشيوعية من أهم الأسلحة التي استخدمها اليهود في مخططاتهم.

ثانيا: وجود نصرانية محرّفة على يد أباطرة ادَّعَوا حقَّ الآلهة، ومسخوا الربوبية، وخلطوا بين الخالق والمخلوق؛ فبيعت الجنة صكوكًا، وأعطيت القياصرة حق الآلهة بقوانين من الكنيسة، وكانت الكنيسة تقف وراء ظلم هؤلاء القياصرة وتعطيهم حق الآلهة مّما حَدا بالثورة أن تكفر بهذا الدين وبكل دين، وكان الأحرى بها أن تدرس بقية الأديان لا أن تشملها بحكم واحد.

والشيوعية بوصفها مذهبًا أو عقيدة تحلُّ محل الأديان القديمة، وتحتقرها وتناهضها بالدعوة إلى الإلحاد والمادية التي تنكر الله ـ تعالى ـ ورسوله، لذلك

(١) انظر: الإسلام في وجه الزحف الأحمر ص (١٠٧ وما بعدها).

(٢) انظر: ترجمة ماركس ص (٧٠٨) من بحثنا هذا.

شنت حملة فكرية على الأديان، فوصفوا الدين بأنه مخدر وأنه وهم، وأن المتدين رجعي متخلّف جاهل، والملحد تقدمي متحرر، يقول ماركس: «الدين زفرة الكائن المثقل بالألم، وروح عالم لم تبق فيه روح، وفكر عالم لم يبق فيه فكر، إنه أفيون الشعوب إذن فنقد الدين هو الخطوة الأولى لنقد هذا الوادي الغارق في الدموع»[1].

* * *

(١) نقض أوهام المادية الجدلية، ص (٣٤) نقلاً عن الدفاتر الفلسفية، ص (٥٣ ـ ٥٧).

فطرية التوحيد

إنه مما لاشك فيه أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذي خلق الكون والإنسان بحكمته، والذي أودع في فطرة الإنسان التدين والتوجه إليه بالعبادة لم يترك خلقه يعتمدون على أنفسهم، فكان من حكمته إرسال الرسل لتصحيح العبادة للناس، وقد ذهب كثير من العلماء ـ وبخاصة جمهور أهل السنة من المسلمين، والعقلاء من علماء أوروبا ـ إلى أن عقيدة التوحيد فطرية في النفوس، وأن الإنسان بفطرته عرف الإله الواحد وتعلق به وعبده، وأن الشرك والوثنية أمور عرضت للعقيدة وانحرافات طرأت عليها.

ومن جملة من يؤيد هذا الرأي من العلماء الغربيين لانج الذي أثبت عقيدة الإله الأكبر عند القبائل الهمجية في استراليا وأفريقيا وأمريكا، ومنهم شريدر الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة، وبروكلمان الذي أثبتها عند الساميين قبل الإسلام[1].

* * *

(١) انظر بتصرف: بين الدين والعلم، عبد الرزاق نوفل، القاهرة: مطابع الشعب، ص (٢٦).

مقالات وآراء لمجموعة من العلماء الأمريكيين عن اعتقادهم بوجود الله

يقول عالم الطبيعة روبرت بيبج[١]: «إذا أراد الإنسان أن يثبت من صحة المعلومات الغيبية التي يخبره بها شخص آخر فلابد أن يشترك في التجربة ويتهيأ لها حتى يستطيع أن يحكم عليها، وكذلك الحال فيما يتعلق بالإيمان بالله، فلابد أن يدرس الإنسان أولاً نوع العلاقات التي يمكن أن تكون بينه وبين خالقه، وما ينبغي أن تكون هذه العلاقات، فإذا درس الإنسان الشروط التي يلزم توافرها لقيام هذه العلاقة، واتجه بقلبه وكليته نحو تحقيق هذه الشروط، فإنه سوف يشاهد هذه الحقيقة كاملة، عندئذ يغمر الإيمان قلبه ويؤثر في حياته، ولا يدع في نفسه مجالاً للشك، وإذ ذاك يكون الله أقرب إليه من نفسه ويصير إيمانه يقينًا»[٢].

ويقول عالم الطبيعة الفيلسوف ميربت ستانلي كونجدن[٣] في بحث بعنوان (درس من شجرةالورد): «إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله ـ سبحانه ـ ويدل على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتى باستخدام الطرق الاستدلالية فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته، ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل المادية

---

(١) روبرت بيبج: حاصل على دكتوراه في العلوم من جامعة هاملين، كان أول من اكتشف الرادار في العالم سنة ١٩٢٧ يعمل في الوقت الحاضر مديراً مساعداً في معامل بحوث البحرية الأمريكية، سجل نحو سبعة وثلاثين بحثًا معظمها في الرادار.

(٢) انظر: الله يتجلى في عصر العلم، ص (٢١).

(٣) دكتوراه من جامعة بورتون، أستاذ سابق بكلية تزني بفلوريدا، عضو الجمعية الأمريكية الطبيعية، أخصائي في علم النفس وفلسفة العلوم والبحوث الإنجيلية.

وحدها، ولكننا نرى آياته في أنفسنا وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته»[١].

ويقول المستشار الهندسي كلوردم هاثاواي[٢] في مقال له بعنوان (المبدع الأعظم): «إن هذا الكون ليس إلا كتلة تخضع لنظام معين، ولابد له إذن من سبب أول لا يخضع للقانون الثاني من قوانين الديناميكية الحرارية، ولابد أن يكون هذا المسبب الأول غير مادي في طبيعته، إنه هو الله اللطيف الخبير الذي لا تدركه الأبصار»[٣].

* * *

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص (٢٦).

(٢) كلود هاثواي، حاصل على درجة الماجستير من جامعة كلورادو، مستشار هندسي بمعامل شركة جنرال إلكتريك، مصمم العقل الإلكتروني للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة لانجلي فيلد، أخصائي في آلات الكهربائية والطبيعة للقياس.

(٣) الله يتجلى في عصر العلم ص (٩٤ ـ ٩٧).

تكريم الله لبني آدم وإسجاد الملائكة له

لا شك أن الإنسان بما منحه الله من عقل وتفكير أفضل من كل المخلوقات في هذه الحياة، فالإنسان هو سيد هذه الأرض يستطيع بما وهبه الله من العقل والتفكير أن يفجّر ينابيعها ويستنبت أرضها، ويستخرج منها كل خيراتها.

ونظرة الإسلام إلى هذا الإنسان نظرة فيها الكثير من معاني التقدير والتكريم والاحترام لسببين:

أولهما: إن الإنسان خليفة الله في أرضه، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾[1] وقد أوجد الله هذه البسيطة وما عليها لعبادته ـ جل جلاله ـ كما قال: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[2].

ثانيا: تكريم الله له بأمور لم تحصل لغيره من المخلوقات منها أمره ـ تعالى ـ للملائكة أن يسجدوا له، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ**﴾[3] ومنها قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾[4].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٣٠).

(٢) سورة الذاريات: الآية (٥٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١١).

(٤) سورة الإسراء: الآية (٧٠).

ولهذا التكريم مظاهر أذكرها إكمالاً للفائدة:

أولاً: تحرير عقله من عبادة المخلوق إلى عبادة الله، كما قال ـ جل شأنه ـ: ﴿ **واعْبُدُوا اللَّه ولا تُشْرِكُوا به شيْئا وبالْوالدين إحْسانا وبذي الْقُربى والْيتامى والْمساكين والْجار ذي الْقُربى** ﴾ الآية[1].

ثانيًا: ومن مظاهر التكريم لهذا الإنسان إلغاء كل الفوارق بين الناس؛ فلا تكبر ولا استعلاء ولا تعاظم، ولا فرق بين أبيض وأسود، ولا فضل لعربي على عجمي، ولا لغني على فقير، ولا لشريف على وضيع؛ قال تعالى: ﴿ **إنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحدةً وأنا ربُّكُمْ فاعْبُدُون** ﴾[2].

ثالثًا: تكريمه ـ جل وعلا ـ لبني آدم بالعلم دون غيره من المخلوقات، قال تعالى: ﴿ **وعلَّم آدم الأسْماء كُلَّها ثُمَّ عرضهُمْ على الْملائكة** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **وأعْلمُ ما تُبْدُون وما كُنتُمْ تكْتُمُون** ﴾[3].

رابعًا: تسخير الله له هذا الكون بما عليه من جبال وبحار وأودية وقفار وفضاء وأفلاك، ولولا هذا التسخير لما استطاع أن يستخرج المعادن من الصخور واللآليء من قاع البحار.

وحين ننظر في تعاليم الإسلام نجدها تطبق مبدأ المساواة موضع التنفيذ فأمامَ القضاء يقف الحق وحده بجانب صاحب الحق، وفي مجال التوحيد عدم الخضوع لغير الله فيأمر الناس أن يتجهوا إليه وحده ﴿ **يا أيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا ربَّكُمُ الَّذي خلقكُمْ والَّذين من قبْلكُم لعلَّكُمْ تتَّقُون (٢١) الَّذي جعل لكُمُ الأرْض فراشا والسَّماء بناء وأنزل من السَّماء ماء فأخْرج به من الثَّمرات رزْقا لَّكُمْ فلا تجْعلُوا للَّه أندادا**

---

(١) سورة النساء: الآية (٣٦).

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٩٢).

(٣) سورة البقرة: الآيات (٣١ ـ ٣٣).

وأنتم تعلمون ﴾[١].

مدى الفرق الكبير الشاسع الذي عليه الإسلام في أصل خلق الإنسان وما عليه نظرية التطور :

مَرَّ عليك في البحث السابق تكريم الله لبني آدم وإسجاد الملائكة له، ونظرة الإسلام إلى الإنسان، ومدى الحفاوة والتقدير والتكريم الذي حظي به الإنسان في ظل الإسلام، وأضيف إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **وإذْ قال ربُّك للْملائكة إنّي خالقٌ بشرا منْ صلْصال منْ حمأ مَسنُون (٢٨) فإذا سوّيْتُه ونفخْتُ فيه من رُوحي فقعُوا له ساجدين (٢٩) فسجد الْملائكةُ كُلُّهُم أجْمعُون (٣٠) إلاّ إبْليس أبىٰ أن يكُون مع السّاجدين** ﴾[٢] واقرأ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **لقدْ خلقْنا الإنسان في أحْسن تقْويمٍ** ﴾[٣] واقرأ قوله تعالى: ﴿ **يا أيُّها الإنسانُ ما غرّك بربّك الْكريم (٦) الّذي خلقك فسوّاك فعدلك (٧) في أيّ صُورة مّا شاء ركّبك** ﴾[٤].

فلقد تكاثر الإنسان من نسل أبيه آدم، وكان الخالق ـ جل وعلا ـ يحيطه بكل ما يضمن هدايته ورشده، فلم يتركه هملاً بل كان يبعث إليه بين الحين والآخر رسلاً من بني جنسه يُذكّرونه بالسبب الأول لإيجاده على هذا الكون وأنه ما خُلق إلا ليعبد الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ **وما خلقْتُ الْجنّ والإنس إلاّ ليعْبُدُون (٥٦) ما أُريدُ منْهُم منْ رّزْق وما أُريدُ أن يُطْعمُون** ﴾[٥] وقد تكفل الله له بالرزق كما أشار إلى ذلك قوله: ﴿ **وفي السّماء رزْقُكُمْ وما توعدُون** ﴾[٦] وقوله:

---

(١) سورة البقرة: الآيتان (٢١، ٢٢).

(٢) سورة الحجر: الآيات من (٢٨) إلى (٣١).

(٣) سورة التين: الآية (٤).

(٤) سورة الانفطار: الآيات من (٦) إلى (٨).

(٥) سورة الذاريات: الآيات (٥٦، ٥٧).

(٦) سورة الذاريات: الآية (٢٢).

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾[١].

بل تكفل الله بحفظه كما قال تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾[٢] الآية.

وانظر إلى رأي داروين - صاحب نظرية التطور في أصل الإنسان - وكيف وصل إلى ما وصل إليه اليوم، يقول داروين: لقد سارت الحياة في سلسلة طويلة من الرقي التدريجي بدأت بالكائن وحيد الخلية وانتهت بالإنسان على النحو التالي - باختصار كثير من التفصيلات -: كائن وحيد الخلية كالأميبا، ثم فطريات متعددة الخلايا، ثم نبات، ثم نبات يشبه الحيوان، ثم حيوان يشبه النبات، ثم حيوانات فقارية أرقى كالثدييات الدنيا والثدييات العليا، ثم القردة العليا والغوريلا الأورانج أو تانج، ثم إنسان الغاب والشمبانزي والجبيبون، ثم الحلقة المفقودة، ثم القرد الشبيه بالإنسان أو الإنسان الشبيه بالقردة العليا، ثم الإنسان.

وقال داروين وهو يشرح نظريته: «إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق»[٣].

وأوجز الرد على نظرية داروين وما سبقها وما لحقها من نظريات التطور بما يلي:

أولاً: إن نظريات التطور تتعارض مع ما توصل إليه العلم الحديث[٤].

ثانيا: إن نظريات التطور تتنافى مع خبر السماء وما جاءت به السنة المطهرة. وقد أشرت إلى الآيات الكريمة التي مفادها أن الله كرّم بني آدم وخلقه في

---

(١) سورة الذاريات: الآية (٥٨).

(٢) سورة الرعد: الاية (١١).

(٣) مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب، ص (٩٤).

(٤) وقد سبق توضيح ذلك. انظر: ص (٧٢٧) إلى (٧٣٣)من بحثنا هذا.

أحسن تقويم في صورة كريمة، وهي تختلف تمامًا على ما عليه الصور الحيوانية، قال تعالى: ﴿الَّذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾[١].

ثانيا: الجانب الاجتماعي:

المباديء التي تقوم عليها العلاقات بين أفراد المجتمع:

لقد اهتم الإسلام بالفرد فعمل على تربية نفسه وروحه تربية مثالية ليكون أهلاً لوصفه بالإنسانية، واهتم الإسلام بالأسرة أيضًا باعتبارها اللبنة الأولى في المجتمع، فأحاطها بكل الحقوق، ووفر لها أجمل مناخ لجعلها تعيش في أرغد عيش وأهنأ بال؛ ذلك لأنها نواة المجتمع السليم السعيد، ذلك المجتمع الذي يقوم على أسس متينة من الرحمة والتعاون والمحبة، وعلى قاعدة قوية في أداء الحقوق والواجبات والتوازن بين حقوق الفرد والجماعة في إطار ما رسمته العقيدة الإسلامية الراسخة[٢].

وقبل أن أبيِّن المباديء التي تقوم عليها العلاقات بين أفراد المجتمع الإسلامي فلعله من المفيد أن أذكّر القاريء الكريم أن الاجتماع الإنساني ضروري للفرد وهذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان، وطالما أن المجتمع ضروري للإنسان. فلابد أن يكون لهذا المجتمع نظام يتضمن الحدود التي يجب أن يقف عندها كل أفراد المجتمع، والضوابط العامة التي يجب أن يلتزموا بها في سلوكهم حتى يسلم

---

(١) سورة السجدة: الآيات (٧-٩).

(٢) الأمثلة كثيرة واستعراض بعضها دون البعض لا يؤدي الغرض، فالأخلاق وما ينطوي تحتها من مثل، وتشريعات حكيمة فيها سعادة المسلم من صلاة وصوم وزكاة وحج، والعقوبات الزاجرة التي فيها حفاظ على قيم المجتمع، واهتمام الإسلام بالأسرة وتنظيمها، وحقوق الزوجية وما يضمن استمرار الحياة العائلية والعواصف التي يمكن أن تهز الحياة الزوجية.

المجتمع من الصراعات التي تؤدي به إلى تدميره، وحتي يستطيعوا العيش في ظلاله في أمان واستقرار، وقبل أن أشرع في بيان أهم المبادئ التي تقوم عليها العلاقات بين أفراد المجتمع لابد أن أشير إلى ركيزتين أساسيتين يقوم عليهما المجتمع المسلم:

الركيزة الأولى:

هي وحدة الأصل: حيث ينتسب البشر جميعًا إلى أب واحد وأم واحدة، ولا يمكن حجب هذه الحقيقة باختلاف الناس بالأنساب والأجناس «**كلكم لآدم وآدم من تراب ...**» الحديث.

قال تعالى: ﴿**يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خلقْناكُم مَن ذكرٍ وأُنثىٰ وجعلناكُمْ شعُوبا وقبائل لتعارفُوا إنَّ أكْرمكُمْ عند اللَّه أتْقاكُمْ**﴾[1] هكذا يقرر الإسلام وحده الأصل لكل الناس بحيث يمكن عن طريق وحدة العقيدة توجيه طاقاتهم لما يحقق النفع والخير لهم في الحياة الدنيا والآخرة.

الركيزة الثانية:

وحدة العقيدة: تلك الصلة التي تجعل البشر جميعًا عبادًا لله - عز وجل - قال تعالى: ﴿**قُلْ هُو اللَّهُ أحدٌ**﴾[2] وقال تعالى: ﴿**فإلهُكُمْ إلهٌ واحدٌ فلهُ أسْلمُوا**﴾[3] فهذه الآيات تقرر وحدة الإله، خالق السماوات والأرض وما بينهما، وإليه وحده يرد الأمر.

ومن هاتين الركيزتين تنبثق المباديء الإسلامية والغايات النبيلة والضوابط الحكيمة التي تصيغ المجتمع المسلم، وأكتفي هنا بالإشارة إلى جانبين يتميز بها المجتمع المسلم وهما: الإخاء، والتكافل.

(١) سورة الحجرات: الآية (١٣).

(٢) سورة الإخلاص: الآية (١).

(٣) سورة الحج: الآية (٣٤).

أولاً: رابطة الإخاء:

تعتبر رابطة الإخاء بين المسلمين من المبادئ الأساسية التي يقوم عليها المجتمع المسلم، فقد حض عليها الشارع الحكيم ودعا إليها، يقول جل شأنه: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[١] وفي الحديث: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره**»[٢] وتنبثق من رابطة الإخاء مظاهر، منها التودد، والتراحم، والتعاطف بين أفراد المجتمع، وقد شبه النبي ﷺ تلك المظاهر بقوله: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[٣].

ورابطة الإخاء تكاد تنعدم في المجتمعات المادية التي لا هَمَّ لها إلا جمع المادة حيث تثور الصراعات بين الطبقات، فالغني لا هم له إلا في السبل التي ينمي بها ثروته، والفقير لا يكاد يجد لقمة العيش والمجتمع بأكمله في غفلة عنه، والأكثر من ذلك أن رابطة التوادد والتراحم لم تنزع فقط من بين أفراد المجتمع بل من بين الأسرة نفسها؛ فالابن أو الفتاة إذا ما بلغت الثامنة عشرة أو أقل من ذلك فلا مكان لها في منزل أسرتها، والجد أو الجدة متى تقدما في السن وأصبح لا مورد لهما فإن مكانهما الطبيعي هو الملجأ الذي يجب أن يكون له مقر في كل مدينة وقرية في أوروبا.

حدثني صديق لي طبيب مسلم وهو يعمل في إحدى مستشفيات ألمانيا أنه جاءته سيدة طاعنة في السن تشكو من كسر في حوضها مما أعجزها عن المشي، وتم تقديم العلاج لها حتى تماثلت للشفاء وأصبحت تسير على قدميها، وقرر الطبيب المشرف على علاجها أن بإمكانها أن تذهب إلى منزلها، فاتصلت السيدة

---

(١) سورة الحجرات: الآية (١٠).

(٢) جزء من حديث طويل في صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٦) بترتيب/ محمد فؤاد عبد الباقي.

(٣) صحيح مسلم، بترتيب وتحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، (٤/ ١٩٩٩، ٢٠٠٠).

العجوز بابنتها التي كانت نادرًا ما تزورها تخبرها بالذي قرره الطبيب وأن عليها أن تأتي لكي تأخذها إلى منزلها فجاءت الابنة لأخذ أمها وهي تزف إليها هذا الخبر: يا أمي لقد هيّأنا لك غرفة في الملجأ لكي تقيمي فيها: وإذا بالعجوز تسقط من ألم هذا الخبر وتودع الحياة مفارقة لها دون رجعة!

ثانيا: التكافل الاجتماعي:

من المباديء الأساسية التي يقوم عليها المجتمع المسلم مبدأ التكافل، والمقصود بالتكافل هو التعاون والتضامن بحيث لا تطغى مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة، ولا تضيع مصلحة الفرد في دوّامة المجتمع، بل يبقى للفرد كيانه ومميزاته ويكون للجماعة هيمنتها وسيطرتها، فيعيش الفرد في كفالة المجتمع كما تكون الجماعة متلاقية في مصالح الآحاد ودفع الضرر عنهم، ومن ثَم فإن المجتمع الإسلامي لا يعترف بالنظام الطبقي ولا يعترف بصراع الطبقات وتناحرها بينما يقيم الماديون تفسيرهم للحياة البشرية على أساس أن الصراع الطبقي هو قوام هذه الحياة منذ خرج الناس من الشيوعية الأولى حتى يعودوا إلى الشيوعية الثانية[١] وأن هذا الصراع الطبقي متعلق بالملكية الفردية[٢] وبمجرد أن تزول الملكية الفردية يرجع الناس إلى الحياة الملائكية التي كانوا عليها أيام الشيوعية

---

(١) الشيوعية الأولى: يزعم التفسير المادي للتاريخ أن الشيوعية كانت هي الطور الأول للبشرية، وأنها كانت شيوعية شاملة وتشمل كل نواحي الحياة البشرية بما في ذلك الجنس؛ فكانت القبائل البشرية الأولى تعيش في حالة من المشاعية الجنسية الكاملة مع مشاعية الأرض ومشاعية الطعام والشراب والسلاح، أما مرادهم من الشيوعية الثانية فهي الفترة الزمنية التي أعقبت الطور الأول للبشرية حيث إن البشرية تعلمت الزراعة، حيث أدى ذلك إلى انتهاء الفترة الشيوعية الأولى ودخول البشرية في مرحلتي الرق والإقطاع. انظر: مذاهب فكرية معاصرة، ص (٣٣٥، ٣٦٢) للشيخ / محمد قطب.

(٢) الملكية الفردية: سأتناول الملكية الفردية في البحث القادم عند حديثي عن الجانب الاقتصادي. انظر: ص (٧٦٣) من بحثنا هذا.

الأولى وتستريح البشرية من الصراع[١].

«صحيحٌ ما يقولون ولكنها صحة محددة بنطاق معين وليست صحة مطلقة، صحيح بالنسبة للجاهليات ففي الجاهليات يصدق القول بأن الذي يملك هو الذي يحكم، وحين يحكم يُشرّع لصالح نفسه وصالح طبقته على حساب بقية الطبقات، ومن ثم ينشأ صراع الطبقات، ويدور صراع حول متاع الأرض، ولأنه في غياب القيم العليا لا يبقى للناس إلا متاع الأرض يتصارعون حوله ويتقاتلون عليه.

أما في النظام الرباني فليست هناك باديء ذي بدء طبقات، ومن ثَم لا يوجد صراع طبقي؛ حقيقة أنه توجد ملكية فردية ويوجد في المجتمع أغنياء وفقراء لكن لا الأغنياء طبقة ولا الفقراء طبقة، ولا هؤلاء ولا هؤلاء يحكمون.

فالثروة في المجتمع الإسلامي دائمة التنقل من جيل إلى جيل بحيث لا تكون طبقة دائمة من أفراد معينين أو أسر معينة تتوارث وضعًا اجتماعيًا معينًا، فأيّ فقير يمكن أن يتحول إلى غني، وأي غني يمكن أن يتحول إلى فقير، فلا يحجزه شيء عن أن يكون هذا أو ذاك، بحسب تصرفه الشخصي من ناحية، وبسبب حركة المواريث الدائمة التي تفتت الثروة من مكان تجمعها إلى مكان آخر، وحيث يشتد الظلم فيثور المسلمون.

ولقد حدث هذا أكثر من مرة في التاريخ الإسلامي، فهو ليس صراعًا طبقيًا بالمعنى الذي يشير إليه التفسير المادي للتاريخ لأنه لا توجد طبقة تريد الإطاحة بطبقة أخرى لتأخذ مكانها في السلطة التشريعية إنما يطالب الثائرون بالعدل، أي بتطبيق شريعة الله في المواضع التي خولفت فيها شريعة الله، وما أبعد هذا عن الصراع الطبقي كما يفهمه التفسير المادي للتاريخ، إنما يوجد الصراع في النظام الرباني على أسس مختلفة تمامًا عن الصراع الطبقي الذي هو محور الحياة في الجاهلية.

---

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، ص (٣٧١).

ما مفهوم الصراع في النظام الرباني؟

الصراع في المفهوم الرباني صراع لا علاقة له على الإطلاق بالطبقات ولا بالملكية الفردية إنما هو صراع الحق والباطل الذي يقول الله فيه: ﴿ **الَّذين آمنُوا يُقاتلُونَ في سبيل اللَّه والَّذين كفرُوا يُقاتلُون في سبيل الطَّاغُوت فقاتلُوا أُولياء الشَّيْطَان إنَّ كيْد الشَّيْطان كان ضعيفا** ﴾[1]»[2].

مفهوم الصراع عند أصحاب النظريات الحديثة والفرق الكبير بينه وبين النظام الرباني:

يترجم هذا المفهوم أحد الفلاسفة المحدثين ـ هيجل ـ:

لقد جعل النصر يبرر الحروب دون نظر إلى قيم إنسانية يراد نشرها أو منع ظلم لحَقَ بمظلوم بل يرى أن الخيرية تكمن في أن يغلب الإنسان غيره؛ فالغالب دائمًا خير من المغلوب، وهو بذلك لم ينظر إلى ما عند المغلوب من خير أو حق ولا إلى ما عند الغالب من شر، ولم يكتف بذلك بل جعل حكم الله وقضاءه هو ما قاله، أي: خيرية الغالب على المغلوب أيًا كان نعته: «إن التاريخ يظهرنا على أنه يوجد في كل عصر من عصوره دولة مهيأة لأن تتزعم سائر الدول وتفرض ما بلغت إليه من تقدم في الحضارة، هذه الدولة واجبها الفتح، وانتصارها يبرر حروبها، الدولة الغالبة خير من المغلوبة بدليل غلبتها نفسها التي يجب أن تعتبر حكم الله».

ويرى هيجل أن الجرمانية خير ممثل للحضارة المسيحية[3] وهذا يذكرنا بما ذاقته البشرية على يد النازية من دمار وإزهاق للأرواح ونكبات فادحة، وقد خاب ظنه حين ذهب إلى أن الحضارة المسيحية تعد الجرمانية خير ممثل لها،

---

(١) سورة النساء: الآية (٧٦).

(٢) انظر: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ/ محمد قطب، (ص ٣٧٢ـ ٣٧٤).

(٣) بتصرف واختصار من: تاريخ الفلسفة الحديث ليوسف كرم، ص (٢٧٢).

وبواسطتها سيتحقق النصر النهائي في التاريخ، فلم تنتصر الألمانية على العالم بل انهزمت شر هزيمة، لكن ما هي نظرة الإسلام إلى الحروب؟ هل هي موافقة لنظرة هيجل حيث يرى أن القوة والنصر مبرر ودافع لإحداث الحروب، وإنزال الويلات وما يصاحبها من القتل والسلب والنهب والدمار؟

كلا، إن نظرة الإسلام وتشريعاته الحكيمة تختلف اختلافًا كليًا عن نظرة هيجل وأضرابه، إن القتل والحروب في الإسلام لم تكن قط إلا في سبيل الله لإعلاء راية الإسلام، ولنشر دعوته والدفاع عن حزبه، والمحافظة على المسلمين عامة وبلادهم وممتلكاتهم من الطامعين في اغتصاب خيرات بلادهم، أو انتهاك مقدساتهم وأعراضهم، فهو دفاع عن العقيدة والشرف وإحقاق للحق وإبطال للباطل لا لمجرد كون المسلمين سينتصرون على مَن يقاتلونهم، أو أنهم أقوياء على مَن جاورهم، والإسلام لم يفرض على الناس أن يعتنقوه بالقوة كما قال تعالى: ﴿**لا إكْراه في الدِّين قد تَّبيَّن الرُّشْدُ منَ الْغيِّ ...**﴾[1] الآية. وإنما يكتفي من العالم بإتاحة الفرصة له ليختار مَن يختاره عن بينة، وألا يمنع دعاته من نشره بين العالمين وتعليمه لمن يشاء، وقد بين ﷺ دستور القتال في الإسلام، وهو بحق يعتبر منهجًا سديدًا على مر الأزمنة والدهور.

أخرج مسلم في صحيحه عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: «**اغزوا في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا**[2] **ولا تغدروا ولا تمثلوا**[3] **ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيتَ عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث ـ أو: خلال ـ فأيتهم ما أجابوك فاقبل منهم**

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٥٦).

(٢) لا تغلوا: أي لا تخونوا في الغنيمة.

(٣) لا تمثلوا: لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان ونحوهما.

وكفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ...»[1] الحديث.

ولقد حرم الإسلام محاربة غير المحاربين، وهو لا يُجيز قتل المرأة والصبي والشيخ والعجزة أو مَن انقطعوا للعبادة، فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**انطلقوا بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخا فانيا، ولا طفلاً صغيرا، ولا امرأة، ولا تغلوا وضموا غنائمكم وأصلحوا إن الله يحب المحسنين**»[2].

والحرب والجهاد في الإسلام لا يمتد إلى القتل الحيواني، أو تخريب البيوت، أو قطع الأشجار ما لم تكن هذه الوسائل لكسب المعركة كالحيوانات التي تساعد على القتل، أو الأشجار والبيوت التي تتخذ حصونًا ومعاقل.

ثالثا: الجانب الاقتصادي. الملكية الفردية وحق التملك:

المباديء التي يقوم عليها النظام الاقتصادي:

قبل أن أشرع ببيان المباديء الاقتصادية في النظام الإسلامي لابد أن أشير إلى أن الفرد الذي يعتبر قوام المجتمع الإسلامي مكون من جسم ونفس وقد أودع فيه خالقه ـ جل وعلا ـ غرائز طبيعية، وخصه بالعقل الذي يتميز به عن الحيوان،

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، (١٣/ ٣٧ـ٣٨ـ٣٩).

(٢) رواه أبو داود بسند صالح، (٢/ ٣٦).

والإسلام ـ كما سبق أن ذكرت ـ يعتبر شاملاً لسلوك الإنسان في جميع شئون الحياة، فلقد وازن بين القيم الروحية التي يجب على الإنسان أن يتحلى بها وبين غرائزه الطبيعية الأصلية، فلم يأمر بطغيان النواحي الروحية وإرهاق الجسم وحرمانه من طيبات الحياة على حساب الروح والعقل، كما لم يأمر بكبت الغرائز وعدم إروائها بالطريق الحلال الذي لا لوم فيه ولا تفريط، بل نراه يوازن بين المطالب الروحية ومطالب النزعات الإنسانية من شهوات الحياة، فيبيح التمتع بالطيبات مما تشتهيه النفوس والتزين من غير إسراف يخرج عن الاعتدال المشروع، يقول ـ تعالى ـ في السورة التي نحن بصدد دراستها سورة الأعراف: ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين (٣١) قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾[١] وقال تعالى: ﴿ **يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ...** ﴾[٢] الآية.

وأكثر من ذلك أننا نرى الإسلام يمتن على الإنسان بما يتمتع به من أسباب النعم، قال تعالى: ﴿ **ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦) وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم (٧) والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون** ﴾[٣].

والمتأمل في المنهج الذي سلكه الإسلام في صياغة الجانب الاقتصادي داخل المجتمع الإسلامي يجده بلا شك انقلابًا في المفاهيم والأوضاع الاقتصادية التي كانت سائدة فيه.

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (٣١ ـ ٣٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٦).

(٣) سورة النحل: الآيات من (٦) إلى (٨).

لقد حث الإسلام على العمل باعتباره إحدى الوسائل لتملك المال، وأجاز حق التملك جاعلاً الملكية وظيفة في المجتمع، ثم عمل في ذات الوقت على تحقيق التوزان المالي بين أفراد المجتمع حتى لا تتكدس الثروات في يد فئة دون أخرى، وفي كل ذلك كانت العدالة سمة بارزة فلم يطغَ حق الفرد على الجماعة، ولم يطغ حق الجماعة على الفرد.

وسأكتفي بذكر ثلاثة مبادئ تعتبر في نظري هي أهم المباديء التي يقوم عليها النظام الاقتصادي.

١ ـ أولاً : حرية العمل.

٢ ـ ثانيًا : حق التملك.

٣ ـ ثالثًا : التوازن المالي بين أفراد المجتمع.

أولا: حرية العمل.

الإسلام حث على العمل بكافة أنواعه وصوره وأشكاله حيث إنه سبب من أسباب الحصول على الأموال وتملكها، فالزراعة والتجارة والصناعة والصيد كلها مجالات للعمل حث عليها الإسلام، قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[٢].

والأنبياء وهم أصحاب السلوك الأمثل، وقد كُلِّفوا بتبليغ شرع الله للناس، ومع ذلك كانوا يعملون ويأكلون من كسب أيديهم، قال ﷺ: «**ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود ـ عليه السلام ـ**

(١) سورة الملك: الآية (١٥).

(٢) سورة الجمعة: الآية (١٠).

كان يأكل من عمل يده»[١] وقوله ﷺ: «**لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**»[٢].

فالإسلام ليس مجرد إقامة شعائر وإنما هو عبادة وعمل في نفس الوقت، والإسلام لم يميز بين عمل وآخر لأن قيمة الإنسان في نظر الإسلام بمقدار ما يتقن عمله، وفي الحديث: «**إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه**»[٣].

وحرية العمل في النظام الاقتصادي مكفولة، فكل فرد له الحق في اختيار العمل المناسب له، وله أن يباشر كافة أوجه النشاط الاقتصادي دون إكراه أو إجبار أو منع بشرط أن يكون هذا النشاط مأذونًا به شرعًا؛ فلا يجوز للمسلم أن يتخذ الربا عملاً لتنمية أمواله، ولا أن يتجر في الخمر ولا في الخنزير ولا الميسر وسائر ما حرمه الله ـ تعالى ـ وغير ذلك مما هو مبسوط في كتب الفقه وكتب السنة من البيوع المحرمة وسلوك الوسائل غير الشرعية للاسترزاق كالاحتكار، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة حددت ذلك وبينته، قال تعالى: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ**﴾[٤] فهذه الأشياء حرم أكلها وحرم الاتجار فيها، وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾[٥].

فقوله تعالى: ﴿**مِمَّا فِي الْأَرْضِ**﴾ صريح في أن بعض ما فيها مأذون وأن

---

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، كتاب البيوع، (٥/ ٢٠٩).

(٢) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، كتاب الزكاة، (٤/ ٧٨).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(٤) سورة المائدة: الآية (٣).

(٥) سورة البقرة: الآية (١٦٨).

بعضه غير مأذون فيه، وأن المأذون فيه هو الحلال الطيب الذي أذن الله فيه ورسوله، وإذا وازنت بين العمل في النظام الإسلامي سترى أن العمل عند مَن لم يتخذ النظام الإسلامي منهجًا له في بعض المجتمعات مباح في كل شيء ولو ترتب عليه إضرار الفرد والجماعة[١] وأن المحرمات قُنِّن جوازها بقوانين تجعلها كالحلال سواء بسواء، بل لا يرى مَن أجاز ذلك فرقًا بين ما هو حلال وما هو حرام، وفي مجتمعات أخرى كالمجتمعات الاشتراكية يفرض على الناس الالتزام بعمل معين لا يتجاوزونه إلى غيره، فإن هم تجاوزوه كانوا تحت طائلة العقاب حتى ولو كان هذا العمل في نفسه طيبًا كريمًا وأراد به الفرد تنمية نفسه وزيادة دخله ونفع مجتمعه، وكلا الفريقين يشتركان في تجويز العمل في المحرمات ولا يرون في ذلك بأسًا.

ثانيًا: حق التملك:

مفهوم الملكية :

الملكية تفيد معنى الاحتواء والقدرة على الاستبداد بالشيء[٢] ويراد بها حق الفرد في احتواء شيء ما، وتمكينه من الانتفاع به بكل الطرق الجائزة شرعًا بحيث لا يجوز للغير الانتفاع بهذا الشيء إلا بموافقة المالك الأصلي[٣].

ولقد أقر الإسلام حق الملكية للفرد والجماعة على السواء، وتقريره حق الفرد في التملك أظهر من تقريره لحق الجماعة باعتبار أن ملك كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية هو في النهاية كأنه ملك لكل الأمة، وقد قرر الله هذا الحق لما أودعه في

---

(١) كالاتجار بالبغاء وعمل مراكز رسمية تشرف عليها الدولة كما هو الحال في معظم الدول الغربية.

(٢) انظر: ترتيب القاموس المحيط (٤/ ٢٥١).

(٣) أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي في المجتمع ـ القسم الثاني، إعداد/ محمد فاروق النبهان، الأستاذ بكلية الشريعة والحقوق بالكويت، ص (٢٩٧).

فطرة الإنسان من غريزة التملك والسعي إلى ذلك بفطرته، ومقاومة كل مَن وما يحول بينه وبين ذاك، وإنك لترى ذلك واضحًا في سلوك الأطفال أول ما يدركهم شيء من الوعي فترى الطفل يمسك الأشياء النافعة والضارة وإن قاومته احتج على ذلك بشدة صراخه، وكثرة عويله، وهذا منه توضيح لما جعله الله في فطرته وتكوينه؛ لأنه يفعل ذلك قبل أن يدري أن البيئة التي تحيط به تجيزه أو تمنعه، تحلّهُ أو تحرمه وهكذا تنمو هذه الغريزة، إلا أن الإسلام وإن أباح التملك فإنه قنّنه بقوانين حتى لا يطغى الفرد على المجتمع أو العكس، فهو لا يعترف لك بملك شيء إلا إذ وصلك عن طريق مشروع كالذي تكتسبه بجهودك وعملك، أو بما ورثته عن مورثيك الشرعيين إلى غير ذلك من أسباب التملك المختلفة في الإسلام كالهبة والهدية والوقف ونحو ذلك.

وقد صان الإسلام الملكية الفردية والجماعية أتم صيانة، فحرّم التعدي على أموال الفرد والجماعة بأي شكل من أشكال التعدي، قال تعالى: ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما**﴾[2] والمراد بالباطل في الآية الأخيرة المكاسب غير الشرعية كأنواع الربا والقمار وما جرى مجرى ذلك من سائر أصناف الحيل، وقد أحل الله التجارة وأذن للبائع أن يبيع بأكثر مما اشترى به لما في ذلك من منافع عظيمة للبائع والمشترى معًا ليس هنا مكان سردها.

وإذا عرفت أن المحرمات التي لها في الإسلام عقوبات دنيوية محصورة تبين لك عناية الإسلام بالملكية الفردية والجماعية، لذلك شرع قطع يد السارق

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٨٨).

(٢) سورة النساء: الآية (٢٩).

والسارقة فيما سرقاه إذا بلغ المسروق النصاب الشرعي إلى آخر الشروط التي يجب توفرها في السرقة لإقامة الحد، قال تعالى: ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم** ﴾[١].

وشرع أيضًا العقوبات الزاجرة لمن يقطع الطريق، قال تعالى: ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾[٢].

روى الشافعي في مسنده عن ابن عباس في شأن قطّاع الطريق، وهو تفسير للآية الكريمة السابقة أنه قال ـ رضي الله عنهما ـ: «إذا قتلوا وأخذوا المال قُتلوا وصلّبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يُصلّبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالاً نفوا من الأرض»[٣].

وجهة نظر النظام الاشتراكي للملكية الفردية:

أولاً: القضاء على مظاهر الملكية الفردية كافة:

يرى النظام الشيوعي أن الملكية الفردية هي سبب كل الشرور التي حلت بالبشرية منذ خروجها من مرحلة الشيوعية الأولى إلى أن تعود الشيوعية الثانية فتلغيها وتلغي معها الشرور الناشئة عنها.

وينشأ الشر ـ من وجهة نظرهم ـ من أن الذي يملك هو الذي يحكم، وحين

---

(١) سورة المائدة: الآية (٣٨).

(٢) سورة المائدة: الآية (٣٣).

(٣) انظر: الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي للشيخ/ محمد أبو زهرة ـ قسم العقوبة القاهرة: دار الفكر، ص ١٥١.

يحكم فإنه يضع التشريعات التي تخدم مصالحه ومصالح طبقته على حساب بقية الطبقات[١].

وللرد على وجهتهم هذه: يحدث هذا الظلم في نظام الجاهليات التي تحكم بشرائع البشر ولا تحكم بشرائع الله.

ثانيا: ويرى النظام الشيوعي أن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية في النفس البشرية بدليل فترة الشيوعية الأولى التي لم تكن فيها ملكية فردية إنما هي أمر مكتسب اكتسبته البشرية بعد أن تعلمت الزراعة حيث أدى ذلك إلى انتهاء فترة الشيوعية الأولى ودخول البشرية في مرحلتي الرق والإقطاع، ثم لما تحولت الملكية من ملكية زراعية إلى ملكية صناعية رأسمالية دخلت البشرية مرحلة الرأسمالية، ويرون أن الصراع لا يزول من الأرض إلا بإزالة البشرية للملكية الفردية في جميع صورها.

وللرد على وجهتهم هذه نقول: أما رأيهم بأن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية في النفس البشرية، وأن الزراعة هي التي كانت السبب في نشأة الملكية الفردية فقول ساذج عار عن الصحة لا يقره البحث العلمي إنما الذي يناسب البحث العلمي أن نقول إنَّ الأرض كانت موجودة من قبل ولكنها لم تَستثر حاسة الملك عند الناس لأنه لم تكن هناك فائدة تتحقق من امتلاكها، وبمجرد ظهور الفائدة تحركت الحاسة التي كانت موجودة من قبل في حالة كمون، فنشطت وتحركت.

والخلاصة: أن الشيوعية الأولى - على فرض وجودها - ليست دليلاً على عدم وجود نزعة فطرية للتملك إنما هي دليل فقط على عدم وجود نشاط ظاهر لهذه النزعة في تلك الفترة لأنها نشطت بالفعل بمجرد وجود حوافز تستثيرها،

---

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة ص، (٣٧٢).

ويمكن لهذه النزعة أن تُهذَّب إلى درجة عالية جدًا توشك أن تحولها إلى نزعة جماعية كما صنع التهذيب الإسلامي بالأنصار حتى جعلهم يُؤثرون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ويقتسمون معهم كل ما يملكون من متاع الحياة الدنيا حتى قال الله فيهم: ﴿ **والذين تبوءُوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[١].

ولكن هذا التهذيب لا يلغي النزعة الفطرية من أساسها إنما يرفعها إلى أنبل صورها مع الإبقاء على أصلها، ولو كان الله ـ جل وعلا ـ منزل هذا الدين الذي هذب النفوس إلى هذا الحد الرفيع يعلم ـ سبحانه وتعالى ـ أن إلغاءها بدلاً من إبقائها وتهذيبها أنفع للإنسان أو أنسب لطبيعته لشرع ـ سبحانه إلغاءها، ولكنا نجد التشريعات والنصوص كلها تؤكد وجودها في فطرة الإنسان[٢] قال تعالى: ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب** ﴾[٣].

أما زعمهم أن الصراع سيتوقف حين تزول الملكية الفردية، فنقول لهم: إن الشيوعية قد ألغت الملكية الفردية فلماذا تقوم المؤامرات الدائمة التي يعلن عن تصفيتها والتغلب عليها بين الحين والآخر أو تكون نتيجتها الإتيان بزعيم أخر بدلاً من الزعيم الهالك أو المدحور؟ وفي الصراع بين شقي المعسكر الشيوعي: روسيا والصين، أولَم تُلغَ الملكية الفردية؟ فلماذا إذن بقي الصراع؟[٤].

---

(١) سورة الحشر: الآية (٩).

(٢) انظر: مذاهب فكرية معاصرة للشيخ/ محمد قطب، ص (٣٦٨، ٣٦٩).

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٤).

(٤) انظر: مذاهب فكرية للشيخ/ محمد قطب ص، (٣٧٥).

ثالثا: التوازن المالي بين أفراد المجتمع:

من المباديء الاقتصادية التي يقوم عليها النظام الاقتصادي الإسلامي التوازن المالي بين أفراد المجتمع، وهذا التوازن لا يعني انتفاء التفاوت في الثراء بين أفراد المجتمع، فهذا مستحيل لقوله تعالى: ﴿ **أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون** ﴾[١] وإنما يعني التوازن في الإسلام أن يؤدي كل فرد من أفراد المجتمع العمل الذي يحسنه والذي يتلاءم مع جهوده، في حين أوجب الإسلام على الأغنياء حقوقا رتبها في أموالهم وجعل بعضها أمرا إلزاميا لا يستطيع الغني الفكاك منه بحال من الأحوال، فإن راودته نفسه على التهاون في ذلك الواجب بإنقاصه أو التخلي عن أدائه قام الإمام بمحاربته والضرب على يده حتى ينصاع لأمر الله، ومن هذه الواجبات التي رتبها الله - جل وعلا - في المال ما يلي:

أ - أداء الزكاة المستحقة في كل مال بلغ النصاب الشرعي وحال عليه الحول بالشروط المنصوص عليها في كتب الفقه في كل نوع من الأنواع التي فرض الله ورسوله ﷺ الزكاة فيها، وهذا الموضوع ليس من صميم البحث وإنما سقته كمثال على التوازن المالي بين أفراد المجتمع الإسلامي، وقد أمر الله - سبحانه - بأداء الزكاة في آيات كثيرة من كتاب الله العزيز، قال تعالى: ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير** ﴾[٢] كما بيّن مصارفها فلم يترك تبيينها لأحد، فقال جل شأنه: ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم** ﴾[٣] فهؤلاء لهم حقوقهم

---

(١) سورة الزخرف: الآية (٣٢).

(٢) سورة البقرة: الآية (١١٠).

(٣) سورة التوبة: الآية (٦٠).

في أموال الزكاة وإذا كُفي هؤلاء الأصناف فلن يبقى في المجتمع مضطر ولا محتاج.

ب ـ ومن وسائل الإسلام في التوازن المالي بين أفراد المجتمع ذمه للبخل والبخلاء، وحضه على التصدق والإنفاق في سبيل الله، وإغراؤه على ذلك بوسائل مختلفة لا يسمح الموضع باستيعابها، وحسبي أن أذكر بعض الآيات التي تذم البخل وأهله، والتي يفهم منها أن هلاك المال وذهابه إنما هو بسبب بخلهم وشحهم، وأن أموالهم ستكون عليهم حسرة وندامة، قال تعالى: ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير** ﴾[1] وقال ـ تعالى ـ: ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم (٣٤) يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾[3].

جـ ـ ومن وسائل الإسلام في التوازن المالي بين أفراد المجتمع ذمه للإسراف، فكما ذم الإسلام البخل ذم الإسراف الذي يؤدي إلى ضياع المال في غير وجوه النفع، وكلاهما يؤدي إلى سوء العاقبة، وتتولد عنهما في نفوس الفقراء الضيق والضجر والكراهية، قال ـ تعالى ـ يحذر من التبذير والإسراف: ﴿ **إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا** ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٨٠).

(٢) سورة التوبة: الآيتان (٣٤، ٣٥).

(٣) سورة محمد: الآية (٣٨).

(٤) سورة الإسراء: الآية (٢٧).

د ـ ومن وسائل التوازن المالي في الاقتصاد الإسلامي حضه على الصناعة وترغيبه فيها وجعلها مفخرة وذكرًا عظيمًا لبعض أنبياء الله كداود ـ عليه السلام ـ حيث يقول ـ جل وعلا ـ: ﴿ **ولقد آتينا داوود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد (١٠) أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير** ﴾[١].

والمراد بقوله تعالى: ﴿ **أن اعمل سابغات** ﴾ أي: دروعًا واسعة تامة من السبوغ، وهو أول من اتخذها، وقد علّمه الله هذه الصنعة ليستغني وليأكل من عمل يده.

وقوله: ﴿ **وقدر في السرد** ﴾ أي: لا تجعل المسامير دقاقًا فتفلق ولا غلاظًا فتفصم الحلق، و ﴿ **السرد** ﴾ نسج الدرع[٢] وقوله ـ تعالى ـ في حقه أيضًا ـ عليه السلام ـ: ﴿ **وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون** ﴾[٣].

وأيضًا كانت الصناعة مفخرة لابنه سليمان ـ عليه السلام ـ يقول جل شأنه: ﴿ **ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر** ﴾ أي: معدن النحاس، فالقطر هو النحاس وهو الصفر ﴿ **ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير (١٢) يعملون له ما يشاء من محاريب** ﴾ أي: مساجد أو مساكن ﴿ **وتماثيل** ﴾ أي: صور السباع والطيور، وكان التصوير حينئذ مباحًا ﴿ **وجفان** ﴾ جمع جفنة ﴿ **كالجواب** ﴾ جمع جابية وهي الحياض الكبار، قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل ﴿ **وقدور راسيات** ﴾ ثابتات على الأثافي لا تنزل عنها لعظمها، وقيل إنها باقية باليمن[٤] ﴿ **اعملوا آل**

---

(١) سورة سبأ: الآيتان (١٠، ١١).

(٢) انظر: تفسير النسفي (٣/ ٣١٩).

(٣) سورة الأنبياء: الآية (٨٠).

(٤) انظر: تفسير النسفي، (٣/ ٣٢٠).

داوُودَ شُكْرًا وقَلِيلٌ مِّنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾[١].

هـ- ومنها حَضُّهُ على الزراعة والتجارة وتسخير الأموال في اكتشاف المعالم في البر والبحر وصنع كل ما يعود على الإنسان بالنفع مع تجنب الإجحاف على أصحاب الأموال من مصادرتها أو النيل منها بأخذ بعضها ما داموا يستخدمونها محكومين بمباديء الإسلام وشرائعه بأصليه العظيمين: الكتاب والسنة، وكذلك تجنب الإجحاف على العمال بإنقاصهم بعض أجورهم أو التسويف في أدائها إليهم أو استغلال حاجاتهم وضعفهم فيعطون الأجر الزهيد في العمل الكثير المضني.

هذه مباديء الإسلام وهذه شرائعه في التوازن المالي بين المسلمين، ولو طبقت تطبيقًا صحيحًا لعاش أفراد المجتمع في حب ووئام، إذ لكل إنسان متطلباته ومقدراته، وإنما دخل الخلل على المجتمعات الإسلامية باستغلال القوي للضعيف وحرص أصحاب الأعمال على إنجاز أكبر قدر منها بأزهد الأجور، وحرص العاملين على النيل من القادرين متى وجدوا السبيل إليه.

ومن هذا الباب دخلت علينا نظريات خُدعنا بها ووقعنا في شراكها كالتأمين وتحديد الملكية والاشتراكية وغير ذلك مما ولّد صراعًا بين طبقات المجتمع أدى إلى تخلخل كبير، وغرس الأحقاد والأضغان بين الناس حطّم قدرات مَن لهم قدرة على العمل والإنتاج، واضطرت المجتمعات الإسلامية إلى التعامل بالربا والوقوع فريسة في أيدي المحتكرين العالميين من الكفرة الذين يأخذون أموالنا ويردونها إلينا أسوأ رد مما لا يخفى على متأمل، ولو طبقنا الإسلام تطبيقًا صحيحًا وأخذنا الزكاة من الأغنياء ورددناها على الفقراء، وأنصفنا العامل من صاحب العمل وبالعكس، وأمّنا كل مسلم قادر على ماله، وأعطيناه حريته في استثماره كما يشاء محكومًا بالشرع لما وجدنا بيننا صراع، ولما كان لهذه المباديء الهدامة بيننا رواج، فالعيب فينا وفي تهالكنا على ما عند غيرنا مع أنه ظاهر الفساد، وتَرْك ما عندنا مع أنه صواب محض.

(١) سورة سبأ: الآية (١٣).

الفصل الثاني عشر

عاقبة الصراع بين الحق والباطل

في ضوء دراستي لدعوة الأنبياء مع أقوامهم ممن ذكرتهم سورة الأعراف بصفة خاصة ومن خلال تأملي وتفكري في سير الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وأتباعهم - رضي الله عنهم - وجهادهم الطويل من أجل نصرة الحق، وإعلاء كلمة الله، وعاقبة جهادهم مع أقوامهم، ولأجل تجلية عاقبة الصراع بين الحق والباطل رأيت أن أقسم هذا الفصل إلى مبحثين :

المبحث الأول : النصر محتم من عند الله للمؤمنين

المبحث الثاني : هذا النصر له وجوه متعددة

المبحث الأول
النصر محتم من عند الله للمؤمنين

إن النصر محتم من عند الله للفئة المؤمنة، ويوضح ذلك ما يلي:

أولاً: ثبوت الحق وانمحاق الباطل.

ثانيا: انتصار الحق على الباطل وذلك بتأييد الله له، وجعل ذلك النصر حقًا عليه أوجبه على نفسه وكتبه عليه.

ثالثا: حسرة أهل الباطل على ما أنفقوه في دنياهم على نصرة باطلهم.

رابعًا: استخلاف الله للمؤمنين به وبرسله، الثابتين على الحق، النابذين للباطل، العاملين للصالحات وتمكينهم في الأرض.

وإليك تفصيل ذلك:

أولاً: ثبوت الحق وانمحاق الباطل:

قال تعالى: ﴿**أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال**﴾[1].

يخبر ـ جل وعلا ـ في هذه الآية الكريمة بأن الحق هو الثابت الباقي وأن الباطل هو الذاهب الممحوق، وقد ضرب الله ـ جل وعلا ـ مثالين في هذه الآية بيّن فيهما ثبات الحق وزوال الباطل.

(١) سورة الرعد: الآية (١٧).

أولهما : بقوله تعالى : ﴿ **أنزل من السماء ماء** ﴾ أي : من السحاب ، ونكَّرَ ﴿ **ماء** ﴾ لكثرته وانتشاره في جهات مختلفة ﴿ **فسالت أوْدِيَةٌ** ﴾ والوادي : الطريق بين جبلين ، وهذه الأودية تحفظ الماء لينتفع منها كل مَن هو في حاجة إليه من الإنسان والحيوان والنبات ، كما قال تعالى : ﴿ **وجعلنا من الْماء كُلَّ شيْءٍ حيٍّ أفلا يؤمنون** ﴾[1] ولذا قال : ﴿ **بقدرها** ﴾ أي : بالمقدور من الماء الذي يفي بحاجات من يرد هذه الأودية ليشرب منها ويسقي مواشيه ، ويزرع حولها ﴿ **فاحْتمل السَّيْلُ** ﴾ أثناء اندفاعه من أوديته زبدًا رابيًا ، ظاهرًا معتليًا وجه الماء ، والزبد هو الغثاء الذي يحمله السيل على وجه الماء ثم ما يلبث أن يزول وينمحي في وقت قليل ، وذلك بدفع الماء له على الشاطيء فيتلاشى ويضمحل ، والـ ﴿ **ماء** ﴾ كناية عن الحق الثابت الذي يسعف من يتمسك به ويحفظه من الزيغ والشبه ، و ﴿ **زبَدًا رَّابيًا** ﴾ كناية عن الباطل الذي هو سريع الزوال ، والذي لا ينتفع منه المتمسك بشيء ما ، وهذا المثل يتلاءم مع الناس بعامة وأهل الزراعة خاصة .

ثانيهما : المثل الثاني في الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿ **ومِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْه في النَّار ابْتغاء حلْية أوْ متاعٍ زبدٌ مِّثْلُهُ** ﴾ وهذا المثل يتلاءم مع أهل الصناعات وسكان المدن الذين قلما تقع أبصارهم على الزبد الرابي فوق الماء .

ومعنى الآية الكريمة : ومما يوقد الناس عليه نيرانهم من الذهب والفضة تطويعًا لهما ليشكلوا منها ما يشاءون من الحلي التي يتحلون بها أو غيرهما من الحديد والنحاس والفلزات المختلفة ، ابتغاء المتاع والانتفاع بأشكال مختلفة لا تدخل تحت الحصر كصنع الأسلحة والمعدات الصناعية المختلفة وصنع الأواني المنزلية التي هي وسيلتنا لإنضاج الأطعمة وحفظها . . . إلخ لذلك كله زبدٌ كزبد الماء يطفو ويظهر على وجه تلك المعادن عندما يُحمى عليها وتصل إلى درجة الغليان ، فيظهر على وجه تلك المعادن زبد هو عبارة عن خبث وشوائب عالقة في

---

(١) سورة الأنبياء : الآية (٣٠) .

تلك المعادن، فيزيلها الصانع لتلك الحلي والمعادن لأن في بقائها تأثيراً في جودتها، وتبقى المادة صافية خالصة يشكل منها الصانع ما يشاء من الحلي والمتاع، فالباطل مهما علا وظهر فهو مثل الزبد الذي يعلو يطفو على سطح تلك المعادن أثناء غليانها، وسرعان ما يقذف به الصانع خارج الوعاء دون الانتفاع به.

ولذا عقّب الله على هذين المثلين بنتيجة حتمية، قال تعالى: ﴿ **فأمَا الزَبدُ فيذْهبُ جُفاءً وأمَا ما ينفعُ النَاس فيمكُثُ في الأرض** ﴾.

﴿ **فأمَا الزَبدُ فيذْهبُ جُفاء** ﴾ أي: متلاشيًا، وهو ما يقذفه القدر عند الغليان والبحر عند الطغيان، والجفء: الرمي، وجفأت الرجل: صرعته.

﴿ **وأمَا ما ينفعُ النَاس** ﴾ من الماء والحلي والأواني ﴿ **فيمكُثُ في الأرض** ﴾ فيثبت الماء في العيون والآبار يُنتفع بها في سقي الحبوب والثمار... وتصفو الحلي والمعادن لينتفع بها في الزينة والتجارة وغيرها... ﴿ **كذلك يضرب اللَه الأمْثال** ﴾ ليظهر الحق من الباطل[1].

ذلك مثل الحق والباطل، فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابيًا طافيًا ولكنه بعد زبد أو خبث ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحًا لا حقيقة له ولا تماسك فيه، والحق يظل هادئًا ساكنًا وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أوضاع أو مات ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحيي، والمعدن الخالص ينتفع الناس به[2] وكذلك الشبهات والتمويهات الزائفة قد تقوى وتعظم إلا أنها في الآخر تبطل وتضمحل وتزول ويبقى الحق راسخًا لا يشوبه شيء من الشبهات، لأنه لا بقاء إلا للنافع، وما تصارع الحق والباطل إلا وفاز الحق بقرنه.

---

(١) بتصرف من تفسير النسفي (٢/ ٢٤٧).

(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٥/ ٨٥).

ثانيا: انتصار الحق على الباطل وذلك بتأييد الله له، وجعل ذلك النصر حقًا أوجبه على نفسه وكتبه عليه:

قال تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلىٰ قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾[١].

لقد تكفّل الله - سبحانه - في كتابه العزيز بنصر عباده المؤمنين الصادقين، وذلك من خلال تسخير أسباب النصر لهم وتيسيرها عليهم، وهذه الآية الكريمة صريحة في أن أهل الباطل لما كذبوا ما جاءهم من البينات على ألسنة الرسل تولى الله الانتقام منهم بذاته - جل وعلا - مع بيان سبب ذلك التشديد عليهم وهو إجرامهم ومعاندتهم لأهل الحق: ﴿ فانتقمنا من الذين أجرموا ﴾.

كما بينت هذه الآية أن نصر المؤمنين وهم حزب الله وخاصته حق عليه، أوجبه - جل وعلا - على نفسه تفضلاً وتكرمًا، فكلمة ﴿ حقًا ﴾ معناها هنا: واجبًا وفرضًا، والله لا يجب عليه شيء، والنصر ربما تأخر لكنه لابد أن يأتي لأنه وعد مقطوع به، مؤكد لا يقبل الخلف، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك؛ لقد حقق الله وعده فنصر عبده، وأعز جنده، وملّك المسلمين ما لم يكن يخطر لهم على بال، ملكهم ملك كسرى وقيصر، وفتح لهم البلاد، ودانت لهم رقاب العباد، وصاروا في عز مكين وجاه عظيم بعد أن كانوا في الذل والهوان مصداقًا لقوله - تقدست أسماؤه -: ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾[٢].

وما كان هذا العز والتمكين إلا تحقيقًا لوعد الله القاطع ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾[٣] وقوله - تعالى -: ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن

---

(١) سورة الروم: الآية (٤٧).

(٢) سورة الأنفال: الآية (٢٦).

(٣) سورة الروم: الآية (٤٧).

ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[١] هذه الآية الكريمة تعني أن الله إذا تكرم بنصره للمؤمنين فلن يغلبهم أحد مهما جمعوا من أسباب النصر، فليوالوه وليتوكلوا عليه، وليعملوا بما أمروا به ولينتهوا عما نهوا عنه، والخطاب في هذه الآية للمؤمنين سيما من ذاق منهم مرارة الهزيمة في غزوة أحد، والعبرة بعموم اللفظ فهي درس قويم للمؤمنين إلى يوم القيامة.

وقال ـ جل شأنه ـ: ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾[٢]، هذه الآية تشير إلى أنه ـ جل وعلا ـ قد كتب نصرة الحق وأهله منذ الأزل في اللوح المحفوظ فلا يغير ولا يبدل، فالغلبة وإن تأخرت ستكون في النهاية لأهل الحق؛ يظهرهم الله وينصرهم على أهل الباطل مهما علوا في أمرهم، وقد أكد ـ جل وعلا ـ ذلك بنون التوكيد، وختم الآية الكريمة بقوله: ﴿ إن الله قوي ﴾ أي: على نصرة رسله وأوليائه، لا يعجزه شيء ﴿ عزيز ﴾ أي: لا يقهر ولا يغلب، ولا يدفعه أحد عن مراده.

ثالثا: حسرة أهل الباطل على ما أنفقوه في دنياهم على نصرة باطلهم:

يجتهد أهل الباطل في نصرة باطلهم بكل الوسائل المتاحة لهم، فما من طريق لبثّ باطلهم إلى غيرهم إلا وسلكوه، ومن تلك السبل إنفاقهم الأموال الطائلة لنشر رذائلهم ومبادئهم وسمومهم ليصدوا عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾[٣].

هذه الآية الكريمة نزلت في المطعمين يوم بدر من أهل مكة عندما خرجوا لمقاتلة المسلمين في بدر وكانوا اثني عشر رجلاً من كبار قريش، وقيل: نزلت في

(١) سورة آل عمران: الآية (١٦٠).

(٢) سورة المجادلة: الآية (٢١).

(٣) سورة الأنفال: الآية (٣٦).

أبي سفيان وإنفاقه المال على حرب رسول الله ﷺ يوم أحد وكان قد استأجر ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب وأنفق عليهم أربعين أوقية[١] والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وقد بينت الآية الكريمة مقصدهم وهدفهم من ذلك الإنفاق ألا وهو صدهم عن سبيل الله، سيما صدهم عن اتباع رسول الله ﷺ والإيمان برسالته، وأخبر - جل وعلا - أن ذلك الإنفاق سيكون عليهم في النهاية حسرة وندامة، وسبب تلك الحسرة أنه يذهب المال ولا يتحقق مقصودهم بل يصيرون مغلوبين في آخر الأمر.

رابعا: استخلاف الله للمؤمنين به وبرسله، الثابتين على الحق، النابذين للباطل، العاملين للصالحات وتمكينهم في الأرض:

ومن عواقب الصراع بين الحق والباطل استخلاف الله - تعالى - للمؤمنين وذلك بعد حصول النصر كما وعد به - جل وعلا - بقوله: ﴿ **واذْكُرُوا إذْ أنتُمْ قَليلٌ مُستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطَّفكُمُ النَّاسُ فآواكُمْ وأيَّدكُم بنصْره ورزقَكُم من الطَّيِّبات لعلَّكُم تشكُرُون** ﴾[٢].

وقد وعد الله - سبحانه - عباده المؤمنين بالنصر والاستخلاف والتمكين إذا أخلصوا في عبادتهم لله وحده، فقال جل شأنه: ﴿ **وعَدَ اللَّهُ الَّذين آمنُوا منكُمْ وعملُوا الصَّالحات ليستخلفنَّهُمْ في الأرْض كما استخْلف الَّذين من قَبْلهمْ وليُمكِّنَنَّ لهُمْ دينهُمُ الَّذي ارْتضى لهُمْ وليُبدِّلنَّهُم منْ بعْد خوْفهمْ أمْنا يعْبدُونني لا يُشْركُون بي شيْئا ومن كفر بعْد ذلك فأُولئك هُمُ الْفاسقُون** ﴾[٣].

قوله: ﴿ **وعد اللَّهُ الَّذين آمنُوا منكُمْ** ﴾ هذا وعد من الله لا يتخلف، والوعد إذا كان من المعهود منه الصدق والوفاء تستريح له القلوب، فما بالك إذا كان الوعد من الله - جل وعلا -.

---

(١) أسباب النزول للواحدي، تحقيق/ السيد صقر (٢٣٣، ٢٣٤).

(٢) سورة الأنفال: الآية (٢٦).

(٣) سورة النور: الآية (٥٥).

وقوله: ﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾ والاستخلاف ليس مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم إنما هو ذلك كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخليفة أكرمها الله.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان[1].

❊ ❊ ❊

(١) بتصرف من: في ظلال القرآن لسيد قطب (١٨/ ١١٨، ١١٩).

المبحث الثاني
تعدد وجوه النصر الإلهي للمؤمنين

إن المتمعن لسير الأنبياء والمرسلين عبر تاريخهم الطويل يتبين له أن النصر الذي وعد الله به الفئة المؤمنة كان يتجلى في عدة صور، وليس كما يتبادر لأول وهلة للذهن أن النصر دائمًا حافل بالنصر العسكري المادي، إن النصر في الفكر الإسلامي معناه الغلبة والظهور للدعوة الإسلامية لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، فكل إعلاء لكلمة الله هو نصر لدين الله، وكل إحطاط من كلمة الكفر هو هزيمة للكفر وأهله، سواء تحقق ذلك بالصراع الفكري والعقدي بالحجة والبرهان، أو بإفشال مخططات العدو وكيدهم للنيل من الإسلام وأهله، أو بإنزال العقوبات الربانية لإهلاك طائفة من أهل الكفر، أو بالمواجهة العسكرية بين معسكر الإيمان والكفر، كل هذه وجوه للنصر لأن فيها إعلاءً لكلمة الله وإبطالاً لكلمة الكفر، وإعزازًا للحق وأهله وإذلالاً للباطل وأهله[1].

ويمكن أن نقسم وجوه النصر الإلهي للمؤمنين إلى أربعة وجوه:

الوجه الأول: النصر الفكري العقدي بالحجة والبرهان:

لقد أرسل الله رسله للناس مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وأيّدهم بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة والحكمة والموعظة الحسنة، وأيدهم - جل وعلا - أيضًا بالمعجزات الباهرة وقوة الصبر والتحمل

(١) انظر: أساليب النصر والهزيمة في الكتاب والسنة، رسالة ماجستير للزميل/ طالب أبو شعر، جامعة أم القرى ١٤٠٨هـ.

والترفق ولين الجانب، والأمثلة على النصر الفكري بالحجج والبراهين كثيرة في القرآن الكريم، وأذكر على سبيل المثال محاجّة نبي الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ للنمرود[١] قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾[٢].

الوجه الثاني: النصر بإنجاء المؤمنين من كيد الأعداء:

ما من نبي إلا ولاقى من قومه صدودًا وعنادًا وكيدًا، والله ـ جل وعلا ـ يؤيد أنبياءه بالنصر والحفظ والتمكين، وإليك بعض الأمثلة توضح ذلك:

قال ـ تعالى ـ حكاية عن قوم نبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذين ألقوه في النار ظنًا منهم أنها تحرقه بعد أن قيدوه وأحكموا وثاقه، فنصره الله، ورد كيدهم في نحورهم: ﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين (٦٨) قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم (٦٩) وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين﴾[٣].

وقال ـ تعالى ـ حكاية عن قوم لوط: ﴿ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين (٧٤) وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين﴾[٤].

---

(١) ملك بابل: نمرود بن كنعان، وقد أنكر أن يكون ثمّ إله غيره، وقد ذكر المفسرون والمؤرخون أنه استمر في ملكه أربعمائة سنة، وقد تمادى في كفره وطغيانه وتجبره، وقد دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له لكن جهله وطول أماله دفعاه إلى إنكار الخالق. انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١/ ١٤٨).

(٢) سورة البقر: الآية (٢٥٨).

(٣) سورة الأنبياء: الآيات من (٦٨) إلى (٧٠).

(٤) سورة الأنبياء: الآيتان (٧٤، ٧٥).

﴿ ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم (٧٦) ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾[١].

وكم لاقى نبينا ﷺ من الكيد والأذى، وقصة هجرته ﷺ واستخلافه عليًا - رضي الله عنه - على فراشه وخروجه من بيته وأعداؤه محاصروه مشهورة[٢] ومما نزل من القرآن في تربص المشركين به ومكرهم قوله تعالى: ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾[٣].

ولم ينته الأمر بكيد المشركين فقط بل انضم إليهم بعد الهجرة المنافقون واليهود لكن الله قنّط أعداءه منه، وقرر أنه كتب عليهم الذلة والهزيمة وكتب لنفسه ولرسله الغلبة والتمكين، قال - تعالى -: ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين (٢٠) كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾[٤].

الوجه الثالث: نصر المؤمنين بإهلاك أعدائهم بالمهلكات الكونية:

ويعتبر هذا النصر من أشدّ أنواع النصر وضوحًا لسحقه للباطل والقضاء عليه، وهو سنة لله في الأمم السابقة التي طغت وتجبرت، وحادّت الله ورسله، وأمعنت في ضلالها وفسقها، ولم تستجب لنصح رسلها بل قابلوا ذلك بالعناد والتحدي، والسخرية والاستهزاء والإعجاب بقوتهم، قال تعالى: ﴿ وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين (٣٨) وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين (٣٩) فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه

---

(١) سورة الأنبياء: الآيتان (٧٦، ٧٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ١٢٣ - ١٢٧).

(٣) سورة الأنفال: الآية (٣٠).

(٤) سورة المجادلة: الآيتان (٢٠، ٢١).

حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[١].

وكانت الريح الشديدة الباردة سببًا في نصر المؤمنين يوم الأحزاب؛ أرسلها الله على أعدائهم فهدمت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، قال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا** ﴾[٢].

الوجه الرابع: النصر العسكري ويمكن أن نقسمه إلى قسمين:

أ ـ نصر مباشر:

وقد سطر التاريخ أمثلة رائعة للنصر العسكري المباشر للمسلمين وذلك يتجلى واضحًا في عزوة بدر وفتح مكة... إلخ.

ب ـ نصر غير مباشر:

وهي الغزوات التي كان ظاهر أمرها أن الباطل قد انتصر على الحق لكن ذلك انتصار للمسلمين بوجه غير مباشر، ومن الأمثلة على ذلك:

١ ـ غزوة أحد: التي انهزم المسلمون فيها على أرض المعركة، وكان ذلك انتصارًا لهم بوجه غير مباشر لأنهم انتصروا على أنفسهم بأن تعرى لهم الباطل وتبينوا أنهم إذا لم يطيعوا أوامر الرسول ﷺ أصابتهم الهزيمة وانقلب النصر الذي حصل لهم أولاً إلى أعدائهم؛ فقد خالف المسلمون توجيهات نبيهم في بداية وأثناء المعركة؛ وهي:

أ ـ مخالفة بعض المسلمين لنبيهم في بداية المعركة: وذلك أن رسول الله ﷺ كان من رأيه أن لا يخرج المسلمون لمقاتلة المشركين خارج المدينة بل يتحصن

(١) سورة العنكبوت: الآيات من (٣٨) إلى (٤٠).

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٩).

المسلمون في داخل المدينة لإرغام قريش على مهاجمتها، وكان يهدف من وراء هذه الخطة إلى استخدام تكتيك حرب المدن والشوارع في مكان يعرفه المسلمون ويجهله المشركون، ويمكن للنساء المسلمات من المساهمة في المجهود الحربي مساهمة فعالة في حدود طاقتهن إضافة إلى إمكان المشاركة الفعلية في القتال برشق الحجارة من سطوح المنزل وإقامة المتاريس وسدادات الطرق في الشوارع[١].

وقد عبّر ﷺ عن رأيه بقوله: «**فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها**»[٢] ولكن بعضًا من الصحابة كانوا متحمسين للخروج ومقاتلة المشركين خارج المدينة، وكان على رأسهم حمزة بن عبد المطلب الذي قال لرسول الله ﷺ: «والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعامًا حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة» وأيد هذا الرأي عدد كبير من الصحابة الذين لم يكن لهم شرف الجهاد في معركة بدر[٣] وقد قال أحد الصحابة: «يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم وضعفنا».

فمخالفتهم لرأي الرسول ﷺ كانت درسًا تلقنه المسلمون وعرفوا أن ذلك سبب انهزامهم، ولكن كيف يصلون إلى ذلك لو لَم يحدث ما حدث؟

ب ـ مخالفة المسلمين لنبيهم في أثناء المعركة: وهي أن رسول الله ﷺ أمر خمسين من الصحابة على رأسهم عبد الله بن جبير بأن لا يبرحوا الجبل الذي يعلوا المعركة ـ جبل الرماة ـ وقال لهم: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا**

---

(١) انظر: الرسول العربي وفن الحرب للواء الركن/ مصطفى طلاس ص (١٥٤).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦٩).

(٣) انظر: الرسول العربي وفن الحرب للواء الركن/ مصطفى طلاس، ص (١٥٤، ١٥٥).

مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»[١].

وحصل ما حصل من مخالفتهم لرسول الله ﷺ عندما رأوا انهزام المشركين وإقبال إخوانهم الصحابة على جمع الغنائم فتركوا ذلك الموضع[٢].

فهذه المخالفات هي في الواقع كانت دروسًا عظيمة كشفت عن الباطل وعرّته، ولولا الهزيمة لما استطاعوا أن يفهموا حقيقة هذه الأمور.

٢ ـ غزوة حنين : وفيها كان عدد المسلمين عشرة ألاف مقاتل، وهذا العدد الكبير لم تبلغه غزوة قبل ذلك حتى قال أناس من المسلمين: «لن نغلب اليوم من قلة، وأعجبتهم كثرتهم»[٣] لكن كثرتهم لم تُغن عنهم من الله شيئًا فهزموا في أول المعركة، وفرَّ الكثير منهم، وكانت الهزيمة هنا نصرًا للمؤمنين على نفوسهم، فحين شاهدوا رسولهم ﷺ يتقدم في الصفوف لا يبالي بالسهام الموجهة إليه ويقول:

أنا النبي لا كذب　　أنا ابن عبد المطلب[٤]

واجتمع الناس بعد أن ناداهم عمه العباس: يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السمرة[٥] فأجابوا: لبيك لبيك. والتفت المسلمون حول رسول الله ﷺ وأمدهم الله بجنوده من عنده، وحصل النصر وتمت هزيمة هوازن.

---

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري، كتاب الجهاد (٦/ ٥٠٣).

(٢) انظر: المواهب اللدنية للإمام أحمد بن محمد القسطلاني، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ١/ ٩٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري، (١٠/ ٦٢، ٦٣)، وفتح الباري، (٩/ ٨٨).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، باب قوله تعالى: ﴿إذ أعجبتكم كثرتكم﴾، (٩/ ٨٩ ـ ٩١).

(٥) أصحاب السمرة: هي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان، وأراد العباس أن يذكرهم ما بايعوا عليه يومئذ لأنهم بايعوا يومئذ أن لا يفروا. انظر: بهجة المحافل، (١/ ٤٢٠).

ونزل قوله تعالى: ﴿ لقد نصركُمُ اللَّهُ في مواطن كثيرة ويوم حُنين إذْ أعْجبتْكُمْ كثْرتُكُم فلم تُغْن عنكُم شيئا وضاقت عليْكُمُ الأرْضُ بما رحُبتْ ثُمَّ ولَّيتُم مُدْبرين (٢٥) ثُمَّ أنزل اللَّهُ سكينته علىٰ رسُوله وعلى الْمُؤْمنين وأنزل جُنُودا لَّمْ تروْها وعذَّب الَّذين كفرُوا وذلك جزاءُ الْكافرين ﴾[1].

وقد تعلم المسلمون درسًا لا ينسونه أبدًا، تعلموا أنه لا ملجأ لهم من الله إلا إليه، وأن النصر من عند الله، وهذا هو النصر الحقيقي.

وصلى الله على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا ومولانا محمد، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وآلهم وصحبهم أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

(١) سورة التوبة: الآيتان (٢٥، ٢٦).

خلاصة ما جاء في الفصل الثاني عشر

١ ـ عاقبة الصراع بين الحق والباطل مهما طال أمده إنما هي النصر المحتم المحقق من عند الله ـ تعالى ـ للمؤمنين .

٢ ـ من علامات نصر الفئة المؤمنة ما يلي .

* ثبوت الحق وانمحاق الباطل .
* انتصار الحق على الباطل وذلك بتأييد الله له .
* حسرة أهل الباطل على ما أنفقوه في دنياهم لنصرة باطلهم .
* استخلاف الله للمؤمنين به وبرسله الثابتين على الحق النابذين للباطل .

٣ ـ النصر الإلهي للمؤمنين له عدة وجوه، منها :

* النصر الفكري العقدي بالحجة والبرهان .
* النصر بإهلاك أعداء المؤمنين بالمهلكات الكونية .
* النصر العسكري، وله قسمان :
  ـ نصر مباشر كغزوة بدر وفتح مكة .
  ـ ونصر غير مباشر، كغزوة أحد، وغزوة حنين .

* * *

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد أن أكرمني الله ـ عز وجل ـ بدراسة سورة الأعراف والتعرف على ما جاء فيها من صراع بين الحق والباطل يطيب لي أن أبين أهم النتائج التي تَوصَّلتُ إليها:

١ ـ أن مفهوم الصراع بين الحق والباطل هو: غلبة الحق على الباطل بالبراهين والحُجج التي لا تدع مجالاً لذي لب في ظهور الحق على الباطل، ومدافعته له بالشرائع الإلهية التي أنزلها الحق ـ جل وعلا ـ في كتبه على أنبيائه ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ.

٢ ـ الحق ما جاءت به الشرائع الإلهية ورضيه الله ـ سبحانه وتعالى ـ دينًا لعباده، وهو شامل للعقائد والأحكام على سواء وإن نفر منه أكثر الخلق، والباطل ما ذمه الله ـ تعالى ـ على لسان رسله وأنزل ذمه في كتبه، ولم يرضه دينًا لخلقه وإن جنح إليه أغلب الخلق وحرصوا على إعلائه على الحق.

٣ ـ أن الصراع الذي أمر المؤمنون بخوضه لنصرة الحق يتمثل في أمرين:

أولاً: مجاهدتهم أنفسهم على الثبات على الحق وأن يظل الانتصار له قويًا في نفوسهم لا يضعف.

ثانيًا: مجاهدة أعدائهم بالحُجة والبرهان، فإن عجزت الوسائل الإقناعية وظل طغاة الباطل يمنعون المسلمين من دعوة الحق أمكن حينئذ اللجوء إلى القوة لإزاحة الطغاة، وتأمين دعوة الله للناس وإقامة العدل والأمن والسلام، وذلك لا يكون إلا بالجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله.

٤ ـ أن أهل الباطل لهم وسائل خاصة بهم لنشر باطلهم، وهم يبذلون كل وسيلة متاحة لهم لنشر باطلهم مهما كلفهم الأمر، وأن الفواحش والمحرمات هما في مقدمة وسائلهم التي يتصيدون بها من أرادوا إضلاله.

٥ ـ أن غاية الصراع في الإسلام هي هداية البشرية وإسعادها وترغيبها في الخضوع لخالقها ـ عز وجل ـ وأن تعبده بما شرعه لها، وأن تنبذ العداوات ويسيطر الحب والإخاء على قلوب الناس.

٦ ـ أن غاية الصراع عند أعداء الحق هو تحطيم البشرية، وإضلالها عن الحق، وتجهيلها بربها ـ عز وجل ـ وتجهيلها بآخرتها دار القرار التي هي صائرة إليها لا محالة، وإفشاء العداوات والأحقاد والفتن.

٧ ـ أن سورة الأعراف كغيرها من السور المكية دعت إلى تثبيت الإيمان في النفوس، وحضت على التمسك به لأنه طريق السعادة، لذلك أمرنا الله ـ عز وجل ـ في الآية الثالثة[1] من هذه السورة أن نتبع ما أنزل إلينا من ربنا، مُجانبين أن نتبع من دونه أولياء هم وسيلة الشيطان إلى الإغواء، ثم بيَّن ـ تعالى ـ في ختام هذه الآية أن تلك الحقيقة بشقّيها تغيب عن كثير من الناس، وأن أغلب البشر في ذهول عنها، وأنهم لا يتذكرونها إلا تذكراً لا يوصلهم إلى المطلوب.

٨ ـ أن الإنسان بطبعه حريص على الاستكثار من عَرَض الدنيا، غيَر مُبال بما يضره منه وبما ينفعه، وأن صدقَ الإيمان ولزوم التقوى يحققَان للإنسان ما يبتغيه من كثرة الأشياء لديه، وأن الله سمى ما يؤتيه المؤمنين ﴿ **بركات** ﴾[2] فلا حدود لهذا الجمع، وغيرٌ خاف أن البركة هي النماء والزيادة، فما بالها إذا كانت بركات

(١) قال تعالى: ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ﴾ سورة الأعراف: الآية (٣).

(٢) قال تعالى: ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ سورة الأعراف: الآية (٩٦).

فتحها الله على أهل القرى لو آمنوا واتقَوا؟ ولكن أهل القرى أمعنوا في الكفر والتكذيب.

٩ ـ عداوة إبليس لبني آدم وتوعده بإضلالهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فهو لا يدع ولا يُقصِّر في وجه من الوجوه الممكنة البتة إلا سلكها، لذلك كله جاء التحذير لبني آدم من الشيطان ووسائله الخادعة، وأنه لا سبيل لدحره إلا بذكر الله، والإكثار من الاستعاذة منه، والتحصن بالمأثورات النبوية الواردة في هذا الشأن.

١٠ ـ التحذير من التساهل في كشف العورات لما يجر ذلك إلى الفواحش فإن كشف العورات أساس كل فتنة.

١١ ـ بينت خطورة المعاصي على بني آدم وأنها تجلب عليهم الشؤم وخسران الدنيا والآخرة.

١٢ ـ التحذير من سوء الأخلاق كالكيد والحسد والكذب والغرور . . إلخ.

١٣ ـ طول الفترة التي ظل نوح ـ عليه السلام ـ يدعو فيها قومه، والتي أخبرنا القرآن الكريم عنها عند قوله: ﴿ **فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاما** ﴾[1].

١٤ ـ اتهام الأقوام لأنبيائهم بالضلال أو السفاهة أو الكذب فيه درس عظيم للدعاة بأن يتحملوا كل إساءة أو إهانة، وحسبهم في ذلك ما لاقاه الرسل من أممهم، وما لاقاه رسول الله ﷺ من المشركين في مكة حيث وضعوا سلا الجزور على رأسه وهو يصلي حول الكعبة، وقذفوه بالحجارة حين ذهب إلى ثقيف لدعوتهم حتى سال دمه الزكي، واتهموه بالسحر والجنون . . . إلخ.

١٥ ـ أن الباطل وإن طال أمده زاهق، والحق مهما عُورض وحُجبَتْ أنوارُه فهو مزهر ثابت، ولا يضر الحق قلة أهله، ولا ينفع الباطل كثرة أعوانه.

---

(١) سورة العنكبوت: الآية (١٤).

١٦ ـ أن الله ـ عز وجل ـ وعد بنصر رسله والذين آمنوا، ووعدُ الله هو الحق، ولا تستطيع أية قوة مهما كانت أن تنقض هذا الوعد.

١٧ ـ أن من سنن الله ـ تعالى ـ في الأمم المكذبة أنهم إذا اقترحوا آية فأعطوها ثم لم يؤمنوا حل بهم عذاب الله ـ تعالى ـ[١] ولذلك لم تُجبْ قريش في ما اقترحت على سيد الخلق ﷺ أن الله ـ جل وعلا ـ لم يُرد إهلاك هذه الأمة ومعاملتها بما عومل به الأولون.

١٨ ـ بعض الناس قد يحدثون شرًا لا عهد للبشرية به من قبل فيبقى داء وبيلاً مهلكًا لكل مَن يتعاطاه من بعدهم فيدمره تدميرًا، يتضح ذلك من قبح فاحشة اللواط وخطورته على البشرية وما تمخض عنه في عصرنا من مرض الإيدز الذي أعجز العلماء في معاملهم وصيّر الأطباء حيارى أمام هذا الخطر الفتاك، قال تعالى: ﴿ **ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين** ﴾[٢].

١٩ ـ أن كثرة الأموال لدى أية أمة إذا لم تضبط بقواعد الشرع قادتها إلى المهلكة، وأن أولي الأموال الذين لا يُخضعون سلوكهم للشرع يستخدمون أموالهم في جلب الشرور والصد عن سبيل الله وإعجاز المصلحين عن إصلاح نفوسهم التي أفسدها الشَرَه فأصبحت حريصة على جمع المال دون مبالاة بسلامة الوسائل إلى ذلك، قال ـ تعالى ـ على لسان شعيب: ﴿ **فأوفُوا الْكَيْلَ والْميزانَ ولا تبخسُوا النَاس أشْياءهُمْ ولا تفْسدُوا في الأرْض بعْد إصْلاحها ذلكُمْ خيْرٌ لَكُمْ إن كنتم مؤمنين (٨٥) ولا تقْعُدُوا بكُلّ صراط تُوعدُون وتصُدُّون عن سبيل اللّه منْ آمن**

---

(١) قال تعالى: ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ سورة الأعراف: الآية (٧٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٨٠).

به وتبغونها عوجًا ... ﴾[١].

٢٠ ـ أن الباطل قد يسحر عيون الناس ببريقه الزائف لفترة من الزمن، ويستولي على أفئدتهم ومضة من الوقت حتى إنه لَيُخيّل لضعاف القلوب أنه غالب وحق، وهذا ما حدث لقوم فرعون عندما شاهدوا السحرة يلقون حبالهم وعصيهم وقد تحولت إلى حيات تسعى.

ولكن ما إن يواجه ذلك الباطل الزائف الحق الثابت الذي لا يتزعزع حتى يضمحل ويزول، وإذا بأتباع الباطل يصيبهم الذُعر والذل وهم يرون صروحهم تتهاوى وآمالهم تتداعى أمام نور الحق المبين، وإذا بتحدّيهم الصريح وتطاولهم الأحمق يتحول إلى استسلام مهين وذل مشين.

٢١ ـ أن رسوخ الإيمان في نفوس أتباع الحق يجعل من أتباع الحق القدرة على تحمل جميع المشاق مهما كانت ولو أودت بحياتهم، وفي هذا الاستنتاج درس قويم للدعاة إلى الله، قال ـ تعالى ـ حكاية عن سحرة فرعون وهم يخاطبون فرعون الذي هددهم بتعذيبهم وصلبهم: ﴿ **فاقْضِ ما أنت قاضٍ إنَّما تقْضي هذه الْحياة الدُّنْيا ...** ﴾ الآية[٢].

٢٢ ـ تخاذل الباطل واضمحلاله أمام الحق، فأهل الباطل يتبجَّحون بباطلهم ما فقدوا الرادع القوي، فإذا رُدعوا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وكادت قلوبهم تبلغ الحناجر.

٢٣ ـ أسوأ ما يبتلى به الإنسان أن تتجارى به أهواؤه كما يتجارى الكلب بالجيفة، ولذا قال ـ سبحانه ـ في شأن ذلك الإسرائيلي بلعم بن باعوراء: ﴿ **واتْلُ عليْهِمْ نبأ الَّذي آتيْناهُ آياتنا فانسلخ منْها فأتْبعهُ الشَّيْطانُ فكان من الْغاوين (١٧٥) ولو**

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٨٥، ٨٦).

(٢) سورة طه: الآية (٧٢).

شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾[1]، فعلى العاقل أن يلاحظ هواه، فإن كان تبعًا للكتاب والسنة متنه واجتهد في تمتينه، وإن كان على خلاف ذلك فليعلم أنه مريض بمرض عضال يحتاج في علاجه إلى بذل كل نفيس وغال حتى يرد إلى فطرته الصحيحة التي فطره الله عليها.

٢٤ ـ أن الله ـ جل وعلا ـ كتب نصرة الحق وأهله منذ الأزل في اللوح المحفوظ فلا يُغيَّرْ ولا يُبَدَّلْ، فالغلبة وإن تأخرت ستكون لأهل الحق؛ يظهرُهم الله وينصرهم على أهل الباطل مهما علَوا في أمرهم.

٢٥ ـ أن النصر في الفكر الإسلامي ليس محصوراً بالنصر العسكري المادي فحسب بل إن مفهوم النصر في الفكر الإسلامي معناه الغلبة والظهور للدعوة الإسلامية لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، فكلُّ إعلاء لكلمة الله هو نصرٌ لدين الله.

اللَّهمَّ انصر الإسلام والمسلمين، وأهلك الكفرة أعداء الدين؛ اللَّهمَّ إنك تعلم ما نزل بالمسلمين من الضعف والهوان، وتكالب الأعداء عليهم.

اللَّهمَّ، كلُّ مَن أراد الإسلام والمسلمين بسوء أو كيد أو إيذاء، فاجعل اللَّهمَّ كيده في نحره، وتدبيره تدميره وخذه أخذ عزيز مقتدر.

وكل من أراد الإسلام والمسلمين بخير وصلاح ونفع فوفقه لكل خير، وأيِّده بنصرك وتأييدك وحفظك، يارب العالمين.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٧٥، ١٧٦).

الفهارس

فهرس المصادر والمراجع

(أ)

١ ـ **القزويني**، زكريا بن محمد بن محمود:

* آثار البلاد وأخبار العباد. (بيروت: دار بيروت، ١٣٩٩هـ).

٢ ـ أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي في المجتمع:

* من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٣٩٦ هـ، (الرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ).

٣ ـ **الغزالي**، محمد بن محمد، (ت ٥٠٥هـ):

* إحياء علوم الدين. (القاهرة: مطبعة عيسى الحلبي، د. ت).

٤ ـ **الدمشقي**، ابن العباس أحمد بن يوسف أحمد الشهير بالقرماين، (ت ١٠١٩هـ).

* أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ. (بيروت: عالم الكتب).

٥ ـ **الأزرقي**، أبو الوليد محمد بن عبد الله:

* أخبار مكة المشرفة، تحقيق رشدي الصالح ملحس، (مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة).

٦ ـ **الشوكاني**، محمد بن محمد:

* إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول. الطبعة الأولى، (القاهرة: مصطفى الحلبي، ١٣٥٦هـ)، الباب الأول.

٧ ـ **الواحدي**، أبو الحسن علي:

* أسباب نزول القرآن، تحقيق السعيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، (جدة: دار القبلة، ١٤٠٤هـ).

٨ ـ **الغزالي**، الشيخ محمد:

* الإسلام في وجه الزحف الأحمر. الطبعة السادسة، (القاهرة: المختار الإسلامي للطباعة والنشر، ١٣٩٦هـ).

٩ ـ **دارون**:

* أصل الأنواع.

١٠ ـ **الشنقيطي**، محمد الأمين:

* أضواء البيان، (بيروت: مطبعة عالم الكتب).

١١ ـ **الشافعي**، الإمام أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، (ت ٤٠٥هـ):

* أعلام النبوة. الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٣هـ).

١٢ ـ **نخبة** من العلماء الأمريكيين:

* الله يتجلى في عصر العلم. ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، (بيروت: دار القلم).

١٣ ـ **البار**، محمد علي:

* الأمراض الجنسية. (جدة: دار المنارة).

(ب)

١٤ ـ **ابن كثير**، أبو الفداء إسماعيل:

* البداية والنهاية. الطبعة الثالثة، (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٨٠م).

١٥ ـ **البلخي**، أبو زيد أحمد بن سهيل، (ت ٣٠٢هـ):

* كتاب البدء والتاريخ، يباع عند الخواجة أرتشف كرو الصحفي بمدينة بايرز سنة ١٨٩٩م، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد لصاحبها قاسم محمد الرجب.

١٦ ـ **الزركشي**، بدر الدين محمد بن عبد الله.

* البرهان. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، (القاهرة: البابي الحلبي، ١٣٩١).

١٧ ـ **ابن يعقوب**، أبو الطاهر محمد، (ت: ٨١٧ هـ):

* بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق عبد العليم الطحاوي، (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية).

١٨ ـ **طنطاوي**، محمد سيد:

* بنو إسرائيل في القرآن والسنة. الطبعة الأولى، (القاهرة: دار حراء، ١٣٨٨هـ).

١٩ ـ **العامري**، عماد الدين يحيى بن أبي بكر:

* بهجة المحافل وبغية الأماثل. (المدينة المنورة: المكتبة العلمية).

٢٠ ـ **نوفل**، عبد الرزاق:

* بين الدين والعلم، القاهرة.

(ت)

٢١ ـ **الزبيدي الحنفي**، الإمام محب الدين أبي الفياض السيد محمد مرتضى الحسيني الوسطي، ت (١٢٠٥هـ).

* تاج العروس. الطبعة الأولى، (القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٦هـ).

٢٢ ـ **النجار**، محمد الطيب:

* تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية. (الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٣هـ).

٢٣ ـ **الطبري**، أبوجعفر محمد بن جرير، ت (٣١٠هـ):

* تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، (بيروت: دار سويدان).

٢٤ ـ **كرم**، يوسف:

* تاريخ الفلسفة الحديثة، (القاهرة: دار المعارف).

٢٥ ـ **ابن عبد السلام**، أبو محمد عبد العزيز:

* ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام. تحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي، (بيروت: مكتبة المنار).

٢٦ ـ **الكلبي**، محمد ين أحمد بن جزي:

* التسهيل لعلوم التنزيل. (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٣هـ).

٢٧ ـ **زينو**، حسن:

* التطور والإنسان.

٢٨ ـ **الحميدي**، عبد العزيز:

* تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة. (مكة المكرمة مركز البحث العلمي، بجامعة أم القرى).

٢٩ ـ **الملا**، حمد بن أبي بكر:

* تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق، أحمد بن أبي بكر الملا، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى.

٣٠ـ **ابن كثير**، أبو الفداء إسماعيل، (ت: ٧٧٤):

* تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار الفكر).

٣١ـ **العمادي**، أبو العسود محمد بن محمد، (ت٩٥١هـ):

* إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، المعروف بتفسير أبي السعود، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٣٢ـ **الألوسي**، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود، (ت: ١٢٧٠هـ):

* روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المعروف بتفسير الألوسي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٣٣ـ **الأندلسي**، أبو حيان بن محمد بن يوسف، (ت: ٧٤٩):

* تفسير البحر المحيط، (بيروت: دار الفكر).

٣٤ـ **البقاعي**، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم، (ت: ٨٨٥هـ):

* نظم الدر في تناسب الآيات والسور، والمعروف بتفسير البقاعي.

٣٥ـ **البيضاوي**، أبو سعيد عبد الله بن عمر الشافعي، (ت: ٦٨٥هـ):

* أنوار التنزيل وأسرار التأويل، والمعروف بتفسير البيضاوي، (بيروت: مؤسسة شعبان).

٣٦ـ **السيوطي**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت: ٩١١هـ):

وجلال الدين محمد بن أحمد المحلي، (ت: ٨٦٤هـ).

* القرآن الكريم وبهامشه التفسير المعروف (تفسير الجلالين)، (القاهرة: المكتبة الشعبية).

٣٧ـ **العجيلي**، سليمان بن عمر:

* تفسير الجمل (الفتوحات الإلهية)، (القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ١٢٠٤هـ).

٣٨ـ **البغدادي**، علاء الدين بن محمد بن إبراهيم الشهرياني: (ت: ٧٢٥هـ).

* تفسير الخازان، وبهامشه تفسير البغوي المعروف بمعالم التنزيل، لأبي محمد الحسيني بن مسعود الفراء البغوي (ت: ١٥١٦): الطبعة الثانية، (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م).

٣٩ـ **السيوطي**، جلال الدين عبد الرحمن، (ت: ٩١١هـ):

* تفسير الدر المنثور في التفسير المأثور. الطبعة الثانية، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ).

٤٠ـ **الطبري**، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت: ٣١٠هـ):

* تفسير القاسمي (محاسن التأويل) تعليق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الفكر).

٤٢ـ **القرطبي**، أبو عبد الله محمد أحمد، (ت: ٦٧١هـ):

* تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٤٣ـ **فخر الدين الرازي**، أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين:

* التفسير الكبير، (طهران: دار الكتب العلمية).

٤٤ـ **الزمخشري**، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، (ت: ٥٣٨هـ):

* تفسير الكشّاف (حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل). الطبعة الأولى، (بيروت: دار الفكر، ٣٩٧هـ).

٤٥ـ **عبده**، محمد (ت: ١٣٢٣هـ)، ورضا، محمد رشيد، (ت: ١٣٥٤):

* تفسير المنار، تفسير القرآن الكريم، الطبعة الأولى، (القاهرة: مطبعة المنار ١٣٤٦ هـ).

٤٦ ـ **البهي**، محمد:

* التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. تفسير سورة الأعراف: الطبعة الثانية، (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٠٠هـ).

٤٧ ـ **النسفي**، أبو البركات عبد الله بن أحمد:

* تفسير النسفي. (بيروت: دار الكتاب العربي).

٤٨ ـ **النيسابوري**، :

* غرائب القرآن ورغائب الفرقان. تحقيق إبراهيم عطوة عوض، الطبعة الأولى، (القاهرة: البابي الحلبي، ١٣٨١هـ).

٤٩ ـ **طنطاوي**، محمد سيد، الكومي، أحمد:

* تفسير سورة الأعراف. (القاهرة: دار الجيل، ١٣٩٢هـ).

٥٠ ـ **العسقلاني**، ابن حجر:

* تقريب التهذيب، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ١٩٧٥م).

٥١ ـ **إسماعيل**، عماد الدين، صاحب حماة، (ت: ٧٣٢هـ):

* تقويم البلدان، (باريس: الطباعة السلطانية، ١٨٣٠م).

٥٢ ـ **العسقلاني**، ابن حجر:

* تهذيب التهذيب. الطبعة الأولى، الهند، ١٣٢٧هـ، تصوير، (بيروت: دار إحياء، ١٩٦٨م).

٥٣ ـ **الأزهري**، أبو منصور محمد بن أحمد:

* تهذيب اللغة. (القاهرة الدار العربية للتأليف والترجمة).

٥٤ ـ **النجري**، محمد أمين بن محمود، (ت: ٩٨٧):

* تيسير التحرير على كتاب التحرير. (مصر: البابي الحلبي، ١٣٥٠هـ).

(ج)

٥٥ ـ **أبو زهرة**، محمد:

* الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي. (القاهرة، دار الفكر).

(ح)

٥٦ ـ **ابن القيم الجوزية**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، (ت: ٧٥١هـ):

* حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح. (بيروت: دار الندوة الجديدة).

٥٧ ـ **الشبياني**، ابن الديبع:

* حدائق الأنوار ومطلع الأسرار. تحقيق عبد الله الأنصاري.

(خ)

٥٨ ـ **أبو العلا**، عادل محمد صالح:

* خصائص السور المدنية ومقاصدها. رسالة ماجستير مكة المكرمة: (جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ).

(د)

٥٩ ـ **وجدي**، محمد فريد:

* دائرة معارف القرن العشرين. (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ).

(ر)

٦٠ ـ **طلاس**، مصطفى:

* الرسول العربي وفن الحرب. (دمشق: مطابع الإدارة السياسية).

(ز)

٦١ ـ **ابن الجوزي**، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي، (ت: ٥٩٧هـ):

* زاد المسير في علم التفسير. الطبعة الثالثة، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ).

(س)

٦٢ ـ **المغيري**، أبو علي زين الدين علي المغيري:

* سراج القلوب وعلاج الذنوب، على هامش قوت القلوب لأبي طالب الملكي.

٦٣ ـ **ابن ماجه القزويني**، أبو عبد الله محمد بن يزيد، (ت: ٢٧٥هـ):

* سنن ابن ماجه. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (القاهرة: عيسى البابي الحلبي).

٦٤ ـ **أبو داور السجستاني**، سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي:

* سنن أبي داود. (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧١هـ).

٦٥ ـ **الترمذي**، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة:

* سنن الترمذي. تحقيق محمد شاكر وآخرون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٦٦ ـ **ابن هشام**، أبو محمد بن عبد الملك، (ت: ٢١٨):

* سيرة ابن هشام. تحقيق مصطفى السقا وآخرون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٦٧ ـ .....،

* سيرة الحلبي. إنسان العيون في سيرة المأمون، (مكة: دار الباز، ١٤٠٠هـ).

٦٨ ـ **أبو شهبة**، محمد:

* السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة. (القاهرة: دار الطباعة المحمدية، ١٣٩٠هـ).

٦٩ ـ **الندوي**، أبو الحسن على الحسيني:

* السيرة النبوية، الطبعة الأولى، (جدة: دار الشروق، ١٣٩٩هـ).

(ش)

٧٠ ـ **ابن أبي المعز**:

* شرح العقيدة الطحاوية. حققها جماعة من العلماء، الطبعة الرابعة، (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٣٩١هـ).

٧١ ـ . . . . . :

* المحلي على جمع الجوامع، بحاشية البناني، (القاهرة: مصطفى الحلبي).

٧٢ ـ **البيهقي**، أبو بكر أحمد بن الحسيني عل، (ت: ٤٥٨هـ):

* شعب الإيمان.

(ص)

٧٣ ـ **الصاوي**، (ت: ١٢٤١):

* الصاوي علي الجلالين على تفسير الجلالين. (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية لأصحابها البابي الحلي.

٧٤ ـ **العيني**، بدر الدين بن محمد:

* شرح صحيح البخاري مع شرح عمدة القارئ، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٧٥ـ **العسقلاني**، أبو الفضل شهاب الدين ابن حجر:

* صحيح البخاري مع شرح فتح الباري. (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٧٨هـ).

٧٦ـ الإمام مسلم:

* صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار إحياء التراث).

(ظ)

٧٧ـ **قطب**، سيد:

* في ظلال القرآن الطبعة السابعة، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩١هـ).

(ع)

٧٨ـ **سويدان**، عبد الحليم:

* علم الحياة الحيوانية.

٧٩ـ **البوطي**، محمد سعيد رمضان:

* العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر. (دمشق، جامعة دمشق).

(ف)

٨٠ـ **الشيباني**، الإمام أحمد بن حنبل:

* الفتح الرباني لترتيب مسند ابن حنبل، تحقيق أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي، (القاهرة: دار الحديث).

٨١ـ **الشوكاني**، محمد بن علي بن محمد، (ت: ١٢٥٠هـ):

* فتح القدير. (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٨٣هـ).

٨٢ـ **الديلمي**، أبو الشجاع شيرويه:

* الفردوس بمأثور الخطاب. تحقيق السعيد بن بسيوني، الطبعة الأولى، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ).

٨٣ـ **الظاهري**، ابن حزم الأندلسي:

* الفصل في الملل والنحل، وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني.

(ق)

٨٤ـ **الصابوني**، محمد علي:

* قبس من نور القرآن الكريم. الطبعة الأولى، (دمشق: دار القلم، ١٤٠٧هـ).

٨٥ـ **ابن كثير**، أبو الفداء إسماعيل، (ت: ٧٧٤هـ):

* قصص الأنبياء. تحقيق عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الثانية، (بيروت: المكتبة الإسلامية، ١٤٠٢هـ).

٨٦ـ **بليخانوف**:

* القضايا الأسياسية في الماركسية.

(ك)

٨٧ـ ابن حنبل الإمام أحمد:

* كتاب السُنة، تحقيق محمد بن سعيد القحطاني، (الدمام: دار ابن القيم).

٨٨ـ الميداني، عبد الرحمن حبنكة:

* كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، الطبعة الأولى، (دمشق: دار القلم، ١٤٠٥هـ).

(ل)

٨٩ ـ **ابن منظور الأفريقي**، أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم:

* لسان العرب. (بيروت: دار صادر).

٩٠ ـ **(جمع) محمد فؤاد عبد الباقي**:

* اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان. (الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٣٩٧هـ).

٩١ ـ **رسالة ماجستير**، مقدمة لجامعة أم القرى بعنوان: (لوط عليه السلام) على ضوء الكتاب والسنة:

(م)

٩٢ ـ **ابن تيمية**، ابن العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني، (ت: ٧٢٨هـ):

* مجموع فتاوى ابن تيمية. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد القاسم العاصبي، (الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ).

٩٣ ـ **قطب**، محمد:

* مذاهب فكرية معاصرة، الطبعة الثانية، (القاهرة: دار الشرزوف، ١٤٠٧هـ).

٩٤ ـ **البغدادي**، صفي الدين عبد المؤمن، (ت: ٧٣٩هـ):

* مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع. تحقيق محمد علي البجاوي، الطبعةالأولى، (القاهرة: عيسى البابي الحلبي، ١٣٧٣هـ).

٩٥ ـ **النيسابوري**، أبو عبد الله الحاكم، (ت: ٤٠٥هـ):

* المستدرك على الصحيحين. (بيروت: دار الكتاب العربي).

٩٦ ـ **الشيباني**، الإمام أحمد بن حنبل:

* مسند الإمام أحمد بن حنبل، (بيروت: دار صادر).

٩٧ ـ **الديلمي**، عبد الوهاب:

* معالم الدعوة، (جدة: دار المجتمع).

٩٨ ـ **إشراف**، مجموعة من الباحثين بمجمع اللغة العربية:

* المعجم الوسيط. الطبعة الثانية، (القاهرة: دار المعارف، ١٣٩٣هـ).

٩٩ ـ **الأصفهاني**، ابن القاسم الحسين بن محمد الراغب، (ت: ٥٠٢هـ):

* المفردات في غريب القرآن. تحقيق سيد كيلاني، (بيروت: دار المعرفة).

١٠٠ ـ **السخاوي**، أبو الخير محمد بن عبر الرحمن:

* المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة.

١٠١ ـ **الزرقاني**، محمد عبد العظيم:

* مناهل العرفان. الطبعة الثالثة، (القاهرة: البابي الحلبي).

١٠٢ ـ **الهيثمي**، نور الدين:

* موارد الظمآن على زوائد ابن حبان. تحقيق عبد الرازق حمزة، (بيروت: دار الكتب العلمية).

١٠٣ ـ **الأبجي الشافعي**، عضد الدين الأيجي معيني الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني، شرح للشريف الجرجاني (ت: ٩٠٥ هـ):

١٠٤ ـ **القسطلاني**، أحمد بن محمد:

* المواهب اللدنية. (بيروت: دار الكتب العلمية).

١٠٥ ـ **يودستنيك وياخوت**:

* الموجز في المادية الديالكيتكية.

١٠٦ ـ **الطويشة**، أحمد:

* موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ. (مكة المكرمة: دار مكة، ١٤٠٢هـ).

(ن)

١٠٧ ـ **رسالة ماجستير**، مقدمة لجامعة أم القرى، للصادق المنا محمد بعنوان: (نبي الله شعيب على الكتاب والسنة).

١٠٨ ـ **البوطي**، محمد سعيد رمضان:

* نقض أوهام المادية الجدلية: الطبعة الثانية، (دمشق: دار القلم، ١٣٩٩هـ).

١٠٩ ـ **التويري**، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت: ٧٣٣هـ):

* نهاية الأرب في فنون الأدب. (القاهرة: دار الكتب).

بالإضافة إلى غير ذلك من مراجع تم الاستعانة بها

* * *

فهرس الأعلام المسلمين المترجم لهم

١ ـ الحسين بن محمد بن المفضل أبي القاسم الأصفهاني (١٨).
٢ ـ أبو الحسن بن بطال، علي بن خلف البكري (ص ١١٨).
٣ ـ صالح بن عبيد بن أسيف عليه السلام (ص ٢٩٤).
٤ ـ عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن خليل القاضي، أبو الحسن (ص ٩٢).
٥ ـ عز الدين أبو محمد عبد العزيز عبد السلام (ص ٤٩٠).
٦ ـ علي بن الحسين بن واقد (ص ٦٠٨).
٧ ـ لاحق بن حميد سعيد السدوسي البصري، أبو مجلز (ص ٦١).
٨ ـ موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ (ص ٤١٣).
٩ ـ نوح بن لامك ـ عليه السلام ـ (ص ٢١٧).
١٠ ـ هارون الرشيد (ص ٦٠٨).
١١ ـ هود بن شالخ بن فخشد ـ عليه السلام ـ (ص ٢٥٥).
١٢ ـ يوشع بن نون (ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨).

* * *

فهرس الأعلام غير العرب المترجم لهم

١ ـ تشارلز داروين (ص ٧٢٤).

٢ ـ روبرت بييج (ص ٧٥٠).

٣ ـ فرانك ألن (ص ٧٤٢).

٤ ـ كارل ماركس (ص ٧٠٨).

٥ ـ كلودم هاثواي (ص ٧٥١).

٦ ـ لينين (ص ٧١٢).

٧ ـ ميربت ستانلي كونجدن (ص ٧٥٠).

٨ ـ موسى بن ظفر السامري (ص ٥٣٢).

٩ ـ نمرود بن كنعان (ص ٧٨٩).

١٠ ـ هيجل (ص ٧٠٣).

* * *

صدر من هذه السلسلة

١- **ولاية اليمامة:** دراسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، تأليف ثالج بن سليمان الوشمي (رسالة دكتوراة) الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٢- **أسس تنظيم المكتبات والمعلومات:** تأليف روزي بنهام، كولن هاريسون، ترجمة سناء محاسني - ناصر السويدان - حمد عبد الله عبد القادر، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٣- **لغة العرب:** دراسة تاريخية وكشاف موضوعي، إعداد أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري، أمين سليمان سيدو، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٤- **السجل العلمي لندوة استخدام اللغة العربية في تقنية المعلومات،** إعداد ناصر السويدان، محمد الربيع، محمد السويل، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ

٥- **النشاط الاقتصادي في عصر الإمارة،** تأليف خالد البكر (رسالة ماجستير) الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٦- **الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري،** تأليف محمد إبراهيم أبا الخيل (رسالة ماجستير) (تحت الطبع).

٧- **الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين** (رسالة دكتوراه) د. يوسف بن إبراهيم العريني.

٨- **زواهر الفكر وجواهر الفقر،** مخطوط لابن المرابط، دراسة وتحقيق حسن فليفل.

٩- **الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف،** تأليف عادل محمد صالح أبو العلا.

١٠- **السجل العلمي لندوة الأندلس:** قرون من التقلبات والعطاءات (الجزء الأول).

١١- **تقييم الأداء في المكتبات ومراكز المعلومات،** تأليف ف. و. لانكستر ترجمة الدكتور حسني الشيمي والدكتور جمال الفرماوي.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
التقديم	٩
شكر وتقدير	١١
مقدمة الطبعة الثانية	١٣
المقدمة	١٧
منهجي في هذا البحث	٢٣
تمهيد	٢٩
أ ـ مفهوم الحق والباطل والصراع بينهما	٣٣
غاية الصراع في الإسلام	٣٩
ب ـ بيان أن سورة الأعراف من السبع الطوال وهي مكية	٤١
المقاصد العامة لسورة الأعراف	٤١
أولاً: الآيات الخاصة بالحض على الإيمان بالله ـ جل وعلا ـ	٤٢
ثانيًا: الآيات الزاجرة عن الشرك	٤٧
ثالثًا: الآيات الخاصة باليوم الآخر وأن وقوعه لا ريب فيه	٥٣
رابعًا: الآيات الواردة في صدق الرسول ﷺ	٧٢
خلاصة التمهيد	٧٧
الفصل الأول: صراع إبليس مع آدم ـ عليه السلام ـ	٧٩
مقدمة	٨٣
المبحث الأول: مسائل مهمة لابد من توضيحها	٨٧
المسألة الأولى: أطوار خلق آدم ـ عليه السلام ـ	٨٧

المسألة الثانية: خلق حواء ـ عليها السلام ـ ٩٠
المسألة الثالثة: من هم الملائكة؟ ٩٢
المسألة الرابعة: السجود لآدم وبيان حقيقة ذلك ٩٨
المسألة الخامسة: حقيقة إبليس ـ أعاذنا الله منه ـ ١٠٠
المسألة السادسة: الكلام عن الجنة ١٠٧
المسألة السابعة: الكلام عن الشجرة ١١٩
المبحث الثاني: الآيات التي يدور الصراع عليها في قصة آدم ـ عليه السلام ـ ١٢١
مقدمة ١٢٣
أولاً: تكريم الله لآدم وبنيه بإسجاد الملائكة له ١٢٥
ثانيًا: امتناع إبليس عن السجود لآدم ـ عليه السلام ـ ١٢٩
ثالثًا: توعد إبليس لبني آدم بالإغواء ١٣٥
رابعًا: عجز إبليس عن إغواء عباد الله المخلصين ١٣٨
خامسًا: كيد الشيطان للإنسان وفيه يتجلى الصراع بينهما ١٤٠
سادسًا: تكريم الله لآدم وزوجه بإسكانهما الجنة ونهيهما عن الأكل من الشجرة ١٤٥
سابعًا: بداية كيد الشيطان لآدم وزوجه ـ عليهما السلام ـ ١٤٨
ثامنًا: عتاب الله ـ جل وعلا ـ لآدم وزوجه بعد أن أكلا من الشجرة ١٥٤
تاسعًا: استقرار آدم وزوجه في الأرض بعد أن تاب الله عليه ١٥٧
عاشرًا: دعوة القرآن بني آدم للاعتبار بما حدث بين أبيهم وإبليس ـ أعاذنا الله منه ـ ١٥٩
الحادي عشر: التعري ومفاسده ووسائل الشيطان إليه ١٧١
الثاني عشر: في التحذير من فتن إبليس ومكايده ١٧٦
أ ـ الكبر والاغترار والإعجاب بالنفس ١٧٧

ب ـ الحسد ١٨٠
جـ الكذب والخداع ١٨٢
د ـ الإغراء بالشهوات ١٨٤
هـ ـ الغرور ١٨٦
و ـ الجرأة على المعصية ١٨٧
ز ـ طول الأمل ١٨٩
ح ـ الإيمان والكفر ١٩١
الثالث عشر : براءة آدم ـ عليه السلام ـ وبين قومه ١٩٣
خلاصة ما جاء في الفصل الأول ٢٠٣
الفصل الثاني: الصراع بين نوح ـ عليه السلام ـ وبين قومه ٢٠٩
مقدمة ٢١٣
المبحث الأول : دعوة نوح ـ عليه السلام ـ لقومه ٢١٧
المبحث الثاني : أسباب الصراع بين نوح ـ عليه السلام ـ وقومه ٢٢٣
المبحث الثالث : موقف نوح ـ عليه السلام ـ من الكافرين المعاندين ٢٣٠
أولاً : دفاع نوح ـ عليه السلام ـ عن نفسه ٢٣٠
ثانيًا : مصير الكافرين المعاندين من قوم نوح ٢٤٠
خلاصة ما جاء في الفصل الثاني ٢٤٩
الفصل الثالث: الصراع بين هود ـ عليه السلام ـ و قومه ٢٥١
مقدمة ٢٥٥
المبحث الأول : دعوة هود ـ عليه السلام ـ لقومه ٢٥٥
المبحث الثاني :
أولاً : موقف الكافرين المعاندين من دعوة هود ـ عليه السلام ـ ٢٦٤
ثانيًا : دفاع هود ـ عليه السلام ـ عن نفسه ٢٦٧
المبحث الثالث : موقف هود ـ عليه السلام ـ من الكافرين المعاندين ٢٧٠

أولاً: مجاهدة هود ـ عليه السلام ـ لقومه ورده لشبهاتهم ٢٧٠
ثانيًا: مصير الكافرين المعاندين من قوم عاد ٢٧٨
خلاصة ما جاء في الفصل الثالث ٢٨٦
الفصل الرابع: الصراع بين صالح ـ عليه السلام ـ وبين قومه ٢٨٩
مقدمة ٢٩٣
المبحث الأول: دعوة صالح ـ عليه السلام ـ لقومه ٢٩٥
المبحث الثاني: موقف الكافرين المعاندين من دعوة صالح ـ عليه السلام ـ ٣٠٢
المبحث الثالث: مصير الكافرين المعاندين من قوم صالح ـ عليه السلام ـ ٣١٧
خلاصة ما جاء في الفصل الرابع ٣٢٤
الفصل الخامس: الصراع بين لوط ـ عليه السلام ـ وزوجته خاصة وقومه عامة ٣٢٧
مقدمة ٣٣١
التعريف بلوط ـ عليه السلام ـ ٣٣١
صلة لوط ـ عليه السلام ـ بقومه ٣٣٥
المبحث الأول: دعوة لوط ـ عليه السلام ـ لقومه ٣٣٧
المبحث الثاني: موقف قوم لوط من دعوته ٣٤٤
المبحث الثالث: نجاة لوط وأهله ومصير الكافرين المعاندين ٣٥٠
الأبحاث الطبية الحديثة كشفت عن أضرار فاحشة اللواط ٣٦٢
خلاصة ما جاء في الفصل الخامس ٣٦٤
الفصل السادس: الصراع بين شعيب ـ عليه السلام ـ وقومه ٣٦٧
مقدمة: نبذة عن نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ ٣٧١
المبحث الأول: دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه ٣٧٤
المبحث الثاني: موقف الكافرين من دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ ٣٨٧
موقف شعيب ـ عليه السلام ـ من قومه ٣٩٠

موقف شعيب من اتهامه بالضعف ٣٩٤
المبحث الثالث : عاقبة قوم شعيب ٣٩٩
خلاصة ما جاء في الفصل السادس ٤٠٤

الفصل السابع:

القسم الأول : الصراع بين موسى - عليه السلام - وفرعون وفيه مباحث ٤٠٧
مقدمة موجزة ٤١٣
المبحث الأول : دعوة موسى - عليه السلام - لفرعون وملئه ٤١٥
المبحث الثاني : ظهور بينه موسى - عليه السلام - لفرعون وقومه ٤٢١
المبحث الثالث : موقف فرعون وملئه من دعوة موسى - عليه السلام - ٤٢٣
المبحث الرابع : شعور السحرة بأهميتهم لدى فرعون ٤٢٦
المبحث الخامس : موقف السحرة من موسى - عليه السلام - ٤٢٨
المبحث السادس : موقف موسى - عليه السلام - من السحرة ٤٣٥
المبحث السابع : موقف السحرة بعد بطلان سحرهم من معجزة موسى - عليه السلام - ٤٣٨
المبحث الثامن : تهديد فرعون للسحرة وتوعدهم ٤٤١
المبحث التاسع : موقف الملأ من موسى - عليه السلام - وقومه ٤٤٧
المبحث العاشر : وصية موسى - عليه السلام - لقومه بالاستعانة بالله ٤٥٢
المبحث الحادي عشر : تضجر بني إسرائيل من وصية موسى - عليه السلام - لهم ٤٥٥
المبحث الثاني عشر : معاقبة الله لفرعون وقومه قبل إغراقهم ٤٥٧
المبحث الثالث عشر : نبذهم العهد الذي عاهدوا به نبيهم ٤٦٦
المبحث الرابع عشر : عاقبة الصراع ونهاية فرعون وقومه ٤٧٢
المبحث الخامس عشر : منة الله - تعالى - على بني إسرائيل بتمكينهم

من أرض آبائهم أو أرض مصر ـ على ما قيل ٤٨٤
القسم الثاني: الصراع بين موسى ـ عليه السلام ـ وبني إسرائيل وفيه مباحث: ٤٩٣
المبحث الأول: جحود بني إسرائيل لنعم الله ٤٩٥
المبحث الثاني: تهيئة الله نبيه موسى ـ عليه السلام ـ لتلقي التوراة ٥٠٣
المبحث الثالث: طلب موسى ـ عليه السلام ـ من ربه الرؤية ٥١٠
المبحث الرابع: مسألة اختلاف أهل السنة والمعتزلة في وقوع رؤية الله ٥١٧
المبحث الخامس: تسلية موسى ـ عليه السلام ـ بعد أن مُنع من الرؤية ٥٢٠
المبحث السادس: تحذير بني إسرائيل بتجنب مسالك الهالكين والضالين ٥٢٥
المبحث السابع: عبادة بني إسرائيل للعجل في غيبة موسى ـ عليه السلام ـ ٥٣١
المبحث الثامن: ندم قوم موسى على عبادتهم العجل ٥٤١
المبحث التاسع: توبيخ موسى ـ عليه السلام ـ لقومه على عبادتهم العجل ٥٤٣
المبحث العاشر: لوم موسى ـ عليه السلام ـ لأخيه هارون ودفاع هارون عن نفسه ٥٥١
المبحث الحادي عشر: اعتذر موسى ـ عليه السلام ـ لربه عما بدر منه لأخيه ٥٥٤
المبحث الثاني عشر: نقمة الله ـ جل وعلا ـ على من لم يعتذر إلى ربه عن عبادة العجل وتوبته على المعتذرين ٥٥٦
المبحث الثالث عشر: حرص موسى ـ عليه السلام ـ على الألواح وشدة تعلقه بها ٥٦٢
المبحث الرابع عشر: منة الله ـ جل وعلا ـ على صلحاء بني إسرائيل ٥٦٤

المبحث الخامس عشر: ثناء الله ـ تعالى ـ على صلحاء بني إسرائيل ٥٧١
المبحث السادس عشر: نعم الله على بني إسرائيل في التيه وكفرانهم تلك النعم ٥٧٣
المبحث السابع عشر: مخالفة أخرى شنعاء من مخالفات بني إسرائيل ٥٧٨
المبحث الثامن عشر: جناية أخرى من جنايات بني إسرائيل ٥٨٥
خلاصة ما جاء في الفصل السابع ٥٩٠
الفصل الثامن: الصراع بين نبينا محمد ﷺ وقومه: ٥٩٧
تمهيد ٦٠١
المبحث الأول: دعوة النبي ﷺ لقومه ٦٠٣
المبحث الثاني: أسباب موقف الكافرين المعاندين وإنكارهم لدعوة النبي ﷺ ٦٣٤
المبحث الثالث: موقف الرسول ﷺ من الكافرين المعاندين ٦٤٣
خلاصة ما جاء في الفصل الثامن ٦٥٠
الفصل التاسع: وجه الشبه بين مواقف الكافرين والمعاندين وردهم وإنكارهم لدعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ ٦٥٣
تمهيد ٦٥٧
المبحث الأول: دعوة الرسل ـ عليم السلام ـ لأقوامهم ٦٥٩
وجه الشبه بين دعوة الرسل ٦٦٧
المبحث الثاني: مواقف الكافرين المعاندين في دعوة الرسل ـ عليهم السلام ـ ٦٦٨
وجه الشبه بين مواقف الكافرين المعاندين لدعوة الرسل ٦٨٠
المبحث الثالث: كفر كل أمة ومعصيتها ونوع العقاب الذي عوقبت به ٦٨٤
معاصي بني إسرائيل وعقاب الله لهم ٦٨٨
معصية قريش والعرب ممن حولهم ٦٩١

ردمك: ٤-٠٤-٦٢٤-٩٩٦٠